Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
BUTLER STACKS
01134436340
T3E44E
0436

DUE DATE

INTERLIBRARY LOAN - RLG

LOAN OCT 14 1987

201-6503

Printed in USA

39141

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أمراء البيان

تأليف

محمد كرد علي

الجزء الأول

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٥ — ١٩٣٧

ALBERTUS
MAGNUS
COLLEGE

893.79
K965
(2v. in 1)

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY

45-39141 December 14,1945 MLF

غرضه هذا الكتاب

قصدنا بتسويد هـذه الأوراق تصوير عشر صور حية فى الجملة لعشرة من أمراء البيان . تصدينا لوصف عصورهم فى السياسة والمدنية ، وحاولنا الإلماع إلى العوامل المهمة فى تنشئتهم وحياتهم ، وتوخينا تحليل أدبهم وعلمهم ، وعرضنا لمواضع الإجادة فيما خلفوه من كلامهم . ترجمنا لعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وعبد الله بن المقفع ، وسهل بن هرون ، وعمرو بن مسعدة ، وإبراهيم بن العباس الصولى ، وأحمد بن يوسف الكاتب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، وعمرو بن بحر الجاحظ ، وأبى حيان التوحيدى ، وابن العميد ؛ وهم العشرة المبشرة بالبلاغة فى عصر العرب الزاهر ، يوم أضحى اللسان العربى لغة حضارة وعلم ، وكان فى القرن الأول لغة دين وأدب . وعسى أن يكون من ترسم طريقتهم عون على تمثل أساليبهم فى الرشاقة والجزاله . والبيان العربى كالإسلام لايحيا إلا بالاستقاء من رؤوس عيونه الصافية .

القاهرة { ٤ ذو الحجة ١٣٥٥
١٦ فبراير ١٩٣٧

مصادر الكتاب

من كتب الرجال

تاريخ الكتاب والوزراء ، للجهشيارى (المتوفى ٣٣١ — طبع ليبسيك) ، تاريخ الوزراء لأبى هلال الصابي (٤٤٨ — بيروت) ، يتيمة الدهر للثعالبي (٤٣٠ — دمشق) ، طبقات الأدباء لياقوت (٦٢٦ — القاهرة) نزهة الألبا فى طبقات الأدبا للأنبارى (٥٧٧ — القاهرة) الأنساب للسمعاني (٥٦٢ — لندرا) ، حكماء الاسلام للبيهقى (٥٧٠ — مخطوط فى دار الكتب الظاهرية بدمشق) ، أخبار الحكماء للقفطى (٦٢٤ — ليبسيك) ، طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٦٨٨ — القاهرة) ، وفيات الأعيان لابن خلكان (٧٦١ — القاهرة) ، فوات الوفيات للصلاح الكتبي (٧٦٤ — القاهرة) ، عيون التواريخ له (مخطوط فى دار الكتب الظاهرية) ، تاريخ بغداد لابن الخطيب (٤٦٣ — القاهرة) ، تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧١ — مطبوع ومخطوط دمشق ودار الكتب الظاهرية) ، تهذيب الأسماء للنووى (٦٧٧ — أوربا) ، الأوراق للصولى (٣٣٥ — القاهرة) ، ذكر المعتزلة لأحمد بن يحيى المرتضى (٨٤٠ — حيدر آباد الدكن) ، لسان الميزان لابن حجر (٨٥٢ — حيدر آباد الدكن) ، طبقات الشافعية للسبكى (٧٣١ — القاهرة) ، بغية الوعاة للسيوطى (٩١١ — القاهرة) ، الوافى بالوفيات للصفدى (٧٦٤ — مخطوط فى دار الكتب المصرية) ، نكت الهميان له (القاهرة) ، ميزان الاعتدال للذهبي (٧٤٨ — القاهرة) ، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٣٠ — ليدن) ، رجال النجاشى (بمباى) ، طبقات الشعراء للجمحى (٢٣٢ — ليدن) .

من كتب التاريخ

تاريخ الرسل والملوك للطبرى (٣١٠ — ليدن) ، صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعيد القرطبي (ليدن) ، مروج الذهب للمسعودى (٣٤٦ — باريز) ، التنبيه والاشراف له (ليدن) ، تاريخ اليعقوبي (٢٧٨ — ليدن) ، تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى (فى نحو سنة ٣٥٠ — ليبسيك) ، تجارب الأمم لمسكويه (٤٢١ — ليدن والقاهرة) ، مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (٦٥٤ — شيكاغو) ، الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى (٢٨٢ — ليدن) ، كامل التواريخ لابن الأثير (٦٣٠ — القاهرة) تاريخ ابن خلدون (٨٠٨ — القاهرة) ، السلوك فى دول الملوك للمقريزى (٨٤٥ — القاهرة) ، النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم له (ليدن) ، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤ — القاهرة) ، دول الاسلام للذهبي (حيدر آباد الدكن) ، الفخرى لابن الطقطقى (٧٠٩ —

القاهرة) ، المختصر فى تاريخ البشر لأبى الفداء (٧٣٢ — القاهرة) ، شذرات الذهب لابن العماد (١٠٨٩ — القاهرة) ، الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (القاهرة) تاريخ الدول المنقطعة للأزدى (مخطوط فى دار الكتب المصرية) أنساب الأشراف للبلاذرى (٢٧٩ — القدس) ، المنتظم لابن الجوزى ، وجامع العبر لابن أيبك (مخطوطان فى دار الكتب المصرية) .

من كتب البلدان والرحلات والخطط

معجم البلدان لياقوت (ليبسيك) ، مناقب بغداد لابن الجوزى (٥٩٧ — بغداد) ، فتوح البلدان للبلاذرى (ليدن) ، أحسن التقاسيم للمقدسى (بعد سنة ٣٧٥ — ليدن) ، الأعلام النفيسة لابن رسته (القرن الثالث — ليدن) ، كتاب البلدان لابن الفقيه (أواخر القرن الثالث — ليدن) ، مسالك الممالك للاصطخرى (القرن الرابع — ليدن) ، محاسن أصفهان للمافروخى (القرن الخامس — طهران) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (٧٤٩ — القاهرة) ، التعريف بالمصطلح الشريف له (القاهرة) ، رحلة ابن جبير (٦١٤ — ليدن) ، خطط مصر للمقريزى (القاهرة) ، خطط الشام للمؤلف (دمشق) .

من كتب الأدب

الكامل للمبرد (٢٨٥ — ليبسيك) العقد الفريد لابن عبد ربه (٣٢٨ — القاهرة) الموشح للمرزبانى (٣٨٤ — القاهرة) اختيار المنظوم والمنثور لطيفور (٢٨٠ — مخطوط فى دار الكتب المصرية) ، كتاب بغداد له (ليبسيك) ، إعجاز القرآن للباقلانى (٤٠٣ — القاهرة) ، كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى (فى حدود الأربعمائة — استانبول) ، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى (٤٧١ — القاهرة) عيون الأخبار لابن قتيبة (٢٧٠ — القاهرة وستراسبورج) ، زهر الآداب للحصرى (٤٥٣ — القاهرة) ، جمع الجواهر فى الملح والنوادر له (القاهرة) ، نهاية الأرب للنويرى (٧٣٣ — القاهرة) ، نشوار المحاضرة للتنوخى (٣٨٤ — القاهرة) ، الفرج بعد الشدة له (القاهرة) ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٦٥٦ — القاهرة) ، صبح الأعشى للقلقشندى (٨٢١ — القاهرة) ، خزانة الأدب للبغدادى (١٠٩٣ — القاهرة) ، أمالى السيد المرتضى (٤٣٦ — القاهرة) ، أمالى ابن الشجرى (٥٤٢ — القاهرة) ، سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى (٤٦٦ — القاهرة) ، قانون البلاغة لابن حيدر البغدادى (٥١٧ — مطبوع ومخطوط فى دار الكتب الظاهرية) ، العمدة لابن رشيق (٤٦٣ — القاهرة) ، المثل السائر لابن الأثير (٦٣٧ — القاهرة) ، الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبى الحديد (طهران) ، المحاسن والمساوى للبيهقى (٣٢٠ — جيسين) ، نقد النثر المنسوب لقدامة (٣٢٠ — القاهرة) ، نقد الشعر لقدامة (استانبول) ، البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٥ — القاهرة) ، رسائل الجاحظ ومنها

البخلاء والمحاسن والأضداد ، وفصول مختارة منه لعبيد الله بن حسان وغيرها تربو على عشرين رسالة (طبع ليدن والقاهرة وحلب وبغداد ودمشق) ، ومنها كتاب التاج المنسوب للجاحظ (القاهرة) ، كليلة ودمنة لابن المقفع (١٤٣ — بيروت) ، الدرة اليتيمة له (بيروت) لباب الآداب لابن منقذ (٥٨٤ — القاهرة) ، الظرف والظرفاء للوشاء (٣٢٥ — ليدن) طراز المجالس للخفاجي (١٠٦٩ — القاهرة) ، بدائع البدائه لابن ظافر (٦٢٣ — القاهرة) ، ديوان محمد بن عبد الملك الزيات (مخطوط فى دار الكتب المصرية) ، ديوان الحماسة لأبي تمام (٢٢٨ — القاهرة) ، ديوان أبى تمام (بيروت) ، ديوان المتنبي (٣٥٤ — القاهرة) ، ديوان البحترى (٢٨٤ — استانبول) ، حماسة الخالديين (القرن الرابع — مخطوط فى دار الكتب المصرية) ، نفح الطيب للمقرى (١٠٤١ — القاهرة) ، المضاف والمنسوب للثعالبي وكذلك من غاب عنه المطرب وخاص الخاص والمعارف ولطائف المعارف ونثر النظم وحل العقد والكناية والتعريض والمنتحل وسحر البلاغة وثلاث رسائل وأربع رسائل وخمس رسائل (طبع ليدن والاسكندرية والقاهرة ودمشق واستانبول) ، الفوائد والقلائد ومرآة المروآت والشكوى والعتاب للثعالبي (وهى مخطوطة فى دار الكتب المصرية) ، الأغاني لأبى الفرج الأصفهانى (٣٥٦ — القاهرة) ، المختار من شعر بشار للخالديين (القاهرة) ، المؤتلف والمختلف للآمدى (٣٧٠ — القاهرة) ، الصديق والصداقة لأبى حيان التوحيدى (بعد الأربعمائة — استانبول) ، البصائر والذخائر له (مخطوطة فى دار الكتب المصرية) ، التصحيف والتحريف لأبى أحمد العسكرى (٣٨٢ — القاهرة) ، ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى (القاهرة) رسائل الخوارزمى (٣٨٣ — استانبول) ، رسائل الهمذانى (٣٩٨ — بيروت) ، رسائل البلغاء للمؤلف (القاهرة) ، سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة (٧٦٨ — القاهرة) ، شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون (القرن السادس — ليدن) ، شرح ديوان خطب ابن نباتة لطاهر الجزائرى (١٣٣٨ — بيروت) شرح مقامات الحريرى للشريشى (٦١٩ — القاهرة) ، طوق الحمامة لابن حزم (٤٥٦ — ليدن) ، محاضرات الراغب (٥٠٢ — القاهرة) ، رسالة الغفران للمعرى (٤٤٩ — القاهرة) رسالة ابن القارح (فى رسائل البلغاء — القاهرة) رسائل المعرى (أكسفورد — بيروت) .

من كتب العلوم المختلفة

تقييد العلم للخطيب البغدادى (مخطوط فى دار الكتب الظاهرية) ، إحصاء العلوم للفارابى (٣٣٩ — القاهرة) ، مفاتيح العلوم للخوارزمى (٣٨٧ — ليدن) ، طبقات الأمم لصاعد (٤٦٢ — بيروت) ، المزهر للسيوطى (القاهرة) ، المشتبه فى أسماء الرجال للذهبي (ليدن) ، الإشارات الإلهية لأبى حيان التوحيدى (مخطوط فى دار الكتب الظاهرية) ، المقابسات له (القاهرة) ، الوساطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز (٣٦٦ — صيدا)

هبة الأيام للبديعى (القاهرة) ، تذكرة ابن حمدون (٥٤٦ — القاهرة) ، التذكرة الحمدونية (مخطوطة فى استانبول) ، الدين والدولة لعلى بن ربن (٢٤٧ — القاهرة) ، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٤٦٣ — القاهرة) الانتصار للخياط (القاهرة) ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبى الحسن الأشعرى (٣٢٤ — استانبول) ، الملل والنحل للشهرستانى (٥٤٨ — القاهرة) ، الفصل فى الملل والنحل لابن حزم (القاهرة) ، الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى (٤٢٩ — القاهرة) ، الآثار الباقية للبيرونى (٤٤٠ — ألمانيا) ، الفهرست لابن النديم (٣٨٥ — ليبسيك) ، كشف الظنون لكاتب چلبى (١٠٦٧ — القاهرة) ، معجم المطبوعات العربية المعربة لسركيس (القاهرة) ، كتاب الأموال للقاسم بن سلام (٢٢٤ — القاهرة) ، المعارف لابن قتيبة وأدب الكاتب له (ليدن) ، معالم الكتابة لابن شيث القرشى (القرن السادس — بيروت) أساس البلاغة للزمخشرى (٥٣٨ — القاهرة) ، لسان العرب لابن منظور (٧١١ — القاهرة) ، القاموس المحيط للفيروزابادى (٨١٧ — القاهرة) ، تاج العروس للزبيدى (١٢٠٥ — القاهرة) ، معجم ما استعجم للبكرى (٤٨٧ — غوتنغن) ، الإسلام والحضارة العربية للمؤلف (القاهرة) ، القديم والحديث للمؤلف أيضاً (القاهرة) ، الأزمنة والأمكنة للمرزوقى (القرن الخامس — حيدر آباد الدكن) ، أدب الكتاب للصولى (القاهرة) ، الملاحن لابن دريد (٣٢١ — القاهرة) ، تلبيس إبليس لابن الجوزى (٥٩٧ — القاهرة) ، مقدمة ابن الصلاح (٦٤٣ — حلب) ، الحيوان للجاحظ (القاهرة) ، التيسير والاعتبار للأسدى (القرن العاشر — مخطوط فى دار الكتب الظاهرية) ، مجلة المقتبس (القاهرة ودمشق) ، مجلة المجمع العلمى العربى (دمشق) .

الكتب الفرنسية

معلمة الإسلام — Encyclopédie de l'Islam

فن النثر للانسون — G. Lanson : L'art de la prose

تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها لبتى دى جوليفيل

Petit de Juleville : Histoire de la langue et de la littérature française.

سبع باكورات لاميرسون — Emerson : Sept essais

البيان العربى

عهد الجاهلية :

تنافس العرب أيام الجاهلية فى نظم القصيد والرجز وفى الخطب المنثورة ، ورويت عنهم أمثال وأحاديث ؛ وكان ما يفيض من قرائح شعرائها وخطبائها فى المفاخرات والمنافرات والحمالات والمهادنات من دواعى الإعجاب والاغتباط .

وما كان لكل عربى أن ينفتق لسانه بقول الجيد من الشعر أو النثر ، فقد يأتى الجيل والجيلان ، والقبيلة العظيمة لا يظهر فيها شاعر أو خطيب يعلى صوتها وصيتها ، ويعدّد من عام إلى عام مآثرها ، ويرفع بما يبتده الضيم عن أهلها ، ويُرهب بسلطان بلاغته عدوّها ؛ وكان الشاعر عندهم يُفَضَّل على الخطيب ، فلما اتخذ الشعراء شعرهم آلة للتكسب ، وابتذلوه فى المديح والهجاء ، عادت منزلة الخطيب على منزلة الشاعر .

ولقد حفظ من الشعر بعضه لطربهم به ، وعجبهم بالعالى منه ، ولأنه دوّن مفاخرهم وخلد تاريخهم ، وباد النثر على وفرته ، إلا صفحات قليلة لو أنعمنا النظر فى بعضها ، لما أحجمنا عن القول بأنها واهية الإسناد ، ظاهرة التصنيع ؛ ومنها أمثلة فى أُمهات كتب الأدب لا تروقك ولا تشوقك ؛ والغالب أن ما عُزى لعهد الجاهلية من المنثور كان مما أخذ بالمعنى كما نُقل معظم الأحاديث النبوية . يقول الرّقاشى ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يُحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره . وقال

أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير .

ضاع تراث الجاهلية فى النثر لفقدان التدوين ، ولغلبة الأمية على العرب ، وما رواه الرواة كان من محفوظ الرجال ، والحفظ عرضة للنقص والزيادة . وجاء الإسلام وليس فى قريش غيرُ سبعة عشر رجلا و بضع نساء يكتبون و يقرأون ، وقريش سادة العرب وأنبه قبيلة فيهم ، وأكثرهم حضارة وتمازجا بالشعوب المجاورة . أما سائر بلاد العرب كاليمن فلم يُعرف فيها من يكتب .

شاعت الكتابة فى الحيرة أكثر من غيرها من البلاد المتاخمة لجزيرة العرب ، و يعلل المرزبانى ذلك بأن أهل القرى ألطف نظراً من أهل البداوة ، وانهم كانوا يكتبون لمجاورتهم أهل الكتاب ، فأخذت قريش الكتابة عن إياد فى الحيرة ؛ ولما كان أهل القرى أكثر استعداداً للحضارة ظهر الأنبياء فيهم ، وما جاء رسول من أهل الوبر .

كتب عدة كتاب من أهل الحيرة فى ديوان الأكاسرة ، ومنهم عدىُّ ابن زيد وزيد بن عدى ولقيط بن يعمر الإيادى ؛ وكان أكثم بن صيفى حكيم العرب يكاتب الملوك ، ولأبناء جَفنة فى البلقاء كتاب يكتبون عنهم فى خاص أمورهم وعامهم ، وكان المرقِّش كاتب الحرث بن شمر الغسانى ، و بذلك تبين أن الإياديين سبقوا إلى الكتابة ، وما جاء خبر أكيد عن الغسانيين الذين جاوروا الروم فى جنوب الشام وتصرفوا لهم .

ما علا شأن قريش فى الكتابة إلا فى الإسلام ، ولا يعلم إذا كانت تراسل الملوك ، إذ لم يكن لها نظام دولة ثابت ، وكانوا إذا رأوا كتباً كتبها أهل الكتاب استعظموها ؛ وعثروا فى الإسلام على رسالة بخط عبد المطلب بن هاشم

فى قطعة أَدَم وذلك فى إثبات حق له على رجل من العرب .

و إذ كانت الخطب والرسائل فى ذاك العهد قاصرة الأغراض ، وصادرة عن أناس على الفطرة ، ليس لهم من المدنية مادة تدعوهم إلى الفلسفة والتوسع فى الفكر ، تجردت كتابتهم من كل صنعة وفن ، و يقول الجاحظ : إنه لم يجد فى خطب السلف الطيب ، والأعراب الأقحاح ألفاظاً مسخوطة ، ولا معانى مدخولة ، ولا طبعاً رديئاً ، ولا قولا مستكرهاً ؛ وأكثر ما وجد من ذلك فى خطب المولدين البلديين المتكلفين ، ومن أهل الصنعة المتأدبين ، سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب ، أو كان من نتائج التخير والتفكير .

عهد الإسلام :

والمعقول أن أسلوب الجاهليين فى الكلام المنثور لا يختلف عن الأسلوب المتبع فى الرسائل والخطب أول الإسلام ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خاطب قومه بالطريقة التى يفهمونها ، وتقع من نفوسهم الموقع الحسن . وما قَدَرَت العرب بلاغته حق قدرها إلا لأن بلاغتهم ضرب من بلاغته ، والبليغ يدرك من هو أبلغ منه . وفى كتب النبى إلى عماله ، و إلى رؤساء القبائل ، و إلى الأمراء والملوك ؛ ومنها ما أملاه بنفسه أو كتبه له كتابه فأقرّهم عليه ، مثال من بلاغة الأقدمين من العرب ؛ وقد رأيناه « صلوات الله عليه » ينكر على من يسجعون الكلام ، و ينهى عن السجع على نحو سجع الكهان ، وكانوا يسجعون للإغراب والتأثير والزينة .

كان الرسول يتوخى إذا كتب لغير العرب ، أن يوجز القول ، و يقلّ من اللفظ الذى لا يتفهمه كل إنسان ، حتى يسهل نقل كلامه إلى ألسن من كتب

إليهم من غير العرب ، كما كان إذا خاطب قبائل من غير قريش أو كاتبهم يستعمل ألفاظاً مألوفة لهم لا يعرفها القرشيون ، ذلك لأن مقصده الإفهام ، والبليغ من الكلام ما فُهم وأبقى فى النفس أثراً .

أوتى الرسول جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارا ، وكلامه جزل رشيق ، لا تعمّل فيه ولا غموض ، وروى عنه أنه قال : « أبغضكم إلىّ الثرثارون المتشدقون » يريد أهل الإكثار وأصحاب التقعير فى الكلام . والتقعير التكلم بأقصى الفم ، والتشدق تكلف البلاغة . نعم كان نزوراً يذم المكثار ، ويترسل فى القول ، ويكره الانبعاق فى الكلام أى الاندفاع فيه . وقال : نضرّ الله وجه رجل أوجز فى كلامه ، واقتصر على حاجته . فأصْلح الرسول العربى لغة التخاطب والتكاتب ، كما جاء لإصلاح المعاد والمعاش . وكذلك يقال فى بلاغة الصحابة ومن أخذوا عن الرسول ، وكذلك يقال فيمن أخذ عن الصحابة من التابعين وتابعيهم والخلفاء والأمراء ، يمتاز أفراد منهم بالبلاغة كما يتمايزون برجحان العقل .

وكتب الناس إلى أواخر القرن الأول على النمط الذى عرفوه عن الرسول ، آخذين بالطبع ، بعيدين عن الإطناب . ومن ذلك أمثلة كثيرة فى كتب التاريخ والسير ، ومن أهمها رسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ، وقد كتبت على أسلوب عصرها ، لا تعمل فيها ولا سجع ولا مزاوجة ، لفظها على قدر معناها .

ما عدا أسلوب الكتب ، أسلوب الرسائل والخطب . بيد أن تدوين الكتب تأخر قليلا ، ومن أول ما دون ما كتبه صاحب الرسالة لعمرو بن حزم وغيره فى الصدقات والديات والفرائض والسنن ، وما كان يكتبه عمر من الحديث ، وقد أمره الرسول بتقييد العلم ، وأشار إليه أن يكتب خطبته فى عام الفتح إلى

أبى شاه ، وكان وائلة بن الأسقع يملى على الناس الأحاديث وهم يكتبونها بين يديه . وألف زيد بن ثابت كتاباً فى الفرائض ، وألف كتاب فى قضاء على فى عهد ابن عباس . وأمر معاوية أن يدون ما يتحدث به إليه عَبيد بن شَرْيَة من أخبار عاد وثمود وجُرهم . وكان عبيد من القدماء فى الحكمة والخطابة مثل أسقف نجران وأكيدر صاحب دومة الجندل . كل أولئك كان الأساس الأول الذى قام عليه التأليف فى القرن الثانى ، بالرواية وذكر السند ، ولم يصل إلينا من خطب القوم ومحاوراتهم ورسائلهم إلا مالا بال له .

أسلوب القرآن :

أما أسلوب القرآن فهو فوق كل أسلوب ، وأسمى من كل كلام . لم يعهد العرب مثله فى نظام القول وترتيبه ، وما استطاعت ، على كثرة فصحائها فى دهر نزوله ، أن تحتذى مثاله فى أسلوبه وأداء معانيه ، وقد أريدوا على ذلك وتُحدوا عليه . والقرآن حسَّن ملكة الكتابة والخطابة ، كما كان كذلك تأثيره فى الشعراء ، فجاء الشعر الإسلامى أرق من الشعر الجاهلى .

ولقد قال بعض العارفين إن فى القرآن المرسل والمسجع والمزدوج . والمرسل ما يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء ، بل يرسل إرسالا من غير تقيد بقافية ولا غيرها . والمسجع ما أتى قطعاً والتزمت فى كل قافيتين منه قافية واحدة . والمزدوج أن يشبه الكلام بعضه بعضاً فى السجع أو الوزن . وقالوا إنه لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج .

يقول ابن خلدون إن القرآن و إن كان من المنثور ، إلا أنه خارج عن

الوصفين ، وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً ، بل تفصيل آياته ينتهى إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام فى الآية الأخرى بعدها ، ويثنى من غير التزام حرف لا يكون سجعاً ولا قافية ، ويسمى آخر الآيات فواصل ، إذ ليست أسجاعاً ، ولا التزم فيها ما يلتزم فى السجع ولا هى قواف .

وذهب المعتزلة إلى نفى السجع من القرآن . وقال الباقلانى : إن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً المعنى . وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ؛ ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ؛ ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع ، كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى . وقال أيضاً : ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال هو سجع معجز ، لجاز لهم أن يقولوا شعر معجز ؛ كيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوات وليس كذلك الشعر .

وسواء كان القرآن سجعاً أو ما يشبه السجع فهو من الكلام المنثور الذى لا تبلغ قرائح البلغاء مداه ، ما عرف شبيه له بهذه الرَّوعة وهذه العُبْقَة . يقول الجاحظ : لو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه ، ولو استعان بجميع قحطان ومعدّ بن عدنان ، وقال أيضاً : ولو أن رجلاً قرأ على رجل من

خطبائهم و بلغائهم سورة واحدة لتبيّن له فى نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدّى به أبلغ العرب لأظهر عجزه عنه لغا ولفظاً .

الأسلوب الأول:

احتفظت الكتابة والخطابة فى عصر الصحابة ومن بعدهم بالطريقة التى ما حذقوا غيرها ، وهى تدور على توفية المعنى واللفظ حقهما ، مع البعد عن الإطناب والمبالغة ، والقصد إلى الإيجاز والسهولة ، يرسلون الكلام إرسالاً بلفظ سمح ، ومخرج سهل ، إملاآتهم كأحاديثهم ابنة السليقة وربيبة الغريزة ، خالية من كل ما هو متكلَّف مصنّع . « بكلمات مؤلفات ، إن فسرت بغيرها عُطّلت ، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سُمعت ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلبت » ، وكانوا يقولون : البلاغة هى التقرب من البعيد ، والتباعد من الكلفة ، والدلالة بقليل على كثير ، وقالوا : البلاغة إيجاز فى غير عجز ، و إطناب فى غير خطل ، و إن البلاغة إجاعة اللفظ و إشباع المعنى . وقال على بن أبى طالب : ما رأيت بليغاً قط إلا وله فى القول إيجاز ، وفى المعانى إطالة ، وقيل لعمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ليسمع منها . قيل : فهل كانت توجز ؟ قال : نعم ليحفظ عنها .

لاجرم أن الإيجاز من طبع العرب وطبيعة لغتهم ، وتخير الألفاظ من شأن كل بليغ . والعرب كما قال ابن جنى تعنى بألفاظها وتصلحها وتهذبها وتلاحظ أحكامها . قال فإن المعانى أقوى عندها وأكرم عليها ، وأفخم قدراً فى نفوسها ؛ فأول ذلك عنايتها بألفاظها . فإنها لما كانت عنوان معانيها ، وطريقاً إلى إظهار

أغراضها ومراميها . أصلحوها وبالغوا فى تجييدها وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها فى السمع ، وأذهب فى الدلالة على القصد . وللمتأخرين آراء كثيرة فى هذا الشأن ، ومنها ما قاله الجرجانى : « لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك من معناه إلى قلبك ، وقولهم يدخل الأُذن بلا إذن . فهذا مما لا يشك العاقل فى أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى ، وأنه لا يتصور أن يُراد به دلالة اللفظ على معناه الذى وضع له فى اللغة » .

كانوا يكتبون الرسالة فى المقصد الكبير ، ويضعون الخطاب فى أعظم المعضلات . فى إيجاز لا فضول فيه ، عار عن المقدمات والتزويق ، يقيمون لكل لفظ معناه ، ولكل معنى لفظه ، وجودة اللفظ تبع لجودة المعنى : « وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة ، وعلى طريق الخطباء مشت الكتاب » . ذلك لأن « الرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل . فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتّاب فى السهولة والعذوبة ، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل ، والفرق بينهما أن الخطبة يُشافه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة ، فى أيسر كلفة » . قال ذلك العسكرى ، وذكر غيره أن الخطابة نوع من منثور الكلام ، تأخذ من النثر تصوير الحقائق وإبلاغها النفوس من دون إتعاب ذهن ، ولا تكلف فى الأداء ، ومن النظم سلاسته ، وتأثيره فى النفس .

تبدل الأسلوب :

عرضت بواعث كثيرة لأولى الأمر من العرب بكثرة الفتوح ، وانتشار الإسلام ، وتمازج الفاتحين بأجناس من الأمم ، فاحتيج إلى التعاهد والتعاقد ، والتدريب والترتيب ، والمرادات والمشادات ، ودعت الحال إلى أن يخطب ويكتب فى ضروب من الكلام ، وما خرج الكاتبون مع هـذا عن معهود طريقتهم ، لا يتعدون إذا أطالوا فى رسائلهم الأسلوب القديم بحال ؛ يتوسعون فى المعانى للإقناع والتأثير ، واستيفاء الموضوع من عامة أطرافه ، ويبقون الألفاظ والتراكيب على النسج الذى عرفوه ، لا يكثرون من اللفظ إلا بقدر ما يصورون المعانى ، ويجمعون شتيت المقاصد ، ولا يستخدمون من الكلمات إلا الشائعة فى الاستعمال ، ولا من المعانى ما يعلو عن أذهان عامة الطبقات ، ولا من السجع إلا ما وافق الطبع .

وزادت مع الزمن أعمال الملك والسلطان ، وحدثتْ للناس مشاكل وعُضل ، وخيف ضياع العلم ، فدعت الضرورة إلى تدوين أمهات المسائل فى الدين واللغة والشعر والأخبار والسير ، والكتابة لم تبرح على ما كانت ، يتبسطون فى الفكر والشرح ، ويبعدون عن التزيد والتزيين ، ويراعون الإيجاز ما أمكن ، ويحتفظون أبداً بالطريقة المأثورة عن أهـل الصدر الأول ؛ فكان التوسع فى الأغراض والمطالب فقط ، وما خرجوا عن الألفاظ والقوالب المشهورة . وفى كلام التابعين ، ومن جاء بعد عصرهم من رواة العلم ، جمل قليلة تقرأوها فى كتب التفسير والسنة والتاريخ والرجال ، فتناديك بأن الطريقة القديمة فى أداء الكلام لم يدخلها تغيير ولا تبديل .

جاء من الأمويين كتاب بلغاء ، وخطباء أبيناء ، جروا فى ترتيب دولتهم

على سنة من تقدمهم فى الرسائل والعهود . وفى الموجزات من رسائل عمر بن عبد العزيز مثال من البلاغة ، لولا أن اختلط كلامه بما كتبه له كتابه ، وكان يكتب بيده إلى عماله فى الأمصار ويكتب كتابه فى المسائل العادية . كان من بلغاء الكتاب ومصاقع الخطباء ، ولما بويع بالخلافة دعا إليه كاتباً فأملى كتابا واحداً من فيه إلى يد الكاتب بغير نسخة ، فأملى أحسن إملاء وأبلغه وأوجزه ، ثم أمر بذلك الكتاب فنسخ إلى كل بلد . وكتب إلى عامله على المدينة ، وقد سأله قراطيس : « دقق القلم وأوجز الكتاب فإنه أسرع للفهم . »

جرى بعض خلفاء الأمويين على نهج عمر بن عبد العزيز فى الإيجاز وبعضهم على التطويل ؛ وقيل إن الوليد أول من جود القراطيس ، وجلل الخطوط ، وفخم المكاتبات ، وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد ، فإنهما جريا فى المكاتبات على طريقة السلف ، ثم جرى الأمر بعدهما على ما سنه الوليد بن عبد الملك ، إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد فعمدوا إلى الإطناب . ولنا أن نقول بعد هذا إن القرن الأول كان قرن الإيجاز والفطرة ؛ والقرن الثانى قرن التطويل والإيجاز معاً ؛ والناس يتخرجون فى البيان تخرجا ، ويجوّد من أوتى طبعاً سليما ، ولكل زمان ما يليق به من البيان كما قالوا .

الأعاجم والعربية :

كان أخوف ما يخافه العرب على اللغة سراية اللحن إليها ، وما أهمهم ما دخل من التطويل على الرسائل والخطب ، وما سرى من تغيير طفيف إلى نسج الكلام ، كالإكثار من السجع والازدواج . والغالب أن اللحن أخذ يشيع

فى الناس منذ عهد الرسول . فقد روى أنه سمع رجلا يلحن فى كلامه فقال : « ارشدوا أخاكم فإنه ضل » ، ورووا أيضاً أن أحد ولاة عمر كتب إليه كتاباً لحن فيه ، فكتب إليه عمر أن قَنِّع كاتبك سوطاً . وعلة الامتناع من الأخذ عن أهل المدر كما أُخذ عن أهل الوبر ما « شاع فى لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها » .

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك كان لحاناً ، وكان عبد الملك فصيحاً ، وعرف بلحن ابنه ، فقال له : إنك يا بنى لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن . وجعله فى بيت وجعل معه من يعلمه الإعراب . وإذا لم يكن للخليفة أو الأمير حظ من العربية ، وقسط جزيل من البلاغة ، فكيف يخطب فى أيام الجمع والأعياد ، وفى النوازل الكارثة .

سأل الحجاج ، وهو من أبلغ الخطباء ، يحيى بن يَعْمر هل يلحن عنبسة ابن سعيد ؟ قال : نعم ، كثيراً . قال : فأخبرنى عنى ، هل أَلحن ؟ قال : لا ، أنت أفصح الناس . قال : لتخبرنى ، قال : إنك تلحن لحناً خفيفاً ، تزيد حرفاً أو تنقص حرفاً ، وتجعل إن فى موضع أن . ويقال إن الحجاج قال له : عزمت عليك لتخبرنى (عن نفسه) ، وكانوا يعظمون عزائم الأمراء . فقال يحيى : نعم فى كتاب الله ، قال : ذاك أشنع ، فنى أى شىء فى كتاب الله ؟ قال : قرأت : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أَحَبَّ إليكم من الله ورسوله) فترفع أحبَّ وهو منصوب . قال : إذاً لا تسمعنى ألحن بعدها ، ونفاه إلى خراسان ، وما احتمل له قوله إنه قد يلحن ، وعدَّ ذلك سُبَّة على مثله .

وطبيعى أن يزيد اللحن بدخول الأعاجم فى الدين وتمازجهم بالعرب ،

وأن تضعف ملكة البلاغة فى القول والكتابة ، بتكاثر كتاب الدولة الأموية وعمالهم من أبناء الروم والفرس والقبط والبربر ، ولا سبيل إلى أن يكون الدخيل كالأصيل حذو القُذّة بالقُذّة ، فى منازع التصوير والتفكير والتحبير .

و إذا عرفنا أن اختلاط العرب بالفرس بدأ من عهد الأكاسرة عن طريق الحيرة ، حتى أن بهرام جور بن يزدجرد وضعه أبوه عند النعمان بن المنذر ملك الحيرة ليتأدب بآداب العرب ، و يعرف أيامها وأخبارها ، وأن الحضارة باكرت الحيرة كما باكرت جنوب الشام ، وأن شعراء الجزيرة كانوا يفدون على المناذرة والغساسنة فيلقون صدوراً رحبة ، و يتقبل أمراء ذينك الإقليمين أماديح شعراء العرب بقبول حسن — إذا عرفنا هذا فلا علينا أن نقول إن صلات العرب والفرس استحكمت قبل البعثة بزمن طويل ، وكثرت فى الفتح وفود الشعراء على بعض أمراء العرب من الفاتحين فى فارس ، واقتضى نصب كتاب يكتبون لهم فى أغراضهم المختلفة .

وَقَرَ فى صدور الشعراء والكتاب من العرب ما رأوه فى أرض فارس من مدنية قديمة ، فأخذوا ينقلون ما رأوا أمتهم فى حاجة إليه ، وأخذت الدولة العربية عن فارس « قوانين الملك والمملكة ، وترتيب الخاصة والعامة ، وسياسة الرعية » ، وكانت « أكثر المعربات مأخوذة من الفارسية » . ولما نقلت الدواوين على عهد عبد الملك بن مروان من الفارسية والرومية والقبطية إلى اللغة العربية انتقل جمهور كبير من الكتاب والحساب من الأعاجم إلى حجر العرب يكثّرون سوادهم .

ولما كان معظم من دانوا بالإسلام من الفرس لأول الأمر أكثر من الروم والقبط — والفرس مجوس تُقصد كالمشركين هدايتهم أولاً و يتسامح مع أهل

الكتاب — كثر عديد الكتاب من الفرس بالضرورة ، وزاد عدد من ينزلون بلادهم من العرب ، لتولى الأحكام و إدارة الملك ، وسرت إليهم بعض عادات الفرس من حيث لا يشعرون ، وأمسوا يغرقون فى التبجيل والتحميد ، و يستعملون ذلك فى الرسائل والخطب ، وظلت كتابة الكتب بمعزل . و بهذا تكوّن الأسلوب الفارسى . وكان عبد الملك بن مروان كثيراً ما يقول : إن رَوْح بن زِنباع ، وهو من المشهورين بالخطابة والعلم والسياسة : « شامى الطاعة ، عراقى الخط ، حجازى الفقه ، فارسى الكتابة » .

وتجلت فى القرن الثانى الطريقة الفارسية فى العربية ، ووضع عبد الحميد بن يحيى أساس هذا الأسلوب المطوّل ، وكان يحسن الفارسية ، وهو أول من أطال الرسائل ، ولم يعهد تطويل مثل تطويله فى أهل القرن الأول ، اللهم إلا ما كان من رسالة على بن أبى طالب إلى الأشتر النخعى ، وهى فى مطالب إدارية عظيمة ، هذا إذا صحت نسبتها إلى أمير المؤمنين . فأسلوب القرن الثانى لم يخرج والحالة هذه عن أسلوب أهل القرن الذى تقدمه بألفاظه وتراكيبه ، اللهم إلا ما كان من سجع قليل ، وشىء من مبالغة وتهويل ، ولولا الإطالة لأشبهت كتابة أهل القرن الثانى كتابة أهل القرن الأول . دع ما كان من أفكار جديدة سرت بالترجمة والاختلاط ، مما هو طبيعى فى اللغات والأمم .

وتعليل هذا الغلو المستفيض فى كتابة الفرس ، وكتابة من تأثروا بآثارهم من كتاب العرب ، أن الفرس كانوا قبل حكم العرب يؤلهون ساداتهم وكبراءهم وهؤلاء يسخرونهم كما يسخرون العبيد ، وما على العبد إلا إرضاء سيده ، والادهان له . والإسلام لم ينزع كل ما تأصل فى الطباع . وصار إيغال الفرس فى التبجيل والتعظيم خلقاً لهم ، وعادة متأصلة على الأيام ، فظهر أثر ذلك فى

الكتابة — والكتابة مرآة صاحبها — على مالم يعهد مثله للعرب فيما سبق من الآباد . بدا ذلك قليلا فى بعض كتاب القرن الثانى وشعرائه ، وعمّ وطمّ فى القرن الرابع .

ومن قارن بين ما كان يصدر من الرسائل عن الصحابة وخلفاء بنى أمية وأوائل بنى العباس ، وما كان يصدر فى مثل موضوعها عن كتاب العباسيين فى القرن الرابع يقع على فروق ، يسوغ لك أن تقول معها إن الكتابة انقلبت رأساً على عقب ؛ و إن بعض ما دبجه الكاتبون هذا القرن فى السلطانيات خاصة والاخوانيات عامة ليس إلا أسلوبا فارسيا مهذبا : ألفاظ كثيرة ، وجناسات واستعارات ، تشفُّ فى الواقع عن حضارة ، وما هى إلا نثر فيه الصنعة وفيه التصنع . والمدنية على جمالها لا تخلو فى كل عصر من تعقيد ؛ وقد سبقت الكتابة فى هذا الباب فتبدل المطبوع بالمصنوع أو كاد .

جرى بعض الخلفاء الأول من بنى العباس فى الشرق و بنى أمية فى الغرب خلال القرن الثانى على طريقة أهل القرن الأول ، يطيلون تارة و يجيزون أخرى ، وكذلك ساروا فى الرسائل والخطب ؛ ويزيد التمسك بالقديم إذا كان الخليفة كاتباً بليغاً وخطيباً مصقعاً فى ذاته ، كالمنصور والرشيد والمأمون ، وكانوا يعرفون للبلاغة قدرها ، و يحملون كتابهم على الإيجاز ، مراعاة لروح اللغة ، واقتداء بسيرة أئمتها ، وحرصاً على أن لا يصدر عن دواوينهم ما تنبو عنه الأذواق ، و يغنى قليله عن كثيره .

الأسلوب المنثور :

رأى الناس بعد القرن الثانى أن من المصلحة الإسهاب فى المكاتبات

فأسهبوا ، وبدأ إسهابهم ضئيلا ثم عظم بعد . وقد أبان ابن قتيبة سبب الإسهاب والاقتضاب بقوله : وليس يجوز لمن قام مقاما فى تحضيض على حرب ، أو حمالة بدم ، أو صلح بين العشائر ، أن يقلل الكلام ويختصره ، ولا لمن كتب إلى عامة كتابا ، فى فتح أو استصلاح أن يوجز ، ولو كتب كاتب إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه تلكؤه فى بيعته : « أما بعد فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فاعتمد على أيهما شئت والسلام » ، لم يعمل هذا الكلام فى أنفسها عمله فى نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ، ويعيد ويبدى ويحذر وينذر .

ومثل هذا رأى صاحب الصناعتين قال : « إن المعانى التى تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهى سبيلها أن تؤكد غاية التأكيد ، بجهة كيفية نظم الكلام لا بجهة كثرة اللفظ ؛ ومثل ذلك ما يكتب من السلطان فى أمر الأموال وجبايتها واستخراجها ، ومنها الإحماد والإذمام ، والثناء والتقريظ ، والذم والاستصغار ، والعذل والتوبيخ ، فإن سبيل ذلك أن تشبع الكلام فيه ، وكذلك فيما يكتبه العمال إلى الأمراء فمن فوقهم ، وكذلك فى الكتب الصادرة عن السلاطين فى الأمور الجسيمة ، والفتوح الجليلة ، وتفخيم النعم الحادثة ، والترغيب فى الطاعة ، والنهى عن المعصية ، سبيلها أن تكون مشبعة فتملأ الصدور ، وتأخذ بمجامع القلوب » .

وجملة الأمر أن الكتاب فى القرن الثانى والثالث جروا على سنة القدماء فى الرشاقة والجزالة ، وخالفوهم فى الأسلوب والوضع ، على ما لا يعبث بمذاهب الكلام ؛ فكان فيهم من يطيل ويسهب ، وفيهم من يوجز ويقتضب ، وفيهم من يبالغ فى المعنى ويغلو ، وفيهم من يقتصد فى اللفظ ولا يسرف ؛ فأسلوب

ابن المقفع ، وسهـل بن هرون ، وعمرو بن مسعدة ، والجاحظ ، إيجاز وتطويل بحسب الحال ، والجاحظ إلى البسط أقرب فى الأحايين ، لأنه يقرر أنظاراً ، ويضع تعاليم ، ويفسر علماً وأدبا ، ويشرح معارف وحقائق ، ويحاج ويجادل ، فليس له غنىً عن التوسع فى فنون الكلام ، وإذا أفاض فكلامه كلام أهل القرن الثانى والثالث ؛ أما بلاغته فبلاغة أهل القرن الأول ، لا سجع فى كلامه إلا ما جاء عفواً ، ولا تحس الصنعة فيه إلا إذا كان فى تجديد المعانى والتراكيب ، واستعمال الجزل من الألفاظ .

ونحن على حق إذا ادعينا ، بعد الذى قدمنا ، أن ملكة التطويل استحكمت أواخر القرن الثانى ، بتكاثر عدد من نشأ من الفرس كتابا وخطباء ومؤلفين ، أدمجوا فيما أنشأوا إسرافهم فى التعظيم والتطويل ، واشتد تمازج من كانوا من أصل عربى من الكتاب والمؤلفين والرواة بأهل فارس ، حتى كادت دولة العباسيين تعد دولة فارسية لولا مكان الخليفة من العرب . وظهر الغلو فى القول والإسراف فى اللفظ ، وتلوين المعانى وإبرازها فى صور كثيرة ؛ وتفنن بعض الكاتبين فى إرسال الكلام ؛ وأوغلوا فى الصنعة والتثقيف ، حتى أوشك البيان أن يصاب بما يخرجه عن رونقه القديم ، فنصح جعفر بن يحيى ، وهو أمير من أمراء البيان للكتاب قائلا : إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا .

قال هذا فى العهد الذى أخذ فيه الأعاجم يسطون على الأسلوب العربى على هذا الوجه ، وفى تلك الحقبة كان العارفون يحاذرون ضياع الأسلوب القديم جملة ، حتى أن المأمون رفع إلى مقام الوزارة كلا من عمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف الكاتب لما أُعجب به من توخيهما الإيجاز فى الرسائل على طريقة القدماء وقال يوما : ما أعجب لكلام أحد كإعجابى بكتاب القاسم بن عيسى (أبى دُلَف)

فإنه يوجز فى غير عجز ، ويصيب مفاصل الكلام ، ولا تدعوه المقدرة إلى الإطناب ، ولا تميل به الغزارة إلى الإسهاب ، يجلّى عن مراده فى كتبه ، ويصيب المغزى فى ألفاظه .

نعم رفع الملوك من بنى العباس بلغاء كتابهم إلى الوزارات ، وقلما رفعوا شاعراً لشعره ، لأن الشعر خيال وحس ، والكتابة عقل وحقيقة ، وحاجة الممالك فى تدبيرها إلى العقول ، أكثر من احتياجها إلى العواطف ، والعلوم على اختلاف ضروبها تكتب نثراً . ولما نظم المتأخرون متون العلوم كالفرائض والقراءات والفقه والنحو وغيرها شعراً أفسدوا الشعر ، وما أفادوا العلوم والمتعلمين كبير أمر ؛ وكان هذا العبث كالعبث بصنع الكلام يوم استخرجوا من نثر ابن المعتز ذاك الفن الذى سموه البديع ، فأفسد نظام الكلام ، وأخرج البيان عن أصوله وطرائقه إلى صنعة يقصد بها المجانسات فى الألفاظ ، والاستعارات والتشبيهات فى المعانى .

والكتاب كما يقول ابن قتيبة هم ألسنة الملوك ، إنما يتراسلون فى جباية خراج ، أو سد ثغر ، أو عمارة بلاد ، وإصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو دعاء إلى ألفة ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية برزية ، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ، ومعاظم الشؤون التى يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة ومعارف مفننة .

قال : والشعراء إنما أغراضهم التى يرمون نحوها ، وغاياتهم التى يجرون إليها ، وصف الديار والآثار ، وذكر الأوطان ، والحنين إلى الأهواء ، والتشبيب بالنساء ، ثم الطلب والاجتداء ، والمديح والهجاء . ولذلك قال ابن خلدون : إن صاحب خطة الرسائل والكتابة لابد أن يُتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة

والحشمة منهم ، وزيادة العلم وعارضة البلاغة . وقال ابن سنان : منزلة الشاعر إذا زادت وتسامت لم ينل بها قدراً عالياً ولا ذكراً جميلا ؛ والكاتب ينال بالكتابة الوزارة فما دونها من رتب الرياسة . قال : « وصناعة تبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لا توصل صاحبها إلى ذلك ؛ وإن أكثر النظم إذا كشف لا يعبر عن جد ، ولا يترجم عن حق ، وإنما الحذق فيه الإفراط فى الكذب ، والغلو فى المبالغة ، وأكثر النثر شرح أمور متيقنة وأحوال مشاهدة ، وما كثر فيه الجد والتحقيق أفضل مما كثر فيه المحال والتغرير » .

هذا غاية ما يقال فى كتاب الرسائل أو كتاب الدواوين ، أما شرف الكتابة ، والحاجة الحافزة إلى إتقانها فى التأليف ، فهو غنى عن البيان بعد أن شاهدنا طبقات من المؤلفين كان من أعظم الدواعى لخلود تآليفهم إجادتهم الكتابة ؛ ولا نذكر منهم إلا من وصلنا شىء مما كتبوه ، كأبى يوسف صاحب أبى حنيفة ، ومسلم صاحب الصحيح ، وصالح بن جناح صاحب كتاب الأدب والمروءة ، وابن حبان البستى وابن المدبر وابن جنى وابن سلام وابن قتيبة والثعالبى والطبرى والمسعودى والمقدسى والدينَوَرى والبلاذرى والمبرّد وابن الداية وأبى بكر الصولى والقاضى التنوخى وابن عبد ربه والمرزبانى وأبى هلال العسكرى وقدامة والباقلانى وأبى الحسن الأشعرى وعلى بن هندو ويحيى بن عدى وعبد القاهر الجرجانى وعلى بن عبدالعزيز ومسكويه وابن حزم وأبى الفرج الأصبهانى وابن زيدون والبكرى وابن طفيل والغزالى والراغب الأصفهانى والماوردى والقالى وأضرابهم .

وما سلم من كتبهم شاهد أبد الدهر على تفوقهم فى البيان ، وكان نبوغهم فيما عانوا من الفنون ، مضافا إلى براعتهم فى الإنشاء ، أعظم نعمة على الآداب

العربية ؛ وهؤلاء وضرباؤهم هم الذين رسخت بهم ملكة البيان العربى على مرور الأزمان ؛ وفضلهم على الكتابة يوازى فضلهم فى علوم أرادوا بثها ، وقد يربو على فضل الشعراء على الأدب .

قال الجاحظ عن نفسه إنه طلب علم الشعر عند الأصمعى فوجده لا يحسن إلا غريبه ، فرجع إلى الأخفش فوجده لا يتقن إلا إعرابه ، فعطف على أبى عبيدة ، فوجده لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، وقال إنه لم يظفر بما أراد إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات . والكتاب يقدرون الشعر قدره أكثر مما يقدر الشعراء قدر الكتابة ؛ واصطلح الكتاب كما قال ابن رشيق على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابة فما تجاوزوها إلى ماسواها ؛ وعرفوا معانى للبلاغة فى النثر لم يتوفر للنظم مثلها ؛ ولذلك كانت الإجادة فى النثر أصعب من الإجادة فى الشعر .

الأسلوب المتكلف :

هذا وإن فى منثور الكتّاب من القرن الثانى إلى الخامس بل السادس إحساناً دونه كل إحسان ، والقليل الذى قرأناه لعمارة بن حمزة و إسماعيل بن صبيح وجعفر بن يحيى ويحيى بن جعفر وخالد بن جعفر وعلى بن عيسى وابن الفرات هو غرة فى وجوه الكلام على غابر الأيام .

وكان لعلى بن عيسى « مذهب فى الترسل ، لا يلحقه فيه أحد ولا ابن الفرات » ، وابن الفرات هو الذى وضع الألقاب فى مخاطبة الملوك والأمراء والوزراء والعمال ، وكانوا قبله يكتفون بالاسم والتكنية ، ولا تلحظ فى الكتابة من الصغير إلى الكبير و بالعكس تعظيما ولا تصغيراً ، شأن العرب فى مخاطبة

بعضهم بعضاً ، يتخاطبون بأسمائهم وكناهم ، ويقتصرون فى المكاتبات على اللباب دون القشور . ولم يطل عمر هذه المصطلحات فى التلقيب ؛ فالمواضعة والاصطلاح فى الخطاب يتغير — كما قال ابن سنان — بحسب تغير الأزمنة والدول . قال : إن العادة القديمة قد هجرت ورفضت واستجد الناس عادة بعد عادة ، حتى أن الذى كان يستعمل فى عصره فى الكتب غير ما كان يستعمل فى أيام أبى إسحق الصابى مع قرب زمانه من زمان ابن سنان .

هذا فى بلاد الشرق ، أما فى الأندلس فقد ظلت دولتهم عربية فى كل مظاهرها ، لا تعرف التلقيب الذى أحدثه من جاوروا الفرس وأخذوا مدنيتهم وأدخلوا رجالهم فى جملتهم . قالوا وكان ابن قصيرة من كتاب الأندلس « على طريقة قدماء الكتاب من إتيان جزل الألفاظ وصحيح المعانى من غير التفات إلى الأسجاع التى أخذها متأخرو الكتاب ، اللهم إلا ما جاء فى رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء » .

وكذلك يقال فى ابن بسام فإنه أحسن تصوير من ترجم لهم من شعراء الجزيرة ؛ كما أحسن فى القرن الثامن لسان الدين بن الخطيب فى تصوير رجال غرناطة . وظل كتاب الأندلس على اقتفاء خطى العرب فى الكتابة حتى راجت فى المشرق أساليب جديدة فحاكوها ؛ وظلوا مع هذا أكثر ميلا إلى الفطرة واقتصاراً على المعانى . وزعم ابن خلدون أن المتأخرين استعملوا أساليب الشعر وموازينه فى المنثور ؛ وأنهم هجروا المرسل وتناسوه خصوصاً أهل المشرق . قال : وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، من أحوال المخاطب والمخاطب ؛ هذا ما قاله . والأندلسيون من المتأخرين لم يكونوا فى السجع والتطويل دون المشارقة على ما تقرأ ذلك فى نفح الطيب

وقلائد العقيان ومطمح الأنفس وغيرها ، حاشا المؤلفين منهم فقد داموا إلى آخر أيام الأندلس يكتبون بلا تعمل فى الجملة ، وحييت الكتابة فى دولة بنى الأحمر آخر ملوب العرب فى تلك الديار ، والشعر الذى وصلنا منهم أكثر من النثر .

هجم السجع هجوما مريعاً على الكلام المرسل فأضعف من قواه ، ونال من قوامه بعد القرن الرابع ؛ وكان أول من غالى فى التزام الكتابة المسجوعة أبو إسحق الصابى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى ، والصاحب والعتبى ؛ واقتفى أثرهم كتاب الأندلس ومصر ، وعدم التكلف غالب على البديع فقد يتخلى عن السجع فى رسائله ، كما يترك الصابى ذلك فى بعض عهوده . وقالوا إن الصابى كان يكتب ما يراد ، والصاحب يكتب ما يريد ، وكاد ابن العميد يعد فى جملتهم ، لولا أنه التزم طريقة المرسل وطريقة المسجوع معاً ، ووضع طريقة الشعر المنثور ، وقالوا إنه أقل معاصريه احتفالا بالسجع ، مع أن الذى قرأناه له ينافى هذا القول ، وكأنه أشبه بحلقة اتصال بين دور الكلام المطبوع ، ودور الكلام المصنوع .

قالوا بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد ؛ وهو قول يحتاج إلى نظر ، والعالم على ما يقول الباقلانى لا يخفى عليه الفضل بين رسائل عبد الحميد وطبقته و بين طبقة من بعده ، حتى إنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد و بين رسائل أهل عصره ومن بعده ، ممن برع فى صنعة الرسائل وتقدم فى شأوها ، حتى جمع فيها بين طريقة المتقدمين وطريقة المتأخرين فخلص لنفسه طريقة ، وأنشأ لنفسه منهاجا ؛ فسلك تارة طريقة الجاحظ ، وتارة طريقة السجع .

وضع الهمذانى طريقة المقامات ، وقيل إنه اقتبسها من ابن دريد ، وعلى منواله نسج الحريرى فى القرن التالى على أسلوب مبتكر ، لا يصلح للرسائل

ولا للكتب ، وما هو إلا ضرب جديد من النثر ، تقرأ فى تضاعيفه الكلفة الظاهرة ، وقد قلدها فيه الزمخشرى والوطواط ، ومن المتأخرين ابن الوردى والسيوطى ، والسيوطى ولع كمعاصره ابن عبد الهادى أن يكتب فى كل موضوع ؛ ومعظم أبناء هذه العصور عصور السجع هم أهل تكلف وتصنع ، وأبو العلاء المعرى يندمج فيهم و إن تقدمهم فى الميلاد ؛ فهو حكيم لغوى غلب الغريب والسجع على ما كتب فى رسائله و« رسالة الغفران » لو خلت من السجع لكانت فى موضوعها آية ، وابن القارح فى رسالته التى رد عليها أبو العلاء أكتب وأبلغ ، وفى منثور المعرى نشوفة و يبوسة لا تخفى على من تذوق البلاغة .

ذكر الثعالبى ، وهو من أئمة الكتابة الذين جوّدوا فى المرسل والسجع ، أن من النثر المسجع ومنه المرسل ، قال : والمحمود فى هذا الزمان ، أى فى القرن الخامس المرسل ، إذا اشتمل على شىء من السجع يجىء عفواً . وقال صاحب نقد النثر : « إن من أوصاف البلاغة السجع فى موضعه ، وعند سماحة القريحة به ، وأن يكون فى بعض الكلام لا فى جميعه ؛ فإن السجع فى الكلام كمثل القافية فى الشعر ، و إن كانت القافية غير مستغنى عنها ، والسجع مستغنى عنه ، فأما أن يلزمه الإنسان فى جميع قوله ورسائله ، وخطبه ومناقلاته ، فذلك جهل من فاعله وعِىّ من قائله ؛ وقد رويت الكراهية فيه عن رسول الله ، ولو كان لزوم السجع فى القول والإغراب فيه وفى اللفظ هى البلاغة ، لكان الله عز وجل أولى باستعماله فى كلامه الذى هو أفضل الكلام ، ولكان النبى والأئمة المهديون قد استعملوها ولزموا سبيلها ، وسلكوا طريقها ، فأما ولسنا واجدين فيما بين أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا فى المواضع اليسيرة ، فهم أولى بأن يقتدى بهم و يحتذى بمنهاجهم » .

و بأدنى نظر يلمح الناقد البصير أن علماء البيان ، و إن كانوا يجنحون إلى

تفضيل المرسل ، جمجموا فى حكمهم على السجع ولم يبينوا ، لأن السجع فى عصورهم أصبح زيا من أزياء البلاغة وله أنصار غيُر عليه : فما جوزوا لأنفسهم أن يثلموه ، وراعوا العُرف اضطراراً فحادوا بذلك عن الجادة . يقول العسكرى : واعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ولا يلزمك فيها السجع ، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن مالم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد ، وكثير ما يقع ذلك فى السجع ، وقلما يسلم إذا طال من استكراه وتنافر . وقال ابن سنان : و بعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج فى الكلام ، و بعضهم يستحسنه و يقصده كثيراً ، وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتعمل واستكراه ، فأذهب طلاوة الكلام ، وأزال ماءه ؛ ووجه من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها ، و يظهر آثار الصنعة فيها . وأما الفواصل التى فى القرآن ، فإنهم سموها فواصل ولم يسموها أسجاعا ، وفرقوا فقالوا : إن السجع هو الذى يقصد فى نفسه ، ثم يحمل المعنى عليه ؛ والفواصل التى تتبع المعانى ولا تكون مقصورة فى أنفسها اه وصرح الرُّمانى برأيه فقال : إن الفواصل بلاغة ، والسجع عيب .

واعترف ابن الأثير فى المثل السائر ، وهو السجاع المنقطع النظير ، بأنه لايجود فى فن السجع إلا الأفراد القلائل فقال : واعلم أن الأصل فى السجع إنما هو الاعتدال فى مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء ، والنفس تميل إليه بالطبع ؛ ومع هذا فليس الوقوف فى السجع عند الاعتدال فقط ، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد ، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع ، لكان كل أديب من الأدباء سجاعا ، وما من أحد منهم ، ولو شدا شيئاً يسيراً من الأدب إلا و يمكنه أن يؤلف ألفاظاً مسجوعة و يأتى بها فى كلامه ؛ بل

ينبغى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة لا غثة ولا باردة ، وأعنى بقولى غثة باردة أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه ، من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة ، وما يشترط لها من الحسن ، ولا إلى تركيبها ، وما يشترط له من الحسن ، وهو فى الذى يأتى به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكرسف ، أو ينظم عقداً من الخزف الملون ؛ وهذا مقام تزلُّ عنه الأقدام ، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب الفن بعد الواحد ، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا ؛ فإذا صُفى الكلام المسجوع من الغثاثة والبرودة فإن وراء ذلك مطلوبا آخر ، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ ، فإنه يجىء عند ذلك كظاهر مموّه على باطن مشوه ، ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب اه ويقول عبد القاهر ؛ وهو أبلغ من كتب فى البيان بعد الجاحظ : العلماء يذمون من يحمله السجع والتجنيس على أن يضم لهما المعنى ، ويدخل الخلل عليه من أجلهما ، وعلى أن يتعسف فى الاستعارة بسببهما ، ويركب الوعورة ، ويسلك المسالك المجهولة ؛ ولا بأس بأن يزاد على قوله إن أكثر من سجعوا أطالوا وأضاعوا المعانى ، ولو تهيأ لكل ما كتبوا من يُجرى عليه قلم الحذف والإثبات لذهب نصف ما سطروه ، ولكان الباقى سليما من التزيد ، لا فضول فى تضاعيفه ، ولا حشو فى حواشيه ، أخذ من البلاغة والفصاحة حظا عظيما .

والبلاغة كما قال ابن حيدر ليست ألفاظاً ولا معانى ، بل هى ألفاظ يُعبَّر بها عن معان ، ولكن ليس كما اتفق ولا كيفما وقع ، لأن ذلك لو جرى هذا المجرى لكان أكثر الناس بليغاً ، إذ كان أكثرهم يؤدى عن المعانى التى يولدها بألفاظ تدل عليها ، لكنهم يخرجون من طريق البلاغة ، ومنهاج الكتابة من

وجهين : أحدهما أن تكون الألفاظ مستكرهة مستوخمة ، غير مرصوفة ولا منتظمة . والثانى أن تكون كثيرة يُغنى عنها بعضها ؛ ويمكن أن يعبر عن المعنى الدال عليها بأقل منها .

و بعد أن أوصى بالإيجاز قال : وهذا مذهب العرب وعادتهم فى العبارة فإنهم يشيرون إلى المعانى بأوحى إشارة ، و يستحبون أن تكون الألفاظ أقل من المعانى فى المقدار والكثرة . وذكر ابن أبى الإصبع أن المتقدمين كانوا لا يحفلون بالسجع جملة ، ولا يقصدونه بتة إلا ما أتت به الفصاحة فى أثناء الكلام ، واتفق على غير قصد ولا اكتساب ، و إن كانت كلماتهم متوازنة ، وألفاظهم متناسبة ، ومعانيهم ناصعة ، وعباراتهم رائقة ، وفصولهم متقابلة ؛ وتلك طريقة الإمام على ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام ، كابن المقفع ، وسهل بن هرون ، وأبى عثمان الجاحظ ، وغير هؤلاء من الفصحاء والبلغاء .

قلنا إن كتابة المسجعين لو خلت من هذا التكلف السمج لنالت قسطاً من البلاغة ، وفى يقيننا أن ابن بُطلان وابن جُبير وعبد اللطيف البغدادى أرقى كعباً فى البلاغة ، بما وصفوه من البلدان والسكان ، من القاضى الفاضل والعماد الكاتب وابن الصيرفى ، فإن الثلاثة الأولين أدوا المعانى الجليلة فى الألفاظ القليلة ، والآخرين على تمكنهم من نواصى اللغة تكلفوا الأسجاع فأضاعوا من مكانتهم . وكان ابن القِفطى وابن أبى أُصيبعة وابن خلكان وابن العديم وابن الطقطقى والنويرى إذا تخلوا عن السجع أجادوا كل الإجادة . وكذلك يقال فى كتاب أهل القرن الثامن والتاسع أمثال ابن فضل الله العمرى والصلاح الصفدى وابن منظور والمقريزى ؛ ومن أعظمهم ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب ، وما خطته أناملهما شاهد على وجه الدهر بأنهما غريبة عصرها ؛ وكتابة ابن تيمية

وتلميذه ابن قيم الجوزية من السهل الممتنع ، والتلميذ أجزل من أستاذه بيانا .

وقع هذا الضعف فى اللغة باستيلاء الأعاجم على بلاد العرب وغيرها ؛ وكانت دواوين الرسائل فى العواصم من قبل ، مدارس لتخريج الكتاب فى البلاغة ، حتى فى العهد الذى اشتدت فيه حاجة العرب إلى تعرف لغات الأمم المجاورة لها فى الغرب والشرق ، و « تنافس الناس فى تصانيف الترجمانات فى اللغة الأعجمية وتفاهموا فى غير اللغة العربية » كما قال صاحب اللسان ؛ وكان فنّ الكتابة بمصر فى زمن الدولة الفاطمية مثلا غضا طريا ؛ وديوان المكاتبات لايخلو « من رأس يرأس مكانا و بيانا ، و يقيم لسلطانه بقلمه سلطانا » ؛ وجاء فيهم مثل ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء على عهد الحافظ العبيدى ، وكانت له « قوة على الترسل يكتب كما يشاء » . يقول ابن خلدون إن رافع راية البلاغة فى الأندلس ابن حيان المؤرخ وابن عبد ربه والقسطلى . ولا شك أنه تقدمهم وتأخر عنهم كثير من العظماء فى البلاغة ، ومنهم ابن بسام والبلوطى والحصرى والشاطبى وابن سيده وابن حناط الكفيف وابن خاتمة وعشرات أمثالهم من المؤلفين الكاتبين . ولم يكن البيان فى الأندلس مقصوراً على الرجال بل شارك فيه النساء نظما ونثراً ، كما وقع لمعظم بلاد الإسلام أيام عزها ، فأبدعن وأدهشن ، وكن من المبرزات فى رواية السنة منذ قام الرسول يهدى إلى دينه .

وعَفّى القلقشندى وابن عربشاه والخفاجى وأضرابهم على محاسنهم ، بما أخذوا أنفسهم به فى القرن التاسع والعاشر من مذاهب السجع والجناس والتشبيه . وتناسى الكتاب الكلام المرسل منذ القرن العاشر إلى أواسط القرن الثالث عشر فقلّ المجودون من المترسلين والمؤلفين ، وندر الإبداع ، وتراجع العلم والأدب ، وما فتئ أرباب الأقلام يسترون نقص كلامهم بأسجاعهم

وتطويلاتهم ؛ ولا نذكر لمؤلف إبداعا فى هذه العصور ، وأكثرهم أدنى إلى أن يُعَدُّوا نقلة ومحتذين منهم إلى أن يحسبوا كاتبين ومؤلفين ، ودثر كثير مما كتبوا لاستغناء الناس عنه ، ولأنه غير صالح للبقاء ؛ وما بقى مما روعى فيه الطبع من التآليف والرسائل ، فهو أندر من الكبريت الأحمر ، وفيما طبع من كتب المتأخرين من اليمانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة من ذاك العهد مثال ترتجف أعصاب البلغاء من سماعه فضلا عن تناقله .

نعم إن فى بيان المتأخرين فى عصور التدلى شناعة وهجانة ، جاء ضعيف المادة ، قلق الأسلوب ، مبتذل اللفظ ، مغموساً فى التقليد ، محوكا بالتعقيد ؛ ولا نذكر كاتباً مترسلاً نشأ فى القرون الأربعة المنحطة يصح عدّه فى فحول الكتاب لأنهم كلهم أهل سجع وبديع ، وكلهم ألفوا اقتباس طريقة من سبقهم ، فتغذى أدبهم من مادة ضعيفة ، تسلسل فيها الوهن والجمود بكرور الأيام . وربما جاء فى غضون تلك الأحقاب من لا بأس بأدبه ، وكان يمكن أن يُتجوز فى ضمه إلى سلك البلغاء ، لو وقع إلى ديوان ملك يفهم منه ما يكتب له فى هذا اللسان . ذلك لأن دولة العرب زالت بخروج الأندلس عن حكم المسلمين ، وبقى قليل من النَّماء فى البيان فى دولة الغرب الأقصى مشوباً بعجمة بربرية ، وبسقوط سائر بلاد العرب فى حكم الأتراك العثمانيين ، واستقلال فارس دولة فارسية ، زاد الحال إعضالا . فاعتمدت هاتان الدولتان على لسانيهما وأغفلتا العربية ، خلافاً للمماليك فى مصر فإنهم رفعوا من أقدار المؤلفين والكاتبين فى عهدهم ، إلى ما يستغرب من أعاجم مثلهم ، والفضل لمصر فى ذلك ، فإنها أدخلتهم فى بوتقتها العربية فعرَّبتهم . أما دولة الترك فإنها قضت ، قصداً أو عن غير قصد ، على كل ما هو عربى فى بلادها ، وتآليف أشهر علمائها فى العربية تشهد لهم بالعجمة فى كل سطر دونوه .

احياء الأسلوب القديم :

وما زالت الحال فى هبوط حتى قام فى مصر الإمام محمد عبده ، وفى الشام اللغوى أحمد فارس فى أواخر القرن الماضى ، وردّا اللغة إلى سهولتها الأولى بما كتباه وألفاه ، فدبت الحياة فى الكتابة فى مصر والشام ، يتعمد الكاتبون الأساليب الحديثة ممزوجة بديباجة القدماء ، وساعد على ذلك انتشار اللغات الأجنبية بين بعض المثقفين من أبناء الضاد ، وكثر المترجمون فاطلع من كانوا يعانون الأدب على طرق الأمم فى تأدية المعانى ، بل كان بعض المبرزين فى الإنشاء هم ممن حذقوا لغة غربية مع العربية . كل ذلك كان من العوامل فى خروج الكتابة والتأليف عن أسلوب العهد المغولى ، ومحاولة جميلة لإعادة اللغة إلى عصرها الذهبى . والفضل العظيم أيضاً لانتشار الصحف والمجلات بين الخاصة والعامة ، ولانتظام المدارس بالنظام الغربى ، حتى اضطرت المعاهد الدينية المحافظة كالأزهر والزيتونة أن تسير على الأسلوب الذى جرت عليه المدارس العصرية فى التدريس والكتابة والتأليف . وشاع فى كل بلد الأسلوب الرشيق الخالى من تلك الحلية البالية التى طالما غالى الكتاب فى المباهاة بها ، ونعنى بها السجع المتكلف ، واللعب بالألفاظ ، وإهمال المعانى .

ويقلُّ اليوم فى مجالس المتأدبين استعمال البديع والتسجيع ولو على سبيل التسلية . وما زال الإنشاء يقترب من الأسلوب البليغ ، ويتفوق المجددون اليوم بعد اليوم فى المخطوب والمكتوب ، ويختفى السجع فى ظلمات الليالى ، ولا تكاد تجد له من يجوزه حتى فى الخطب الدينية . ولا تمضى خمسون سنة أخرى حتى تعود الكتابة والخطابة إلى الرونق القديم على عهد بلغاء الكتاب .

وآخر من عرفناهم ممن يعطفون على السجع أحياناً ، وإن كان لهم فى الكلام المرسل إحسان وإبداع ، صديقنا أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، فإنه محافظ على الطريقة القديمة فى مقدمات الكتب وعناوينها ، يترسم خطى ابن خلدون فى مقدمة مقدمته واسم تاريخه الخالد . ومع أن ابن خلدون سيد من ترسل فى المتأخرين وهو من أنصار التجدد ، مال مع المحافظين فى هذه الناحية ، على ما لم يعهد شبيه له فى مؤلفى قرون المجد العربى ، أهل القدوة والمثال الذى لا يحتذى غيره .

عبد الحميد الكاتب

عصره :

كان عصر عبد الحميد عصر الإقبال والإدبار فى الدولة الأموية . بلغ الأمويون قِمة مجدهم فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وتم نقل الدواوين إلى اللسان العربى فى الأقطار ، فتجلت الدولة عربية فى عامة مظاهرها ، واتسعت الفتوح فى الشرق والغرب ، وكانت الأندلس من جملة ما فُتح ؛ فأنشأ بنو أُمية فى الجنوب الغربى من أوربا مملكة عظيمة ، وبدأوا بنشر العربية بين البربر وشعوب إسبانيا ، وأقام الوليد المصانع العاديّة فى الحجاز والشام وما إليهما ، تخلد مجد الدولة العربية ، وتخرج المسلمين فى بيوت عبادتهم من سذاجة البداوة إلى نيقة[1] الحضارة ، وكثرت فى كل بلد المرافق العامة ، وكان ينفق أكثر ما يفضل من جباية الدولة على استحداث المساجد ودور المرضى والترع والجسور والطرق .

وفى هذا العصر استخلف سليمان بن عبد الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز ، فدُعى سليمان مفتاح الخير لرفعه المظالم ، ورده المسيَّرين[2] وإخراجه المسجَّنين ؛ وسار ابن عبد العزيز فى الخلافة بسيرة العمرين أبى بكر وعمر ، فأغنى الناس فى عهده القصير ، حتى لم يبق فى أكثر الولايات من يأخذ الصدقة ، وأبطل الحروب والغزوات ، مجتزئاً بما فتحته العرب من البلاد ، وحبب بحسن سيرته الإسلام إلى الشعوب ، فدخل الناس فيه أفواجا ، فى بلاد الهند والترك والخزر

---

(١) تنيق فى مطعمه وملبسه : تجود وبالغ كتنوق ، والاسم النيقة .
(٢) سيره من بلده : أخرجه ونفاه .

والبربر والقبط ؛ وكانت صلاته بالروم على أحسن ما تكون عليه صلات دولتين متجاورتين .

وجاء هشام بن عبد الملك يحيي سنة أجداده فى حسن التدبير والسياسة ، ويضع للأموال نظاما لا غبن فيه على الراعى ولا على الرعية ، واستخذت[1] الروم فى أيامه فأسر ملكها ، وكان موفقاً فى أعماله ، عدَّ عهده آخر أيام السعادة فى بنى أمية ، فلم يهنأوا بعده بالملك ، ولا هنئت بهم الرعية ، لانتشار الخلاف على الخلافة بين بنى مروان ، واضطراب المملكة بتقاتل أبناء العم ، واشتداد المماراة بين أولياء العهد ؛ إذ كان من العادة أن يولى الخليفة عهده من بعده اثنين غالباً ، وبدت العداوة بين اليمانيين والمضريين ، فكان فساد الجيش ، وتنازع آل البيت المالك ، مؤذنين بذهاب الملك .

وفى هذا العصر كثرت هجرة العرب إلى البلاد التى أظلتها الراية الأموية ، كفارس والعراق والشام ومصر وإفريقية والأندلس ، وعاونتهم الدولة بإقطاعهم الأرضين الشاغرة ، وجعلت فى بعض الأقطار جزية أهل الذمة طُعمة[2] للمهاجرين ، ترغيباً لمن وراءهم للالتحاق بهم ، فبدأ النقص فى سكان جزيرة العرب ، وذكّرت الغوائل بين قيس ويمن بما كان من الطوائل[3] فى الجاهلية ؛ ورجعت العرب بالعصبيات إلى عادات لهم حظرها الإسلام ، فأدى ذلك بالملة والدولة إلى أسوإ مصير .

وفى هذه الحقبة جرى تدوين العلوم ، ولا سيما الحديث ، دُوِّن بأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وقد حاذر ضياع السنة بانقضاء عصر الصحابة

---

(١) استخذى : خضع وذل (٢) الطعمة : الرزق
(٣) الطائلة : العداوة والجمع الطوائل ، وهى الذحول والأوتار .

والتابعين ، وكثر تدوين اللغة والشعر ، وتعلقت همة عالم قريش وحكيم آل مروان خالد بن يزيد الأموى بنقل كتب الطب والكيمياء والنجوم والحرب والآلات إلى العربية ، وأعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرّب أهل الحكمة ورؤساء كل صناعة ، وهو أول من أنشأ خزانة كتب فى الإسلام . ثم تُرجم كتاب فى الطب ، وبدأ الأفراد بعد ذلك ينقلون من الفارسية والسريانية شيئاً من كتب السياسة والحكمة ، يهدونها للخلفاء والأمراء من بنى أُمية .

وفى هذا الدور قوى أمر القَدَرية أو المعتزلة ، وكانوا ظهروا بظهور الخوارج والشيعة ، لما أنكر الخوارج على علىّ التحكيم فى الخلافة يوم صِفّين ، وحكموا بكفر الفاسق ، حكمهم بكفر من يسعى فى سفك دماء المسلمين لمأرب دنيوى ، وأخذ قوم يدعون المتساهل فى دينه فاسقاً ، ويجعلونه من المسلمين ، وصرّح بعضهم بأن الأمور كانت مقدرة عليه ؛ وهبت خلال ذلك فرقة جاهرت بأن الإنسان مختار فى أعماله ، وأن الله لو أجبر الإنسان على عمله لم يؤاخذه عليه ، وجعلوا الناس ثلاثة أقسام : مؤمن وكافر وفاسق ، ومنعوا من تسمية الفاسق باسم المؤمن ، واعتزلوا مجلس الحسن البصرى فسموا المعتزلة ، وهم الذين أحدثوا علم الكلام ، وتابعهم فى التأليف أناس ليسوا على مذهبهم ، وهم الذين وسعوا بعدُ أُصول الفقه ، وأكثر المسائل المذكورة فيه هى من مبتكراتهم .

وأراد عمر بن عبد العزيز أن يستتيب القدرية ، أو يخرجوا من بلاده ، واشتد بعض آله فى إرهاقهم ، لكن بعض الخلفاء من أخلافه ذهبوا بعد حين مذهب القدر ، ومنهم مروان بن محمد الذى كتب له عبد الحميد الكاتب وعُرف به .

أصله وخلقه :

هو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب العامرى من عامر بن لؤى . ولؤى ينتهى إليه شرف قريش ، ومن ولده عامر بن لؤى وولده حسل ومعيص . وقد قيل فى نسبه إنه عبد الحميد بن يحيى بن سعد بن عبد الله بن جابر بن مالك ابن حجر بن معيص بن عامر بن لؤى بن غالب . ومعظم الروايات ترجح أن والده كان من الموالى . و إذا صح ذلك كان من أصل غير عربى ، اللهم إلا إذا ثبتت سلسلة نسبه التى انتهت بابن عامر بن لؤى بن غالب . وفى رواية أن جده من سبى القادسية . و إذا صحت نسبته إلى أصل فارسى فيكون جده انضم إلى عامر بن لؤى ؛ وقد ينضمُّ الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينتسب إليها . والاصطخرى يقول إن عبد الحميد كان ممن يصلح من الفرس للدواوين من الكتاب والعمال والأُدباء ، وكان له فى بنى أُمية ولاء ينسب إليهم ؛ فنسبته إلى عامر نسبة وَلاء إذاً .

والمولى عند العرب ، دون الحر الصريح ، وفوق العبد الرقيق فى المرتبة ؛ والمولى كالقريب ينزل منزلة ابن العم ، يجب على صاحبه أن ينصره و يرثه إذا مات ولا وارث له ؛ ومنه حديث الزكاة : « مولى القوم منهم » . والمولى هو الصاحب والقريب والجار والحليف والجمع موالى ، ويكون المولى مولى عَتاقة ومولى تَبَاعة ؛ فمولى العتاقة هو الذى يكون عبداً أو أسيراً فيعتقه صاحبه فيصبح المعتَق للمعتِق مولًى ؛ ومولى التَّباعة هو من يُصطنع أو يُحالف أى يستتبع . ومن الولاء أيضاً مولى الرحم وهو مَن يتزوج فى قَبيل فينسب إلى قبيلهم . ودية المولى نصف دية الحر ، وكذلك حكمه فى العقوبات يناله منها نصف ما ينال الحر ؛ أما فى المواريث فمولى العتاقة يورِّث مولاه ولا يرث منه ، ومولى التباعة لا يرث

ولا يورّث ، وحكم مولى الرحم كحكم الأحرار يرث ويورث .

كان الموالى فى الجاهلية من أجناس ونحل مختلفة ، فلما كان الإسلام أصبح غير المسلمين ذمة ؛ وجعلوا فى الجاهلية دية المولى ، وهو الحليف ، خمساً من الإبل ، ودية الصريح عشراً . والصريح الخالص النسب ، والحليف عند العرب مولى ؛ والولاء بفتح الواو القرابة ، وبالكسر ميراث يستحقه المرء بسبب عتق شخص فى مِلكه ، أو بسبب عقد الموالاة . إذا عرفت هذا فليس أمامك مايمنع من جعل عبد الحميد من أصل عربى ، وإن كان جده مولى تَباعة لامولى عتاقة ، كأن يكون قد تزوج من بنى عامر وانضم إليهم بسبب . هذا على شريطة ضعف الرواية القائلة بأن أجداده من سبى القادسية ، وهناك تكون الفارسية أعلق ببيته من شعرات قَصِّه[1] .

وكان بنو أُمية كثيراً ما يعتمدون على الموالى فى كتابتهم ودواوينهم ، فلم تمنعهم أصولهم من تولى أهم مناصب الدولة ؛ فقد كان من كتاب معاوية مولاه عبد الرحمن بن درّاج ، وكان على ديوان الرسائل لعبد الملك بن مروان أبوالزعيزعة مولاه ، وكتب للوليد على ديوان الخاتم شعيب النعمانى مولاه ، وعلى ديوان الرسائل جناح مولاه ، وعلى المستغلات نُفَيع بن ذؤيب مولاه ؛ وكان يكتب لمسلمة سميع مولاه ، وعلى ديوان الرسائل الليث بن أبى رقية مولى أُم الحكم بنت أبى سفيان ، وعلى ديوان الخاتم المولى نُعيم بن سلامة ؛ وكان يكتب لعمر بن عبد العزيز الليث بن أبى فروة مولى أُم الحكم بنت أبى سفيان ، وكتب له إسماعيل بن أبى حكيم مولى الزبير ؛ وكتب للوليد بن يزيد سالم مولى سعيد بن

---

(١) القص والقصص (بفتح قافيهما) : الصدر أو رأسه أو وسطه أو عظمه ، وفى المثل : هو ألزم لك من شعرات قصك .

عبد الملك ، وكان عمرو بن الحارث مولى بنى جُمَح يتولى ليزيد بن الوليد الناقص ديوان الخاتم ؛ وكان من الموالى على ديوان الرسائل لمروان بن محمد ، عثمان بن قيس مولى خالد القَسرى .

ولقد ساد الموالى منذ الصدر الأول فما تولوا الكتابة للخلفاء والأمراء فقط ، بل تعدوا ذلك إلى الرواية والعلم ، وصار الفقه فى معظم البلدان إليهم ، حتى إن عبد الملك بن مروان سأل الزهرى عمن يسود الناس ، فلما ذكر له طائفة من الموالى فى البلاد قال : إن أهل الديانة والرواية لينبغى أن يسودوا ؛ فلما ذكر له النخعى ، وكان من العرب . قال عبد الملك : ويلك يا زهرى فرَّجت عنى ! والله لتسودن الموالى على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها . فقال الزهرى : يا أمير المؤمنين ، إنما هو أمر الله ودينه ، من حفظه ساد ، ومن ضيعه سقط .

إن ما اتصل بنا من أخبار عبد الحميد لم يصور لنا منه صورة تامة ، فما عرفنا مولده ، ولا البلد الذى ولد فيه من بلاد الشام ، ولا نوع دراسته وأساتذته ؛ ولكننا عرفنا أنه شامى عاصر بعض الخلفاء من الأُمويين ، وقيل إنه من أهل الأنبار وسكن الرَّقة ؛ فإن صحت هذه الرواية كان عراقيا غير شامى . وأطلق عليه ابن عبد ربه اسم عبد الحميد الأكبر ، وعده ممن نَبُل بالكتابة ، وكان قبل خاملا ؛ وقال إنه كتب لعبد الملك بن مروان وليزيد ، ثم لم يزل كاتباً لخلفاء بنى أُمية حتى انقضت دولتهم ؛ وفى هذا القول نظر ؛ لأن عبد الملك تولى سنة خمس وستين ، وتوفى سنة ست وثمانين ، فلا تكون سن عبد الحميد يوم مقتله أقلَّ من سبعين أو خمس وسبعين ، وهذا يناقض ما سيمر بك من أنه عُمر عليه سنة ١٣٢ وهو عند ابن المقفع ، ولم يعرف الموكلون بالقبض عليه أيهما

عبد الحميد ، وابن المقفع إذ ذاك كان فى الكهولة ، فلا يعقل إلا أن يكون صاحب الشرطة العباسى عارفا على الأقل بأن صاحبه شيخ هرم ؛ ونميل إلى أن عبد الحميد كتب أولا لهشام بن عبد الملك الذى ولى سنة ١٠٥ ومات سنة ١٢٥ ثم لمروان .

والأرجح أن عبد الحميد تخرج فى الكتابة بسالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه ، ويقال مولى المنذر بن عبد الملك ، وقيل سالم مولى سعيد بن عبد الملك ، وكتب للوليد بن يزيد ، ثم كتب له ابنه عبد الله بن سالم . وكان سالم ختن عبد الحميد ، أى صهره زوج أخته ، وهو أحد الفصحاء البلغاء ، وقد نقل رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر ، ونُقل له وأصلح هو ، ولسالم رسائل مجموعة فى نحو مائة ورقة ؛ وبهذا يقال إن عبد الحميد أخذ عن رجل بليغ يعرف الاستخراج من أدب اليونان وسياستهم ، ولم يثبت أنه كان يعرف اليونانية كما وهم بعض أساتذة العصر ، وربما شدا شيئا من الأرمنية بمدة مقامه فى إرمينية كاتباً لمروان . ويقول ابن هلال العسكرى إن عبد الحميد كان يحسن الفارسية ، وبأدب هذه اللغة تأدب ، وعلى منوال حكمائها نسج ، وأَلِف تطويل الرسائل واختصارها بحسب الحال . فمن الرومية أخذ بالواسطة ، ومن الفارسية أخذ مباشرة ، والفارسية ما كانت تقلُّ حكمة أهلها عن حكمة يونان .

ساعد عبد الحميد أدبه الفارسى على نبوغه فى البلاغة العربية ؛ ويقول عبد القاهر : إن من عرف أوضاع لغة من اللغات عربية كانت أو فارسية وعرف المغزى من كل لفظة ، ثم ساعده اللسان على النطق بها ، وعلى تأدية أجراسها وحروفها ، فهو بيّن فى تلك اللغة ، كامل الأداة ، بالغ من البيان المبلغ الذى لا مزيد عليه ، منتهٍ إلى الغاية التى لا مذهب بعدها .

كتب عبد الحميد قليلا عن هشام بن عبد الملك كما عرف من رسالة كتبها عن هشام إلى يوسف بن عمر الثقفى وهو باليمن ، وقد كان على اليمن منذ سنة ١٠٧ ، أى أن ديوان هشام كان المدرسة الأولى التى تخرج بأساتذتها عبد الحميد فى علوم الإنشاء ؛ ويمكن أن يقال إنه كان من أول نشأته على اتصال مع من يعرف الخلفاء ، وما يقتضى لخدمة الحكومات من الأدوات ؛ وذكروا أنه حدث عن سالم بن هشام ، ولعله سالم مولى هشام ، وحدّث عنه خالد بن برمك . وقالوا إن عبد الحميد كان فى حداثته معلماً فى الكوفة ، ولعله مرن على حفظ مسائل كثيرة من تأديبه الأطفال زمناً ؛ والمؤدبون كانوا طبقة راقية فى القرون الأولى للإسلام . وكانت الكوفة لما ألقى بها عصا الترحال لأول أمره محط رحال رجال العلم فى الدين واللغة والنحو والتصريف ؛ ولا شك أنه ثافن أهل البلاغة فيها وأخذ عنهم ، وهناك حدث له غرام بتمثل كلام علىّ ابن أبى طالب . فقد سئل ما الذى خرّجك فى البلاغة ؟ فقال : حفظ كلام الأصلع يعنى عليا ، وكانت الكوفة من البلدان التى أحبها أمير المؤمنين وأحب أهلها وأحبوه .

وفى زمن لم نثبته جيداً اتصل بمروان بن محمد وهو والٍ على إرمينية يحارب الخارج فيها على الخلافة ، فكتب عنه ، وحظى عنده ، وانقطع إليه ؛ ولما عقدت البيعة لمروان فى الشام سجد مروان وأصحابه شكراً لله ، إلاّ عبد الحميد ، فقال له مروان : لم لا سجدت ؟ فقال : ولمَ أسجد على أن كنت معنا فطرت عنّا ، يعنى بالخلافة ؟ فقال : إذاً تطير معى ، فقال : الآن طاب السجود وسجد . وكتب لمروان طول خلافته .

ترى هل يكون الاختلاف فى نسب عبد الحميد سبباً يدعونا إلى أن نرجح

أن أجداده كانوا من سبى القادسية ؟ وسواء صحت هذه النسبة أم لم تصح فإنه تأثر لا محالة بعادات الفرس وعرف أساليبهم فى الكتاب والخطاب . وعلى كل فإن المجال الذى جال فيه عقل عبد الحميد كان فسيحاً بالنسبة لعصره وأهل طبقته ، وكان من اتصل بهم قبل أن يلى الكتابة عن الخليفة جماعة من المنظور إليهم فى الأمة ؛ ولهذا ولغيره ، أى لمولده فى الشام وتنقله فى البلاد ، دخل كبير فى اتساع عقله وتجار به .

***

كان مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يحب عبد الحميد حبًّا جمًّا ، ويرفع منزلته بين الكتّاب والعمال « ولا يرى الدنيا إلا به » لعلمه بنبوغه وتفرُّده فى صناعته ، وذهابه بفضل البلاغة وما ينبغى لها ، حتى عَرض عليه — لما أيقن أن أمره أدبر ، وهزائمه تواترت ، وسلطانه صائر إلى الزوال — أن يكون مع أعدائه لتسلم حياته ، قائلاً : إنا نجد فى الكتب أن هذا الأمر زائل عنا لا محالة ، وسيضطر إليك هؤلاء القوم — يعنى ولدَ العباس — لأدبك ، وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن بك ، فاستأمِن إليهم ، وأظهر الغدر بى ، فلعلك تنفعنى فى حياتى أو بعد مماتى ؛ فقال له : وكيف لى بأن يعلم الناس جميعاً أن هذا عن رأيك ، وكلهم يقول : إنى غدرت بك ، وصرت إلى عدوك ؟ وأنشد :

وذنبى ظاهر لا شك فيه لمبصره وعذرى بالمغيب

وأنشد أيضاً :

أُسِرُّ وَفاءً ثم أُظهر غدرةً فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن الذى أمرتنى به أنفع الأمرين إليك ، وأقبحهما بى ، ولكنى أصبر حتى يفتح الله عليك أو أُقتل معك . وهكذا تجلَّت فى

عبد الحميد فضيلة الوفاء ، فآثر أن يُقتل مع صاحبه ، على أن يتخلى عنه بوم الكريهة والشدة ، وتجلّت فيه خلة الشجاعة والاعتقاد بالأقدار ؛ فهو الرجل الذى شارك سيده فى سعادته و بلائه .

قيل لما زال أمر مروان أتى المنصور بخواصّ مروان ، وفيهم عبد الحميد والبعلبكى المؤذن وسلام الحادى ، فهمّ بقتلهم جميعاً فقال سلام : استبقنى يا أمير المؤمنين فإنى أُحسن الحداءَ ، قال : وما بلغ من حدائك ؟ قال : تعمد إلى إبل فتظمئها ثلاثة أيام ثم توردها الماء ، فإذا بدأت تشرب رفعتُ صوتى بالحداء ، فترفع رؤوسها وتدع الشرب ، ثم لا تشرب حتى أسكت ؛ فأمر المنصور بإبل ففعل بها ذلك ، فكان الأمر كما قال ، فاستبقاه وأجازه وأجرى عليه . وقال له البعلبكى : استبقنى يا أمير المؤمنين فإنى مؤذن منقطع القرين ، قال : وما بلغ من أذانك ؟ قال : تأمر جارية فتقدم إليك طستاً ، وتأخذ بيدها إبريقاً ، وتصب الماء على يدك ، فأبتدئ بالأذان فتدهش ويذهب عقلها إذا سمعت أذانى ، حتى تلقى الإبريق من يدها وهى لا تعلم ؛ فأمر المنصور جارية ففعلت ذلك ، وأخذ البعلبكى فى الأذان ، فكانت حالها كما وَصف . وقال عبد الحميد : يا أمير المؤمنين ، إنى فرد الزمان فى الكتابة والبلاغة ، فقال : ما أعرفنى بك ! أنت الذى فعلت بنا الأفاعيل ، وعملت لنا الدواهى ؛ وأمر به فقطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه . ويروى أنه سلمه إلى عبد الجبار فكان يحمى له طستاً ويضعه على بطنه حتى قتله .

ويقول اليعقوبى إن عبد الحميد تخلّف بمصر واستتر حتى دُلّ عليه صالح ابن على . وزاد غيره : إنه لما انهزم اختبأ فى كنيسة فى بوصير من أرض مصر . وقال آخرون إنه استخفى بالجزيرة عند عبد الله بن المقفع فغمز عليه — وكان

صديقه — وفاجأهما الطلب وهما فى بيت ، فقال الذين دخلوا : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا ، خوفاً على صاحبه ، وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع ، لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلاً : ترفقوا بنا ، فإن لكل منا علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ، وليمض البعض الآخر إلى من وَجَّهكم ، فيذكر له تلك العلامات ، ففعلوا وأخذوا عبد الحميد . وفى رواية أن عبد الحميد لم يختبئ فى الجزيرة عند ابن المقفع ، بل قبض ساعة قتل مولاه مروان ، وأن عامر بن إسماعيل لما قتل مروان ظفر بعبد الحميد كاتبه ، فعرض عليه رؤوس القتلى ، لأنه قتل فى ستة أو سبعة من خواصه ، وكانوا معه ، فعرَّفه رأسه ، وحمل عبد الحميد إلى أبى العباس ، فسلمه إلى عبد الجبار صاحب شرطته فقتله . وهنا أيضاً اضطراب فى رأى من ترجموا لعبد الحميد فى نهاية أمره ، كما وقع الاختلاف فى أصله ؛ ولم يعقل أنه تخلَّف عن سيده فى الجزيرة ، والأرجح أنه قتل فى مصر على رواية المسعودى .

بلاغته وأسلوبه :

كان عبد الحميد على ما قال صاحب العقد أول من فتق أكمام البلاغة ، وسهل طرقها ، وفك رقاب الشعر ، وضربت الأمثال ببلاغته ؛ وقد أشار البحترى إلى ذلك فى قصيدته إلى محمد بن عبد الملك قال :

وتفننت فى البلاغة حتى عطل الناس فن عبد الحميد

وقال ابن الرومى لأبى الصقر :

لو أن عبد الحميد اليوم شاهده لكان بين يديه مذعناً وسناً

وقال ابن اسفنديار الكاتب :

وهو فى الحذق والبلاغة فى التـ طفيل [1] عبد الحميد فى الكتاب

وقال أبو إسحق الصابى :

أنسيتُم كتباً شحنت فصولها بفصول درٍّ عندكم منضود
ورسائلاً نفذت إلى أطرافكم عبد الحميد بهن غير حميد

وقال إبراهيم بن عباس الصُّولى وقد ذكر عبد الحميد عنده : كان والله الكلام معاناً له ، ما تمنيت كلام أحد من الكتاب قط أن يكون لى إلا كلامه .

جاء عبد الحميد بطريقة جديدة فى الكتابة العربية ، شرعها لكل من يحمل القلم بعده ، فنقل الإنشاء من طور إلى طور لم يكد يتغير حتى عهد ابن العميد ، وقالوا افتتحت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد . و بلاغة عبد الحميد لا تجنيس فيها ، شأن من كانوا من فصحاء العرب قبله ممن كان « كلامهم محض البلاغة » ، « اللهم إلا أن يقع ذلك اتفاقا غير مقصود قصده » ، وهو « أول من فك رقاب الشعر وسرح مقيده إلى النثر » .

ومعلوم أنه قلما عهد التطويل فى الرسائل على عهد الراشدين والأُمويين ، فابتدع عبد الحميد أُسلوبه الجديد الخاص به ، وكان ذلك عقبى تشعب أغراض الخلافة ، وامتداد عمرانها ، وانبساط ظل سلطانها ، فنهج للكتاب سبل الإنشاء ، وأعلى فى العالمين ذكرهم ، وشرَّف صناعتهم ، وكانت قبله فى الغالب لا تعد عملا شريفاً من أعمال الدولة ، ويتولاها على الأغلب الموالى ومن إليهم ؛ فوَقر هذا الفن الصعب فى النفوس حتى كان الإنشاء ينقل صاحبه من دواوينه إلى أرقى دواوين الملك .

كان عبد الحميد أول من أطال الرسائل ، ولا يبتدئ بلولا ، ولا ، و إن

(١) طفل الكلام تطفيلا : تدبره .

رأيت ، واستعمل التحميدات فى فصول الكتب ، فتابعه الناس على طريقته ؛ والتحميد حمدك الله عز وجل مرة بعد مرة ، وكثرة حمد الله سبحانه بالمحامد الحسنة ، وهو أبلغ من الحمد ، وربما سبق عبد الله بن المقفع إلى التحميدات ، ولكنها لم تشتهر كما اشتهرت من ديوان عبد الحميد ، وهو ديوان الخلافة يتناقل الناس عنه أكثر مما يتناقلون عن غيره .

ولم يكن عبد الحميد يطيل كل مرة فى رسائله ، بل يطيل مرة ويوجز مرة ، لكنه إلى التطويل أميل ؛ فصاحب هذا الانتقال فى الكتابة حافظ على إيجازها ما أمكن ، لكن الزمان اقتضاه أحياناً الإسهاب ، فأسهب وأجاد فى الطريقتين ، خصوصاً إذا قضت الحال ذلك ؛ مثل كتابه إلى أبى مسلم الخراسانى الذى كتبه على لسان محمد بن مروان لما ظهر أبو مسلم بدعوة بنى العباس ؛ كتب كتابا يستميله ويضمنه مالو قرئ لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبى مسلم ، وكان من كبر حجمه يحمل على جمل ، ثم قال لمروان : قد كتبت كتابا متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذلك وإلا فالهلاك ؛ فلما ورد الكتاب على أبى مسلم لم يقرأه ، وأمر بنار فأحرقه ، وكتب على جُذاذة منه إلى مروان :

محا السيف أسطارَ البلاغة وانتحى ... عليك ليوث الغاب من كل جانب

فإن يقدموا نُعمل سيوفا شحيذةً ... يهون عليها العتب من كل عاتب

وقالوا إن من جملة فقرات هذا الكتاب « إذا أراد الله إهلاك نملة أنبت لها جناحين » ؛ ومعنى قول الراوين إن كتابه من كبر حجمه حُمل على جمل ، أنه كان مكتوبا على رَقّ ، وفى الرقوق تكتب الأسطر القليلة على الأغلب ؛ وربما دعت كثرة الرقوق التى تضمنت هذا الكتاب أن لا ينهض رجل بحملها بل حملت لثقلها على جمل . وليس فى هذا التطويل المأثور عن عبد الحميد من

عيب ، مع ماعرف من تفننه فى بلاغته ؛ وهكذا جرى فى رسالة أبى مسلم الخراسانى ، فأطال وحمدت إطالته ، كما أطال فى نصيحته لعبد الله ولى عهد مروان ، فقد كتب كتابه هذا فى صفحات كثيرة ، فوضع ببيانه الرائع خططاً حربية ، وطرقا جديدة فى النظام والإدارة والسياسة ، وقواعد مهمة فى التربية ، ولا سيما فى تربية الملوك والعظماء ، وأصولا كلية فى علم النفس والعادات المستحبة ، ومعاملة المرءوسين وطلاب الحاجات وأرباب السعايات وأصحاب الأخبار . وبالإيجاز لا يتأتى لأحد أن يفيض فيما أفاض فيه من الأغراض العظيمة .

كان عبد الحميد يقول : أكرموا الكتّاب ، فإن الله عز وجل أجرى أرزاق الخلق على أيديهم ؛ وقال : إن كان الوحى ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب ؛ ومن غرر كلامه : القلم شجرة ثمرها الألفاظ ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة ، وكان يقول : البيان فى اللسان والبنان ، ومن كلامه : خير الكلام ما كان لفظه فخلاً ومعناه بكراً ؛ ويروى أنه مر بإبراهيم بن جبلة وهو يكتب خطًّا رديئاً فقال : أتحب أن يجود خطك ؟ قال نعم . قال : أطل جلفة[1] قلمك وأسمنها ، وحرّف قطتك وأيمنها . قال : ففعلت ذلك فجاد خطى ؛ وذكر صاحب الصناعتين أن عبد الحميد كان إذا استخبر الكاتب فى كتابه ، فكتب خبرك وحالك وسلامتك ، فصل بين هذه الأحرف ويقول قد استكمل كل حرف منها آلته ، ووقع الفصل عليه .

وكان كثيراً ما ينشد :

إذا خرج الكتاب كانت دُويّهم قسيّاً وأقلام الدوى لها نَبلا

قال زياد الأعجم حضرت جنازة هشام فسمعت عبد الحميد ينشد :

---

(١) القشرة .

وما سالم عما قليـــل بسالم وإن كثرت أحراسه ومواكبه

يريد سالم بن عبد الله ، ويقال ابن عبـد الرحمن أبو العلاء مولى هشام ابن عبد الملك وكاتبه ، وكان على ديوان الرسائل لهشام وللوليد بن يزيد .

وإن كان ذا باب شديد وحاجب فعما قليل يهجر الباب حاجبه

ويصبح بعد الحجب للناس مفرداً رهينة بيت لم تســتَّر جوانبه

فنفسك أكسبها السعادة جاهداً فكل امرئ رهن بما هو كاسبه

ورويت هذه الأبيات للأصمعى بتغيير البيتين الأخيرين إلى قوله :

وما كان إلا الدفن حتى تفرقت إلى غيره أفراسه ومواكبه

وأصبح مسرورا به كل كاشح وأسلمه أحبابه وحبائبـــه

ومن شعره :

كفى حزناً أنى أرى من أحبه قريباً ولا غير العيون تترجم

فأقسم لو أبصرتنا حين نلتقى ونحن سكوت خلتنا نتكلم

نموذجات من مختصراته ومطولاته :

وإذا جئنا نتعرف إلى عبد الحميد فى مطالبه وحاجاته ، وشفقته على نفســه وولده ورحمه ، فلدينا مما أبقت الأيام عليه من رسائله نموذجات يتجلى لنا فيها روحه ؛ منها ما كتبه إلى مروان فى حاجة : « إن الله بنعمته علىّ لما رزقنى المنزلة من أمير المؤمنين ، جعل معها شكرها مقروناً بها ؛ فهى تنمى بالزيادة ، والشكر مصاحب لها ، فليست تدخلنى وحشة من أبناء حاجتى ، وأنا أعلم أنه لو وصل إلى أمير المؤمنين علم حالى أغنانى عن استزادته ، ولكنى تكنفتنى مُؤَن استنفضت[1] ما فى يدى ، وكنت للخُلف من الله منتظراً ، فإنى إنما أتقلب فى

(١) استخرجته .

نعمه ، وأتمرغ فى فوائده ، وأعتصم بسالف معروفه كان عندى » .

ومنها ما أنشأه إلى أخٍ له فى مولود ولد له وهو أول مولود كان : « أما بعد فإن مما أتعرف من مواهب الله نعمة خصصت بميزتها ، واصطفيت بخصيصتها ، كانت أسرَّ لى من هبـة الله لى ولداً أسميته فلاناً ، وأَمَّلت ببقائه بعدى حياة وذكرى ، وحسن خلافة فى حرمى ، وإشراكه إياى فى دعائه ، شافعاً لى إلى ربه ، عند خلوته فى صلاته وحجه ، وكل موطن من مواطن طاعته ، فإذا نظرت إلى شخصه تحرك به وجدى ، وظهر به سرورى ، وتعطفت عليه منى أَنسة الولد ، وتولت عنى به وحشة الوحدة ، فأنا به جذل فى مغيبى ومشهدى ، أُحاول مس جسده بيدى فى الظُّلَم ، وتارة أُعانقه وأرشفه ، ليس يَعْدِله عندى عظيمات الفوائد ولا مُنْفَسات[1] الرغائب ؛ سرنى به واهبه لى على حين حاجتى ، فشد به أزرى ، وحملنى من شكره فيه ما قد آدنى[2] بثقل حمل النعم السالفة إلىّ به ، المقرونة سراؤها فى العجب بما رأت ما يدركنى (؟) به من رقة الشفقة عليه ، مخافة مجاذبة المنايا إياه ، ووجلا من عواصف الأيام عليه . فأسأل الله الذى امتن علينا بحسن صنعه فى الأرحام ، تأديبه بالزكاة وحَرْسه بالعافية ، وأن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفى غـيره ، وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته ، والمدة فى عمره ، موصولا بالزيادة ، مقروناً بالعافية ، محوطاً من المكروه ، فإنه المنان بالمواهب ، والواهب المنى ، لا شريك له . حملنى على الكتاب إليك لعلم ما سررت به علمى بحالك فيه (؟) وشركتك إياى فى كل نعمة أسداها إلىّ ولى النعم ، وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جل ذكره والسلام عليك » .

---

(١) مال منفس ومنفس بكسر الفاء وفتحها : كثير .

(٢) آده الأمر : بلغ منه المجهود .

ومنها ما أنفذه إلى أهله وهو منهزم مع مروان من فلسطين ، وهو آخر حرب ومواقعة كانت له ؛ وكانوا ينزلون بالقرب من الرقة بموضع يعرف بالحمراء ، يعزيهم عن نفسه « أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، وجعل فيها أقساما مختلفة بين أهلها ، فمن دَرَّت له بحلاوتها ، وساعده الحظ فيها ، سكن إليها ، ورضى بها ، وأقام عليها ؛ ومن قرصته بأظفارها ، وعضته بأنيابها ، قلاها [١] نافراً عنها ، وذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها ؛ وقد كانت أذاقتنا أفاويق [٢] استحليناها ، ثم جمحت بنا نافرة ، ورمحتنا [٣] مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ؛ فالدار نازحة ، والطير بارحة [٤] . وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم صبابة ووجداً ؛ فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفرُ جارح من أظفار من يليكم ، نرجع إليكم بذل الإسار ، والذل شر جار ، نسأل الله الذي يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة ، في دار آمنة ، تجمع سلامة الأديان والأبدان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين » .

وفي رواية أنه ختم هذه الرسالة هكذا : « فدارنا نازحة ، وطيرنا بارحة ، قد أخذت كل ما أعطت ، وتباعدت مثل ما تقربت ، وأعقبت بالراحة نصباً ، وبالجذل هماً ، وبالأمن خوفاً ، وبالعز ذلا ، وبالجدة حاجة ، وبالسراء ضراء ، وبالحياة موتاً ، لا ترحم من استرحمها ، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له ، منفيين عن الأولياء ، مقطوعين عن الأحباء » .

---

(١) قليت الرجل أقليه إذا أبغضته ، والقلى بالكسر البغض .

(٢) الفيقة بالكسر اسم اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين ج فيق بالكسر ، وفيق كعنب ، وفيقات وأفواق جج أفاويق ، والأفاويق ما اجتمع في السحاب من ماء فهو يمطر ساعة بعد ساعة .

(٣) رمحتنا : رفستنا

(٤) البارح من الصيد ما مرّ من ميامنك إلى مياسرك .

ومن رسائله المختصرة ما كتبه عن مروان إلى هشام ، يعزيه بامرأة من حظاياه : « إن الله تعالى أمتع أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته ، متاعاً مده إلى أجل مسمى ، فلما تمت له مواهب الله وعاريته ، قبض الله العارية ، ثم أعطى الله أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها ، والصبر عند ذهابها ، أنفس منها فى المنقلب ، وأرجح فى الميزان ، وأسنى فى العوض ، فالحمد لله و إنا إليه راجعون » .

وكتب موصياً بشخص وهى من مختصراته : « حقٌّ موصل كتابى إليك كحقه علىّ ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآنى أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فصدق أمله » . وكتب عن هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر وهو باليمن فى السلامة : « أما بعد فإن أمير المؤمنين كتب إليك وهو فى نعمة الله عليه ، و بلائه عنده فى ولده وأهل لُحمته ، والخاص من أموره والعام والجنود ، والقواصى والثغور ، والدهماء من المسلمين ، على ما لم يزل ولى النعم يتولاه من أمير المؤمنين ، حافظاً له فيه ، ومكرماً له بالحياطة لما ألهمه الله فيه من أمر رعيته ، وعلى أعظم وأكمل ما كان يحوطه فيه ، ويذب له عنه ؛ والله محمود مشكور إليه مرغوب فيه . أحب أمير المؤمنين لعلمه بسرورك به ، أن يكتب إليك بذلك لتحمد الله عليه وتشكره به ، فإن الشكر من الله بأحسن المواضع وأعظم المنازل ؛ فازدد منه تزدد به ، وحافظ عليه تحفظ به ، وارغب فيه يهد إليك مزيد الخير ، ونفائس المواهب ، و بقاء النعم . فاقرأ على من قبلك كتاب أمير المؤمنين إليك ، ليسرَّ به جندك ورعيتك ، ومن حمله الله النعم بأمير المؤمنين ليحمدوا ربهم على ما رزق الله عباده من سلامة أمير المؤمنين فى بدنه ، ورأفته بهم ، واعتنائه بأمورهم ، فإن زيادة الله تعلو شكر الشاكرين والسلام » .

وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض من خَرَج عن الطاعة وهو :

« أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر أنك تحمل المُرْدَ على الجُرد ، فسترد عليك جنود الله المقربون ، وأولياؤه الغالبون ، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول ، على الفحول ، كأنها الوعول ، تخوض الوحول ، طوال السبال ، تختضب بالجريال[1] ، رجال هم الرجال ، بين رامح وناشب ، ليس معهم إلا كلبٌ محارب ، ولا ينكلون عن الأصحاب ، قد ضَرُوا بضرب الهام ، واعتادوا الكر والإقدام ، ليسوا بذى هِينة ولا إحجام ، يقضون بالسيوف ، ويخالطون الزحوف ، فى أعنتهم الحتوف ، يزأرون زئير الأسد ، ويثبون وثوب الفهود ، ليس فيهم إلا شاكٍ محتبك ، فى الحرب محترب[2] ، قد شرب على ناجذ[3] الحرب وأكل ، ذو شقشقة وكلكل[4] ، كأنما أُشرب وجهه نقيع الحناء ، قد رئم[5] الحرب ورضعها ، وغذَّته وألفها ، فهى أُمه وهو ابنها ، يسكن إليها ويأنس بقربها ، فهو بطلبها أرِب ، وعلى أهلها حرِب ، لا يروعه ما يروع ، ولا يُزيغه ما يُزيغ الغُمر الجبان ، حين يشتد الوغى ، وتخطر القنا ، وتُقلَّص الشفاه ، وتسفر الكماة ، فعند ذلك تُسلمك المرد ، وتكشف عن الجرد ، فتأهب لذلك أُهبتك ، واخطب له خِطبتك ، من المساكين والحَوَكة ، ثم كيدونى جميعاً فلا تنظرون ، فما أسرنا إكثارُك الجموع وحشدك الخيول ، فإنك لا تكثّف جمعاً ، ولا تسرب خيلاً ، إلا وثقنا بأن سيمدنا الله من ملائكته ، ويزيدنا من نصره ، بما قد جرت به سنته ، وسلفت به عادته ، ونحن نجرى من ذلك على نقمات من الله ونكال وسطوات مهلكة . رأيتم ذلك فى المنازل ، وعرفتموه فى المواطن التى يجمعها

---

(١) الجريال بالكسر صبغ أحمر وحمرة الذهب وسلافة العصفر وما خلص من لون أحمر وغيره ؛ والخمر أو لونها كالجريالة فيهما ، والمقصود هنا الصبغ الأحمر .

(٢) حرب كفرح كلب واشتد غضبه (٣) الناجذ : الضرس أو الناب .

(٤) الكلكل والكلكال : الصدر أو ما بين الترقوتين ؛ والشقشقة بالكسر شىء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج . (٥) رئم الحرب : أحبها وألفها .

الحق والباطل ؛ فأبشر منا بما ساءك ضجراً ، وعساك تُقاد كما يقاد الجمل المخشوش[١] .

أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك ، إلا ما أحبَّ من رب صنيعته قِبَلك ، واستتمام معروفه إليك ، وكان أمير المؤمنين أحقَّ من أصلح ما فسد منك ، وإنك إن عدت لمثل مقالتك ، وما بلغ أمير المؤمنين عنك ، رأى فى معاجلتك رأيه ، فإن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدةً أبطرته ، فأساء حمل الكرامة ، واستثقل العافية ، ونسب ما هو فيه إلى حيلته ، وحسن نَبْتِه ورهطه وعشيرته ، وإذا نزلت به الغِيَر ، وانكشفت عَماية العشا[٢] عنه ، ذلَّ منقاداً وندم حسيراً ، وتمكّن منه عدوه ، قادراً عليه وقاهراً له . ولو أراد أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك ، ومعاجلة إفسادك ، جمع بينك وبين من شهد فَلَتات خطئك وعظيم زلتك ؛ ولعمرى لو حاول أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك فى مجلسك ، وجحودك فضلَه عليك ، لردَّك إلى ما كنت عليه ، ولكنت مستحقا » .

ومن رسالة كتب بها عن مروان لفرق العرب ، حين فاض العجم من خراسان بشعار السواد ، قائمين بالدولة العباسية : « فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية ، من يد الفئة العجمية ، واثبتوا ريثما تنجلى هذه الغمرة ، ونصحو من هذه السكرة ، فسينضب السيل ، وتمحى آية الليل ، والله مع الصابرين ، والعاقبة للمتقين » .

ومن رسائله المفردات ، رسالته فى الشطرنج والتنفير من اللعب به ، وهى : « أما بعد فإن الله شرع دينه بإنهاج سبله ، وإيضاح معالمه بإظهار فرائضه ،

---

(١) خششت البعير : جعلت فى أنفه الخشاش ، أى العود .

(٢) العشا مقصورة : سوء البصر بالليل والنهار كالعشاوة أو العمى ، عشى كرضى ، والعماية كالعماءة والعمية (كغنية) ويضم : الغواية واللجاج .

وبعث رسله إلى خلقه ، دلالة لهم على ربوبيته ، واحتجاجا عليهم برسالاته ، ومقدماً إليهم بإنذاره ووعيده ، (ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة) ، ثم ختم بنبيه (صلى الله عليه وسلم) وحيه ، وقفّى به رسله ، وابتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضياً له ، على حين انطمست له الأعلام مختفية ، وتشتتت السبل متفرقة ، وعفت آثار الدين دارسة ، وسطع رَهَج الفتن ، واعتلى قَتام[1] الظلم ، واستنهد[2] الشرك ، وأسدف[3] الكفر ، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيم الباطل بسكتة الحق ، واستطرف الجور ، واستنكح[4] الصدوف عن الحق ، واقمطرّ[5] تلهب الفتنة ، واستضرم لقاحها ، وطبقت الأرض ظامة كفر ، وغيابة فساد ، فصدع بالحق مأموراً ، وبلغ الرسالة معصوما ، ونصح الإسلام وأهله دالاّ لهم على المراشد ، وقائداً لهم إلى الهداية ، ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية[6] ، مرشداً لهم إلى استفتاح باب الرحمة ، وإعلان عروة النجاة ، موضحاً لهم سبل الغواية ، زاجراً لهم عن طريق الضلالة ، محذراً لهم الهلكة ، موعزاً إليهم فى التقدمة ، ضاربا لهم على الحدود ، على ما يتقون من الأمور ويخشون ، وما إليه يسارعون ويطلبون ، صابراً نفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترغيب والترهيب ، حريصاً عليهم ، متحنناً على كافتهم ، عزيزاً عليه عَنَتهم[7] رءوفاً رحيما ، تَقْدَمه شفقته عليهم ، وعنايته برشدهم ، إلى تجديد الطلب إلى ربه فيما فيه بقاء النعمة عليهم ، وسلامة أديانهم ، وتخفيف أواصر[8] الأوزار عنهم ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه ، ناصحاً

---

(١) الرهج : الغبار . والقتام كسحاب الغبار أيضاً .
(٢) استنهد : طلب أن ينهض . (٣) أسدف الليل : أظلم .
(٤) استنكح : غلب ، وصدف عنه : أعرض . (٥) اقطر : اشتد .
(٦) ضاحية : علانية . (٧) يقال : وقع فلان فى العنت ، أى فيما شق عليه .
(٨) الأواصر : الأواخى واحدتها آصرة ، والأواخى واحدها الآخية بالمد والتشديد عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة .

متنصحاً ، أميناً مأموناً ، قد بلّغ الرسالة ، وأدّى النصيحة ، وقام بالحق ، وعدل عمود الدين ، حتى اعتدل مَيَـله ، وذل الشرك وأهله ، وأنجز الله له وعده ، وأراه صدق أسبابه فى إكماله للمسـلمين دينه ، واستقامة سنته فيهم ، وظهور شرائعه عليهم ، قد أبان لهم موبقات الأعمال ، ومفظِعات الذنوب ، ومهبطات الأوزار ، وظلم الشبهات ، وما يدعو إليه نقصان الأديان ، وتستهويهم به الغوايات ، وأوضح لهم أعلام الحق ، ومنازل المراشد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومعالق[1] العصمة ، غير مدخر لهم نصحا ، ولا مبتغ فى إرشادهم غنما .

« فـكان مما قدّم إليهم فيه نهيه ، وأعلمهم سوء عاقبته ، وحذرهم أمره ، وأوعز إليهم ناهيا وواعظا وزاجرا ، الاعتكاف على هـذه التماثيل من الشطرنج والمواصلة عليها ، لمـا فى ذلك من عظيم الإثم ، وموبق الوزر ، مع مشغلتها عن طلب المعاش ، وإضرارها بالعقول ، ومنعها من حضور الصـلوات فى مواقيتها مع جميع المسلمين .

« وقد بلغ أمير المؤمنين أن أُناساً ممن قِبَلك من أهل الإسلام ، قد ألهجهم[2] الشيطان بها ، وجمعهم عليها ، وألف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليهـا ، من لدن مُصبحهم إلى مُمساهم ، ملهية لهم عن الصلوات ، شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم ، و (ما) افترض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعبتهم فيهـا ، وسوء لفظهم عليها ، وأن ذلك من فعلهم ظاهر فى الأندية والمجالس ، غير منكر ولا معيب ، ولا مستفظع عند أهل الفقه ، وذوى الورع والأديان والأسـنان منهم ، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه ، وكرهه

---

(١) المعلاق بالـكسر : كل ما علق به شىء كالمعلوق بالضم .
(٢) لهج بالشىء : أولع به .

واستكبره ، وعلم أن الشيطان عند مايئس من بلوغ إرادته فى معاصى الله عزّ وجل ، بمقر المسلمين ومجمعهم صُراحا وجهارا ، أقدم بهم على شبهة مهلكة ، وزين لهم ورطة موبقة ، وغرهم بمكيدة حيَله ، إرادة لاستهوائهم بالخدع ، واجتيالهم بالشبه والمراشد[١] الخفية المشكلة ، وكل مقيم على معصية الله صغرت أو كبرت ، مستحلا لها ، مشيدا بها ، مظهراً لارتكابه إياها ، غير حذر من عقاب الله عزّ وجل عليها ، ولا خائف مكروهاً فيها ، ولا رعيب من حلول سطوته عليها ، حتى تلحقه المنية فتختلجه[٢] وهو مصر عليها ، غير تائب إلى الله منها ، ولا مستغفر من ارتكابه إياها . فكم قد أقام على موبقات الآثام ، وكبائر الذنوب ، حتى مدّ به مخرم[٣] أيامه .

« وقد أوجب أمير المؤمنين أن يتقدم إليهم فيما باغه عنهم ، وأن ينذرهم ويوعز إليهم ، ويعلمهم مافى أعناقهم عليها ، ومالهم فى قبول ذلك من الحظ ، وعليهم فى تركه من الوزر . فآذن[٤] بذلك فيهم ، وأنشده فى أسواقهم وجميع أنديتهم ، وأوعز إليهم فيه ، وتقدم إلى عامل شرطتك فى إنهاك[٥] العقوبة لمن رُفع إليه من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها ، وإطالة حبسه فى ضيق وضنك ، وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين ، وافطمهم عما نهجوا به من ذلك ، والتمس بشدتك عليهم فيه ، وإنهاكك بالعقوبة عليه ثواب الله وجزاءه ، واتباع أمير المؤمنين ورأيه ، ولا يجدن أحد عندك هوادة[٦] فى التقصير فى حق الله عزّ وجل والتعدى لأحكامه ، فتحلّ بنفسك ما تسوءك عاقبته ، وتتعرض به

---

(١) المراشد : مقاصد الطرق ، واجتالتهم الشياطين : صرفتهم عن هداهم إلى ضلالتها ، وفى الحديث : خلق الله عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين .

(٢) الرعيب كالمرعوب ، وتختلجه : تنزعه . (٣) المخرم كمجلس : المنقطع .

(٤) آذن : أعلم . (٥) نهكه : بالغ فى عقوبته كأنهكه ؛ والنهك المبالغة فى كل شىء . (٦) هوادة : لين ورفق .

لغيرة الله عزّ وجل ونكاله ، واكتب إلى أمير المؤمنين ما يكون منك إن شاء الله والسلام » .

وعبد الحميد فى رسالته هذه أشبه الوعاظ والفقهاء بلهجته ، فقد رأيناه يكسو كلامه حلة من حلل الزهد ، ويدخل مُدخلاً دينيا يورد فيه البراهين على قضيته ، لينزع من النفوس حب التلهى بلعب يقطع صاحبه عن العمل ، وذكر لهم أن اللاعبين بالشطرنج يذكرون خلال لعبهم ألفاظاً لا يليق بالألسن ترددها ، ولا بالأسماع أن تنصت إليها ، وعرفنا من رسالته بعد هذا أن أُناساً من المنظور إليهم من الفقهاء وغيرهم من الأئمة كانوا مولعين بهذا اللعب منذ أوائل القرن الثانى .

ومن رسالة : فإن الفتنة تتشوف لأهلها بآنق منظر ، وأزين ملبس ، تجرُّ لهم أذيالها ، وتَعِدهم تتابع لذاتها ، حتى ترمِىَ بهم فى حومات أمواجها مسلمة لهم ، تعدهم الكذب وتمنيهم الخُدَع ، فإذا لزمهم عِضاضها ، ونفر بهم[1] شماسها ، تَخَلَّت عنهم خاذلة لهم ، وتبرأت منهم معرضة ، قد سُلبوا أجمل لباس دينهم ، واستُنزلوا عن أحصن معاقل دنياهم ، من الغناء البهىّ منظَره ، الجميل أثره ، حتى تطرحهم فى فضائح أعمالهم ، والإيجاف فى التعب ، وسوء المنقلب ، فمن آثر دينه على دنياه ، تمسك بطاعة ولاته ، وتحرز بالدخول فى الجماعة ، تاركاً لأثقل الأمرين ، وأوبل الحالين .

ومن رسالة له فى وصف الصيد كتب بها إلى مروان فيما يظهر .

« . . . خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح ، وأثقف الضوارى ، وأكرمها أجناساً ، وأعظمها أجساماً ، وأحسنها ألواناً ، وأحدّها أطرافاً ، وأطولها أعضاءً ،

---

(١) العضاض : الداهية والزمن الشديد الكلب ؛ ومُلك فيه عسف وظلم ؛ وشمس الفرس شموسا وشماسا : منع ظهره فهو شامس وشموس .

قد تثقفت بحسن الأدب ، وعودت شدة الطلب ، وسبرت أعلام المواقف ، وخبرت المجاثم ، مجبولة على ما عُوّدت ، ومقصورة على ما أدبت . ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة[١] ، من الشِهرية[٢] الموصوفة بالنجابة ، والجرى والصلابة . فلم نزل بأخفض سير وأثقف طلب ، وقد أمطرتنا السماء مطرا متداركاً فرَبت الأرض منه ، وزهر البقل ، وسكن القتام من مثار السنابك[٣] ، ومتشعبات الأعاصير ، مهلةَ أن سرنا غَلَوات ، ثم برزت الشمس طالعة ، وانكشفت السحاب مسفرة ، فتلألأت الأشجار ، وضحك النُّوار ، وانجلت الأبصار ، فلم نر منظرا أحسن حسناً ، ولا مرموقاً أشبه شكلاً ، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض ، والخيل تمرح بنا نشاطاً ، وتجذبنا أعنتها انبساطاً ، ثم لم نلبث أن علتنا ضبابة تقصر طرف الناظر ، وتخفى سبيل السلام ، تغشانا تارة ، وتنكشف أُخرى ، ونحن بأرض دمثة التراب ، أَشِبة[٤] الأطراف ، مغدقة الفجاج ، مملوءة صيدا من الظباء والثعالب والأرانب ، فأدانا المسير إلى غابة دونها مألف الصيد ، ومجتمع الوحش ، ونهاية الطلب ، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون ، وبكل حَرّة[٥] جَوْنة متفرقون ، فرجع بنا العود على البدء ، وقد انجلت الضبابة وامتد النظر ، فاذا نحن برَعلة[٦] من ظباء وخلفة آرام يرتعن آنسات ، قد أحالتهن الضبابة عن شخصنا ، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حسّنا ، فلم نعج إلا والضوارى لائحة لهن من بعد الغاية ، ومنتهى نظر

---

(١) دابة فارهة : نشيطة حادة قوية . (٢) بكسر الشين ضرب من البراذين .
(٣) السنبك والجمع السنابك : طرف الحافر وجانباه .
(٤) أشبة : ملتفة ، ودمثة : سهلة لينة .
(٥) الحرة أرض ذات حجارة سوداء ، والجَوْن الأسود والأنثى جونة .
(٦) الرعله : القطعة من الخيل وقد تكون من البقر ، والخلفة اختلاف الوحوش مقبلة مدبرة .

الشاخص ، ثم مدت الجوارح أجنحتها ، واجتذبت الضوارى مقاودها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها ، وسرعة الجوارح فى طلبها ، فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها ، تسف الأرض سفا[1] ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارشة[2] بأظفارها ، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد ، فمن صائح بها وناعر ، وهاتف بها وناعق ، يدعو الكلب باسمه ، ويفديه بأبيه وأمه ، وراكض تحت مفره وخافق يطلبه الرمح ، وطامح يمنعه ، وسانح قد عارضه بارح ، قد حيرتنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة ، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم الوهاب .

« ثم ملنا ، يا أمير المؤمنين ، بهداية دليل قد أحكمته التجارب ، وخبر أعلام المذانب[3] إلى غدير أفيح ، وروضة خضرة ، مستأجمة بتلاوين الشجر ، ملتفة بصنوف الخَمَر[4] مملوءة من أنواع الطير ، لم يذعرهن صائد ، ولا اقتنصهن قانص ، فخفق لها بالطبول ، وصفر بنفير الحتف ، فثار منها ما ملأ الأفق كثرتها ، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها ، ثم انبرت البزاة لها صائدة ، والصقور كاسرة ، والشواهين ضارية ، يرفعن الطالب لها ، ويخفضن الظفر بها ، حتى سئمنا من الذبح ، وامتلأنا من النضح[5] ، كأنا كتيبة ظفرت ببغيتها ، وسرية نُصِرت على عدوها ، وألحقت ضعيفها بقويها ، وغلبت محسنها بمسيئها ، لا نملك أنفسنا مرحاً ، ولا نستفيق من الجذل بها فرحاً ، بقية يومنا ، والله المنعم الوهاب .

« ثم غدونا ، يا أمير المؤمنين ، إلى أرض وُصف لنا صيدها بالكثرة ،

---

(١) السفيف : المرور على وجه الأرض . (٢) صائدة .

(٣) مسائل الماء ، والأعلام مفرده علم وهو منصوب فى الطريق يهتدى به ، والعلم : الجبل .

(٤) الخمر : الشجر المتكاثف ، والمستأجمة : كثيرة الشجر الملتف ، والتلاوين من لون البسر تلويناً بدا فيه أثر النضج ، والتلوين أيضا : تقديم الألوان من الطعام للتفكه والتلذذ ، ويطلق على تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر . (٥) النضح : البلل .

ورياضها بالنزهة ، فزلّ واصفها عن الطريقة ، واعتمد بنا على غير الحقيقة ، فأتيناها فلم نر صيدا ولا عشبا ، ولا نزهة ولا حسنا ، فجعلنا نسلك منها حزوناً ووعورا ، وجدوباً وقفراً ، حتى قصر بنا اليأس عن الطلب ، وقطع بنا عن الطمع النّصَب . فبينا نحن كذلك ، إذ بدا لنا جأب[1] قد أوفى بنا على حائل[2] دل على غابة من ورائها حمير وحش كثيرة ، فأممناها فلما تطرفنا مشياً وتقريبا إلى عاناته[3] . توالى نهيقه وكثر شهيقه ، فالتفتن إليه ، فرمقن بأعينهن منا ما استكثرن شخصه ، واستهولن أمره ، حتى إذا كنا بمرأى ومسمع انجذبن مولیات وهربن مسيئات ، فأجْهَدَنا الركض فى طلبهن ، نتبع آثارهن ، ونستشف بلاءً بين أحفار ودكادك وأخاديد[4] حتى أشفى بنا الطلب لها على واد هائل سائل ، بجنبتيه غابة أشبة ، قد سبقن إليها ، واستخفين فيها ، فنظمناها بالخيل نظم الخرز ، ثم أوغلت عدة فرسان فى نفضها ومعرفة أحوالها ، والطبول خافقة ، والأصوات شاهقة ، فكان وكان ، والحمد لله على كل حال » اهـ .

وهذه رسالة وقفتنا على مبلغ عنايتهم بالصـــيد ، ووصفت لنا ما لاقاه الصائدون ، وصفاً رائعاً مستوفياً كأننا كنا معهم ؛ وصف عُدَّتهم التى أعدوها ، والأرض التى وطئوها ، والشدة التى لقوها من سماء أمطرتهم وابلاً ورذَاذاً ، وكيف استخدموا الجوارح فى صـيودهم ، وما احتالوا من الحيل وحصروا من الوكد حتى تمت لهم أُمنيتهم ، فصادوا ما شاء الله أن يصـيدوا ، وعادوا مملوءة عبابهم وجعابهم بأنواع الصيد .

---

(١) حمار وحشى . (٢) الحائل : كل شىء تحرك فى مكانه ، وقد حال يحول واستحال الشخص نظر إليه هل يتحرك .

(٣) العانة : الإتان والقطيع من حمر الوحش . (٤) الدكادك جمع دكدك وهى الأرض فيها غلظ ، والأخاديد جمع أخدود وهو حفرة مستطيله فى الأرض .

ومن رسالة له فى الفتنة : « فى طاعة الأئمة فى الإسلام ، ومناصحتهم على أمورهم والتسليم لما أمروا به ، فَهْمُ كل نعمة فاضلة ، وكرامة باقية ، وعافية مجللة ، وسلامة ظاهرة وباطنة ، وقوة باذن الله مانعة ، وفى الخلاف لهم والمعصية عليهم ، ذهاب كل نعمة ، وتفرق كل كرامة ، ومحق كل قِنية ، وهلاك كل سلامة وأُلفة ، وموت كل عز وقوة ، والدعاء بكل بلية ، ومقارفة كل ضلالة ، واتباع كل جهالة ، وإحياء كل بدعة ، وإماتة كل سنة ، وإجلاب كل ضرر على الأمة ، وإدبار كل منفعة ، والعمل بكل جور وباطل ، وفناء كل حق ، وبمعصية خليفة الله لا يزال رجل من المسلمين يضرب بسيفه الذى بيديه سيف أخيه الذى كان يعتمد عليه ، ويوهن عضده ، ويهدم حصنه ، ويفلُّ عدده ، ويهلك ثروته ، ويعطب من يدعوه ، ويفزع إليه ، ويكثر بمكانه ، ويحرسه من غفلته عن الأعداء إذا غفل ، ويكون عبئاً له من خلفه ، فلا يزال بالمعصية منهم والاختلاف دم يُهراق بغير حقه ، وطفل من أبناء المسلمين قد يتم من أبيه ، ومذلة قد دخلت عليه ، ونعمة قد زالت عنه ، ووحشة قد أحدثت ضغائن فى القلوب قد نشبت ، وشحناء قد ظهرت ، وأوتار [1] قد بقيت ، وعداوة فى الأنفس قد استقرت ، وخوف قد ظهر ، وسبل قد قطعت ، وامرأة قد أُرملت ، وصبية قد يتمت ، وبلاد عامرة قد خربت ، وعدد قد نقص ، وبلايا قد عمت وشملت ، وعدو قد شمت ، ومنافق قد رَفع إلى ما كان يؤمل رأسَه ، وعدو من المشركين قد طمع وقوى بعد ضعف ، وعزّ بعد مذلّة ، ورعية قد صاحت ، وناعية قد ولولت ، وحميم قد قتل حميمه ، ومودة قد صارت عداوة ، واجتماع من الأهواء قد عاد إلى فرقة ، وأرحام قد تقطعت .

---

(١) الوتر بالكسر : الذحل أى الثأر .

« فانظروا يا معاشر المسلمين ماذا تفعل الفتنة والمعصية ، وكيف يدب الشيطان لها ، ويسعى فيها ، ويحتال بخديعته ومكره ، ولطف مسالكه حتى يُلهبها ويَشعلها ، ويرفعها من قلتها إلى الكثرة ، ومن صغرها إلى كبرها ، فإنه إنما يبدو الظفر على الولاة (؟) ، ثم يترامى إلى الشكاة والسَّخطة والغضب ، وزين لهم القتال فبلغ الهلاك الأعظم ، والشر الأكبر ، بطرق أمر صغير الخطر فى الظاهر ، عظيم البلية فى الباطن ، فلا يزال الرجل ينظر منهم إلى قاتل أبيه وأخيه وحميمه وذوى قرابته وأهل مودته والنافع كان ، ثم تحمَّل العداوة فى قلبه ، والضغينة العظيمة عليه ، ويستعد للنقمة منه ، وطلب الذَّحْل[1] عنده ، فبثت تلك الضغائن فى الأبناء بعد الآباء ، فانظروا يا أهل الإسلام من أين دب الشيطان بلطيف مسالكه ، وعلى أى شىء ورد ، وإلى أى أمر تسامى ، حتى عم بالمعصية أهل الإسلام عامة » اهـ .

واستفدنا أيضاً من هذه الرسالة أن البلاد كانت تموج بالفتن أواخر عهد الخليفة مروان بن محمد الأموى ، وأن عبد الحميد يريد بتأثير قلمه أن ينزع أهل الأقطار عن التردى[2] فى مهالكها ؛ ولكم كتب من مثلها منذ نادى أهل خراسان بشعار العباسيين يا ترى ؟ . وما نظن إلا أن مجموعة رسائله تبلغ أكثر من ألف ورقة لا كما قال بعضهم ؛ وقد عرفنا بهذا النموذج الضئيل الذى بقى من ذاك التراث العظيم أن صاحبنا كان بعيدَ النظر فى السياسة ، شديد الغيرة على سلطان بنى أُمية ، عارفاً بما سيحلُّ بالدولة ، وود لو يتحيل لها بمخرج ينجيها ولو بعض الشىء من المأزق الذى صارت إليه ، حتى لقد أراد سيده على أن

---

(١) الذحل : الثأر أو طلب مكافأة بجناية .

(٢) تردى فى مهواة : سقط فيها ، ورديته تردية .

يعمد إلى الزواج السياسى و يتقرب من بنى هاشم بالإصهار إليهم . قال لمروان حين رأى علوّ أمر بنى العباس : أتتهمنى يا أمير المؤمنين فيك ؟ قال : لا . فقال له : أرأيت ابراهيم بن محمد بن على أليس ابن عمك ؟ قال : بلى . قال : فانى أرى أموره تنبغ[1] عليك فأنكحه وانكح إليه ، فإن ظهر كنت أعلقت بينك و بينه سبباً ، و إن كفيته لم تُمْنَ بصهره . فقال : و يحك ! والله لو علمته صاحب الأمر لسبقت إليه ، ولكن ليس هو بصاحبه ، فقال له : وما يضرك من ذلك ، وهو من القوم الذين تعلم أن الأمر منتقل إليهم لا محالة ، وأن الصواب أن تعلق بينك و بينهم سبباً . قال مروان : والله إنى لأعلم أن الرأى فيما تقول ، ولكنى أكره أن أطلب النصر بأحراح النساء .

* * *

لعبد الحميد الأكبر رسالتان كبيرتان : الأولى رسالته فى نصيحة ولى العهد ، والثانية رسالته إلى الكتاب ؛ كتب الأولى على لسان مروان إلى ابنه وولى عهده عبد الله ، لما وجهه إلى قتال الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى ، وكان هذا استولى على الموصل وكورها سنة ١٢٧ ؛ وقد انطوت هذه الرسالة المرقصة على أغراض كثيرة يمكن إجمالها فى موضوعين مهمين : الأول درس عظيم فى تربية أبناء الملوك والعظماء وتلقينهم الأخلاق الفاضلة ؛ والثانى وضع خطط حربية يسير عليها ولى العهد فى قتال العدو . وقد أثبت عبد الحميد بهذه الرسالة أنه من علماء التربية والنفس ، وأنه عارف بالسياسة والإدارة والحرب ، يستطيع أن يقود الجيوش بعقله كما يقود الممالك بقلمه .

بدأ رسالته فى وصف الخارجى ، وأن الخليفة أراد أن يعهد إلى ولى عهده

---

(١) تثور وتفشو .

عهداً يحمله فيه أدبه ، ويشرع له عظته ، وإن كان ولى العهد فى الغاية من الدين ، والتحلى بما يَحْسُن بالخلافة ، ولو لم يكن كذلك ما خصه أبوه بالولاية عنه دون بنى أبيه ؛ وقال له : إن الخليفة بوعظه ابنه أيضاً ائتمر بأمر الله ، وما تقدمت فيه الحكماء من تقديم العظة والتذكير ، وإن كانوا أهل معرفة وأولى سابقة فى الكمال وفضل فى العلم . قال : ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ، ولقنوه إلهاماً من تلقائهم ، ولم يتعلموا شيئاً من عند غيرهم ، لنحلناهم علم الغيب ، ووضعناهم بمنزلة قصرهم بها عنهم خالقهم ، المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته فى فردانيته فى إلاهيته . . . قال : وأمير المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبح يهش له طمع ، وأن يعصمك من كل مكروه حاق[1] بأحد ، وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرئ فى دين أو خُلق ، وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعوّده من آثار نعمة الله عليك ، سامية بك إلى ذروة الشرف ، ومنجحة لك بسطة الكرم ، لائحة بك فى أزهر مغانى الأدب ، مورثة لك أنفَس ذخائر العز .

و بعد أن كان الخليفة يخاطب ابنه بصيغة الغائب ، انقلب وخاطبه خطاب الحاضر فقال : « والله أستخلف عليك ، وأسأله حياطتك ، وأن يعصمك من زيغ الهوى ، ويحضرك دواعى التوفيق ، معاناً على الإرشاد فيه ، فإنه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو » . وهذا الانقلاب فى تنويع الخطاب من أجمل ما بدر على قلمه ؛ ذلك أن الخليفة بعد أن خاطب ابنه خطابه عاملاً من عماله ، عاد فذكر البنوة فدعا له دعاء والد لولده ، ليوفق فى مقاصده ويسلم فى بدنه . ثم هوّن عليه الأمر ، وأبان له قدر نفسه ، وما تيسر له من أسباب التفوق بأخلاقه

---

(١) حاق به شىء : نزل .

فقال : « وقد تلقتك أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها ، من غير تعب البحث فى إدراكها ، ولا متطاول المنال لذروتها ، بل تأثلت[١] منها أكرم معانيها ، واستخلصت منها أعتق جواهرها ، ثم شمرت إلى لباب مصاصها ، وأحرزت مَنْفَس[٢] ذخائرها ، فاعتقد ما أحرزت ، ونافس فيما أصبت » . ومما قدمه له من العظة فى ذلك أن يشكر الله فى كل صباح على نعمة السلامة والعافية ، وأن يقرأ فيه من كتاب الله جزءاً يردد فيه رأيه فى أدبه ، ويزين لفظه بقراءته . ويحضر عقله ناظراً فى محكمه ، ويتفهمه متفكراً فى متشابهه ؛ يريد بذلك تقوية عقيدته فى الدين ، وتقوية ملكته فى البلاغة .

وبعد ذلك التفت فقال : « ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك ، فإنه مغلاق[٣] الحسنات ، ومفتاح السيئات ، واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك ، ويعترض غفلتك ، لأنها خدع إبليس وحبائل مكره ، ومصايد مكيدته ، فاحذرها مجانباً لها ، وتوقّها محترساً منها ، واستعذ بالله من شرها ، وجاهدها إذا تناصرت[٤] عليك بعزم صادق لا ونية فيه ، وحزم نافذ لا مثنوية[٥] لرأيك بعد إصداره عليك ، وصدق غالب لا مطمع فى تكذيبه ، ومضاءة صارمة لا أناة معها ، ونية صحيحة لا خلجة[٦] شك فيها ، فإن ذلك ظِهرىٌّ[٧] صدق لك على ردها عنك ، وقطعها دون ما تتطلع إليه منك ، وهى واقية لك سخطة ربك ، داعية لك رضا العامة ، ساترة عليك عيب من دونك . . . فحاول بلوغ غايتها ، محرزاً لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع ، محصناً أعمالك من العجب ، فإنه رأس الهوى ، وأول

---

(١) تأثلت : اكتسبت . (٢) منفس : ما يتنافس فيه .
(٣) المغلاق بكسر الميم ما يغلق به الباب .
(٤) تناصرت الأخبار : صدق بعضها بعضا . (٥) مثنوية : استثناء .
(٦) خلجة : اضطراب . (٧) ظهرى : عدة .

الغواية ، ومقاد الهلكة ، حارساً أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوى العادات » .

« ومنها أن تملك أمورك بالقصد ، وتصون سرك بالكتمان ، وتداوى جندك بالإنصاف ، وتذلل نفسك بالعدل ، وتحصن عيوبك بتقويم أوَدك ، وأناتَك فوقّها الملال وفوت العمل ، ومضاءتك فدرّعها روية النظر ، واكنفها بأناة الحلم ، وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة ، وصمتك فانف عنه عِىَّ اللفظ ، وخف فيه سوء القالة [١] ، واستماعك فارْعه [٢] حسن التفهم ، وقوّه بإشهاد الفكر ، وعطاءك فانهد [٣] له بيوتات الشرف وذوى الحسب ، وتحرز فيه من السرف ، واستطالة البَذَخ [٤] وامتنان الصنيعة ، وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصَر ، وحلمك فزَعْه عن التهاون ، وأحضره قوة الشكيمة [٥] ، وعفوبتك فقصر بها عن الإفراط ، وتعمد بها أهل الاستحقاق ، وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق ، وخذ به واجب المفترض ، وأقم به أوَدَ الدين ، واستئناسك فامنع منه البذاءة وسوء المثافنة [٦] ، وتعهدك أمورك فخدّه أوقاتاً ، وقدّره ساعات ، لا يستفرغ قوتك ، ويستدعى سآمتك ، وعزماتك فانف عنها عجلة الرأى ، ولجاجة الإقدام ، وفرحاتك فاشكمها [٧] عن البطر ، وقيّدها عن الزهد ، وروعاتك فحطها من دهش الرأى ، واستسلام الخضوع ، وحذراتك فامنعها عن الجبن واعمد بها للحزم ، ورجاءك فقيده بخوف الفائت ، وامنعه من أمن الطلب » .

---

(١) يطلق القول فى الخير ، والقال والقيل والقالة فى الشر .
(٢) اسمعه . (٣) نهد الهدية : عظمها وأضخمها .
(٤) البذخ : الكبر . (٥) الشكيمة : قوة القلب .
(٦) المثافنة : المباطنة ، وفى رواية : المنافثة ومعناها الأذية .
(٧) شكمه يشكمه شكما : وضع الشكيمة فى فيه ، والشكيمة فى اللجام الحديدة المعترضة فى فم الفرس التى فيها القأس ، وقأس اللجام هى الحديدة القائمة فى الشكيمة إذا كان ذا عارضة وحد ج شكائم وشكم .

ثم ذكر له كيف يتخير عشراءه ويعامل مشاوريه ، ويتوقى انتشار أخباره فى العامة ، إلا على ما لا يسقط من شأنه ، فقال : « ثم لتكن بطانتك وجلساؤك فى خلواتك ، ودخلاؤك فى سرك ، أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك وعامة قوادك ، ممن قد حنكته السنُّ بتصاريف الأمور ، وخبطته فصالها بين فراسن[1] البزل منها ، وقلبته الأمور فى فنونها ، وركب أطوارها عارفاً بمحاسن الأمور ، ومواضع الرأى ، مأمون النصيحة ، مطويَّ الضمير على الطاعة ، ثم أحضرهم من نفسك وقاراً ، تستدعى منهم لك الهيبة ، واستئناساً يعطف إليك منهم بالمودة ، وإنصاتاً يفلُّ إفاضتهم عندك بما تكره أن ينتشر عنك من سخافة الرأى ، وضياع الحزم ، ولا يغلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأى ، ويقطعك دون الفكر . وتعلّم أنك وإن خلوت بسر فألقيت دونه سترك ، وأغلقت عليه أبوابك ، فذلك لا محالة مكشوف للعامة ، ظاهر عنك وإن استترت بر بما ولعل ، وما أُرى إذاعة ذلك ، فاعلم بما يرون من حالات من ينقطع به فى تلك المواطن ، فتقدم فى إحكام ذلك من نفسك وسدَّ خلله عنك ، فإنه ليس أحد أسرع إليه سوء القالة ، ولغط العامة بخير أو شر ، ممن كان فى مثل حالك ومكانك الذى أصبحت فيه من دين الله ، والأمل المرجو المنتظر فيك » .

ثم حذره من مسائل لها مساس عظيم بمن لهم السلطان على الناس ، فكلمه فى أمور عامة تنتظم بسيره وبسيرته فقال له : « وإياك أن يغمز[2] أحد من حامَّتك وبطانة خدمك ، بضعفة يجد بها مساغاً إلى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه ، ولا تخلو من الأحدوثه لأمته ، ولا تأمن سوءاً فيه ، ولا يرخُص سوء

(١) الفرسن والجمع فراسن : رجل الجمل ، والبزل كركع : جمع بازل وهو البعير إذا ظهر نابه ، ومن المجاز : الرجل الكامل فى تجربته .

(٢) أغمز فى فلان : إذا عابه واستضعفه وصغر شأنه ، والحامة القرابة والأسرة .

القالة فيه ، إن نَجَم ظاهراً ، أو أعلن بادياً ، ولن يجترئوا على تلك عندك ، إلا أن يروا منك إصغاءً إليها ، وقبولاً لها ، وترخيصا لهم فى الإفاضة بها ، ثم إياك أن يفاض عندك بشىء من الفكاهات والحكايات ، والمزاح والمضاحك ، التى يستخف بها أهل البطالة ، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة ، ويجد فيها أهل الحسد مقالاً لعيب يذيعونه ، ولطعن فى حق يجحدونه ، مع ما فى ذلك من نقص الرأى ودَرَن العرض ، وهدم الشرف وتأثيل[1] الغفلة ، وقوة طباع السوء الكامنة فى بنى آدم . كمون النار فى الحجر الصلد ، فإذا قدح لاح شرره ، وتلهب وميضه ، ووقد تضرمه ، وليست فى أحد أقوى سطوة ، وأظهر توقداً وأعلى كموناً ، وأسرع إليه بالعيب ، وتطرق الشين ، منها إلى من كان فى سنك من أغفال[2] الرجال ، وذوى العنفوان فى الحداثة الذين لم يقع عليهم سِمات الأمور ناطقاً عليهم لائحها ، ظاهراً عليهم وسمها ، ولم تمحضهم شهامتها ، مظهرة للعامة فضلهم ، مذيعة حسن الذكر عنهم ، ولم يبلغ بهم الصيت فى الحنكة مستمعاً يدفعون به عن أنفسهم نواطق ألسن أهل البغى ، ومواد أبصار أهل الحسد » .

وعاد بعد أن حذره من الخفة فى المواكب ، ومداعبة من يسايره بالتضاحك إليه ، يريده على أن يستعمل الجد فى حركاته ، بحيث لا تتقلقل جوارحه ، ويحذره من السعاية ، ويدله على الطريقة فى معاملة النمامين ، وعلى الترفع عن الجواسيس وصورة معاملتهم لا يأخذ منهم الا ما ينفع الدولة فقط ؛ ونهج له السبيل السوى فى معاملة أصحاب الحاجات ، فقال : « واعلم أن قوماً سيسرعون إليك بالسعاية ، ويأتونك من قبيل النصيحة ، ويستميلونك بإظهار الشفقة ،

---

(١) التأثيل : التأصيل .

(٢) رجل غفل : لم يجرب الأمور .

ويستدعونك بالإغراء والشبهة ، ويوطئونك عشوة[١] الحيرة ، ليجعلوك ذريعة لهم إلى استئكال[٢] العامة ، بموضعهم منك فى القبول منهم ، والتصديق لهم على من قرفوه[٣] بتهمة ، أو أسرعوا بك فى أمره إلى الظِنَّة ، فلا يصلن إلى مشافهتك ساع بشبهة ، ولا معروف بتهمة ، ولا منسوب إلى بدعة ، فيعرضك لابتداع[٤] فى دينك ، ويحملك على رعيتك ما لا حقيقة فيه ، ويلحمك[٥] أعراض قوم لا علم لك بدخلهم ، إلا بما أقدم به عليهم ساعياً ، وأظهر لك منهم متنصحاً .

« وليكن صاحب شُرَطك ، ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك ، إليه انتهاء ذلك وهو المنصوب لأوليائك ، والمستمع لأقاويلهم ، والفاحص عن نصائحك ، ثم ليُنْهِ ذلك إليك على ما يرتفع إليه منه ، لتأمره بأمرك فيه ، وتقفه على رأيك ، من غير أن يظهر ذلك للعامة ، فإن كان صواباً نالتك حظوته ، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل ، أو فرطةً سعى بها كاذب ، فنالت الساعى منها أو المظلوم عقوبة ، أو بدر منك إليه عقوبة ونكال ، لم يعصب[٦] ذلك الخطأ بك ، ولم تنسب إلى تفريط ، وخلوت من موضع الذم فيه ، محضراً إليه ذهنك وصواب رأيك ، وتقدم إلى من تولى ذلك الأمر ، وتعتمد عليه فيه ، أن لا يقدم على شىء ناظراً فيه ، ولا يحاول أخذ أحد طارقاً له ، ولا يعاقب أحداً منكلاً به ، ولا يخلى سبيل أحد صافحاً عنه لإصحار[٧] براءته ، وصحة طريقته ، حتى يرفع إليك أمره ، وينهى إليك قضيته على جهة الصدق ،

---

(١) العشوة : الظلمة .
(٢) استأكل الضعفاء : أخذ أموالهم .
(٣) قرف فلاناً : عابه أو اتهمه .
(٤) فى رواية لإيتاغ دينك ، يقال : أوتغه أهلكه ، وهذا مما يوتغ الدين والمروءة .
(٥) ألحم الحرب فالتحمت ، أى يعرضك للهلكة بقرض عرض من لا تعرف .
(٦) عصب القوم بفلان : أحاطوا به .
(٧) الإصحار : الوضوح .

ومنحى الحق ، ويقين الخبر ، فإن رأيت عليه سبيلاً لحبس ، أو مجازاً لعقوبة ، أمرته بتولى ذلك من غير إدخاله عليك ، ولا مشافهة لك منه ، فكان المتولى لذلك ، ولم يجر على يديك مكروه رأى ، ولا غلظة عقوبة ، وإن وجدت إلى العفو عنه سبيلاً ، أو كان مما قُرف به خليا ، كنت أنت المتولى للإنعام عليه بتخلية سبيله والصفح عنه بإطلاق أسره ، فتوليت أجر ذلك واستحققت ذخره ، وأنطقت لسانه بشكرك ، وطوقت قومه حمدك ، وأوجبت عليه حقك ، فقرنت بين خصلتين ، وأحرزت حظوتين ، ثواب الله فى الآخرة ، ومحمود الذكر فى العاجلة .

« ثم وإياك أن يصل أحد من جندك ، وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك ، أو حاجة يبدهك بطلبها ، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذى أهدفته لذلك ونصبته له ، فيعرضها عليك منهياً لها على جهة الصدق عنها ، وتكون على معرفة من قدرها ، فإن أردت إسعافه بها ، ونجاح ما سأل منها ، أذنت له فى طلبها ، باسطاً له كنفك ، مقبلاً عليه بوجهك ، مع ظهور سرورك بما سألك ، فسحة رأى ، وبسطة ذَرع ، وطيب نفس ؛ وإن كرهت قضاء حاجته ، وأحببت رده عن طلبته ، وثقل عليك إجابته إليها ، وإسعافه بها ، أمرت كاتبك فصفحه[1] عنها ، ومنعه من مواجهتك بها ، فخفّت عليك فى ذلك المؤونة ، وحسن لك الذكر ، ولم ينشر عنك تجهم[2] الرد ، وينلك سوء القالة

---

(١) يقال : أتانى فلان فى حاجة فاصفحته عنها إصفاحاً إذا طلبها فمنعته . قال ابن الأثير صفحته إذا أعطيته ، وأصفحته إذا حرمته ، وصفحه عن حاجته ، يصفحه صفحاً ، وأصفحه كلاهما رده .

(٢) جهم : ككرم جهامة وجهومة ، وجهمه كمنعه وسمعه استقبله بوجه كريه كتجهمه وله .

فى المنع ، وحمل على كاتبك فى ذلك لائمة أنت منها برئ الساحة .

« وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود ، وأتاك من الرسل ، فلا يصلن إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك ، وعلم ما قدم له عليك ، وجهة ما هو مكلمك به ، وقدر ما هو سائلك إياه ، إذا وصل إليك فأصدرت رأيك فى حوائجه ، وأجلت فكرك فى أمره ، واخترت معتزماً على إرادتك فى جوابه ، وأنفذت مصدور رويتك فى مرجوع مسألته ، قبل دخوله عليك ، وعلمه بوصول حاله إليك ، فرفعت عنك مؤونة البديهة ، وأرخيت عن نفسك خناق[1] الروية ، وأقدمت على رد جوابه بعد النظر ، وإجالة الفكر فيه ، فإن دخل إليك أحد منهم ، فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبك ، وطوى عنه حاجته قِبَلَك ، دفعته عنك دفعاً جميلاً ، ومنعته جوابك منعاً وديعاً ، ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له ، والغلظة عليه ، ومنعته من الوصول إليك ، فإن ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب ، صارفاً عنك مؤونتها ، ومسهلاً عليك مستصعبها » .

هذه هى الخطة التى اختطها عبد الحميد لولى عهد المسلمين ، يريد بها أن يرفع مقامه بين الناس ، على اختلاف مطالبهم ، وأن يظهر بمظهر الكرامة ، بعيداً عن تجبيه قاصديه والتجهم لهم ، وهو ضرب من حسن السياسة ما نخال رجال الدول الراقية اليوم يعملون بغير هذه الطريقة حتى لا يسقطوا من الأنظار ، ويتركوا للمراجعين فسحة من الأمل ، ولا يقطعوا معهم قطعاً بتًّا ، وأن يستهدف صغار العمال للنقد وأفظع من النقد ، والرئيس بمأمن ، على حين هو الكل فى الكل ،

---

(١) الخناق كـكتاب : الحبل يخنق به ، وكغراب : داء يمتنع معه نفوذ النفس إلى الرئة والقلب ، ويقال أيضاً : أخذه بخناقه بالكسر والضم ومخنقه أى بحلقه (القاموس) .

والصغير عن رأيه صدر ، ولإرادته نفذ ، ولقانونه طبق . وماذا يَضير هذا لو حمل الناس عليه بالطعن ، وقد يفادى بالمئات من العمال لقيام الدولة وحفظ البيضة ، واستبقاء الكرامة والحظوة ، فى سبيل الرفع من مكانة الرئيس الأول ، فإن بسقوطه سقوط الدولة ، وسقوط بعض عماله لا شأن له ولا بال . وحقيقة فإن من المسائل ما يوفق لكشفه صاحب الشرطة مثلاً أكثر مما يوفق العظيم فى الدولة ، لأنه متمحض لذلك ، ومقام ولاية العهد يصغر فى نفوس الأمة إذا عمل صاحبه فى جزئيات الأمور عملاً قد يجيده العامل الصغير ، ويوفق فيه ، ويوفر على صاحبه وقته ، ويرفع فى العيون شخصيته .

جوَّد عبد الحميد الكلام على هذا فأبان عن بعد نظر فى سياسة الملك وسياسة الرعية ، ثم أنشأ ينهج للمكتوب إليه طريقاً مَهْيَعاً (١) ، فى سلوكه مع جلسائه وبطانته ، وأهل مشورته وأعوانه ، وفى أحوال نفسه . وتالله لقد لقنه هنا أدباً وحدد له عادات أشبه بقواعد الحياة العامة فى الممالك المتحضرة اليوم . والعقل البشرى على كثرة ارتقائه جيلاً فجيلاً ، لن يبرح فى دائرة نرى فيها ما كان يستحسن قبل ألف سنة يستحسن اليوم ، وتلك القواعد التى يتمسكون بها هى القواعد التى سنها أجدادنا لأنفسهم منذ ثلاثة عشر قرناً . قال عبد الحميد :

« إحذر تضييع رأيك ، وإهمالك أدبك ، فى مسالك الرضا والغضب ، واعتوارهما إياك ، فلا يزدهِيَنَّك إفراط عجب تستخفك روائعه ، ويستهويك منظره ، ولا يبدرن منك (فى) ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه إن حلَّ بك ، أو حادث إن طرأ عليك ... وامنع أهل بطانتك وخاصة خدمك من استلحام (٢)

---

(١) طريق مهيع : واضح واسع بين وجمعه مهايع .

(٢) استلحم : اتبع ، وفى حديث أسامة : فاستلحمنا رجل من العدو أى تبعنا ، يقال : استلحم الطريدة والطريق أى تبع .

أعراض الناس عندك بالغيبة ، والتقرب إليك بالسعاية ، والإغراء من بعض ببعض ، أو النميمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك ، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة ، فإن ذلك أبلغ بك سموًّا إلى منالة الشرف ، وأعون لك على محمود الذكر ، وأطلق لعنان الفضل فى جزالة الرأى وشرف الهمة وقوة التدبير .

« واملك نفسك عن الانبساط فى الضحك والانفهاق[1] ، وعن القطوب بإظهار الغضب وتنحله[2] ، فإن ذلك ضعف عن ملك سَوْرة الجهل ، وخروج من انتحال اسم الفضل ، وليكن ضحكك تبسما أو كشراً فى أحايين ذلك وأوقاته ، وعند كل رائع مطرب ، وقطوبك إطراقاً فى مواضع ذلك وأحواله ، بلا عجلة إلى السطوة ، ولا إسراع إلى الطِيَرة ، دون أن يكنفها روية الحلم ، وتملك عليها بادرة الجهل .

« إذا كنت فى مجلس مَلَكِك ، حيث حضور العامة مجلسك ، فإياك والرمى بنظرك إلى خاص من قوادك ، أو ذى أثرة[3] عندك من حشمك ، وليكن نظرك مقسوماً فى الجميع ، وإراعتك سمعك ذا الحديث بدَعَة هادئة ، ووقار حسن ، وحضور فهم مجتمع ، وقلة تضجر بالمحدث ، ثم لا يبرح وجهك إلى بعض حرسك وقوادك متوجهاً بنظر ركين ، وتفقد محض ، وإن وجه إليك أحد منهم نظره محدقاً ، أو رماك ببصره ملحا ، فاخفض عنه إطراقاً جميلا باتداع وسكون ، وإياك والتسرع فى الإطراق ، والخفة فى تصريف النظر ، والإلحاح

---

(١) الاتساع . (٢) تنحل الشيء وانتحله : ادعاه . (٣) فى الحديث قال للأنصار : إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا . الأثرة بفتح الهمزة والثاء : الاسم من آثر يؤثر إيثاراً إذا أعطى ، أراد أن يستأثر عليكم فيفضل غيركم فى نصيبه من الفيء .

على من قصد إليك فى مخاطبته إياك رامقاً بنظره .

« واعلم أن تصفحك وجوه جلسائك ، وتفقدك مجانسة قوادك ، من قوة التدبير ، وشهامة القلب ، وذكاء الفطنة ، وانتباه السّنة ، فتفقد ذلك عارفاً بمن حضرك وغاب عنك ، عالماً بمواضعهم من مجلسك ، ثم اغدُ بهم عن ذلك سائلا لهم عن أشغالهم التى منعتهم من حضور مجلسك ، وعاقتهم بالتخلف عنك .

« إن كان أحد من حشمك وأعوانك تثق منه بغيب ضمير ، وتعرف منه لين طاعة ، وتشرف منه على صحة رأى ، وتأمنه على مشورتك ، فإياك والإقبال عليه فى كل حادث يرد عليك ، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك ، أن تريه أو أحداً من أهل مجلسك أن بك حاجة إليه موحشة ، أو أن ليس بك عنه غنى فى التدبير ، أو أنك لا تقضى دونه رأياً إشراكا منك له فى رويتك ، وإدخالاً منك له فى مشورتك ، واضطراراً منك إلى رأيه فى الأمر يعروك ، فإن ذلك من دخائل[1] العيوب التى ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك ، فانفها عن نفسك ، خائفاً لاعتلاقها ذكرك ، واحجبها عن رويتك قاطعاً أطماع أوليائك عن مثلها عندك ، أو غلوبهم عليها منك ، واعلم أن للمشورة موضع الخلوة وانفراد النظر ، ولكل أمر غاية تحيط بحدوده وتجمع معالمه ، فابغها محرزاً لها ، ورُمْها طالباً لنيلها ، وإياك والقصور عن غايتها ، أو العجز عن دركها ، أو التفريط فى طلبها إن شاء الله تعالى .

« إياك والإغرامَ[2] عن حديث ما أعجبك ، أو أمر ما ازدهاك بكثرة السؤال ، أو القطع لحديث من أرادك بحديثه ، حتى تنقضه عليه بالخوض فى غيره

---

(١) الدخيلة : باطن الرجل ويقال لها : الداخلة ، والدخلة بضم أوله وفتحه وكسره .

(٢) كذا فى الأصل ولعلها الاعراب .

أو المسألة عما ليس منه ، فإن ذلك عند العامة منسوب إلى سوء الفهم ، وقصر الأدب ، عن تناول محاسن الأمور والمعرفة بمساويها ، ولكن أنصت لمحدثك وأرعه سمعك ، حتى يعلم أن قد فهمت حديثه ، وأحطت معرفة بقوله ، فإن أردت إجابته فعن معرفة بحاجته ، وبعد علم بطلبته ، وإلا كنت عند انقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والإغضاء ، فأجزى عنك الجواب ، وقطع عنك ألسن العتب .

« إياك وأن يظهر منك تبرم بطول مجلسك ، أو تضجر ممن حضرك ، وعليك بالتثبت عند سَوْرة الغضب ، وحمية الأنف ، وملال الصبر فى الأمر تستعجل به ، والعمل تأمر بإنفاذه ، فإن ذلك سخف شائن ، وخفة مردية ، وجهالة بادية ، وعليك بثبوت المنطق ، ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرفض لحشو الكلام ، والترك لفضوله ، والإغرام بالزيادات فى منطقك ، والترديد للفظك من نحو اسمع وافهم عنى وياهناه ، وألا ترى ، أو ما يلهج به من هذه الفضول المقصرة بأهل العقل ، الشائنة لذوى الحجا فى المنطق ، المنسوبة إليهم بالعى ، المردية لهم بالذكر ، وخصال من معايب الملوك ، والسوقة عنها غبية النظر ، إلا من عرفها من أهل الأدب ، وقلما حامل لها ، مضطلع بها ، صابر على ثقلها ، آخذ لنفسه بجوامعها ، فانفها عن نفسك بالتحفظ منها ، واملك عليها اعتيادك إياها معتنياً بها ، منها كثرة التنخم والتبصق والتنخع ، والثؤباء والتمطى والجشاء ، وتحريك القدم ، وتنقيض الأصابع ، والعبث بالوجه واللحية أو الشارب أو المخصرة أو ذؤابة السيف أو الإيماض بالنظر ، أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدمك بأمر إن أردته ، أو السرار فى مجلسك ، أو الاستعجال فى طعمك أو شربك ، وليكن طعمك متدعاً وشربك أنفاساً ، وجرعك مصا ، وإياك والتسرع فى الأيمان فيما صغر

أو كبر من الأمور ، والشتيمة بقول يا ابن الهناة ، أو الغميزة [1] لأحد من خاصتك ، بتسويغهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك أو دارك وفناؤك ، فإن ذلك كله مما يقبح ذكره ، ويسوء موقع القول فيه ، وتحمل عليك معايبه ، وينالك شَيْنه ، وينتشر عليك سوء النبإ به ، فاعرف ذلك متوقياً له ، واحذره مجانباً لسوء عاقبته .

« استكثر من فوائد الخير ، فإنها تنشر المحمدة وتقيل العثرة ، واصبر على كظم الغيظ ، فإنه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة . وتعهد العامة بمعرفة دخلهم وتبطن أحوالهم ، واستثارة دفائنهم ، حتى تكون منها على رأى عين ، ويقين خبرة ، فتنعش عديمهم ، وتجبر كسيرهم ، وتقوّم أودهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح حاسدهم ؛ فإن ذلك من فعلك بهم يورثك العزة ؛ ويقدمك فى الفضل ، ويبقى لك لسان الصدق فى العاقبة ، ويحرز لك ثواب الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك ، وقلوبهم المتنحية عنك .

« قس بين منازل أهل الفضل فى الدين والحجا والرأى والعقل والتدبير والصيت فى العامة ، وبين منازل أهل النقص فى طبقات الفضل وأحواله ، والخمول عند مباهاة النسب ، وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل ، وتستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل ، وتبلغ درجة الشرف فى أحوالك المتصرفة بك ، فاعتمد عليهم من خلالهم فى أمرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستحقا منهم ، وإياك وتضييعهم مفرطا ، وإهمالهم مضيعا » .

هنا انتهى الفصل الأول من هذه الرسالة وقد لمحنا فيها ما يهذب النفس ،

---

(١) الغميزة : المطعن أو المطمع . فى القاموس وهن المرأة فرجها . ويقال للرجل أقبل يا هن ، ولها يا هنة أقبلى .

و يعرفها مصادر الأمور ومواردها ، و يقفها على أحوال الناس ومعالجة مسائلهم ، وقد ختمه بقوله : « هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسراً ؛ وجمع لك شواذها مؤلفاً ، وأهداها إليك مرشداً ، فقف عند أوامرها ، وتناه عن زواجرها ، وتثبت فى مجامعها ، وخذ بوثائق عراها ، تسلم من معاطب الردى ، وتنل أنفس الحظوظ ، ورغيب الشرف ، وأعلى درجات الذكر ، والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد ، وتتابع المزيد ، و بلوغ الأمل ، وأن يجعل عاقبة ذلك بك إلى غبطة يسوغك إياها ، وعافية يحلك أكنافها ، ونعمة يلهمك شكرها ، فإنه الموفق للخير ، والمعين على الإرشاد ، و به تمام الصالحات ، وهو مؤتى الحسنات ، و بيده الملك وهو على كل شىء قدير » .

فى الجزء الأول من هـذا الكتاب صورة من التربية التى يريد عبد الحميد أن يلقنها ولى العهد ، وما يحاول أن ينزه عنه خلقه وعاده ، ومجالسه ومواقفه ، و يلقنه من السيرة الحسنة مع رعيته ، وذوى الحاجات والظلامات منها ، وما يجب أن يكون عليه فى إدارته وسياسته مع عماله ونصحائه وأصحاب أخباره ، حتى يظهر للملأ تامّ الأدوات ، جميل المآتى[1] والصفات ، عظيماً يضم فى بُرديه ضروب الوقار وحسن السمت ، وجمال العلم والأدب .

أما الجزء الثانى فهو قانون الحرب يلخصه لقائدها ، فيعمل على نفاذه ، لتكتب له الغلبة على خصمه الخارج على دولته . وقد بدأ هـذا القسم بالوقوف عند حدود الطاعة لله ، والعمل بمراشده ، واجتناب نواهيه ، ووصف الدواعى إلى جهاد العدو الذى خرج على الجماعة ، فكان أضر على المسلمين من الترك والمشركين ، وأوصاه برعاية من يمرّ بهم الجيش من أهل الذمة وأهل الملة ، لئلا

(١) مأتى الأمر ومأتاته جهته .

ينال الرعية ما ينالها على الأغلب ، من كل جيش مرابط ومثاغر ومهاجم ومدافع ومتراجع . فقال هذا :

« فإذا أفضيت نحو عدوك ، واعتزمت على لقائهم ، وأخذت أهبة قتالهم ، فاجعل دعامتك التى تلجأ إليها ، وثقتك التى تأمل النجاة بها ، وركنك الذى ترتجى به منازل الظفر ، وتكتهف[1] به لمغالق الحذر ، تقوى الله عز وجل ، مستشعراً لها بمراقبته ، والاعتصام بطاعته ، متبعاً لأمره ، مجتنباً لسخطه ، محتذياً سنته ، والتوقى لمعاصيه ، فى تعطيل حدوده وتعدى شرائعه ، متوكلا عليه فيما صمدت[2] له ، واثقاً بنصره فيما توجهت نحوه ، متبرئاً من الحَوْل والقوة فيما نالك من ظفر ، وتلقاك من عزّ ، راغباً فيما أهاب[3] بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد ، ورمى بك إليه ، محمود الصبر فيه عند الله ، من قتال عدو المسلمين ، أكلبهم عليهم ، وأظهره عداوة لهم ، وأفدحه ثقلاً لعامتهم ، وآخذه بربقهم[4] وأعلاه عليهم بغياً ، وأظهره فيهم فسقاً وفجوراً ، وأشدّه على فيئهم الذى أصاره الله لهم مؤونة وكَلاّ ، والله المستعان عليهم ، والمستنصر على جماعتهم ، عليه يتوكل أمير المؤمنين وإياه يستصرخ عليهم ، وإليه يفوض أمره ، وكفى بالله وليًّا وناصراً ومغيثاً وهو القوى العزيز .

« ثم خذ من معك من أتباعك وجندك ، بكف معرتهم ، ورد مستعلى جورهم[5] وإحكام خللهم ، وضم منتشر قواصيهم ، ولمّ شعث أطرافهم ، وتقييدهم عمن مروا به من أهل ذمتك وملتك ، بحسن السيرة ، وعفاف الطعمة ، ودَعَة الوقار

---

(١) اكتهف وتكهف لزم الكهف ، والكهف : المغارة .
(٢) صمد للأمر قصده معتمداً عليه . (٣) أهاب بصاحبه دعاه .
(٤) الربقة : حبل يوضع فى العنق وجمعه ربق وأكلبهم عليه أحرصهم وأشدهم .
(٥) فى الصبح : ورد مشتعل جهلهم وإحكام ضياع عملهم .

وهَدى الدعة ، وجَمام[١] المستجم ، محكماً ذلك منهم ، متفقداً لهم فيه تفقدك إياه من نفسك .

« ثم اصمد لعدوك المتسمى بالإسلام ، الخارج عن جماعة أهـله ، المنتحل ولاية الدين ، مستحلا لدماء أوليائه ، طاعناً عليهم ، راغباً عن سنتهم ، مفارقاً لشرائعهم ، يبغيهم الغوائل ، وينصب لهم المكايد ، أضرم حقداً عليهم ، وأرصد عداوة لهم ، من الترك وأُمم الشرك ، وطواغى الملل : يدعو إلى المعصية والفرقة ، والمروق من الدين إلى الفتنة ، مخترعا بهواه للأديان المنتحلة ، والبدع المتفرقة ، خساراً وتخسيراً ، وضلالا وتضليلا ، بغير هدى من الله ولا بيان ، ساء ما كسبت يداه ، وما الله بظلام للعبيد ، وبئسما سولت له نفسه الأمَّارة بالسوء ، والله من ورائه بالمرصاد ، وسيعلم الذين ظلموا أىَّ مُنقَلَبٍ ينقلبون » .

وقد رأينا بما نقلنا من جمـله أنه عاد فأراده على الاعتصام بالمولى ، وأدلى إليه بالوسائل إلى استصلاح عدوه من دون إهراق دم فقال له : « اعلم أن الظفر ظفران أحدهما أعم منفعة ، وأبلغ فى حسن الذكر قالة ، وأحوطه سلامة ، وأتمه عافية ، وأعوده عاقبـة ، وأحسنه فى الأمور مورداً ، وأصحه فى الرواية حزما ، وأسلمه عند العامة مصدراً ، ما نيل ببسالة[٢] الجنود ، وحسن الحيلة ، ولطف المكيدة ، ويمن النقيبة[٣] ، واستنزال طاعة ذوى الصدوف[٤] ، بغير إخطار الجيوش فى وقدة جمرة الحرب ، ومنازلة الفرسان فى معترك الموت ، وإن ساعدتك طلوق[٥] الظفر ، ونالك مزيد السعادة فى الشرف ؛ فنى مخاطرة التالف مكروه المصائب ، وعضاض السيوف ، وألم الجراح ، وقصاص الحروب ، وسجالها

---

(١) الجمام كسحاب الراحة أى راحة المستريح . (٢) فى رواية بسلامة .
(٣) النقيبة النفس . (٤) صدف يصدف صدوفا انصرف ومال .
(٥) الطلوق : الاستبشار وانبساط الوجه .

بمغاورة أبطالها ، على أنك لا تدرى لأى الفريقين يكون الظفر فى البديهة ، ومن المغلوب فى الدولة ؛ ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص ، فحاول أبلغهما فى سلامة جندك ورعيتك ، وأشهرهما صيتاً فى بدوّ تدبيرك ورأيك ، وأجمعهما لألفة وليك وعدوك ، وأعونهما على صلاح رعيتك وأهل ملتك ، وأقواهما شكيمة فى حزمك ، وأبعدهما من وصم عزمك ، وأعلقهما بزمام النجاة فى آخرتك ، وأجزلهما ثواباً عند ربك .

« وابدأ بالإعذار[1] إلى عدوك ، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة ، وعزّ الألفة ، آخذاً بالحجة عليهم ، متقدما بالإنذار لهم ، باسطاً أمانك لمن لجأ إليك منهم ، داعياً لهم إليه بألين لفظك ، وألطف حيلتك ، متعطفاً برأفتك عليهم ، مترفقاً بهم فى دعائك ، مشفقاً عليهم من غلبة الغواية لهم ، وإحاطة الهلكة بهم ، منفذاً رسلك إليهم بعد الإنذار ، تَعِدُهم كل رغبة يَهِش إليها طمعهم فى موافقة الحق ، وبسط كل أمان سألوه لأنفسهم ومن معهم ومن تبعهم ، موطناً نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك ، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك ، قابلا توبة نازِعهم عن الضلالة ، ومراجعة مسيئهم إلى الطاعة ، مرصداً للمنحاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم ، إجابة إلى ما دعوته إليه ، وبصرته إياه من حتك وطاعتك ، بفضل المنزلة وإكرام المثوى ، وتشريف الجاه ؛ وليظهر من أثرك عليه ، وإحسانك إليه ، ما يرغب فى مثله الصادف عنك ، المصرُّ على خلافك ومعصيتك ، ويدعو إلى اعتلاق حبل النجاة ، وما هو أملك به فى الاعتصام عاجلا ، وأنجى له من العقاب آجلا ، وأحوطه على دينه ومهجته ، بدأً وعاقبة ؛ فإن ذلك مما يستدعى به من الله نصره عليهم ،

(١) أعذر بالغ فى العذر أى فى كونه معذوراً على ما أتاه .

ويعتضد به فى تقديمه الحجة إليهم معذراً أو منذراً إن شاء الله » .

وهنا وصف له الطريقة التى يجب أن يتخذها لإرسال عيونه وجواسيسه لمعرفة حال العدو وإدراك نفسيته ، وما يرغب فيه « مستشيراً لذوى النصيحة الذين قد حنكتهم السنّ ، وخبطتهم التجربة ، ونجذتهم الحروب » ؛ وأن الواجب أن يعظم أمر عدوه لأكثر مما بلغه ، أخذاً بالحزم لئلا يكون مهين الجند ، ولا مفرطاً فى الرأى ، ولا متلهفاً على إضاعة تدبير . وحذّره جواسيسه أنفسهم بما يأتونه به من أخبار عدوّه ؛ وأن لا يعاقبهم إذا اتهمهم فى خبر حملوه ، ملتمساً لهم الأعذار ؛ ولعلهم أوتوا من تدبير العدو ومكيدته . وقال :

« البسهم[1] جميعاً على الانتصاح ، وأرجح لهم المطامع ، فإنك لم تستعبدهم بمثلها ، وعِدْهم جزالة الثواب فى غير ما استنامة منك إلى ترقيقهم[2] أمر عدوك » .

« واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك ، وربما غشوك ، وربما كانوا لك وعليك ، فنصحوا لك وغشوا عدوك ، وغشوك ونصحوا عدوك ، وكثيراً ما يصدقونك ويصدقونه ، فلا تبدرن منك فرطة وعقوبة إلى أحد منهم ، ولا تعجل بسوء الظن إلى من اتهمته على ذلك ، وابسط من آمالهم فيك ، من غير أن تُرِى أحداً منهم أنك أخذت من قوله أخذ العامل به والمتبع له ؛ أو عملت على رأيه عمل الصادر عنه ، أو رددته عليه رد المكذب به ، والمتهم له ، المستخف بما أتاك منه ، فتفسد بذلك نصيحته ، وتستدعى غشه ، وتجتر عداوته ؛ واحذر أن يُعرف جواسيسك فى عسكرك ، أو يشار إليهم بالأصابع ، وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وأمين سرك ، ويكون هو الموجه لهم ، والمدخل عليك من أردت مشافهته منهم ؛ واعلم أن لعدوك فى عسكرك عيوناً راصدة ، وجواسيس

(١) خالطهم والتنصح التشبه بالنصحاء (٢) الترقيق ضد التغليظ

كامنة ؛ وأن رأيه فى مكيدتك مثل ما تكايده به ، وسيحتال لك كاحتيالك له ، ويُعِدُّ لك كإعدادك فيما تزاوله منه ؛ فاحذر أن يُشهر رجل من جواسيسك فى عسكرك فيبلغ ذلك عدوك ، ويعرف موضعه فيعد له المراصد ، ويحتال له ، بالمكايد ؛ فإن ظفر به فأظْهَرَ عقوبته ، كَسَرَ ذلك ثقات عيونك ، وخذلهم عن تطلب الأخبار من معادنها ، واستقصائها من عيونها ، واستعذاب اجتنائها من ينابيعها ، حتى يصيروا إلى أخذها على عُرض[1] من غير الثقة ولا المعاينة ، لقطاً لها بالأخبار الكاذبة ، والأحاديث المرجفة ؛ واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضاً ، فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك ، ومماألتهم عدوك ، واجتماعهم على غشك ، وتطابقهم على كذبك ، وإصفاقهم[2] على خيانتك ؛ وأن يورط بعضهم بعضاً عند عدوك ؛ فأحكم أمرهم فإنهم رأس مكيدتك ، وقوام تدبيرك ، وعليهم مدار حربك ، وهو أول ظفرك » .

وذكر له بعد هذا صفة من يوليه شرطته ، وأن يكون أوثق قواده عنده ، وآمنهم نصيحة ، وأقدمهم بصيرة فى طاعته ، وأصدقهم عفافاً ؛ وأن يبسط من أمله مظهراً عنه الرضا ، حامداً منه الابتلاء . وبين له عمله فى الجيش وسلطته على الناس . وقال له أن يولى القضاء فى عسكره رجلا من ذوى الخير فى القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع ممن حنكته السن ، وأيدته التجربة ؛ ويكون ممن لايداهن فى القضاء وممن يعدل ، وأن يُجرى عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه ، ليتفرغ لما حمله ، ويعان على ما ولى ؛ وأشار له أن ينتخب لطلائعه ذوى نجدة وبأس وخبرة ممن صلوا بالحروب ، وشربوا مرار كؤوسها ؛

---

(١) العرض بضم العين الناحية ومن الكلام نحواه .

(٢) اجتماعهم .

وأن ينتقيهم على عينه ، ويعرض كُراعهم[١] بنفسه ، ويبين له ما يصلح من الخيل والسلاح ، ووصف ذلك أبدع وصف ؛ وحذره أن يَكِلَ مباشرة عرضهم وانتخابهم إلى أحد من أعوانه وكتابه ، لئلا يضيع مواضع الحزم ، ويقف دون عزم الروية ، لأنهم حصون المسلمين وعيونهم ، وهم أول مكيدته ، وعروة أمره ، وزمام حربه ؛ وأن ينتخب للولاية عليهم رجلا بعيد الصوت ، مشهور الاسم ، ظاهر الفضل ، له فى العدو وقعات وصولات ، وأن يجرى عليهم وعليه أرزاقا تسعهم ، وتمد من أطماعهم ، سوى أرزاقهم فى العامة . وبعد هذا قال له أن يولى درّاجة[٢] عسكره ، وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم ، رجلا من أهل بيوتات الشرف ، محمود الخبرة ، معروفاً بالنجدة ، ذا سن وتجربة ؛ وأن يضم إليه عدة نفر من ثقات جنده ، وذوى أسنانهم يكونون شرطة معه ؛ ثم تتقدم إليه فى إخراج المصاف ، وإقامة الأحراس ، وإذكاء العيون ؛ وذكر له عمل هذا الرجل فى الأخذ بالنافع لقيام أمر الجيش ، ووقايته من العدو .

وأراده أن يفوض إلى أمراء أجناده وقواد خيله أمور أصحابهم ، رياضة منه لهم على السمع والطاعة لأمرائهم ؛ وحذره أن يعتل أحد من قواده عليه ، بما يحول بينه وبين تأديب جنده ، لأن ذلك مفسدة للجند ؛ وحذره استخفاف الجند بقوادهم ، لأن ذلك يؤدى إلى استخفافهم بأمره ؛ وأن يوعز إلى قواده أن لا يقدموا على عقوبة أحد إلا عقوبة تأديب ؛ أما عقوبة القتل أو إقامة حد فى قطع أو إفراط فى ضرب أو أخذ مال فلا يلى ذلك إلا هو ، أو صاحب شرطته بأمره ، وعن رأيه وإذنه .

---

(١) كراعهم : خيلهم .

(٢) الدراجة : كجبانة الدبابة تعمل لحرب الحصار تدخل تحتها الرجال .

ثم بسط له القول عند لقاء العدو إذا شام طلائعه كيف يكتّب خيوله و يعبى جنده ، و يسير فى مقدمة وميمنة وميسرة وساقة ، شاهرين الأسلحة ، ناشرين البنود والأعلام ، عارفين بمواضعهم فى مسيرهم ومعسكرهم ، معرفاً كل قائد أصحابه مواقفهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، ليكون كأنه عسكر واحد فى اجتماعه على العدو ؛ فإن ضلت دابة من موضعها عرف أهل العسكر من أى المراكز هى ومَن صاحبها ، وفى أى المحل حلوله منها فردت إليه ؛ وأراده على أن يجعل على ساقته أوثق أهل عسكره صرامة ونفاذا ، ورضىً فى العامة ، و إنصافا من نفسه للرعية ، وأن يجعل خلف ساقته رجلا من وجوه قواده جليداً ماضياً عفيفاً صارما ، شهم الرأى ، شديد الحذر ، غير مداهن فى عقوبة ، فى خمسين فارساً من خيله ، يحشر إليه جنده ، و يلحق به من يتخلف عنه ؛ وأمره أن يعد العقوبة الموجعة ، و يستصفى الأموال ، و يهدم عقار كل من آوى أحداً من الجند ، أو ستر موضعه ، أو أخفى محله ، ثم قال :

« ليكن رحيلك إباناً واحداً ، ووقتاً معلوماً ، لتخف المؤونة بذلك على جندك ، و يعلموا أوان رحيلهم فيقدّموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأعلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم إلى الوقت الذى وقفوا عليه ، و يطمئن ذوو الرأى إلى إبان الرحيل ؛ ومتى يكون رحيلك مختلفاً ، تعظم المؤونة عليك وعلى جندك ؛ ولا يزال ذوو السفه والنزق يترحلون بالإرجاف و ينزلون بالتوهم ، حتى لا ينتفع ذو رأى بنوم ولا طُمأنينة .

« إياك أن تظهر استقلالا ، أو تنادى برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمر صاحب تعبيتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك ، آخذاً بجنبى فُوَّهته بأسلحتهم ، عدة لأمر إن حضر ، أو مفاجأة من طليعة للعدو إن رأت منكم

نهزة ، أو لمحت عندكم غِرّة ، ثم مر الناس بالرحيل ، وخيلك واقفة ، وأهبتك معدّة ، وجُنَّتك واقية ، حتى إذا استقللتم[1] من معسكركم ، وتوجهتم من منزلكم ، سرتم على تعبيتكم بسكون ريح ، وهدوّ جملة ، وحسن دعة ؛ فإذا انتهيت إلى منهل أردت نزوله ، أو هممت بالمعسكر به ، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ، والمعرفة بمرافقه ، ومرْ صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستثير لك علم دفينه ، ويستبطن علم أموره ، ثم ينهيها إليك على ما صارت إليه ، لتعلم كيف احتماله لعسكرك ، وكيف ماؤه وأعلافه وموضع معسكرك منه ؛ وهل لك إن أردت مقاماً به ، أو مطاولة عدوك ، أو مكايدته فيه ، قوة تحملك ومدد يأتيه ، فإنك إن لم تفعل ذلك لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه ، وقلة مياهه ، وانقطاع مواده ، إن أردت بعدوك مكيدة ، أو احتجت من أمورهم إلى مطاولة ، فإن ارتحلت منه كنت غرَضاً لعدوك ، ولم تجد إلى المحاربة والأخطار سبيلا ، وإن أقمت به أقمت على مشقة وحصر ، وفى أَزْل[2] وضيق ، فاعرف ذلك وتقدم فيه ؛ فإن أردت نزولا أمرت صاحب الخيل التى وكلت بالناس ، فوقفت خيله متنحية من معسكرك ، عدةً لأمر إن غالك ، ومفزعاً لبديهة إن راعتك ، فقد أمنت بحمد الله وقوته فَجأَة عدوك ، وعرفت موقعها من حرزك ، حتى يأخذ الناس منازلهم ، وتوضع الأثقال مواضعها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتخرج دبابتك من معسكرك دراجة ودبابات محيطين بعسكرك ، وعدّة إن احتجت إليها ؛ ولتكن دبابات جندك أهل جلد وقوة ، قائداً أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم ، فى كل ليلة ويوم نُوَبا بينهم ، فإذا

---

(١) استقل القوم : ذهبوا وارتحلوا ، والجنة بالضم : كل ما وقى .
(٢) الأزل : ضيق فى العيش .

غربت الشمس ، ووجب[١] نورها ، أخرج إليهم صاحب تعبيتك أبدالهم ، عسساً بالليل فى أقرب من مواضع دبابى النهار ، يتعاور ذلك قوادك جميعاً بلا محاباة لأحد فيه ولا إدهان » .

وعلى هذا النحو وضع لولى العهد مخطط الحركات الحربية ، ثم قال له أن يكون منزله فى خندق أو حصن ليأمن فيه بيات عدوه ؛ وأن يقطع لكل قائد ذرعا معلوما من الأرض بقدر أصحابه ، فيحفروه عليهم خندقا يطيفونه بعد ذلك بخنادق الحَسَك ، أى الأسلاك الشائكة ؛ وإذا طرقهم طارق ، أو فاجأهم عدو أن لا يتكلم أحد رافعاً صوته بالتكبير ، وليشرعوا رماحهم ناشبين بها فى وجوههم ، ويرشقونهم بالنّبل مكتنّين بأترستهم ، لازمين لمراكزهم ، وأن يكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون ، ليعرف مواضع عدوه من معسكره ، وأن لا يشهروا سيفاً يتجالدون به ، بل يكون قتالهم بالرماح والنشاب « قد ألبدوا بالأترسة ، واستجنّوا بالبَيْض ، وألقوا عليهم سوابغ الدروع وجباب[٢] الحشو » ؛ وأراده على ألا يخمد نار رواقه ليسكن نافر قلوب عسكره ، وأن عدوه إذا نكل عن الإصابة فى جنده ، فعليه أن يتبعه جريدة خيل ، عليها الثقات من فرسانه . وتقدم إليه فوصف الحالة التى يجب على هؤلاء الثقات أن يكونوا عليها ، وهم يطاردون أعداءهم ، والصفات التى يجب على فرسانه أن يتصفوا بها ليغنوا غَناءهم ؛ ووصف له صورة خيلهم وعددهم وسلاحهم ، وكيف يولى على كل مائة رجل منهم رجلا من أهل خاصته وثقاته ونصحائه « له صيت فى الرياسة ، وقدم فى السابقة ، وأولية فى المتابعة ؛ ويتعهدهم ودوابهم وسلاحهم ليكونوا كرجل واحد فى التشمير وسرعة الإجابة عند الطلب » . وقال له أن

---

(١) وجبت الشمس : غابت . (٢) الجباب الدروع

يوكل بخزائنه ودواوينه رجلا ناصحاً أميناً ، ويجعل معه خيلا يكون مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزانته وحولها ، ويكون عامة الجند والجيش متنحين عنها لئلا تحدث فزعة ، فينتهب الجند أنفسهم الخزانة .

وبعد أن نحا هذا المنحى ختم هذه الرسالة العذراء مُزَيِّناً للقائد أن يعمد إلى الحيل أولاً لا إلى القتال ، وأن يدس إلى عدوه ، ويكاتب رؤساءهم وقادتهم ، ويعدهم ويمنيهم ، ويقطع أعناقهم بالمطامع . وقال له : ولا عليك أن تطرح إلى بعضهم كتباً كأنها جواب كتب لهم إليك ، وتكتب على ألسنتهم كتباً إليك تدفعها إليهم ، وتحمل بها صاحبهم عليهم ، وتنزلهم عنده بمنزلة التهمة ومحل الظنة ، فلعل مكيدتك فى ذلك أن يكون فيها افتراق كلمتهم . وأتم الرسالة بما يجب عليه وعلى جيشه من ذكر الله عند المصاولة ، وأن لا يظهر الجند تكبيراً إلا فى الكرات والحملات ، أما وهم وقوف فإن ذلك من الفشل والجبن ، وأن يكون فى معسكره المكبرون فى الليل والنهار قبل المواقعة يحضون الناس على القتال ، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ، ويذكرونهم الجنة ودرجاتها ، ونعيم أهلها وسكانها .

وكتب هذا الكتاب سنة تسع وعشرين ومائة قبل زوال ملك بنى أُمية من الشرق بثلاث سنين . وقد عرفنا به أُموراً كثيرة من شؤون تلك الأيام ، ونمط حروبها وغاراتها ، والأخلاق الغالبة على أهلها ، مما لا نتعرف بعضه بالرجوع إلى الكتب المطولة ، والأحاديث المنشرة ؛ ودل بها عبد الحميد أنه رجل الدولة الأُموية ، ممن قد ينبغ مثلهم أواخر الدول ، فيكونون لها سراجاً وهاجاً ، وتعتفأ شعلتهم بانطفاء شعلتها .

وعرفنا بهذا القليل من الصفحات من كلام إمام المنشئين نفسيته وعقله ،

بما لا تنهض بتعريفه التراجم المطولة التى يكتبها أصحابها ، فيمن لم يعرفوهم ولم يعاشروهم ، فيترجمون لهم كما يترجمون لغيرهم . و بعض التراجم إذا أزلت منها جملاً معينة تليق أن تلبس على جسم أكثر الناس وروحهم ، وترجمة المرء من كلامه أفعل أثراً وأصدق قيلاً .

والرسالة الثانية لعبد الحميد ، هى رسالته إلى الكتاب ، وقد تعدُّ من مطولاته قال الجهشيارى : وجدت بخط ميمون بن هرون لعبد الحميد كتاباً إلى الكتاب أطال فيه ، إلا أنه أجاد فلم أستجز إسقاط بعضه ، وكتبته جميعه على طوله لأن الكاتب لا يستغنى عن مثله وهو :

« أما بعد حفظكم الله يا أهل هذه الصناعة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فإن الله جلَّ وعزَّ ، جعل الناس من بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين سُوَقاً [1] ، وصرّفهم فى صنوف الصناعات التى سبب منها معاشهم ، فجعلكم معشر الكتاب فى أشرَفِها صناعةً : أهل الأدب والمروءة والحلم والروية ، وذوى الأخطار والهمم ، وسعة الذّرع فى الإفضال والصلة ، بكم ينتظم الملك ، وتستقيم الملوك أُمورهم ، و بتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ، و يجتمع فيئهم ، وتعمر بلادهم ؛ يحتاج إليكم الملك فى عظيم ملكه ، والوالى فى القدر السنىّ والدنىّ من ولايته ، لا يستغنى عنكم منهم أحد ، ولا يوجد كافٍ إلا منكم ، فموقعكم منهم موقع أسماعهم التى بها يسمعون ، وأبصارهم التى بها يبصرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يبطشون ؛ أنتم إذا آلت الأمور إلى موئلها ، وصارت إلى محاصلها ، ثقاتهم دون أهليهم وأولادهم وقراباتهم ونصحائهم ، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم سربال النعمة عليكم .

---

(١) السوقة خلاف الملك

« وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى استخراج خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب ، إن كنتم على ما سبق به الكتاب من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره ، إلى أن يكون حليماً فى موضع الحلم ، فقيهاً فى موضع الحكم ، مقداماً فى موضع الإقدام ، ومحجماً فى موضع الإحجام ، ليناً فى موضع اللين ، شديداً فى موضع الشدة ، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوماً للأسرار ، وفيًّا عند الشدائد ، عالماً بما يأتى ويذر ، ويضع الأمور فى مواضعها ، قد نظر فى كل صنف من صنوف العلم فأحكمه ، فإن لم يحكمه شدا (١) منه شدواً يكتفى به ، يكاد يعرف بغريزة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ، ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة مايصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل أمر عدته ، ويهيئ لكل أمر أُهبته ؛ فنافسوا معشر الكتاب فى صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا فى الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ والفرائض ، ثم العربية فإنها ثِقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيَرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم ، ولا يضعفن نظركم فى الحساب ، فإنه قوام كتّاب الخراج منكم ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها ، ومساوى الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتّاب ؛ ونزهوا صناعتكم ، وارتأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة ، وما فيه أهل الدناءة والجهالة ، وإياكم والكبر والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة بغير إحنة ، وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم ، وتواصلوا عليها ، فإنها شيم أهل الفضل والنبل من سلفكم .

---

(١) شدا من العلم والأدب أخذ طرفاً منهما .

« و إن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه ، وواسوه حتى ترجع إليه حاله ، و إن أقعد الكِبَرُ أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته ، وقديم معرفته ؛ وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه ، أحدب وأحوط منه على أخيه وولده ، فإن عرضت فى العمل محمدة فليضفها إلى صاحبه ، و إن عرضت مذمة فليحملها من دونه ، وليحذر السقطة والزلة ، والملال عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى المرأة ، وهو لكم أشد منه لها ، فقد علمتم أن الرجل منكم قد يصف الرجل إذا صحبه فى بدء أمره من وفائه وشكره ، واحتماله وصبره ونصيحته ، وكتمان سره وعفافه وتدبيره ، بما هو حرىّ أن يحققه بفعاله ، فى غير حين الحاجة إلى ذلك منه ، فابذلوا وفقكم الله ذلك من أنفسكم فى حال الرخاء والشدة ، والحرمان والمواساة ، والإحسان والإساءة ، والغضب والرضا ، والسراء والضراء ، فنعمت السمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فإذا وَلِى الرجل منكم ، وصُيِّر إليه من أمور خلق الله وعباده أمرٌ ، فليراقب الله تعالى ذكره ، وليؤثر طاعته فيه ، وليكن على الضعيف رفيقاً ، وللمظلوم منصفاً ، فإن الخلق عباد الله ، وأحبهم إليه أرفقهم بعباده ، ثم ليكن بالحق حاكما ، وللأشراف مكرماً ومدارياً ، وللفىء موفراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية متألفاً ، وليكن فى مجلسه متواضعاً حليماً ليناً ، وفى استجلاب خراجه واستقصاء حقوقه رفيقاً .

« و إذا صحب أحدكم الرجل فليستشفّ خلائقه ، كما يستشف الثوب يشتريه لنفسه ، فإذا عرف حسنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح ، بألطف حيلة ، وأحسن مداراة ورفق ، فقد عرفتم

أن سائس البهيمة إذا كان حاذقاً بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحاً اتقاها من رجلها ، و إن كانت جموحاً لم يهجها إذا ركبها ، و إذا كانت شموساً توقاها من ناحية يدها ، و إن خاف منها عِضاضاً توقاها من ناحية رأسها ، و إن كانت حروناً لم يلاحِها [1] ، وتتبع هواها فى طريقها ، و إن استمرت عطفها فيساس لها قيادها . ومن هـذا الوصف من سائس البهيمة ، ورفق سياسته ، دليل وأدب لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وصحبهم .

« والكاتب بفضل رأيه ، وشرف صناعته ، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره و يناظره ، و يفهم عنه و يخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم أوده ، من سائس البهيمة التى لا تحير جواباً ، ولا تعرف خطأ ولا صواباً ، إلا بقدر ما يصيرها إليه سائسها ، وصاحبها الراكب لها ؛ فأدقّوا ، يرحمكم الله ، النظر ، واعملوا فيه الروية والفكر ، تأمنوا ممن صحبتموه — بإذن الله — النَّبْوَة ، والاستثقال والجفوة ، و يصيروا منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منهم إلى المواساة والشفقة إن شاء الله .

« ولا يُحوزنّ الرجل منكم فى هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ، ومطعمه ومشربه ، و بنائه وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره — قدر صناعته ؛ فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صناعتكم خدم لا تحتملون فى خدمتكم على التقصير ، وخزان وحفظة لا يُحتمل منكم التضييع والتبذير ؛ واستعينوا على عفافكم بالقصد فى كل ما عددت عليكم ، فنعم العون عونكم على صيانة دينكم ، وحفظ أمانتكم ، وصلاح معاشكم ؛ واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما يعقبان الفقر ، و يذلان الرقاب ، و يفضحان أهلهما ، ولا سيما الكتاب .

---

(١) لاحيته ملاحاة ولحاء إذا نازعته .

وللأمور أشباه ، و بعضها دليل على بعض ؛ فاستدلوا فى مؤتنف أعمالكم ، بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة ، وأرجحها حجة ، وأحمدها عاقبة . واعلموا أن للتدبير آفة وضدا [1] لا يجتمعان فى أحد أبداً ، وهو الوصف الشاغل لصاحبه على إنفاذ عمله ورويته ؛ فليقصد الرجل منكم فى مجلس تدبيره ، قصد الكافى فى منطقه ، وليقصد فى كلامه ، وليوجز فى ابتدائه ، وليأخذ بمجامع حججه حجته ، فإن ذلك مصلحة لعقله ، ومَجَمَّة لذهنه ، ومدفعة للتشاغل من إكثاره ، و إن لم يكن الإكثار عادة ، ثم وضع موضعه فى ابتداء كتاب أو جواب عند الحاجة فلا بأس ، ولا يدعون الرجلَ منكم صنعُ الله تعالى ذكره له فى أمره ، وتأييده إياه بتوفيقه ، إلى العجب المضر بدينه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظان ، أو قال قائل ، إن ذلك الصنع لفضل حيلته ، وأصالة رأيه ، وحسن تدبيره ، كان متعرضاً لأن يكله الله إلى نفسه ، فيصير منها إلى غير كاف . ولا يقل أحد منكم أنه آدب وأعقل ، وأحمل لعبء التدبير والعمل من أخيه فى صناعته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب ، القائل أن صاحبه أعقل منه ، وأحمقهما الذى يرى أنه أعقل من صاحبه ، لعجب هذا بنفسه ، ونبذ ذاك العجبَ وراء ظهره ، إذ كان الآفة العظمى من آفات عقله ؛ ولكن قد يلزم الرجل أن يعرف فضل نعمة الله عليه ، من غير عجب برأيه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا تكاثر على أخيه وكفئه ، و يشكر الله و يحمده بالتواضع لعظمته .

« وأنا أقول فى آخر كتابى هذا ما سبق به المثل : « من يلزم الصحة يلزمه العمل » ، وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه ، بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل ، فلذلك جعلته آخره وختمته به ؛ تولانا الله و إياكم معشر الكتاب

---

(١) كذا وفى رواية « واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل » الخ .

بما يتولى به من سبق علمه فى سعادته و إرشاده ، فإن ذلك إليه و بيده ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

و بهذا الكتاب أيضاً عرفنا منازع عبد الحميد وأدبه ؛ وأنه يريد أن يجعل من الكتابة صناعة شريفة تفيد الناس ، وتفيد الآخذين أنفسهم بأدبها ، وأن الكتابة تحتاج إلى أدوات كثيرة ، ذكرها مفصلة ؛ ولابد بعد الاضطلاع بأعباء ما يلزم لها من العلوم أن يلم الكاتب بكل موضوع ولو إلماما خفيفاً ؛ ومن أحلى ما فى رسالته أن يسترشد الصغار منهم بالكبار الذين سبقوهم فى هذه الصناعة ، و يتعهدوهم و يعملوا بمشورتهم . فلا عجب بعد هذا أن كانت لعبد الحميد من كتابته مدرسة خاصة ، ما زال الناس يأخذون منها فى العصور التى تلته ؛ وقلما حادوا عنها لأنها مقبولة صدرت عن عقل عظيم نجذته التجارب ، وأيده العلم والأدب .

نعم ألبس عبد الحميد فى الثلث الأول من القرن الثانى هذا الإنشاء العربى حلة جديدة ، فيها المتانة وفيها الرشاقة ، وأكثر ما بدا فى تضاعيفها الإطالة فى غير ما إملال من سجع وترصيع ، إنشاء يسير مع الطبع ، ومع الطباع التى توائم أهل الحضارة ، ممن يفصلون و يتوسعون ، و يعيدون و يبدون ، ومقاصدهم تحوم حول التأثير فى أذهان السامعين والقارئين ، و بلوغ الغاية من تأليف الدول وانتظام الجماعة ؛ ولم تكن هذه الطريقة فى الكتابة ، فيما بلغنا ، مألوفة فى عامة دور الأمويين لأن هؤلاء عرب أقحاح ، وكتّابهم على شاكلتهم ، يحاولون بالإيجاز فى مكتوباتهم ، أن يتركوا للقارئ شيئاً من المعانى يفسرها بما يريد ، و يمتعوه بشىء من الحرية ، ينطلق فيها على ما يرى فيه المصلحة ، فيكون لديه المختصرات ، والتفاصيل من المطولات تفهم بذاتها .

اقتبس عبد الحميد هـذه الطريقة من الأمم المجاورة وخاصة الفرس ، ممن لم تـكن حضارتهم حضارة ابتدائية كالعرب ، بل فيها المطول المسهب ، والمتشعب المتعب . ولقد احتاج العرب بعد توسعهم فى الملك ، إلى تقرير المسائل على جليتها لا يعتورها لَبس ولا إشـكال ، ومن مواجب الحضارة الإسهاب ، ومن دواعى البداوة الاقتضاب ؛ فعبد الحميـد إذاً تشبع بروح الدولة وروح حضارتها التى بلغت فى أيامه أعلى قممها ، ورسم ببراعته صورة ما أحاط به واقتضاه الحال ، ولو حاول — وقد بلغت الأمة ما بلغته من درجات التقـدم فى كل شأن من شؤون المجتمع — أن يعود بالـكتابة إلى إيجازها القديم ، لمـا أفاد جديداً ، ولمـا رَجَّع ذاك الصدى فى سلطان دولته ، ولمـا وصف محيطه حق وصفه . ومن الصعب أن يتعدى المرء حدود البيئة ، ولا عليـه فيما أتاه ما دامت حال الدولة تتطلب التوسع فى الخطى إلى الأمام ، وأن تجدد أوضاعها على ما توجبه الحال ، وطبيعة الملك والحضارة ، على أن لا يهدم فى عمله أصلا من الأصول القديمة ؛ وفى هذا كان جماع المـكانة التى بلغها عبد الحميد بإنشائه ، فهو مخـترع طريقة ، وكاتب وصاف على الحقيقة ، استجمع شروط البلاغة ، فعد أمير المنشئين غيرَ مدافَع ؛ واستطاب الناس إلى يومنا هذا أُسلوبه المعجب المطرب ، وأين من يشا كله فيه ، أو تسمو قريحته إلى مستواه فى فنون الـكتابة ، وحسن التصرف على ما يشاء ؟

عبد الله بن المقفع

عصره :

كان عصر ابن المقفع غريبة العصور ، وقعت فى أعوام معدودة منه أحداث خطيرة ، ندر وقوع مثلها فى عصور التاريخ . كانت فيه الخلافة الأموية فى أعزّ أيامها ، وليس فى الأرض دولة إسلامية غيرها ، فتداعت أركانها فى شهور قليلة ، على رسوخ قواعدها ، وانبساط عمرانها ، وما استطاع آخر خلفائها مروان بن محمد على بعد غَوْره ، وجلالة قدره ، أن يدفع عن دولته ما كانت الليالى تتمخّض به .

فتم لبنى هاشم ما سعوا إليه منذ سنين للاستيلاء على بلاد الإسلام ، ونجحت جمعياتهم السرية بعد أن أخفقوا فى طلب الملك مرات . وقضى بنو هاشم على بنى أُمية ، وقد أبادوا فى الوصول إلى أغراضهم مئات الألوف من الخلق ، وأهلكوا حتى أبناء المهاجرين والأنصار ، وحتى القراء والعلماء ، وأخذوا الناس بالشبهة ، وما فرقوا بين المجرم والبرىء ، ولم يرعوا فى الصديق والعدوّ إلاّ ولا ذمة .

سفح السفاح أول خلفائهم الدماء ، وظهر الانتقام من الأُمويين بأخس صوره فى شخصه وشخص إخوته وقواده ، نزعوا الرحمة من قلوبهم ، وما أخذتهم شفقة بإخوانهم فى الدين والجنس ، ونسوا كل فضل بينهم ، وما أهمهم غير قيام أمرهم ، حتى اغتبطوا بإقامة دولة فارسية بروحها ، عربية بمظاهرها ، وقلبوا ظهر المجن لأبناء عمهم من أبناء على ، وكانوا وإياهم يعملون للوصول إلى الخلافة سنين طويلة فى العصر الأموى .

وبينا كان العباسيون يَنْعَمون بما تمّ لهم من الغلبة ، كان أملهم يضعف فى

احتفاظ دولتهم ببلاد الأندلس وما إليها من أقصى المملكة ، لأن صقر قريش عبد الرحمن بن هشام الاموى استصفى الأندلس بمن ضوى إليه من آل بيته ، و بقايا السيوف وخدّام دولتهم فى الشرق ؛ فأقام بهم فى المغرب دولة قوية يرهب بأسها وسلطانها . وقطع الخطبة العباسية وأباد جيشاً برمته بعث به العباسيون لمناجزته .

أسقط العباسيون قيادات العرب ، فنشأت الشعوبية أى التفرقة بين العرب والعجم ، فنقض أول حجر من أساس بناء الدولة ، ولما ترسخ قواعدها . قضى العباسيون بأيديهم على سلطانهم مذ أقاموا ملكهم بالجور والجَبَرية ، واستسلموا لأبناء خراسان ، ونظروا بعين الريبة إلى أبناء قحطان وعدنان .

أمعن عمال العباسيين فى إرهاق الرعية على ما لم يجوزه دين ساوى بين الصغير والكبير ، وعلى ما لم يجر مثله فى الدولة السالفة ، وأصبحت الأموال تجبى بأنواع من الظلم ، وتصرف فى ضروب من الإسراف . وفشا الترف حتى تجاوز كثيراً مدى ما بلغته الرفاهية فى عهد بنى مروان . وكأن دولة بنى العباس قامت لتفقر الضعفاء وتغنى الأقوياء من السادة والقادة ، كفعل الدول الجبارة فى قديم الدهر وحديثه . ثم إن الأخلاق تبدلت تبعاً لتبدلها فى الطبقات العليا ، ولم يبق للدين تلك الروعة التى كانت له فى عهد الراشدين والأُمويين ، فاستحالت بعض معانيه السامية من النفوس ، و إن لم تتبدل مظاهره وأوضاعه .

و بدأ فى هذا العصر نقل الكتب العلمية من لغات الفرس واليونان والسريان والهند ، وكان تَقَدَّم بعض رجال بنى أُمية فشرعوا بهذه الحركة المباركة ، وأخذ الخلفاء والأمراء يُفْضِلون على من تصدوا لنقل علوم القدماء . وحاول بعض من دخلوا فى الإسلام ، يحملون أرواح أديانهم ومقالاتهم القديمة ، إلقاء

الشبَه فى الدين ؛ فقام رجال كفاة يردون عليهم من طريق العقل ، ويدافعون عن العقيدة فى ذات الله وصفاته ، ليدفعوا عن الإسلام شبه المانوية والديصانية والنصارى واليهود والملاحدة ، وكان الناس منذ عهد التابعين يعالجون موضوعات دينية ما تخيلوا الخوض فيها من قبل ، والمسلمون كانوا أولا إلى الاكتفاء بالنقل والتسليم فى العقائد ، فأصبحوا يحتالون للاحتجاج على صحتها بأدلة عقلية ، ونظر جديد ، ووقع من حاولوا ذلك من العلماء بين نارين : نار شَبَّها عليهم أبناء دينهم ممن لم يرتضوا طريقتهم ، وأخرى أوقدها من كان يراد إرجاعهم إلى الصواب ، وأبو جعفر المنصور يحيط برعايته علماء الكلام ، وكان من المقدمين فيهم .

وأخذت مذاهب الفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج تتعيّن ، وأصبح لكل فريق مذهب على حياله ، وكانت مذاهبهم سياسية ، فغدت سياسية ودينية معاً ، وأخذوا فعل أهل السنة ، يسعون إلى تدوين مذاهبهم ، وما خالفوا فيه الجماعة ، واشتد الأخذ والرد بين أهل الحديث وأهل الرأى [1] اشتداده بين علماء النقل وعلماء العقل ، وما كانت المذاهب المعتمدة هى المعوّل عليها وحدها فى القضاء ، بل يجتهد كل عالم بما يعلم ، ويقضى بالكتاب والسنة والإجماع ؛ ومنهم من يضيف إلى ذلك القياس والعرف . وتمت للموالى الذين أسلموا على أيدى رجال من العرب وغيرهم من أبناء الروم وفارس ومصر وإفريقية مشاركة قوية فى هذه النهضة الدينية ، على ما كان للنساطرة واليعاقبة والصابئة وغيرهم من أياد بيض فى نقل علوم الطب والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها ، وظهر التصوف بظهور أناس من النساك فى خراسان والعراق ، على مثال زهاد الهنود وغيرهم .

---

(١) أصحاب الرأى هم أصحاب القياس لأنهم يقولون برأيهم فيما لم يجدوا فيه حديثاً أو أثراً .

وسرى الفساد إلى اللغة وعَلِقَتْ العجمة تذهب ببهجتها ، واحتفظت البادية حتى آخر المائة الأولى بجمال لهجتها ، فلا تكاد تعرف لها لحناً ، وعرض الفساد خاصة لألسن البلديين والمولدين ، بمن نزل عليهم من صنوف الحمراء أو الأعاجم ، يدخلون فى دين الأمة ، ويختلطون بالعرب ؛ فهب العلماء يتلقون اللغة من ألسن أبنائها الأقحاح فى جزيرة العرب ، فدونوا ما أمكنهم تدوينه من ألفاظها وتراكيبها ، ومن شعرها وأثرها ؛ وأصبح الشعر الجاهلى خادماً للكتاب والسنة ، وتم وضع علم النحو والعروض وكثر التدوين .

كل هـذا التبدل فى الأوضاع والمنازع شاهده نابغة العجم فى الإسلام عبد الله بن المقفع ، ومرّت ذكراه على خاطره ، ونظر فى مرآته بعينه ؛ ومن هذه الأحداث ما كان يوم حدوثه حدثاً فتيًّا ؛ ومنه ما شاهده فى إبانه ، وهو رجل تام الرجولية ، يعرف المصدر والمورد ، ويقيس الماضى بالحاضر ، ويسعى لتقوى الحكومة الصالحة فى شعب صالح ، موحد المقاصد فى شرعه ومدنيته ، آخذاً فى طريق سعادته حرًّا أبيًّا ، ومسلماً حنيفاً .

أصله ونشأته :

كان المبارك والد عبد الله بن المقفع من مجوس مدينة جُور فى بلاد فارس ، تولى بعض أعمال الخراج للحجاج بن يوسف الثقفى أيام إمارته على العراق و بلاد الشرق ، فمدّ يده فيما قيل إلى أموال السلطان ، فضربه الحجاج ضرباً مُبَرِّحاً حتى تقفّعت يده أى تشنّجت فسمى بالمقفع ، وولد عبد الله ، وكان اسمه أولا رُوزبه ويكنى أبا عمرو ، فى مدينة جور على الأغلب ، وهى بلدة نزهة من أجمل المدن وأعمرها ، على عشرين فرسخاً من شيراز ، وإليها ينسب الورد الجورى الأحمر ،

وربما كان لأول ما فتحت عينه عليه من مناظر الطبيعة الخلّابة ، وهو فى بيت يسار ونعمة ، أعظم التأثير فى غرامه بالحسن والإحسان ، وربما تأثر لما رأى فى صباه بيت النار العظيم فى بلده ، يدخله أهله وجيرانه للعبادة ، وقد كتب عليه بالفهلوية : إنه أُنفق عليه ثلاثون ألف ألف درهم .

لم تُعلم سنة مولد ابن المقفع بالتحقيق ، ويقول الجهشيارى إنه كتب لدواوين عمر بن هبيرة على كِرمان . وعمر بن هبيرة عزله هشام بن عبد الملك عن العراق والشرق سنة خمس ومئة ، وقال : إنه كتب أيضاً للمسبّح بن الحُوَّارى فى نيْسابور فى ولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، قُبَيْل زوال الدولة الأموية . ويحتمل بهذا أن يكون عبد الله بن المقفع ولد فى عشر التسعين ظنًّا ، ولا يُعقل أن يكتب لأحد قبل أن يتم له نحو خمس وعشرين سنة . وإذا قدَّرنا أن مقتل ابن المقفع كان سنة ثنتين وأربعين أو ثلاث وأربعين ومئة ، فيكون عمره يوم قتل فى نحو الستين ، خلافاً لمن قالوا إنه قتل وهو ابن ست وثلاثين . وهذا التقدير منقوض بالبداهة ، إذ لا يعقل أن يخلف ابن المقفع هذه الكنوز العظيمة من كتبه وكتاباته ، وهو فى مَيْعة الشباب ، وأن تُجمع النفوس على الاعتراف بتقدمه فى صناعته ، قبل أن تعلو به السن فى الجملة ، وأن تتهيأ له هذه التجارب العظيمة فى الحياة وهو لم يتعد العقد الرابع .

وكما نحن فى شك قليل من سنة مولد ابن المقفع ، لا نعلم بالتحقيق أين تلقى تعليمه الاولى ، فى جُور أم فى البصرة . والأَرجح أنه كان فى جور ، إذ من الصعب أن يثقف الثقافة الفارسية التى تثقفها فى البصرة ، وهى المدينة العربية بكل مناحيها ، والأرجح أن والده توطن البصرة بعد أن أصبح ابنه عبد الله يافعاً ، وأخذ الفصاحة عن أبى الجاموس ثور بن يزيد الأَعرابى ، وكان يفد

البصرة على آل سليمان بن على . وحرص المبارك على تأديب ولده عبد الله ، فكان يجمع له العلماء . ولنا أن نقول إن البصرة كانت موطن درسه ، ومدينة جور مسقط رأسه .

نشأ ابن المقفع بين ظهرانى علماء أجلاء من المسلمين ، وعرف الإسلام منذ عقل ، أكثر من معرفته دين المجوس أتباع زرادشت . وغاية ما كان له من صلة بهذا الدين ، أنه رأى أهل بيته على دين المجوس ، وهو مولود فى بيت مجوسى . ودعته البيئة التى عاش فيها إلى أن يلقى نظرة على المجوسية التى انتقلت إليه بالإلف والعادة . ونظر فى الإسلام الذى لقنه فى الحداثة بالتربية والعشرة ، ومازج أهله وسمع أعلام علمائه ، فمالت نفسه إلى أن يدين به ، فجاء إلى عيسى ابن على وكان كاتبه ، وقال له : دخل الإسلام فى قلبى وأريد أن أسلم على يدك ، فقال له عيسى : ليكن ذلك غداً بمحضر من القواد ووجوه الناس ، ثم حضر طعام عيسى عشيةَ ذلك اليوم ، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم ، على عادة المجوس . فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الإسلام ؟ فقال أكره أن أبيت ليلة على غير دين .

دان ابن المقفع بالإسلام عن عقيدة وعلم ، وغدا فى الكهولة نابه الذكر ، وما زاده إعلانه الإسلام إلا ما أوجب عليه القيام به من التكاليف . وما كان له مطمع دنيوى يتطلبه بإسلامه ، وهو الرجل الذى لابسه المسلمون على مجوسيته ، وعهد إليه أمراء الإسلام بشؤون دواوينهم . وائتمنوه على أسرارهم ، وأعجبوا به مجوسيًّا ، فلما امتلّ ملة الإسلام زادوا به إعجاباً .

أدبه وأسلوبه :

كان تمكن ابن المقفع من الآداب الفارسية على مقدار ضلاعته من العربية ، جمع بين الأدبين ، وفاق الأقران والنظراء بثقافته العربية إلى ما لم يكد يصل إليه أحد من معاصريه . ساعده تمكنه من الفارسية على الرسوخ فى العربية ، وأتى لغة تربيته الحديثة بأساليب جديدة ، وطرق فى التفكير قلّ أن عرفت قبله .

يقول صاحب الصناعتين : « إن من عرف ترتيب المعانى ، واستعمال الألفاظ على وجوهها ، فى لغة من اللغات ، ثم انتقل إلى لغة أخرى ، تهيأ له من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له فى الأولى . ألا ترى أن عبد الله الكاتب (ابن المقفع) استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى ، فحولها إلى اللسان العربى ، فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى ، وتصحيح اللفظ ، والمعرفة بوجوه الاستعمال » . ولاشك أنه حفظ القرآن ودرس إعجازه وعرف محكمه ومتشابهه ، وقرأ ما شاء من دواوين شعراء الجاهلية ، وأدرك معانيهم وتدبر ألفاظهم . وقيل إنه تخرج فى البلاغة بخطب على بن أبى طالب ؛ وما نحال ذلك كافياً فى بلوغ الغرض لقلة المأثور من تلك الخطب يومئذ .

كان ابن المقفع من أول من ترجم فى الملة الإسلامية من اللغة الفارسية إلى العربية ، فنقل كتب أرسطو المنطقية الثلاثة ، وهى كتاب قاطاغوريا س ، وكتاب بارى أرمنياس ، وكتاب أنالوطيقا ؛ وترجم المدخل إلى كتاب المنطق المعروف بالإيساغوجى لفرفوريوس الصُّورى ؛ وكتاب كليلة ودمنة ؛ وترجم كتاب « خداينامه » فى السير ، وكتاب « آيين نامه » ، وكتاب « مزدك » ، وكتاب « التاج » فى سيرة أنوشروان . ويقول المسعودى : إن كتاب « آيين نامه » ،

أو عادات الفرس وأنظمتهم ، هو كتاب كبير يبلغ آلافاً من الصفحات ؛ وأنه ترجم أيضاً كتاباً اسمه كتاب « الكيكيين » ، وهو من الكتب المعظمة عند الفرس ، وفيه سير ملوكهم وآبائهم . ترجم كل هذا عن الفهلوية ، لغة الفرس القديمة ، وكان أصل بعضها نقل إليها من اليونانية والهندية .

ولم يبق من كل هذه الأسفار سوى كليلة ودمنة ، مع ما ألفه من الأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة ؛ واليتيمة كتابان على ما يقول الباقلانى ، أحدهما يتضمن حكماً منقولة ، والآخر فى شىء من الديانات . ويقول طيفور إنها من الرسائل المفردات اللواتى لا نظير لها ولا أشباه ، وهى أركان البلاغة ، ومنها استقى البلغاء ، لأنها نهاية فى المختار من الكلام ، وحسن التأليف والنظام ، فإن الناس جميعاً مجمعون أنه لم يعبر أحد عن مثلها ، ولا تقدمها من الكلام شىء قبلها . ويقول ابن النديم : إن اليتيمة وكليلة ودمنة من الكتب المجمع على جودتها .

واختلفوا فى كون ابن المقفع نقل كليلة ودمنة عن الفارسية ، والأرجح أنه كتبه مباشرة ، وقد أقر فى المقدمة أنه كتب بعض فصوله ونقل الباقى عن غيره ؛ أتى ذلك لينجو من تبعة ما ورد فيه ، ويسلم من نقمة الملوك إذا عدوا ما فيه تعريضاً باستبدادهم . ويقول الجاحظ : ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبى عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولّدوا مثل تلك الرسائل ، ويضعوا مثل تلك السير . فالجاحظ كان إذاً فى ريب من نسبة هذه الكتب التى زعم أصحابها أنهم ترجموها عن الفارسية ، لأن مثلهم فى افتنانهم فى البيان لا يتعذر عليهم وضع أشباهها .

وضُرب المثل فى البلاغة برسالة اليتيمة فى طاعة السلطان ، حتى قال أبو تمام فى مدح الحسن بن وهب :

ولقد شهدتك والكلام لآلئٌ تُؤم[1] ، فبكر فى الكلام وثيِّبُ
فكأن قُسًّا فى عكاظ يخطب وكأن ليلى الأخيلية تندب
وكُثير عَزَّة يوم بين ينسب وابن المقفع فى اليتيمة يسهب

ذكروا أن ابن المقفع كان إذا أراد الشعر صنعه ، بيدأنه لم يشغل به نفسه لانصرافه إلى النثر ؛ والواقع أنه ما كان يستطيع من الشعر إلا مالا يذكر مثله من مثله . وقال عن نفسه : « الذى أرضاه لا يجيئنى ، والذى يجيئنى لا أرضاه » وقيل له : « لِمَ لا تطيل القصائد ؟ قال : لو أطلتها عرف صاحبها » . قال صاحب الصناعتين : يريد أن المُحْدَث يتشبه بالقديم فى القليل من الكلام ، فإذا طال اختل ، فعرف أنه كلام مولد . وقد روى له أبو تمام فى الحماسة ثلاثة أبيات يرثى بها يحيى بن زياد ، وقيل ابن أبى العوجاء ، وهى :

رُزئنا أبا عمرو ولا حىَّ مثله فلله رَيْب الحادثات بمن وقع
فإن تكُ قد فارقتنا وتركتنا ذوى خَلة ما فى انسداد لها طمع
لقد جرَّ نفعاً فقدنا لك أننا أمِنّا على كل الرزايا من الجزَع

لم يُدان ابن المقفع فى الكتابة المرسلة مُدان ، فهو فيها المفرد العلم ؛ اللهم إلا بضعة من الرجال ، ومنهم سهل بن هرون وعمرو بن مسعدة ، أتى الدهر على ما أنشأته أقلامهم إلا قليلاً ؛ وعلى ذلك أجمع العارفون من القدماء . ولقد سمع أبو العيناء بعض كلام ابن المقفع فقال : كلامه صريح ، ولسانه فصيح ، وطبعه صحيح ، كأن بيانه لؤلؤ منثور ، ووشى منشور ، وروض ممطور . وذكره آخر فقال : ألفاظه معان ، ومعانيه حكم .

وشهد له الجاحظ فى البيان والتبيين بالبلاغة ، ونقل عنه غير مرة . وقال

---

(١) توائم النجوم واللؤلؤ ما تشابك منها .

الأصمعى إنه قرأ آداب ابن المقفع فلم ير فيها لحناً إلا فى موضع واحد وهو قوله : العلم أكبر من أن يحاط بكله فخذوا البعض . أى أنه أدخل الألف واللام على البعض ، وكان المتقدمون من أهل العلم ينكرون إدخالهما على « كل » و « بعض » .

ولا نطيل بنقل ما قاله أعيان البيان فى بلاغة ابن المقفع ، فإن كتابته تدل على نفسها ، ولم يعرف لمتقدم ولا لمتأخر أن نقل إلى اللسان العربى شيئاً فى الأدب والعلم ، لا تحسُّ فيه أثر اللغة المنقول عنها إلا ابن المقفع . وكانت الترجمة غالبة عليه فى أول حياته ، فلما استوت أدواته أنشأ ينشئ رأساً ، فبذَّ البلغاء فى الناحيتين : فى الترجمة والتأليف . واختار أن يترجم لأول نشأته ما ينقص هذه اللغة التى أحبها ، وكان ذلك السبب فى خلوده ، والإعجاب به فى الطورين ؛ كان يعتقد أن الحضارة العربية لا تتفوق إلا إذا أدمجت فيها ما عملت فيه عقول الأمم قبلها ، ويرى أن الجديد صِنو القديم ، يتكافآن ويتساندان .

سرُّ تأثير ابن المقفع فى مختلف العصور سلاسته وجزالته ، نصح باتباع طريقته فيما قاله لأحد الكتاب : إياك والتتبع لوحشىّ الكلام ، طمعاً فى نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العىُّ الأكبر . وقال لآخر : عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السِّفلة . وقال : البلاغة إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها . وقال : إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتمَّ لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنهما لا يرضيهما شىء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شىء لا تناله ، وقد كان يقال : « رضاء الناس شىء لا ينال » . وقال : إن خير الأدب ما حصل لك ثمره ، وبان عليك أثره . وسئل ما البلاغة ؟ فقال : اسم لمعان تجرى فى وجوه كثيرة : فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها

ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما كاد يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً ، ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون فى الحديث ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون خطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة هذه الأبواب الوحى[1] فيها ، والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة .

و بعد فكأن ألفاظ ابن المقفع منخولة فى منخل دقيق نُفى الزؤان مما يحمل ، أما التراكيب فهى موضع العجب فى رصف بعضها إلى جانب بعض على غاية الإحكام ، ثم هو ليس فى ألفاظه بالبخيل ولا بالمسرف ، يعطى منها بمقدار ما يلبس معانيه حلة قشيبة ، فيجمع بين الجزالة والوضوح والإيجاز . ومعانيه كلها ناصعة ، وألفاظه كلها فصيحة ، على أن اللفظ مهما سلس و بعد عن الوحشية والسوقية لا يعذب إلا بضم أجزائه فى سلك واحد ، لتصح المعانى ، وهى سر البلاغة والفصاحة والروعة ، وهذا كان ظاهراً فى كلام ابن المقفع ، هو يمشى من صفاء الطبع على عرق عريق ، ويحاول أبداً نقل فكره إلى من يتلو كلامه ، واضحاً جليًّا ، فكأنه يتوخى الإفهام أولا ، و بلاغته فى كثرة إفهامه . وما كان يخفل بالسجع جملة ، اللهم إلا ما أتى به بيانه عفواً فى بعض ثنايا الكلام ، فكأن السجع ، وهو نادر جدًّا فى أدبه ، متطفل على قلمه عارض عليه ، والأصل فى إنشائه المرسل الرشيق .

كان ابن المقفع كثيراً ما يقف إذا كتب ، فقيل له فى ذلك فقال : إن الكلام يزدحم فى صدرى فأقف لتخيره . فهو يتخير كلامه و يتخير موضوعه

---

(١) الوحى : الاشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والالهام والكلام الخفى وكل ما ألقيته إلى غيرك . وكل هذه المعانى تصلح هنا .

أيضاً ، وما خاض إلا فيما توسع فى علمه ، وما وقع له فى رسائله ، وفى كتاب كليلة ودمنة من الحكم والأفكار مما يتأدب به كل إنسان ، و يصلح لكل زمان ومكان ، و ينفع أهل كل نحلة ولسان ، وكله شاهد بسعة بصره فى كلام العرب ، و بطول تبصره فى دراسة أحوال المجتمع ، كان متبحراً فى أدب أُمته ، وكشف خوالج نفوسها ، وكان مؤمناً بما يقول ، هاضماً ما تعلم ، يغترف بيانه من صميم القلب ، فجادت لذلك طريقته ، وأسر القلوب أسلوبه ، وما خرج عن قانون الفطرة فى كل ما خطه بنانه ، وقذف به جنانه ، ليس فى كلامه مقال لعائب ، ولا فى إطنابه واقتضابه مطعن لطاعن ، أثر بإبداعه فى النفوس بما كتب ، لأن الناس فى حاجة إلى مثل كلامه ، لا يستغنون عن الأخذ به ، ولأنه أتاهم بما تدركه عقولهم من أيسر سبيل ؛ والأمور تعظم فى النفوس بقدر وقعها فيها ، وشدة حاجتها إليها .

أثرت الثقافة الفارسية فيما كتب ابن المقفع أى تأثير ، وقد أخذ منها ما لا تأباه السليقة العربية وأدمجه فيها ؛ ور بما كان حظه من التربية البيتية الأهلية أقلّ من حظه من الثقافة الفرعية ، وفرعه على كل حال أعظم من أصله : فرعه اصطنعه بيده ورباه على أيدى عظماء ، وأصله أورثته إياه بيئته و بيته ؛ أتى من قديمه بالقدر الذى لا يمكن أن يتخلص منه من كان فى مثل شأنه ، وحمل إلى جديده أشياء فيها مسحة منقطعة القرين ؛ وراعى فى إبراز طريفه حالة من يكتب لهم ، فى زمن كانت البلاغة أقصى ما يتطالّ إليه الكاتب والمفكر والمصنف . وما كان لنقاد كلامه أن يحسّنوه لو لم يجدوا فيه آثار إحسان ، وكان من السهل عليهم أن يزيفوه لو بدا لهم فيه مغمز .

والغالب أن الناحية الضعيفة فى ابن المقفع كانت فى تخلفه فى علم الكلام ،

أى التوحيد ؛ قال الجاحظ فيه إنه كان يتعاطاه ولا يحسن منه قليلا ولا كثيراً . واعترف له مع ذلك بأنه كان ضابطاً لحكايات المقالات ؛ قال : « ولا يعرف من أين غُرَّ المغتر ، ولا وثق الواثق ، وإذا أردت أن تعتبر ذلك إن كنت من خُلَّص المتكلمين ومن النظارين ، فاعتبر ذلك بأن تنظر فى آخر رسالته الهاشمية ، فإنك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم ، ردىء المدخل فى مواطن الطعن عليهم ، وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم ، فيظن بنفسه عند ذلك ، أنه لا يحمل عقله على شىء إلا بَعُدَ به » .

وليس من المستغرب ألا يجيد ابن المقفع علم الكلام ، ولكن المستغرب أن يحمل الجاحظ عليه وعلى الخليل بن أحمد صاحب العروض ، ويرمى هذا بالجهل بهذا العلم ، بعبارة جارحة ، وقال فيه كما قال فى ابن المقفع : « إنه من أجل إحسانه فى النحو والعروض وضع كتاباً فى الإيقاع وتراكيب الأصوات ، وهو لم يعالج وتراً قط ، ولا مسَّ بيده قضيباً قط ، ولا كثرت مشاهدته للمغنين ؛ وكتب كتاباً فى الكلام ، ولو جهد كل بليغ فى الأرض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك ، ولو أن ممروراً استفرغ قوى مِرَّته فى الهذيان لما تهيأ له مثل ذلك ، ولا يتأتى ذلك لأحد إلا بخذلان من الله تعالى » .

ونُقل عن أبى بكر الأصَمّ ، وهو من المعتزلة أيضاً ، أنه ذكر ابن المقفع فقال : ما رأيت شيئاً إلا وقليله أخف من كثيره إلا العلم ، فإنه كلما كثر خف محمله ؛ ولقد رأيت عبد الله بن المقفع هذا فى غزارة علمه وكثرة روايته ، كما قال الله عز وجل : « كمثل الحمار يحمل أسفاراً » ، قد أوهنه علمه ، وأذهله حلمه ، وأعمته حكمته ، وحيرته بصيرته . ورأينا نحن بما قال خصوم ابن المقفع أنهم مع دعواهم عليه الجهل فى علم الكلام ، يعترفون له بغزارة العلم وكثرة الرواية ، وأنه يحسن ضبط

حكاية المقالات ، و يجيد الحكاية لدعوى أهلها ؛ وتسفيههم لرأيه لا يقدح فيه كثيراً إلا لأنه عانى علماً لا يحسنه . قال محمد بن سلام : سمعت مشايخنا يقولون لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع .

و إذا سلمنا مع الجاحظ أن ابن المقفع لم يكن حجة فى الكلام ، فقد رأيناه يشهد له بالفضل ، و يقول إنه كان مقدماً فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السير ؛ أى أنه كان كاتباً خطيباً مترجماً واسع الخيال يخترع و يبتدع . وعدَّه من المعلمين ثم من البلغاء المتأدبين . نظمه فى سلك المعلمين لأنه سبق له أن أدّب أحد أولاد الأمراء من بنى إسمعيل بن على .

تُرى ، ونحن يَعنينا من ابن المقفع بلاغته ، هل نقل حِكَمه عن غيره ، أو كان أبا عذرتها ، ومفترع طريقتها ؟ والأرجح أنه نقل ، ولكن بأسلوبه المعجب المطرب ، نقل ما ألبسه ثوباً جميلاً من حَوْكه . وقد يقل الإبداع فى الأفكار ، وهى تأخذ من نفسك بما أُلْبِسَتْ من حلة شائقة يتعذر على كل أحد محاكاتها ، كالطعام الجيد تتألف مواده من أشياء يعرفها الناس ، وقلَّ أن يحسن تحضيرها ، إلا طاه رفيق يركّب فيها كل شىء على مقادير معلومة ، فتأتى طيبة فى المذاق .

أعظم ابن المقفع حكمة القدماء ، وذهب إلى أنهم سبقوا إلى كل فضل ، وأن الواجب الأخذ عنهم ، وأن من بعدهم لم يبتدعوا أصولاً جديدة . و إليك رأيه الصريح غير مُجمجم فيه ولا مُتعتع ، قال : « فمنتهى علم عالمنا فى هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وغاية إحسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم ، وأحسن مايصيب من الحديث محدثنا أن ينظر فى كتبهم ، فيكون كأنه إياهم يحاور ، ومنهم يستمع ؛

غير أن الذى نجد فى كتبهم هو المنتخل من آرائهم ، والمنتقى من أحاديثهم ، ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ فى صفة له مقالاً لم يسبقوه إليه ، لا فى تعظيم الله عز وجل وترغيب فيما عنده ، ولا فى تصغير للدنيا وتزهيد فيها ، ولا فى تحرير صنوف العلم ، وتقسيم أقسامها وتجزئة أجزائها ، وتوضيح سبلها ، وتبيين مآخذها ؛ ولا فى وجوه الأدب ، وضروب الأخلاق ؛ فلم يبق فى جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال ، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن ، مشتقة من جسام حِكَم الأولين وقولهم ، ومن ذلك بعض ما أنا كاتب فى كتابى هذا من أبواب الأدب التى يحتاج إليها الناس » .

وقوله إن القدماء لم يغادروا شيئاً لا فى تعظيم الله عز وجل وترغيب فيما عنده ، ولا فى تصغير للدنيا وتزهيد فيها الخ ، قولٌ فيه نظر ، ولعله مما قاله قبل إسلامه ، ولا يعقل أن تحوى كتب زرادشت وغيرها من الكتب أموراً فى تعظيم الخالق وتصغير قدر الدنيا أكثر من القرآن ، فهو المنسوج كما قال ابن رُبَّن « بالتوحيد والتهاليل والتحاميد والسنن والشرائع والخبر والأثر والوعد والوعيد والرغبة والرهبة والنبوّات والبشارات بالأمور الجميلة التى تليق بجلال الله وحكمته وطَوْله ، وبسط الأمل فى الغفران والرأفة وقبول التوبة والمعانى التى ترتاح إليها النفس وتستريح إليها الآمال . . . . ولذلك استحق أن يقال إن هذا الكتاب آية من آيات النبوة إذ لم يكن له نظير مذ خُلق الخَلق ، وخُطَّ فى الرق » .

إن دعوى ابن المقفع أنه أخذ من الماضين حكمتهم ، وأنهم لم يتركوا بعدهم مقالا لقائل ، لا يمنع إذا تدبرنا كلامه أن نجد له كثيراً من الآراء المبتكرة المبتدعة ، استفادها من المجتمع الذى عاش فيه ، وثقفها من الحوادث التى مرت به ، وأوحاها إليه ما عاناه من أبناء دهره ، وشهده من صعاليكه

وملوكه ؛ كان عصره كتاباً مفتوحاً ، اقتبس منه كل ما فيه حكمة تنجع فى تقويم معوج الأخلاق ، وسنّ سنة الفضائل ؛ وعلمنا منه أنه كان من المحافظين يحتفظ بتراث الأجداد ، ولا يسير إلى التجدد إلا بقدر معلوم .

أما رأى ابن المقفع فى العرب ، فهو لا يقل عن رأى أعظم المتعصبين لهم من أبنائهم كالجاحظ . روى أبو العيناء الهاشمى عن القَحْذَمِيّ عن شَبِيب بن شَيْبَةَ قال : كنا وقوفاً بالمِرْبد ، وكان المربد مألف الأشراف ، إذ أقبل ابن المقفع ، فبششنا به و بدأناه بالسلام ، فرد علينا السلام ، ثم قال : لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرحتم ذوابكم من جهد الثقل ، فإن الذى تطلبونه لم تُفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شىء تنالوه ، فقبلنا وملنا ؛ فلما استقر بنا المكان قال لنا : أى الأمم أعقل ؟ فنظر بعضنا إلى بعض ، فقلنا لعله أراد أصله من فارس ، فقلنا : فارس ! فقال : ليسوا بذاك ، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض ، ووجدوا عظيماً من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عَقد الأمر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم . قلنا : فالروم . قال : أصحاب صنعة . قلنا : فالصين . قال : أصحاب طُرفة . قلنا : الهند . قال : أصحاب فلسفة . قلنا : السودان . قال : شر خلق الله . قلنا : الترك . قال : كلاب مختلسة . قلنا : الخزر . قال : بقر سائمة . قلنا : فقل . قال : العرب . قال فضحكنا فقال : أما أنى ما أردت موافقتكم ، ولكن إذ فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من المعرفة ، إن العرب حكمت على غير مثال مُثّل لها ، وآثار أثرت : أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، و يتفضل بمجهوده ، و يشارك فى ميسوره ومعسوره ، و يصف الشىء بعقله فيكون قدوة ، و يفعله

فيصير حجة ، ويحسّن ماشاء فيَحْسُن ، ويقبح ماشاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ؛ فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم فى أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر ، على الخير فيهم ولهم . فقال : (ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خصم ، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان اه

إنا إذا حكمنا بالقليل الباقى من رسائل ابن المقفع وكتبه ، وهى كافية فى إنارة وجوه الحكم عليه ، نجزم بأنه كان فيما يكتب يتروّى لا يتسرع ولا يبتده ، وقد يرتجل وينشئ أفكاره وأفكار غيره إنشاء ، يصبها نُقرة واحدة فى قالب واحد ، ثم هو فى ذاته بعيد عن تزكية النفس ، لا يفاخر ولا يتمجد ، ولا يناقش خصماً ، يقول ما يعلم ، لا يأبه لغير ذلك ؛ ولقد تجلى النُّبل والعظمة فى قوله وفعله ، وأن الحقَّ طَلِبَته ، لا يبالى عذل عاذل ، ولا صولة متطاول ، لا يصانع من يصانعه ، ولا يمارى من ماراه ، يتلطف فى الأداء ، ويربأ بنفسه عن مماحكات المماحكين ، ومناقشات المجادلين ، هو جِدُّ عارف بأن للعلم سياسة ، كما للناس سياسة ، وأن للأدب حدوداً لا يصح لمن يكتب فيه تعديها ، وهواه محصور فى أن يحمل للأمة ما ينفعها ، وتُجمِع على استحسانه ، وإن تخالفت مشاربها ، ولسان حاله هذا ما جهدت فيه فعرفته وصنفته ؛ وأنتم أيها الناس خذوا منه أو دعوه ، فإن له أقواماً يفهمونه ويعونه ، أنتم إن لم تريدوه ، فالذين كتب لهم راغبون فيه دونكم .

وسواء كانت رسائل ابن المقفع وكتبه مما نقله عن غيره ، أو ابتدعه من عند نفسه ، فالظاهر أنه ما توخى إلا نقل ما عرفه عن الأمم الأخرى ، ولم يحفل بما

دوَّنه العرب من أخبارهم وحكمهم ، ذلك لأن لهذا رجالاً لم يقصروا فى هـذه السبيل ، وإنما أراد ، وهو الفارسى النَّابه ، أن ينقل للعرب ما عند فارس والهند والروم من العلوم والحكم ، فأتى ببضاعة جديدة إلى الأسواق العربية ، وافقت هوى أرباب الذوق وعشاق الطرائف ؛ فاقتناها من اقتناها ، وانتفع بها من انتفع . فطريقته إذاً فى العربية جديدة زاد بها ثروة الآداب ، ووسع دائرة التفكير ، فى أمة تلقفت بأساليبها ما عند غيرها . فكان له المنّة على الأدب من وجهين : الإتيان بجديد رائع ، وابتداع هذا الأسلوب الفتان .

نقل شيئاً فى الفلسفة والعلوم القديمة ، وفى الأدب والحكم وسير الملوك وتدبير الممالك ، وترجم ما ينفع العرب ، وزهد كغيره من التراجمة فى نقل آداب الأمم الأخرى ، فلم يترجم الإلياذة مثلاً لأنها لا تتفق وأذواق العرب ، وهم أمة تتناغى ببلاغتها ، وتبعد عن الخيال ، وتبالغ فى المحسوسات . فكان عمله ملائماً لروح الأمة التى أنشأته ، وعلى ذلك جرى النقلة بعده .

يتراءى لك وأنت تمعن النظر فى تقاييد[1] ابن المقفع أنك ماثل أمامه يفيض عليك من حكمته على طريقته . والكلام كما قال العسكرى : « يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته ، وتخير ألفاظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، واين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشبه أعجازه بهواديه[2] ، وموافقة مآخره لمباديه ، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلا ، حتى لا يكون لها فى الألفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنثور فى سلاسة مطلعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه ؛ وكمال صوغه وتركيبه ، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقاً ، وبالتحفظ خليقاً » .

---

(١) التقاييد كالتعاليق ما يقيده المرء فى دفاتره من الفوائد .
(٢) الهادى : العنق ، والهوادى : الجمع .

أخلاقه ومصيره :

إن من نشأ فى سعة من العيش ، وأخذ عن عظماء فى العلوم والآداب ، وعاش زمناً بين كبار فى الإمارة والسياسة ، لا بدَّ أن تُبقِى بيئته الراقية فى نفسه من الصفات ما يسمو به إلى الفضائل والمكارم . وقد قال فيه من ترجموا له : « إنه كان سريًّا سخيًّا ، يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه » وقالوا : إنه لم يبق فى الإسلام من أهل فارس « شريف يذكر إلا أن يكون عبد الله ابن المقفع والفضل بن سهل » ، وفى هذه النعوت جماع من صفات السراوة .

قيل إنه قد أفاد مالاً لما كان يكتب لابن هبيرة على كرمان ، فأداه ما جبل عليه من حب الخير أن يُجرى على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين خمسمائة درهم إلى ألفين فى كل شهر . ولم يقف جوده عند هذا الحد من التوسعة على من يُعرف فى البصرة والكوفة ، بل أُثرت له حوادث فى السخاء دلت على أنه كان متصفاً بالأخلاق الصالحة التى طالما وصفها للناس فى رسائله . وهو القائل : « أُبذُل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رِفدك ومحضرك ، وللعامة بِشرَكَ وتحنّنك ، ولعدوك عدلك ، واضْنَن بدينكَ وعرضكَ عن كل أحد » .

كانت بين عمارة بن حمزة [1] وبين ابن المقفع مودة ، فأنكر أبو جعفر المنصور على عمارة شيئاً ونقله إلى الكوفة . وكان ابن المقفع إذ ذاك بها ، فكان يأتيه ويزوره ، فبينما هو ذات يوم عنده ورد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة ،

---

(١) يعد عمارة بن حمزة الكاتب ، وهو من ولد أبى لبابة الأنصارى مولى عبد الله بن العباس ، فى بلغاء الناس مع ابن المقفع وعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف ، وكان معدوداً أيضاً فى سراة الناس ، وله تصانيف كثيرة مفقودة .

يعلمه أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع ، وأن ضيعته لا تصلح إن ملكها غيره ، وأن أهلها قد بذلوا له ثلاثين ألف درهم ، وأنه إن لم يبتعها فالوجه أن يبيع ضيعته ، فقرأ عمارة الكتاب وقال : ما أعجب هذا ، وكيلنا يُشير علينا بالابتياع مع الإضاقة والإملاق ، ونحن إلى البيع أحوج . وكتب إلى وكيله ببيع ضيعته والانصراف إليه . وسمع ابن المقفع الكلام ، وانصرف إلى منزله وأخذ سُفْتُجة إلى الوكيل بثلاثين ألف درهم ، وكتب إليه على لسان عمارة إنى قد كنت كتبت إليك ببيع ضيعتى ثم حضر لى مال ، وقد أنفذت إليك سفتجة فابتع الضيعة المجاورة لك ولا تبع ضيعتى ، وأقم مكانك ، وأنفذ الكتاب بالابتياع إلىّ . ووجّه الكتاب إليه مع رسول قاصد . فورد على الوكيل وقد باع الضيعة ، ففسخ البيع وابتاع الضيعة المجاورة ، وكتب إلى عمارة يذكر الأمر ، وأنه قد صارت له ضيعة نفيسة . فلما قرأ عمارة الكتاب أكثر التعجب ، ولم يعرف السبب ، وسأل عمن حضر عند ورود كتاب الوكيل ، فقيل ابن المقفع ، فعلم أنه من فعله ، فلما صار إليه بعد أيام وتحدثا قال عمارة : بعثت بتلك الثلاثين ألف درهم إلى الوكيل وكنا إليها هاهنا أحوج . قال : فإن عندنا فضلا ، وبعث إليه بثلاثين ألفاً أخرى .

وبلغ ابن المقفع مرة أن جاره يبيع داراً له لدين ركبه ، وكان يجاس فى ظلّ داره ، فقال : ما قمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها معدماً ، وبتُّ واجداً . فحمل إليه ثمن الدار وقال : لا تبع . وقال سعيد بن سِلْم : قصدت الكوفة فرأيت ابن المقفع فرحب بى وقال : ما تصنع ههنا ، فقلت : ركبنى دين فأُحوجت إلى الانزعاج ، فقال : هل رأيت أحداً ، فقلت : ابن شُبْرُمَةَ ، وعرفته حالى ، فقال : أنا أكلم الأمين ليضمك إلى أولاده فيكون لك نفع ؛ فقال : أُف

لذلك ! أيجعلك مؤدباً فى آخر عمرك ؟ أين منزلك ؟ فعرفته . فأتانى فى اليوم الثانى وأنا مشغول بقوم يقرأون عَلَىّ ، ومعه منديل فوضعه بين يدى ، فإذا فيه أسورة مكسورة ودراهم متفرقة ، مقدار أربعة آلاف درهم ، وحينئذ زمان المنصور ، وفى الدراهم ضيق ، فأخذت ذلك ورجعت به إلى البصرة واستعنت به .

روى الحكاية الأولى الجهشيارى ، وروى الثانية ابن قُتيبة ، وروى الثالثة الراغب الأصفهانى . أليس لنا أن ندعى بعد ذلك أن ابن المقفع كان يعمل بما يقول ، ويهون عليه أن يبذل لصديقه دمه وماله ، وأنه طبع على مكارم الأخلاق ، يحب الإيثار ويبغض الأثرة ، يفعل الخير ما استطاع ، ويبذل حبّ البذل ، لا عن رغبة ولا عن رهبة ؟

* * *

ولع ابن المقفع بالجمال والطرب ، فكان يغشى معاهد الصفاء ، ويجتمع إلى القينات ، ويطرب فى غير محرَّم ، ويتعاطى قليلا من الشراب من نبيذ العراق الذى أفتى بحله فقهاؤهم . ويقول :

سأشرب ما شربت على طعامى ثلاثاً ثم أتركه صحيحا
فلست بقارف منه أثاما[1] ولست براكب منه قبيحا

فابن المقفع كان إذاً يأخذ من الحياتين بنصيب على نحو ما قال : « لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجده من لذة دنياه ؛ وليس من العقل أن يحرِمه حظه من الدنيا بَصَرُه بزوالها ، وعلى العاقل مالم يكن مغلوباً على نفسه أن لا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع بها حاجته إلى ربه ، وساعة يحاسب فيها

---

(١) الأثام : كسحاب العقوبة ويكسر كالمأثم ، وقرف عليهم بغى وفلاناً عابه أو اتهمه ولعياله كَسَبَ . وخلط وكذب .

نفسه ، وساعـة يفضى فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه ، وينصحونه فى أمره ، وساعة يخلى فيها بين نفسه وبين لذتها مما يَحِلُّ ويَجْمُل ، فإن هذه الساعات عون على الساعات الأخر ، وإن استجمام القلوب وتودعها [١] زيادة قوة لها وفضل بلغة . وعلى العاقل أن لا يكون راغباً إلا فى إحدى ثلاث خصال : تزود لمعاد ، أو مرمة [٢] لمعاش ، أو لذة فى غير محرَّم » .

واتلُ بعد هـذا حكايتين دوَّنهما الأصفهانى فى الأغانى ، تمـان أيضاً عن كرم وإيثار . قال : إن ابن المقفع حضر يوماً مأدبة فيها معن بن زائدة المشهور بكرمه ، وفيها جوارٍ يغنين ، فغنت واحـدة ابن زائدة فأعطاها ألف دينار ، وغنت أخرى ابن المقفع ، فأعطاها مائة ألف درهم ، أى عشرة آلاف دينار ، فقال معن : « لله در الفارسى فقد برّز علينا » . وروى أيضاً أنه اجتمع عند ابن رامين ، معن بن زائدة وروْح بن حاتم وابن المقفع ؛ فلما تغنت الزرقاء وسُعدة بعث معن إليها بِدْرة [٣] فَصُبَّت بين يديها ، وبعث روح فجىء ببدرة فصبها بين يديهـا ، ولم يكن عند ابن المقفع دراهم ، فبعث فجاء بصك ضيعته وقال : هـذه عُهدة ضيعتى خذيها ، فأما الدراهم فمـا عندى منها شىء .

وإذا صحت هاتان القصتان دلتا ، مع ما فيهما من إسراف ومبالغة فى مقدار الجائزتين ، على عظم نفس ابن المقفع ، وطيب عنصره فى المكرمات والمروءات ، فإنه أبى أن يكون دون معن بكرمه ، وحاول أن يُرْبى عليه أن كان له مال . ولمـا دعته الدواعى فى المرة الثانية أن يجارى رفاقه أيضاً ؛ وقد صَفَرت كفه من الدراهم ، كافأ المغنية بقرية له نزل لها عنها ، ولك أن تقول ، إذا صدقنا هذا ، فإن

---

(١) التودع الخفض والدعة (٢) المرمة الاصلاح .
(٣) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم ، أو سبعة آلاف دينار .

ابن المقفع يستفزه الطرب ، حتى ليكاد يخرج عن قانون الحكمة ، وللنفس وثبات ، وللطبع نَزَوات .

كان ابن المقفع ينفر من الحسد نفرته من الحرص فيقول : « الحرص والحسد بكرا الذنوب ، وأصل المهالك ؛ أما الحسد فأهلك إبليس ، وأما الحرص فأخرج آدم من الجنة » . وقال : « لا يطمعن ذو الكبر فى حسن الثناء ، ولا الخَبُّ [1] فى كثرة الصديق ، ولا السيئ الأدب فى الشرف ، ولا الشحيح فى المحمدة ، ولا الحريص فى الإخوان ، ولا الملك المُعْجَب بثبات الملك » . وقال : « أهل العقل والكرم يبتغون إلى كل معروف وُصلة وسبيلا » .

قيل لابن المقفع الصديق أحب إليك أم القريب ؟ قال : القريب أيضاً يجب أن يكون صديقاً . وقيل له بأى شئ يعرف الأخ ؟ قال : أن ترى وجهه منبسطاً ، ولسانه بمودته ناطقاً ، وقلبه ببشره طافحاً ، ولقربه من المجالس محبباً ، وعلى مجاورته فى الدار حريصاً ، وله فيما بين ذلك مكرماً . وقيل له من أدّبك ؟ قال : نفسى ، إذا رأيت شيئاً أذمه من غيرى اجتنبته

وكان يقول أخذت من كل شئ أحسن ما فيه حتى من الخنزير والكلب والهرة ؛ أخذت من الخنزير حرصه على ما يصلحه ، وبكوره فى حوائجه ، ومن الكلب نصحه لأهله ، وحسن محافظته على أوامر صاحبه ؛ ومن الهرة لطف نغمتها ، وحسن مسألتها ، وانتهازها الفرصة فى صيدها .

ورُوى أن عبد الحميد لقى ابن المقفع فقال له : بلغنى عنك شىء أكرهه ؛ فقال : لا أبالى ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأنه إن كان باطلا لم تقبله ، وإن كان حقًّا عفوت عنه .

---

(١) الخب : بفتح الخاء الخداع ويكسر .

وعلى هذا فابن المقفع عملى فى حياته ، وعملياته أكثر جِرماً من نظرياته ، يحاول الاستمتاع بماله فيبذله لمن يحتاج إليه ، ويحرص على الصداقة ، ويتجافى عن الحسد والرياء ، ويتمتع بمباهج الحياة ، ويرسل النفس على فطرتها بين إخوانه . قالوا إن والبَة بن الحُبَاب ، ومطيع بن إياس ، ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالى ، وحفص بن أبى وردة ، وابن المقفع ، ويونس ابن أبى فروة ، وحماد عَجْرَد ، وعلى بن الخليل ، وحماد بن أبى ليلى الراوية ، وابن الزِّبْرقان ، وعُمارة بن حمزة ، ويزيد بن الفيض ، وجميل بن محفوظ ، وبشَّار المرعَّث ، وأبان اللاحقى — كانوا ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ، ولا يكادون يفترقون ، ويهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً ، وكلهم متهم بدينه .

هذه رواية صاحب الأغانى عن الجاحظ فى اتهام أهل ذاك المجمع بدينهم ؛ ولعل ذلك كان من ابن المقفع قبل أن ينتحل الإسلام ، ونحن نشك كثيراً فى روايات صاحب الأغانى ، ذلك لأنه كان مستهتراً[1] ويحب أن يصف بالاستهتار كل عظيم ، ولو كان ممن ثبتت عفته وطهارته .

ولقد قرأنا كلام ابن المقفع وتدبرناه ، فما رأينا له كلمة واحدة تشعر بزندقته ، وكيف تثبت الزندقة إذا لم تقم عليها بينات ظاهرة من أقوال وأفعال ؟ ولو كان فى دينه أدنى عهدة لكان المنصور العباسى قتله على الزندقة جهرة يوم أزمع قتله ، ثم إنهم اتهموا ابن المقفع بأنه عارض القرآن وقالوا إنه تاب وأناب ، وهذه التهمة أيضاً كثيراً ما وجهت إلى بعض العظماء بغية إسقاطهم فى نظر الملوك والسوقة . وتخرص عليه المتخرصون أنه مر ببيت نار المجوس بعد أن أسلم فقال متمثلا :

---

(١) المستهتر بالشىء : بفتح التائين المولع به لا يبالى بما فعل فيه وشتم له ، أو الذى كثرت أباطيله .

يا بيت عاتكة الذى أتعزَّل حذر العدى وبك الفؤاد موكل
إنى لأمنحك الصدود وإننى قسماً إليك مع الصدود لأميل

وقالوا إنه كثيراً ما تمثل بهذين البيتين ، ليخلصوا من ذلك إلى أن إسلامه كان صورياً ، والدلائل كلها مكذبة لأقوالهم ، فإن ابن المقفع لم يخالف الشرع بل خدمه وأحنى عليه . أليس هو القائل : « فأصل الأمر فى الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب ، وتجتنب الكبائر ، وتؤدى الفريضة ، فالزم ذلك لزوم من لا غناء به عنه طرفة عين ، ومن يعلم أنه مَن حُرِمَه هلك ، ثم إن قدرت أن تجاوز ذلك إلى التفقه فى الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل » ، وكيف يتهم بدينه من قال فى حكمه الفاشية بين الناس : « أحق ماصان الرجل أمر دينه — المغبون من طلب الدنيا بعمل الآخرة — المصيبة العظمى الرزية فى الدين — طوبى لمن ترك دنياه لآخرته » .

وإذا جئت تعلل اجتماعه بهؤلاء الأدباء الذين ذكروا ، واتهمهم المتهمون بالإلحاد ، سجلت خطأهم وضعف أحكامهم ، وقد كان على الدهر أعظم سلوى للنفس اجتماع المتماثلين . وليس من المحظور فى قانون الأرض وقانون السماء أن يَسْمَر الناس ويتنادروا ويتمازحوا ، وهذه الطبقة من الرجال كانت من أرق الناس وأفضلهم ؛ ذكر أبو عبد الله المرزبان بإسناد له عن بعض الرواة قال : أدركت طبقة بالكوفة يقال لهم حلية الأرض ونقش الزمان ، وهم حماد عَجْرد ووالبة ابن الحُبَاب ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وشُرَاعة بن الزَّنْدَبُوذ ، ومعظم هؤلاء كانوا عشراء ابن المقفع .

وللصداقة شروط ذكرها ابن المقفع بقوله : « انظر فى حال من تريده لإخائك ، فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيهاً ليس بمراء ولا حريص ، وإن

كان من إخوان الدنيا فليكن حرًّا ليس بجاهل ولا كذّاب ، ولا شرير ولا مشنوع[١] ، فإن الجاهل أهل لأن يُهرب منه أبواه ، والكذاب لا يكون أخاً صادقاً ، لأن الكذب الذى يجرى على لسانه إنما هو من فضل كذب قلبه ، وإنما سمى الصديق من الصدق ، وقد يُتهم صدق القلب ، وإن صدق اللسان ، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان ، وإن الشرير يكْسِبُك العدو ، ولا حاجة لك فى صداقة تجلب العداوة ، وإن المشنوع شانع نفسه . »

وما نظن أن من اتهموا ابن المقفع بدينه ، إلا من الفقهاء المرائين ، الذين اشترط هو أن لا يكون منهم الفقيه الذى يركن إليه المصاحب ، وهذه الطبقة من الفقهاء كانت فى كل عصر علة توقف العقل ، ونشوب فتن سالت فيها الدماء أنهاراً على غابر الأيام ، وقد تعوذ بالله من شرهم علماء الأمة ، وأبانوا مساويهم ومصانعتهم للملوك ، يحملون إليهم من سلعهم ما يروجونه عليهم بكل حيلة ، ولا يرون الخير إلا فيما هم فيه بسبيل ، ينكرون فضل الله على العالمين بتعدد الخصائص والاستعدادات .

ليس ابن المقفع أول من رُمى بالإلحاد ؛ فتاريخ الفكر الإسلامى يذكر أخبار من وقع اتهامهم بهذه التهمة من نوابغ الأمة ، على حين كانوا أعظم أنصار الدين كالجاحظ ، وفى القرون التالية اتهم بهذه التهمة عشرات من كبار العلماء[٢] ، وأن ما كتبوه ليشهد لهم أن أعداءهم ظلموهم فى هذه التهم ، وظهر بعد أن عذبوا فى حياتهم ، أنهم كانوا من المخلصين فى خدمة الدين ، وأن أولئك

---

(١) المشنوع المشهور بالشناعة : وهى القبح الذى يستشنع ، يقال شنعه شنعاً : إذا استقبحه وشتمه . ويقال شنعنا فلان وفضحنا .

(٢) راجع مبحث الاضطهاد فى سبيل الأفكار والمذاهب فى كتاب « الاسلام والحضارة العربية » للمؤلف ج ٢

الثرثارين الذين طوتهم الأرض ولا أثر لهم فى دنيا ولا دين ، كانوا يحسدون أولئك المؤمنين ، فانتقموا لأنفسهم بأن ضربوهم فى أقدس الأشياء عندهم .

صحة الإيمان وحب الإسلام صفتان ماثلتان فى ابن المقفع ، مهما تقوّل عليه المتقولون . وكان إلى هذا رجل نجدة وأنفة وكرم أخلاق ومروءة ووفاء وحسن عشرة . وكان ربَّ جد وعمل ، لا يستند فى أموره على الخيال ؛ وجل اعتماده على عقله وتجاربه وتجارب من سلف من حكماء الأمم . كان محافظاً على شعائره ، لا يحرم على نفسه الطيبات المحللة ؛ فليس فيه جمود الفقهاء ، ولا استهتار الأدباء ، فَهِم من الدين ما فهمه منه كل عاقل .

وكان ابن المقفع من أرباب التفاؤل لا التشاؤم ، لطيف الأخلاط ، وادع النفس ، ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن ، ولا يفتأ يجملها بحسن ظنه ، ويغالط نفسه فى حقيقة السعادة ، فينبعث إلى العمل مَرِحا ؛ يحب من الملوك عدلهم ، وأن يعملوا فى خشية الله وخشية الناس ، ولا يهوّن عليهم صناعتهم ولا يصعبها ، خصوصاً إذا اقترنت بقرناء الخير من الوزراء والعلماء . ومن كلامه : ثلاثة لا يستخف بهم : عامل السلطان ، والعالم ، والصديق ؛ فإن من استخف بعامل السلطان ذهبت دنياه ، ومن استخف بالعالم ذهبت أخراه ، ومن استخف بالصديق ذهبت مروءته . وقال : خدمة السلطان بلا أدب خروج من السلامة إلى العطب ، وقال : جانب المتظلم المسخوط عليه ، والظنين عند السلطان ؛ ولا يجمعنك وإياه مجلس ولا منزل ، ولا تظهرن له عذراً ، ولا تثنين عليه خيراً ، فاذا رأيته قد بلغ من الإعتاب مما سخط عليه فيه ما ترجو بأنه يلين له قلب الملك ، ورأيت أن الملك قد استيقن بمباعدتك إياه وشدتك عليه ، فاعمل إذاً فى رضاه عنه برفق ولين .

وكان يعرف أدب الكبراء لأنه داخلهم ومازجهم ، وكان على حذر منهم لا يغتر بإقبالهم عليه ، وهم فى حاجة إلى علمه وأدبه . استشاره عبد الله بن على فيما كان بينه و بين المنصور ، فأجابه : « لست أقود جيشاً ، ولا أتقلد حرباً ، ولا أشير بسفك دم ، وعثرة الحرب لا تُقال ، وغيرى أولى بالمشورة فى هذا المكان » .

* * *

بقى أن نشرح مصير ابن المقفع ، ونصف ما أدى إلى مقتله : كان مقتله سياسيًا ، وما كان ولله الحمد فى شىء من الغدر ولا الكفر ، وفى السياسة يقتل البرىء البر ، و يثلم الفاضل الحر ؛ ولم يسلم ابن المقفع من ظلم الملوك ، على كثرة احتياطه معهم ، وقتل لما قُدّر له القتل ، على كثرة إحسانه ، فباء قاتله بسبة الدهر ، وكان قتل ابن المقفع أيضاً فخراً له لا عاراً عليه .

لما خالف عبد الله بن علىّ على أبى جعفر المنصور ، وادعى الخلافة لنفسه ، أنفذ أبو جعفر أبا مسلم الخراسانى لقتاله ، فانهزم عبد الله وقصد أخويه سليمان وعيسى فى البصرة ، فدخلها مستتراً ، وكاتب سليمان وعيسى أبا جعفر أن يؤمنه ، وأنفذ سليمان كاتبه عمر بن أبى حليمة فى ذلك ، واستقر له الأمر على إعطائه الأمان ، فأنفذ أبو جعفر سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، وأمره بضغطهم والتضييق عليهم ، حتى يشخصوا بعبد الله بن على إلى حضرته . وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن على ، فأمره عيسى بعمل نسخة الأمان ، فعملها ووكدها ، واحترس من كل تأويل يقع عليه فيها .

وترددت بين أبى جعفر و بينهم فى النسخة كتبٌ ، إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط ، ولم يتيسر لأبى جعفر إيقاع حيلة فيها ، لفرط احتياط

ابن المقفع ؛ وكان الذى شق على أبى جعفر أن قال فى النسخة : يوقع بخطه فى أسفل الأمان « و إن أنا نلت من عبد الله بن على أو أحد ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً له ، سرًّا أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية ، أو بحيلة من الحيل ، فأنا نَفْىٌ من محمد بن على بن عبد الله ومولود لغير رشدة[1] . وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ، ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى ، و إعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى و بين أحد من المسلمين ، وهو متبرئ من الحول والقوة ، ومدع إن كان أنه كافر بجميع الأديان ، ولقى ربه على غير دين ولا شريعة ، محرم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرِق والمِلك والملبس على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطى ولا نية لى سواه ، ولا يقبل الله منى إلا إياه والوفاء به » .

فأنكر أبو جعفر هذه الصيغة الشديدة فى الأمان ، وقال : من يكتب له هذا ؟ فقيل ابن المقفع كاتب عيسى بن على . فقال أبو جعفر : فما أحد يكفينيه ؛ وكان سفيان بن معاوية يضطغن على ابن المقفع أشياء ، منها : أنه كان يعبث به فيما قيل ، فتولى قتله . وقيل إن سفيان لما أمر بقتله قال له : والله إنك لتقتلنى ، فتقتل بقتلى ألف نفس ، ولو قتل مائة مثلك ما وفوا بواحد ، ثم قال :

إذا ما مات مثلى مات شخص يموت بموته خلق كثير

وأنت تموت وحدك ليس يدرى بموتك لا الصغير ولا الكبير

هذه رواية الجهشيارى فى الأسباب التى دعت المنصور إلى قتل ابن المقفع

---

(١) ولد لرشدة (بفتح الراء وبكسر) ضد لزَنية .

وفى كتاب المقالات[1] للنوبختى أن المنصور كتب لعبد الله بن على عمّه ، فيما رُوى ، سبعين أماناً كلها يردها عبد الله بن المقفّع ، ويقول له : هذا ينتقض عليك ، ويبطل من مكان كذا وكذا . فلما ضجر المنصور ، وطال عليه أمره ، كتب إلى يزيد بن معاوية المهلّبى ، وهو عامله على البصرة ، بعد ما وقف على أمر ابن المقفع وأنه صاحبه ، وكان متوارياً مخافة المنصور ، وما بلغه عنه : يقسم بالله وبالأيمان المغلظة لئن لم يطلب عبد الله بن المقفع ولم يقتله ليقتلنّه ومن بقى من أهل بيته من آل المهلب ، فطلبه يزيد بن معاوية فظفر به ، وأراد حمله إلى المنصور فقتل نفسه . قال بعضهم : إنه شرب سمًّا وقال بعضهم : إنه خنق نفسه . فلما قتل ابن المقفّع قَبِل عبد الله بن علىّ أوّل أمان ورد عليه ، وظهر فحمل إلى المنصور فحبسه فى بيت ثمّ هدمه عليه فقتله ، وقال بعضهم : بل بعث إليه وهو نائم ثم وضع على وجهه شيئاً فأَخَذَ بنفسه حتى مات . وقال بعضهم : إنه سمّه فى طعامه فقتله اه .

جوّز المنصور قتل برىء ، كَتَب ما كَتَب حرصاً على مصلحة من يكتب له ، والله يقول « ولا يضارَّ كاتب ولا شهيد » وما عدم الساسة حجة يتوكأون عليها ، أو تأويلاً يأتيهم به المنافقون لقتل من استهدفوا لغضبهم ، والمنصور على ما فيه من عقل ودهاء ، عجز عن إقناع أهله بأن يكتبوا إلا ما أرادوا فى أمان أحدهم ، فانتقم من رجل لا قوة له غير قلمه ، ومن رجل شريف ما تجوز فى

---

(١) تفضل صديقى الأستاذ أبو عبد الله الزنجانى من علماء إيران فنقل لى هذه الجملة من كتاب المقالات للنوبختى ، وهى غير مذكورة فى كتاب المقالات والفرق المطبوع . وقد رجح الأستاذ أن الكتاب تأليف سعد بن عبد الله بن أبى خلف النميرى الأشعرى القُمّى المتوفى سنة ٢٩٩ أو ٣٠١ وهو من رؤساء الإمامية . والنسخة محفوظة فى خزانة الأستاذ سلطانى البهبهانى من نبلاء طهران وأدبائها .

خيانة من يتولى الكتابة عنه ، وأبت ذمته أن يكتب لهم عهد أمان ضعيف القيود ، يدخل المنصور متى أراد من أحد شقوقه ، فينقضه و يهلك من يحاول إهلاكه .

والمنصور يعرف مكانة ابن المقفع من العلم ، يعرفه مما ترجمه له من كتب الحكماء ، و يعرف شهرته المستفيضة فى أرجاء مملكته الواسعة ؛ وليس عبد الله بالرجل الذى يجهل موقعه ، والمنصور يعرف أن ابن المقفع ، والدولة فى شبابها ، زينة مملكته ، وما كان يحسنه من فنون الحكمة والأدب لا يحسنه سواه ، ولكن هو الاستبداد يعمى البصر ، وحظوظ النفس تعمى البصيرة ، والمستبد أبداً محتقب أوزاراً ، قد تعود عليه بأقبح سمعة وشنعة ؛ ومن أجل هذا تحامى كثير من العقلاء التقرب من الملوك المستبدين ، لأنهم إذا قالوا فعلوا .

شعبة من كلامه :

يحار من يحاول الاختيار من هذا القليل الذى عفت عنه القرون من كلام ابن المقفع . و بحسبنا أن نقتبس شيئاً من حكمه فى الأدب الصغير واليتيمة ، ثم نتبعه بجمل نختارها من كليلة ودمنة ، ثم بطائفة من رسائله يجدر بطالب البلاغة أن يتر واها و يتدبرها ، وكان الأجدى أن لا نتكلف الاختيار من كلام كله در مختار .

(١) من ذلك قوله فى معنى الانتفاع بالكلام النافع : « ومن أخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به فى موضعه على وجهه ، فلا يَرَيَنَّ عليه فى ذلك ضُؤلة[1] ، فإن من أعين على حفظ قول المصيبين ، وهُدى للاقتداء بالصالحين ،

(١) الضؤلة : الضعف .

ووفّق للأخذ عن الحكماء ، فلا عليه ألا يزداد ، فقد بلغ الغاية ، وليس بناقصه فى رأيه ، ولا بغائضه من حقه أن لا يكونَ هو استحدث ذلك وسبق إليه ، وإنما حياة العقل الذى يتم به و يستحكم ، خصال ست : الإيثار بالمحبة ، والمبالغة فى الطلب ، والتثبت فى الاختيار ، والاعتقاد للخير ، وحسن الوعى ، والتعهد لما اختير واعتقد ، ووضع ذلك موضعه قولاً وعملاً . »

(٢) ومنها فى شدة الحاجة إلى التأدب كشدة حاجة الجسم إلى التغذية : « ولسنا إلى ما يُمسك بأرماقنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى مايثبت عقولنا من الأدب الذى به تَفَاوُت العقول . وليس غذاء الطعام بأسرع فى نبات الجسد من غذاء الأدب فى نبات العقل ، ولسنا بالكد فى طلب المتاع الذى يُلتمس به دفع الضُّر والعَيْلة[1] ، بأحَقَّ منا بالكد فى طلب العلم الذى يُلتمس به صلاح الدين والدنيا . »

(٣) ومن ذلك حاجة المعلم إلى تعليم نفسه أولاً « من نصب نفسه للناس إماماً فى الدين ، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها فى السيرة والطِّعمة والرأى واللفظ والأخدان . فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه ، فإنه كما أن كلام الحكمة يؤنّق[2] الأسماع ، فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم » .

(٤) ومن ذلك ذكر الواجب على من يتقرب من الملوك العادلين وحاجة المجتمع إلى الالتفاف عليهم : « إن للسلطان المقسط حقًّا لا يصلح لخاصة ولا عامة أمر إلا بإرادته ، فذواللب حقيق أن يُخلص لهم النصيحة و يبذل لهم الطاعة ،

---

(١) العيلة بفتح العين الفقر .

(٢) الأنق : محركة الفرح والسرور ، وأنق كفرح والشىء أحبه وبه أعجب .

ويكتُم سرهم ويزين سيرتهم ، ويَذُبّ بلسانه ويده عنهم ، ويتوخى مرضاتهم ، ويكون من أمره المواتاة لهم ، والإيثار لأهوائهم ورأيهم على هواه ، ويقدر الأمور على موافقتهم ، وإن كان ذلك له مخالفاً ، وأن يكون منه الجد فى المخالفة لمن جانبهم وجهل حقهم ، ولا يواصل من الناس إلا من لا تُباعد مواصلته إياه منهم ، ولا تحمله عداوة أحد له ، ولا إضرار به على الاضطغان[1] عليهم ، ولا مواتاة أحد على الاستخفاف بشيء من أُمورهم ، والانتقاص لشيء من حقهم ، ولا يكتمهم شيئاً من نصيحتهم ، ولا يتثاقل عن شيء من طاعتهم ، ولا يَبْطَر إذا أكرموه ، ولا يجترئ عليهم إذا قرّبوه ، ولا يَطْغى إذا سلطوه ، ولا يُلحف إذا سألهم ، ولا يُدخل عليهم المؤونة ، ولا يستثقل ما حَمّلوه ، ولا يغتر بهم إذا رضوا عنه ، ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه ، وأن يَحمدهم على ما أصاب من خير منهم أو من غيرهم ، فإنه لا يقدر أحد على أن يصيبه بخير إلا بدفاع الله عنه بهم » .

أخذ هذا المعنى من سيرة الفرس فى تقديس ملوكهم وفيه منزع سياسى لطيف ، والعرب لا تعرف مثله ، العرب يَجْبهون ملوكهم ، ويضربون بعيوبهم وجوههم . ومما روى له فى هذا المعنى : « لا تكن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك ، وكن حافظاً إذا ولاّك ، أميناً إذا ائتمنك ، راضياً إذا أسخطك ، ومع هذا فالحذر من صحبته كل الحذر » وقال : « لا تغرنك سعة تكون فيها ، فإن أعظم الناس خطراً من يدير ما فى يده ، والملوك إلى حسن التدبير أحوج من السوقة ، فان السُّوقة قد تعيش بغير مال ، والملوك لابدَّ لهم من المال ولا قوام لهم إلا به » وقال : « ينبغى للملك أن لا يغضب لأن القدرة من وراء حاجته ، ولا أن يكذب لأنّه لا يقدر أحد على استكراهه على مالا يريد ، ولا أن يبخل لأن البخل مذموم . ولا أن يكون حقوداً لأن خطره يجلُّ عن المجازاة . »

---

(١) ضغن : كفرح ، وتضاغنوا واضطغنوا انطووا على الأحقاد .

(٥) ومنها فى صورة العالم الحقيقى وما يجب عليه وينبغى له : « مما يدلُّ على علم العالم معرفته بما يدرك من الأمور ، وإمساكه عما لا يُدرك ، وتزيينه نفسه بالمكارم ، وظهور علمه للناس من غير أن يظهر منه فخر ولا عُجْب ، ومعرفته بزمانه الذى هو فيه ، وبصره بالناس ، وأخذه بالقسط ، وإرشاده المسترشد ، وحسن مخالفته خلطاءه ، وتسويته بين قلبه ولسانه ، وتحرّيه العدل فى كل أمر ، ورحب ذرعه فيما نابه ، واحتجاجه بالحجج فيما عمل ، وحسن تبصره . من أراد أن يبصر شيئاً من علم الآخرة فبالعلم الذى به يعرف ذلك ، ومن أراد أن يبصر شيئاً من علم الدنيا فبالأشياء التى هى تدل عليه » .

(٦) وفى تأصل الكذب فى الإنسان قال : « رأس الذنوب الكذب هو يؤسسها وهو يتفقدها ويثبتها ، ويتلون ثلاثة ألوان : بالأمنية والجحود والجدل ، يبدأ صاحبه بالأمنية الكاذبة فيما يزين له من السوآت فيشجعه عليها بأن ذلك سيخفى ، فإذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة ؛ فإن أعياه ذلك ختم بالجدل فخاصم عن الباطل ، ووضع له الحجج والتمس به التثبت ، وكابر الحق حتى يكون مسارعاً للضلالة ، ومكابراً بالفواحش » .

(٧) ومن محكم تصريحاته قوله : « لا يثبت دين المرء على حالة واحدة أبداً ، ولكنه لا يزال إما زائدا وإما ناقصاً . السعيد يرغبه الله فى الآخرة ، حتى يقول لا شىء غيرها ، فإذا هضم دنياه وزهد فيها لآخرته ، لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا ، ولم ينقصه من سروره فيها ، والشقى يرغبه الشيطان فى الدنيا ، حتى يقول لا شىء غيرها ، فيعجل الله له التنغيص فى الدنيا التى آثر مع الخزيِ الذى يلقى بعدها » .

(٨) وفى معرفة صلحاء الوقت والحث على الاستشارة قوله : « إعرف

أهل الدين والمروءة فى كل كُورَة وقرية وقبيلة ، فيكونوا هم إخوانك وأعوانك وبطانتك وثقاتك ، ولا يُقْذَفنَّ فى رُوعك أنك إذا استشرت الرجال ظهرت للناس منك الحاجة إلى رأى غيرك ، فإنك لست تريد الرأى للذكر والسمعة ولكنما تريده للانتفاع به ، ولو أنك مع ذلك أردت السمعة والذكر لكان أحسن الذكرين وأفضلهما عند أهل العقل أن يقال لا يتفرد برأيه دون استشارة أهل الرأى » وقال : « إعلم أن المستشار ليس يكفيك ، وأن الرأى ليس بمضمون ، فإن أشار عليك صاحبك برأى لم تجد عاقبته كما تأمل فلا تجعلن ذلك ذنباً ، ولا تلزم المشير لوماً ، فإنه عليه الاجتهاد فيما يشير به ويراه ، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك فأصاب ، فلا تمنن به ولا تكثر ذكره ، وإن لم يعمل به فأخطأ ، فلا تلمه على تركه » .

(٩) وفى التوقيت لكل شىء ووضع كل شىء موضعه قوله : « إعلم أن رأيك لا يتسع لكل شىء ، ففرغه للمهم ، وأن مالك لا يغنى الناس كلهم ، فاختص به ذوى الحقوق ، وأن كرامتك لا تطيق العامة فتوخَّ بها أهل الفضائل ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك ، وإن دأبت فيهما ، وأنه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدَّعَة ، فأحسن قسمتها بين دعتك وعملك .

واعلم أنك ما شَغَلت من رأيك بغير المهم أزرى بالمهم ، وما صرفت من مالك بالباطل فَقَدته حين تريده للحق ، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضرَّ بكَ فى العجز عن أهل الفضل ، وما شغلت من ليلك ونهارك فى غير الحاجة أزرى بكَ فى الحاجة » .

(١٠) ومنها فى طبقات الملك : « إعلم أن المُلكَ ثلاثة : مُلك دين ، وملك

حزم ، وملك هوى ، أما ملك الدين فانه إذا أُقيم لأهله دينهم ، وكان دينهم هو الذى يُعطيهم مالهم ، و يُلحق بهم الذى عليهم أرضاهم ، ونزل الساخط منهم منزلة الراضى فى الاقرار والتسليم ؛ وأما ملك الحزم ، فإنه يقوم به الأمر ، ولا يسلم من الطعن والتسخط ، ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوى ؛ وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر » .

(١١) وفى المبالغة بالحرص على الإخوان قوله : « إعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا : زينة فى الرخاء ، وعُدة فى الشدة ، ومعونة فى المعاش والمعاد ، فلا تُفَرِّطَنَّ فى اكتسابهم وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم » . وقال له رجل : « أنا بالصديق آنس منى بالأخ » ، فقال : « صدقت ، الصديق نسيب الروح ، والأخ نسيب الجسم » وقال : « من سوء المجالسة أن الرجل تثقل عليه النعمة يراها بصاحبه ، فيكون ممن يتشفى به منه تصغير أمره وتكدير النعمة عنده ، بذكر الزوال والانتقال كأنه واعظ أو قاصّ ، ولا يخفى ذلك على من يُعنى به ، ولا ينزله منزلة الوعظ والإبلاغ ، بل الحسد والاسترواح إلى غير راحته ، وقال : « لا تلتمس غَلَبة صاحبك والظفر به عند كل كلمة ، ولا تستطيلن عليه بظهور حجتك ، فان قوماً قد يحملهم حب الغلبة أن يتعقبوا الكلمة بعد ما تنسى ، يلتمسون بذلك الغلبة والاستطالة على الأصحاب ، وذلك فى العقل ضعف ، وفى الأخلاق لؤم » .

(١٢) ومما قال فى اجتناب حديث تتبرم به النفوس : « إعلم أنه تكاد تكون لكل رجل غالبة حديث ، إما عن بلد من البلدان ، أو ضرب من ضروب العلم ، أو صنف من صنوف الناس ، أو وجه من وجوه الرأى ، وعند ما يُخْرَم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف ، و يعرف منه الهوى ، فاجتنب ذلك فى كل موطن ، ثم عند أولى الأمر خاصة » .

(١٣) وقال فى الابتعاد عن انتحال أقوال الأصدقاء : « إن سمعت من صاحبك كلاماً أو رأياً يعجبك ، فلا تنتحله تَزَيُّناً به عند الناس ، واكتف من التزين بأن تجتنى الصواب إذا سمعته وتنسبه إلى صاحبه ، واعلم أن انتحالك ذاك سَخطة لصاحبك ، وأن فيه مع ذلك عاراً ، فإن بلغ ذلك بك أن تشير برأى الرجل ، وتتكلم بكلامه وهو يسمع ، جمعت مع الظلم قلة الحياء ، وهذا من سوء الأدب الفاشى فى الناس . ومن تمام حسن الخلق والأدب أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك ، وتَنْسُب إليه رأْيه وكلامه ، وتزينه مع ذلك ما استطعت » . وقال : « إياك أن تبتدئ حديثاً ثم تقطعه كأنك رَوَّيت فيه ، ولكن اجعل ترويتك فيه قبل ابتدائه والتفوّه به ، فإن احتجان الحديث بعد افتتاحه سخف وغم » .

(١٤) ومما قال : « لتعرف العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول . إن آثرت أن تفاخر أحداً ممن تستأنس إليه فى لهو الحديث فاجعل غاية ذلك الجد ، ولا تَعْدُوَنَّ أن تتكلم فيه بما كان هزلاً ، فإذا بلغ الجدَّ أو قارب فدعه ، ولا تخلطن بالجد هزلاً وبالهزل جدًّا ، فإنك إن خلطت بالجد هزلاً هَجَّنْتَه ، وإن خلطت بالهزل جدًّا كدَّرته ، غير أنى علمت موطناً واحداً إن قدرت أن تَسْتَقبل به الجدَّ بالهزل أصبت الرأى ، وظهرت على الأقران ، وذلك أن يتوردكَ [1] متورد بالسفه والغضب ، فتجيبه إجابة الهازل برُحب من الذّرع ، وطلاقة من الوجه ، وثبات من المنطق » .

(١٥) وقال وهو مما يجب على كل عاقل أن يجعله نُصب عينه ، ويتأدب بأدبه . « تحرّز من سكر السلطة ، وسكر العلم ، وسكر المنزلة ، وسكر الشباب ،

---

(١) تورد طلب الورد .

فإنه ليس من هذا شيء إلا وهو ريح جِنَّة [١] تسلب العقل ، وتُذهب الوقار ، وتصرف القلب والسمع والبصر واللسان عن المنافع » .

(١٦) وقال فيما ينبغى أن يكون عليه المرء من الأخلاق : « ذلل نفسك بالصبر على جار السوء ، وعشير السوء ، وجليس السوء ، فإن ذلك ما لا يكاد يخطئك ، فإن الصبر صبران ، صبر الرجل على ما يكره ، وصبره عما يحب ، فالصبر على المكروه أكثرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطرًّا ، وأعلم أن اللئام أصبر أجساداً ، والكرام أصبر نفوساً ، وليس الصبر الممدوح بأن يكون جلد الرجل وَقَاحا [٢] ، أو رجله قوية على المشى ، أو يده قوية على العمل ، فإنما هذا من صفات الحمير ، ولكن أن يكون للنفس غلوباً ، وللأمور محتملاً ، وفى الضرّ متجملاً ، ولنفسه عند الرأى والحفاظ مرتبطاً ، وللحزم مؤثراً ، وللهوى تاركاً ، وللمشقة التى يرجو عاقبتها مستخفًّا ، وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظباً ، ولبصره بعزمه منفذاً » .

ومما قال : « لا تعتذرن إلا إلى من يحب أن يجد لكَ عذراً ، ولا تستعينن إلا بمن يحب أن يظفرك بحاجتك ، ولا تحدثن إلا من يرى حديثك مغنماً ما لم يغلبك الاضطرار » وقال : « إن كنت لا بد أن تكافئ بالعداوة ، فإياك أن تكافئ عداوة السر بعداوة العلانية ، وعداوة الخاصة بعداوة العامة » وقال : « لا تعجل بالثواب ولا بالعقاب ، فان ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجى » وقال : « إعلم أن من الناس ناساً يبلغ بهم الغضب إذا غضبوا أن يقطب أحدهم فى غير وجه من أغضبه ، و يسىء اللفظ والعقوبة لمن لا ذنب له ، و يبلغ منه الرضى إذا رضى أن يتبرع بالأمر ذى الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، و يعطى من

(١) الجنة الجنون .
(٢) صلباً .

لم يستحق العطاء ، ويكرم من لا يستوجب الكرامة ، فاحذر هذا الباب فانه غير لائق بذوى الألباب » .

(١٧) وقال فى النساء وفى رغبات الرجال الذواقين : « إعلم أن من أوقع الأمور فى الدين ، وأنهكها للجسد ، وأتلفها للمال ، وأضرّها بالعقل ، وأسرعها فى ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء . ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأجِم[1] ما عنده ، وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن ؛ وإنما النساء أشباه ، وما يُرى فى العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخُدعة ، بل ما يرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه ، وإنما المترغّب عما فى رحله منهن إلى ما فى رحال الناس ، كالمترغب عن طعام بيته إلى ما فى بيوت الناس ، بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام ، وما فى رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما فى رحالهم من النساء .

ومن العجب أن الرجل الذى لا بأس فى لُبّه ، يرى المرأة من بعيد متلففة فى ثيابها ، فيصور لها فى قلبه الحسن والجمال ، حتى تعلق بها نفسه ، من غير رؤية ولا خبر مخبر ، ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدمّ الدمامة ، فلا يعظه ذلك عن أمثالها ، ولا يزال مشغوفاً بما لم يذق ، حتى لو لم يبق فى الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأناً غير شأن ما ذاق ، وهذا هو الحمق والشقاء . ومن لم يجم نفسه ويَظْلِفْها[2] ويَحْلأْها[3] عن الطعام والشراب والنساء فى بعض ساعات شهوته وقدرته ، كان أيسر ما يصيبه من وبال أمره انقطاعُ تلك اللذات عنه ، بخمود نار شهوته ، وضعف عوامل جسده ؛ وقلّ من تجد إلا مخادعاً

(١) أجم الطعام وغيره يأجمه كرهه وملّه .
(٢) ظلف نفسه عنه : منعها من أن تفعله أو تأتيه أو كفها عنه . وأجم نفسه : أراحها .
(٣) يطردها ويمنعها .

لنفسه فى أمر جسده عند الطعام والشراب والحِمْية والدواء ، وفى أمر مروءته عند الأهواء والشهوات ، وفى أمر دينه عند الريبة والشبهة والطمع . » والحكمة الأخيرة من أَجَلّ ما يُتعلم ويتفهم .

(١٨) وقال فيما يجب أن تعامل به المرأة فى المجتمع : « إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أَفْن [١] ، وعزمهن إلى وَهْن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن ، فإن شدة الحجاب خير لك من الارتياب ، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن ، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل ، ولا تُمَلِّكَنَّ امرأة من الأمر ما جاوز نفسها ، فإن ذلك أنعم لحالها ، وأرخى لبالها ، وأدوم لجمالها ؛ وإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة [٢] ، فلا تعدُ بكرامتها نفسها ، ولا تُعطها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الخلوة مع النساء فيَمْلَلْنَك وتَمَلَّهن ، واستبق من نفسك بقية ، فإن إمساكك عنهن وهن يُردنك باقتدار ، خير من أن يهجمن عليك على انكسار . وإياك والتغاير فى غير موضع غيرة ، فإن ذلك يدعو الصحيحة منهن إلى السقم . » وقوله وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة من أجمل الحكم والكلام المحقق .

(١٩) وقال فى العالم والمتعلم : « لا يعجبنك العالم ما لم يكن عالماً بمواضع ما يعلم » . وقال : « حبب إلى نفسك العلم حتى تألفه وتلزمه ، ويكونَ هو لهوَك ولذتك وسلوتك وبُلْغتك ، واعلم أن العلم علمان ، علم للمنافع وعلم لتزكية العقل ، وأفشى العلمين وأجداهما أن يَنْشَط له صاحبه من غير أن يُحرَّض عليه علم المنافع ، وللعلم الذى هو ذكاء العقول وصقالها وجلاؤها ، فضيلة منزلة عند أهل الفضل فى الألباب » .

---

(١) الأفن : ضعف الرأى والعقل .

(٢) القهرمان بفتح القاف : الوكيل ، فارسية معربة .

(٢٠) وقال فى نظام العمل : «إذا تراكمت الأعمال عليك فلا تلتمس الرَّوح[١] فى مدافعتها بالرَّوغان منها ، فإنه لا راحة لك إلا فى إصدارها ، وإن الصبر عليها هو يخففها ، وإن الضجر منها هو يراكمها عليك ، فتعهد من ذلك فى نفسك خَصلة قد رأيتها تعترى بعض أصحاب الأعمال ، إن الرجل يكون فى أمر من أمره فيرِدُ عليه شغل آخر ، ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره ، فيكدر ذلك بنفسه تكديراً يفسد ما كان فيه وما ورد عليه ، حتى لا يحكم واحداً منهما ، فإن ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك الذى تختار به الأمور ، ثم اختر أَوْلى الأمرين بشغلك فاشتغل به حتى تَفْرُغ منه ، ولا يَعْظُمن عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر ، إذا أعملتَ الرأى مَعْمَله ، وجعلت شغلك فى حقه » .

(٢١) وقال فى معنى التوقى من أكاذيب الناس ونقلها : « إياك والأخبار الرائعةَ وتحفّظ منها ، فإن الإنسان من شأنِه الحرص على الإخبار لا سيما ما راع منها ، فأكثر الناس من يحدث بما سمع ولا يبالى ممن سمع ، وذلك مفسدة للصدق ومَرْزِئة[٢] بالرأى ، فإن استطعت ألا تُخبر بشىء إلا وأنت به مصدق ، وألا يكون تصديقُك إلا ببرهان فافعل . ولا تقل كما يقول السفهاء أُخبر بما سمعت ، فإن الكذب أكثر ما أنت سامع ، وإن السفهاء أكثر من هو قائل ، وإنك إن صِرْتَ للأحاديث واعياً وحاملاً ، كان ما تَعى وتحمل عن العامة أكثر مما يخترع المخترع بأضعاف » .

(٢٢) وقال فيما يتأدب به السلطان : « إنك إن تلتمس رضا جميع الناس تلتمس ما لا يدرك ، وكيف يتفق لك رضا المتخالفين ، أم ما حاجتك إلى رضا

---

(١) الروح : الراحة . الروغان : الميل والحيد عن الشىء .

(٢) المرزئة كالرزء والرزيئة : المصيبة .

من رضاه الجور ، و إلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة ، فعليك بالتماس رضا الأخيار وذوى العقول ، فإنك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه » .

(٢٣) « إحرص أن تكون خبيراً بأمور عمالك ، فإن المسئ يَفْرَق من خبرتكَ قبل أن تصيبه عقوبتك ، و إن المحسن يستبشر بعلمكَ فيه ، قبل أن يأتيه معروفك . ليعرف الناس من أخلاقك أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب ، فان ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجى » .

(٢٤) وقال من نصائحه للملوك : « رأس الحزم للملك معرفته بأصحابه ، و إنزالهم منازلهم ، واتهام بعضهم على بعض ، فإنه إن وجد بعضهم إلى إهلاك بعض سبيلا ، أو إلى تهجين بلاء المبلين ، و إحسان المحسنين ، والتغطية على إساءة المسيئين ، سارعوا إلى ذلك ، واستحالوا محاسن أمور الملك ، وهجنوا مخارج رأيه ، ولم يبرح منهم حاسد قد أفسد ناصحاً ، وكاذب قد اتهم أميناً ، ومحتال قد أعطب بريئاً ، وليس ينبغى للملك أن يفسد أهل الثقة بغير أمر يعرفه ، بل ينبغى فى فضل حلمه ، و بسطة علمه ، الحيطة على رأيه فيهم ، والمحاماة على حرمتهم وذمامهم ، وألا يسرع إلى إفسادهم ، ولا يغتفر مع ذلك فى زلة إن زلها أحد منهم ؛ ولم يزل جهال الناس يحسدون علماءهم ، وجبناؤهم شجعانهم ، ولئامهم كرماءهم ، وفجارهم أبرارهم ، وشرارهم خيارهم » .

(٢٥) وقال : « السلطان لا يقرب الرجال على قرب آبائهم ، ولا يباعدهم لبعدهم ، ولكنه ينزلهم على قدر ما عند كل امرئ منهم فيما يُنتفع به ، وقد يكون الجُرْذُ فى البيت جاراً مجاوراً ، فيُنفى إذا كان ضاراً مؤذياً ، ولما كانت فى البازى منفعة وهو وحش ، اقتُنى واتخذ » .

وقال أيضاً فيما يتأدب به السلطان : « عوّد نفسك الصبر على ما خالفك من

رأى ذوى النصيحة ، والتجرع لمرارة قولهم وعذلهم ، ولا تسهان سبيل ذلك إلا لأهل الفضل والمروءة والعقل فى ستر ، لئلا ينتشر من ذلك مايجترئ به سفيه ، أو يستخف به شانئ » .

(٢٦) « إن كان سلطانك عند جِدَّة دولة فرأيت أمراً استقام بغير رأى ، أو أعواناً أجزوا بغير نَيْل ، وعملاً أنجح بغير حزم ، فلا يغرنك ذلك ، ولا تستنيمن إليه ، فإن الأمر الجديد مما يكون له مهابة فى أنفس العوام ، وحلاوة فى قلوب قوم آخرين ، فيعين قوم على أنفسهم ، ويعين قوم بما قبلهم ، ويستتب ذلك الأمر غير طويل ، ثم تصير الشؤون إلى حقائقها وأصولها ، فما كان شئ من الأمر على غير أركان وثيقة ، ولا دعائم محكمة ، أوشك أن يتداعى ويتصدع » .

(٢٧) وقال : « إذا حاججت فلا تغضب ، فإن الغضب يدفع عنك الحجة ، ويظهر عليك الخصم ، ومن ذلك تعلموا ثلاث خصال من خمس : التربية من الكراكى ، والبخل وادخار القوت من الفأر والنمل ، والبكور من الغراب والديك » ومن كلامه : « ثلاثة إن أقدموا على ثلاث من غير ثلاث ، فرأوا ما كرهوا ، فلا يلومُنَّ إلا أنفسهم : من خاصم من غير حجة فخصم [١] ، أو صارع من غير قوة فصرع ، أو حارب بغير عُدة فهزم .

(٢٨) وقال : « أربعة ، المال إليهم أحب من أنفسهم : راكب البحر للتجارة ، والمحارب بالأُجرة ، والناقب فى خزانة الملك للسرقة ، والحواء يستزيد الحية طمعاً فى الهدية » وعنه أيضاً : « أربعة ضائعة : سراج فى الشمس ، ومطر فى سبخة [٢] ، وحسناء عند عِنّين ، وطعام عند سكران » وعنه أيضاً : « أربعة يعرفون فى أربع أحوال : الشجاع فى الحرب ، والفرس فى الميدان ، والحراث فى الحراثة ، والصديق

(١) خصمه غلبه . (٢) السبخة محركة ومسكنة : أرض ذات نز وملح .

عند الحاجة إليه » وعنه أيضاً : « العداوة الطبيعية أربع : عداوة الذئب للغنم ، والبازى للقَبَج[1] ، والهر للفأر ، والغراب للبوم » .

(٢٩) ومما نقل من كلمه وجمله : إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، وآنق للمسمع ، وأوسع لشعوب الحديث . لا تَعرضَنَّ عقلك على الناس ، فإذا اضطرك أمر فكن كصاحب الشطرنج يبنى أمره على القائمة ، فان وجد ضربة غريبة انتهزها ، و إياك أن تبتدئ فى مجلس لم تسبر عقول أصحابه ، فبين العقول بون بعيد . الإفراط فى التواضع يوجب المذلة ، والإفراط فى المؤانسة يوجب المهانة . كثرة المُنَى تُخْلق العقل وتطرد القناعة وتفسد الحس . خمس نفر المال أحب إليهم من أنفسهم : المقاتل بالأجرة ، وراكب البحر للتجارة ، وحافر البئر والأسراب ، والمدل بالسباحة ، والمخاطر على السم . وقال : لينفق ذو المال ماله فى ثلاثة مواضع : فى الصدقة إن أراد الآخرة ، وفى مصانعة السلطان إن أراد الذكر ، وفى النساء إن أراد العيش . وقال : إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة ولا يدركها إلا بأربعة ، فأما الثلاثة التى يطلب ، فالسعة فى المعيشة ، والمنزلة فى الناس ، والزاد إلى الآخرة ؛ وأما الأربعة التى تدرك بها هذه الثلاثة ، فاكتساب المال من أحسن وجوهه ، وحسن القيام عليه ، ثم التثمير له ، ثم إنفاقهُ فيما يصلح المعيشة و يرضى الأهل والإخوان ، و يعود فى الآخرة نفعه ، فإن أضاع شيئاً من هذه الأربعة لم يدرك شيئاً من هذه الثلاثة : إن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به ، و إن كان ذا مال واكتساب ولم يحسن القيام عليه ، يوشك أن يفنى و يبقى بلا مال ، و إن هو وضعه ولم يثمره لم يمنعه قلة الإنفاق من سرعة النفاد ، كالكحل الذى إنما يؤخذ منه على الميل مثل الغبار ، ثم هو مع ذلك سريع فناؤه ، و إن اكتسب وأصلح وثَمَّر ،

---

(١) القبج : الحجل .

ولم ينفق الأموال فى أبوابها ، كان بمنزلة الفقير الذى لا مال له ، ثم لا يمنع ذلك ماله من أن يفارقه ، ويذهب حيث لا منفعة فيه ، كحابس الماء فى الموضع الذى تنضب فيه المياه ، إن لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه تمصل[1] وسال من نواحيه فيذهب المال ضياعا .

هذه بعض حكم ابن المقفع لقطناها ، وكلامه ليس مما يلتقط منه ويطرح منه ، بل كله سلسلة واحدة ونمط واحد ، وقد ختم كتابه اليتيمة بهذه الجملة المعجبة والوصف الغريب ، قال ، وهى آية الإبداع :

(٣٠) « إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس فى عينى ، وكان رأس ما أعظمه عندى صِغَر الدنيا فى عينه ؛ كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهى ما لا يجد ، ولا يُكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا تدعوه إليه مؤونة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يُقدم إلا على ثقة أو منفعة ، وكان أكثَر دهره صامتاً ، فإذا قال بذَّ القائلين ، وكان يُرى مُتَضَعَّفاً[2] مستضعفاً ، فإذا جَدَّ الجِدُّ فهو الليث عادياً ؛ وكان لا يدخل فى دعوى ، ولا يَشْرك فى مراء ، ولا يدلى بحجة ، حتى يجد قاضياً فَهِماً وشهوداً عدولا ، وكان لا يلوم أحداً على ماقد يكون العذر فى مثله ، حتى يعلم ما اعتذاره ؛ وكان لا يشكو وجَعَا إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ، ولا يتشهى ولا يتشكى ، ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولى ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته ، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت ، ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع ، وبالله التوفيق »

---

(١) مصل قطر

(٢) ضعفه تضعيفاً : عده ضعيفا كاستضعفه وتضعفه ، وفى الحديث كل ضعيف متضعف

(٣١) من كليلة ودمنة : قال بيدبا إنى وجدت الأمور التى اختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة أشياء ، وهى جماع ما فى العالم ، وهى الحكمة والعفة والعقل والعدل ، والعلم والأدب والروية داخلة فى باب الحكمة ، والحلم والصبر والوقار داخلة فى باب العقل ، والحياء والكرم والصيانة والأنفة داخلة فى باب العفة ، والصدق والإحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة فى باب العدل ؛ وهذه هى المحاسن ، وأضدادها هى المساوئ ، فمتى كملت هذه فى واحد لم يخرجه النقص فى نعمته إلى سوء الحظ من دنياه ، ولا إلى نقص فى عقباه ، ولم يتأسف على ما لم يعن التوفيق ببقائه ، ولم يحزنه ما تجرى به المقادير فى ملكه ، ولم يدهش عند مكروه ، فالحكمة كنز لا يفنى على الإنفاق ، وذخيرة لا يضرب لها بالإملاق [١] ، وحلة لا تخلق جدتها ، ولذة لا تصرم مدتها .

(٣٢) « واعلم أيها الملك أنه من لم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه مما ينصحون له لم يحمد رأيه ، كالمريض الذى يدع ما يبعث له الطبيب ، ويعمد إلى ما يشتهيه ، وحق على مؤازر السلطان أن يبالغ فى التحضيض له على ما يزيد سلطانه قوة ويزينه ، والكف عما يضيره ويشينه ، وخير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة فى النصيحة ، وخير الأعمال أحمدها عاقبة ، وخير النساء الموافقة لبعلها ، وخير الثناء ما كان على لسان الأخيار ، وخير السلطان ما لم يخالطه بطر ، وخير الأخلاق أعونها على الورع ، وقد قيل لو أن امرأ توسد النار ، وافترش الحيات كان أحق ألا يهنئه النوم ، والرجل إذا أحس من صاحبه بعداوة يريده بها لا يطمئن إليه ، وأعجز الملوك آخذهم بالهوينى ، وأقلهم نظراً فى مستقبل الأمور وأشبههم بالفيل الهائج المغتلم [٢] الذى لا يلتفت إلى شىء ، فان

(١) الاملاق الفقر ، وضرب له بحث عنه تقول ضربت له الأرض كلها فلم أجده .

(٢) المغتلم الذى غلبته الشهوة

حزبه[١] أمر تهاون به ، وإن أضاع الأمور حمل ذلك على قرنائه . وقال : « إن كان للملوك فضل فى مملكتها ، فان للحكماء فضلا فى حكمتها أعظم ، لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم ، وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال » .

(٣٣) وقال : « ومن ذا الذى غالب القدر ، ومن ذا الذى بلغ من الدنيا جسيماً من الأمور فلم يبطر ، ومن ذا الذى طلب من اللئام فلم يحرم ، ومن ذا الذى خالط الأشرار فسلم ، ومن ذا الذى صحب السلطان فدام له منه الأمن والإحسان ، ولقد صدق الذى قال : مثل السلاطين فى قلة وفائهم لمن صحبهم ، وسخاء أنفسهم بمن فقدوا من قرنائهم كمثل البَغِىّ كلما فقدت واحداً جاء آخر » .

(٣٤) وقال : « فقد علمتم نتيجة رأيى وصحة فكرى ، وإنى لم آته جهلاً به ، لأنى كنت أسمع من الحكماء قبلى تقول إن الملوك لها سكرة كسكرة الشراب ، فالملوك لا تفيق من السكرة إلا بمواعظ العلماء وآداب الحكماء . والواجب على الملوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء ، والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها ، وتأديبها بحكمتها ، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم ، ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج ، والخروج عن العدل ؛ فوجدت ما قالت العلماء فرضاً واجباً على الحكماء لملوكهم ، ليوقظوهم من سِنة سكرتهم ، كالطبيب الذى يجب عليه فى صناعته حفظ الأجساد على صحتها ، أو ردّها إلى الصحة ، فكرهت أن يموت أو أن أموت ، وما يبقى على الأرض إلا من يقول : إنه كان بيدبا الفيلسوف فى زمان دَبْشَليمَ الطاغى فلم يرده عما كان عليه . فإن قال قائل إنه لم يمكنه كلامه خوفاً على نفسه ، قالوا : كان الهرب منه ومن جواره أولى به ، والانزعاج عن الوطن شديد ، فرأيت أن أجود بحياتى فأكون قد أتيت فيما بينى و بين

(١) حزبه الأمر نابه واشتد عليه

الحكماء بعدى عُذراً ، فحملتها على التغرير أو الظفر بما أريده ؛ وكان من ذلك ما أنتم معاينوه ؛ فإنه يقال فى بعض الأمثال إنه لم يبلغ أحد مرتبةً إلا بإحدى ثلاث : إما بمشقة تناله فى نفسه ، وإما بوضيعة فى ماله ، أو وَكْس[1] فى دينه ؛ ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائبَ .

(٣٥) وقد يقال إلزم ذا العقل وذا الكرم ، واسترسل إليهما ، وإياك مفارقتهما ، واصحب الصاحب إذا كان عاقلا كريماً ، أو عاقلا غير كريم ، أو كريماً غير عاقل ، فالعاقل الكريم كامل ، والعاقل غير الكريم اصحبه ، وإن كان غير محمود الخليقة ؛ واحذر من سوء أخلاقه ، وانتفع بعقله ، والكريم غير العاقل الزمه ولا تدع مواصلته ، وإن كنت لا تحمد عقله ، وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك ، والفرارَ كل الفرار من اللئيم الأحمق .

(٣٦) فقلت فى نفسى : ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال ، ووجدت من لا مال له إذا أراد أمراً قعد به العُدْم[2] عما يريده ، كالماء الذى يبقى فى الأودية من مطر الشتاء ، لا يمر إلى نهر ، ولا يجرى إلى مكان ، فتشرب به أرضه ؛ ووجدت من لا إخوان له لا أهل له ، ومن لا ولد له لا ذكر له ، ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة ، لأن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه ؛ فإن الشجرة النابتة فى السِّباخ ، للمأكولة من كل جانب ، كحال الفقير المحتاج إلى مافى أيدى الناس ؛ ووجدت الفقر رأس كل بلاء ، وجالباً إلى صاحبه كل مقت ، ومعدن النميمة ؛ ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمناً ، وأساء به الظن من كان يظن به حسناً ، فإن أذنب غيره كان هو

---

(١) الوضيعة : الخسارة ، والوكس : النقصان .

(٢) العدم : الفقر

للتهمة موضعاً ، وليس من خَلة[١] هى للغنى مدح إلا وهى للفقير ذم ، فإن كان شجاعاً قيل أهوج ، وإن كان جواداً سُمى مبذراً ، وإن كان حليماً سمى ضعيفاً ، وإن كان وقوراً سمى بليداً ؛ فالموت أهون من الحاجة التى تحوج صاحبها إلى المسألة ، ولا سيما مسألة الأشحاء واللئام ، فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده فى فم الأفعى فيخرجَ منه سماً فيبتلعه ، كان ذلك أهون عليه وأحب إليه من مسألة البخيل اللئيم .

(٣٧) ثم تذكرت فوجدت البلاء فى الدنيا إنما يسوقه الحرص والشَرَه ، ولا يزال صاحب الدنيا فى بلية وتعب ونصب ، ووجدت تجشم الأسفار البعيدة فى طلب الدنيا أهونَ علىَّ من بسط اليد إلى السخى بالمال ، ولم أر كالرضى شيئاً ، ووجدت العلماء قد قالوا : لا عقل كالتدبير ، ولا ورَع ككف الأذى ، ولا حسب كحسن الخلق ، ولا غنى كالرضى ، وأحق ما صبّر الإنسان على الشىء نفسه ، وأفضل البر الرحمة ، ورأس المودة الاسترسال[٢] ، ورأس العقل معرفة ما يكون مما لا يكون . وقالوا : الخرَس خير من اللسان الكذوب ، والضر والفقر خير من النعمة والسعة من أموال الناس .

(٣٨) واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل ، وأن المريض الذى قد علم دواء مرضه إن لم يتداوَ به لم يُغن علمه به شيئاً ، ولم يجد لدائه راحة ولا خفة ؛ فاستعمل رأيك ، ولا تحزن لقلة المال ، فإن الرجل ذا المروءة ، قد يكرم على غير مال ، كالأسد الذى يُهاب وإن كان رابضاً ، والغنى الذى لامروءة له يهان وإن كان كثير المال ، كالكلب لا يُحفل به وإن طُوِّق وخُلخل[٣]

---

(١) الخلة بفتح الخاء : الخصلة وجمعها خلال .

(٢) استرسل إليه : انبسط واستأنس .

(٣) جعل له طوق وخلخال .

بالذهب ؛ فلا تَـكْبُرَنّ عليك غربتك ، فإن العاقل لا غربة له ، كالأسد الذى لا ينقلب إلا معه قوته ؛ فلتحسن تعهدك لنفسـك ، فإنك إذا فعلت ذلك جاء الخير يطلبك ، كما يطلب المـاء انحداره . و إنما جعل الفضل للحازم البصير ، وأما الـكسلان المتردد فإن الفضل لا يصحبه ، كما أن المرأة الشابة لا تطيب لها صحبة الشيخ الهرم ؛ وقد قيل فى أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء : ظل الغمامة فى الصيف ، وخِلّة الأشرار ، والبناء على غير أساس ، والنبأ الـكاذب ، والمـال الـكثير ؛ فالعاقل لا يحزن لقلته ، ولـكن ماله وعقله وما قدم من صالح عمله ، فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل ، ولا يؤاخذ بشىء لم يعمله ؛ وهو خليق أن لا يغفل عن أمر آخرته ، فإن الموت لا يأتى إلا بغتة ليس له وقت معين .

(٣٩) قلما ظفر أحد بغنىً ولم يطغَ ، وقلما حرص الرجل على النساء ولم يفتضح ، وقلّ من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع فى المهالك .

(٤٠) ومنه : وقد قيل إن خصالاً ثلاثاً لن يستطيعها أحد إلا بمعونة من علو همة وعظيم خَطر ، منها صحبة السلطان ، وتجارة البحر ، ومناجزة العدو ؛ وقد قالت العلماء فى الرجل الفاضل الرشيد : إنه لا ينبغى أن يُرى إلا فى مكانين ، ولا يليق به غيرهما : إما مع الملوك مكرّماً أو مع النساك متعبداً ، كالفيل إنما جماله و بهاؤه فى مكانين : إما أن تراه وحشياً أو مركباً للملوك .

(٤١) ووجدت صرعة اللين والرفق أسرع وأشـد استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة ، فإن النار لا تزيد بحدتها وحرّها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق ما فوق الأرض منها ، والمـاء بليّنه و برده يستأصل ما تحت الأرض منها ؛ ويقال أربعة أشياء لا يستقل قليلها : النار والمرض والعدو والدَّيْن . قال الغراب : وكلُّ ذلك كان من رأى الملك وأدبه وسعادة جَدّه ؛ وأنه كان يقال : إذا طاب

اثنان أمراً ظفر به منهما أفضلهما مروءة ، فإن اعتدلا فى المروءة فأشدهما عزماً ، فإن استويا فى العزم فأسعدهما جَدًّا ؛ وكان يقال : من حارب الملك الحازم الأريب المتضرع[1] الذى لا تبطره السراء ولا تدهشه الضراء ، كان هو داعىَ الحتف إلى نفسه ، ولا سيما إذا كان ذلك أيها الملك العالم بفروض الأعمال ، ومواضع الشدة واللين ، والغضب والرضى ، والمعاجلة والأناة ، الناظر فى أمر يومه وغده وعواقب أعماله . قال الملك للغراب : بل برأيك وعقلك ونصيحتك ويُمن طالعك كان ذلك ، فإن رأْى الرجل الواحد العاقل الحازم أبلغ فى هلاك العدو من الجنود الكثيرة من ذوى البأس والنجدة والعدد والعُدة .

(٤٢) ينبغى للعاقل أن لا يغفل عن التماس ما فى نفس أهله وولده وإخوانه وصديقه ، عند كل أمر وفى كل لحظة وكلمة ، وعند القيام والقعود وعلى كل حال ، فإن ذلك كله يشهد على ما فى القلوب . وقد قالت العلماء : إذا دخل قلبَ الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم فى التحفظ منه ، وليتفقد ذلك فى لحظاته وحالاته ، فإن كان ما يظن حقاً ظفر بالسلامة ، وإن كان باطلاً ظفر بالحزم ولم يضرّه ذلك .

(٤٣) ومنه : وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك إذا غدرت بصاحبك فأنت لا شك بمن سواه أغدر ، وأنه إذا صاحب أحد صاحباً وغدر بمن سواه ، فقد علم صاحبُه أنه ليس عنده للمودة موضع ، فلا شىء أضيَعُ من مودة تُمنَح من لا وفاء له ، وحِباءٍ يُصطنع عند من لا شكر له ، وأدب يُحمل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه ، وسرّ يُستودع عند من لا يحفظه ، فإن صحبة الأخيار تورث الخير ، وصحبة الأشرار تورث الشر ، كالريح إذا مرت بالطّيِّب حملت طيباً ، وإذا مرت بالنتن حملت نَتناً .

---

(١) التضريع : التقرب فى روغان كالتضرع .

(٤٤) قال الملك : لا خير فى من لا يستطيع الإعراض عما فى نفسه حتى ينساه ويهمله ، فلا يذكرَ منه شيئاً ، ولا يكونَ له فى نفسه موقع ؛ قال فَنْزَةُ : إن الرجل الذى فى باطن قدمه قَرحة إن هو حرص على المشى ، فلا بد أن تُنْكأَ قرحته ، والرجل الأرمدَ العين إذا استقبل بها الريح تعرّض لأن تزداد رَمَداً ، وكذلك الواتر إذا دنا من الموتور[1] فقد عرض نفسه للهلاك . ولا ينبغى لصاحب الدنيا إلا توقى المهالك والمتالف ، وتقدير الأمور وقلة الاتكال على الحَوْل والقوة ، وقلة الاغترار بمن لا يؤمن ، فإنه من اتكل على قوته فحمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف فقد سعى فى حَتْف نفسه ، ومن لا يُقَدّر لطاقته طعامَه وشرابَه ، وحَمّل نفسه ما لا تطيق ولا تحمل فقد قتل نفسه ، ومن لم يُقَدّر لقمته وعَظّمها فوق ما يسع فُوه فربما غصّ بها فمات . ومن اغتر بكلام عدوه وانخدع له وضيع الحزم فهو أعدى لنفسه من عدوه . وليس لأحد النظر فى القدر الذى لا يدرى ما يأتيه منه ولا ما يُصرف عنه ، ولكن عليه العملُ بالحزم والأخذُ بالقوة ، ومحاسبة نفسه فى ذلك ، والعاقل لا يثق بأحد ما استطاع ، ولا يُقيم على خوف وهو يجد عنه مَذْهباً ؛ وأنا كثير المذاهب ، وأرجو أن لا أذهب وجهاً إلا أصبتُ فيه ما يُغنينى ، فإن خِلالاً خمساً من تزودهن كفَيْنَه فى كل وجه ، وآنسنه فى كل غربة ، وقرّبن له البعيد ، وأكسبنه المعاش والإخوان : أولاهن كف الأذى ، والثانية حسن الأدب ، والثالثة مجانبة الرِّيَب ، والرابعة كرم الخُلق ، والخامسة النُّبل فى العمل . وإذا خاف الإنسان على نفسه شيئاً طابت نفسه عن المال والأهل والولد والوطن ، فإنه يرجو الخلَف من ذلك كله ، ولا يرجو عن النفس خَلفاً . وشرُّ المال مالا إنفاق منه ، وشرّ

(١) الموتور من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه .

الأزواج التى لا تُؤَاتى بعلها ، وشر الولد العاصى العاقُّ والديه ، وشر الإخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد ، وشر الملوك الذى يخافه البرىء ولا يواظب على حفظ أهل مملكته ، وشر البلاد بلادٌ لا خِصبَ فيها ولا أمن .

(٤٥) قال الفيلسوف : أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة ، وليس مما خلقه الله فى الدنيا مما يمشى على أربع أو على رجلين أو يطيرُ بجناحين شىء هو أفضل من الإنسان . ولكن من الناس البَرُّ والفاجر ، وقد يكون فى بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة ، وأشد محاماة على حَرَمه ، وأشكر للمعروف وأقوم به ، وحينئذ يجب على ذوى العقول من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه ، ولا يضيّعوه عند من لا يحتمله ولا يقوم بشكره ، ولا يصطنعون أحداً إلا بعد الخبرة بطرائقه ، والمعرفة بوفائه ومودته وشكره ، ولا ينبغى أن يختصوا بذلك قريباً لقرابته ، إذا كان غير محتمل للصنيعة ، ولا أن يمنعوا معروفهم ورِفدهم للبعيد ، إذا كان يقيهم بنفسه وما يقدر عليه ، لأنه يكون حينئذ عارفاً بحق ما اصطُنع إليه ، مؤدياً لشكر ما أنعم عليه ، محموداً بالنصح ، معروفاً بالخير ، صدوقاً عارفاً ، مؤثراً لحميد الفعال والقول ، وكذلك كل من عرف بالخصال المحمودة ، ووثق منه بها كان للمعروف موضعاً ، ولتقريبه واصطناعه أهلا ، فإن الطبيب الرفيق العاقل لا يقدر على مداواة المريض إلا بعد النظر إليه ، والجَسِّ لعروقه ، ومعرفة طبيعته ، وسبب علته ، فإذا عرف ذلك كله حق معرفته أقدم على مداواته ، فكذلك العاقل لا ينبغى له أن يصطفى أحداً ولا يستخلصه إلا بعد الخبرة ، فإن من أقدم على مشهور العدالة من غير اختبار ، كان مخاطراً فى ذلك ومشرفاً منه على هلاك وفساد . ومع ذلك ربما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف الذى لم يجرب شكره ، ولم يعرف حاله فى طبائعه ، فيقوم بشكر ذلك ويكافئ عليه

أحسن المكافأة . وربما تحذر العاقل من الناس ولم يأمن على نفسه أحداً منهم . وقد يأخذ ابن عرس فيدخله فى كمه ، ويخرجه من الآخر ، كالذى يحمل الطائر على يده ، فإذا صاد شيئاً انتفع به وأطعمه منه . وقد قيل لا ينبغى لذى العقل أن يحتقر صغيراً ولا كبيراً من الناس ، ولا من البهائم ، ولكنه جدير بأن يبلوهم ويكونَ ما يصنع إليهم على قدر ما يرى منهم .

(٤٦) لا يخفى فضل ذى العلم وإن أخفاه ، كالمسك يخبى ويستر ، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح . الرجل ذو المروءة يكرم على غير مال كالأسد يهاب وإن كان رابضاً ، والرجل الذى لا مروءة له يهان وإن كان غنياً ، كالكلب يهون على الناس وإن عسّ[1] وطوّف . المودة بين الصالحين سريع اتصالها بطىء انقطاعها ، كآنية الذهب التى هى بطيئة الانكسار ، هينة الإعادة ، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطىء اتصالها ، كآنية الفخار يكسرها أدنى شىء ولا وصل لها . لا يرد بأس العدو القوى بمثل التذلل له ، كما أن العشب إنما يسلم من الريح العاصف بلينه لها وانثنائه معها . لا يجب للمذنب أن يفحص عن أمره لقبح ما ينكشف عنه كالشىء المنتن كلما أثير ازداد نتناً . من صنع معروفاً لعاجل الجزاء فهو كملقى الحب للطير لا لينفعها بل ليصيدها به . المال إذا كان له مدد يجتمع منه ولم يصرف فى الحقوق أسرع إليه الهلاك من كل وجه ، كالماء إذا اجتمع فى موضع ولم يكن له طريق إلى النفوذ تفجر من جوانبه فضاع . الأدب يُذهب عن العاقل السكر ، ويزيد الأحمق سكراً ، كالنهار يزيد البصير بصراً ، ويزيد الخفاش سوء بصر . الدنيا كدودة القز لا تزداد بالإبريسم على نفسها لفاً ، إلا ازدادت من الخروج بعداً . إذا عثر الكريم لم ينتعش إلا بكريم ، كالفيل إذا توحّل لم يقلعه إلا

(١) عس : طاف بالليل .

الفيلة . يبقى الصالح من الرجال صالحاً حتى يصاحب فاسداً ، فإذا صاحبه فسد ، مثل مياه الأنهار تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر ، فإذا خالطته ملحت .

* * *

قصدنا بالتوسع فى النقل من حكم ابن المقفع لتكون من المستفيد على طرف الثمام[1] ، ويعاور تلاوتها كلما اتسع له وقته ، ويتدبر ما فيها من المعانى والأفكار ، ليتخذ منها عوناً على تفهم الحياة والمجتمع ، ويجعل هذا الكلام المنظم درساً يمعن فى تبحره وتدبره ، كما قال هو فى غرض كتابه كليلة ودمنة : « وينبغى لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التى وضعت له ، وإلى أى غاية جرى مؤلفه فيه عند ما نسبه إلى البهائم ، وأضافه إلى غير مُفْصِح ، وغير ذلك من الأوضاع التى جعلها أمثالاً ، فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدرِ ما أريد بتلك المعانى ، ولا أىَّ ثمرة يُجتنى منها ، ولا أى نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب » .

قصدنا أن يجعل طالب البلاغة من كلام ابن المقفع مثالا صالحاً يحتذيه فى الإفصاح عن ذات نفسه ، وأن يتدبره كيف ينتقى ألفاظه ليصوغ بها تراكيبه ويأتى بهذه المعانى وهى وإن لم تكن جديدة بما فيها فجديدة بوضعها وصنعها .

بقى علينا أن نختار قطعاً قليلة من رسائله مطولاتها ومختصراتها ، ومن المطولات نأخذ من رسالته فى الصحابة ، صحابة الخليفة وأقرانه ؛ ومن المختصرات نقتبس رسائل مفردة .

فمما قال فى الأولى فى إصلاح جند الدولة وهو أول ما يسترعى نظر صاحبها : « فمن الامور التى يذكر بها أمير المؤمنين ، أمتع الله به أمر هذا الجند ، من أهل خراسان ، فإنهم جند لم يدرك مثلهم فى الإسلام ، وفيهم مَنَعة بها يتم فضلهم

(١) الثمام : نبت ، ويقال لما لا يعسر تناوله على طرف الثمام لأنه لا يطول .

إن شاء الله . أما هم فأهل بصر بالطاعة ، وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس وفروج ، وكف عن الفساد ، وذل للولاة ، فهذه حال لا نعلمها توجد عند أحد غيرهم . وأما ما يحتاجون فيه إلى المنعة من ذلك تقويم أيديهم ورأيهم وكلامهم ، فان فى ذلك اليوم اختلاطاً من رأس مفرط غال ، وتابع متحير شاك ، ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة فى الرأى والقول والسيرة ، فهو كراكب الأسد الذى يوجل من رآه ، والراكب أشد وجلا . فلو أن أمير المؤمنين كتب لهم أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شىء يجب أن يقول فيه ، ويكفوا عنه ، بالغاً فى الحجة ، قاصراً عن الغلو ، يحفظه رؤساؤهم ، حتى يقودَ به دهماءهم ، ويتعهد به منهم من لا يؤبه له من عُرْض الناس ، لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحاً ، وعلى من سواهم حجة ، وعند الله عذراً » .

يريد أن يضع الخليفة لجيش خراسان قانوناً يعمل به قواده وجنده ، حتى لا تكون الأمور فيه فوضى ، ويربى تربية عسكرية يكون معها صاحب الأمر على ثقة من بلائه كل حين . ومما قال بعد ذلك : « ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج ، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة » .

وهذا رأى ابن المقفع فى هذه الرسالة أيضاً فى فوضى الأحكام . قال : « ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحى اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التى قد بلغ اختلافها أمراً عظيماً فى الدماء والفروج والأموال ، فيستحل الدم والفرج بالحيرة ، وهما يحرمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف فى جوف الكوفة ، فيستحلُّ فى ناحية منها ما يحرم فى ناحية أخرى ، غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين فى دمائهم وحرمهم ، يقضى به قضاة جائز أمرهم وحكمهم ، مع أنه ليس مما ينظر فى ذلك

من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لجَّ بهم العجب بما فى أيديهم ، والاستخفاف ممن سواهم ، فأقحمهم ذلك فى الأمور التى يَشْنَع بها من سمعها من ذوى الألباب . أما من يدعى لزوم السنة منهم ، فيجعل ما ليس له سنةٌ سنةً ، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة ، على الأمر الذى يزعم أنه سنة . وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هُرِيق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده ، وإذا قيل له أى دم سفك على هذه السنة التى تزعمون قالوا : فَعَل ذلك عبد الملك بن مروان ، أو أمير من بعض أولئك الأمراء ؛ وأما من يأخذ بالرأى فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول فى الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولاً لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه ، وهو مقر أنه رأْى منه لا يحتج بكتاب ولا سنة . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه فى كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر أمير المؤمنين فى ذلك وأمضى فى كل قضية رأيه الذى يلهمه الله ويَعْزُم له عليه ، وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتاباً جامعاً ، لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً ؛ ورجونا أن يكون اجتماع السير قربة لإجماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمام آخر ، آخر الدهر إن شاء الله » .

والرسالة كلها على هذا النحو لم يترك فيها ابن المقفع معنى يستفيد منه الخليفة فى سلطانه إلا وأشار إليه فيه إشارة كافية شافية ، ومن هذا الكتاب استبان أن ابن المقفع كما يحسن الاختصار أبداً ، يخرج منه إذا كان فى خروجه منه فائدة ، وأى فائدة أعظم من وضعه دستوراً تسير عليه مملكة آل العباس .

* * *

ومن رسائله المختصرة إلى صديق ولدت له جارية :

بارك الله لكم فى الابنة المستفادة ، وجعلها لكم زينا ، وأجرى لكم بها خيراً فلا تكرهها فإنهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات ، ومنهن الباقيات الصالحات ، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرَّحت أهلها بعد مساءتهم .

وله تعزية عن ولد :

أعظم الله على المصيبة أجرك ، وأحسن على جليل الرزء ثوابك ، وعجل لك الخلف فيه ، وذخر لك الثواب عليه .

وله تعزية عن ابنة :

جدد الله لك من هِبته ما يكون خلفاً لك بما رزئته ، وعوضاً من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليه أضعاف ما رزأك به منها ، فما أقل كثير الدنيا فى قليل الآخرة ، مع فناء هذه ودوام تلك .

وله تعزية عن ابنة :

لا ينقص الله عددك ، ولا ينزع عنك نعمته التى ألبسك ، وأحسن العوض لك ، وجعل الخلف لك خيراً مما رزأك ، وما أعطاك خيراً مما قبض منك .

وله :

أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه ، واستوجب بذلك الشكر عليهم ، فلنفسه عَمِلَ لا لهم ، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده ، أو لعقبه من بعده . وكتبت إليك ولحالنا التى نحن بها فيما نذكرك حاجة أول ما فيها معروف تستوجب به الشكر علينا ، وتدخر به الأيادى قِبَلنا .

وله فى السلامة :

أما بعد فإن مما نمق الله به مناقبك الكريمة المحمودة ، الغانية عن القول والوصف ، أنك مُوضع المؤنات عن إخوانك ، حَمَّال عنهم أثقال الأمور ، مما وضعت عنه المؤنة ارتفاعك عن الأمور التى يطأطأ إليها الكلام على ألسنة الناس إذ أباحوه و بهرجوه ، وضيعوا القول ونسوا القصد فيه ، وأخذوا به فى كل فن وأصفوا بصفوته غير أهلها فيما لا ينبغى لهم من التشبيه والتوقير والتفضيل . كان من خبرى بعدك أنى قدمت بلد كذا فتهيأ لى بعض ما شخصت له ، والمحمود على ذلك الله عز وجل ، وأنا على أن يأتينى خبرك محتاج ؛ فأما جملة خبرى فى فراقك ، فقلبى مكة كل ما سواك حرام فيها .

وله جواب فى السلامة :

أما بعد فقد أتانى كتاب الأمير رجعة كتابى إليك ، فكان فيه تصديق الظن ، وتثبيت الرأى ، ودرك البغية ، والله محمود . فأمتع الله بالأمير وأمتعه بصالح ما آتاه ، وزاده من الخيرات مستعمراً له فيه ، مستعملاً بطاعته التى بها يفوز الفائزون ، والذى رزق الله من الأمير فهو عندى عظيم نفيس ، وكل الذى قِبَلى عن مكافأته فمقصر ، إلا أنه ليس فى النية تقصير ، ولا بلوغ لشىء من الأمور إلا بتوفيق الله عز وجل ومعونته والسلام .

وله فى السلامة :

أما بعد فقد أتانى كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح من قِبَلك ، وفى الذى ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة ، نحمد عليها وليها المنعم المفضل المحمود ، ونسأله أن يلهمنا و إياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها . وسألت أن أكتب إليك بخبرنا ، ونحن من عافيته وكفايته ودفاعه على

حال لو أطنبت فى ذكرها ، لم يكن فى ذلك إحصاء للنعمة ، ولا اعتراف لما بكنه الحق ، فنرغب إلى الذى تزداد نعمه علينا فى كل يوم وليلة تظاهراً ألا يجعل شكرنا منقوصاً ولا مدخولا ، وأن يرزقنا من كل نعمة كفاءها[1] من المعرفة بفضله فيها والعمل فى أداء حقها ، إنه ولى قدير .

وله فى التعزية :

أما بعد فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله ، هو يدبرهما و يقضى منهما مايشاء ، لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه ، فإن الله خلق الخلق بقدرته ، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة ، لئلا يطمع أحد من خلقه فى خُلد الدنيا ، ووقّت لكل شىء ميقاتَ أجل ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت ، لا يرجو أن يخلصه من ذلك أحد ، نسأل الله خير المنقلب . و بلغنى وفاة فلان فكانت وفاته من المصائب العظام التى يُحتسب ثوابها من ربنا الذى إليه منقلبنا ومعادنا ، وعليه ثوابنا . فعليك بتقوى الله والصبر ، وحسن الظن بالله ، فإنه جعل لأهل الصبر صلواتٍ منه ورحمة ، وجعلهم من المهتدين .

وكتب :

أما بعد أصلحنا الله و إياك صلاحاً دائماً يجمع لنا ولك به الفضيلة فى العاجلة ، والكرامة فى الآجلة ، فإنى لا أعرف أمراً أعظم عند أهل منفعة من أمر ترك ذكره لفضله ، ولا أعلم أمراً أحق بأن يستغنى أهله بفضله عندهم عن ذكره فيما بينهم من أمر أرسخ الله بيننا و بينك أسبابه ، وثبت حقوقه ، وعظم حرمته ، فأبقى الله لنا ولك ما أحرزه بيننا و بينك فى الدنيا حتى نكون إخواناً فى الآخرة حين تصير الخلة عداوة بين أهلها إلا صلة المتقين .

---

(١) جزاءها .

سهل بن هارون

منبته ونسبه :

ولد سهل بن هارون[1] فى مدينة مَيْسان بين واسط والبصرة ، وفى رواية فى دَسْتُميسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، فى أواخر النصف الأول من القرن الثانى تقديراً ، ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هارون بن راهبون (راهيون) وكنيته أبو عمرو ، فارسى الجنس ، أهوازى أو خوزى المولد ، عراقى المنشأ ، تحوّل إلى البصرة فى سن لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم فى الدولة الإسلامية ، « وقبة الإسلام وخزانة العرب » ، حوت من حصائل[2] العلم الإنسانى أصوله وفروعه ، ومن القائمين على تنميته مصاقعه وفحوله ، فغذى روحه بلبان مجالسها ومجامعها ، واستنار عقله بما اقتبسه من نور معارفها ، فتخرج بعلمائها ، وكانوا طبقة عالية فى كل مطلب من مطالب الآداب .

وكانت البصرة بل المملكة الإسلامية أخذت فى تلك الحقبة ، تمازج فيها مدنية العرب بمدنية الفرس والروم والهند ، وبدأت المذاهب الفلسفية

---

(١) لم يترجم القفطى لسهل بن هارون فى أخبار الحكماء ، ولا ابن خلكان فى وفيات الأعيان ، ولا البيهقى فى حكماء الاسلام ، ولا السمعانى فى الأنساب ، ولا الأنبارى فى طبقات الأدباء ، ولا الخطيب فى تاريخ بغداد ؛ وترجم له تراجم موجزة كل من ياقوت فى معجم الأدباء ، والصفدى فى الوافى بالوفيات ، والصلاح الكتبى فى فوات الوفيات وفى عيون التواريخ ، وابن نباتة فى شرح رسالة ابن زيدون ، وابن بدرون فى شرح قصيدة ابن عبدون ، والثعالبى فى المضاف والمنسوب . وترجم له كرامر من علماء المشرقيات فى معلمة الاسلام ؛ واقتصر على ما قاله المترجمون فيه ، وفاته أنه كان من رجال الرشيد وقال إنه لم يجتمع بالجاحظ .

(٢) التحصيل : تمييز ما يحصل . والاسم الحصيلة .

تتسرب إلى المجتمع الإسلامى ، وعلماء الأمة يتعاورهم الجزر والمد على شاطئ بحر الحكمة القديمة ، شأن مدينة البصرة مع خليجها ، يَمُدُّ ماؤها و يَجْزِر على الدوام ، وما زالوا هـذا حالهم يغوصون فى بحار الأفكار ، حتى أخرجت عقولهم دررا غريبة ، كما يخرج بحرهم الجواهر واللآلى الثمينة ؛ وكانت النفوس حريصة على الدين الذى دُوّن وحُرر ، راغبة كل الرغبة فى الأخذ مما لا عهد لها به من علوم الأمم السالفة ؛ وفى هـذه البيئة انبعث عقل سهل بن هارون لأول أمره ، فى أرض صالحة لإنماء العقل و إطلاقه من قيوده . ولم يُعرف إذا كان رحل إلى الروم وفارس والشام ومصر ، والغالب أنه لم تتعد تنقلاته مدناً عربية أربعاً وهى : مدينة الرّقة قصبة ديار مضر ، والرُّصَافة رصافة هشام فى أوائل تخوم الشام ، واكتفى بالبصرة و بغداد ، وكانت بغداد أجمل مدن الأرض فى ذاك العصر ، وفيها كل شىء جـديد ، سواء أكان ذلك فى خططها ومرافقها ، أو فى عقول أهلها ونبوغ علمائها ، يُحمل إليها من الآفاق بدائع ما صنع البشر ونَتَجت عقولهم ، والدول سوق يحمل إليها ما يروج فيها .

لا نعلم على التحقيق منشأ والد سهل ، ولا مظهره ومذهبه ، ولا أصـل أمه وتربيتها ، ولا معلميه فى بلده ، ولا أساتيذه فى البصرة ، ولا أترابه ولِداته فى صباه ، ولا غير ذلك من العوامل التى لها الشأن الأكبر فى تربية الملكات ، وتلقين الأخلاق والعادات . يُنشّأ عليها الفتى فتطبع حياته بطابع خاص ، تتعذر فى عقود العمر الآخرة إحالتها واستحالتها ؛ ومن المعقول أن يكون قانون الوراثة أورثه جراثيم دم الفرس وحكمتها ، ونظامها وأدبها ، وضم إليها الثقافة العربية ، فجاءت منازعه خليطاً نافعاً ، ومداركه متينة رصينة .

أضف إلى هذا أن مملكة بنى العباس كانت سيدة الممالك ، على ما كانت

البصرة سيدة البلاد ، وربما كان العصر الذى نشأ فيه سهل بن هارون أجمل عصور التاريخ ، والملك موحَّد من المغرب فى شمالى إفريقية إلى حدود الشرق ، وليس فى الأرض حكومة إسلامية غير الأندلس بيد بنى مروان : لا غوائل ولا فتن فى الداخل والخارج ، يشتمل الناس على السلامة ، ويغتبطون بما أُوتوا فى سلطان بنى هاشم ، وكلما نجم ناجم من العلويين أو غيرهم كانت جيوش العباسيين تقضى عليه ، فضعف النازعون إلى منازعة الخلفاء حبل السلطة . وغدت ممالك الشرق والغرب تتنافس فى رضا خليفة العرب ، والملك من ملوك آسيا وأوربا إذا تيسر لقاصده أو سفيره أن يتشرف بالحضرة حضرة بنى العباس يسعد ويعتز فى سلطانه ، ويعدّ ذلك نعمة حازها دون أقرانه .

مذهبه وأخلاقه :

قيل إن سهل بن هارون كان شيعياً ، وشيعة العراق فى زمنه كانوا على الإطلاق معتزلة ، ولم يؤثر عنه أن تنقص أحداً من الصحابة الكرام ، وعرف بالاعتدال مع الأموات اعتداله مع الأحياء ، وما أُثر عنه أنه خاض غمار مباحث الكلام التى كانت على أشد حرارتها إذ ذاك ، ولا سيما فى البصرة وبغداد دار السلام . واتهموه بأنه كان من الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العجم فضلا ، والشعوبى منسوب إلى قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ومذهب الشعوبية نشأ على الأرجح بُعَيْدَ عصر الخلفاء ، باشتداد قوة التجاذب والتدافع بين أرباب العصبيات ، وكان من أثر ذلك التفاخر بالجنس الذى جاء الإسلام بإبطاله . ولو كان للجنس يفضل المرء فى الأمة ، ما نزل سلمان الفارسى وصُهَيْب الرومى وبلال

الحبشى من الرسول تلك المنزلة العالية . والدين لا يفاضل إلا بالتقوى .

إذا عرفت هذا فادفع عن سهل دعوى الشعوبية غير خائف ولا متلجلج ، فاعتداله يمنعه إلا أن يقدر لكل عنصر خصائصه ، وهو لم يُعَدَّ رجلا مذكوراً إلا بالإسلام ، والأخذ عن علماء العرب ، ورقى فى مظاهر الدنيا حتى وصل إلى أعظم خلفاء العباسيين هارون الرشيد وعبد الله المأمون . وصار أحد أئمة البيان والحكمة فى الأمة العربية ، ودُعى لحكمته وعقله « بزُرجمهر الإسلام » و بُزُرْجُمهر وزير أنو شروان العادل ، من ملوك آل ساسان ، اشتهر بالعدل والحكمة .

وصفه الجاحظ فقال : كان سهل سهلاً فى نفسه ، عشيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيداً من الفدامة[1] ، معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة قبل الخبرة ، و برقة الذهن قبل المخاطبة ، و بدقة المذهب قبل الامتحان ، و بالنبل قبل التكشف[2] . وكان الجاحظ مازجه وثافنه . وقيل للحرانى ، ولعله إبراهيم بن ذكوان كاتب الهادى ووزيره : بينك و بين سهل ابن هارون صداقة فانعته لنا كى نعرف ، فقال : هو كالخير ، وازن العلم واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، و إن موزح لم يغضب ، كالغيث أين وقع نفع ، وكالشمس حيث أولت أحيت ، وكالأرض ما حملتها حملت ، وكالماء طهور لملتمسه ، ونافع لغُلة من أحرَّ إليه ، وكالهواء الذى تقطف منه الحياة بالتنسم ، وكالنار التى يعيش بها المقرور ، وكالسماء التى قد حسنت بأصناف النور اه .

صورتان جميلتان فى وصف سهل ، صورهما مصوران مبدعان ، عاشا بقربه وفتنهما بخُلقه وخَلقه .

---

(١) الفدامة : العى .

(٢) التكشف : الظهور .

واتهموا سهل بن هارون بالبخل وأوردوا له قصصاً ونوادر ، وعده الجاحظ من « متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء » قال : ما علمت أن أحداً جرد فى البخل كتاباً إلا سهل بن هارون وأبا عبد الرحمن الثورى . والبخل فى الفرس غالب فى الجملة ، غلبة الكرم على طبائع العرب . فاقتضى ذلك التفريط الذى رآه سهل فى تبذير العرب ، أن يدلى لقومه بآرائه المفرطة فى الاقتصاد والإمساك . وما شوهد قط تفريط ، إلا و إلى جانبه إفراط . ور بما كان اتهامه بالبخل مبالغاً فيه تُراد به النكتة والنادرة .

حكى الجاحظ قال لقى رجل سهل بن هارون فقال : هَبْ لى ما لا ضرر به عليك فقال : وما هو يا أخى ؟ قال : درهم . قال : لقد هونت الدرهم وهو طائع الله فى أرضه لا يعصى ، وهو عشر العشرة ، والعشرة عشر المئة ، والمئة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذى هونته . وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم ؟ فانصرف الرجل ، ولولا انصرافه لم يسكت .

وحكى دِعبِل الخُزاعى الشاعر قال : أقمنا يوماً عند سهل بن هارون ، وأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع ، فدعا بغدائه ، فأُتى بصحفة فيها مَرَق تحته ديك هَرِم ، فأخذ كَسرة وتفقد ما فى الصحفة ، فلم يجد رأس الديك ، فبقى مطرقاً ، ثم قال للغلام : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ، قال : ولِمَ ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولِمَ ظننت ذلك ؟ فوالله إنى لأمقت من يرمى برجله فكيف برأسه ؟ ولو لم أكره ما صنعت إلا للطِيَرة والفأل لكرهته ، أما علمت أن الرأس رئيس يتفاءل به ، وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أُريد ، وفيه فَرقه الذى يتبرك به ، وعينه التى يضرب بصفائها المثل ، فيقال : شراب كعين الديك ؛ ودماغه عَجَب لوجع الكلية . ولم أر عظماً قط أهشَّ

تحت الأسنان منه ، و إن كان بلغ من نُبلك أنك لا تأكله ، فعندنا من يأكله ، أو ما علمتَ أنه خير من طرف الجناح ، ومن رأس العنق ؟ أنظر أين رميته ، فقال : والله ما أدرى ، قال : أنا والله أدرى ، إنك رميت به والله فى بطنك ، فالله حسيبك .

ولما صنف سهل كتابه فى البخل أهداه للحسن بن سهل واستماحه ، فكتب إليه الحسن : قد مدحت ما ذمه[٢] الله ، وحسنت ما قبحه الله ، وما يقوم بفساد معناك صلاح لفظك ، وقد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك ، فما نعطيك شيئاً . والحسن بن سهل وزير المأمون كان فارسياً أيضاً ، ولكنه فى الجود آية الآيات . وصح من شعر سهل قوله :

ولكننى أبكى بعين سخينة ... على جلل تبكى له عين أمثالى
فراق خليل أو شجىً يستشفنى ... لخَلة أمر لا يقوم لها مالى
فيا كبدى حتى متى القلب موجع ... بثُكل حبيب أو تَعذّر إفضال
وما العيش إلا أن تطول بنائل ... وإلا لقاء الأخ بالخلق العالى

ومن يقول هذا الشعر ، و يقصد هـذا المعنى ، لا يكون من البخل على ما وصفوا . قال غولدصهير المجرى : إن تمدح ابن هارون بالبخل ، نزغة من نزغات الشعوبية ، أراد بمدحه الحط من قدر العرب الذين جعلوا الكرم من مفاخرهم الوطنية .

---

(١) فى رواية ياقوت : « لقد مدحت ما ذم الله ، وحسنت ما قبح ، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معناك ، وقد جعلنا ثواب عملك ، سماع قولك فما نعطيك شيئاً » .

طريقته فى الكتابة وتآليفه :

إن رجلاً يفضله الجاحظ ، ويصف براعته وحَصافته ، ويحكى عنه فى كتبه ، ويظهر إعجابه به إذا ذُكر ، ويروى حديثه ومجالسه ، هو ولا شك المثل الأعلى فى صنوف العلم والآداب ، بلغ الذِّروة فيما تفرد به ، واشتهر بمعرفته ، وكان أهل عصره مجمعين على الإقرار بفضله ، قلما يداخلهم الحسد له . كان نسيج وحده فى فنه ، نابغة فى العلم الذى يمتُّ به ، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ ، وهو فى البلاغة يجرى مع سهل كفرسى رهان ، وفى العقل المثل المضروب أنه كان يؤلف الكتاب فينسبه إلى نفسه ، فلا يرى الأسماع تُصغى إليه ، ولا الإرادات تُيمم نحوه ، ثم يؤلف — كما قال عن نفسه — ما هو أنقص منه مرتبة ، وأقل فائدة ، فينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ، ومن طارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيقبلون على كَتْبها ، ويسارعون إلى نسخها .

وطريقة سهل فى كتابته لا تكلف فيها ، ولا يشاهد فيها الناقد أثر التعمل ، فهو وابن المقفع والجاحظ من غِرار واحد . وقيل : إن سهلاً كاتب سلاطين ، والجاحظ مؤلف دواوين . وكأن كلامه نغمة موسيقية ، تعرف انتهاء جملته من رنتها ، بعد أن ملكت عليك مشاعرك ، وأدخلت السرور على نفسك ، لا يحفل بالأسجاع إلا إذا جاءت عفوَ الخاطر ، ولا يتعمد الجزالة إلا إذا اقتضى الموضوع ذلك ، وقلما خلا قوله من نكتة تُحمد له وتحمل عنه . وكأنك فى إنشاء سهل تقرأ المعنى قبل اللفظ ، وما تنفع القوالب إذا لم يكن علم الكاتب يُملى ، والمظاهر والدساتير مستملية . ففى أسلوبه تقرأ لتتعلم ، وفى كثير غيره تقرأ ألفاظاً جميلة ، وقوالب محكمة . وفى كلمه الطيب تقع على إشباع المعانى ، وتقطيع الجمل ،

والإبلاغ فى المزاوجة بين الكلمات ليتأثر السامع ، وتفعل البلاغة فعلها فى نفسك من طريق الإقناع والبرهان ، لا من مجرى التقفية والزُّخْرُف ، وتوازن الكلمات ورنّة الفقرات .

كان سهل يقول الشعر ، وأكثر شعره مما أملاه قلبه ، فى غرض خاص من أغراض المجتمع ، وعدّه الجاحظ من الخطباء والشعراء ، الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والأخبار المدوّنة . ولقبه مرة بالكاتب ، ولعل لقب الكاتب فى شرفه كان أكبر من عالم أو عِدْلاً له . وذكره ابن النديم فى البلغاء ، وقال إنه شاعر مقلّ ، وعده فى الشعراء الكتاب ، وقال إنه كان ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم ، هو وعبد الله بن المقفع وعلى بن داود كاتب زُبَيْدة . وشعره خمسون ورقة .

أما الدهشة فى تآليفه ؛ فله ديوان رسائله ، وكتاب النمر والثعلب ، وكتاب أسباسيوس (أسانوس) فى اتخاذ (اتحاد) الإخوان ، وكتاب أسد بن أسد ، كتاب سحرة العقل ، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب إلى عيسى بن أبان فى القضاء ، كتاب الفرس ، كتاب الغزالين (فى رواية الضربين) ، كتاب ندود وودود ولدود ، كتاب الرياض ، كتاب ثعلة وعفراء (وفى رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة ، قلده فى أبوابه وأمثاله . قال المسعودى ويزيد عليه ، أى على كليلة ودمنة ، فى حسن نظمه ، وقد صنفه للمأمون . ومن تآليفه كتاب الهزلية (الهذلية وفى رواية الهنبلية) والمخزومى ، كتاب الوامق والعذراء (العذار) ، إلى غير ذلك من المصنفات ، ومنها ما عارض به كتب الأوائل .

ولا تعجب إذا رأيت بضعة من تآليف سهل فى القصص والأسمار ، فإن من الناس من يتعلم بالاحتيال عليه ، وصعب عليك أن تثقفه وتخلّقه بالأخلاق الفاضلة ، إلا فى قالب ظاهره هزل وإحماض ، وباطنه تعليم وإرشاد ؛ ومن أجل هذا كان هذا اللون من الأدب ، مما يلذ المطالع ويفيده ، يلقى عليه حكمة بالغة ، على نحو ما يفعل معظم القصصيين من أهل المدنية الحديثة . وكان حظ ابن المقفع فى هـذا الباب أجزل ، لأن كتاب كليلة ودمنة اشتهر أكثر من اشتهار ثعلة وعفرة أو غير ذلك من الأوراق التى كسرها سهل على القصص . ولا تدل أسماء كتبه على أنه كتب فى موضوع أشبه بدينى اللهم إلا كتابه فى القضاء ؛ أما كتابه فى تدبير الملك والسياسة فدليل على أنه قرن العلم بالعمل فى هذا الفن السهل الصعب ؛ وجميع كتبه مما أبادته الليالى .

حياته السياسية :

لم نهتد إلى زمن انتقال سهل من البصرة إلى بغداد ، وسكت التاريخ عن عهد رحيله من مسقط رأسه ، وعن سنة ولادته ، وغاية ما ذكر فى ترجمته أنه كان مختصاً بالفضل بن سهل أخى الحسن بن سهل وزير المأمون ، وأن الفضل قدمه للمأمون ، ولكن كتب المحاضرات والتاريخ تقول إن سهلاً كان من رجال الرشيد ، وأنه دخل عليه وهو يضاحك المأمون فقال : اللهم زده من الخيرات ، وابسط له من البركات ، حتى يكون فى كل يوم من أيامه مُرْبِياً على أمسه ، مقصّراً عن غده . فقال الرشيد : يا سهل مَن روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لا يُعجزه القول . فقال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أن أحداً تقدمنى إلى هذا المعنى . قال : بل أعشى هَمْدان حيث يقول :

رأيتك أمس خير بنى لؤىّ وأنت اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً كذاك تزيد سادة عبد شمس

وهذا يدل على أن سهلا اتصل بالرشيد ، والمأمون حدث صغير . وأن سهلا كان معروفاً برواية الشعر والحديث أيضاً . وقد شهد مقتل البرامكة فى سنة ١٨٧

وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال : « إن سجّاعى الخطب ومحبرى القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى ، ولو كان كلام يتصور درًّا ، ويُحيله المنطق السرىُّ جوهراً ، لكان كلامهما ، والمنتقى من لفظهما . ولقد كانا مع هـذا عند كلام الرشيد فى بديهته وتوقيعاته فى كتبه ، فَدْمَين عَيين[1] ، وجاهلين أميين . ولقد عُمّرت معهم ، وأدركت طبقة المتكلمين فى أيامهم ، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فيهم ، ولم تكن مقصورة إلا عليهم ، ولا انقادت إلا لهم ، وأنهم محض الأنام ، ولُباب الكرام ، ومِلح الأيام : عشق منظر ، وجودة مخبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة نفس ، واكتمال خصال ، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم ، والمأثور من خصالهم ، كثيرَ أيام من سواهم ، من لدن آدم أبيهم ، إلى النفخ فى الصور ، وانبعاث أهل القبور ، حاشا أنبياء الله المكرمين ، وأهل وحيه المرسلين ، لما باهت إلا بهم ، ولا صوّلت فى الفخر إلاّ عليهم ، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم ، وكريم أعراقهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول مذاقهم ، وبهاء إشراقهم ، ونقاوة أعراضهم ، وتهذيب أغراضهم ، واكتمال خلال الخير فيهم ، إلى ملءِ الأرض مثلهم ، فى جنب محاسن المأمون ، كالنفثة فى البحر ، والخردلة فى المهمه القفر » . وهـذا

---

(١) الفدم العي عن الكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم ، والفدم الأحمق الجافى ج فدام ، والعى والعي الذى لا يستطيع النطق .

الكلام على ما فيه من حق فى وصف البرامكة والرشيد والمأمون لا يخلو من مبالغة لم تكد تعرفها العرب على هـذا الوجه ، ومن الصعب أن يتجرد المرء عن دمه الذى ورثه .

شهد سهل هذه المأساة مأساة مقتل بنى برمك وقال : إن الرشيد لما قتل جعفراً بعث إليه ، وكان معه فى الرقّة يحصل أرزاق العامة مع يحيى بن خالد . ولما حُمل نبأ مقتل جعفر كان سهل بين يدى يحيى يكتب توقيعات فى أسفل كتبه لطلاب الحوائج إليـه ، قد كلفه إكمال معانيها بإقامة الوزن فيها ، فلبس ثياب أحزانه ، لأنه كان على صلة دائمة بالبرامكة قال : فلما دخلت على الرشيد ومثلت بين يديه عرف الذُّعر فى تجريض[1] ريقى ، والتمايد فى طريقى ، وشخوصى إلى السيف المشهور ببصرى فقال : « إيهاً يا سهل ، من غمط نعمتى ، واعتدى وصيتى ، وجانب موافقتى ، أعجلته عقوبتى » قال : فوالله ما وجدت جوابها حتى قال : ليفرَخْ[2] رَوْعك ، وليسكن جأشك ؛ وتطب نفسك ، وتطمئن حواسك . فإن الحاجة إليك ، قرّبت منك ، وأبقت عليك ، بما يبسط منقبضك ؛ ويطلق معقولك ، فاقتصر على الإشارة دون اللسان ، فإنه الحاكم الفاصل ، والحسام الناصل ، وأشار إلى مصرع جعفر وهو يقول :

من لم يؤدبه الجميـ ـل فنى عقوبته صلاحه

قال سهل : « فوالله ما أعْلمَنى عَييت بجواب أحد قط ، غير جواب الرشيد يومئذ ؛ فما عولت فى شكره والثناء عليه إلا على تقبيل يديه وباطن رجليه » ، ثم قال لى : « اذهب فقد أحللتك محل يحيى بن خالد ، ووهبتك ما ضُمِّنته أبنيته ،

---

(١) أجرضه بريقه أغصه به .

(٢) فرخ الروع تفريخاً ذهب كأفرخ والرجل فزع ورعب والروع الفزع .

وحوى سُرادقه ، فاقبض الدواوين وأحص حباءَه وحباء[1] جعفر ، لتأمرك بقبضه إن شاء الله . قال سهل : فكنت كمن نُشر عن كفن ، وأُخرج من حبس ، فأحصيت حباءهما فوجدت عشرين ألف ألف دينار .

وبذلك تبينت منزلة سهل ، وكيف أصبح بعد يحيى البرمكى صاحب دواوين الرشيد ، ومع ما كان له من الإجلال فى الصدور ، خاف يوم النازلة بالبرامكة — و« البرامكة من محاسن العالم ، ودولتهم من أعظم الدول ، وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها » — خاف أن تضمه القافية لصحبته لهم ، وامتزاجه بهم ؛ وناهيك به يومئذ من موقف صعب ، ولكن عقل الرشيد لا تعبث به الأهواء ، ويضن بعظيم من رجاله لأسباب تافهة ، فأبقى على سهل بن هارون ، لأنه من مفاخر الملة والدولة . لا جرم أن سهل بن هارون كان فى سياسته من حزب الحكومة أو الحزب المعتدل ، تعزب فطرته عن التطرف ، ويرى المصلحة فى التآلف ، ويعدُّ الخروج عن سبيل الجماعة خروجاً عن الطاعة .

والغالب أن عشرة سهل مع الرشيد دامت حتى مات هذا سنة ١٩٣ ، ولم يجر له ذكر فى عهد الأمين مدة أربع سنين وثمانية أشهر وكسر ؛ فالتزم على ما يظهر بيته ، واعتزل الفتنة ، حتى إذا كانت الخلافة للمأمون أصبح سهل بن هارون من خاصته ، كما كان من خاصة أبيه الرشيد من قبل . وروى بعض الرواة أن المأمون كان استقلّ سهل بن هارون ؛ وقد دخل عليه يوماً والناس على مراتبهم ؛ فتكلم المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب . فلما فرغ من كلامه أقبل سهل على الجمع فقال : ما لكم تسمعون ولا تَعُون ، وتشاهدون ولا تَفْقهون ، وتفهمون ولا تتعجبون ، وتتعجبون ولا تُنصفون ؟ والله إنه ليقول

(١) الحباء : بكسر الحاء العطاء بلا جزاء ولا من .

ويفعل فى اليوم القصير ، ما فعل بنو مروان فى الدهر الطويل ، عربكم كعجمكم ، وعجمكم كعبيدكم ؛ ولكن كيف يعرّف بالدواء ، من لا يشعر بالداء . فرجع المأمون فيه عن الرأى الأول ؛ وفى ذلك أيضاً من حسن المأتى ، ولطف المدخل والمخرج ، ما يعرفه المبتلى بعشرة الملوك والعظماء ، ولا سبيل إلى الدخول على أكثرهم إلا بهذه الطرق من التلطف والتزلف ، وإن لم يصدق ذلك من كل وجه على الرشيد والمأمون ، وهما ما هما فى العقل والعلم والعدل . وأخرى وهى أن سهلا بكلامه هذا ، ضرب الحاضرين مجلس المأمون فى الصميم ، وأنزل من مراتبهم ليستأثر وحده بتلك الرتبة السنية ، فنسبهم إلى السكوت فى مواطن القول ، وإلى القصور فى ميدان الاستحسان ؛ ومن قعدت به القريحة عن الانبعاث حين الحاجة ، كان حرياً أن لا يعاشر تلك الطبقة من الخلفاء ، وهذا من دهائه الكسروى .

رجع المأمون عن رأيه فى سهل ، وعرف أنه الرجل كلُّ الرجل فى صورته وعقله ، ومفاكهته وغنائه وأدبه ، فقرّبه وأدناه على النحو الذى كان عليه فى عهد والده ، وكان سهل قد أسن بالطبع ، ويعرف المأمون مذ كان طفلا عند الخليفة والده . ولكن المأمون يحترم الكبير وهو جِدّ فى جماع أموره . بيد أنه لم يقبل باصطفائه إلا بعد اختباره . وعند ما وقع عنده على أمور تفرد بها ، وقد لا يجدها فيمن كان اختارهم لعشرته من العلماء ، وهم عشرة اختيروا له من مئة .

حياته العلمية :

كان المأمون مولعاً بكتب القدماء والفلاسفة ، وعُدَّ ذلك من آكد أعماله فى إنهاض مستوى العقل العربى ، فأنشأ داراً جمع فيها كل ما طالت يده إليه

من كتب العلم باللغات المختلفة . وكانت جزيرة قبرس فى ذاك العهد تَشْغَب كثيراً على الخلافة ، وقد سبى عمال الرشيد أهلها مرة ، حتى إذا أفضت الخلافة إلى المأمون هادن صاحب قبرس ، وأرسل إليه يطلب خزائن كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليه أحد أبداً فيما قيل ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته ، وذوى الرأى فى بلده ، واستشارهم فى حمل الخزانة إلى المأمون ، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطراناً واحداً فانه قال : الرأى أن تعجل بإنفاذها إليه ؛ فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها ؛ فأرسلها إلى المأمون ، ثم صالح المأمون صاحب الروم ميخائيل الثالث على أن يدفع إليه ما عنده من كتب القدماء ، وأرسل بعوثاً من ثقاته من المسلمين والنصارى لنسخ ما لا يتأتى لملك الروم إخراجه من الكتب ، فاجتمع للمأمون بذلك خزانة عظيمة ، فوق ما حمل إليه من الشرق والغرب ؛ وجعل سهل بن هارون خازناً لها ، وسماها بيت الحكمة ، وجعل معه عالماً اسمه سلمة الحرّانى ، كما جعل شريكا له سعيد بن هارون .

ولا شك أن سهلا تهيأت له أسباب البحث والنظر فى بيت الحكمة التى أصبح ناظرها ، بما لم يتهيأ لغيره الوصول إليه ؛ خصوصاً وهمة الخليفة منصرفة إلى ترجمة كتب الفلسفة والعلوم والصناعات ؛ لا يهنأ له بال حتى تمسى الخزانة العربية تامة من كل وجه فى علوم الدنيا ، على ما هى تامة فى علوم الدين .

اتسع الأفق أمام عقل سهل ، ولم تقف به الهمة عند الأخذ من كتب الفرس ، بل تعدتها إلى الأخذ من كل ما طاب له من ضروب المعارف ، خصوصاً وانتقاله إلى بغداد بعد البصرة جاء متمماً له بغيته ، وكان اختلاطه برجال الخلافة وهم من كل صنف ونحلة وجنس ، معواناً له على الكمال . وقد يستفيد

المرء بالعشرة والتلقى ، ما لا يستفيد من تصفح دواوين العلم ومصاحف الفضائل .

ذكروا أن سهل بن هارون تولى خزانة المأمون وتولى خزانة الحكمة له . أى أنه كان له منصبان : الإشراف على خزانة المأمون أى خزانة كتبه الخاصة ، والنظر على دار الكتب التى سميت دار الحكمة أو بيت الحكمة . وكلا العملين عظيم فى بابه ولكنهما من نمط واحد . وفى ذلك ما يشعر بأن المأمون لم يكن يصبر عليه فى قصره ، ولا يقنعه منه انصرافه إلى المصالح العامة فقط .

نثره وشعره :

إن النزر القليل الذى وصل إلينا من كلام سهل بن هارون لا يكفى فى الحكم عليه . ومن كلام له فى كتابه ثعلة وعفرة : « اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً ، قبل الذى تجودون به من تفضلكم ، فان تقديم النافلة مع الإبطاء فى أداء الفريضه ، شاهد على وَهْن العقيدة ، وتقصير الروية ، ومضرّ بالتدبير ، ومخلٌّ بالاختيار ، وليس فى نفع تحمد به عوضاً عن فساد المروءة ، ولزوم النقيصة . قال الحصرى : « وكتابه هذا مملوء حكما وعلماً » ، وهذا مأخوذ من قوله فى يحيى بن جعفر :

عدو تلاد المال فيما ينوبه ... منوعٌ إذا ما منعه كان أحزما
مذلل نفس قد أبت غير أن ترى ... مكاره ما تأتى من العيش مغنما

وكتب إلى صديق له أبلَّ من ضعف : « بلغنى خبر الفترة فى إلمامها وانحسارها ، والشَّكاةِ فى حلولها وارتحالها ؛ فكاد يَشغل القلق بأوله عن السكون لآخره ، وتُذْهل الحَيْرة فى ابتدائه عن المسرة فى انتهائه ؛ وكان تغيرى فى الحالين بقدرهما ارتياعاً للأولى وارتياحاً للأخرى » .

وقال لجارية له رومية أعجمية : « إن أقل ما ينطوى عليه ضميرى من رسيس[١] حبك ، لأجلُّ من كل جليل ، وأكثر من كل كثير » .

ومن كلامه يعزّى : التهنئة بآجل الثواب ، أولى من التعزية على عاجل المصيبة . وقال فى المعنى : مصيبة فى غيرك لك ثوابها ، خير من مصيبة فيك لغيرك ثوابها . وقال : حق كل ذى مقالة أن يبدأ بحمد الله قبل استفتاحها ، كما بدئ بالنعمة قبل استحقاقها . وقال : تعلموا العلم فلأن يذم الزمان لكم ، خير من أن يذم بكم . ومن كلامه : العفو الذى يقوم مقام العتق ، ما سلم من تعداد السقطات ، وخلص من تذكار الزلات . وكتب إلى جعفر بن يحيى :

إذا ما أتى يوم يفرق بيننا بموت فكن أنت الذى يتأخر

وقال : الصديق لا يحاسب ، والعدو لا يحتسب له ، أى لا يعتدُّ به ، وقال : من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها ؛ ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها . ومن كلامه : كانت زورة فلان أخفَّ من حسوة طائر ، ولمعة بارق ، وخلسة سارق . وقال : من فضل الجواب على الابتداء ، أن الابتداء يوجد فى الجواب ، ولا يوجد جواب فى ابتداء . ومن كلامه : مؤنة المتوقف ، أيسر من تكلف المتعسف . وقال : لو عرف الزنجى فضل حاجته إلى ثناياه فى إقامة الحروف ، وتكميل جميل البيان ، لما نزع ثناياه .

قال محمد بن زياد الزيادى البصرى : وجَدت[٢] على سهل بن هارون فى بعض الأمر فهجوته فكتب إلىّ : « أما بعد فالسلام على عهدك ، وداعَ ذى ظن بك ، فى غير مَقْلِية[٣] لك ، ولا سلوة عنك ، بل استسلام للبلوى فى أمرك ، وإقرار

---

(١) رس الحمى ورسيسها أول مسها .
(٢) وجد عليه بكسر الجيم وضمها : غضب . (٣) بغض .

بالمعجزة عن استعطافك ، إلى أوان فيأتك ، أو يجعل الله لنا دولة من رجعتك والسلام » . وكتب فى أسفل الكتاب :

إن كنت أخطأت أو أسأت فنى عفوك مأوى للفضل والمنن
أتيت ما أستحق من خطأ فجد بما تستحق من حسن

وهذا من أعظم مكارم الأخلاق ؛ يُهجى وهو يسترضى هاجيه .

ومن محاسن تعريضات سهل أنه خاطب بعض الأمراء فقال له : كذبت ، فقال : أيها الأمير إن وجه الكذاب لا يقابلك — يعنى الأمير بذلك — لأن وجه الإنسان لا يقابله . ورويت هذه النكتة لغيره .

ومن جميل تأويلاته وذكائه قوله : إن عدد حروف العربية ثمانية وعشرون حرفاً ، على عدد منازل القمر ، وغاية ماتبلغ الكلمة منها مع زيادتها سبعة أحرف على عدد النجوم السبعة . قال وحروف الزوائد اثنا عشر حرفاً ، على عدد البروج الاثنى عشر ، قال : ومن الحروف ما يدغم مع لام التعريف ، وهى أربعة عشر حرفاً ، مثل منازل القمر المستترة تحت الأرض ، وأربعة عشر حرفاً ظاهرة لا تدغم مثل بقية المنازل الظاهرة ، وجعل الإعراب ثلاث حركات ؛ الرفع والنصب والخفض ، لأن الحركات الطبيعية ثلاث حركات ، حركة من الوسط كحركة النار ، وحركة إلى الوسط كحركة الأرض ، وحركة على الوسط كحركة الفلك .

وحكى الجاحظ أن أبا الهذيل العلاف المتكلم سأله رُقعة يكتب بها إلى الحسن بن سهل يستعينه على ضائقة لحقته ؛ فكتب رقعة وختمها ودفعها إليه ، فأوصلها إلى الحسن ؛ فلما رآها ضحك وأوقف عليها أبا الهذيل وإذا فيها مكتوب :

إن الضمير إذا سألتك حاجة لأبى الهذيل خلاف ما أبدى
فامنحه رَوْح اليأس ثم امدد له حبل الرجاء بمخلف الوعد

وأَلن له كنفاً ليحسن ظنه فى غـــير منفعة ولا رِفد
حتى إذا طالت شقاوة جَده وعَنائه ؛ فاجْبَهه بالرد
وإن استطعت له المضرّة فاجتهد فيما يضرّ بأبلغ الجهـــد

ولما قرأ الحسن رقعته وقّع فيها : « هذه — لك الويل — صفتك لاصفتى » وأمر لأبى الهذيل بألف دينار ؛ فعاد إليه فعاتبه ؛ فقال سهل : تُرى أين عزب عنك الفهم ؟ أما سمعت قولى : إن الضمير خلاف ما أُبدى ؟ فلو لم يكن ضميرى الخير ما قلت هذا . قال الجاحظ : هذه من مغالطات سهل و بلاغته .

وروى الثعالبى قال : « حاجة أبى الهذيل » يضرب مثلاً للحاجة ، يسألها الإنسان لغيره و يضمر ضد مايظهر ، ولا يحب قضاءها ، إما بخلاً بجاهه ، و إما لحاجة أخرى فى نفسه . قال : وكان أبو الهذيل سار إلى سهل بن هارون الكاتب ، وكان خاصاً بالحسن بن سهل يسأله الكلام فى أمره ، و يستعينه على ضائقة دفع إليها ، فسار سهل إلى الحسن فكلمه وقال له : قد عرفت أيها الأمير حال أبى الهذيل ومحله وقدره فى الإسلام ، وأنه متكلم قومه ، والرادّ على أهل الإلحاد ، وقد فزع إليك لإضاقة هو فيها ، فوعده أن ينظر له ما يصلح حاله . وربما كانت أبيات سهل منبعثة من كونه لاحظ — بعد أن كلم الحسن بن سهل بشأن أبى الهذيل — شيئاً من الفتور ، فلما أُريد على الشفاعة بأبى الهذيل مرة ثانية كتب تلك الأبيات ، ومع هذا ما خلت من نكتة جميلة . وكان أبو الهذيل يأخذ من السلطان فى كل سنة ستين ألف درهم و يفرقها على أصحابه .

وأنشد الجاحظ لسهل يهجو رجلاً :

من كان يعمر ما شادت أوائله فأنت تهدم ما شادوا وما سمكوا
ما كان فى الحق أن تأبى فَعالهم وأنت تحوى من الميراث ما تركوا

وأجملْ بهذا الهجو الذى اقتصر فيه على الموعظة الحسنة وهو القائل :

إذا امرؤٌ ضاق عنى لم يضق خلقى ... من أن يرانى غنيًّا عنه بالياس
فلا يرانى إذا لم يَرْع آصرتى ... مستمرياً دِرراً منـــه بإبساس
لا أطلب المال كى أغنى بفضلته ... ما كان مطلبه فقراً إلى الناس

ومن شعره :

أعان طرفى على جسمى وأعضائى ... بنظرة وقفت جسمى على دائى
وكنت غِرًّا بما تجنى علىّ يدى ... لاعلم لى أن بعضى بعض أعدائى

ونسبوا لسهل قوله :

خلٌّ إذا جئته يوماً لتسأله ... أعطاك ماملكت كفاه واعتذرا
يخفى صنائعه والله يظهرها ... إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

هذا هو الشعر الذى يسميه الإفرنج بالشعر الوجدانى (Lyrique) وهو كثير فى شعر العرب تتجلى فيـه مرآة شعور صاحبه ، وما يمليه عليـه قلبه ، ويزينه له طبعه .

ومن بدائع سهل : القلم لسان الضمير إذا رَعَف أَعْلن أسراره ، وأبان آثاره . وكان يقول : اللسان البليغ والشعر الجيد ، لا يكادان يجتمعان فى واحد ، وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم . وكان يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة ؛ كما أن التوقى على الدواء أشد من الدواء . وقال : بلاغة الإنسان رِفق ، والعىُّ خرق ، وكان كثيراً ما ينشد قول شُتيم بن خُويلد :

ولا يَشْعَبون الصدع بعـــد تفاقمٍ ... وفى رِفقِ أيديهم لذى الصدعِ شاعب

وقال : « لا يُقـدم على الخطبة إلا اثنان فائق أو مائق ، أما الفائق فثقته بنفسه تنفى عنه كل خاطر يورث الخجل والانقطاع ، وأما المائق فإنه لا يبالى

أخطأ أم أصاب » . وقال : لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجا أو وصفا ، وكان أحدهما جليلاً بهيًّا ، ولبيباً نبيلاً ، وذا حسب شريفاً ، وكان الآخر قايلاً قميئاً (١) ، وباذّ الهيئة (٢) دميماً ، وخامل الذكر مجهولاً ، ثم كان كلاهما فى مقدار واحد من البلاغة ، وفى وزن واحد من الصواب ، لتصدّع عنهما الجمع ، وعامتهم تقضى للقليل الدميم ، على النبيل الجسيم ، وللباذ الهيئة على ذى الهيئة ، ولَشغلهم التعجب منه على مساواة صاحبه له ، ولصار التعجب منه سبباً للعجب به ، ولكان الإكثار فى شأنه ، علة للإكثار فى مدحه ، لأن النفوس كانت له أحقر ، ومن بيانه أيأس ، ومن حده أبعد ، فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه ، وظهر منه خلاف ما قدروه ، تضاعف حسن كلامه فى صدورهم ، وكبر فى عيونهم ، لأن الشىء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب ، كان أبعد فى الوهم ، وكلما كان أبعد فى الوهم ، كان أظرف ، وكلما كان أظرف ، كان أعجب ، وكلما كان أعجب ، كان أبدع ؛ وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين ، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد ، وتعجبهم منه أكثر .

« والناس موكلون بتعظيم الغريب ، واستطراف البعيد ، وليس لهم فى الموجود الراهن ، وفيما تحت قدرتهم من الرأى والهوى ، مثل الذى معهم فى الغريب القليل ، وفى النادر الشاذ ، وكل ما كان فى ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد الجيران فى عالمهم ، والأصحاب فى الفائدة من صاحبهم ، وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم ، ويرحلون إلى النازح عنهم ، ويتركون من هو أعظم نفعاً ، وأكثر فى وجوه العلم تصرفاً ، وأخف مؤنة ، وأكثر فائدة ؛ ولذلك قدم بعض الناس الخارجىّ على العريق ، والطارف على التليد . »

---

(١) القميء : الصغير الذليل . (٢) باذ الهيئة : رثها .

إلى أن قال : فإذا كان الحب يعمى عن المساوى ، فالبغض أيضاً يعمى عن المحاسن ، وليس يعرف حقائق مقادير المعانى ، ومحصول حدود لطائف الأمور ، إلا عالم حكيم ، ومعتدل الأخلاط عليم ، وإلا قوى المنّة ، الوثيق العقدة ، والذى لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم ، والسواد الأكثر .

وقال : للسلطان سكرات ، فمنها الرضى عن بعض من يستوجب السخط ؛ ولذلك قيل : قد خاطر من لجّج فى البحر ؛ وأشد منه مخاطرة صاحب السلطان .

وقال : العقل رائد الروح ، والعلم رائد العقل ، والبيان ترجمان العلم . وأولى من هذا بالحجة قول النبى صلى الله عليه وسلم للعباس وقد سأله فيم الجمال ؟ فقال : فى اللسان .

وقال : ليس الرِّىّ عن التشاف ، من عاش غير خامل المنزلة ، وأفضل على نفسه وأصحابه ، فهو وإن قلّ عمره طويل العمر ، ومن كان عيشه فى وحدة وضيق ، وقلّ خيره على نفسه وعلى الناس ، فهو وإن طال عمره قصير العمر ؛ قد يبلغ الخضم القضم ، ويركب الصعب من لا ذَلول له — والكلام الأخير من أمثال العرب — المعنى فى التشاف أن يشرب الرجل الشفافة كلها ، وهى بقية الماء فى الإناء . يقول قد يروى الشارب قبل بلوغ تلك ، ومعنى المثلين الحض على الرضا بيسير الحاجة إذا أعوزه جليلها .

ومن كلامه : المَلِكُ صبىّ الرضا ، كهل الغضب ، يأمر بالقتل وهو يضحك ، ويستأصل شأفة القوم وهو يمزح ، يخلط الجد بالهزل ، ويتجاوز فى العقوبة قدر الذنب ، وربما أحفظه الذنب اليسير ، وربما أعرض صفحاً عن الخطب الكبير ، أسباب الموت والحياة متعلقة بطرف لسانه ، لا يعرف ألم العقوبة فيبقى ، ولا يؤنّب على بادرة فينتهى ، يُخطىء فَيُصَوَّبُ ، ويصيب فيفرَّض ، مفتون الهوى ، فظّ الخليقة ، أخرق العقوبة ، لا يمنعه من ذى الخاصة به ما يعلم

من عنايته ، وطول صحبته ، أن يقتله بخطرة من خطرات مَوجدته ، ثم لا ينفك أن يُخْطَب إليه موضعه ، فلا الثانى بالأول يعتبر ، ولا المَلِكُ عن مثل ما فرط منه يزدجر .

وقال سهل للفضل بن سهل : إن الحاجب أحد وجهى الملك يعتبر عليه برأفته ، ويلحقه ما كان فى غلظته وفظاظته ؛ فاتخذ حاجبك سهل الطبيعة ، معروفاً بالرأفة ، مألوفاً منه البر والرحمة ، وليكن جميل الهيئة ، حسن البسطة ، ذا قصد فى نيته وصالح أفعاله ، ومُرْه فليضع الناس على مراتبهم ، وليأْذن لهم فى تفاضل منازلهم ، وليعط كلا بسطة من وجهه ، وليستعطف قلوب الجميع إليه ، حتى لا يغشى الباب أحد وهو يخاف أن يقصر به عن مرتبته ، ولا أن يمنع فى مدخل أو مجلس أو موضع إذن شيئاً يستحقه ، ولا يمنع أحد من مرتبته ، وليضع كلا عند منزلته وتعهده ، فإن قصر مقصر قام بحسن خلافته و بتزيين أمره .

وقال سهل يوماً وهو عند المأمون : من أصناف العلم مالا ينبغى للمسلمين أن يرغبوا فيه ، وقد يُرغب عن بعض العلم ، كما يُرغب عن بعض الحلال . قال المأمون : قد يسمى بعض الناس الشىء علماً وليس بعلم ، فإن كنت أردت هذا فوجهه الذى ذكرنا ، ولو قلت : إن العلم لا يدرك غوره ، ولا يسبر قعره ، ولا تبلغ غايته ، ولا تستقصى أصنافه ، ولا يضبط آخره ، فالأمر على ما قلت . فإذا كان الأمر كذلك ، فابدأوا بالأهم فالأهم ، وابدأوا بالفرض قبل النفل ، فإذا فعلتم ذلك كان عدلاً وقولاً صدقاً .

ويقال على الجملة إن من الندرة أن يتم لإنسان من المواهب والبيئة ما تم لسهل ، فهو من عنصر قوى ذى مدنية قديمة راسخة ، ثقّفه المحيط العربى فى أرقى بيئة عهدت فى التاريخ العربى ، وجاء فى عصر زاهر ، ودخل فى أمة قوية

فتية ، فرفعه علمه وفضله إلى أعلى مقامات الفضل والنبل ، وهيئا له من أسباب النبوغ ما لم يكتب لغير بضعة من رجال الأدب العربى ، وساعده على ذلك طول أجله ؛ إذ لو فرضنا أنه يوم دخل على الرشيد كان ابن ثلاثين ، وقد قبض سهل إلى ربه فى سنة أربع وثلاثين ومائتين على رواية الصلاح الكتبى ، وقال ياقوت سنة ٢١٥ ، والرشيد تولى الخلافة سنة إحدى وسبعين ومائة ؛ وإذا فرضنا أنه اتصل بالرشيد فى منتصف عهده ، فلا يكون سهل عُمِّرَ أقل من تسعين سنة . ومن بورك له بأيام حياته يجىء منه فى العلم ما لم يجئ من المعتبط كهلاً أو شابًّا .

أثره الباقى :

من أجمل ما أُثر لسهل بن هارون من الكتب ، بل كتابه الوحيد الذى ما زال أهل الأدب يتناقلونه خلفاً عن سلف ، كتابه إلى بنى عمه من آل راهبون حين ذموا مذهبه فى البخل ، وتتبعوا كلامه فى الكتب ، قال فى فاتحته يُحاجّهم : « بسم الله الرحمن الرحيم : أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير ، وجعلكم من أهله . قال الأحنف بن قيس : يا معشر بنى تميم لا تسرعوا إلى الفتنة ، فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياءً من الفرار ، وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عيّاباً ، فإنه إنما يعيب بفضل ما فيه من عيب ، وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب ، وقبيح أن تنهى مرشداً ، أو تغرى بمشفق .

« وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وصلاح فاسدكم ، وإبقاء النعمة عليكم . ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم ، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما

بيننا و بينكم . ثم قد تعلمون أنّا ما أوصينا كم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم ، وشهرنا به فى الآفاق دونكم ؛ ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب) . فما كان أحقكم فى كريم حرمتنا بكم أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم ، على ما رعيناه من واجب حقكم ، فلا العذر المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قمتم ، ولو كان ذكر العيوب برًّا وفضلاً ، لرأينا فى أنفسنا عن ذلك شغلاً ، و إن من أعظم الشقوة ، وأبعد من السعادة ، ألاّ يزال يُتذكر زلل المعلمين ، ويُتناسى سوء استماع المتعلمين ، و يستعظم غلط العاذلين ، ولا يحفل بتعمد المعذولين » .

بدأ بتقريع أهله والناقمين والناقدين عليه منهم ومن غيرهم ، فى إيثار كزازة اليدين على بسطهما ، وأنه أراد بإرادتهم على الخير تعليمهم ، وحفظ فضل أموالهم ، وأنهم أخطأوا فى سوء فهم مراميه ، ولم يرعوا له حرمة ولا ذماماً ؛ وذكرهم بحكمة جميلة ، وهو أن الناس يتذكرون خطيئات المعلمين ، ولا يذكرون جهل المتعلمين ، وعبر عنه بسوء الاستماع ، وهو من أرق التعابير ، وذكرهم بالآية الكريمة التى جاءت فى العبد الصالح . و بعد أن بلغ من قوله هذا الحد ، و بسط المسألة بينه و بين عاذليه على بخله ، ودعوة الناس إلى طريقته ، وأبان أنه اشتهر بها فى العالم ، وأنها مما لا يعده ثلمة فى الشرف ، بل فضيلة من فضائل النفس ، بعد هذا أخذ يخاطبهم و يورد لهم الأمثال التى وقعت له فى هذا الشأن والتى وقعت لغيره فعدها عبرة ، قال :

« عبتمونى بقولى لخادمى : أجيدى عجنه خميراً ، كما أجدته فطيراً ، ليكون أطيب لطعمه وأزيد فى ريعه ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ورحمه

لأهله : أملكوا العجين[1] فانه أحد الرّيعين . وعبتم علىّ قولى من لم يعرف مواقع السرف فى الموجود الرخيص ، لم يعرف مواقع الاقتصاد فى الممتنع الغالى ، فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على مبلغ الكفاية ، وأشف من الكفاية ، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء ، و إلى التوفير عليها من وظيفة الماء ، وجدت فى الأعضاء فضلاً على الماء ، فعلمت أن لو كنت مكنت الاقتصاد فى أوائله ، ورغبت عن التهاون به فى ابتدائه ، لخرج أوله على كفاية آخره ، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر ، فعبتمونى بذلك وشنعتموه بجهدكم وقبحتموه ؛ وقد قال الحسن وذكر السرف : إنه ليكون فى الماعونين الماء والكلأ فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه بالكلأ » .

بسط قاعدته فى البخل بسطاً بديعاً ، و بدأها بما وقع له فى الماء ، ثم ثنى فى الجملة التالية بما يأتيه من الاحتياط فى حفظ الفاكهة والمأكولات محاولاً إقناع مخاطبيه بأن الناس طبقات ، وليس من الإنصاف أن يأكل السيد كالمولى ، فإن إطعام الموالى والعبيد أطعمة وثماراً لذيذة قد يمكنهم الاستغناء عنها ، ولكن ساداتهم لا يصبرون عليها إذا انقطعت عنهم بسبب إسرافهم ، وأشار إلى نهم الأولاد ، وسوء إدارة النساء ، قال :

« وعبتمونى حين ختمت على سلّ عظيم ، وفيه شىء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رُطبة غريبة على عبد نَهِم ، وصبى جشع ، وأَمة لكعاء[2] ، وزوجة خرقاء ، وليس من أصل الأدب ، ولا فى ترتيب الحكم ، ولا فى عادات القادة ، ولا فى تدبير السادة ، أن يستوى فى نفيس المأكول ، وغريب المشروب وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والناعم من كل فن ، واللباب من كل شكل

(١) شدوا عجنه (٢) امرأة لكاع كقطام لئيمة ؛ والأمة الجارية .

التابع والمتبوع ، والسيد والمسود ، كما لا تستوى مواضعهم فى المجالس ومواقع أسمائهم فى العنوانات ، وما يستقبلون به من التحيات . وكيف وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر ، ولا يكترثون له اكتراث العارف ومن شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن ، وعلف حماره السمسم المقشر ؛ فعبتمونى بالختم ، وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق ، وختم على كيس فارغ ، وقال : طينة خير من ظِنّة ، فأمسكتم عمن ختم على لا شىء ، وعبتم من ختم على شىء » .

ثم تحول فى كلامه إلى ذكر أمور جوهرية فى الحياة ، ذات شأن خطير فى تدبير المنزل ، كالطعام واللباس ، مستشهداً على صحة قضيته بهدى الرسول ، وإيراد أمثلة ممن يقتدى بهم فى هذا الباب من الناس ، فقال :

« وعبتمونى حين قلت للغلام ، إذا زدت فى المرق فزد فى الإنضاج ، لتجمع بين التأدم باللحم والمرق ، ولتجمعَ مع الارتفاق بالمرق الطيب . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا طبختم لحماً فزيدوا فى الماء ، فإن لم يصب أحدكم لحماً أصاب مرقاً » .

« وعبتمونى بخصف النعل (١) ، وبتصدير (٢) القميص ، وحين زعمت أن المخصوفة أبقى وأوطأ ، وأوقى وأنقى للكبر ، وأشبه بالنسك ، وأن الترقيع من الحزم ، والتفريق من التضييع ، والاجتماع مع الحفظ . وقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويلطع إصبعه ويقول : لو دُعيت إلى كراع لأجبت ، ولو أُهدى إلىَّ كراع أو ذراع لقبلت . ولقد لَفَقَت سُعدى بنت عوف إزار طلحة وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض . وكان فى ثوب عمر رقاع أدم . وقال : من لم يستح من الخِلال خفت مؤنته ، وقلّ كبره . وقالوا : لا جديد لمن لا يلبس الخَلَق .

---

(١) خصف النعل خرزها . (٢) شد البعير بالتصدير : هو حبل يشد فى صدره .

« وبعث زياد رجلاً يرتاد له محدّثاً ، واشترط على الرائد أن يكون عاقلاً مسدداً ، فأتاه به موافقاً فقال : أكنت ذا معرفة به ؟ قال : لا ولا رأيته قبل ساعته . قال : أفناقلته الكلام ، وفاتحته الأمور ، قبل أن توصله إليّ ؟ قال : لا . قال : فلِمَ اخترته على جميع من رأيته ؟ قال : يومنا يوم قائظ ، ولم أزل أتعرّف عقول الناس بطعامهم ولباسهم فى مثل هذا اليوم ، ورأيت ثياب الناس جُدُداً وثيابه لُبُسا ، فظننت به الحزم . وقد علمنا أن الجدد فى موضعه دون الخَلق . وقد جعل الله عز وجل لكل شىء قدراً ، وبوّأ له موضعاً ، كما جعل لكل دهر رجالاً ، ولكل مقام مقالاً ، وقد أحيا بالسم ، وأمات بالغذاء ، وأغص بالماء ، وقتل بالدواء ، فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر ، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبين ، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين . وقد جبر الأحنف يد عنز ، وأمر بذلك النعمان . وقال عمر : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة . وقال رجل لبعض السادة : أهدى إليك دجاجة . قال : إن كان لا بد فاجعلها بياضة . وعد أبو الدرداء العُراق جَزَر البهيمة [1] » .

صفحة جميلة من تدبير المعاش والاقتصاد ، أراد بها تعليم المنتقدين له درساً نافعاً فى الترتيب والنظام ، وألقى عليهم مثلا حسناً لا يسع حتى المسرف أن ينقضه ، وقد شفع كلامه بأمثلة ليس فى مقدور أحد إنكارها ، ولا تبالغ به الحال مهما بلغ من السرف والترف ، أن يقول إن من ذكرهم ليسوا قدوة صالحة . وبعد ذلك التفت التفاتة أخرى ، وبين لخصومه فضيلة الإمساك فى المال والحرص عليه ، لما يجلب الاستهتار من العوز فقال :

---

(١) العراق : العظم أكل لحمه ، والجزر بالتحريك أرومة تؤكل .

« وعبتمونى حين قلت : لا يغترن أحد بطول عمره ، وتقوس ظهره ، ورقة عظمه ، ووهن قوته ، أن يرى أكرومته ، ولا يحرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه ، وتحويله إلى ملك غيره ، وإلى تحكيم السرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ، فلعله أن يكون مُعَمَّراً وهو لا يدرى ، وممدوداً له فى السن وهو لا يشعر ، ولعله أن يرزق الولد على اليأس ، ويحدث عليه بعض مخبآت الدهور ، مما لا يخطر على البال ، ولا تدركه العقول ، فيسترده ممن لا يرده ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه ، أضعف ما كان عن الطلب ، وأقبحَ ما يكون به الكسب . فعبتمونى بذلك وقد قال عمرو بن العاص : إعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً ، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً .

« وعبتمونى حين زعمت أن التبذير إلى مال القمار ومال الميراث ، وإلى مال الالتقاط وحباء الملوك أسرع ، وأن الحفظ إلى المال المكتسب ، والغنى المجتاب وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدين ، واهتضام العرض ، ونصب البدن ، واهتمام القلب أسرع ، وأن من لم يحسب ذهاب نفقته لم يحسب دخله ، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل ، وأن من لم يعرف للغنى قدره ، فقد أذن بالفقر ، وطاب نفساً بالذل .

« وعبتمونى بأن زعمت أن كسب الحلال مُضَمّنٌ بالإنفاق فى الحلال ، وأن الخبيث ينزع إلى الخبيث ، وأن الطيب يدعو إلى الطيب ، وأن الإنفاق فى الهوى حجاب دون الحقوق ، وأن الإنفاق فى الحقوق حجاز دون الهوى ، فعبتم علىّ هذا القول وقد قال معاوية : لم أرَ تبذيراً قط إلا وإلى جانبه حق مضيَّع . وقد قال الحسن : إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله ، فانظروا فى أى شىء ينفقه ، فإن الخبيث إنما ينفق فى السرف .

« وقلت لكم بالشفقة عليكم ، و بحسن النظر منى لكم ، و بحفظكم لآبائكم ، ولما يجب فى جواركم ، وفى مماكتكم وملابستكم ، وأنتم فى دار الآفات ، والجوائح غير مأمونات ، فإن أحاطت بمال أحدكم جائحة ، لم يرجع إلى بقية ، فأحرزوا النعمة باختلاف الأمكنة ، فإن البلية لا تجرى فى الجميع إلا مع موت الجميع . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى العبد والأمة ، وفى ملك الشاة والبعير ، وفى الشىء الحقير اليسير : فرّقوا بين المنايا ، واجعلوا الرأس رأسين . وقال ابن سيرين لبعض البحريين : كيف تصنعون بأموالكم قال : نفرقها فى السفن ، فإن عَطِب بعض سلم بعض ؛ ولولا أن السلامة أكثر لما حملنا أموالنا فى البحر . قال ابن سيرين : تحسبها خرقاء وهى صَنَاعٌ[1] »

و بعد هذا الكلام الممتع ، مثّل سهل صورة جديدة فى الأخلاق العارضة على من استغنى ، وحذر من الوقوع فيها لئلا تؤدى إلى الفقر ، وهو أبشع ضروب المظاهر ، و بين العلة فى قوله إن المال مقدم على العلم ، لأن بالمال يكتسب العلم ، و يعرف قدر العلم فقال :

« وقلت لكم عند إشفاقى عليكم أن للغنى سكرة ، وأن للمال نزوة ، فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله ، فعبتمونى بذلك وقد قال زيد بن جَبَلة ليس أحد أقصر عقلا من غنىٍّ أمِنَ الفقر ، وسكر الغنى أشد من سكر الخمر . وقلتم قد لزم الحث على الحقوق ، والتزهيد فى الفضول ، حتى صار يستعمل ذلك فى أشعاره بعد رسائله ، وفى خطبه بعد سائر كلامه ؛ فمن ذلك قوله فى يحيى بن خالد :

---

(١) صناع حاذقة .

عدو تِلاد المال فيما ينوبه منوع إذا ما منعه كان أحزما

ومن ذلك قوله فى محمد بن زياد :

وخليقتان تُقًى وفضل تحرّم وإهانة فى حقه للمال

« وعبتمونى حين زعمت أنى أقدم المال على العلم ، لأن المال به يغاث العالم ، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم ، وأن الأصل أحق بالتفضيل من الفرع ، وأنى قلت وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس ، فإنا بالكفاية نستبين ، وبالخلة نعمى ؛ وقلتم كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ، ومقدم الأدباء ، العلماء أفضل أم الأغنياء ؟ قال بل العلماء . قيل فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء ، أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى ، ولجهل الأغنياء بفضل العلم . فقلت : حالهما هى القاضية بينهما ، وكيف يستوى شىء ترى حاجة الجميع إليه ، وشىء يغنى فيه بعضهم عن بعض ؟

« وعبتمونى حين قلت إن فضل الغنى على القوت ، إنما هو كفضل الآلة تكون فى الدار ، إن احتيج إليها استعملت ، وإن استغنى عنها كانت عدة . وقد قال الحصين بن المنذر : وددت أن لى مثل أُحد ذهباً ، لا أنتفع منه بشىء . قيل فما ينفعك من ذلك ؟ قال : لكثرة من يخدمنى عليه . وقال أيضاً : عليك بطلب الغنى ، فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عزّ فى قلبك ، وشبهة فى قلب غيرك ، لكان الحظ فيه جسيماً ، والنفع به عظيماً » .

وختم كتابه فى أنه لن يبدل من خلقه فى الشح ، وفى الدعوة إلى تزيينه للناس ، وأورد جملاً لجماعة من المشهورين بالعقل ، وذكّر جماعته فى ختام حديثه بما يجب عليهم قبل أن يذكروا مالهم وذلك بقوله :

« ولسنا نَدَعُ سيرة الأنبياء ، وتعليم الخلفاء ، وتأديب الحكماء ، لأصحاب الأهواء . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدجاج . وقال : درهمك لمعاشك ، ودينك لمعادك . فقسموا الأمور كلها على الدين والدنيا ، ثم اجعلوا أحد قسمى الجميع الدرهم . وقال أبو بكر الصديق رحمه الله : إنى لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام فى اليوم الواحد ، وكانوا يبغضون أهل البيت اللَّحِمين [١] . وكان هشام يقول : ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً . ونهى أبو الأسود الدؤلى ، وكان حكيماً أديباً ، وداهياً أريباً ، عن جودكم هذا المولّد ، وعن كرمكم هذا المستحدث . فقال لابنه : إذا بسط الله لك فى الرزق فابسط ، وإذا قبض فاقبض ، ولا تجاود الله ، فإن الله أجود منك . وقال : درهم من حِلٍّ يخرج فى حقٍ خير من عشرة آلاف قَبَضًا [٢] . وتلقّط عُرُنْدا [٣] من بَريم فقال : تضيعون مثل هذا وهو قوت امرئ مسلم يومًا إلى الليل . وتلقط أبو الدرداء حبات حنطة ، فنهاه بعض المسرفين فقال : « إيهٍ ابنَ العبسية إن مرفقة المرء رفقه فى معيشته » . فلستم علىَّ تردون ولا رأيى تفندون ؛ فقدموا النظر قبل العزم ، وتذكروا ما عليكم قبل أن تذكروا ما لكم والسلام اه » .

خاتمة :

و بعد فهذه صفات سهل بن هارون ، وهذا نثره ، بل هذا فكره وعقله ؛ تعرفنا على الجملة بالقليل المأثور عنه ، طريقته وحقيقته ، وعلمنا كيف يبالغ فى

---

(١) الذين يكثرون أكل اللحم . (٢) مال الغنيمة قبل أن يقسم .

(٣) الجملة محرفة ولعل العبارة « عرما من ثرتم » العرم : بقية القدر ، والثرتم : كقنفذ ما فضل من الطعام والإدام فى الإناء والقصعة .

تنوّق كرائم ألفاظه ، و يسلكها فى سلكه ، و يرصعها فى عقوده ، فتجىء جزالة من دون تعمل ، وسلاسة من غير ما تبذل ، ونمطاً عالياً من السهل الممتنع ، يتدفق حكمة ، و يسيل بياناً .

سهل بن هارون أحد أفراد قلائل ، زانوا بما صاغوا من الكلام أدب العرب ، واختطوا لمن بعدهم خطط التفكير والتصوير على النمط الفارسى العربى ، وكلامه فى بابه لباب البلاغة ، ومثال الفصاحة ، لا تَبلى جِدَّته على وجه الأيام ، ولا يحتاج فى الحكم عليه إلى محكمة نقض و إبرام .

عمرو بن مسعدة

عصره :

من أجمل عصور الأمة العربية ، عصر المأمون العباسى ، كان السلطان الأكبر فيه للعقل ؛ وقلَّ المتوثبون على الخلافة ، والعابثون بأهواء الناس ، وانصرفت الأمة إلى شؤونها فى ظل السلام ، فزادت سعادتها ، وشملتها الرفاهية والهناء ؛ نظر المأمون فى ماضى الملة وحاضرها ، فرأى أن من أعظم ما يكدر شرعة سياستها ، طموح آل البيت إلى الخلافة منذ أوائل العهد الأموى ، يهتبلون الغرة للاستيلاء على زمام الأمر ، فيضطرب كل بلد نجم فيه ناجم منهم .

وكان آل أمير المؤمنين على بن أبى طالب منذ عهد المنصور ومن بعده يتوجسون خيفة من قوة العباسيين ، فيستَخْفُون و يبتعدون عن الناس ، فخفيت بعزلتهم عن العوام حقيقة أمورهم ، وظنوا فيهم ما يظنونه بالأنبياء ، وأنشأوا يتفوهون فى صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالى ، فنظر المأمون فى هذا الأمر نظراً بليغاً وقال : لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم ، لسقطوا من أعينهم ، ولانقلب شكرهم لهم ذمًّا . ثم قال : إذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءاً ، و إنما الرأى أن نقدم أحدهم و يظهر لهم إمام ، فاذا رأوا هذا أنسوا وظهروا ، وأظهروا ما عندهم من حركات الآدميين ، فيتحقق للعوام حالهم ، وما هم عليه مما خفى بالاختفاء .

واستشار المأمون خاصته فأشاروا عليه بعلى بن موسى الرضا ، فعقد له

ولاية العهد من بعده ، « لما رأى من فضله البارع ، وعلمه الناصع ، وورعه الظاهر ، وزهده الخالص ، وتخليه عن الدنيا » ولقبه الرضا من آل محمد ، وساوى بين آل على وآل هاشم ، غاضًّا الطرف عن شكاية بنى العباس . وكانوا قد بلغ عددهم لعهده ثلاثة وثلاثين ألف إنسان . وبذلك استقرت الحال ، وكفيت المملكة شر الغوائل الداخلية .

تجلى عقل المأمون فى هذه الطريقة الجديدة ، بيد أن عمله لم يرض عنه الشيعة ولا السنة : الشيعة لا يرضيهم إلا القبض مباشرة على قياد الأمر ، وإزالة كل مُلك إلا لشيعتهم ، والقضاء على كل خليفة وخلافة ؛ والسُّنة لأنه عهد بولاية العهد إلى أمثل رجل علوى فى عصره ، فحاذروا أن تخرج الخلافة عنهم ، وتهامسوا بشيعية المأمون ، وهو فوق ما تصوروا وقدروا ، اتخذ خصومه من هذا العمل حجة لإفضاء الخلافة إليهم ، فأبدوا نواجذ الشر ولكنهم لم يفلحوا .

أما صلات المأمون مع الدول المجاورة فكانت حسنة فى الجملة ، خصوصاً مع صاحب الروم ، ومملكة هذا ظلت فى ذاك العصر على شىء من التماسك والقوة أمام سلطان العرب ، بيد أن كلمة المأمون كانت هى العليا فى فض كل خلاف يعبث بحقوق الجوار ، ويشوه وجه السلام الجميل . كتب توفيل ابن ميخائيل صاحب الروم مع وزيره يطلب من المأمون الصلح وعرض الفدية ، ومما قال فى كتابه : وقد كنتُ كتبتُ إليك داعياً إلى المسالمة ، راغباً فى فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كل واحد لكل واحد وليًّا وحزباً ، مع اتصال المرافق ، والفسح فى المتاجر ، وفك المستأسر ، وأمن الطرق والبيضة » فكتب إليه المأمون يهدده برجاله : « الذين يتقربون إلى الله بدماء الروم ، وهم أظمأ إلى ورود المنايا منهم إلى السلامة » ، جاء فى آخره « غير أنى رأيت

أن أتقدم إليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك ، إلى الوحدانية والشريعة الحنيفة ، فان أبيت ففدية توجب ذمة » .

ومن دعوة المأمون ملك الروم إلى الإسلام تفهم عزة الأمة فى عصره ، ثم حدثت أحداث فى بعض بلاد الشرق وديار مضر وربيعة واليمن ، فأطفئت نائرتها ولم تتعد الأرض التى انبعثت شرارتها منها ؛ قال لهمدانى : « وقد كانت للخلفاء فتوح ، ولكنه لم يتسق لأحد ما اتسق للمأمون وعبد الملك بن مروان والمعتصم بالله ، إلا أن فتوح المأمون وعبد الملك كانت لمن قصد إلى ملكهما ، فبلغا فى ذلك ما لم يبلغه أحد فى الإسلام من الملوك » ومن يختار كالخليفة المأمون لحماية البيضة وقيام الدولة أمثال طاهر بن الحسين ، وعبد الله بن طاهر ، وهرثمة ابن أعين ، والفضل بن سهل ، وسهل بن هارون ، وعمرو بن مسعدة إلى غيرهم من القواد والوزراء والكتاب والعمال ، لا يلقى عمله غير النجاح ، ولا يعترى سلطانه ضعف ووهن .

أتم المأمون ما بدأ به جده المنصور وأبوه الرشيد من ترجمة كتب الأوائل ، واستجادة مهرة التراجمة لنقل الكتب التى أخذها من الروم ، وندب ابن البطريق إلى الروم ليأتيه بكتاب السياسة لأرسطو الذى ألفه للإسكندر ، وكان مكتوباً بالذهب المحلول ، فى رق مصبوغ بالفرفير ، منقوطاً بالفضة البيضاء المحلولة ، فرجع إلى الحضرة ظافراً بالمراد ، وسعى ، كما قال بعون الله و بسعد أمير المؤمنين وَجَده ، فى ترجمته ونقله من اللسان اليونانى إلى اللسان العربى .

وكان الرشيد بدأ بترجمة الكتب الطبية القديمة التى وجدها بأنقرة وعَمُّورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها ؛ ولما ولى المأمون الخلافة أتم ما كان شرع فيه أبوه ، فأخذ يغدق صلاته على المترجمين والفلاسفة ، وربى المأمون بنى شاكر

محمدا وأحمد والحسن حتى صاروا علماء ، فحققوا طول محيط الأرض ، وكانوا يرزقون النقلة نحو خمسمائة دينار فى الشهر ، وكان دَخل محمد وحده أربعمائة ألف دينار .

وجمع المأمون بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التى نسبت إليه ، ودُعيت الصورة المأمونية ، صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ، ومساكن الأمم والمدن إلى غير ذلك ؛ وقد وضع له علماء رسم الأرض ، وكانوا سبعين رجلاً ، كتاباً فى الجغرافيا أعان عمال الدولة على التعرف إلى البلاد والأمم التى أظلتها الراية العباسية .

وسأل المأمون ملك الروم صلته بما لديه من كتب الفلاسفة ، فبعث إليه منها بما حضره من كتب أفلاطون وأرسطو وأبقراط وجالينوس وأقليدس وبطلميوس وغيرهم من الفلاسفة ، فترجمت له وحضّ الناسَ على قراءتها ، ورغبهم فى تعلمها ، فنفقت سوق العلم فى زمانه ، وتنافس أولو النباهة فى العلوم ، لما كانوا يرون من إحظائه لمنتحليها ، وكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب .

وازدان عصر المأمون بكثير من حملة الشريعة والأدب ، وكان الشعراء والكتاب طبقة عالية كثيرة العدد والحصى ، جيدة المنحى والأسلوب ، تأثروا كلهم بالحضارة الجديدة حتى غدا الشعر الإسلامى ظاهر الاختلاف عن الشعر الجاهلى ، بعيداً عن وصف الأطلال والدمن والركاب ، وطلب الثأر والمفاخرات ، والجمهور يشارك الأدباء فى فهم الشعر ، ويقدر الخطب والرسائل قدرها ، ولم يكن الشعراء فى وادٍ والأمة فى آخر ؛ بل كان الشاعر أو الكاتب إذا قرض شعراً

أو حبر خطاباً تتناقله الأيدى فى الحال ، وتتعاوره الرواة فيفشو فى الأمصار ، وهذا ما كان يزيد فى طُلاوة أدب الأديب ، وشعر الشاعر ، وخطبة الخطيب .

أعمال الكبير كبيرة ، والمأمون العظيم بأعماله وأقواله كان خليفة المسلمين بكل ما فى لفظ الخلافة من معنى شريف ، يجمع مصالح الدين والدنيا ؛ كان رحمه الله يفكر منذ عهد بعيد فى خلق القرآن حتى اعتقد أن كل من لم يقل بقوله ضالٌّ ، فوضع هذا المبحث موضع المناقشة بين العلماء ، فقال السواد الأعظم بقوله ، وأبى بعضهم تورعاً أن يوافقوه على أن القرآن مخلوق ، فطلبهم للبحث ، وكان فى مصيفه فى الرَّقة ، وكتب إلى عامله فى بغداد أن يمتحن القضاة والمحدثين و يكشفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن و إحداثه ، وقال له : « وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته ، بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده و يقينه » و « أنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق » وأمر أيضاً بأن يكتب إلى الآفاق بذلك ؛ وقد أحدث هذا الرأى ضجة فى الأمة شأن كل فكر جديد ينقسم فيه الناس إلى مثبت ونافٍ ، ودل بعض الممتنعين عن التصريح بما لا يعتقدونه على الأخذ بالاحتياط فى دينهم ، فأوذى بعضهم وما أراد المأمون أذاهم ، وقبض إلى ربه و بعض الذين توقفوا عن التصريح بما أُريدوا على البيان فيه قِيد السجن ، فاتخذ أعداؤه من ذلك سبيلا إلى النيل منه ، وسموا ذلك المحنة ؛ وفى هذا العصر الزاهر نشأ عمرو بن مسعدة .

أصله وحليته ونشأته

هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صُول بن صُول ، وصُول كان رجلا تركيًّا وكان مُلِّك وأخوه فيروز على جرجان ، وتمجسا بعد التركية ، وتشبها بالفرس ،

وصول لقب ملوك دهستان ، كان يطلق عليهم كما يطلق شاهنشاه وكسرى على ملوك الفرس الساسانية .

ولما وافى يزيد بن المهلب بن أبى صُفرة فى ولاية سليمان بن عبد الملك ابن مروان جرجان أَمَّن الأخوين ، فأسلم صُول على يده ، وغدا محمد بن صول من رجال الدولة العباسية ودعاتها بعد ذلك . وكان بعض أهليهم ادعوا أنهم عرب ، وأن العباس بن الأحنف الشاعر خالهم . وقيل إن أبا الفضل عمرو بن مسعدة هو مولى خالد القسرى ، وقيل بل كان مسعدة والد عمرو مولى خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق ، وكان يكتب له ، وكتب لخالد بن برمك ، ثم كتب بعده لأبى أيوب وزير المنصور على ديوان الرسائل .

وكان لمسعدة أربعة بنين : مجاشع ومسعود وعمرو ومحمد ؛ ومجاشع هو الذى يقول فيه أبو العتاهية :

علمت يا مجاشع بن مسعدة أن الشباب والفراغ والجدة
مَفسَدة للمرء أى مَفسدة

عمل الكاتب ابن الكاتب عمرو بن مسعدة للدولة ، فظهرت كفايته وبلاغته ، فعدَّ أحد أفراد قلائل فى رجال الخليفة . قال أحمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوماً على المأمون وبيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويُصعد فيه ويصوب ، فلما مرت على ذلك مدة من زمانه التفتَ إلىَّ وقال : يا أحمد أراك مفكراً فيما تراه منى ، قلت : نعم ، فقال : إن فى هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت الرشيد يقول فى البلاغة ، زعم أن البلاغة إنما هى التباعد عن الإطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى ، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على ذلك ، وقال : هذا كتاب عمرو

ابن مسعدة إلينا ، ففككته فإذا فيه : « كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومن قِبَلى من قواده ، ورؤساء أجناده ، فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت[1] أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت[2] معه أمورهم » . فلما قرأته قال : إن استحسانى إياه بعثنى أن أمرت للجند قِبَله بأعطياتهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه مَنْ حلَّ محله فى صناعته . وفى رواية أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر ، وأنه قال لأحمد بن يوسف : لله در عمرو ما أبلغه ، ألا ترى إلى إدماجه المسألة فى الإخبار ، وإعفائه سلطانه عن الإكثار .

وكان عمرو بن مسعدة ، وكنيته أبو الفضل ، أبيض أحمر الوجه ، وكان المأمون يسميه الرومى لبياض وجهه ، وكان يخضب ، وتوفى بأَذَنَةَ سنة سبع عشرة ومائتين ؛ ولم نعرف منشأه ومولده وأساتيذه ، وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم تربيتهم حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة ، التى كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون ، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويخلوان معه ويمازحانه ؛ ولكى يصل الرجل إلى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم فى كل شؤونه يجب أن ينطوى على صفات عالية يعزُّ مثلها فى الأقران والأتراب ؛ وفى تاريخ بغداد أنه روى الحديث عن جماعة ، ووصفوه بأنه الكاتب الرسائلى ، وأنه كان يقول الشعر بفضل أدبه .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أُوقع بين يدى جعفر بن يحيى البرمكى فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه فى رواتبهم فرمى بها إلىَّ وقال : أجب عنها ، فكتبت :

---

(١) العطاء ويمد ، مايعطى كالعطية ج أعطية جج أعطيات ، وتراخت تقاعست وتأخرت

(٢) الالتياث الاختلاط .

« قليل دائم خير من كثير منقطع » فضرب بيده على ظهرى وقال : أىَ وزير فى جلدك . وقد شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان فى عصره ، ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه : إنه أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله ، فإذا رامه بَعُدَ عليه . وهذا كما قيل لأحد البلغاء : ما حدُّ البلاغة ؟ فقال : التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها ، فإذا رامها استصعبت عليه .

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف فى موضوع خاص ، وأفرد مسألة فى التأليف ، وإن قالوا إن له رسائل وأقوالا . وعده ابن النديم فى الشعراء الكتاب ، ولم يذكر إلا أن له ولأخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر ؛ والغالب أن مهام الدولة لم تترك له وقتاً يصرفه فى درس خاص ، أو وضع كتاب أو رسالة ، وما تلقطه العلماء والأدباء من كلامه هو مما رواه له المعجبون به ، وما أعظم المفقود منه . والمظنون أن لو كانت جمعت له رسائله على إيجازها لكان منها ديوان كبير ، لأنه صرف أعواماً طويلة وهو قابض على يراعته يعالج بها الموضوعات المهمة فى ذاك المجتمع العظيم .

وأفادنا ابن عساكر أن عمرو بن مسعدة زار دمشق مع المأمون ، وأنه من رجال الحديث فأسند حديثاً عن المأمون فى سندٍ ذكره عن عمرو بن مسعدة ، قال : سمعت المأمون أمير المؤمنين يقول : حدثنى أبى عن أبيه عن عمه عبد الصمد ابن على بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علقوا السوط حيث يراه أهل البيت فإنه أدب لهم » ؛ وفى الأمثال: « علق سوطك حيث يراه أهلك » ، والمعنى اجعل نفسك بحيث يهابك أهلك ، ولا تغفل عنهم وعن تخويفهم وردعهم .

ولم نعلم نوع الدراسة التى انصرفت إليها همة عمرو بن مسعدة فى صباه حتى بلغت به البلاغة ذاك المقام ، بيد أن ظواهر الحال تدل كل الدلالة على أن من كان هذا شأنه من الكتابة فى ذاك العصر الزاهى بمن يشار إليهم بالبنان فى البيان ، يستحيل أن يبلغ هذا المبلغ إلا بأدوات كثيرة ، بل لا يتأتى له ذلك إلا بجميع أدوات البيان والشريعة ، يجمعها إلى ما خُصت به فطرته من سلامة الطبع وجودة الإبداع ، وفوق ذلك لا بدَّ له من التخرج بهذه الصناعة أعواماً طويلة ، وصحف التاريخ لم تعرفنا عمرو بن مسعدة إلا أنه تام الأدوات ، كأن بلاغته مما ارتجل ارتجالاً ، أو مما وهبته له الفطرة عرضاً ؛ وصرف عمرو أيام حياته على ما يظهر بالتصرف ، جعل نفسه وقفاً على مهام الخلافة ، فأقبلت عليه الدنيا إقبالا عظيماً ، فنعم ولذّ واغتبط ، وقصده القاصدون ، وطابت نفسه باصطناعهم والإحسان إليهم ، وعطف على العفاة والقصاد فاستكثر من الأنصار ، وانبسطت نفسه ويده بالعطاء ، فتعشقته نفوس الناس وأهل الدولة ؛ والخليفة من وراء ذلك يمده ، ويطلق يده فى المال والنوال ؛ ومن جعل وُكده فى هذه الأعمال يتعذر عليه أن ينقطع إلى نفسه أياماً يصرفها فى عمل يخلد به ذكره ، ويعم القاصى والدانى والحاضر والمقبل نفعه ، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

واختلفوا فى كون عمرو بن مسعدة ولى الوزارة أو لم يتولها ، فقال ياقوت : سماه بعض الشعراء وزيراً لعظم منزلته لا لأنه كان وزيراً . وقال المسعودى : إن المأمون استوزر الفضل بن سهل ثم أخاه الحسن بن سهل ، فلما أظهر العجز عن الخدمة لعوارض من العلل ولزم منزله ، عدل المأمون إلى استكتاب كُتَّاب لعلمه بكتابتهم وجزالتهم ، وأنه ليس فى عصرهم من يوازيهم ولا يدانيهم ، فاستوزرهم واحداً بعد واحد أولهم أحمد بن أبى خالد ، ثم أحمد بن يوسف ، ثم أبو عباد

ثابت بن يحيى ، وعمرو بن مسعدة بن صُول ، وكان يجرى مجراهم ولا يعده كثير من الناس فى الوزراء ، قال : ولم يكن يسمى بين يدى المأمون أحد من كتابه وزيراً ، ولا يكاتب بذلك ، فلأجل هذا ترك كثير من الناس أن يعد من ذكرنا فى الوزراء . ومهما كان فالرتبة التى بلغها عمرو بن مسعدة وزارة وزيادة ، وكان إليه ديوان الرسائل وديوان الخاتم والتوقيع والأزِمَّة ، وسواء تقلد الوزارة أم لم يتقلدها فإن العظائم التى كان يندب إليها تدل على درجة الثقة به .

شىء من كلامه :

ومن كلام عمرو بن مسعدة : أعظم الناس أجراً ، وأنبههم ذكراً ، من لم يرض بموت العدل فى دولته ، و (يتوخَّى) ظهور الحجة فى سلطانه ، و إيصال المنافع إلى رعيته فى حياته . وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق فى أيامه ، و بعد وفاته وانقراضه . وقال : الخط صور الكتب ترد إليها أرواحها . وكان يقول : الخط صورة جميلة لها معان جليلة ، ور بما ضاق عن العيون ، وقد ملأ أحظار الفنون .

ونسب إليه : لا تصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك ، أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائد علمه ، ومن كانت غايته الاحتيال على مالك و إطراءك فى وجهك ، فإن هذا لا يكون إلا ردىء الغيب ، سريعاً إلى الذم .

وكتب إلى الحسن بن سهل : أما بعد فإنك ممن إذا غرس سقى ، و إذا أسس بنى ، ليستتم تشييد أسه ، ويجتنى ثمار غرسه ، وثناؤك عندى قد شارف الدروس ، وغرسك مشفٍ على اليبوس ، فتدارك بناءَ ما أسست ، وسقْىَ ما غرست ؛ إن شاء الله .

وكتب إلى بعض أصحابه فى شخص يعزُّ عليه : أما بعد فوصل كتابى إليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُديرونني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

أى يحل منى هذا المحل .

وكتب إلى المأمون فى رجل من بنى ضَبة يستشفع له بالزيادة فى منزلته وجعل كتابه تعريضاً : « أما بعد فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين لتطوّلك علىّ ، فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام » ، فكتب إليه المأمون : قد عرفنا توطئتك له ، وتعريضك لنفسك ، وأجبناك إليهما ، ووافقناك عليهما اهـ . وقوله : « إن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته » من الكلام السَّرِىّ الذى يدل على مبلغ أدب عمرو ، وبعد غوره فى السياسة ، ووقوفه على نفسية الخلفاء .

قدم رجل من أبناء دهاقين[1] قريش على المأمون لعِدَة سلفت منه ، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تُوصل منى رقعة إلى أمير المؤمنين تكون أنت الذى تكتبها تكن لك علىّ نعمتان . فكتب : « إن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من ربقة المطل بقضاء حاجته ، أو يأذن له بالانصراف إلى بلده فعل إن شاء الله » . فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً ، فجعل يعجب من حسن لفظها ، وإيجاز المراد . فقال عمرو : فما نتيجتها يا أمير المؤمنين . قال : الكتاب له فى هذا الوقت بما وعدناه ، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة مائة ألف درهم ، صلة عن دناءة المطل ، وسماجة الإغفال .

وكتب عمرو بن مسعدة عن المأمون إلى أحد الخوارج عليه ، نصر بن شبث : أما بعد فإنك يا نصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزّها ، وبرد ظلها ، وطيب

(١) الدهاقين الزعماء أرباب الأملاك بالسواد واحدهم دهقان بكسر الدال معرب .

مرتعها ، وما فى خلافها من الندم والخسار ، و إن طالت مدة الله بك ، فإنه إنما يُملى لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه لتقع عِبَرُه بأهلها على قدر إصرارهم واستحثاثهم ، وقد رأيت إذكارك وتبصيرك لما رجوت بما أكتب به إليك موقعاً منك ، فإن الصدق صدق ، والباطل باطل ؛ و إنما القول بمخارجه و بأهله الذين يُعنون به ، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك فى مالك ودينك ونفسك ، ولا أحرص على استنقاذك والانتياش لك من خطائك منى . فبأى أول أو آخر أو واسطة أو إمرة ، إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين تأخذ أمواله ، وتتولى دونه ما ولاه الله ، وتريد أن تبيت آمناً أو مطمئنا أو وادعاً أو ساكناً أو هادئاً ؛ فوعالم السر والجهر ، لئن لم تكن للطاعة مراجعاً ، و بها خانعاً ، لتستوبلنّ وَخَم العاقبة ، ثم لأَبْدَأَنّ بك قبل كل عمل ، فإن قرون الشيطان إذا لم تُقطع كانت فى الأرض فتنة وفساداً كبيراً ، ولأطأن بمن معى من أنصار الدولة كواهل الرعاع أصحابك ، ومن تأشب إليك من أدانى البلدان وأقاصيها ، وطغامها وأوباشها ، ومن انضوى إلى حوزتك من خُرّاب الناس ، ومن لفظه بلده ونفته عشيرته ، لسوء موضعه فيهم ، وقد أعذر من أنذر والسلام .

ومن حكم عمرو بن مسعدة : العبودية عبودية الإخاء ، لا عبودية الرق . الود أعطف من الرحم . إن الكريم ليرعى من المعرفة ما رعى الوصل من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينة فى الرخاء ، وعُدة للبلاء . النفس بالصديق آنس منها بالعشيق ، وغزل المودة أرق من غزل الصبابة . من حقوق المودة عفو الإخوان ، والإغضاء عن تقصير إن كان . ذكر رجل رجلاً فقال : حسبك أنه خُلق كما تشتهى إخوانه . المودة قرابة مستفادة . ما تواصل اثنان فدام تواصلهما إلا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرع الأشياء انقطاعاً مودة الأشرار . المحروم

من حرم صالحى الإخوان . لقاء الخليل ، شفاء الغليل . قلة الزيارة ، أمان من الملالة . إخوان السوء كشجر (فى) النار يحرق بعضه بعضاً . علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب ولا يبتدئ بالكتاب . لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأنس أثمرت مودته ندماً . إذا قُدمت الحرمة ، تشبهت بالقرابة . العتاب حياة المودة . ظاهر العتاب خير من باطن الحقد . ما أكثر من يعاتب لطلب علة . ويبقى الود ما بقى العتاب . كمون الحقد فى الفؤاد ، ككمون النار فى الزناد . القريب بعيد بعداوته ، والبعيد قريب بمودته . لا تأمنن عدوك وإن كان مقهوراً ، واحذره وإن كان مفقوداً ، فإن حد السيف فيه وإن كان مغموداً . لا تتعرض لعدوك فى دولته ، فإنها إذا زالت كفتك مؤونته . نصح الصديق تأديب ، ونصح العدو تأنيب .

روى البيهقى قال : أخبرنا بعض أصحابنا قال : شهدت المأمون يوماً وقد خرج من باب البستان ببغداد ، فصاح به رجل بصرىّ : يا أمير المؤمنين إنى تزوجت بامرأة من آل زياد ، وأن أبا الرازى فرّق بيننا ، وقال هى امرأة من قريش ، قال : فأمر عمرو بن مسعدة ، فكتب إلى أبى الرازى : إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادية وخلعك إياها إذ كانت من قريش ، فمتى تحاكمت إليك العرب لا أُمَّ لك فى أنسابها ، ومتى وكلتك قريش يا ابن اللخناء[1] بأن تلصق بها من ليس منها ، فخلّ بين الرجل وامرأته ، فلئن كان زياد من قريش إنه لابن سُمَيّةَ بغىٍ عاهرةٍ ، لا يُفتخر بقرابتها ولا يتطاول بولادتها ، ولئن كان ابن عُبيد لقد باء بأمر عظيم ، إذ ادعى إلى غير أبيه ، لحظٍّ تعجله ومُلك بهره اه . وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرجل عناية به إلى

(١) اللخناء الأمة المنتنة المغابن .

بعض العمال فى قضاء حقه ، وأن يختصر كتابه ما أمكنه حتى يكون ما يكتب به فى سطر واحد لا زيادة عليه ، فكتب عمرو : كتابى كتاب واثق بمن كتب إليه ، معنىّ بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله .

وكتب إلى الحسن بن سهل : أما بعد ، فإن هبةَ الله لك هبة لأمير المؤمنين ، وزيادته إياك فى عدده لمحلك عنده ومكانك من دولته ؛ وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاماً سريّا ، فبارك الله لك فيه ، وجعله بارًّا تقيًّا ، مباركاً سعيداً زكيًّا .

ومن كتاب : وصل إلىَّ كتابك ، على ظمإ منى إليه ، وتطلع شديد ، وبعد عهد بعيد ، ولوم منى على ما مستنى به من جفائك ، على كثرة ما تابعت من الكتب ، وعدمت من الجواب ، فكان أول ما سبق إلىَّ من كتابك السرور بالنظر إليه ، أُنساً بما تجدد لى من رأيك فى المواصلة بالمكاتبة ، ثم تضاعف المسرّة ، بخبر السلامة ، وعلم الحال فى الهيئة ، ورأيتك بما تظاهرتَ من الاحتجاج ، فى ترك الكتاب ، سالكاً سبيل التخلص مما أنا مخلصكَ منه ، بالإغضاء عن إلزامك الحجة ، فى ترك الابتداء والإجابة ، وذكرت شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكّنة ، لا أجشمك متابعة الكتب ، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب ، ويقنعنى منك فى كل شهر كتاب ، ولن تلزم نفسك فى البر قليلاً ، إلا ألزمت نفسى عنه كثيراً ، وإن كنت لا أستكثر شيئاً منك ، أدام الله مودتك وثبت إخاءك ، واستماح لى منك ، فرأيك فى متابعة الكتب ومحادثتى فيها يخبرك موفقاً إن شاء الله .

وقال عن نفسه أنه كتب إلى عامل دَسْتَبى كتاباً أطاله ، فأخذه المأمون بيده وكتب : « قد كثر شاكوك فإما عدلت ، وإما اعتزلت » ؛ فبالإيجاز

فاز ابن مسعدة بجائزة البلاغة ، والإيجاز فى اصطلاح علماء البيان هو اندراج المعانى المتكاثرة تحت اللفظ القليل ، فرب لفظ قليل ، يدل على معنى كثير ، وكم من لفظ كثير ، يدل على معنى قليل ، ومثال ذلك الجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة ، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها ، ومن ينظر إلى شرف المعانى يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها ؛ والبلاغة كما قال أرسطاطاليس أن تجعل فى المعنى الكثير كلاماً قليلاً ، وفى القليل كلاماً كثيراً ، وهذه البلاغة الموجزة يلمسها المرء فى كلام هذا الذى فتن نظراءه بفنه .

لا تجد فى كلام عمرو شيئاً من الوحشىّ ولا السوقىّ ، فألفاظه تتفهمها عامة طبقات القارئين والسامعين ؛ أما تركيبه ونسجه فهو أيسر تركيب يجرى مع الطبع ، كأنه فى إيراده يتكلم كلامه المعتاد معرباً ويسطره فى الورق ، نعم وهناك صعوبة فى تحدّيه فى جوامع كلمه . الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة قد تنتقل فى الأيدى ويعجب بها ناظروها ، ويفاخر بها مالكوها ، ولكن متى وصلت إلى أيدى الصائغ الحاذق والجهبذ النقاد ، تزيد بهاءً ورُواءً ، ويتجلى فيها فكر الآفق المفنن ، فالسبك الحسن فى كلام عمرو هو الذى تفرد فيه ، ولما رأى أنه أبدع فنه زاد فى تجويده ، لانقطاعه معظم حياته إلى الخدمة ، والسياسى من جملة خصائصه أن يوجز ويجمجم أحياناً ، ويعرّض لئلا يؤخذ بإقراره وتؤول له عباراته ، وعمرو نبغ فى هذه الطريقة .

ذكر المترجمون له أنه كان له فرس أدهم أغر ، لم يكن لأحد مثله فراهةً وحسناً ، فبلغ المأمون خبره وبلغ عمرو بن مسعدة ذلك ، فخاف أن يأمر بقوده إليه فلا يكون له فيه محمدة ، فوجه به إليه هدية وكتب معه :

يا إماماً لا يدا نيه إذا عدّ إمام

فضل الناسَ كما يفـ ضل نقصاناً تمـام
قد بعثنـا بجواد مثـله ليس يرام
فرس يُزْهَى به للـ ـحسن سرج ولجام
دونه الخيل كما دونـ ـك فى الفضل الأنام
وجهه صبيح ولـكن سائر الجسم ظلام
والذى يصلح للمو لى على العبـد حرام

يقول الثعالبى إنه لم يكن فى الأكاسرة بعد أزدشير الذى له فضيلة السبق أعدل من أنوشروان ، ولذلك ضرب المثل به فى العدل من بينهم ؛ فأما سائر الأكاسرة ، فإنهم كانوا ظلمة فجرة يستعبدون الأحرار ويجرون الرعايا مجرى الأجراء والعبيد والإماء ، فلا يقيمون لهم وزناً ، ويستأثرون عليهم حتى بأطايب الأطعمة والثياب الحسنة والمراكب ، والنساء الحسان ، والدور السرية ، ومحاسن الآداب ، فلا يجترئ أحد من الرعايا أن يطبخ سكباجاً ، ويلبس ديباجاً ، أو يركب هملاجاً ، أو ينكح امرأة حسناء ، أو يبنى داراً قوراء ، أو يؤدب ولده ، أو يمد إلى مروءة يده ؛ وكانوا يبنون أمورهم على معنى قول عمرو بن مسعدة للمأمون — ملك ما يصلح للمولى على العبد حرام — إلا أنهم كانوا يحبون العمارة أشد الحب ، ويرونها قوام الدين والملك ، ولا يقارّون أحداً على الإخلال بها والتقصير فيها . وعمرو هو القائل :

ومستعذبٍ للهجر والوصل أعذب أُكاتمه حُبى فينأى وأقرب
إذا جدتُ منى بالرضا جاد بالجفا ويزعم أنى مذنب وهو أذنب
تعلمت ألوان[1] الرضا خوف هجره وعلمه حبى له كيف يغضب

(١) فى رواية أبواب بدل ألوان .

ولى غير وجه قد عرفت طريقه ولـكن بلا قلب إلى أين أذهب

قالوا وهذان البيتان الأخيران متنازَعان ؛ على أن محمد بن عمرو بن مسعدة ذكر أن أباه لم يقل من الشعر شيئاً إلا بيتاً واحداً ، فوقّع فى ظهر رقعة لرجل :

أعزز علىّ بأمر أنت طالبه لم يمكن النجح فيه وانقضى أمده

عظم أخلاقه :

ذكروا أن شقيقه مجاشع بن مسعدة كان صديقاً لأبى العتاهية الشاعر ، يقوم بحوائجه كلها ، ويخلص مودته ، فمات ، وعرضت لأبى العتاهية حاجة إلى أخيه عمرو بن مسعدة فتباطأ فيها ، فكتب إليه أبو العتاهية :

غَنيت عن العهد القديم غَنيتا وضيعت ودًّا بيننا ونَسيتا

ومن عجب الأيام أن مات مألفى ومن كنت تغشانى به و بقيتا

فقال عمرو : استطال أبو إسحق أعمارنا وتوعدنا ، ما بعد هـذا خير ، ثم قضى حاجته .

ومرّ عمرو بن مسعدة مرة بأبى العتاهية وهو جالس على الطريق ، فوقف عليه يسأل عن حاله ، فما قام ولا رفع إليه رأسه وهو يقول :

أقعدنى اليأس منك فما أرفع رأسى إليك من كسلى

وهجا شقيقه مجاشع حمادَ عَجرد وهو صبى حينئذ ، فشبب حماد بأمه ، فبلغ الشعر عمرو بن مسعدة ، فبعث إلى حماد بصلة ، وسأله الصفح عن أخيه ، ونال أخاه بكل مكروه ، وقال له : ثكلتك أمك أتتعرض لحماد ، وهو يثاقف[1] بشاراً و يقاومه ، والله لو قاومته لما كان لك فى ذلك فخر ، ولئن تعرضت له

(١) يثاقف يخاصم .

لينهكنك وسائر أهلك ، وليفضحنك فضيحة لا يغسلها أبداً عنا .

وبلغ العتّابى الشاعر أن عمرو بن مسعدة ذكره عند المأمون بسوء ، فقال :

قد كنت أرجو أن تكون نصيرى ... وعلى الذى يبغى علىّ ظهيرى
وطفقت آمل ما يرجى سَيْبه ... حتى رأيت تعلقى بغـــرور
فحفرت قبرك ثم قلت دفنتـه ... ونفضت كفى من ثرى المقبور
ورجعت مفترياً على الأمل الذى ... قد كان يشهد لى عليك بزور

فركب عمرو فى موكبه واعتذر إليه .

وكان بين عمرو بن مسعدة وإبراهيم بن العباس الصُّولى مودة وقرابة ، فحصل لإبراهيم ضائقة بسبب البطالة فى بعض الأوقات ، فبعث له عمرو مالاً ، فكتب إليه إبراهيم :

سأشكر عمرواً ما تراخت منيتى ... أيادى لم تُمْنَن وإن هى جلت
فتىً غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خَلتى من حيث يخفى مكانها ... فكانت قَذى عينيه حتى تجلت

وذكر دِعبل الشاعر أن عمرو بن مسعدة كان يقوم بأمر عمرو بن أبى بكر يعنى المؤملى قاضى دمشق ، وكان محمد بن داود يحمل عليه ، فقال :

لشتان بين المدعين وزارة ... وبين الوزير الحق عمرو بن مسعده
فهمّهم فى الناس أن يجبهوهم ... وهمّ أبى الفضل اصطناع ومحمده
فأسكن رب الناس عمراً جنانه ... وأسكنهم داراً من النار موصده

وممن كان عمرو يجرى عليهم الحرمازى ، وكان فى ناحيته ، فخرج عمرو إلى الشام ، وتخلف الحرمازى ببغداد لنقرس أصابه ، فقال :

أقام بأرض الشام فاختل جانبى ... ومطلبه بالشـــام غير قريب

ولا سيما فى مفلس حلف نقرس أما نقرس من مفلس بعجيب

يقولون فلان منقرس كناية عن المثرى ، و يشتق منه تنقرس فلان إذا أثرى قال المبرد وسمعوا أن هذا الداء يكون فى أهل النعمة .

ولى عمرو بن مسعدة فارس وكرمان ، فقال له بعض أصحابه : أيها الأمير لو كان الحياء يظهر سؤالاً ، لدعاك حيائى من كرمك ومن جميع أهلك إلى الإقبال علىّ بما يكثر به حسد عدوّى ، دون أن أسألك ، فقال عمرو لا تبغ ذلك بابتذالك ماء وجهك ، ونحن نغنيك عن إراقته فى عرض السؤال ، فارفع ما تريده فى رقعة يصل إليك سرًّا ، ففعل .

ولقد جرى ذكر عمرو بن مسعدة فى رسالة الحَيْدة ، وفيها وصف ما جرى من المناظرة بين عبد العزيز بن يحيى المكى ، وبين بشر بن غياث المريسى بحضرة أمير المؤمنين المأمون فى مسألة خلق القرآن جاء فيها كلام لعمرو بن مسعدة قاله لعبد العزيز بن يحيى وهو : « أيها الرجل قد حَمَلت نفسك على أمر عظيم ، و بلغت الغاية فى مكروهها ، وتعرضت لما لا قِوام لك به فى مخالفة أمير المؤمنين ، وادعيت بما لا يثبت لك به حجة على مخالفتك ، ولا لأحد غيرك ، وليس وراءك بعد الحجة عليك إلا السيف ، فانظر لنفسك وبادر أمرك ، قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الحجة ، فلا تنفعك الندامة ، ولا يقبل منك معذرة ، ولا تقال لك عثرة ، فقد رحمتك وأشفقت عليك مماهو نازل بك ، وأنا أستقيل لك أمير المؤمنين ، وأسأله الصفح عن جرمك ، وعظيم ما كان منك ، إذا أظهرت الرجوع عنه والندم على ما كان ، وآخذ لك الأمان منه والجائزة ، فإن كانت لك ظلامة أزلتها عنك ، و إن كانت لك حاجة قضيتها لك ، فإنما جلست رحمة لك مما هو نازل بك بعد ساعة إن أقمت على ما أنت عليه ، ورجوت أن يخلصك الله

تعالى على يدى من عظيم ما أوقعت نفسك فيه » .

دخل الحسن بن سهل على المأمون فقال له : كيف علمك بالمروءة قال : ما أعلم ما يريد أمير المؤمنين فأجيبه . قال : عليك بعمرو بن مسعدة قال : فوافيت عمراً وفى داره صناع وهو جالس على آجرة ينظر إليهم فقلت : إن أمير المؤمنين يأمرك أن تعلمنى المروءة . فدعا بآجرة فأجلسنى عليها وتحدثنا مليًّا ، وقد امتلأت غيظاً من تقصيره بى ثم قال : ياغلام عندك شىء يؤكل ؟ قال : فقدم طبقاً لطيفاً عليه رغيفان وثلاث سكرجات[1] فى إحداهن خل وفى الأخرى مُرّي[2] وفى الأخرى ملح فأكلنا ، وجاء الفراش فوضأنا ثم قال : إذا شئت ، فنهضت محفَظاً[3] ولم أودعه ، فقال لى : إن رأيت أن تعود إلى فى يوم مثله . فلم أذكر للمأمون شيئاً مما جرى . فلما كان فى اليوم الذى وعدنى لقياه ، سرت إليه فاستؤذن لى عليه فتلقانى على باب الدار فعانقنى ، وقبّل بين عينىّ ، وقدمنى أمامه ، ومشى خلفى ، حتى أقعدنى فى الدست[4] ، وجلس بين يدى ، وقد فرشت الدار ، وزينت بأنواع الزينة ، وأقبل يحدثنى ويتنادر[5] معى إلى أن حضر وقت الطعام ، فأمر فقدمت أطباق الفاكهة ، فأصبنا منها ؛ ونُصبت الموائد فقدم عليها أنواع الاطعمة من حارها وقارها وحلوها وحامضها ، ثم قال : أىُّ الشراب أعجب إليك ، فاقترحت عليه . وحضر الوصائف للخدمة ، فلما أردت الانصراف حمل معى جميع ما أحضر من ذهب وفضة وفرش وكسوة ، وقدّم إلى البساط فرس بمركب ثقيل فركبته ، وأمر من بحضرته من الغلمان

---

(١) السكرجة قصاع يؤكل فيها صغار .

(٢) المرى رب مملح وتقول له سلامورة .

(٣) أحفظه أغضبه فاحتفظ .

(٤) الدست صدر البيت .

(٥) تنادر علينا حدثنا بالنوادر .

الروم والوصائف حتى سعوا بين يدى وقال : عليك بهم فهم لك ، ثم قال : إذا زارك أخوك فلا تتكلف له واقتصر على ما يحضرك ، و إذا دعوته فاحتفل واحتشد ولا تدعن ممكناً ، كفعلنا بك عند زيارتك إيانا ، وفعلنا يوم دعوناك .

وما الحسن بن سهل بالذى يُعَلَّم المروءة ، وهو الوزير العظيم العاقل العالم الذى كان مثال المروءة ، زوَّج ابنته بوران من المأمون فعمل « من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله فى عصر من الأعصار ، وكان ذلك بفم الصلح ، وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه ، بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل فتحها فيقرأ ما فى الرقعة ، فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها ، سواء كان ضيعة أو ماسكاً آخر أو فرساً أو جارية أو مملوكاً ، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك و بيض العنبر » وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم . لا جرم أن فى أمر المأمون عمه بالذهاب إلى عمرو بن مسعدة يتعلم منه المروءة ما يشعر بمنزلة عمرو من الخليفة ، وأنه عظيم فى أخلاقه ، يعرف كيف يربى الناس عليها .

ذكر القاضى التنوخى أن المأمون أمر محمد بن بزوان والوزير أحمد بن أبى خالد أن يناظرا عمرو بن مسعدة فى مال الأهواز ، فناظراه فتحصل عليه ستة عشر ألف ألف درهم ، فأعلم محمد المأمون بذلك فقال له المأمون . اقبل كل حجة له وكل ادعاء وكل تعلق . قال : قد فعلت ، قال : عد لذلك فعاد ، فتعلق عمرو بأشياء لا أصل لها ، فسقطت من المال عشرة آلاف ألف ، و بقى ستة آلاف ألف درهم لا حجة له فيها ، أخذ خطه بها ، فأخذ المأمون الرقعة ، ثم أحضر عمراً بعد

خروج محمد فقال : هذه رقعتك ؟ فقال : نعم ، فقال : وهذا المال واجب عليك ؟ قال : نعم ، قال : فخذ رقعتك فقد وهبناه لك . قال : إذا تفضلت به يا أمير المؤمنين فإنه واجب لو أجزت به أحمد بن عروة عامل الأهواز وهو مقرٌّ به ، وأشهدك أنى قد وهبته له . فاغتاظ المأمون وخرج عمرو وقد عرف غيظ المأمون وخطأه فيما عمله ، فلجأ إلى أحمد بن أبى خالد فأخبره بالخبر وكان يخصه فقال : لا عليك فدخل إلى المأمون فلما رآه قال : ألا تعجب يا أحمد من عمرو ، وهبنا له ستة آلاف ألف درهم بعد أن تجافينا له عن أضعافها ، فوهبها بين يدى من أحمد بن عروة ، كأنه أراد أن يباريني و يصغر معروفى قال : أوَ فعل هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قال : لو لم يفعل هذا لوجب أن يسقط حاله قال : وكيف ؟ قال : لأنه لو استأثر به على أحمد بن عروة وآخذ أحمد بالمال وأداه إليه ، كان قد أخرجه من معروفك صفراً ولما كانت نعمتك على عمرو نعمة على أحمد وهما خادمان ، وكان الأجمل أن يتضاعف معروفك عندهما ، فقصد عمرو ذلك فصار المال تفضلاً منك على عمرو وعلى أحمد بن عروة ، ومع ذلك فأنت سيد عمرو لا يعرف سيداً غيرك ، وعمرو سيد أحمد ، فاقتدى فى أمر أحمد بما فعلته فى أمره . وأراد أيضاً أن يسير فى ملوك الأمم أن خادماً من خدمك اتسع قلبه لهبة هذا المال من فضل إحسانك إليه ، فيزيد فى جلالة المملكة وجلالة قيمتها ، فيكسر ذلك الأعداء الذين يكاثرونك ، فسرى عن المأمون وزال ما بقلبه على عمرو .

وروى التنوخى أيضاً أن المأمون ذكر عمرو بن مسعدة ، واستبطأه فى أشياء وكان ذلك بحضرة أحمد بن أبى خالد ، فأخبر به عمراً أحمد ، فدخل عمرو إلى المأمون فرمى بنفسه وقال : أنا عائذ بالله من سخطك يا أمير المؤمنين ، أنا أقل من أن يشكونى أمير المؤمنين إلى أحد ، و يسر علىّ ضغناً يظهر منه لمكانه

ما ظهر ، فقال له المأمون : وما ذاك ؟ فأخبره بما بلغه فقال : لم يكن كذلك ، وإنما جرى معنى أوجب ذكر ما ذكرت ، فقدمته قبل أن أخبرك به ، وكان ذلك عزمى ، ومالك عندى إلا ما تحب ، فليفرخ روعك ، وليحسن ظنك ، وسكن ما به حتى شكره ، وجعل ماء الحياة يدور فى وجهه . فلما دخل أحمد بن أبى خالد قال له : أشكو إليك من بحضرتى من أهلى وخدمى ، فما للمجلس حرمة حتى تؤدى ما يجرى فيه إلى عمرو بن مسعدة ، فقد أبلغ لى شيئاً قلته فيه فاتهمت به بعض بنى هاشم ممن كان حاضراً ، ذلك أن عمراً دخل علىّ فأعاد ما كان ، واعتذر فجعلت أعتذر إليه بعذر لم يبن الحق نسجه ، ولم يتسق القول فيه ، وإن لسان الباطل ينبئ عن الظاهر بالباطن . فقال له أحمد : لا يتهم أمير المؤمنين أحداً ، أنا أخبرت عمراً ، قال : ما دعاك إلى ذلك ؟ قال : الشكر لله وإليه لاصطناعك والنصح بك ، والمحبة لإتمام نعمتك على أوليائك وخدمك ، وقد علمت أن أمير المؤمنين يحب إصلاح الأعداء والبعداء ، فكيف بالأولياء والقرباء ، لا سيما مثل عمرو فى موضعه من الدولة وموقفه من الخدمة ، ومكانه من أمير المؤمنين ، فأخبرته بما أنكره عليه ليقوّم أَوَدَ يقينه ، ويتلافى ما فرط منه ، وإنما العيب لو أذعت سرًّا فيه قدح على السلطان أو نقض تدبير له ؛ فقال له المأمون : أحسنت والله يا أحمد ، إذ أخبرتنى بخاصة الظن ، وصدقتنى عن نفسك .

قال إبراهيم بن الحسن بن سهل : كنا فى مجلس المأمون وعمرو بن مسعدة يقرأ عليه الرقاع فجاءته عطسة ، فلوى عنقه فردها ، فرآه المأمون ، فقال : يا عمرو لا تفعل فإن رد العطسة وتحويل الوجه بها يورثان انقطاعاً فى العنق ، فقال بعض ولد المهدى : ما أحسنها من مولى لعبده ، وإمام لرعيته ، فقال المأمون :

وما فى ذلك ؟ هذا هشام اضطربت عمامته ، فأهوى الأبرش الكلبى إلى إصلاحها ، فقال هشام : إنا لا نتخذ الإخوان خَوَلا ! فالذى قال هشام أحسن مما قلته ، فقال عمرو : يا أمير المؤمنين إن هشاماً يتكلف ما طبعت عليه ، فما تُعْدَل[1] به ، ليس له قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا قيامك بحق الله و إنك والملوك كما قال النابغة الذبيانى :

ألم تر أن الله أعطاك سورة[2] يُرى كل مَلْك دونها يتذبذب
لأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ثروته ونعمته :

ظهر أن عمرو بن مسعدة ، كان ذا ثروة طائلة ، على كثرة ما بذل للعلماء والشعراء وغيرهم ، وقد كان له قصور فى دار السلام ، وله ساباط يعرف به يقال له ساباط[3] عمرو بن مسعدة ، وهو فوق الجسر ، ومن منازله منزل بحضرة طاق الحرانى إبراهيم بن ذكوان . جمع كل هذا من مال دولة خدمها بالإخلاص والعقل ، وربما كان فيها ما أخذ من غير حله ، إن صح ما روى أن المأمون وقّع فى قصة متظلم من عمرو بن مسعدة : « يا عمرو عمّر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها » ، ولما مات عمرو رُفع إلى المأمون أنه خلف ثمانين ألف ألف درهم . فوقع على الرقعة : « هذا قليل لمن اتصل بنا ، وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيه » . أى أن عمراً خلف ثمانية ملايين دينار ، وروى المسعودى أنهم

---

(١) يقال ما يعدلك عندى شىء ، أى ما يشبهك .
(٢) السورة : الشرف والفضل والرفعة .
(٣) الساباط : سقيفة بين دارين أو جدارين ، والطاق عقد البناء حيث كان ، والجمع أطواق وطيقان .

عرضوا لمال عمرو ولم يعرض لمال وزير قبله ، والرواية الأولى أصح ، وهى عن الصولى ابن عم عمرو بن مسعدة .

خلف عمرو هذه الثروة بعد هذا البذخ والرفاهية ، فى زمن كانت الخلافة العباسية سيدة الدول ، وفى أيام خليفة يعرف أقدار الرجال ، ويرى أنه يقلّ فى اصطناعهم كل برّ ومكرمة ، وكان يعتمد على عقلهم فى تدبير ملكه ، وللعقل قيمة عظيمة دونها كنوز الأرض وركازها فى نظر المأمون ، ولقائل أن يقول ومن أين لفرد أن يجمع مثل هذه الثروة العظيمة ، وهو مقيد بخدمة الدولة ؛ لا يعمل فيما يجهد له الناس فى الجمع ليكون عِضّ مال حسن القومة عليه . فالجواب أن الخلفاء كانوا يُقْطِعون رجال دولتهم الولايات العظيمة ، وربما نزلوا لهم عن خراجها السنة أو السنين ، ويهبون لهم من ضروب العطايا من ناطق وصامت ، وعقار ومتاع ما يتأثلون به ، والدولة التى قدرت مساحة ممالكها بنحو مساحة قارة أوربا اليوم ، وضمت جميع الأقطار العامرة فى آسيا وإفريقية ، إذا جمعت جميع دخلها الذى لا تحتاج إليه ، تقف الحركة الاقتصادية فى البلاد لا محالة ، فترى من الحكمة أن تنتقل الثروة فى الأيدى ، وما كانت الدولة فى الحقيقة تحتاج يومئذ إلى نفقات كبيرة لإطعام الجيوش وإعداد الأساطيل وتجهيزها بالمدمرات والمهلكات شأن دول عصرنا .

ولقائل ممن تشبع بروح الديمقراطية فى هذا العصر أن يقول : وهل هذا هو المعقول فى قيام الملك من الإفراط فى الإفضال على أفراد يسوّغون جباية قطر أو أقطار صُبرة واحدة وهى تجمع بالدانق والدرهم . وهل بمثل هذا نجح الخلفاء الأول أو أرباب الدول الغربية لعهدنا . فالجواب أن طبيعة القرن الثانى والثالث غير طبيعة القرن الأول ، وهذان القرنان الأخيران لا يشبهان بحال قرون البشر

منذ عشرة قرون ، خصوصاً إذا وضعنا موضع النظر أيضاً اتساع رقعة الملك ، وعمران العراق وحده دع غيره من الأقطار ، فان كل هذا أعظم حامل على البذل ، ولهذا كان للخلفاء فى هذا العطاء بعض مبرر لأعمالهم ، و إن كان لا مبرر من إسراف ، لكن حالة العمران اقتضت ذلك فى الدهر السالف ؛ وكان الأولى أن يعمدوا إلى القصد فى الأخذ والقصد فى العطاء ، و يقيموا بما يفضل المصانع والمعالم فى أرجاء المملكة . والمنصف يقول إن هذا النظام البديع فى تنظيم الموازنات هو وليد العصور الجديدة ، وهذا التقدير وهذا التقتير حتى فى التافه والقطمير ، هما من خلق دول الغرب . وكان ذلك على حالة ابتدائية فى عصر الأمويين والعباسيين ، ولم تكن أسباب الحياة تشعبت هذا التشعب ، ولا الأوضاع هذه الأوضاع ، ولا الإبداع فى النظم هذا الإبداع .

عرفنا من سيرة ابن مسعدة ما أطللنا به من نافذة ضيقة على ما خصت به نفسه ، وانطوى عليه من الصفات السامية التى كان بها عظمته ، ور بما لم يخل عصره من بلغاء أمثاله لو فتح لهم الطريق لأغنوا غناءه ، ولكن الطبائع تختلف ، وهذه الرقة فى السياسة يصعب أن يبرز فيها كل إنسان ، فهو كما كتب الحسن ابن سهل إلى محمد بن سماعة القاضى وقد احتاج إلى رجل يوليه بعض الأعمال ، فقال إنه يريد رجلا جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة ونزاهة طِعْمة[1] ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، ليس بظنين فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، و إن قُلد مهمًّا من الأمور أَجزأَ[2] فيه ، له سنٌّ

(١) فى الأساس : ومن المجاز فلان طيب الطعمة وخبيث الطعمة بالكسر ، وهى الجهة التى منها يرتزق بوزن الحرفة .

(٢) أجزأنى كذا : كفانى وهذا مجزى .

مع أدب ولسان ، تقعده الرزانة ، و يسكنه الحلم ، قد فُرَّ[1] عن ذكاء وفطنة ، وعض على قارحة[2] من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها ، وقام فى أمور فحمد فيها ، له أناة الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعاً بما استنهض ، مستقلا بما حمل اهـ

وهذه الصفات هى صفة عمرو بن مسعدة ، أنعم به و بسيده ، وسقياً لعصر أخرج عظماء يحق لنا التمجد بهم ، مهما بَعُدَ العهد .

---

(١) أى جرب واختبر فيهما وأصله من فر الدابة كشف عن أسنانها لينظر ما سنها .

(٢) قوله وعض على قارحة الخ كناية عن بلوغه درجة الكمال .

أحمد بن يوسف الكاتب

نشأته وظهوره :

هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى بنى عجل من قرية من قرى الكوفة تعرف بريا ، يقال إن أبا صبيح منها ، و إنه مولى إسلام . حَدَّث جماعة من الكتاب أن السرى بن بشر العجلى اشترى صبيحاً فأعتقه ، وكان صبيح قبطيًّا . ويقول الصولى إن هذا هو الصحيح من نسبه ، فهو من موالى مصر أسلم جد جده ، وكان أحمد وأخوه القاسم شاعرين أديبين ، وأولادهما جميعاً أهل أدب ، يطلبون الشعر والبلاغة . وكان جده القاسم كاتباً أيضاً ، وهو على ديوان الغرب أيام بنى العباس وفى آخر أيام بنى أُمية ، ثم كتب القاسم لعبد الله بن على عم المنصور ، وكتب يوسف ابنه ، ثم كتب يوسف ليعقوب ابن داود وزير المهدى .

فأحمد إذاً معرق فى الكتابة ، كان أبوه وجده كاتبين ، ولا شك أنهما من المجودين فى الإنشاء ، لأنهما كتبا لعظماء فى عهد عظمة الأمة ، وكان يعقوب ابن داود خاصة كاتباً ممتازاً بين الكتاب معدوداً فى الدرجة الأولى ، ومثله لا يرتضى لكتابته إلا من كان فى صناعته آية ، ومن كان له قديم يمتُّ إليه فى أبواب الآداب يهون عليه تعاطيها ، إذ يكون أنس بها فى صباه ، ورأى أمامه من يقتدى به و يجرى فى طريقه .

نشأ أحمد فى أرقى بيئة يعيش فيها ناشئ ، ولعله عرف وهو صبى عن هذه

الصناعة صناعة الكتابة مالا يتيسر لغيره ممن قضوا السنين يمارسونها . عرف ما يصلح فى معاناة أمور الملك والسلطان ، وعرفنا أن أحمد بن يوسف ورث عن أبيه وجده حب الأدب والشعر ، وما عرفنا بمن تخرج لأول أمره ولا سنة مولده

ولنا أن نقول فى أصل أحمد ونشأته إنه عربى النشأة ، بغدادى الدار ، مصرى الأصل والنبعة ، نشأ كاتباً شاعراً يستفزه الطرب ، ثم هو يقول الشعر فيجيد ، وقد يمدح وقد يهجو على طريقة أبناء ذاك الزمان ، وعرف بحب المرح ، و بتعاطى الشراب ، والأنس إلى القينات ، والافتتان بالجمال حيث كان . واشتهر باستهتاره فى شهواته ، وأنه مُسْتَرَقٌّ بلذاته .

كان أحمد يبرز فى معرفة مواقع الاستشهاد بآيات الكتاب العزيز و يقتبس منه للتدليل على قضاياه ، وكان متمكناً من الشرع ، وخاصة فيما كان له صلة بالأحوال والمعاملات ؛ أما درجته فى رواياته فى الحديث والأدب ، فهذا مما أغفله من ترجموا له ؛ وطريقته فى إنشائه الاعتماد على المرسل من الكلام ، فى طابع نقى برىء من كل شائبة ، خال من التعمل ، لا يعمد إلى السجع إلا فى بعض التحميدات ، وكانت الأسجاع فى هذا الضرب من الإنشاء زيًّا سلطانيًّا لم يسعه إلا تقليده ، يطيل بعض الشىء عن الخلفاء على ما سنعرفه فى كتابه الخميس الذى كان يقرؤه أهل خراسان ، وهو على لسان المأمون ، ولكنه على تطويله لا يأتى بجملة إلا إذا طرحتها اختل مكانها ، هو يسجع وكل سجعة من سجعاته على الأغلب ذات معنى مستقل ، فهو من هذا النظر صاحب طريقة متفرد فيها .

أما إذا كتب أحمد على لسان غيره ، فيلتزم طريقة أخرى ، لأن الكتابة الديوانية أو الرسمية أمست على عهده ذات قواعد ورسوم لا يحمد من كاتب ، ولو كان من عيار أحمد بن يوسف ، أن يتعداها ، فتراه فى كتاباته الخاصة مقلاً

من ألفاظه مكثراً من معانيه ، وفى كتابات الدولة يساير العرف والعادة ؛ وفرق بين من يكتب لغيره ومن يكتب لنفسه ، هو يكتب لغيره ما يروقه و يريده عليه ، و يكتب باسمه ما يعبر به عن ذات نفسه وشهوة قلبه .

لم يؤثر عن أحمد بن يوسف أنه أفرد موضوعاً بالتأليف ، على عادة الكتاب والعلماء ، وما خلف غير ديوان رسائله . وقال ابن النديم إن له رسالة الحسن ، وعدها فى جملة الكتب المجمع على جودتها ، وحكمنا اليوم عليه برسائل قليلة أبقت عليها الليالى ، و بعضها فى شؤون الدولة والخلافة ، بل ما علمنا أيضاً إن كان دخل دواوين الخلافة لأول أمره أم تخرج فى الكتابة فى بيته ، فاستفاضت شهرته ، وعرف له الخاصة نبوغه ، حتى وصل إلى المأمون .

قالوا إن أول ما ارتفع به أن الأمين لما قُتل أمر طاهر بن الحسين الكتاب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا فقال طاهر : أريد أخصر من هذا ؛ فوصف له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة ؛ فأحضره لذلك ، فكتب : « أما بعد[1] فان المخلوع قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة ، قد فرق بينهما حكم الكتاب فى الولاية والحرمة بمفارقته عصمة الدين ، وخروجه عن إجماع المسلمين ، لقول الله عز وجل فيما اقتص من أنباء نوح وابنه « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » ، ولا طاعة لأحد فى معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت فى ذات الله ، وكتابى إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده ، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه ، الكائد له فيمن خان عهده ، ونقض عقده ، حتى ردَّ به الألفة بعد فرقتها ، وجمع به الأمة بعد شتاتها ، وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها ، وقد وجهت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس

(١) روى ياقوت فى طبقات الأدباء هذا الكتاب برواية أخرى فيها زيادات قليلة .

المخلوع ، و بالآخرة وهى البردة والقضيب ، والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه ، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين »

و بعد هذا الكتاب انتشر صيت أحمد لتجويده فى موضوع يصعب على كل كاتب أن يجود فيه لدقته ، وقد أبدع فى ذكر الغرض ، وأتى بكلام فيه صنعة عجيبة لتخفيف مصيبة المأمون بأخيه الذى نازعه ، فقلل من شأن الخطب بأخصر أسلوب ، أما غيره من زملائه الكتاب فقد أطالوا ، والإطالة فى مثل هذا الموقف غير محمودة ، فقدر لأحمد أن يبذّهم لمعرفته بصناعته ، و بما يجب أن يخاطب به الخليفة المأمون وهو بين حسرة وغبطة ؛ وساعده على الظهور أن طاهر بن الحسين الخزاعى أكبر قواد المأمون والذى تولى إطفاء الفتنة وقتل الأمين كان كاتباً من الطراز الأول ، يعرف مقدار كد الأفهام و ينثر المليح العالى من الكلام ، ومثله من يحكم لأحمد بن يوسف أو عليه ، فخصه لما رأى من طول باعه بالكرامة ، واعتمد عليه من دون الكتاب .

وفى رواية ثانية أن ذا الرياستين الفضل بن سهل لما أدخل رأس الأمين على أخيه المأمون أدخله على ترس بيده ، فلما رآه سجد ثم أمره المأمون أن ينشئ كتاباً عن طاهر يخبره ليقرأه على الناس ، فكتبت عدة كتب لم يرضها واستطالها ، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عرض النسخة على ذى الرياستين رجع نظره فيها ، ثم قال لأحمد : ما أنصفناك . وأمر له بصلات وكسى وكراع وغير ذلك . وقال له إذا كان غداً فاقعد فى الديوان ، وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتب إلى الآفاق .

وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية وسواء كتب أحمد فى خراسان أو بغداد عن يد الفضل أو عن يد طاهر ، فقد علا بهذا الكتاب نجمه ، وعرف من بين

كتاب عصره فضله ، وفى هذا الدور عرفه الرؤساء فقط . بقى أن نعرف كيف اتصل بالمأمون ، وصاحب الفضل لا يخفى ، وربُّ العلم لا ينكر محله . فقد ذكروا أن أحمد بن أبى خالد الوزير كثيراً ما كان يصف أحمد للمأمون ، ويحمله على منادمته ، وكان طاهر بن الحسين يريده ويزين أمره ، وإبراهيم بن المهدى يطريه ويقرظه ، فأمر المأمون أحمد بن أبى خالد بإحضاره فلما وقف بين يديه قال : « الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى استخصك فيما استحفظك من دينه ، وقلدك من خلافته ، بسوابغ نعمه ، وفضائل قسمه[1] ، وعرفك من تيسير كل عسير جاولك[2] عليه متمرد حتى ذلّ ، ما جعله تكملة لما حباك به من موارد أموره بنجح مصادرها ، حدًّا نامياً زائداً لا ينقطع أولاه ، ولا ينقضى أخراه . وأنا أسأل الله يا أمير المؤمنين من إتمام بلائه لديك ، ومنّه عليك ، وكفايته ما ولاّك واسترعاك ، وتحصين ما حاز لك ، والتمكين من بلاد عدوك ، ما يمنع به بيضة الإسلام ، ويعزُّ بك أهله ، ويبيح بك حمى الشرك ، ويجمع لك متباين الألفة ، وينجز بك فى أهل العناد والضلالة وعده ، إنه سميع الدعاء ، فعّال لما يشاء » فقال المأمون : أحسنت وبورك عليك ناطقاً وساكتاً . ثم قال بعد أن بلاه واختبره : يا عجباً لأحمد بن يوسف كيف استطاع أن يكتم نفسه .

وما ندرى كم كان عمر أحمد يومئذ ، ولا شك أنه كان على أبواب الكهولة ، فنبل بالكتابة ، وكان من قبل خاملاً ، فاستحق اسمها على ما استحقها عبد الحميد ابن يحيى والربيع والفضل بن الربيع ويعقوب بن داود ويحيى بن أبى خالد وجعفر ابن يحيى وعبد الله بن المقفع والفضل بن سهل والحسن بن سهل ومحمد بن

(١) القسم النصيب .

(٢) فى رواية طيفور فى كتاب بغداد : وعرفك من تيسير كل عسير جاولك وغلبة كل متمرد صاولك ما جعله الخ .

عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولى ونجاح بن سلمة وأحمد بن محمد المدبّر وأضرابهم .

جاء أحمد يكتب للمأمون بعد الفضل بن سهل والحسن بن سهل وعمرو بن مسعدة ، وقبل أن يتصل بالمأمون لم يكن معروفاً إلا عند خاصة الكتاب وأهل الأدب ، حتى إذا أعجب به الخليفة بعدت شهرته فى العالمين وحان الوقت الذى ظهر فيه ظهوراً لا خفاء بعده . مات كاتب المأمون أحمد بن أبى خالد ، فسأل المأمون الحسن بن سهل عن رجل كفوء يخلفه ، فذكر له أبا جعفر أحمد بن يوسف ، وأبا عباد ثابت بن يحيى الرازى ، قائلاً إنهما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين وخدمته وما يرضيه ، فقال له : اختر لى أحدهما ، فقال الحسن : إن صبر أحمد على الخدمة ، وجفا لذّته قليلا فهو أحبهما إلىّ ، لأنه أعرق فى الكتابة وأحسنهما بلاغة ، وأكثر علماً ، فاستكتبه المأمون .

وكان أحمد يعرض الكتب ويوقّع ويخلفه أبو عباد إذا غاب عن دار المأمون . وكان أحمد بعد دخوله على المأمون يتقلد له ديوان السر ، وبريد خراسان وصدقات البصرة ، وصير له المأمون نصف الصدقات بالبصرة طعمة له سبع سنين ، وكان قبل ولايته البصرة سلّفه الأهواز فصرف عنها . وما برح يزداد كل يوم رفعة ويعظم فى عينه لصدقه ونصحه . كتب أحمد بن يوسف بين يدى المأمون فاستحسن خطه وقال له : لوددت أنى أكتب مثل خطك وعلى صدقة ألف ألف درهم . فقال له : لو كان فى الخط حظ ما حرمه رسول الله .

وكان المأمون لعلمه بقدم أحمد فى صناعته ، إذا حضر أمر يحتاج فيه إلى كتاب يشهر ويذكر ، أمره فكتب مثل كتاب الخميس وغيره . وحدث عن

نفسه قال : أمرنى المأمون أن أكتب إلى جميع العمال فى أخذ الناس بالاستكثار من المصابيح فى شهر رمضان وتعريفهم ما فى ذلك من الفضل ، فما دريت ما أكتب ولا ما أقول فى ذلك . إذ لم يسبقنى إليه أحد فأسلك طريقه ومذهبه فَقلتُ (١) فى وقت نصف النهار ، فأتانى آت فى منامى فقال : قل فإن فى ذلك أنساً للسابلة ، وإضاءة للمتهجدين ، ونفياً لمظان الريب ، وتنزيهاً لبيوت الله عن وحشة الظلم .

أخذت الدنيا تنهال على أحمد فى وزارته ، ومن يتعلق بخدمة المأمون ولا يسعد ! حتى أمسى بتليده وطريفه عنوان المجد والعظمة . حدثوا عنه أن عبد الله بن طاهر لما خرج من بغداد إلى خراسان قال لابنه محمد : إن عاشرت أحداً بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فإن له مروءة . فما عرّج محمد حين انصرف من توديع أبيه على شىء حتى هجم على أحمد فى داره فأطال عنده ، ففطن له أحمد فقال : يا جارية غَدّينا . فأحضرت طبقاً وأرغفة نقية وقدمت ألواناً يسيرة وحلاوة . وأعقب ذلك بأنواع من الأشربة فى زجاج فاخر وآلة حسنة ، وقال : ليتناول الأمير أيّها شاء ثم قال له : إن رأى الأمير أن يشرف عبدَه ويجيئه فى غدٍ أنعم بذلك .

قالوا فنهض محمد وهو متعجب من وصف أبيه له ، وأراد فضيحته فلم يترك قائداً نبيلاً ، ولا رجلاً مذكوراً من أصحابه إلا عرفهم أنه فى دعوة أحمد بن يوسف ، وأمرهم بالغدوّ معه . فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أهبته ، وأظهر مروءته ، فرأى محمد من النضائد والفرش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه ، فلما رفعت الموائد ؛ وكانت كما ادعى الراوى ثلثمائة مائدة ،

(١) القائلة نصف النهار قال قيلا وقائلة وقيلولة ومقالا ومقيلا وتقيل نام فيه فهو قائل .

وقد حف بثلثمائة وصيفة ، ونقل إلى كل مائدة ثلثمائة لون فى صحاف الذهب والفضة) قال ابن طاهر : هل أكل من بالباب ، فنظروا فإذا جميع من بالباب قد نصبت لهم الموائد فأكلوا ، فقال : شتان بين يوميك يا أبا جعفر . فقال : أيها الأمير ، ذاك قوتى ، وهذه مروءتى .

و إذا استجزنا حذف ما فى هذه الحكاية من المبالغة — ومثلها وقع للحسن ابن سهل مع عمرو بن مسعدة على ما قرأته فى الكلام على حياة عمرو ، والقصتان منقولتان من كتاب « ملح الملحة » لابن باقيا الكاتب — إذا حذفنا جانب الإغراق فى الوصف على ما قد يجاوز قدرة الخليفة دع وزيره ، يبقى من القصة طرف صالح ، يصح أن يحكم به على نعمة أحمد فى عهد سيده المأمون . قالوا وكان المأمون يقول لأحمد ، وقد ولى أخاه القاسم خراج السواد فجباه فضلا مما جباه غيره فى سائر أيام المأمون : يا أحمد ، القاسم يجمع ، ونحن نفرق . عن محمد بن عبد الملك قال : وهب لى أحمد بن يوسف الكاتب على ظَهْر يدٍ ألفى ألف درهم تفاريق .

ومن أظهر صفات أحمد بن يوسف ، وهذه هى التى كان يعجب بها المأمون ، شدة عارضته ، وقوة بديهته ، والبديهة يظهر أثرها فى تدبير الملك ، وما يعرض للخليفة من شؤون تحتاج إلى أن يبت فيها حالاً من جواب على سؤال ، و إعطاء رأى فى معضلة ، فى ساعة يكون فيها الكاتب قد عاوده السأم والتعب ، واضطراب النفس وموت الخاطر ، وقد تطلب إليه معالجة أصعب الموضوعات ، فى أضيق الأوقات وأتعب الساعات .

ذكروا أن أحمد جلس يوماً وهو وزير يقرأ الكتب بين يدى المأمون ، فمرت قصة أصحاب الصدقات ، فقال المأمون لأحمد : انظر فى أمرهم قد كثر

ضجيجهم ، فقال : قد نظرت فى أمرهم وفررته[1] ، ولكنهم أهل تعد وظلم ، وبالباب منهم جماعة ، فقال المأمون : أدخلوهم إلىّ ، فدخلوا فناظروه فاتجهت الحجة عليهم فقال أحمد : هؤلاء ظَلَّموا رسول الله كيف يرضون بعده ، قال الله عز وجل (ومنهم من يَلمزك[2] فى الصدقات فإن أُعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون) ، فعجب المأمون من حسن انتزاعه ، وحضور مراده فى وقته وقال : صدقت يا أحمد وأمر بإخراجهم .

وكثر طلاب الصدقات بباب المأمون مرة ، فكتب إليه أحمد : « داعى نداك يا أمير المؤمنين ومنادى جدواك جمعا الوفود ببابك ، يرجون نوالك المعهود ، فمنهم من يمتُّ بحرمة ، ومنهم من يُدِلُّ بخدمة ، وقد أجحف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيْبه ، ويحقق حسن ظنهم بطَوْله[3] فعل إن شاء الله » .

فوقّع المأمون : الخير متبع ، وأبواب الملوك مغانٍ لطالبى الحاجات ، ومواطن لهم ، ولذلك قال الشاعر :

يسقط الطير حيث يلتقط الحـــبّ ويغشى منازل الكرماء

فاكتب أسماء من ببابنا منهم ، واحكِ مراتبهم ، ليصل إلى كل رجل قدر استحقاقه ، ولا تكدّر معروفنا عندهم بطول الحجاب ، وتأخير الثواب . فقد قال الشاعر :

فإنك لن ترى طرداً لحرّ كإلصاق به طرف الهوان

---

(١) من المجاز فررت عن الأمر : بحثت عنه ، وفر عن هذا الأمر وفر فلان عما فى نفسه .

(٢) يلمزك : يعيبك .

(٣) الطول : الفضل والسيب العطاء .

ومن أخبار أحمد وفيها صورة أخلاقه ، أنه خاصم رجلاً بين يدى المأمون ، وكان صغا المأمون إليه على أحمد . ففطن لذلك فقال : يا أمير المؤمنين إنه يستملى من عينيك ما يلقانى به ، و يستبين بحركتك ما تُجِنّهُ له ، و بلوغ إرادتك أحبُّ إلىَّ من بلوغ أملى ، ولذة إجابتك أمتع عندى من لذة ظفرى ، وقد تركت له ما نازعنى فيه ، وسلمت له ما طالبنى به . فاستحسن ذلك المأمون .

وكان واسع الصدر كأكثر من يلى شيئاً من أمر الأمة من العظماء . قيل إن أبا العتاهية أتى أحمد فحجب عنه فقال :

متى يظفر الغادى إليك بحاجة ونصفك محجوب ونصفك نائم

ولنا أن نستدل على غنى أحمد بن يوسف أنه أهدى إلى المأمون لما استكتبه لوزارته ، واستخصه فى يوم مهرجان هدية بألف ألف درهم وكتب إليه :

على العبد حق فهو لا شك فاعله وإن عظم المولى وجلت فضائله
ألم ترنا نُهـــدى إلى الله ما له وإن كان عنه ذا غنًى فهو قابله
ولو كان يُهدى للمليك بقـدره لَقَصَّرَ علُّ البحر عنـــه وناهله[1]
ولـكننا نُهدى إلى من نجلّه وإن لم يكن فى وسعنا ما يشا كله

وأهدى إليه فى عيد وكتب إليه : هذا يوم جرت فيه العادة ، بإهداء العبيد للسادة ، وقد أهديت لأمير المؤمنين قليلاً من كثيره عندى . فقال المأمون : عاقل أهدى حسناً .

كان إعجاب الخليفة بأحمـد كثيراً ، و بذلك ندفع ما قاله صاحب غرس النعمة فى كتاب الهفوات ، ونقله ياقوت عنه من أن المأمون كان سبب موت وزيره ، والرواية أن المأمون كان إذا تبخر طُرح له العود والعنبر ، فإذا تبخر

(١) النهل : محركة أول الشرب ، والعل الشربة الثانية .

أمر بإخراج الجمرة ووضعها تحت الرجل من جلسائه إكراماً له ، وحضر أحمد ابن يوسف يوماً ، وتبخر المأمون على عادته ، ثم أمر بوضع الجمرة تحت أحمد ابن يوسف فقال : هاتوا ذا المردود ، فقال المأمون : ألنا يقال هذا ؟ ونحن نصل رجلاً واحداً من خدمنا بستة آلاف ألف دينار ، إنما قصدنا إكرامك ، وأن أكون أنا وأنت قد اقتسمنا بخوراً واحداً ، يُحضر عنبر ، فأحضر منه شيء فى الغاية من الجودة ، فى كل قطعة ثلاثة مثاقيل ، وأمر أن تطرح قطعة فى المجمر ويبخر بها أحمد ، ويدخل رأسه فى زيقه حتى ينفذ بخورها ، وفُعل به ذلك بقطعة ثانية وثالثة وهو يستغيث ويصيح ، وانصرف إلى منزله وقد احترق دماغه واعتل ومات سنة ٢١٣ وقيل ٢١٤ .

وهذه القصة منقوضة بالبداهة ، ذلك أن أحمد بن يوسف يعرف مقام الخليفة ، ولا يجرؤ أن يقول ما نسب إليه فى حضرته ولا فى غيبته ، والمأمون صاحب النفس العظيمة يعرف قدر الرجل ، فلا يرى مهما كان ذنبه أن يهلكه بالعنبر فى مجلسه ، ولكن الرجل مات حتف أنفه . وربما وضع هذه القصة من أراد إسقاط المأمون ، ونسبة ضعف العقل إلى وزيره .

ولا بدّ من القول أن أحمد بن يوسف كان يحسن سياسة خليفته ويستميت فى حبه ودعوة الناس إليه ، وكانت مكانته فى الأدب والظرف وفاء مكانته فى السياسة : قال بعض القدماء فى وصف كلامه : لم أر كلاماً أحسن وصلاً ، ولا أمتن فصلاً ، ولا أمنع إنذاراً ، ولا أقنع إعذاراً ، ولا أرأب لصدع ، ولا أشعب لجمع ، من كلام أحمد بن يوسف . وقال جعفر بن يحيى : عبد الحميد أصل ، وسهل بن هرون فرع ، وابن المقفع ثمر ، وأحمد بن يوسف زهر . وناهيك بها شهادة من كاتب مثلهم .

شيء من كلامه :

من مطولات أحمد بن يوسف كتاب كتبه فى الإفاضة بمحامد المأمون ، ولعله كُتب إلى شيعة خراسان ليستميل قلوبهم ، جاء فيه فى ولاية المأمون لعلى ابن موسى الرضا : « وأحسن جزاءَ أمير المؤمنين ومَثُوبته ، على صلة رحم رسول الله التى هى رحمه وقرابته ، واختياره لولاية عهده الأمير الرَّضى على بن موسى ، حفظه الله ، حين أحمد سيرته ، ورضى محبته ، وعرف استقلاله ، بما قلده فى هَدْيه ودينه ووفائه ، بما أكد الله به عليه ، من عهد أمير المؤمنين أيده الله فى اعتيامه[1] من آزره وآساه بما شَفَع رأيه ، وأنفذ تدبيره ، حين همَّ لاستصلاح ما استرعاه الله من أمور عباده ، لما انتقى القائم بدعوته ، ورئيس شريعته الأميرَ ذا الرياستين رحمه الله ، فاتخذه مكاتفاً ظهيراً ووزيراً دون من سواه ، فاتبع منهاج أمير المؤمنين ، أيده الله ، وسار بسيرته ، شرقاً وغرباً ، وغوراً ونجداً ، موفياً بعهده ، قائماً بدعوته ، مقتفياً لأثره وسنته ، فحسم الله به الأدواء ، وقمع به الأعداء ، من عتاة الأمم وطواغيت الشرك ، وأباد على يده أهل الشقاق والنفاق ، فى كل أُفق وطرف ، بِجَدّ أمير المؤمنين ، أعزه الله ، وبركة سياسته ودولته ، ونُجح سعى من قام بنُصرة من قام بحقه ، وأنار برهانه حتى توفاه الله عز وجل ، حين بلغ همته وغايته ، وحُمَّ أجله ، وانقطعت مدته ، سعيداً حميداً ، شهيداً فقيداً ، عند إمامه أكرمه الله ، وعند الخاصة والعامة . وكان من إجلال أمير المؤمنين الحادثُ الذى نزل به ، فأحيا آثاره ، بوصف محاسنه ، فى مَشاهده ومَجامعه ، وترحمه عليه عند ذكره ، وحفظه فى لُحمته ، وأهل حُرمته ، وفيمن كان يحمد الله على طاعته ونصيحته ، ما أتم به نعمته .

(١) الاعتيام : الاختيار .

عندنا وعندكم معشر الشيعة ، فقد أصبح أمره بكم متصلا ، وموقعه من جماعتكم متمكناً ، بقبضكم ما قبضه ، و ببسطكم ما بسطه ، من لوعة المصيبة وحسن العقبى...»

وقال : « فأية نعمة أجلُّ قدراً ، وأسنى أمراً ، معشر الشيعة من نعمة أمير المؤمنين ، أيده الله ، عند الأمير ذى الرياستين ، ومراتبه التى رتبه بها ، فإنه أعطاه رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وعقد له على رأسهما عَلماً فى دعوته وقلده سيفهما ، وختّمه بخاتم الخلافة وخاتم الدولة ، وجعل صِلاته بين صاحب حَرَسه وصاحب شرطته ، ومسيره بين أمير المؤمنين و بينهما ، أمامه وخلفه ، وصير له الجلوس على الكرسى بحضرته ، فى صدر كل مجلس جلس ، إلا أن يؤثر به من أحب من أبناء الخلفاء ، وقدمه فى دخول دار الأمير راكباً ، إلى أقصى مكان ينتهى إليه أحدٌ من بنى هاشم ، لأنه منهم وأعظمهم غناء عنهم ، فسماه صاحب دعوته وسيفه على عدوه ، وبابه الذى يدخل إليه منه ، وولاه خيوله فى أقطار الأرض ، ومقدّمته بحضرته ، وقلده من الثغور ما قد علمت ، بما أفرده فى عهده ، أى ما أنفذه من أمره ، فى جميع سلطانه وملكه ، من مشارق الأرض ومغاربها ، وأين يأتى الوصف على ما فضله به ، وقدمه وشرفه على الناس كافة ولكنا نُخْطِر بذكره ، ثم نَكل السامعين إلى ما يرجعون إليه من المعرفة التى لا تبلغها الصفة ، ثم لم يكن ما أكرمه به فى حياته بأعلى مما أكرمه به فى وفاته ، تولى غسله وتكفينه ، ومباشرته لجهازه ، إلى حفرته بيده ، وقاسى من الغصص و برحاء[1] الحزن ، و إذراء العبرة ، و إراقة الدمعة ، ما حال بينه و بين الكلام ، وكاد يمنعه من القول والدعاء فى صلاته عليه ، وحَفِظ أهل الحرمة به رعايةً له فيهم ، ووفاء بعهده من بعده ، وأقرَّ خاصته وقواده وعمّاله وكتّابه على

(١) برحاء الحمى وغيرها شدة الأذى

مراتبهم ، وحمد بحمده وذم بذمه وجد لجنده . . . »

و بعد أن عدد ما صنع المأمون من الأعمال الحسنة قال خطاباً للمأمون :

« فيا أيها الإمام المنصور المهدى الرشيد حُزْت فضائل الآباء ، واهتديت بهدى الأنبياء ، أنشكرك عن الإسلام ، فأنت القائم به الداعى له ، والناصر لحقه ، أم نشكرك عن الأمصار ، فأنت المفتتح لممتنعها عَنوة ، والمتطوّل على أهلها بالرحمة ، والمتعطف عليهم بحسن الفائدة ، بعد ما هيجت منك سَوْرة الغضب ، فأطفأت نارها ، وأخمدت لهبها ، وعُدت على من سفِه وأضاع حظه . أم نشكرك على المساجد ، فأنت الذى أسستها على التقوى ، وعمّرتها بتلاوة القرآن ، وطهرت المنابر وركبتها ، تعلوها صائماً ، وتنطق عليها صادقاً ، وتدعو إلى الرشد عليها ناصحاً ، وتختم القرآن قبل أن تبدأها محسناً ، وتتلو من قوارعه ما تصيخ له الأسماع ، وتلين له القلوب . أم نشكرك على البيت العتيق ، والركن والمقام والحجر وزمزم ومشاعر الحج ، وأنت ذببت عنها ، وأعدت إليها عهدها فى مبعث نبيها ، فأمنت النازع إليها من كل فج عميق ، والحالّين بها من الركّع والسجود . أم نشكرك عن رسول الله فيما حفظت فيه من عترته ، بعفوك عن مجرمهم ، ومضاعفتك ثواب محسنهم ، و إحيائك من أمرهم ما كان قد اندرس وانطمس بعد نبيّ الله ، وقد راعيت منه فى قرابته وقرابتك ، وذوى رحمه ورحمك ، ما ضيع الناس ، ووصلت منهم ما كان وصله ، إذ كان الله عز وجل قد فرض صلة الأرحام ، فكان أطوع خلق الله فيما فرض عليه ؛ أم نشكرك على العوام ، فقد ألبست المسلمين ثوب الأمن ، وأذقتهم طعم السعة والرفاهة ، وعدلت بينهم بالإنصاف ، وتوليت دونهم النَّصَب ، وآثرتهم بالراحة . أم نشكرك عن الملوك والقواد والأجناد فأنت الذى رفعت منازلهم ، ووفرت عددهم ، فلم يكن فى دهر

أحد من الخلفاء ، أسعد ولا أحظى منهم فى سلطانك ، بما بذلت لهم من المعاون ، ووليتهم من الثغور والأمصار ، وأدررت عليهم من الأرزاق والخواص . أم نشكرك عن الأحكام والسنن فأنت الذى أنهجت سبيلها ، فأوجبت فرضها ونافست فى أهلها .... »

* * *

وقَّع إلى عامل قد أخّر حمل المال : قد استبطأك الإغفال ، وأبطرك الإهمال ، فما تصحب قولك فعلا ، ولا تتبع وعدك إنجازاً ، وقد دافعت بمال نُجِّم (١) لزمك حمله ، حتى وجب عليك مثله ، فاحمل ثلاثة أنجم ، ليكون ما يتعجل منك أداء ما أُخر عنك إن شاء الله .

* * *

ووقع إلى عامل ظالم : الحق طريق واضح لمن طلبه ، تهديه محجته ، ولا يخاف عثرته ، وتؤمن فى السرّ مَغبَّته ، فلا تستقِلن منه ، ولا تعدلن عنه ، فقد بالغت فى مناصحتك ، فلا تحوجنى إلى معاودتك ، فليس بعد التقدمة إليك ، إلا سطوة الإنكار عليك .

* * *

ووقّع إلى عامل ذكر أنه قد أصلح ما تحت يده : أنا لك حامد فاستدم أحسن ما أنت عليه ، يدم لك أحسن ما عندى ، واعلم أن كل شىء لا يزاد فيه ينقص ، والنقصان وإن قل يمحق الكثير ، كما ينمى على الزيادة القليل .

* * *

ووقع فى كتاب : مستتم الصنيعة من صابَرها ، فعدل زيغها ، وأقام أوَدها ،

---

(١) نجم المال أداه نجوماً أى فى أوقات مضروبة .

صيانة لمعروفه ، ونصرة لرأيه ، فإن أول المعروف مستخَف ، وآخره مستثقَل ؛ تكاد أوائله تكون للهوى ؛ وأواخره تكون للرأى ؛ ولذلك قيل : ربَّ الصنيعة أشد من ابتدائها .

* * *

ووقع إلى بعض العمال فى العناية بأحدهم : أنا بفلان تام العناية ، وله شديد الرعاية ، وكنت أحب أن يكون ما أرعيته طرفك من أمره فى كتابى ، مستودعا سمعك من خطابى ، فلا تعدلن بعنايتك إلى غيره . ولا تمنحن بعقدك سواه ، حتى تنيله إرادته ، وتتجاوز به أُمنيته . إن شاء الله .

* * *

ومما نسب إليه فى ذم بخيل .

كأن البخل والشؤم صارا معاً فى سهمه . وكانا قبل ذلك فى قِسْمه ، فحازهما بالوراثة ، واستحق ما استملك منهما بالشّفعة ، وأشهد على حيازتهما أهل الدين والأمانة ، حتى خلصا له من كل مانع ، وسلما له من تبعة كل منازع ، فهو لا يصيب إلا مخطيا ، ولا يحسن إلا ناسياً ، ولا ينفق إلا كارهاً ، ولا ينصف إلا صاغراً .

وفى مثله :

وصل كتابك فرأيناك قد حليته بزخارف أوصافك ، وأخليته من حقائق إنصافك ، وأكثرت فيه الدعاوى على خصمك ، من غير برهان أتيت به على دعواك وزعمك ...

وكتب إلى عبد الله بن طاهر عند خروج عبيد الله بن السرىِّ إليه يهنئه بذلك الفتح : بلغنى ، أعز الله الأمير ، ما فتح الله عليك ، وخروج ابن السرىِّ إليك ، فالحمد لله الناصر لدينه ، المعز لدولة خليفته على عباده ، والمذل لمن عَنَدَ

عنه وعن حقه ، ورغب عن طاعته ، ونسأل الله أن يُظاهر له النعم ، ويفتح له بلدان الشرك ، والحمد لله على ما والاك مذ ظعنت لوجهك ، فإنا ومن قِبَلنا نتذاكر سيرتك فى حربك وسلمك ، ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة والليان فى مواضعهما ، ولا نعلم سائس جند ولا رعية عدل بينهم عدلك ، ولا عفا بعد القدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك . ولقلَّ ما رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكلا على ما قدمت له أُبوته ، ومن أُوتى حظًّا وكفاية ، وسلطاناً وولاية ، لم يخلد إلى ما عنا له حتى يخلَّ بمساماة ما أمامه ، ثم لا نعلم سائساً استحق النجح لحسن السيرة وكف مَعَرَّة الأتباع استحقاقك ، وما يستجيز أحد ممن قبلنا أن يقدّمَ عليك أحداً يهوى عند الحاقّة [1] ، والنازلة المعضلة ، فليهنَكَ منة الله ومزيده ، ويسوغك الله هذه النعمة التى حواها لك بالمحافظة على ما به تمت لك من التمسك بحبل إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين ، وملاّك وإيانا العيش ببقائه ، وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قِبَلنا مكرماً مقدماً معظماً ، وقد زادك الله فى أعين الخاصة والعامة جلالة وبجالة ، فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ، ويعدّونك لأحداثهم ونوائبهم ، وأرجو أن يوفقك الله لمحابّه كما وفق لك صنعه وتوفيقه ، فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ولم تزدْك إلا تذللاً وتواضعاً ، فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك والسلام .

وكتب إلى عبد الله بن طاهر أيضاً عن المأمون يعزله عن ديار مصر وتسليم العمل إلى إسحاق بن إبراهيم : أما بعد فإن أمير المؤمنين قد رأى تولية إسحق ابن إبراهيم ما يتولاه من أعمال المعاون بديار مصر ، وإنما هو عملك نقل منك إليك ، فسلمه من يدك إلى يدك والسلام .

* * *

(١) الحاقة : النازلة الثابتة كالحقة .

لما توفى طاهر بن الحسين بخراسان ، وعبد الله بن طاهر فى وجه نصر بن شبث ، كتب إليه أحمد بن يوسف يعزيه عن نفسه :

أما بعد فإنه قد حدث من أمر الرزء العظيم بوفاة ذى اليمينين ما إلى الله عز وجل فيه المفزع والمرجع ، وفيه عليه المستعان ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، اتباعاً لأمر الله ، واعتصاماً بطاعته ، وتسليماً لنازل قضائه ، ورجاء لما وعد الصابرين من صلواته ورحمته وهداه ، وعند الله نحتسب مصيبتنا به . وقد كان سبق إلى القلوب عند بداهة الخبر من اللوعة ، واضطلاع الفجيعة ، ما كنا نخاف إحباطه من الأجر ، لولا ما تدارك الله به من الذكر بما وعد أهل الصبر ؛ فنسأل الله أن يرأب[1] هذه الثلمة ، ويسد هذه الخلة ، بأمير المؤمنين أولا وبك ثانياً ، وأن يعظم مثوبتك ، ويحسن عقباك ، ويخلف بك ذا اليمينين ، ويعمر بك مكانه من أمير المؤمنين ومن كافة المسلمين . فأما ما يحتاج إليه من التسلية والتعزية ، فإنك فى فضل رأيك ، واتساع لُبِّك ، فى حال العزة والنماء ، لم تكن تخلو من عوارض الذكر ، وخواطر الفكر ، فيما تعرو به الأيام من نوائبها ، وتبعث به من حوادثها ، وفى هذا لمن وفق له إعداد للنوازل ، وتوطين الأنفس على المكاره ، فلا يكون معه هلع ، ولا إفراط جزع ، بإذن الله ، مع أن مرد كل جزع إلى سلوة ، ولا ثبات عليها ، فأولى بالراغب فى ذات الله أن يهتبل[2] مثوبته فى أوانها من بعض الأسى ، وفجاءة النكبة ، وأولى بذى اللب إذا علم ما هو لابد صائر إليه ، ألا يبعد منه إبعاداً يلزمه التفاوت عند التأمل ، واختلاف

---

(١) رأب الصدع : أصلحه وشعبه كارتأبه . والثلمة بالضم : فرجة المكسور والمهدوم . والخلة : بفتح الخاء الحاجة والفقر والخصاصة

(٢) اهتبل كلمة حكمة اغتنمها .

الحالين فى بعد الأمد بينهما ؛ وقد كنت أحب ألا أقنع فى تعزيتك برسول ولا كتاب ، دون الشخوص إليك بنفسى ، لو أمكننى المسير ، إجلالا للمصيبة ، وتأنساً بقربك ، بعد الذى دخلنى من الوحشة ، فقد عرفت ما خصنى من المرزِئة [1] بذى اليمينين ، كما كنت أتعرف من جميل رأيه ، وعظيم بره حاضراً ، وما كان يذكرنى به غائباً ، ذكره الله فى الرفيق الأعلى . . . .

* * *

وأخصر من هذا ما عزى به ولد رجل من آل الربيع ، وكان له مواصلاً فقال : عظم الله أجركم ، وجبر مصابكم ، ووجه الرحمة إلى فقيدكم ، وجعل لكم من وراء مصيبتكم حالا تجمع كلمتكم ، وتلمُّ شعثكم ، ولا تفرق ملأكم .

وسمع قول علىّ : لا تكونن كمن يعجز عن شكر ما أُوتى ، و يلتمس الزيادة فيما بقى . فكتب : أحق من أثبت لك العذر فى حال شغلك من لم يخل ساعة من برك فى وقت فراغك .

* * *

ومن كلامه يعتذر إلى بعض الأخلاء : لى ذنوب إن عددتها جَلّت ، و إن ضممتها إلى فضلك حسنت ، وقد راجعت إنابتى ، وسلكت طريق استقامتى ، وعلمت أن توبتى فى حجتى ، و إقرارى أبلغ فى معذرتى ؛ فهذا مقام التائب من جرمه ، المتضمن حسن الفيئة [2] على نفسه ، فقد كان عقابك بالحلم عنى ، أبلغ من أمرك بالانتصاف منى ، فإن رأيت أن تهب لى ما استحققته من العقوبة ، لما ترجوه من المثوبة ، فعلت إن شاء الله .

* * *

---

(١) المرزئة : كالرزء والرزيئة ج أرزاء ورزايا .
(٢) الفيئة : الرجعة .

وكتب فى الذم : أما بعـد ، فلا أعلم للمعروف طريقاً أحزن ولا أوعر من طريقه إليك ، ولا مستودعا أقل زكاء ، ولا أبعد ثمرة خير من مكانه عندك . لأنه يحصُل منك فى حسب دنىّ ، ولسان بذى ، ونسب قصى ، وجهل قد ملك طباعك ، فالمعروف لديك ضائع ، والشكر عنـدك مهجور ، وإنمـا غايتك فى المعروف أن تحرزه ، وفى وليّه أن تكفر به .

ومن كلامه : قد كان كتابى نفذ إليك بما كان غيره أَولى بى ، وأَلزم لى فى حق الحرية والكرم ، اللذين جعلا لك إرثاً ، والشرف والفضل اللذين قسما لك حظًّا ، ولكننى دُفعتُ من اتصال الزلل ، والإخلال بالعمل ، إلى ما اضطرنى إلى محادثتك ، ودعانى إلى مخالفتك ، لأجَلّى عنى هبوة [1] الاتهام ، وأَصرف عنك عارض الملام ، وقد جرى لك المقدار بالسؤدد الذى خصك الله بمزيته ، وأَفردك بفضيلته ، فليس يحاول أحد استقصاء عليك إلا عرض دونه حاجز من واجبك ، يضطره إلى ذلة التنصل إليك و يحور ذلك عن التعمد .

* * *

وكتب إلى صديق له : هذا يوم رقت حواشيه ، و بدت تباشير الحبور فيه ، والمرء بأخيه كثير ، و بمساعدته جدير ، وأَنت قطب السرور ، ونظام الأمور ، فلا تتأخر فنقلّ ، ولا تنفرد عنا فنذل .

* * *

وكتب إلى إسحق بن إبراهيم الموصلى وقد زاره إبراهيم بن المهدى : عندى من أَنا عنده ، وحجتنا عليك إعلامنا لك والسلام .

* * *

---

(١) الهبوة : الغبرة

وكتب : عندى فلان وفلان ؛ فإن كنا من شأنك فقد آذناك .

* * *

وكتب إلى صديق له يستدعيه : يوم التلاقى قصير فأعن عليه بالبكور .

وكتب إلى صديق له يستدعيه :

إن كنت تنشط للصبوح فيومنا يوم أغرُّ مُحَجَّل الأطراف
وترى السحابة فى السماء تعلقت وكأنما كسيت جناح غُداف[1]
طوراً تبلل بالرذاذ وتارة تهمى عليـــك بدلوها الغراف
فانعم صباحاً وأتنا متفضـــلا ودع الخلاف فليس يوم خلاف

* * *

وكتب إلى إبراهيم بن المهدى فى هدية استقلها :

« بلغنى استقلالك لما ألطفت[2] ، والذى نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك فى البر ، فأهدينا هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم » .

وكان يقول فى إبراهيم بن المهدى : القلوب من غِنائه على خطر ، فكيف الجيوب .

* * *

كتب إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود : بارك الله فى مولودك الذى أتاك ، وهنأك نعمته بعطيته ، وملأك كرامته بفائدتك ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله بارًّا تقيًّا ، ميموناً مباركاً زكيًّا ، ممدوداً له فى البقاء ، مُبَلَّغا غاية الأمل ، مشدوداً به عضدك ، مُكَثِّراً به ولدك ، مُداماً به سرورك ، مدفوعاً به الآفات عنك ، مشفوعاً بأكثر العدد من طيب الولد .

* * *

(١) الغداف : كغراب ، غراب القيظ والنسر الكثير الريش ، ج غدفان
(٢) ألطفه بكذا : بره .

وله فى مثل ذلك : هنأك الله هذه الفائدة التى أفادكها ، وبارك الله فى الهبة التى رزقكها ، وشفعها بإخوة متواترين ، يسرونك فى حياتك ، ويخلفونك فى عقبك .

* * *

وله : وهنأ الله أمير المؤمنين نِعمه ، وملأه كرامته ، وأولى له فتوحه ، وأدام إعزازه ، وتولى حياطته وكفايته ، فيما دنا منه وما غاب عنه ، وأطال الله بقاءه والإمتاع به .

* * *

وكتب فى تهنئة بمولود : أما بعد فليس من أمر يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنتُ به بهجاً ، أعتدُّ فيه بالنعمة من الله الذى أوجب علىّ من حقك ، وعرّفنى من جميل رأيك ، فزادكَ الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك ، وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاماً سَرِيًّا [1] أجمل صورته ، وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاءَ عندكَ فاشتد سرورى بذلك ، وأكثرت حمد الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله بارًّا تقيًّا ، يشد عضدك ، ويكثر عددك ، ويُقر عينك .

* * *

وله فى فتح السند : الحمد لله ولى الحمد ، وأهل الثناء والمجد ، خالق الخلق ، ومدبر الأمر ، المسبغ على عباده ، والموجب عليهم حجته ، فليسوا يرجون إلا سعة فضله ، ولا يحذرون إلا ما اجترحوا من معصيته ، لما سبق من جزيل إحسانه ، وتظاهر من امتنانه ، وتقدم به الإعذار والإنذار اللذان لا يستخف بما عظم منهما ، إلا من استحوذ عليه الشيطان ، واستولى عليه الخذلان ، وقاده الحَيْن إلى موارد الهلكة .

* * *

(١) السرى : الظريف

وله تحميد إلى الولاة عن الخليفة : أما بعد فالحمد لله ذى المنن الظاهرة . والحجج القاهرة ، الذى قطع بينه و بين عباده المعذرة ، ورادف عليهم البينة ، ومهلة النظرة[1] ، وجعل ما آتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم المكتوب ، وما ذخر لهم من ثواب الآخرة بالنجح المطلوب ، فهم فى العاجلة شركاء فى النعمة ، وفى الآجلة شتى فى الرحمة ، يختص بها أهله ، المنتفعين بما ضرب لهم من الأمثال ، وتصريف الحال بعد الحال . المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مدد آجالهم ، قبل حلول ما يتوقع ، وفوت ما لا يرتجع .

* * *

سمع أحمد لأخيه شعراً قد كتب به إلى هوىّ[2] له :

أيا باذلا ودًّا لمن لا يشاكله يساعده فى حبه ويواصله
عليك بمن يرضى لك الناس وده أواخره محموده وأوائله

فكتب إليه أحمد . وفقك الله يا أخى للسداد ، وهداك للرشاد ، قرأت لك شعراً أنفذته إلى من تخطب مودته ، وتستدعى عشرته ، فسرنى شغفك بالأدب ، وساءنى اضطرابك فى الشعر ، وليس مثلك من أخرج من يده شيئاً يعود بعيب عليه ، وأعيذك بالله أن تلج لجة الشعر بلاعوم ينجيك منها ، وسباحة تصدرك عنها ، فتنسب إلى قبيح أمر هو يت النسبة إلى حسنه ، فاعرف الشعر قبل قوله ، واستعن على عمله بأهله ، ثم قل منه ما أحببت ، إذا عرفت ما أوردت وأصدرت ، وهذه أبيات على وزن أبياتك نظمتها بمثل ما نثرته لك وهى :

أبا حسن عانِ الدراية قبل ما تريغ[3] من الشعر الذى أنت قائله

---

(١) النظرة كفرحة التأخير فى الأمر .
(٢) الهوى كغنىّ المهوى : أى الذى يهوى ويعشق
(٣) أراغ : أراد وطلب .

ففى الشعر آداب كثير فتونها وباطل لهو إن تَعَنَّاك باطله[1]
وحسبك عجزاً بامرئ متغزل إذا عَىّ بالأمثال فيمن يواصله
يهون على معشوقه ما أعزه فتنقلب الأحوال فيما يحاوله
فدونك نصحاً من خبير مجرب قضى آخراً أفضت إليه أوائله
ومستأنف الأيام منها كسالف فبا لسالف الماضى فقس ما تزاوله

* * *

ولأحمد بن يوسف شعر رقيق كما رأيت ، ومنه ما كتب به إلى أبى دُلَف القاسم بن عيسى ، وكانت بينهما مودة ، وكانا يتهاديان ويتكاتبان ، ثم ولى أبو دُلف الجبل كله ، وأعرض فيما يظهر عن أحمد فكتب إليه :

ما على ذا كنا افترقنا بشيرا ز ولا هكذا عقدنا الإخاء
لم أكن أحسب الإمارة يزدا د بها ذو الوفاء إلا صفاء
تطعن الناس بالمثقفة السمـــر على غدرهم وتنسى الوفاء

وقال :

نفسى على حسراتها موقوفة فوددت لو خرجت من الحسرات
لو فى يدىَّ حساب أيامى إذاً ألفيتـــه متطلباً لوفاتى
لم أبك حبًّا للحياة وإنما أبكى مخافة أن تطول حياتى

وذكر من طريف شعره قوله .

أصبحت مخموراً أحدث عن نفسى ومالى من علم بما كان بالأمس
سقانى عبيد من يديه مدامة يصرّفها لى ثم يلحى على الجاس

(١) هذه رواية المرزبانى فى الموشح ، ورواية الصولى فى الأوراق هكذا :
ففى الشعر فضل لو وفيت بحقه ونقص إذا لم توف يشهر باطله

فيا ربّ يومٍ قد حمدت مساءه ... يباكرنى ذمٌّ له مطلع الشمس
فأصبحت قد حدثت نفسى بتوبة ... ويعتادنى للهو عندى إذا أمسى

وقال أيضاً :

عذب الفراق لنا قبيل وداعنا ... ثم اقتبلناه كسم ناقع
وكأنما أثر الدموع بخدها ... طَلٌّ سقيط فوق ورد يانع

قال أبو بكر الصولى : هو أول من أفصح عن هذا المعنى وتبعه الناس .

* * *

عتب أحمد على جارية له فى شىء سألته ألا يفعله ثم فعلت مثله فقال :

وعامل بالفجور يأمر بالبـ ... ـر كهاد يقود[1] فى الظلم
أو كطبيب قد شفّه سقم ... وهو يداوى من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ ... ثوبك طهر أو لا فلا تلم

* * *

ومن شعره :

يزين الشعر أفواهاً إذا نطقت ... بالشعر يوماً وقد يزرى بأفواه
قد يرزق المرء لا من حسن حيلته ... ويصرف الرزق عن ذى الحيلة الداهى
ما مضى من غنى يومًا ولا عدم ... إلا وقولى عليه الحمد لله

وقال :

إذا قلت فى شىء ، نعم ، فأتمه ... فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل ، لا ، فاسترح وأرح بها ... لكيلا يقول الناس إنك كاذب

وقال فى إفشاء السر :

إذا المرء أفشى سره بلسانه ... ولام عليه غيره فهو أحمق

(١) رواية ابن عساكر « يخوض » .

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذى استودعته السر أضيق

وقال : يا ساخطاً من أن طربت لزلزل لك حرمة ولزلزل إحسان

أغضبت من طربى على إحسانه أحسن لأغضب أيها الغضبان

وقال فى الهجاء :

كأنه من سوء آدابه أسلم فى كتاب سوء الأدب

وقال : نفسى على زفراتها مطوية وودت لو خرجت مع الزفرات

ومن كلامه : مجالسة البغضاء تثير الهموم ، وتجلب الغموم ، وتؤلم القلب ، وتقدح فى النشاط ، وتطوى الانبساط .

وقال : بالأقلام تساس الأقاليم .

وقال : القلم لسان البصر يناجيه بما استتر عن الأسماع ، إذا نسج حلله ، وأودعها حكمه .

وله من كلام : قد أذهب الله وصب العلة ونصبها ، ووفر خراجها وثوابها ، وجعل فيها من إرغام العدو بعقباها ، أضعاف ما كان عنده من السرور بفتح أولاها .

وقال : عبرات الأقلام فى خدود كتبها ، أحسن من عبرات الغوانى فى صحون خدودها .

ومما كتب به : أحق من أثبت لك العذر فى حال شغلك ، من لم يخل ساعة من برك فى وقت فراغك .

ومن كلامه : إذا لم تقدر أن تعض يد عدوك فقبّلها .

كان أحمد عدوًّا لسعيد بن سالم الباهلى وولده فذكرهم يومًا فقال : لولا أن الله عز وجل ختم نبوته بمحمد وكتبه بالقرآن ، لبعث فيكم نبى نقمة وأنزل عليكم قرآن عذاب ، وما عسيت أن أقول فى قوم محاسنهم مساوى السفل ، ومساويهم فضائح الأمم .

ابراهيم بن العباس الصولى

حياته الخاصة والعامة :

فى بغداد وفى عهد الرشيد السعيد ، ولد إبراهيم بن العباس بن محمد بن صُول ، فى بيت عُرف بالأدب والسياسة ، وكان جده من رجال الدولة العباسية ودعاتها ؛ وصُول جد أبيه يدين بالمجوسية ، أسلم فى جُرجان على يد يزيد بن المهلب ، فأصبح له مولىً ، وأصل صول تركى الجنس ، أقام فى فارس ، فنشأ أبناؤه على التشبه بأهلها .

وتخرّج إبراهيم فى مدينة المنصور بأخيه عبد الله بن العباس ، وكان من وجوه الكتاب ، وهو أسنُّ من أخيه بنحو عشرين سنة ؛ وجاء إبراهيم آدب من عبد الله ، وأحسن شعراً ، وأحذق كتابة ، وأعرق فى البلاغة ؛ وكان المطبوع فيه أكثر من المكسوب ، علّمه الدهر ما لم تعلمه الكتب ، وأوحى إليه الزمن المؤدب ما لم يُوحه لرجل عاش فى بيئة ضيقة ، وعيش ضنك ، و بيت خامل .

كان الصُولى مجموعة ثقافات وعناصر ، فيه الدم التركى والدم العربى ، جاءه الدم العربى من أمه ؛ وكان خاله العباس بن الأحنف من أشعر الشعراء فى عصره ، وربما كان إبراهيم يعرف التركية لغة آبائه ، والفارسية لغتهم الثانية ، بعد جلائهم إلى خراسان ، أما ثقافته العربية ، فأوسع ثقافة فى لغة العلم والدين ولغة دولته العظيمة .

كان محيط الصولى متسع الرحاب وحياته كلها كذلك ، دخل فى خدمة الدولة كآبائه ، يتولى بعض أعمال الإدارة ، و يتعرف إلى رجالها و يختلط بهم ،

وأطلع على عورات الناس ومحامدهم ، وكشف سر مجتمعه وعلانيته ، قلّب الأخلاق والأعراق كل مقلّب ، وثافن العظماء ، وعرف ما يرضيهم وما يغضبهم ، وكتب للخلفاء وتأدب بآدابهم ، كتب للمعتصم والواثق والمتوكل ؛ وقلما ذهب رجل برضا الملوك إلا كانت له مزايا تنفع دولتهم .

وأصاب الصولى ما يصيب قُربان[1] الملوك من السعادة ونقيضها ، وعانى من الكبراء ما يعانيه أمثاله ممن تطوحوا فى الخدمة ؛ وكان بعض ما نال مما أوقعته فيه المنافسة ، و بعضه مما استحق عليه النكبة : جرى فى طريقة رجال الدولة المطلقة المستبدة ، فمثّل صورة صحيحة من مجتمعه ، على ما كان كلامه صورة صادقة من قلبه وفكره ، ودخل فيما يدخل فيه نظراؤه من أرباب الولايات ، وما خرج على مألوفهم ، بلى ضَرَب على وترهم ، وحطب فى حبلهم ، تآمر على خصمائه وتآمروا عليه ، وضربهم وضربوه ، ومدح الناس ومدحوه ، وثلبهم وثلبوه ، وحسدهم وحسدوه ، وكان فى كل ما أتى مدفوعاً بنابل[2] من تربية عصره ومصره ، تجسدت فيه أخلاق عَصْرِيِّيه ، فانعكس كل ما رأى على صحيفة شعره ونثره ، فردده وردد عنه حتى عاد بعدُ أمثالاً .

لما عزم المأمون على الفتك بالفضل بن سهل عرف الصولى ذلك من صديق له كان من بعض من وُضعوا له ، فما رأى إلا القيام بحسن الصنيعة مع الفضل ؛ وقد عاش هو وأخوه عبد الله فى حمايته واصطناعه ، ورَفع منهما وحَنى عليهما ، فأخبر الفضل بما يدبَّر له ، وانتهى الخبر إلى المأمون ، فعرف أن الصولى قد أبلغ الفضل ما يُراد به ، فطلبه فاستتر ، ثم عفا عنه بما بلغه عنه من جواب لطيف ، دل على بعد نظر وذكاء .

---

(١) القربان جليس الملك الخاص . (٢) النابل : السائق .

بدأت حياة إبراهيم فى السياسة زمن المعتصم ، وسار سيرة أرباب الإدارة إذ ذاك ، يأخذ ويعطى من مال الأمة والدولة ، ويُقلد كبار العمال فى مظاهرهم ، ولا يتعفف عن مال ومتاع ؛ كان مظهراً من مظاهر العاملين فى الدولة ، يستمتع بخيراتها أنّى وجدها ، ويفوقهم بأنه كان على جانب عظيم من المروءة وسعة الفضل ؛ ولا عجب أن سار الصولى هذه السيرة ، وقد كان فى زمن يكتب فيه مثل أبى العيناء النديم إلى صديق له وَلى ولاية : « واعلم أن الخيانة فطنة ، والأمانة حرفة ، والجمع كَيْس ، والمنع صرامة ، وليس كل يوم ولاية ، فاذكر أيام العطلة ، ولا تَحْقِرن صغيراً ، فإن من الدور إلى الدور ، وإيلاء الولاية رِقدة ، فتنبه قبل أن تُنبه ، وأخو السلطان أعمى عن قليل سوف يبصر ، وما هذه الوصية التى أوصى بها يعقوب بنيه ، ولكن رأيت الحزم فى أخذ العاجل ، وترك الآجل . »

وموطن الضعف من أخلاق الصولى أنه كان كما أراد أبو العيناء يأخذ العاجل ولا يبالى ، ويدب إليه دبيب الوشاة ، فينجو مرات ، ويَعْطَب مرات . روى الجهشيارى أنه لم يكن للصولى تقدم فى الخراج على بلاغة فيه ، وكان بينه وبين أحمد بن المدَبِّر تباعد ، وكان أحمد مقدمًا فى الكتابة ، فقال أحمد بن المدبر للمتوكل : قلدت إبراهيم بن العباس ديوان الضياع ، وهو متخلف فى هذا الشأن ، لا يحسن منه قليلاً ولا كثيراً ، وطعن عليه طعناً قبيحاً ، فقال المتوكل : فى غدٍ أجمع بينكما . واتصل الخبر بإبراهيم فأيقن بحلول المكروه ، وعلم أنه لا يفى بأحمد بن المدبر فى صناعته ، وغدا إلى دار السلطان آيساً من نفسه ونعمته ، وحضر أحمد فقال له المتوكل : قد حضر إبراهيم وحضرتَ ومن أجلكما قعدت ، هات اذكر ما كنت فيه أمس ، فقال أحمد : أى شىء

أذكر عنه فإنه لا يعرف أسماء عماله فى النواحى ، ولا يعلم ما فى دساتيرهم من تقديراتهم وكيولهم ، وحمل من حمل منهم ومن لم يحمل ، ولا يعرف أسماء النواحى التى تقلدها ، وقد اقتطع أصحابه بناحية كذا كذا ألفاً ، واختلت ناحية كذا فى العمارة ، وأطال فى ذكر هذه الأمور ؛ فالتفت المتوكل إلى إبراهيم فقال : ما سكوتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين جوابى فى بيتى شعر قلتهما فإن أذن أمير المؤمنين أنشدتهما ، فقال هات فأنشده :

ردَّ قولى وصدق الأقوالا وأطاع الوشاة والعذّالا
أتُراه يكون شهر صدود وعلى وجهه رأيت الهلالا

وقيل إن إبراهيم لما سمع كلام ابن المدبر ضاقت عليه الحجة ، وخاف أن يحقق قوله إن اعترف ، ثم لا يرجع منه إلى شىء فيعود عليه الغرم ، فعدل عن الحجة إلى الحيلة فأنشد البيتين . وفى رواية أن الخليفة لما سمع ما سمع قال : لا يكون ذلك والله لا يكون ذلك أبداً ، والتفت إلى الواشى وقال له : كيف تقبل فى المال قول صاحبه . وفى رواية ثانية أن المتوكل قال لما سمع البيتين : زه زه أحسنت ؛ إيتونى بمن يعمل فى هذا لحناً ، وهاتوا ما نأكل وجيئوا بالنساء ، ودعونا من فضول ابن المدبر واخلعوا على إبراهيم بن العباس ، فخلع عليه وانصرف إلى منزله .

قالوا ومكث إبراهيم بن العباس يومه مغموماً ، فقيل له هذا يوم سرور وجذل بما جدد الله لك من الانتصار على خصمك ، فقال : الحق أولى بمثلى وأشبه ، إنى لم أدفع حجة أحمد بحجة ، ولا كُذّب فى شىء مما ذكر ، ولا أنا ممن يُعشره فى الخراج ، كما أنه لا يُعشرنى[1] فى البلاغة ، وإنما

(١) لا يبلغ معشاره يقال فلان لا يعشر فلانا ظرفا أى لا يبلغ معشاره ، وعشرت =

فَلجت[1] برطازة[2] ومخرقة ، أفلا أبكى فضلاً عن أن أغتم من زمان يدفع هذا كله .

وبهذه الوقعة تمثل لنا أدب الصولى ، وضعفه فيما وسد إليه من عمل ، اعترف بإهماله فى أعماله ، حتى ترك المجال لخصمه يسقطه فى نظر الخليفة ؛ وكأن ابن المدبّر رماه بما رماه وهو موقن بأن هذا الإهمال لا بدَّ أن يكافئه عليه عماله ، ويعطوه بعض ما يجنون ، فتضيع حقوق الدولة ، وتهمل مصالح الرعية .

« ما كل مرة تسلم الجرة » فقد صار الصولى إلى زمن ما استطاع أن يدفع عن نفسه بغير ما ملكت يده . كان فى سنة ٢٣٣ على الأهواز ، وكان صديقه محمد بن عبد الملك الزيات وزيراً ، فوجه إليه من أقامه للناس ، فصالحه عن نفسه بألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، وأُحدر الصولى بعد ما قُبض عليه إلى بغداد لأخذ ماله بها ، وأخذوا غلامه وكان قهرمانه ، فى يده أمواله يتجر بها ، وأخذوا عدة من أهل بيته ، وأخذ معهم حمل بغل من الدنانير ، ووجدت له بيوت فيها أنواع التجارة ، وكان جميع ما قبض له ، مع ما وجد قيمة تسعين ألف دينار ، وأمر المتوكل بحبسه ، فقال إبراهيم يخاطب الوزير صديقه القديم :

وكنت أخى بأرخى الزما ن فلما نبا عُدْتَ حرباً عواناً
وكنت أذمُّ إليك الزما ن فأصبحت فيك أذم الزمانا
وكنت أعـدك للنائبا ت فها أنا أطلب منك الأمانا

= (بتشديد الشين) القوم تعشيراً إذا كانوا تسعة فجعلتهم عشرة وعشرتهم (بفتح الشين) إذا أخذت واحداً فصاروا تسعة

(١) الفلج : الظفر ، وفَلَجُ ويفْلِجُ فى الكل .

(٢) والرطازات مخففة الخرافات .

وقال :

أصبحت من رأى أبى جعفر فى هيئة تنذر بالصيلم[1]
من غير ما ذنب ولكنها عداوة الزنديق للمسلم

وذكر من ترجموا للصولى أن الذى تولى أمر كشفه تحامل عليه تحاملاً شديداً ، فكتب إبراهيم إلى الوزير محمد بن عبد الملك :

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب وسُلط أعداء وغاب نصير
تكون عن الأهوازدارى بنجْوة[2] ولكن مقادير جرت وأمور
وإنى لأرجو بعد هذا محمداً لأفضل ما يُرجى أخ ووزير

والسبب فى العداوة بين محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم بن العباس الصولى ، أنه لما ولى ابن الزيات وزارة المعتصم نقص إبراهيم عما يستحقه من الدعاء ، فلم تحتمل ذلك نفسه ورياسته ، وموضعه من الصناعة والدولة ، فعاتبه فى ذلك فلم يُعْتبه ، فأَلهب له نار هجاء لا يطفئها الدهر ، فزعم إبراهيم أن ابن الزيات ما ظنَّ أن الرياسة تنجذب إليه ، ولا أن العز يتحصل له ، إلا بحط إخوانه عن منزلتهم ، ونقصهم عن مرتبتهم ، ثم نظم ذلك فى شعر فقال :

من رأى فى المنام مثل أَخٍ لى كان عونى على الزمان وخلى
رفعته حال فحاول حطى وأبى أن يُعَزَّ إلا بذلى

وكان هذا الخطاب فى أول الأمر ، ثم أنحى عليه بالهجاء ، وكان محمد ابن عبد الملك ، على علمه وأدبه ، وكونه واحداً فى صناعته ، مفرداً فى براعته ، لا يخلو من لؤم أحياناً .

ولما وقف الخليفة على تحامل ابن الزيات رفع يده عن إبراهيم ، وأمره أن

---

(١) الصيلم : الأمر الشديد والداهية (٢) النجوة : ما ارتفع من الأرض

يقبل منه ما رفعه ، ويرده إلى الحضرة مصوناً ، ثم ولاه ديوان زمام النفقات ، وتولّى أيضاً الضياع ، فبسط إبراهيم لسانه فى ابن الزيات ، وهجاه هجاءً كثيراً منه :

قدرت فلم تَضْرُر عدوًّا بقدرة ... وسمتَ بها إخوانكَ الذلَّ والرغما
وكنت مليًّا بالتى قد يعافها ... من الناس من يأبى الدّنيّة والذّما

وقال فيه أيضاً :

أبا جعفر خَفْ خفضة بعد رفعة[1] ... وقَصّر قليلاً عن مدى غُلَوائكا
فإن كنتَ قد أُوتيت عزًّا ورفعة[2] ... فإن رجائى فى غدٍ كرجائكا

وقال فيه أيضاً :

دعوتك فى بلوى أَلَمّت صروفها ... فأَوقدت من ضِغن على سعيرَها
وإنى إذا أَدعوك عند ملمة ... كداعية بين القبور نصيرها

ومما قال فيه :

أخ كنت آوى منه عند ادكاره ... إلى ظل آباء من العز باذخ
سعت نُوب الأيام بينى وبينه ... فأقلعن منا عن ظلوم وصارخ
وإنى وإعدادى لدهرى محمداً ... كملتمس إطفاء نار بنافخ

وقال فيه :

فإن تكن الدنيا أَنالتك ثروة ... فأَصبحت ذا يُسر وقد كنت ذا عُسر
فقد كشف الإثراء منك خلائقاً ... من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وتَغيّر الزمان ورأى ابن الزيات تغيراً من الواثق فخافه ، وفرق مالاً عظيماً ، وجوهراً نفيساً ، فى ثقاته ومعامليه من التجار ، والصولى « يعاديه ويرصد له

(١) فى رواية : « أبا جعفر خف نبوة بعد دولة »

(٢) فى الأغانى بدل هذه الشطرة « لئن كان هذا اليوم يوماً حويته » ؛ وفى رواية « فان يك هذا اليوم يوماً حويته » .

بالمكاره لإساءته إليه » ، فنظم أبياتاً وأشاعها حتى بلغت الواثق يُغريه به ؛ وفى السنة التى قبض فيها ابن الزيات على الصولى ، هلك ابن الزيات فى حبس المتوكل .

ولما أمر المتوكل إبراهيم بن العباس الصولى أن يكتب فيما كان أمر به من تأخير الخراج حتى يقع فى خمس من حزيران و يقع استفتاح الخراج به ، كتب فى ذلك كتابه المعروف ، وأحسن فيه غاية الإحسان ، فدخل عبيد الله بن يحيى على المتوكل ، فعرفه حضور إبراهيم بن العباس و إحضاره الكتاب معه ، فأمر بالإذن له ، فدخل وأمره بقراءة الكتاب فقرأه ، واستحسنه عبيد الله بن يحيى وكل من حضر ؛ قال البلاذرى فدخلنى حسد له فقلت : فيه خطأ ، قال فقال المتوكل : فى هذا الكتاب الذى قرأه علىّ إبراهيم خطأ ؟ قال : قلت نعم ، قال : يا عبيد الله وقفت على ذلك ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما وقفت فيه على خطأ ، قال : فأقبل إبراهيم بن العباس على الكتاب يتدبره ، فلم ير فيه شيئاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الخطأ لا يعرى منه الناس ، وتدبرت الكتاب خوفاً من أن أكون قد أغفلت شيئاً وقف عليه أحمد بن يحيى فلم أر ما أنكره ، فليعرفنا موضع الخطأ ، قال فقال المتوكل : قل لنا ما هو هذا الخطأ الذى وقفت عليه فى هذا الكتاب ، قال : فقلت هو شىء لا يعرفه إلا على بن يحيى المنجم ومحمد بن موسى وذلك أنه أرخ الشهر الرومى بالليالى ، وأيام الروم قبل لياليها ، فهى لا تؤرخ بالليالى ، و إنما يؤرخ بالليالى العرب ، لأن لياليها قبل أيامها بسبب الأهلّة ، فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين هذا ما لا علم لى به ولا أدعى فيه ما يدعى ، قال : فغيّر تاريخه .

وقد عرف من سيرة الصولى أنه كان يستمتع بمباهج الحياة ومناعمها ،

ويتبسط فى مجالسه مع عشرائه ، ويصرف جانباً من وقته فى اللهو ، ومداعبة الغوانى والقيان . هوى جارية لبعض المغنين بسر من رأى يقال لها شاهر شُهر بها ، وكان منزله لا يخلو منها ؛ وله معها وقائع وتجنيات ، وقال فيها أشعاراً كثيرة وكانت هى شاعرة ، وكانت تهواه أيضاً ، فعاتبها وعاتبته ، وغازلها وغازلته ، وما زالا كذلك حتى فرق الموت بينهما .

وكأن الصولى كان يرى من حقه أن يحب ، ومن حقه أن يطرب ويمجن ، وأن يسمع الغناء والموسيقى ، ويخلع أثواب الوقار فى بعض ساعات يومه ، وما كان يرى فى ذلك بأساً ، بل يعتقد أن هذه الملاهى مما يخفف من تعبه ، ويزيد فى الإمتاع بأدبه . ولقد قال له بعضهم ذات يوم : قد أخملت نفسك ورضيت أن تكون تابعاً أبداً ، لاقتصارك على القصف واللعب ، فأنشأ يقول :

إنما المرء صورة حيث حَلَّت تناهتِ
أنا مذ كنت فى التـ صرف[1] لى حال ساعتى

وهذا سرٌّ تخلفه فى عمله الإدارى ، يلقى الحبل على الغارب ، ويلتفت لإرضاء نفسه بما تصبو إليه من راحة ونعيم ؛ وربما كان ذلك من دواعى معاداته بعض رجال الدولة ، ومنهم من كان يريد أن يستوفى مال السلطان منه ، فيما يُولاه من الأعمال الجليلة ، ومنهم من يحاول أن يشاطره مغانمه ، ويريده أن ينزل على إرادته ، أو يصادره ويسعى به إلى السلطان .

استلزمت حياة الصولى الخاصة تعرّف طرق الأخذ من المال ، وإنفاقه فيمن كان يحيط به من الناس ، وهو فى كرمه على أخلاق عالية ، ولعله كان من المتعذر فى ذاك العصر أن يعتصم العامل بعصمته من كل وجه ، ويعف عن

(١) التصرف : الاستخدام .

كل منكر ؛ ولو فعل ذلك لقضت الحال أن ينعزل فى رأس جبل أو يأوى إلى بعض الرباطات يجاهد فى سبيل الله قانعاً مخبتاً . والمجتمع لا يعيش بهذا المقتر ، ولا بذاك المسرف .

أدبه وكتابته :

كأن ملكة النثر والنظم كانت كالشىء الواحد فى نظر الصولى ، إن شاء نثر ، وإن شاء شَعر ، والإجادة مكتوبة له فى كلتا الوجهتين ، وما كان شعره لولا أوزانه وقوافيه إلا نثراً ، وبعمل قليل يحال نثره شعراً وشعره نثراً . كان إبراهيم بن العباس إن قال الشعر كأنه يخطب أو يكتب ، وإذا كتب الكتاب وخطب الخطاب كان كأنه يشعر ، فأكذب من قالوا إنه لا إجادة لشاعر فى الكتابة ، ولا لكاتب فى الشعر . فهو إمام فى الصناعتين ، فرد فى الكتابة ، وبحق دعى كاتب العراق ، وعدّ فى زمرة أعاظم الشعراء ؛ وهذا من أندر ما وقع لمن عانوا صناعة القلم منذ القديم وإلى اليوم .

يقول المسعودى إنه لا يعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتاب أشعر منه ، وكان دِعْبِل يقول : لو تكسب إبراهيم بالشعر لتركنا فى غير شىء ، وتعجب من قوله :

إنّ امرأ ضنّ بمعروفه عنى لمبذول له عذرى
ما أنا بالراغب فى خيره إن كان لا يرغب فى شكرى

قال ابن رشيق : والكتاب أرق الناس فى الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيعاً ، وأحلاهم ألفاظاً ، وألطفهم معانى ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم من تكلف ؛ وقد قيل الكتاب دهاقين الكلام ، وما نزيدك على قول إبراهيم بن العباس

الصولى بين يدى المتوكل حين أحضر لمناظرته أحمد بن المدبر . فقال ارتجالاً :

صدّ عنّى وصدقَ الأقوالا وأطاع الوشاة والعـذالا
أتراه يكون شهر صـدود وعلى وجهـه رأيت الهلالا

وكان أحمد بن يحيى ثعلب يقول إبراهيم بن العباس أشعر المحـدثين ، وما روى شعر كاتب غيره ، وكان يستجيد قوله :

لنا إبل كُوم[1] يضيق بها الفضا ويغـبرّ منها أرضها وسماؤها
فمن دونها أن تستباح دماؤنا ومن دوننا أن تستباح دماؤها
حمًى وقِرًى ، فالموت دون مرامها وأيسر خطب يوم حق فناؤها

ويقول والله لو أن هذا لبعض الأوائل لاستجيد له .

وسُمع إبراهيم بن العباس يقول لأبى تمام الطائى ، وقد أنشده شعراً له فى المعتصم : يا أبا تمام أُمراء الكلام رعية لإحسانك ، فقال له أبو تمام : لأنى أستضىء بك ، وأَرِدُ شِرعتك .

ولما قرأ إبراهيم على المتوكل رسالته إلى أهل حمص : « أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حمد الله عليه بما قَوَّم به من أَوَد ، وعدّل به من زَيْغ ، ولمّ به من منتشر ، استعمال ثلاث ، يقدم بعضهن أمام بعض ، أُولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التى لا يقع بحسم الداء غيرها .

أناة ، فإن لم تغنِ عقّب بعـدها وعيداً ، فإن لم تغن ، أغنت عزائمه

عجب المتوكل من حسن ذلك ، وأومأ إلى عبيـد الله ، أما تسمع ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلة خبأها الله لك ، واحتبسها على أيامك ؛ وهذا

(١) الكوم : بضم الكاف قطعة من الإبل .

أول شعر نفذ فى كتاب عن خلفاء بنى العباس .

وكتب عن أمير المؤمنين إلى بعض البغاة الخارجين يتهددهم ويتوعدهم ، وما زاد أن وضع خمس كلمات فى أول البيت السابق ، فأصبح كتاباً منثوراً قال :

« أما بعد فإن لأمير المؤمنين أناة ، فإن لم تغن عقب بعدها وعيداً ، فإن لم تُغن أغنت عزائمه والسلام . »

واشتهر إبراهيم بإيجازه فى رسائله ؛ ومن ذلك رسالة له أنشأها فى بعض العصاة الذين نصبت جثثهم للاعتبار . « قسم الله عدوه أقساماً ثلاثة : روحاً معجلة إلى دار عذاب الله ، وجثة منصوبة لأبصار أولياء الله ، ورأساً منقولاً إلى مقر خلافة الله . »

حدث أبو بكر الصولى عن العباس بن محمد قال : أنشدنى إبراهيم بن العباس فى مجلسه فى ديوان الضياع :

ربما تجزع النفوس من الأمـــر له فرجة كحلّ العقال

ونكت بقلمه ثم قال :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذَرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

قال : فعجبنا من سرعة طبعه ، وجودة قريحته ؛ وشاعت الأبيات الثلاثة فى المتأخرين حتى أصبحت مما لا يكاد يغفل عن التمثل بها أحد ؛ وكذلك كثير من أبياته ، وقلّ فى الناس من يعرف ناظمها .

ومما ذكروا من بدائع بدائهه : أنه خرج ودعبل الخزاعى وأخوه رزين فى نظراء من أهل الأدب رجالةً إلى بعض البساتين فى خلافة المأمون ، وذلك فى زمن خمول إبراهيم ، فلقوا جماعة من أهل السواد من حُمّال الشوك ، فأعطوهم شيئاً وركبوهم حميرهم ، فأنشأ إبراهيم يقول :

أُعيضت عن حمول الشو ك أحمالاً من الحَرْف
نشاوى لا من الصهبا ء بل من شدة الضعف

فقال رزين :

فلو كنتم على ذاك تميلون إلى قصف
تساوت حالكم فيه ولم تبقوا على خسف

فقال دعبل :

وإذ فات الذى فات فكونوا من أولى الظرف
ومرّوا نقصف اليوم فإنى بائع خفى

ثم باع خفه وأنفق ثمنه عليهم .

ومما أنشد الصولىّ ثعلباً لنفسه :

كم قد تجرعت من حزن ومن غُصص إذا تجدَّد حزن هوَّن الماضى
وكم غضبت فما بَالَيْتُ غضبى حتى رجعت بقلب ساخط راضى

قال أبو بكر الصولى كأنه أخذه عندى من قول خاله العباس بن الأحنف :

تعلمت ألوان الرضا خوف عتبها وعَلمها حبى لها كيف تغضب
ولى غير وجه قد عرفت مكانه ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

ومما يتمثل به من شعره قوله :

وربَّ أخ ناديته لملمة فألفيته منها أجلَّ وأعظما

ومما أُثر له :

لا تمدحن ابن سهل إن وجدت له فعلا جميلاً ولا تعذل إذا أزِما[1]
فليس يمنع إبقاءً على نَشَب وليس يعطى الذى يعطيه معتزما

(١) أزم العام أشتد قحطه .

لكنها خطرات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

ربما كان لإبراهيم دوران أخصب فيهما شعره ونثره ، دور افتتانه بتلك القينة الشاعرة فى سامرّا ، ودور اضطهاد محمد بن عبد الملك الزيات له ، وهياج النفس بالحب ، وهياج النفس بالشدة ، مدعاة إلى تفتح القريحة عند بعض الناس ؛ فمن كتبه يستعطف ابن الزيات : « كتبت إليك وقد بلغت المدية المحزّ ، وعَدَتْ الأيام علىّ ، بعد عدوى بك عليها ، وكان أسوأ ظنى وأكثر خوفى أن تسكن فى وقت حركتها ، وتكفّ عند أذاتها ، فصرت علىّ أضرّ منها ، وكفّ الصديق عن نُصرتى خوفاً منك ، وبادر إلىّ العدو تقرباً إليك » وكتب تحت ذلك :

أخ بينى وبين الدهـ ـر صاحب أيّنا غلبا
صديق ما استقام فإن نَبَا دهر علىّ نبـا
وثبت على الزمان به فعاد به وقد وثبـا
ولو عاد الزمان لنـا لعاد به أخاً حَدِبا

وكتب إليه : « أما والله لو أمنت ودك لقلت ، ولكنى أخاف منك عتباً لا تنصفنى فيه ، وأخشى من نفسى لائمة لا تحتملها لى ، وما قدّر فهو كائن ، وعن كل حادثة أُحدوثة ، وما استبدلت بحالة كنت فيها مغتبطاً ، حالة أنا فى مكروهها وألمها أشد علىّ من أنى فزعت إلى ناصرى عند ظلم لحقنى ، فوجدت من ظلمى أخفّ فى ظلمى منه ، وأحمد الله كثيراً » .

ولما انحرف الوزير عن الصولى تحاماه الناس أن يلقوه ، وكان الحارث المغنّى صديقاً له مصافياً ، وهجره فى من هجره من الإخوان ، فكتب إليه :

تغيّر لى فيمن تغير حارث وكم من أخ قد غيرته الحوادث

أحارث إن شوركت فيك فطالما غنينا وما بيني وبينك ثالث

دخل أحمد بن المدبّر على إبراهيم بعد خلاصه من النكبة مهنئاً ، وكان استعان به فى أمر النكبة فقعد عنه ، وهو الذى كان جاهره العداوة فى حضرة المتوكل ، وأغضى الخليفة عما نسب إلى الصولى ، وكان بلغه أن ابن المدبر حرّض عليه ابن الزيات ، فقال الصولى :

وكنت أخى بالدهر حتى إذا نبا نبوتَ فلما عاد عدت مع الدهر
فلا يوم إقبالى عددتك طائلا ولا يوم إدبارى عددتك من وتر
وما كنت إلا مثل أحلام نائم كلا حالتيك من وفاءٍ ومن غدر

وله فيه أيضاً :

لو قيل لى خذ أماناً من أعظم الحدثان
لما أخذت أماناً إلا من الخلان

وقال :

بلوت الزمان وأهل الزمان وكل بلوم وذمّ حقيق
فأوحشنى من صديقى الزمان وآنسنى بالعدو الصديق

وقوله :

يا أخاً لم أر فى الدهر خِلاًّ قبله أسرع هجراً ووصلا
كنت لى فى صدر يومى صديقاً فعلى عهدك أمسيتَ أم لا

***

حكى الجهشيارى قال : رأيت دفتراً بخط إبراهيم بن العباس الصولى فيه شعر قاله فى حبس موسى بن عبد الملك ، أخى محمد بن عبد الملك الوزير ، يصف غليظ ما هو فيه من الحبس ، وثقل الحديد والقيد ، ويذكر موسى فى شعره ،

وكان يكنى بأبى الحسن ، فكناه بأبى عمران . فقال فى قصيدة طويلة :

كم تُرى يبقى على ذا بدنى ... قد بَلى من طول همى وفنى
أنا فى أسر وأسباب رَدىً ... وحديد فادح يَكْلَمُنى
وأبو عمران موسى حنق ... حاقدٌ يطلبنى بالإحَنِ
ليس يشفيه سوى سفك دمى ... أو يرانى مدرجًا فى كفن

وقد كتب أحمد بن المدبّر بخطه فى ظهر هذا الدفتر :

أبا إسحاق إن تكن الليالى ... عطفن عليك بالخطب الجسيم
فلم أر صَرف هذا الدهر يجرى ... بمكروه على غير الكريم

وله أبيات فى الغزل والنسيب فيها إبداع جميل ، ومنها :

وعلمتنى كيف الهوى وجهلته ... وعلمكم صبرى على ظلمكم ظلمى
وأعلم مالى عندكم فيردّنى ... هواى إلى جهلى فأرجع عن علمى

وقال وأورده أبو تمام فى الحماسة :

ونُبئت ليلى أرسلت بشفاعة ... إلىّ فهلا نفس ليلى شفيعها
أأكرم من ليلى علىّ فتبتغى ... به الجاه أم كنت امرأً لا أطيعها

وقال :

تدانت بقوم عن تناءٍ زيارة ... وشطّ بليلى عن دنوّ مزارها
وإن مقيمات بمنعرج اللِّوى[1] ... لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

وقال :

وليلى كمثل النار ينفع ضوءها ... بعيداً نأى عنها ويحرق جارها

---

(١) اللوى كإلى : ما التوى من الرمل .

ومما قال فى حسن الحديث :

إن الزمان .وما ترين بمفرق ... صرَفَ الغواية فانصرفت كريما
وضجرت إلا من لقاء محدّث ... حسن الحديث يزيدنى تعليما

ومن قوله :

لا تلمنى فإن همك أن تثـ ... ـرى وهمى مكارم الأخلاق
كيف يستطيع حفظ ماجمعت كف ... اه من ذاق لذة الإنفاق

ومن إشاراته :

لا يمنعنك خفض العيش فى دعة ... نزوع نفس إلى أهلٍ وأوطان
تلقى بكل بلاد إن حللت بها ... أهلاً بأهـــل وجيراناً بجيران

وقال :

لا نُهنّيـك بطوس ... بل نهنى بك طوسا
أصبحت بعد طلاق ... بك بالفضـل عروسا (١)

وقال فى أبى الوليد أحمد بن أبى الورد :

عَفَّت مساوٍ تبدت منك فاضحةً ... على محاسن أبقاها أبوك لكا
لئن تقدمت أبناء الكرام بها ... لقـــد تقدم آباء اللئام بكا

وقال :

وأنت هوى النفس من بينهم ... وأنت الحبيب وأنت المطاع
فما بك أن بَعُدوا وحـدةٌ ... ولا معهم إن بعدتَ اجتماع

---

(١) هذه رواية الثعالبى فى المنتحل ، وروايته فى كتابه نثر النظم وحل العقد هكذا :
فلقـد أصبحت اليو م بك الطوس عروسا

ومما نسب إليه :

كن كيف شئت وقل ما تشا ء وأبرق يميناً وأرعد شمالا
نجا بك لؤمك منجى الذبا ب حمته مقاذره أن يُنالا

ومن تغزله :

أراك فلا أردُّ الطرف كيلا يكون حجابُ رؤيتك الجفونُ
ولو أنى نظرتُ بكل عين لما استقصت محاسنك العيونُ

ومن شعره وهو مما صار فى حكم الأمثال شيوعاً ، وقيل هو لأبى تمام الطائى وهو الأرجح :

أَوْلَى البرية طراً أن تؤاسيه عند السرور الذى آساك فى الحزَن
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم فى الموطن الخشن

وأنشد الأخفش من شعر الصولى الأبيات الثلاثة التالية ، وكان يفضلها ويستجيدها :

أميل مع الصديق على ابن[1] أمى وأقضى[2] للصديق على الشقيق
وإما تلقنى حرًّا مطاعاً فإنك واجدى عبد الصديق
أُفرِّق بين معروفى ومَنّى وأجمع بين مالى والحقوق

قال المسعودى : ومما استحسن من شعره الذى لم يسبقه عند جماعة أهل الأدب أحد من زمانه قوله :

لنا إبل كُوم يضيق بها الفضا الخ

وهى الأبيات الثلاثة التى تقدمت ، وكان ثعلب يستحسنها .

ويقول أبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى ، ومن المديح البارع قول إبراهيم بن العباس :

(١) فى رواية ابن عمى . (٢) رواية وآخذ .

أسدٌ ضارٍ إذا هيجته وأبٌ برٌّ إذا ما قدرا
يعلم الأبعد[1] إن أثرى ولا يعلمُ الأدنى إذا ما افتقرا

قال وقد أحسن إبراهيم فى قوله :

إمّا ترينى أمام القوم متبعاً فقد أرى من وراء الخيل أتبع
يوماً أُنيخ فلا أبقى على نَشَب وأستبيح فلا أبقى ولا أدع
لا تسألى القوم عن حىّ صحبتهم ماذا صنعت وماذا أهله صنعوا

ونقل له قوله :

فكن كيف شئتَ وقل ماتشا وأبرق يميناً وأرعد شمالا

إلى آخر ماورد آنفاً .

قال وهذه الأبيات و إن كانت مشهورة ، فإن لإيرادها ههنا معنى كبيراً ، وذلك أنى لست أجد خيراً منها فى معناها وأجود .

وقال المرزبانى أيضاً : وأنشدنى أبو أحمد أنشدنى أبو مسلم بن بحر لإبراهيم ابن العباس ، وهى أبيات مشهورة أوردتها لأنى لست أجد مثلها فى معناها .

ولما رأيتك لا فاسقاً تهابُ ولا أنت بالزاهد
وليس عدوّك بالمتقى وليس صديقك بالحامد
أتيت بك السوق سوق الرقيـ ق فناديت هل فيك من زائد
على رجل غادر بالصديـ ق كفور لنعمائه جاحد
فما جاءنى رجل واحدٌ يزيد على درهم واحد
سوى رجل حار منه الشقا وحَلّت به دعوة الوالد
فبعتك منه بلا شاهد مخافة أدرك بالشاهد

(١) فى رواية يعرف بدل يعرف فى الموضعين .

وأبتُ إلى منزلى سالماً وحلَّ البلاء على الناقد

قال وقد أحسن التصرف فيها فما قارب فى معانيها أحد . قال : ومن ظريف الشكاية قول إبراهيم :

فدعنى راغماً أشقى بوجدى وخُذ قلبى إليك بغير حمدِ
سقام لا يرق علىَّ منه ووجه لا يكافئه بود
وقد أصفيته ودى بجهدى فعارض فى الجفاء بمثل جهدى

ومما يجب على الرؤساء أن يحفظوه قوله :

تزيده الأيام إن أقبلت حزماً وعلماً بتصاريفها
كأنها فى وقت إسعافها تُسمعه صوت تخاريفها

ومما أحسن فيه و برَّز على نظرائه قوله :

سقياً ورعياً لأيام لنا سلفت بكيت منها فصرت اليوم أبكيها
كذاك أيامنا لا شك نندبها إذا تقضّت ونحن اليوم نشكيها

وقال :

قلت لها حين أكثرت علا ىَّ ويحك أزرت بنا المروءات
قالت فأين الكرام قلت لها لا تسألى عنهم فقد ماتوا

وقال :

خَلِّ النفاق لأهله وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن تُرى إلا عدواً أو صديقا

وقال :

وعابكِ أقوام فقالوا شبيهة ببدر الدّجى حاشاك أن تشبهى البدرا
لئن شبهوك البدر ليلة تمه لقد قارنوا الشنعاء واقترفوا الوزرا

أيشبه بدرٌ آفلٌ نصفَ شهره ضياء منيراً يطلع الشهر والدهرا

ومن قوله فى الفضل بن سهل وهو كسائر شعره كأنه نثر :

لفضل بن سهل يدٌ تقاصر عنها المثل
فبسطتها للغنى وسطوتها للأجل
وباطنها للندى وظاهرها للقُبَل

وقوله :

تمر الصَّبا صفحاً بساكن ذى الغضا ويصدع قلبى أن يهب هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وإنما هوى كل نفس حيث حلَّ حبيبها
وزالت زوال الشمس عن مستقرها فمن مخبرى فى أى أرض مغيبها
تطلّع من نفسى إليها[1] نوازع عوارف إن اليأس منك نصيبها

ومما ينسب إليه :

يُمن عليكم بأموالكم وتُعطون من مائة واحدا

ونقل المرزبانى :

ومؤمل للنائبات إذا هب الزمان بأزره هبا
لما رآنى نهب حادثة جعل الذخائر دونها نهبا

ونقل له ياقوت قوله :

ولكن الجواد أبا هشام وفىّ العهد مأمون المغيب
بطىء عند[2] ما استغنيت عنه وطلّاع عليك مع الخطوب

فقال : إن هذا من نادر الشعر وجيده . وقال أيضاً : ومن أحسن ما قيل فى قصر الليل قول إبراهيم بن العباس :

---

(١) فى رواية طوالع . (٢) فى رواية بطىء العهد ما استغنيت عنه .

وليلة من الليالى الزُّهر قابلت فيها بدرها ببدر
لم تك غير شَفَق وفجر حتى تولّت وهى بكرُ الدهر

ومن شعره والناس يروونه لغيره :

ليلة كاد يلتقى طرفاها قصراً وهى ليلة الميلاد

وهكذا تكاد لا ترى للصولى إلا البيتين والثلاثة ، ومنها ما يغنى عن قصيدة أو قصائد . ذكروا أن عبد الله بن العباس وهب لأخيه إبراهيم بن العباس ثلث ماله ، ووهب لأخته الثلث الآخر ، فصار مساوياً لهما فى المال . فقال إبراهيم :

ولكن عبد الله لما حوى الغنى وصار له من بين إخوته مال
رأى خَلة منهم تُسدّ بماله فساهمهم حتى استوت بهم الحال

وكان لإبراهيم ابن قد يفع وترعرع ، وكان مُعْجَباً به ، فاعتلّ علة لم تطل حتى مات ، فرثاه مراثى كثيرة ، وجزع عليه جزعاً شديداً ، فمن مراثيه :

أنت السواد لمقلة تبكى عليك وناظرُ
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أُحاذر

قال الحسين بن على الباقطائى : شاورت أبا الصقر قبل وزارته فى أمر لى ، فعرفنى الصواب . فقلت له : أنت أيدك الله كما قال إبراهيم بن العباس فى هذا المعنى :

أتيتك شتى الرأى لابس حيرة فسددتنى حتى رأيت العواقبا
على حين ألقى الرأىُ دُونى حجابه فجبت الخطوب واعتسفت المذاهبا

فقال : لا تبرح والله حتى أكتب البيتين ، فكتبتهما له بين يديه بخطى .

نثره وطريقته :

خلطنا نثر الصولى بشعره ، وكان الغرض أن نقتصر على نثره دون شعره ، والإنشاء مرمانا فى هذه الورقات ، ولـكن هكذا جاء ؛ وفى شعره كما فى نثره ما يتعلم منه ويحتذى ، وشعره لمن يحاول أن يترجم له أصدق وثيقة تترجم عنه ، ثم إن الباقى من شعره كثير ، لا يوازيه المأثور من نثره . وللصولى فيما ذكره ابن النديم كتاب ديوان رسائله ، وكتاب ديوان شعره ، وكتاب الدولة كبير ، وكتاب الطبيخ ، وكتاب العطر ، وكلها فى المفقودات .

يقول المسعودى إن الصولى كان يتكسب فى حداثته بشعره ، ورحل إلى الملوك والأمراء ومدحهم طلباً لجدواهم . وقال إن له مكاتبات قد دونت ، وفصولاً حساناً من كلامه قد جمعت . ومما استحسن من فصوله ، وكلها فى نهاية الجودة : « وقديماً [1] غذت المعصية أبناءها ، فحلبت عليهم من دَرِّها مرضعة ، وبسطت لهم من أمانيها مطمعة ، وركبت فيهم مخاطرها موضعة ، حتى إذا رتعوا فأمنوا ، وركبوا فاطمأنوا ، وانقضى رضاع وآن فطام ، سقتهم سماً ففجَّرت مجارى ألبانها دماً ، وأعقبتهم من حلو غذائها مُرًّا ، وحطت بهم من معقل إلى عقال ، ومن حسرة إلى حسرة ، قتلا وأسراً ، وإباحة وقسراً ، وقلَّ من أوضع فى الفتنة مرهجا [2] فى لهبها ، واقتحم لهبها مؤججاً ، إلا استقحمته آخذة بمخنقه ، وموهنة بالحق كيده ، حتى تجعله لعاجله جرزاً [3] ، ولآجله حطباً ، وللحق موعظة ،

(١) فى رواية عريب فى صلة تاريخ الطبرى أن أول هذه الرسالة هكذا : وقسم الله عدوه ثلاثة : روحاً معجلة إلى عذاب الله ، وجنة منصوبة لأولياء الله ، ورأساً منقولا إلى دارخلافة الله ، استنزلوه من معقل إلى عقال ، وبدلوه آجالا من آمال وقديما الخ .

(٢) أرهج الغبار أثاره .

(٣) أرض جرز وجرز وأجرز وجرز ومجروزة لا تنبت أو أكل نباتها أو لم يصبها مطر .

وللباطل حجة ، ذلك لهم جزاء فى الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر ، وما ربك بظلام للعبيد » .

كان الكاتب عبد الله بن عمرو من بنى « عبد كان » المصريين يستصغر كتاب سُرَّ من رأى لما وردها ولا يرضى أحدهم . فلما أدخلوه على إبراهيم بن العباس ، وهو يملى رسالة فى قتل إسحاق بن إسماعيل ، سمع ما أعجبه فقال : هذا من لم تلد النساء مثله ، فإنى سمعته يملى شيئاً كأنه فيه نذير مبين .

ومن كلامه : ووجد أعداء الله زخرف باطلهم ، وتمويه كذبهم ، سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، وكوميض برق عرض فأسرع ، ولمع فأطمع ، حتى انحسرت مشرقة مغاربه ، وتشعبت مولِّيَة مذاهبه ، وأيقن راجيه وطالبه ، ألاَّ ملاذ ولا وَزَر ، ولا مورد ولا مصدر ، ولا من الحرب محصر ، وهناك ظهرت عواقب الحق منجية ، وخواتم الباطل مردية ، سنة الله فيما أزاله وأداله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولا لقضائه تحويلا .

وله فى غرض التعزية رسالة منه إلى الخليفة الواثق بالله يعزيه بالمعتصم : إن أحق الناس بالشكر من جاء به عن الله ، وأولاهم بالصبر من كان سلفه رسول الله ، وأمير المؤمنين أعزه الله ، وآباؤه نصرهم الله ، أُولو الكتاب الناطق عن الله بالشكر ، وعترة رسوله المخصوصون بالصبر ، وفى كتاب الله أعظم الشفاء ، وفى رسوله أحسن العزاء ، وقد كان من وفاة أمير المؤمنين المعتصم بالله ، ومن مشيئة الله فى ولاية أمير المؤمنين الواثق بالله ، ما عفى أوله على آخره ، وتلافت بدأته عاقبته ، فحق الله فى الأولى الصبر ، وفرض فى الأخرى الشكر ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يستجيز ثواب الله بصبره ، ويستدعى زيادته بشكره ، فعل إن شاء الله وحده .

وله تعزية على لسان الخليفة إلى طاهر بن عبد الله مولى أمير المؤمنين . وقد يجيد الكاتب إذا كتب لنفسه ولا يجيد إذا كتب بلسان غيره . إلا أن إبراهيم فى ذلك سواء وغاية قال :

« أما بعد ، تولّى الله توفيقك وحياطتك ، وما يرتضيه منك ويرضاه عنك ، إن أفضل النعم نعمة تُلقِيت بحق الله فيها من الشكر ، وأوفر حادثة ثواباً حادثة أُدى حق الله فيها من الرضا والتسليم والصبر ، ومثلك من قدم ما يجب لله فى نعمة فشكرها ، وفى مصيبة فأطاعه فيها ، وقد قضى الله سبحانه وتعالى فى محمد ابن إسحق مولى أمير المؤمنين ، عفا الله عنه قضاءه السابق والمتوقع ، وفى ثواب الله ورضا أمير المؤمنين أدام الله عزه ، وتقديم ما يقدِّم مثله أهل الحجا والفهم ، ما اعتاضه معتاض ، وقدمه موفق ، فليكن الله عز وجلّ وما أطعته به ، وقدمت حقه فيه أولى بك فى الأمور كلها ، فإنك إن تتقرب إليه فى المكروه بطاعته يحسن ولايتك فى توفيقك لشكر نعمه عليك » .

ومن توقيعاته توقيع كتبه فى كتاب عامل له يعتدُّ بحسن أثر ، ويمتُّ بمقام محمود : يا هذا لست أشك أن لك أثراً فى التوفير كان من تقدمك مقصراً عنه ، وأنك معنىٌّ محتاط . غير أنك عفيتَ على ما أحمدتُ منك بما يتناهى إلىَّ عنك على ألسن المتظلمين وأصحاب الأخبار . وذكر لى فلان ما جرى بينك وبين أخيه ما كثر وصفه له ، وقام منه وقعد ، وتالله لأكونن الباحث عليك والمطالب لك دونه ، لإقدامك على شيخ ابن ستين سنة بما أقدمت به عليه ، وأُفٍّ لدنيا اضطرت إليكم فكنتم خيار من يعمل فيها ، وأبرأُ إلى الله من أعمالكم التى رجعتم بها إلى أنفسكم ونياتكم .

ومن تحميداته فى فتح :

فالحمد لله المزيل لما يمهد المبطلون ، ويمكر به الماكرون ، ويكيد به

الملحدون ، تمكيناً لعبده وخليفته ، وذباً[١] عن دينه وحقه ، وإظهاراً لأوليائه وحزبه ، وإمضاء لعزائمه[٢] وقدرته ، منعماً قادراً ، ومملياً ممهلاً ، عدلاً إذا استدرج ، متفضلاً إذا أنعم ؛ حمداً به يُستَنزَل نصره ، ويُبلغ به رضوانه ، ويُمتَرى[٣] بمثله فواضل مزيده .

ومن آخر .

والحمد لله بجميع محامده التى حُمد بها ، على جميع آلائه ، وجميل بلائه ، فيما وَلّى به خليفته ، ونصر به دينه ، وأقام به حقه ، وأقرّ به وليّه ، وقمع به من ألحد[٤] عن سبيله ، حمداً يؤدى حق نعمته ، ويوجب به أفضل مزيده ، بمنه وطوله :

وله فى فتح إسحق بن إسماعيل :

الحمدلله معز الحق ومديله ، وقامع الباطل ومزيله ، الطالب فلا يفوته من طلب ، والغالب فلا يعجزه من غلب ، مؤيد خليفته وعبده ، وناصر أوليائه وحزبه ، الذين أقام بهم دعوته ، وأعلى بهم كلمته ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقه ، وجاهد بهم أعداءه ، وأنار بهم سبيله ، حمداً يتقبله ويرضاه ، ويوجب أفضل عواقب نصره ، وسوابغ نعمائه .

وله تحميد آخر :

أما بعد ، فالحمد لله الأول بلا أبد يحصى ، والآخر بلا أمد يفنى ، الظاهر لخلقه بعزته ، العزيز فى سلطانه بعظمته ، الفرد بوحدانيته بقدرته ، المدبر فى ملكه بجبروته ، الذى نأى عن الأشياء أن يكون فيها محوياً ، واتصل بها فلم

---

(١) ذب عنه : دفع ومنع .
(٢) عزائم الله : فرائضه .
(٣) مرى الشىء : استخرجه كامتراه .
(٤) ألحد : مال وعدل .

يك من علمها خلياً ، وهو فيها غير مستكنّ ، ومعها غير مماسّ ، فى لجج البحار ، ومفاوز القفار ، وشوامخ الجبال ، وكثبان الرمل ، مع كل خلق ، فى كل أُفق ، وعلى كل شرف ومكان ، وفى كل وقت وأوان ، موجود إذا طلب ، وقريب حيث نُدب ، عالم خفيات الغيوب ، وخطرات القلوب ، وما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعهم ، ولا خمسةٍ إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبةٍ فى ظُلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

ومن توقيعاته ما وقّع به لرجل مَتَّ إليه بحرمة :

« تقدمت بحرمة مَألوفة ، ووسيلة معروفة ، أقوم بواجبها ، وأرعاها من جميع جوانبها » . وورد إليه كتاب بعض الكتاب بذم رجل ومدح آخر فوقّع فى كتابه : « إذا كان للمحسن من الجزاء ما يقنعه ، وللمسىء من النكال ما يقمعه ، بذل المحسن الواجب على رغبة ، وانقاد المسىء للحق رهبة » ، فوثب الناس يقبلون يده . وكتب شفاعة لرجل إلى بعض إخوانه :

فلان مما يزكو شكره ، ويحسن ذكره ، ويَعنينى أمره ، والصنيعة عنده واقعة موقعها ، وسالكة طريقها :

وأفضل ما يأْتيه ذو الدين والحجا إصابة شكر لم يضع معه أجر

وقال : الكريم أوسع ما تكون مغفرته ، إذا ضاقت بالمذنب معذرته .

ومن منثور كلامه : أتانى فلان فى وقت أستثقل فيه لحظة الفرح .

وقال : كأن ابن أخى خُلق من ثلاثة أشياء : من الثلج والمصل والعذرة ، بارد حامض منتن . وكان يقول مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلا ثم وقعوا منه ، أقربهم إلى التلف أبعدهم من الارتقاء .

وقيل له إن فلاناً يحب أن يكون لك ولياً فقال : أنا والله أُحب أن يكون الناس جميعاً إخوانى ، ولـكنى لا آخذ منهم إلا من أُطيق قضاء حقه ، وإلا استحالوا أعداء ؛ وما مثلهم إلا كمثل النار قليلها مُقْنِـع ، وكثيرها محرق . وكان يقول : مثل الأصـدقاء كالنار ، قليلها متاع ، وكثيرها بوار . وقال : لو وزنت كلمات النبى عليه السلام : « إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم ، فسعوهم بأَخلاقكم » بكلام أهل الأرض لرجحت .

كتب الصولى على لسان المتوكل إلى عماله فى الآفاق كتابه بأَخذ أهـل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير . قال : بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعـد : فإن الله تبارك وتعالى بعزته التى لا تُحاوَلُ ، وقدرته على ما يريد ، اصطفى الإسلام فرَضِيَه لنفسه ، وأكرم به ملائـكته ، وبعث به رسله ، وأيد به أولياءه ، وكنفه بالبر ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مبرَّأً من الشبهات ، معصومًا من الآفات ، مَحْبُوًّا بمناقب الخـير ، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها وأقنعها ، ومن الأعمال بأَحسنها وأقصدها ، وأكرم أهله بمـا أحلَّ لهم من حلاله ، وحرَّم عليهم من حرامه ، وبين لهم من شرائعه وأحكامه ، وحدَّ لهم من حـدوده ومناهجه ، وأعدَّ لهم من سعة جزائه وثوابه . فقال فى كتابه فيما أمر به ونهى عنه ، وفيما حضَّ عليه فيه ووعظ ، إن الله يأْمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكّرون . وقال فيما حرم على أهله مما عمط[1] فيه من ردىء المطعم والمشرب والمنكح لينزههم عنه ، وليطهر به دينهم ، ليفضلهم عليهم تفضيلا :

(١) عمط عرضه : عابه وثلبه كاعتمطه .

حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلَّ لغير الله به والمنخنقة ، إلى آخر الآية . ثم ختم ما حرم عليهم من ذلك فى هذه الآية بحراسة دينه ممن عَنَدَ عنه ، و بإتمام نعمته على أهله الذين اصطفاهم ، فقال عز وجل : اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تَخْشَوْهُم واخشونى ، اليوم أكملت لكم دينكم الآية . وقال عز وجل : حرمت عليكم أمهاتكم و بناتكم الآية . وقال : إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان الآية ، فحرم على المسلمين من مآكل أهل الأديان أرجسها وأنجسها ، ومن شرابهم أدعاه إلى العداوة والبغضاء ، وأصدُّه عن ذكر الله وعن الصلاة ، ومن مناكحهم أعظمها عنده وزراً ، وأولاها عند ذوى الحجا والألباب تحريما ، ثم حباهم محاسن الأخلاق وفضائل الكرامات ، فجعلهم أهل الإيمان والأمانة ، والفضل والتراحم ، واليقين والصدق ، ولم يجعل فى دينهم التقاطع والتدابر ، ولا الحمية ولا التكبر ، ولا الخيانة ولا الغدر ، ولا التباغى ولا التظالم ، بل أمر بالأُولى ونهى عن الأخرى ، ووعد وأوعد عليها جنته وناره ، وثوابه وعقابه . فالمسلمون بما اختصهم الله من كرامته ، وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذى اختاره لهم ، بائنون على الأديان بشرائعهم الزاكية ، وأحكامهم المرضية الطاهرة ، و برهاناتهم المنيرة ، و بتطهير الله دينهم ، بما أحل وحرم فيه ، لهم وعليهم ، قضاء من الله عز وجل فى إعزاز دينه حتما ، ومشيئة منه فى إظهار حقه ماضية ، و إرادة منه فى إتمام نعمته على أهله نافذة ، ليهلك من هلك عن بينة و يحيا من حىّ عن بينة ، وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين ، والخزى فى الدنيا والآخرة على الكافرين .

« وقد رأى أمير المؤمنين ، و بالله توفيقه و إرشاده ، أن يحمل أهل الذمة جميعاً بحضرته ، وفى نواحى أعماله ، أقربها وأبعدها ، وأخصهم وأخسهم ، على

تصيير طيالستهم التى يلبسونها من لبسها من تجارهم وكتابهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، على ألوان الثياب العسلية ، لا يتجاوز ذلك منهم متجاوز إلى غيره ، ومن قصر عن هذه الطبقة من أتباعهم وأرذالهم ، ومن يقعد به حاله عن لبس الطيالسة منهم ، أُخذ بتركيب خرقتين صبغهما ذلك الصبغ ، يكون استدارة كل واحد منهما شبراً تاماً فى مثله ، على موضع أمام ثوبه الذى يلبسه ، تلقاء صدره ومن وراء ظهره ، وأن يؤخذ الجميع منهم فى قلانسهم بتركيب أزرّة عليها يخالف ألوانها ألوان القلانس ، ترتفع من أماكنها التى تقع بها لئلا تلصق فتُستر ، ولا يركب منها على حباك [1] فيخفى ، وكذلك فى سروجهم ، باتخاذ ركب الخشب لها ونصب أُكر على قرابيسها [2] تكون ناتئة عنها وموفيَة عليها ، لا يرخص لهم فى إزالتها عن قرابيسهم وتأخيرها إلى جوانبها ، بل تتفقد ذلك منهم ، ليقع ما وقع من الذى أمر أمير المؤمنين بحملهم عليه ظاهراً يبينه الناظر من غير تأمل ، وتأخذه العين من غير طلب ؛ وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم ، ومن يلبس المناطق من تلك الطبقة ، بشد الزنانير والكساتيج [3] مكان المناطق التى كانت فى أوساطهم ، وأن توعز إلى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين فى ذلك ، إيعازاً تحدوهم به إلى استقصاء ما تقدم إليهم فيه ، وتحذرهم إدهاناً وميلا ، وتتقدم إليهم فى إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عناد وتهوين إلى غيره ، ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم على السبيل التى أمر أمير المؤمنين بحملهم عليها ، وأخذهم بها إن شاء الله .

« فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين وأمره ، وأنفذ إلى عمالك فى نواحى

---

(١) القدة التى تضم الرأس إلى خشبة القتب .

(٢) القربوس لحلزون : حنو السرج .

(٣) الكستيج بالضم : خيط غليظ يشده الذمى فوق ثيابه دون الزنار

عملك ما ورد عليك من كتاب أمير المؤمنين بما تعمل به إن شاء الله . وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه ، أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وملائكته ، وأن يحفظه فيما استخلفه عليه من أمر دينه ، ويتولى ما ولاه مما لا يبلغ حقه فيه إلا بعونه ، حفظاً يحمل به ما حمله ، وولاية يقضى بها حقه منه ، ويوجب بها له أكمل ثوابه وأفضل مزيده ، إنه كريم رحيم .

وكتب إبراهيم بن العباس فى شوال سنة خمس وثلاثين ومائتين » .

هـذا ما أمكن التقاطه من كلام الصولى ، وعدّه صاحب العقد فى جملة من نَبُل بالكتابة وكان قبل خاملاً فاستحق اسمها ، وعدّه ابن النديم فى البلغاء الحُدُث . وفى كتاب الأوراق : اجتمع الكتاب عند أحمد بن إسرائيل فذكروا الماضين من الكتاب ، فأجمعوا أن أكتب من كان فى دولة بنى العباس أحمد ابن يوسف وإبراهيم بن العباس ، وأن أشعر كتاب دولتهم إبراهيم بن العباس ومحمد بن عبد الملك الزيات ؛ فإبراهيم أجودهما شعراً ، ومحمد أكثرهما شعراً ؛ ثم الحسن بن وهب وأحمد بن يوسف ، وأن أذكى كتّاب الدولة وأجمعهم لمحاسن الكتابة من ذكاء وخط وفطنة : جعفر بن يحيى وإسماعيل بن صبيح . وقال صاحب الأغانى : كان محمد بن عبد الملك الزيات شاعراً مجيداً لا يقاس به أحد من الكتاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله فى ذلك ؛ وكان إبراهيم مقلاً ، وصاحب قصار ومقطعات ؛ وكان محمد شاعراً يطيل فيجيد ، ويأتى بالقصار فيجيد ، وكان بليغاً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب . وقال آخر : كلام إبراهيم بن العباس نمط واحد قد أسدته القريحة ، وألحمته الغزارة ، فاتصل أوله بآخره ، ووارده بصادره .

ولعل حبَّ التأنق الذى غلب عليه منذ نشأته الأولى ، دعاه إلى أن لا يخرج

من كلامه إلا المجوَّد المنقح ، وأن يعمد إلى الإيجاز فى منظومه ومنثوره ، لا يكتب إلا ما رأى بعينه ، وتخيله بحسه ونفسه ، « وكان إذا قال شعراً اختاره وأسقط رَذْله وأثبت نخبته » ، وإذا كتب أوجز وألبس المعنى قالباً شفافاً من نسجه ، ليس بالفضفاض المسترسل ، ولا بالضيق المخنوق . ذكره أبو زيد البلخى فقال : « كان من أبلغ الناس فى الكتابة ، حتى صار كلامه مثلاً » . والمثل لا يدور على الألسن إلا لاختصاره ، والشعر لا تتناقله الألسن إلا لسهولة حفظه ، ولما فيه من إيقاع ووزن وتساوق . ولا يزال المتصفح لكلامه يقع له على المعنى الكثير فى الجملة القصيرة ، فكان حقاً كما قالوا : « كاتباً من أشعر الكتاب وأرقهم لساناً ، وأسيرهم مثلاً » ، وهو « أشعر نظرائه الكتاب . . . وأشعاره قصار ، ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة ، وهو أنعت الناس للزمان وأهله غيرَ مدافَع » ، وهذا من أعظم ما امتاز به ، لأنه عرف أخلاق الناس فى نكبته .

وأبان إبراهيم عن طريقته وسبب نجاحه فى تنضيد دُرره فقال : ما اتكلت فى مكاتبتى قط إلا على ما يجلبه خاطرى ، ويجيش به صدرى ، إلا قولى : وصار ما يُحْرِزهم يُبْرِزهم ، وما كان يَعْقِلهم يَعْتقلهم . وقولى فى رسالة أخرى : فاستنزلوه من مَعْقِل إلى عِقَال ، وبدلوه آجالاً من آمال . فإنى ألممت بقولى آجالاً من آمال بقول مسلم بن الوليد الأنصارى المعروف بصريع الغوانى وهو :

موفٍ على مُهَج فى يوم ذى رَهَج كأنه أجل يسعى إلى أمل

وفى العقل والعقال بقول أبى تمام :

فإن باشر الإصحار فالبيض والقنا قِراه وأحواض المنايا مناهله
وإن يبن حيطاناً عليه فإنما أولئك عُقّالاته لا معاقله
وإلا فأعلمه بأنك ساخط عليه فإن الخوف لا شك قاتله

ذكر شعر الكتاب بحضرة إبراهيم بن العباس فقال : أشعرهم عندى الذى مزحه أفصح وأحسن من جدّ الناس . وكان يقول : ما تمنيت كلام أحد أن يكون لى إلا قول عبد الحميد بن يحيى : الناس أصناف متباينون ، وأطوار متفاوتون ، منهم عِلق مضنة لا يباع ، ومنهم غِلٌّ مظنة لا يبتاع .

ولعل أعظم سبب فى توفيقه وتفوقه زهده فى الغريب من اللفظ ، وتشبثه بأهداب المعنى أكثر من كل شىء ، واعتداده بعفو القريحة ووحى الساعة . قال أبو الغيث : كنت عند إبراهيم بن العباس وهو يكتب كتاباً ، فنقطت من القلم نقطة مفسدة ، فمسحها بكمه ، فعجبت فقال : لا تعجب ، المال فرع والقلم أصل . ومن هذا السواد جاءت هذه الثياب ، والأصل أحوج إلى المراعاة من الفرع ، ثم فكر قليلاً وقال :

إذا ما الفكر وَلَّدَ حسن لفظ وأسلمه الوجود إلى العيان[1]
ووشّاه ونمنمه بيانٌ فصيح فى المقال بلا لسان
ترى حلل البيان مُنَشَّرات تضاحك بينها صور المعانى

وكان يقول : المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل فيه من منشئه . وقال : الكتب موات ، ما لم يوقّع فيها توقيع الختم وتختم ، فإذا فعل ذلك بها عاشت . وقال لغلام كان يكتب بين يديه : « ليكن قلمك صلباً بين الدقة والغلظ ، ولا تبره عند عُقَده ، ولا تجعلن فى أنبوبه أنبوبة ، ولا تكتبن بقلم ملتوٍ ، ولا بذى شق غير مستو ، واختر من الأقلام ما يضرب إلى السمرة ، وأحدَّ سكينك ولا تستعملها لغير قلمك ، وتعهده بالإصلاح يصلح ، وليكن مقطعك صلباً ليمضى الخط

(١) روى الصولى فى أدب الكتاب هذا البيت هكذا :
إذا ما الفكر أظهر حسن لفظ وأداه الضمير إلى العيان

مستوياً لامستطيلاً ، وابر قلمك بين التحريف والاستواء ، وإذا كتبت الدقيق فأَمِلْ قلمك إلى إقامة الحروف لإشباع الخط ، وإذا جللت فإلى التحريف ، واعلم أن تبطين القلم شُؤْم ، وتحريفه حرن ، وهما دمار الخط ، واعلم أن وزن الخط مثل وزن القراءة ، فأَجود الخط أبينه كما أن أحمد القراءة أبينها » .

وبعد فإن إبراهيم بن العباس أحد أركان البيان فى عصره كان كما قال فيه أبو الشبل لما رآه يكتب :

ينظّم اللؤلؤَ المنثور منطقه ... وينظم الدر بالأقلام فى الكتب

توفى إبراهيم بن العباس الصولى فى سنة ٢٤٣ هـ .

محمد بن عبد الملك الزيات

عصره :

بالقوة التى أورثها الرشيد والمأمون للملك العباسى ، عاش العباسيون أيام المعتصم والواثق دون أن يشهدوا ضعفاً محسوساً فى دولتهم . عاشوا بقوة التسلسل لا بقوة هذين الخليفتين ، وكانا يستران نقصهما بمن يعهدان إليهم تدبير الملك من الرجال و إطلاق أيديهم فى الحكم . ولم تظهر فى الدولة آثار الخطإ الذى ارتكبه المعتصم بتقديم الأتراك ، والقضاء على قيادات العرب إلا فى أيام المتوكل ، ففى عهده بدأ ضعف الدولة ، وزاده ضعف المتوكل فى التدبير والسياسة ، حتى قُتل فكان أول خليفة قتل جهرة من خلفاء بنى العباس ، وكثر بعد ذلك القتل فى المستخلفين .

نفذ المعتصم ثم الواثق خطط المأمون فى تدبير الملك ، فاعتمد المعتصم على من اعتمد عليهم أخوه من الرجال ، وجرى ابنه الواثق من بعده على خطة المأمون والمعتصم فى القول بخلق القرآن ، وحمل الأمة على اعتقاد ذلك ، فتألم الناس من هذا التحكم ، وحنقوا على المعتزلة أصل هذه المحنة ، وكان للمعتزلة السلطان الأكبر فى خلافة المأمون .

بيد أن المأمون لم يكن بالخليفة المستضعف ، والمعتصم ، و إن لم يصدر عن رأيه الخاص ، فقد كان على جانب من حسن الخلق والكرم ، وكذلك ابنه الواثق ، وكان الواثق يحاسن العلويين و يحسن إليهم و إلى أهل الحرمين ، حتى لم يبق منهم من يسأل الصدقة ، و يشبه الواثق عمه المأمون فى كثير من أخلاقه ،

وكان المعتصم قليل البضاعة من الأدب ، وابنه على جانب عظيم منه . وفى أيام المعتصم كان الروم من جيوشه فى أمر عظيم ، على نحو ما كانوا فى عهد أبيه الرشيد ، وفى أيامه قوى أمر بابك الخُرَّمى فى أذربيجان ، يريد أن يقيم ملة المجوس ، فأخرب البلاد ، وقتل عشرات الألوف من الجند والرعية ، حتى قتل بعد أن أتعب الخلافة عشرين سنة .

وفى أيام المعتصم والواثق لم يقتطع شىء من جسم الدولة العباسية ، وكان الأمويون فى الأندلس يَعْملون على توطيد أمرهم ، و إنشاء حضارتهم ، وفى هذا العهد كان عبد الرحمن الثانى الأموى حامى الآداب والعلوم ، ومن أعظم خلفاء بنى أُمية فى المغرب ، وكان بنو الأغلب فى إفريقية ، يرضون الخليفة العباسى ببعض الخراج ، ويدعون له على المنابر ، ويصدرون فى المسائل الكبرى عن رأيه فى الجملة ، ويتولون استصفاء جزيرة صقلية ، وكان ما وراء ذلك من بلاد الغرب الأقصى فى أيدى الأدارسة العلويين يتخبطون ولا يستطيعون قيام مملكة قوية .

وظلَّ العلم الدينى والمدنى سائراً فى طريقه التى أخذ بها فى عهد الرشيد وابنه المأمون ، ولكن بمعزل عن تنشيط المعتصم والواثق ، وقلما كان هذان الخليفتان يشاركان أهل العلم ، أو يعطفان عليهم العطف المطلوب ، كفعل من كان قبلهما ، و إذا لم يقع من هذين الخليفتين شىء يستحق أن يسمى تنشيطاً للآداب ، فإنهما لم يعملا ما من شأنه أن يثبط العاملين عن عملهم ، فكأن دورهما أول مرحلة إلى برزخ جديد ، يقلّب الأُمة بين القوة والضعف . و بعد عهد المتوكل انتهت أيام العزّ فى بنى العباس ، وفرح الجمهور لأول أمره بأنه أعاد السنّة ، وأبطل القول بخلق القرآن ، وعندئذ بدأ اضطهاد الناس والحكام سراً لجماعات المعتزلة بعد أن غَلبوا على ثلاثة خلفاء .

نشأته ووزارته :

هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبى حمزة ، عُرف بابن الزيات ، لأن جده على ما قيل كان يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد ، فغلب هذا التلقيب على بيته ، وكان جده أبان من أهل قرية الدسكرة مقابل جُبَّل من عمل بغداد . فهو عربى بأصوله ، وُلد ونشأ فى بغداد ، ولا يُعرف شىء عن أوليته ، ولا عمن أخذ العلم فى صباه ، وغاية ما أُثر عنه أنه أُولع بالأدب ، وكان أبوه من مياسير تجار الكرخ ، يحثه على التجارة وملازمتها ، فيمتنع ويأبى إلا الكتابة وطلبها ، ويخاطب الكتاب ، ويلازم الدواوين ، فقال له ذات يوم : والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك وليضرَّنك ، لأنك تدع عاجل المنفعة ، وما أنت فيه مكفى ، ولك ولأبيك فيه مال وجاه ، وتطلب الآجل الذى لا تدرى كيف تكون فيه . فقال : والله لتعلمن أينا ينتفع بما هو فيه ، أأنا أم أنت ، ثم شخص إلى الفضل بن سهل بفم الصلح ، فامتدحه بقصيدة ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، فعاد بها إلى أبيه فقال له أبوه : لا ألومك بعدها على ما أنت فيه ، وكان من جملة أبيات تلك القصيدة :

إنى شعرت فلم أمدح سواك ولم ... أُعْمِل إلى غيرك الإدلاج[1] والبُكرا
ما كان ذلك إلا أننى رجل ... لا أَقْرَب الورد حتى أعرف الصدرا
لم أمتدحكَ رجاءَ المال أطلبه ... لكن لتلبسنى التبجيل والغررا

فابن الزيات إذاً من بيت اغتنى فى التجارة ، وسمت نفس محمد إلى العلا ،

---

(١) الدلج : محركة ، والدلجة بالضم والفتح : السير من أول الليل ، وقد أدلجوا ، فان ساروا من آخره ، فادلجوا بالتشديد . والبكرة بالضم : الغدوة كالبكرة محركة اسمها الإبكار ، وشعر كنصر وكرم شعراً ، وشعراً قاله أو شعر قاله وشعر أجاده .

فعدَّ مفخرة أهله ، لما وجه وجهته إلى الآداب ، وسار فى طريق سعادته بحسب ميله واستعداده ، وسما به شوق إلى المجد فدخل حظيرته من أبوابه ، واتخذ لنجاحه الأسباب فتعلم ، ولابس أرباب الكتابة فى أعظم دواوين الدولة فى عهد المأمون ، فرأى ولا شك كبار الكتاب كعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف وسهل بن هارون ؛ هذا إن لم يكن قد أخذ عنهم . فمدرسته الأولى فى الواقع هى ذاك الديوان الذى اختلف إليه فى صباه ، وعرف فيه معاملات الحكومة وأصولها فى سياسة الملك ، وكتب كتباً ، وشاهد الكتاب يكتبون ، وأرهف حسه ، وهذب نفسه ، منذ ألقى فى رُوعه أن يكون ذات يوم صاحب شأن فى الدولة .

كان ابن الزيات جهمياً ، يقول بمذهب جهم بن صفوان ، وهو يوافق المعتزلة فى مسائل كثيرة ، ومنها القول بخلق القرآن وأن الله لا يُرى فى الآخرة ، وكان ممدوحه الأول الفضل بن سهل يتشيع ، وهو من أعاظم الفرس أدباً وفضلاً ، وهو ابن الوزير الحسن بن سهل ، والد بوران زوج المأمون . وتصرفت الأقدار تصرفها ، وأبى فضل أبى جعفر إلا أن يظهر ظهوراً رائعاً خرج به من خمول الذكر إلى نباهة القدر . اتفق أن ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال ، قرأه عليه وزيره أحمد بن عمار ، وكان فى الكتاب ذكر الكلأ فقال المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال : لا أعلم ، وكان قليل المعرفة بالأدب . فقال المعتصم : « خليفة أُمى ووزير عامى » ، وكان المعتصم ضعيف الكتابة ، ثم قال : أبصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات ، فأدخلوه إليه فقال له : ما الكلأ ؟ فقال : الكلأ العشب عَلَى الإطلاق ، فإن كان طرياً فهو الخلا ، فإذا يبس فهو الحشيش ، وشرع فى تقسيم أنواع النبات ، فعلم المعتصم فضله . وتجلى له فى كل موطن أنه قريع دهره فى قيام الملك ، وأنه حاضر

البديهة ، واسع المعرفة ، جم الأدب . سأل المعتصم مرة جماعة من خواصه عن معنى سبب تسمية طاهر ذا اليمينين فلم يعلموا . فقال محمد بن عبد الملك : ذو الاستحقاقين استحقاق ما لجده من رزق فى الدولة ، واستحقاق ما له فى دولة المأمون .

وكان ابن الزيات يتولى قهرمة[1] الدار ، ويشرف على مطبخ الخليفة ، ويقف فى الدار وعليه دُرَّاعة سوداء . يقول الطبرى : إن محمد بن عبد الملك الزيات كان يتولى ما كان أبوه يتولاه للمأمون من عمل الفساطيط وآلة الجُمَّازات[2] ، ويكتب على ذلك « مما جرى على يدى محمد بن عبد الملك » وكان يلبس إذا حضر الدار دُرَّاعة سوداء وسيفاً بحمائل ، فقال له الفضل بن مروان وزير المعتصم قبل أحمد بن عمار : إنما أنت تاجر فمالك وللسواد والسيف ، فترك ذلك محمد . ولما تركه أخذه الفضل برفع حسابه إلى دُلَيْل بن يعقوب النصرانى ، فرفعه فأحسن دُلَيْل فى أمره ولم يَرَزأْه شيئاً ، وكان الفضل بن مروان نصرانى الأصل « قليل المعرفة بالعلم ، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء » حاول أن يسقط محمد بن عبد الملك ، لأنه كان يتفرس فيه الذكاء النادر والعلم ، ولا يحب أن يشاهده فى دار الخلافة ، ولا أن يخالط أهلها ، ويعرف اسمه ورسمه ، فأبت الأقدار إلا رفعه ، وصادر المعتصم الفضل بن مروان على ألفى ألف دينار وأبقى على حياته ، ورفعت إلى الفضل قصص العامة ، فرأى فى جملتها رقعة مكتوباً فيها :

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر فقبلك كان الفضل والفضل والفضل

---

(١) القهرمان : هو المسيطر الحفيظ على من تحت يده . والقهرمان من أمناء الملك وخاصته ، وفى الحديث : كتب إلى قهرمانه ، هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس (اللسان) .

(٢) الجمازة : دراعة من صوف بضم الدال ، والدراعة ثوب من صوف .

ثلاثة أمـــلاك مضوا لسبيلهم أبادهم التقييد والحبس والقتـــل
وإنك قد أصبحت فى الناس ظالماً ستودى[1] كما أودى الثلاثة من قبل

أراد بالفضول الثلاثة الفضل بن يحيى البرمكى ، والفضل بن الربيع ، والفضل بن سهل ، وهم ثلاثة وزراء نكبوا وقتلوا على عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم .

تولى الوزارة أحمد بن عمار ، ولما عرف المعتصم غَناء ابن الزيات ، وعجز ابن عمار وجهله ، قال له المعتصم : انظر أنت فى الدواوين ، وهـذا يعرض علىّ الكتب ، ثم استوزر ابن عبد الملك وصرف ابن عمار صرفاً جميلاً ، فأصبح ابن الزيات وزيراً كاتباً ، وجرى على يديه عامة ما بنى المعتصم بسامرّا ، من الجانبين الشرقى والغربى . أحيا المعتصم بذلك سـنة أخيه بتقليده الوزارة إلى كاتب ، وكان لا يتولاها فى عهد أخيه إلا من جمع أسباب الفضـل ، وذهب فى الأدب كل مذهب .

لا نعلم سنة مولد أبى جعفر ، ولا نسـتطيع تقدير سنه يوم تولى الوزارة ، وربما كان حوالى الأربعين . وقد حكّمه المعتصم وبسط يده ، فارتقى من ابن تاجر يعد الدوانيق ، إلى أرقى رتب الخلافة يصرف الأمور كما يرى . ولما تولى الوزارة « اشترط أن لا يلبس القَباء ، وأن يلبس الدُّراعة ، ويتقلد عليها سيفاً بحمائل ، فأُجيب إلى ذلك » لبس ما كان يحب أن يلبس وهو ابن تاجر يبيع من القصر بضاعته ، ويدل بما ورث عن أبيه من عادات التجار أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق[2] . وكان يقول : قد صنع إلىَّ الخليفة صنيعة تفرد بهـا : نقلنى من ذل التجارة إلى عز الوزارة . وأحرز ابن الزيات نعمة كما قال له أحدهم بحقها ، واستوجبها بمـا فيه من أسبابها .

---

(١) أودى : هلك وبه الموت ذهب .
(٢) التدنيق : الاستقصاء وإدامة النظر إلى الشىء .

علمه وسياسته :

يقول إبراهيم بن المدبّر الوزير : إن محمد بن عبد الملك من ألطف الناس ذهناً ، وأرقهم طبعاً ، وأصدقهم حساً ، وأرشقهم قلماً ، وأملحهم إشارة ، إذا قال أصاب ، وإذا كتب أبلغ ، وإذا شعر أحسن ، وإذا اختصر أغنى عن الإطالة . وما زاد اليعقوبى والمسعودى — وهما المؤرخان القريبان من عهده — على أن وصفاه بالكتابة والبلاغة كما يوصف آحاد الكتاب لا كما يوصف من كان « واحداً فى صناعته ، ومفرداً فى براعته » . وقال فيه من لا غرض له إنه كان شاعراً يطيل فيجيد ، ويأتى بالقصار فيجيد ، وكان بليغاً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب ، وكان يعد من علماء النحو واللغة ، وهو فتى لم تَعلُ به السن حتى أن أبا عثمان المازنى ، لما كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه فى النحو إذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان : ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب ، يعنى ابن الزيات ، فاسألوه ، واعرفوا جوابه ، فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذى يرتضيه أبو عثمان .

لا جرم أن اشتغال ابن الزيات بسياسة الدولة أضاع من مكانته الأدبية ، والناس فى كل زمان يرهبون القريب من السلطان ، ويغتابونه فى السر ، ويستثقلون ظله أو يعادونه لعدة أسباب ؛ فابن الزيات كان يدعو الأمة إلى حرمة القوانين ، وكثير فى الناس من يحبون أبداً الخروج عليها ، ويمقتون من يدعو إليها ويحنقون عليه ، ومنهم الحساد يشق عليهم الإقرار بفضائل أهل الفضل ، ومنهم أعداء عزّه وأعداء مذهبه . ومثل منصبه الخطير مما تلتهب الصدور إلى الوصول إليه . ومنهم من أبغضوه لمجرد كونه جهمياً كالشيعيين

اليعقوبى والمسعودى ، ولو كان يذهب فى الإمامة مذهبهما لسكتا عن كثير من مساوئه ، ولجلاه بصفات هو منها أعرى من مغزل . ومن تولى وزارة أعظم خلافة أربع عشرة سنة ، لخليفتين بدون انفصال ، وتولاها للثالث أيضاً ، على ما لم يكن يعهد له نظير فى دولة من الدول ، لا يتوقع من الناس كافة أن يجمعوا على حبه . ولطالما سلبت أهواء السياسة من ذوى الفضل فضلهم ، ومن أجلها عرّاهم أرباب اللوم من محامدهم .

نسبوا إلى ابن الزيات أنه كان يقول إذا استرحمه أحد ممن يعذبهم : « الرحمة خَوَر فى الطبيعة وضعف فى المُنَّة » ، فكانوا يطعنون عليه فى دينه بهذا القول . ولا دليل على أنه قال هذا القول ، ويرد على الخاطر أن أعداءه اخترعوه من عند أنفسهم لينالوا منه عند الخاصة والعامة . وكم من كتاب ألفه مؤلفه فنسبه إلى غيره ليسقطه ، وكم من قصيدة قالها رجل فعزاها إلى آخر للوقيعة به ، وكأى من حديث وَضعه واضعه على لسان من لم يخطر له هذا الكلام المزوّر ببال .

وضعوا حكايات أسندوها إلى أشخاص فى جمل مزوقة قد تستغوى القارئ الغِرّ ، أوردوها فى باب الملح والنوادر ، يشيرون بها إلى لؤم ابن الزيات وتجبيهه الناس ؛ زعموا أنه بعيد عن إسداء المعروف ، يتجافى عن نفع غيره ، وما حملوا عليه ولفقوا من الأحاديث المسقطة له إلا لأنه وصل إلى المعالى عن جدارة ، وكم سعى غيره ليبلغوا منزلته فخابوا وما أفلحوا ، وعَظُم ما رمى به من تلفيق منافسيه وقاصديه ؛ ولن يرضى العامة والحامَّة إلا إذا عمل لهم ربُّ الأمر والنهى المعقول وغير المعقول ، وصاحب الحاجة أرعن لا يروم إلا قضاءها ؛ ومن كان على شىء من الأخلاق لا يستقيم له حال مع الغوغاء ؛ ومن أراد أن يصدع

بالحق مع الكبير والصغير مقته كل من لم يظفر بطَلِبَته ، و يعز فى الطبقات مَن تصبر نفسه على مرِّ الحق ، وحرارة الإصلاح والتقويم .

ثم إن من كان فى مثل هذه الصدارة يستحيل عليه ، وهو بشر يخطئ ويصيب ، أن تكون أعماله كلها مسددة ، والنقص من خلق الآدميين فى الجملة . مثال من خطئه فى اجتهاده ؛ ولعل بعض العارفين يعدونه صواباً : روى الراوون : أن المعتصم كان أمر بأن يعطى الواثق عشرة آلاف ألف درهم يستعين بها على أمره ، و يصلح بها ما يحتاج إلى إصلاحه ، فدافعه بذلك مدافعة متصلة أحوجته إلى شكايته إلى المعتصم ، فأنكر عليه تأخر المال . فقال : يا أمير المؤمنين : العدل أولى بك وأشبه بقولك وفعلك ، ولك عدة أولاد ، أنت فى أمرهم بين خَلتين : إما أن تسوى بينهم فى العطية فتجحف ببيت المال ، و إما أن تخص بعضهم فتحيف على الباقين . فقال : قد رهنت لسانى فما تصنع ؟ قال : تأْمر لباقى ولدك بإقطاعات وصلات ، وتطلق لهارون صدراً من المال فأُدافعه بباقيه ، و يتسع الأمر قليلا ، وتُدَبِّر الأمر بعد ذلك بما تراه ، فقال له : وفقك الله ؛ فما زلت أعرف الصواب فى مشورتك .

وتأدى الخبر إلى هارون ، فخلف بعتق عبيده ومماليكه ، و بحبس عدة خيل ، ووقف عدة ضياع ، وصدقة مال جليل ، لئن ظفر بمحمد ليقتلنه ، وكتب اليمين بخطه ، وجعلها فى درج وأودعها دايته ، ومرت مدة وأفضى الأمر إلى هارون ، وكان ذا أناة وعقل ، وكره أن يعاجله ، فيقول الناس بادر بشفاء غيظه . ثم عزم على الإيقاع به ، فتقدم بأن يُجمع له من وجوه الكتاب من يصلح لولاية الدواوين والوزارةَ فجُمعوا ، ودعا بواحد منهم وقال له : أكتب كذا فى أمر رسمه له ، فاعتزل وكتب وعرض الكتاب عليه فلم يرضه ، حتى امتحن الجميع فأمر صاحبه فقال : أدخل من المُلك مضطر إليه محمد بن عبد الملك ،

فجيء به وهو واجم مضطرب . فلما وقف قال له : أُكتب إلى صاحب خراسان فى كذا وكذا ، فأخرج من كمه نصفاً ، ومن خفه دواة ، وابتدأ يكتب بين يديه ، حتى فرغ من الكتاب ، ثم أخرج خريطة فيها حصا فأترب الكتاب وأصلحه ، وتقدم فناوله إياه ، فوجده قد أتى على جميع ما فى نفسه ، فأعجب به جداً وقال : اختمه فأخرج من الخريطة طيناً فوضعه عليه وتناوله ، فختمه وأنفذه من ساعته . فقال الواثق لخادم له : امض إلى دايتى وقل لها توجه إلىّ بالدُّرج الفلانى ، فمضى الخادم فجاء به ، فأخرج الرقعة فدفعها إليه فقال : يا أمير المؤمنين أنا عبد من عبيدك إن وفيت بيمينك فأنت محكّم ، وإن كفّرت وصفحت كان أشبه بك ، قال : لا والله ما يمنعنى من الوفاء بيمينى إلا النفاسة على أن يخلو الملك من مثلك ، وأمر بعتق من حلف بعتقه ، ووقف الضياع وحبس الخيل وأنفذ صدقة المال ؛ وظل ابن الزيات وزيراً للواثق كما كان فى عهد أبيه . وقيل إن موضوع الكتاب الذى اقترحه الواثق عليه كان يتعلق بأمر البيعة ، فكتبوا فلم يرض بما كتبوه ، فكتب ابن الزيات نسخة رضيها ، وأمر بتحرير المكاتبات عليها ، وأن الواثق قال : عن المال والفدية عن اليمين عوض ، وليس عن المَلك وابن الزيات عوض .

إن السبب الذى غضب له الواثق أيام ولايته العهد ، من تضييق ابن الزيات عليه ثم عفوه عنه لما أفضت إليه الخلافة ، يدل على وفرة عقل الواثق . أما معاملة محمد بن عبد الملك الزيات قبل الخلافة لولى عهدها فما كانت غير محض اجتهاد ، لأنه لا يريد استرسال ولى العهد فى طلباته من مال الدولة بدون حساب ، ويود أن يعرفه قدر المال ، وأن يعدل الخليفة بين أولاده ، حتى لا تتأثر أنفسهم من معاملة شاذة ، لا يرون ولو فى باطنهم أنها تمت إلى الإنصاف بسبب . وأدرك

الواثق بعقله الراجح أن فى قتل مثل هذا الرجل العظيم لشفاء غضب ، قد يكون سكن بمرور الزمن ، خسارة على الدولة لا تعوض ، فما كل دهر ينبغ مثل ابن الزيات ، وما كل حين يتهيأ للخليفة رجل مجرب مثله ، ومن أخلص لسيده الأول كان حرياً أن يخلص لسيده الثانى ، والدين النصيحة .

وعلل صاحب النشوار غضب الواثق عَلَى ابن الزيات بما كان محمد بن عبد الملك يعامله به فى أيام أبيه ، فمن ذلك أن المعلم شكا إلى المعتصم أن الواثق لا يتعلم ، فإذا طالبه بذلك شتمه ووثب عليه ، فأمر المعتصم محمداً بأن يضرب الواثق أربع مقارع ، فخرج محمد واستدعى الواثق ، وَضربه ثلاث عشرة مقرعة حتى مرض ، فلما عرف أبوه الخبر أنكر ذلك ، وحلف للواثق أنه ما أمر محمداً إلا أن يضربه أربع مقارع ، فأخفاها فى نفسه ، فكان يبغضه . وعلم محمد بذلك فكان يقصده فى ضياعه وأملاكه لما ترعرع وصار أميراً . فوقّع المعتصم يوماً أن يُقطع الواثق ما ارتفاعه ألف ألف دينار ، فمحاها محمد وكتب (ما قيمته ألف ألف درهم) فلما دخل إليه الخادم وعرفه ما عمله محمد وثب إلى أبيه وعرفه ذلك ، وعرض التوقيع عليه ، فقال له المعتصم : ما أغير ما وقعت به ، وما أرى فى التوقيع إصلاحاً ، وكان محمد قد أجاد محوه ، وعلم المعتصم أن رأى محمد فى الاقتصاد أصلح ، فبطل ما كان يريده الواثق وانصرف ، فقال للخادم : قد تم علىّ من هذا الكلب كل مكروه ؛ فإن أفضت الخلافة إلىّ فقتانى الله إن لم أقتله . ثم قال له : أنت خادمى وثقتى ، فإن أفضى هذا الأمر إلىّ فاقتله ساعة أخاطب بالخلافة ولا تشاورنى ، وجئنى برأسه . قال : فمضت الأيام وتقلد الواثق فحضر الدار فى أول يوم محمد بن عبد الملك مع الكتّاب ، فتقدم الواثق إلى الكتّاب دونه بأن يكتب كل منهم نسخة بخبر وفاة المعتصم وتقلده الخلافة ،

فكتبوا بأسرهم ، وعرضوا ذلك عليه فلم يرضه ، فقال لمحمد : اكتب أنت ، فكتب فى الحال بلا نسخة كتاباً حسناً ، وعرضه فاستحسنه ، وأمر بتحرير الكتب عليه . ولم يبرح حضرته حتى أقره على الوزارة . وخرج من بين يديه والناس كلهم خلفه . قال الخادم : فعجبت من ذلك وقلت تُراه أنسى ما كان أمرنى به ؟ لم لا أستأذنه فى ذلك وأذكره به ؟ فتقدمت إليه لما خلا وأذكرته الحديث واستأذنته فقال : « ويحك ، السلطان إلى محمد بن عبد الملك أحوج من محمد إلى السلطان ، دعه » .

عن محمد بن الفضل بن الأسود الكاتب قال حدثنى ابن قريش بن أنس عن أبيه قال : دخلت على الواثق فقال لى : يا أبا قريش أخرج رقعة من تحت المصلى . فمددت يدى فأخرجت الرقعة وقرأتها وقلت : يا أمير المؤمنين رقعة حسنة ، أولها تشوق ، وأوسطها استعتاب ، وآخرها استبطاء . وإذا آخر الرقعة :

إن يكن حبلك من حبلى وهى ... فإلى شـــوق يكون المنتهى

لم يذكرنيك خطب حادث ... إنما يذكر من كان سها

وكانت الرقعة من محمد بن عبـد الملك ، فقال الواثق : ويلومنى الناس على حب محمد بن عبد الملك ؟ وبعد فإن من أصعب ما أُصيب به ابن الزيات عداوة أحمد بن أبى دواد شريكه ومنافسه فى سلطانه ، وكان كصاحبه فى العلم والأدب المثل الأعلى ، جهمى الرأى مثله ، « مؤالفاً لأهل الأدب من أى بلد كانوا ، وكان قد ضم منهم جماعة يعولهم ويمونهم » ، وكان المأمون أوصى أخاه المعتصم به قائلا : « وأبو عبد الله أحمد بن أبى دواد لا يفارقك الشركة فى المشورة فى كل أمرك ، فإنه موضع ذلك » .

أمر الواثق أن لا يرى أحد من الناس محمد بن عبد الملك الوزير إلا قام له ،

فكان ابن أبى دواد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلى ، فقال ابن الزيات :

صلى الضحى لما استفاد عداوتى وأراه يَنْسَك بعدها ويصوم

لا تعدمن عداوة مشئومة تركتك تقعد تارة وتقوم

وقال ابن أبى دواد : إنى لأمتنع من تكليم الخلفاء بحضرة محمد بن عبد الملك الزيات فى حاجة كراهة أن أعلمه ذلك ، ومخافة أن أُعَلّمه التأنى لها . وقد أثر لابن الزيات شعر كثير فى هجو أحمد بن أبى دواد ومنه :

أبلغ دعى إياد إن مررت به قول امرئ ناصح لله والدين

لن تصلح الأرض ما أسكنت ظاهرها ولا ترى العدل أو تلحق بأفشين

ما زلت تضمر للخذلان عن دخل فى القلب منك لهذا الدين مكنون

وكنت فى ذاك لما إن قصدت له كالعنز إن بحثت عن حد سكين

نحن الذين إذا عدَّ العفاف يُرى فينا العفاف ومأوى كل مسكين

وفى سنة ٢٢٩ نصب ابن الزيات لأصحاب المظالم العداوة فكشفوا وحبسوا وأقيموا للناس ولقوا كل جهد ، ومن جملتهم صديقه إبراهيم بن العباس الصولى نسى صداقته فى مطالبته بما تأخر فى ذمته من حق بيت المال ، فاستهدف لهجائه ؛ هكذا كان ابن الزيات مع سائر الناس لا يجوّز لعامل أن يسرق ، ولا للرعية أن تتلكأ فى أداء ما عليها ، حتى ينتظم سير الأعمال . فهو رجل الدولة ، خلق للحكم وكأن معانى الحكم ممزوجة بلحمه ودمه ، حتى لقد هُجِىَ بذلك ، وكان من حقه أن يُمدح ، فقال على بن الجهم فى وصف توقيعاته :

على ابن عبد الملك الزيات لَعـــائن الله موفرات

يرمى الدواوين بتوقيعات مطـــولات ومقصرات

أشبه شىء برقى الحيات

من عادة ابن الزيات المبالغة بتعظيم مظاهر الخلافة ، ليقتدى به الناس ، و ينتظم الدولةَ الوقارُ والمهابة . كان إذا أراد أن يختم الكتاب دعا بدرج فيه الخاتم ، فإذا جيء به وهو خاتم الملك ، قام قائماً فأخذه إجلالاً له ، ثم جلس فأخرجه ، وختم الكتاب به ، وردّه إلى الدرج وختم عليه . ومع هذا ربما كان يناقش الخليفة فى بعض المشاكل إذا خلا به ، وربما قام بأعمال يبتدعها ، و بعض تراتيبه ما عُهد له مثيل قبله ، كفعله لما عقد لإسحق بن إبراهيم على اليمامة والبحرين وطريق مكة مما يلى البصرة فى دار الخلافة . قالوا ولم يُذكر أن أحداً عقد لأحد فى دار الخلافة إلا الخليفة غير محمد بن عبد الملك الزيات ، كما لم يعهد أن أحداً بدأ الكلام مع الخلفاء قبل أن يبدءوه غير أحمد بن أبى دواد .

وابن الزيات سياسى ذاك العصر المنقطع القرين ، كان يراعى عواطف العوام ، ويحاذر مما يَهيجهم ، ويقول إرجاف العوام مقدمة الكون [1] نظمه جحظة فقال :

أرى الإرجاف متصلاً بحال ولابس حليتى كِبْرٍ وتيه
و إرجاف العوام مقدمات لأمر كائن لا شك فيه

ولابن الزيات عطف خاص على العلماء ، وقد ترجموا له كتباً مهمة فى الطب وغيره ، ومنهم حنين بن إسحق ، نقل له بعض الكتب إلى العربية ، وكان الجاحظ منقطعاً إليه . قال ابن أبى أُصيبعة : وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ فى كل شهر ألفى دينار ، ونقل باسمه عدة كتب ، وكان أيضاً مما نقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه وجبرئيل بن بختيشوع ، و بختيشوع بن جبرئيل بن بختيشوع ، وداود بن سرابيون

(١) الكون : الحدث ، كالكينونة والكائنة الحادثة ، وفى رواية مقدمة الفتنة .

وسلمويه بن بنان ، واليسع ، وإسرائيل بن زكريا بن الطيفورى ، وحبيش بن الحسن ؛ ومما قال الجاحظ فيه :

بدا حين أثرى بإخوانه ففلّل منهم شباة [1] العدم
وأبصر كيف انتقال الزما ن فبادر بالعُرف قبل الندم

وقد مدحه أعاظم شعراء العصر ، ومنهم أبو تمام ، وصف قلمه بقوله :

لك القلم الأعلى الذى بشباته تُصاب من الأمر الكُلى والمفاصل
لعاب الأفاعى القاتلات لعابه وأَرْى الجنى اشتارته [2] أيد عواسل
له ريقة طلٌّ ولكن وقعها بآثاره فى الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوضت لنجواه تقويض الخيامَ الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكى وأقبلت أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رفدته الخنصران ووسدت ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف ضنى ، وسميناً خطبه ، وهو ناحل

ولهذه القصيدة قصة طريفة . قال ابن عبدوس : وجدت بخط أبى أحمد إسماعيل حدثنى محمد بن على بن سعيد الطبرى وأخوه إبراهيم بن على وأُمهما أخت محمد بن عبد الملك الزيات قالا : جاءنا حبيب بن أَوس الطائى يعنى أبا تمام بقصيدته التى يقول فيها :

لك القلم الأعلى الذى بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

---

(١) الشباة : حد كل شىء ، وفلل ثلم ، والعدم بالضم وبضمتين وبالتحريك الفقدان .
(٢) اشتارته جنته ، والأرى العسل ، والجنى كل ما يجنى .

فسألنا أن نعرضها على محمد ، وأن نتوخى بها وقتاً تكون نفسه طيبة فيه ، فتوخينا ذلك الوقت وأوصلنا القصيدة ، فقرأها من أولها وتوقف على أكثرها ، ثم قال : الطائى جيد الشعر ، إلا أنه يهجّن شعره بأنه يمتدح السُّوقة بما يمدح به الملوك ، فيعطى السوقى أكثر من حقه ، ويبخس الملك حقه إذا أعطى السوقى ما يعطيه ، ثم قلب القرطاس وكتب شيئاً فى ظهره ، وقال : إذا جاء فادفعوه إليه ، فقرأنا ما كتبه فإذا هو :

رأيتك[1] سمح البيع والعِلق إنما ... يغالى به إن ضنَّ بالعلق بايعه
وأحرِ بمن هانت بضائع ماله ... لدى البيع يوماً أن تبور بضائعه
هو الماء إن أجممته طاب وِرده ... ويفسده أن تستباح شرائعه

فلما جاء الطائى أعلمناه أنا قد أوصلنا شعره ، فلم يشك أن معه جائزة قال فأين الجائزة ؟ قلنا : خذها ، ودفعنا القرطاس إليه . فلما قرأه قال : الله الله ، قد رضيت من جائزته أن تكتما هذا الشعر ، فإنه إن انتشر أفسد علىّ عمود الصناعة وكان لبخلاء الملوك مثله أعزه الله حجة . قلنا : وتهجوه ؟ قال : ما أدير لسانى بهجائه ، ولكنى استفدت مما وصلنى به . فحكينا ذلك لمحمد فضحك وبعث إليه بمائتى دينار .

وفى رواية أن محمد بن عبد الملك عاتب أبا تمام واحتج عليه بأنه مدح غيره ، وأنه لو اقتصر عليه أغناه ، وأن كثرة مدحه للناس زهدته فيه ، وكتب إليه الأبيات الثلاثة ، فكتب إليه أبو تمام :

---

(١) فى رواية البديعى :

رأيتك سمح البيع سهلا وإنما ... يغالى إذا ماضن بالشىء بايعه
فأما الذى هانت بضائع بيعه ... فيوشك أن تبقى عليه بضائعه

أباجعفر إن كنتُ أصبحتُ شاعراً أُساهل فى بيعى له من أُبايعه
فقد كنتَ قبلى شاعراً ذا رواية تساهل من هانت عليه بضائعه
وصرت وزيراً، والوزارة مشرب يَغَصُّ به بعد اللَّذاذة كارعه
وكم من وزير قد رأينا مسلطاً رأيناه قد سُدَّت عليه مطالعه
ولله قوس لا تطيش سهامها ولله سيف لا تُفَلُّ مقاطعه

ووصف البحترى إنشاء ابن الزيات بقوله :

لتفننت فى الكتابة حتى عطَّل الناس فن عبد الحميد
فى نظام من البلاغة ما شـ ـك امرؤٌ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزَّهَر الضا حك فى رونق الربيع الجديد
مشرق فى جوانب السمع ما يخـ ـلقه عوده على المستعيد
ما أُعيرت منه بطون القراطيـ ـس وما حُمِّلت ظهور البريد
مستميل سمع الطروبِ المغنَّى عن أغانى مُخارق وعبيد
حجج تُخرس الألد بألفا ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعانٍ لو فصلتها القوافى هَجَّنت شعر جَرْول ولبيد
حُزْن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدرك ـن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون فى الحلل البيـ ـض إذا رُحْن فى الخطوط السود

وهـذا أجمل وصف لبلاغة ابن الزيات فى الكتابة ، ولم يمدحه أبو تمام وأبو عبادة بشعره مع أنه كان أشعر كتاب الدولة ، ومدحاه بأظهر خصائصه .

حدث عبد الله بن العباس الربيعى قال : دخل محمد بن عبد الملك الزيات على الواثق وأنا بين يديه أُغنيه وقد استغنانى صوتاً فاستحسنه ، فقال له محمد

ابن عبد الملك : هذا والله يا أمير المؤمنين أولى الناس بإقبالك عليه ، واستحسانك له ، واصطناعك إياه . فقال : أجل هـذا مولاى وابن مولاى وابن موالىّ لا يعرفون غير ذلك . فقال له : ليس كل مولى يا أمير المؤمنين بولى لمواليه ، ولا كل مولى متجمل بولاية تجمع ما جمع عبـد الله من ظرف وأدب ، وصحة عقل ، وجودة شعر . فقال له : صدقت يا محمد . فلما كان من الغد جئت محمد بن عبد الملك شاكراً لمحضره ، فقلت له فى أضعاف كلامى : وأفرط الوزير أعزّه الله فى وصفى وتقريظى ، ولو كان عندى أيضاً شىء بعد ذلك لصغر عن أن يصفه الوزير ، ومحله فى هـذا الباب المحل الرفيع المشهور فقال : والله يا أخى لو عرفت مقدار شعرك وقولك :

يا شـــادناً رام إذ مـــرّ فى السعانين[1] قتلى
يقول لى كيف أصبحـــت كيف يصبح مثلى

لما قلت هذا القول ، والله لو لم يكن لك شعر فى عمرك كله إلا قولك « كيف يصبح مثلى » لكنت شاعراً مجيداً . روى هذا الأصفهانى وقال أيضاً : أخبرنى الصولى قال : حدثنى عون بن محمد الكندى قال : حدثنى عبـد الله بن العباس ابن الفضل بن الربيع قال : وصفنى محمد بن عبد الملك للمعتصم ، وقال : ما له نظير فى ملاحة الشعر والغناء والعلم بأمور الملوك ، فلقيته فشكرته وقلت : جعلت فداءك أتصف شعرى وأنت أشعر الناس ألست القائل :

أَلم تعجب لمكتئب حزين خديم صبابة وحليف صبر
يقول إذا سألت به بخير وكيف يكون مهجور بخير

قال وأين هذا من قولك :

---

(١) السعانين : عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع يخرجون فيه بصلبانهم (القاموس).

يقول لى كيف أصبحت كيف يصبح مثلى
ماء ولا كصدّاء ومَرْعى ولا كالسَّعدان[1]

كتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك : سرورى ، أعاذ الله حياتك ، إذ رأيتك كوحشتى لك إذا لم أرك ، وحفظى لك فى مغيبك ، كمودتى لك فى مشهدك ، وإنى لصافى الأديم ، غير نَغل ولا متغير ، فامنحنى من مودتك مزن لذاذة مشربك ، وكن لى كأنا ، فوالله ما عجت عن ناحيتك إلا وأنا محنىُّ الضلوع إليك والسلام . فكتب إليه محمد : يا أخى ما زلت عن مودتك ، ولا حلت عن أخوتك ، ولا استبطأت نفسى لك ، ولا استزدتها فى محبتك ، وإن شخصك لماثل نصب طرفى ، ولقل ما يخلو من ذكرك قلبى ، ولله در الذى يقول :

أما والذى لو شاء لم يخلق النوى ... لئن غبت عن عينى لما غبت عن قلبى
يذكرنيك الشوق حتى كأننى ... أناجيك من قرب وإن لم تكن قربى

هذا إجمال ما أمكن الوقوف عليه من حياة ابن الزيات وصفاته ، بقى أن نقول ما انتهى إليه مصيره بعد أن خدم الدولة العباسية بروحه وقلبه وعينه ، فقد ذكر أرباب السير أن المتوكل كان فى نفسه شىء منه قبل أن يتولى الخلافة لأن محمداً كان أشار بتولية ولد الواثق بدلاً من أخيه المتوكل ، وأشار ابن أبى دواد بتولية المتوكل . وقيل كان ابن الزيات يتجهم للمتوكل فى أيام الواثق ، ويغلظ عليه الكلام ، فحقد المتوكل عليه ، فلما ولى الخلافة قتله مخدوعاً بالذين قالوا له إنه كان صاحب أموال كثيرة ، فلما قتله بعد أربعين يوماً من توليته لم ير

---

(١) صداء : اسم ركية عذبة الماء ، وسعدان نبت وهو من أفضل مراعى الإبل ، والجملة من أمثال العرب .

جميع ما يملك من الضياع والأملاك والذخائر إلا ما كانت قيمته مئة ألف دينار فندم على ذلك . وقيل إن المتوكل قال لابن أبي دواد : أطمعتني في باطل ، وحملتني على شخص لم أجد عنه عوضاً . ذلك لأن هذه الثروة تافهة لمن تولى الوزارة أربع عشرة سنة ، وكان أهله أغنياء موسرين . وقضى ابن الزيات نحبه في التنور الذي قيل إنه كان اتخذه أيام وزارته من حديد وأطراف مساميره المحدودة إلى داخل وهي قائمة مثل رأس المسالّ ، وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال . وكان يقول لنفسه قبل موته بيومين أو ثلاثة : يا محمد بن عبد الملك لم تقنعك النعمة والدواب الفُره ، والدار النظيفة والكسوة الفاخرة ، وأنت في عافية حتى طلبت الوزارة ، ذقْ ما عملت بنفسك . فكان يكرر ذلك على نفسه فلما كان قبل موته بيوم ذهب عن عتاب نفسه ، فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله . وراح أعداؤه يصنعون عن لسانه أقوالاً وأشعاراً ربما لم يقلها ، ويزوّرون ما يحاولون به إلقاء الغطاء على محاسنه الكثيرة .

نموذج من انشائه :

لم يؤلف ابن الزيات كتاباً في موضوع خاص ، صرف جميع ما أُوتيه من موهبة البلاغة في رسائل الدولة ، وذكروا أن له كتاب رسائل قدره خمسون ورقة ولم يعثر عليه ، والمعقول أن يكون خلف مئات من الأوراق ، والباقي اليوم من رسائله في دواوين الأدب لا يتجاوز بضع صفحات ، وله ديوان شعر رائق ؛ ومن كتبه عهد الواثق على مكة كتبه بحضرة المعتصم ، وهو : « أما بعد فإن أمير المؤمنين قد قلدك مكة وزمزم ، وتراث أبيك الأقدم ، وجدك الأكرم ، وركضة جبريل ، وسقيا إسماعيل ، وحفر عبد المطلب ، وسقاية العباس ، فعليك

بتقوى الله تعالى والتوسعة على أهل بيته » ، وهـذا من الإيجاز المعجب الذى تمليه قريحة اعتادت البديهة واعتادت الروية ، وما أحلى قوله : « ركضة جبريل وسقيا إسماعيل » ، وهى من التعابير التى يفترعها أمثاله من الكاتبين .

* * *

أمر الواثق ابن الزيات أن يتلطف بعبد الله بن طاهر ، ويعلمه أنه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم ، وفوّض ذلك لابن عمه إسـحق بن إبراهيم ، فكتب : « أما بعد فإن أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما فى يمينك من أمر الجزائر والعواصم فيجعله فى شمالك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » ، وليس فى الوصول إلى الغرض مع مراعاة المكتوب إليه ، أوجز ولا ألطف من هذا السطر .

* * *

لما بويع المتوكل أمر بالكتاب إلى الناس باعتمادهم على اللقب الذى لقب به ، وكتب ذلك ابن الزيات : « بسم الله الرحمن الرحيم » . أمر أبقاكَ الله أمير المؤمنين أَطال الله بقاءه ، أن يكون الرسم الذى يجرى به ذكره على أعواد منابره ، وفى كتبه إلى قضاته وكتابه وعماله وأصحاب دواوينه وغيرهم ، من سائر من تجرى المكاتبة بينه وبينه « من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين » فرأيك فى العمل بذلك ، وإعلامى بوصول كتابى إليك موفق إن شاء الله .

* * *

وكتب إلى الحسن بن وهب : يجب على المرءوس إذا تجاوز به الرئيس حق مرتبته بعمله ، وكان تفضيله إنما وقع له بخفته على القلب ، ومحله من

الأدب ، أن يقابل ذلك بمثله ، إن كان محامياً على محله ، و إلاّ فلا يؤمن عليه .

* * *

وكتب : إن حق الأولياء على السلطان تنفيذ أمورهم ، وتقويم أودهم ، ورياضة أخلاقهم ، وأن يميز بينهم فيقدم محسنهم ، و يؤخر مسيئهم ، ليزداد هؤلاء فى إحسانهم ، و يزدجر هؤلاء عن إساءتهم .

* * *

وفصل له : إن من أعظم الحق حق الدين ، وأوجب الحرمة حرمة المسلمين ، فحقيق لمن راعى ذلك الحق ، وحفظ تلك الحرمة ، أن يراعى له حسب ماراعاه الله ، و يحفظ له حسب ما حفظ الله على يديه .

* * *

وفصل له : إن الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة ، ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة ، و إحياء السنن الصالحة ، فإذا أدّى كل إلى كل حقه ، كان ذلك سبباً لتمام المعونة ، واتصال الزيادة ، واتساق الكلمة ، ودوام الألفة .

* * *

فصل : ليس من نعمة يجددها الله لأمير المؤمنين فى نفسه خاصة ، إلا اتصلت برعيته عامة ، وشملت المسلمين كافة ، وعظم بلاء الله عندهم فيها ، ووجب عليهم شكره عليها ، لأن الله جعل بنعمته تمام نعمتهم ، و بتدبيره وذبه عن دينه حفظ حريمهم ، و بحياطته حقن دمائهم وأمن سبيلهم ، فأطال الله بقاء أمير المؤمنين منطوى القلب على مناصحته ، مؤيداً بالنصر ،

معززاً بالتمكين ، موصول البقاء بالنعيم المقيم .

* * *

وله : الحمد لله الذى جعل أمير المؤمنين معقود النية بطاعته ، منطوى القلب على مناصحته ، مستحوذ السيف على عدوه ، ثم وهب له الظفر ، ودوخ له البلاد ، وشرد به العدو ، وخصه بشرف الفتوح ، شرقاً وغرباً ، وبراً وبحراً .

* * *

وله : أفعال أمير المؤمنين عندنا معسولة كالأمانى ، متصلة كالأيام ، ونحن نواتر الشكر لكريم فعله ، ونواصل الدعاء له مواصلة برِّه ، إنه الناهض بكلنا ، والحامل لأعبائنا ، والقائم بما ناب من حقوقنا .

* * *

وله : أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره ، ولا يخلو من إحدى منزلتين ، ليس فى واحدة منهما عذر يوجب حجة ، ولا يزيل لائمة : إما تقصير فى عملك دعاك للإخلال بالحزم ، والتفريط فى الواجب ، وإما مظاهرة لأهل الفساد ، ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك مُحِلّةُ النكر بك ، وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنَّظِرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم فى الإعذار والإنذار ، على حسب ما أقامت من عظيم العثرة ، وما يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والإضاعة والسلام .

* * *

والمظنون أن الكتاب الذى كتب عن المعتصم إلى ملوك الآفاق من المسلمين عند قبض الإخشيد على بابك الخرّمى ، ونقله القلقشندى (صبح الأعشى ص ٤٠٠ ج ٦) ، هو من كتابة محمد بن عبد الملك الزيات ، لولا ما يحول دون هذا

الظن من أثر التطويل فيه ، وعلى كل فهو مما كتب تحت إشرافه لأن بابك قتل سنة ٢٢٣ ، وابن الزيات تولى الوزارة فى سنة ٢٢٠ ، والكتاب بأسلوب ابن الزيات أشبه ، لا تكلف فى ألفاظه وتراكيبه ، ويستبعد أن لا يجول قلم ابن الزيات فى هذا الموضوع الخطير ، الذى أقام الخلافة وأقعدها ؛ ومما جاء فيه بعد التحميد : ولا يعلم أمير المؤمنين — مع كثرة أعداء الإسلام وتكنفهم إياه من أقطاره ، والضغائن التى فى قلوبهم على أهله ، وما يترصدونه من العداوة ، وينطوون عليه من المكايدة ، إذ كان هو الظاهر عليهم ، والآخذ منهم — عدوًّا كان أعظم بلية ، ولا أجل خطباً ، ولا أشد كلَباً ، ولا أبلغ مكايدة ، ولا أرمى بمكروه ، من هؤلاء الكفرة الذين يغزوهم المسلمون ، فيستعلون عليهم ، ويضعون أيديهم حيث شاءوا منهم ، ولا يقبلون لهم صلحاً ، ولا يميلون معهم إلى موادعة ، وإن كان لهم على طول الأيام وتصرف الحالات وبعض مالا يزال يكون من فَتَرات ولاة الثغور أدنى دولة من دولات الظفر ، وخُلسة من خلس الحرب ، كان بما لهم من خوف العاقبة فى ذلك منغصاً لما تعجلوا من سروره ، وما يتوقعون من الدوائر بعد مكدراً لما وصل إليهم من فرحة .

فأما اللعين بابك وكفَرَته ، فإنهم كانوا يَغْزُون أكثر مما يُغزون ، وينالون أكثر مما يُنال منهم ؛ ومنهم المنحرفون عن الموادعة ، المتوحشون عن المراسلة ، ومن أديلوا [1] من تتابع الدول ، ولم يخافوا عاقبةً تدركهم ، ولا دائرة تدور عليهم ، وكان مما وطّأ ذلك ومكّنه لهم أنهم قوم ابتدأوا أمرهم على حال تشاغل السلطان ، وتتابع من الفتن ، واضطراب من الحبل ؛ فاستقبلوا أمرهم بغرّة من أنفسهم وضعف ، واستثارة ممن باراهم ، فأجلوْا من حولهم لتخلُص البلاد لهم ، ثم

(١) أدالنا الله من عدونا من الدولة والإدالة : الغلبة .

أخربوا البلاد ليعز مطلبهم ، وتشتد المؤنة وتعظم الكلفة ، ويقوَوْا فى ذات أيديهم ، فلم يتوافَ إليهم قواد السلطان ، إلا وقد توافت إليهم القوة من كل جانب ، فاستفحل أمرهم ، وعظمت شوكتهم ، واشتدت ضروراتهم ، واستجمع لهم كيدهم ، وكثر عددهم واعتدادهم ، وتمكنت الهيبة فى صدور الناس منهم ، وتحقق فى نفوسهم أن كل ما يَعدهم الكافر ويُمنّيهم أَخذٌ باليد ، وكان الذى بقى عندهم منه كالذى مضى ، وبدون هذا ما يُختَدَع الأريب ، ويستنزل العاقل ، ويُعْتَقَل الفطن ، فكيف بمن لا فكرة له ، ولا روية عنده .

هذا مع كل ما يقوم فى قلوبهم من حسد أهل النعم ، ومنافستهم على ما فى أيديهم ، وتقطعهم حسراتٍ فى إثر ما خُصوا به ، وأنهم إن لا يكونوا يرون أنفسهم أحق بذلك ، فإنهم يرون أنهم فيه سواء .

وفيه : فأعدَّ (أمير المؤمنين) من أمواله أخطرها ، ومن قواد جيشه أعلمهم بالحرب ، وأنهضهم بالمعضلات ، ومن أوليائه وأبناء دعوته ودعوة آبائه — صلوات الله عليهم — أحسنهم طاعة ، وأشدهم نكاية ، وأكثرهم عُدة ، ثم أتبع الأموال بالأموال ، والرجال بالرجال ، من خاصة مواليه وعدد غلمانه ، وقبل ذلك ما اتكل عليه من صُنع الله عز وجل ، ووجه إليه من رِعيته ؛ فكيف رأى الكافر اللعين وأصحابه الملاعين ؟ ألم يكَذِّب الله ظنونهم ، ويشف صدور أوليائه منهم ؟ يقتلونهم كيف شاءوا فى كل موطن ومعترك ، ما دامت عند أنفسهم مقاومة .

وفيه : فلما حصرهم الله وحبسهم عليهم ودانتهم مصارعهم ، سلطهم الله عليهم كيدٍ واحدة ، يختطفونهم بسيوفهم ، وينتظمونهم برماحهم ؛ فلا يجدون ملجأ ولا مهرباً ، ثم أمكنهم من أهاليهم وأولادهم ونسائهم وحُرَمهم ، وصيروا

الدار دارَهم والمحلة مَحِلتهم ، والأموال قَسْماً بينهم ، والأهل إماء وعبيداً ؛ وفوق ذلك كله ما فعل بهؤلاء ، وأعطاهم من الرحمة والثواب ، وما أعد لأولئك من الخزى والعقاب ، وصار الكافر بابك لا فيمن قتل فسلم من ذل الغَلَبة ، ولا فيمن نجا فعاين فى الحياة بعض العوض ، ولا فيمن أُصيب ، فيشتغل بنفسه عن المصيبة بما سواه .

وجاء فى خاتمته : فالحمد لله الذى أعز دينه ، وأظهر حجته ، ونصر أولياءه ، وأهلك أعداءه ، حمداً يُقضى به الحق ، وتتم به النعمة ، وتتصل به الزيادة ، والحمد لله الذى فتح على أمير المؤمنين وحقق ظنه ، وأنجح سعيه ، وحاز له أجر هذا الفتح وذُخره وشرفه ، وجعله خالصاً لتمامه وكماله ، بأكمل الصُّنع وأحسن الكفاية .

* * *

كان ابن الزيات يقول : احذروا الصديق الجاهل أكثر من حذركم العدو العاقل ، فليس من أساء وهو يعلم أنه مسىء كمن أساء وهو يظن أنه يحسن .

ومن شعره :

لو كان يمنع حسن الوجه صاحبه ... من أن يكون له ذنب إلى أحد
كانت عليم أبر الناس كلهم ... من أن تكافا بسوء آخر الأبد

ومنه :

مالى إذا غبت لم أُذكر بصالحة ... وإن مرضت وطال السقم لم أُعد
ما أعجب الشىء ترجوه فتحرمه ... قد كنت أحسب أنى قد ملأت يدى

ذكر ابن المدبر فى الرسالة العذراء أنهم لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل « أبقاك الله وأمتع بك » إلا إلى الحرمة والأهل والتابع والمنقطع إليك ، وأما فى كتب

الإخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه ، ولذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

أحلت عما عهدت من أدبك ... أم نلت ملكاً فتهت فى كتبك
أم هل ترى أن فى التواضع للـ ... ـإخوان نقصاً عليك فى حسبك
أتعبت كفيك فى مكاتبتى ... حسبك مما يزيد فى تعبك
إن جفاء كتاب ذى أدب ... يكتب فى صدره « وأمتع بك »

فكتب إليه ابن الزيات :

أنكرتَ شيئاً فلست فاعله ... فلن تراه يُخَطُّ فى كتبك
فاعفُ ، فدتك النفوس ، عن رجل ... يعيش حتى الممات فى أدبك
كيف أخون الإخاء يا أملى ... وكل شىء أنال من سببك
إن يك جهلاً أتاك من قبلى ... فَعُدْ بفضل علىّ فى أدبك

* * *

تعشق محمد جارية ، فبيعت من رجل من أهل خراسان وأخرجها ، فذهل عقله حتى خشى عليه ، ثم أنشأ يقول :

يا طول ساعات ليل العاشق الدنف ... وطول رعيته للنجم فى السدف[1]
ماذا توارى ثيابى من أخى حُرَقٍ ... كأنما الجسم منه دقة الألف
ما قال يا أسفى يعقوب من كمد ... إلا لطول الذى لاقى من الأسف
من سره أن يرى ميت الهوى دنفاً ... فليستدل عَلَى الزيات وليقف

* * *

(١) السدف : محركة الصبح وإقباله ، وسواد الليل كالسدفة . والدنف : محركة المرض الملازم .

وكان محمد بن عبد الملك يحب بعض جوارى القيان ، ثم تنكر لها ، فكتبت على خاتم لفظاً تعرّض فيه بالعتاب ، فبلغه ذلك ، فكتب على خاتمه ضد ما كتبت ، فبلغها فمحت ما كان على خاتمها ، وكتبت ضد ما كتب ، فبلغه ذلك ، فمحا ما كان على خاتمه ، وكتب ضد ذلك فى أبيات يقول فيها :

كتبت عَلَى فَص لخاتمها ... من ملّ من أحبابه رقدا
فكتبت فى فَصّى ليبلغها ... من نام لم يشعر بمن سهدا
فمحته وا كتتبت ليبلغنى ... ما نام من يهوى ولا هجدا
فمحوته ثم ا كتتبت أنا ... والله أول ميت كمدا
قالت يعارضنى بخاتمه ... والله لا كلمتـــه أبدا

وقال :

أترحل والذى تهوى مقيم ... لعمرك إن ذا خطر جسيم
إذا ما كنت للحدثان عوناً ... عليك وللزمان فمن تلومُ

ومن شعره فى العيادة :

ونعود سيدنا وسيد غيرنا ... ليت التشكى كان بالعُوّاد
لو كان يقبل فديةً لفديته ... بالمصطفى من طارفى وتلادى

وقال فى عباس بن المأمون وقصته أيام عمورية :

حلفة ما حلفت لا تعبر اللّ ... كام مبرورة من الايمان
رب حنث فيه النجاة و بر ... قد أحلّ الفتى بدار هوان

وقال :

أباح الدمع سرّا لم أبحه ... فدمعى آفتى لا تظلمينى
فما ذنبى إذا كانت دموعى ... تعين علىّ أسباب المنون

إذا ظن الجليس ببعض مابى يبين لعينه وجه اليقين
ونرمى بالظنون إذا التقينا فتكشف لحتى لبس الظنون

وله :

تمكنت من قتلى فأزمعت قتلها على غير عمد منك والروح تذهب
كعصفورة فى كف طفل يسومها ورود حياض الموت والطفل يلعب

وله :

وعائب عابنى بشيبى لم يَعْدُ لما ألَمَّ وقتَه
فقلت إذ عابنى بشيبى يا عائب الشيب لا بَلَغْتَه

ومن قصائده قصيدته التى أغرى فيها بإبراهيم بن المهدى فى أيام المأمون ، عند رضى المأمون عنه ، وعدد فيها ما كان منه عند دعائه إلى نفسه ، وأولها :

ألم تر أن الشىء للشىء علة يكون له كالنار تقدح بالزند

وقال فى جارية يهواها اسمها عذر :

يا عذر زين باسمك العذر وأسا ولم يحسن بك الدهر
وهى التى قالت وقد جعلت تنسل من وجناتها الحمر
أكمد بدائك هل رأيت كذا بدر يلوح بخده البدر

ورأته هذه الجارية فى ليلة أربع عشرة من الشهر فقال :

بدر بدا فى ليلة البدر فى ليلة الأربع والعشر
لذلك الشهر له شاهد لا ينقضى الدهرَ له شكرى
أطلع بدرين وما عهدنا بأن نرى بدرين فى شهر
وَيْلِى من بدرين فى ليلة كلاهما فى صورة يسرى

ومن هذه المقاطيع عرفنا أيضاً أن ابن الزيات كان رجل صبابة ودعابة ، ورقة طبع وحاشية ، وجميل إخاء ووفاء .

فهرس الجزء الأول

صفحة

غرض هذا الكتاب ٣

مصادر الكتاب ٥

البيان العربى ٩

عهد الجاهلية ٩

عهد الإسلام ١١

أسلوب القرآن ١٣

الأسلوب الأول ١٥

تبدل الأسلوب ١٧

الأعاجم والعربية ١٨

الأسلوب المنتشر ٢٢

الأسلوب المتكلف ٢٧

إحياء الأسلوب القديم ... ٣٦

عبد الحميد الكاتب ٣٨

عصره ٣٨

أصله وخلقه ٤١

بلاغته وأسلوبه ٤٨

صفحة

نموذجات من مختصراته ومطولاته ٥٢

عبد الله بن المقفع ٩٩

عصره ٩٩

أصله ونشأته ١٠٢

أدبه وأسلوبه ١٠٥

أخلاقه ومصيره ١١٧

شعبة من كلامه ١٢٩

سهل بن هارون ١٥٩

منبته ونسبه ١٥٩

مذهبه وأخلاقه ١٦١

طريقته فى الكتابة وتآليفه ١٦٥

حياته السياسية ١٦٧

حياته العلمية ١٧١

نثره وشعره ١٧٣

صفحة

أثره الباقى ١٨١

خاتمة ١٨٩

عمرو بن مسعدة ١٩١

عصره ١٩١

أصله وحليته ونشأته ... ١٩٥

شىء من كلامه ٢٠٠

عظمة أخلاقه ٢٠٧

ثروته ونعمته ٢١٤

أحمد بن يوسف الكاتب ... ٢١٨

نشأته وظهوره ٢١٨

صفحة

شىء من كلامه ٢٢٩

ابراهيم بن العباس الصولى ٢٤٤

حياته الخاصة والعامة ... ٢٤٤

أدبه وكتابته ٢٥٣

نثره وطريقته ٢٦٦

محمد بن عبد الملك الزيات ٢٧٨

عصره ٢٧٨

نشأته ووزارته ٢٨٠

علمه وسياسته ٢٨٤

نموذج من انشائه ٢٩٧

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أمراء البيان

تأليف

محمد كرد علي

الجزء الثاني

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٥ — ١٩٣٧

عمرو بن بحر الجاحظ

عصره :

كان عصر الجاحظ عصر استقرار وازدهار ، ثبتت قواعد الدولة العباسية على عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم ، واطردت سياستها ، وخيف سلطانها ، وعظم شأنها ، ولم يكدر صفاء تلك الحقبة غير الحرب التى نشبت بين الأمين والمأمون ، للنزاع على ولاية العهد ، فسالت الدماء فى خراسان والعراق ، وأنفق الأمين الأموال ، حتى إذا استقل أخوه المأمون بالخلافة ، عادت الأمور إلى مجراها الأول فى عهد الرشيد وأبيه المهدى وأخيه الهادى . ثم اختلت الدولة بعد عهد الواثق ، فقتل المتوكل والمستعين والمعتز من خلفائهم .

وكانت العلائق السياسية بين ملوك العباسيين وملوك غربى أوربا مثل « شارلمان و پيپين » على غاية الوئام ، يتبادل العباسيون مع ملوك الإفرنج السفراء والهدايا ، ويريد بنو العباس من هـذا التلطف على الغالب أن يقف الإفرنج بالمرصاد لدولة الأندلس . أما دولة روم القسطنطينية ، فكانت فى بلاء من جيش بنى العباس إلى زمن الواثق ، يغزوها فى الأحايين فيظفر ويغنم ، حتى اضطرت أن تؤدى للعباسيين جزية سنوية .

وعرف الرشيد أن دولة الأمويين فى الأندلس أخذت كدولته تعرج معارج الحضارة ، وتأخذ من كل وجه بأسباب القوة ، فحاذر تقدمها نحو بلاده ، ورأى أن يقيم أمامها حاجزاً فى إفريقية من دولة الأغالبة ، فمنح هذه شبه استقلال ، وقام بعض العلويين وغيرهم على عهد الرشيد ، فقاتلهم بجزء من

جيشه ، فأيقنوا أن لا سبيل إلى تحقيق رغائبهم فى قلب أوضاع الدولة ، وعادوا بما لاقوا من الجدّ فى استئصالهم يعتصمون بالتقية ، وأرجأ بقايا السيوف منهم بثّ دعوتهم جهرةً إلى الوقت المناسب .

وأهم ما تم من الخير للعلم بعد القضاء على الزنادقة على عهد المهدى ، وتقطيع كتبهم كتقطيع أوصالهم ، استمتاع أرباب العقول بحرياتهم ، فأنشأوا يفكرون على ما يشاءون فى نطاق الإسلام ، لا يخرجون عن رُخَصه وعزائمه ، وكثر الباحثون والدارسون ، وأخذ الخلفاء والأمراء بأيدى من أتقنوا فنهم وعلمهم ، واشتد الغرام بنقل العلوم المادية اشتداده فى تدوين العلوم الدينية ، وفى هذا الزمن نبغ عظماء فى علوم الدين ، وعظماء فى علوم الدنيا ، وعظماء فى الآداب والفنون ، وعظماء فى الحرب والسياسة ، وكان كل من تفرّد بضرب من ضروب العلم والأدب يلقى من الخلفاء على الأكثر أنواع التجلّة والإكرام ، ويخلع عليه كل جميل .

وفى هذا الدور نبغ أئمة المذاهب الأربعة التى وقع الاكتفاء بها عند أهل السنة ، ودوّن مذهب مالك وأبى حنيفة وغيرهما ، وتم تدوين الحديث وتدوين اللغة والشعر ، وكثر عظماء القراء ، وزاد عدد النقلة من الفارسية والسريانية واليونانية ، وراجت الوراقة رواجًا عظيماً ، لما بدأ الملوك يجمعون خزائن كتب فى قصورهم ، ويقيمون دُور الحكمة فى عاصمة الخلافة ، وعَلق الأمراء وعِلْية الأمة يتنافسون فى اقتفاء آثار خلفائهم فى خدمة الآداب ، يُحْظُون ويُعْطُون كل من ينقل لهم ضرباً جديداً من المعارف . وبعد أن كانت البصرة والكوفة مستأثرتين بالحركة العلمية ، شاركتهما بغداد بهذا الشرف ، ثم أربت عليهما منذ وافاها أهل الفضل من الأمصار ، فما هى إلا أعوام قليلة حتى أصبحت بغداد

مدينة علم ، وكانت من قبل مدينة ملك ، بما نُقل من صنوف العلم إلى الخلفاء وأتباعهم .

وأيقن أرباب البصائر أن الدنيا لا تأتى من غير طريق الكفاية ، وأن « كل عزّ لم يؤكد بعلم فإلى ذل يؤول » فانكبوا على التأدب ، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم ، وكان إذا تفرس رب البيت فى ولده ذكاء جاءه بالمؤدبين يلقنونه ما تشتهى نفسه من الآداب ، ولذا أصبح التعليم صناعة ، وحسن عيش المؤدبين ؛ وغدا التأديب أيضاً طريقاً إلى المجد والسؤدد ، على ما أمست منادمة الملوك والأمراء صناعة برأسها ؛ وقد يبلغ سلطان النديم فى قصور العظماء ما لا يبلغه سلطان الوزراء والكتاب ، وهو ابن الخَلوة والجَلوة ، والمؤتمن على الحُرَم والأسرار .

عمرت مجالس العلم والأدب ، وأمست دور الكبراء مثابة المفنّنين والإخصائيين ، يغشاها أرباب الأفكار ، وحملة الآثار والأشعار ؛ والعهد بعلماء البصرة يختلفون إلى المسجد والمِرْبد ، وكان المسجديون والمِرْبَديون جماعاً من شُعب الأدب والرواية ؛ والعهد بالكوفة يختلف المنورون من بنيها إلى الكُناسة مجمع الشعراء والأدباء ، ومسجدهم مجمع علمائهم ، ومغنى قرائهم ، والمنافسة بين المصرين ، الكوفة والبصرة ، فى الفقه والحديث واللغة والنحو والتصريف مشهورة مذكورة ، و بغداد تنعقد مجالسها ، وتغص مساجدها بأرباب العقول وَحَفدة الشريعة ، وقادة الفكر ، وشعراء الحضارة ، وأمراء البلاغة .

وهناك مجالس اللهو يَعرض فيها الموسيقاريون والمغنون فنهم ، و يتبارى أرباب النعيم والرفاهية فى اقتناء المسْمِعات والقَيْنات ، وغدت الجارية التى تجد من نفسها طبيعة مؤاتية فى هذا الفن ، تتوفر على إتقانه ، وتلْقَف ما يستلزم فنها

من أدب وشعر ؛ فجاء منهن أديبات وشاعرات ، وغدا لكل قريحة قيمة ، ولكل أدب خُطّاب ، والناس يتمززون طعم الحياة ، ويَنعمون بمباهجها ، وأصبح المسلمون ولا سيما أهل الدولة ومن والاهم ، بعيدين عن حياة التزمت والتخافت بُعْدَهم عن الامية ، وراحوا يحضرون مجالس الغناء على تصوّن وتعفف غالباً ، وخف الإنكار على من عرفوا بهذا الشأن ، وأنشأت معظم الطبقات تألف ذلك من غير نكير .

وأثارت الرعية الأرض وعَمَروها ، ففاضت الثروة ، وامتلأت خزائن الدولة بالأموال ، وزاد العمران ، وجدَّ كل عامل فى ناحيته أن ينفق جانباً من الجباية على ما يزيد فى ريع بلده ونمائه ، وغدا غرام معظم الخلفاء بتنظيم أمور الرعية ، يوازى غرامهم فى دفع كل معتد على سلطانهم .

وكانت البصرة ميناء العراق الكبرى من أعظم ما تكون عليه الفُرَضُ البحرية فى الدول العظمى ، تبادل تجارة بلاد العرب مع موانى المحيط الهندى حتى الصين ، ويغشاها أصناف من شعوب الشرق فى آسيا وإفريقية ، والبصرى كالجميرى مشهور بأسفاره ومغامراته ، وأصبح البحر الرومى بحراً عربيًّا ، وتراجع الروم إلى موانى بلادهم ، وغدا السلطان الأكبر فيه لأساطيل مصر والشام وإفريقية والأندلس ، واعتزلت شعوب جنوبى أوربا فى موانيها لا يبحر لها سفين ، ولا تحمل لهم بضاعة ؛ والعرب بما عرف من مرانهم على التجارة يتولون كبرها فى البر والبحر ، والزراعة والصناعة على الأعم الأغلب فى أيدى أبناء الذمة من السريان والعجم والقبط والبربر وغيرهم ؛ وتعينت حدود الاختصاص بالصناعات اليدوية والعلمية ، وقلَّ فى الناس المتشائمون وكثر المترفون .

كتب الرواج فى هذا العصر لكل صناعة ولكل بضاعة ، واستوت شعوب

المملكة العباسية أمة ذات حضارة مقررة ، وربة شخصية ظاهرة ؛ وكان حظ الجميع سواءً فى الاستمتاع بالأَمَنَة والسلامة ، وعلى قدر كفاية الكفء ، وإخلاص المخلص للدولة ، يَخْلُص الناس إلى المراتب والمناصب ، وعلى نسبة عمل العاملين فى صنوف الأعمال يغتنون ويسعدون ، لا يخاف الناس إلا أنفسهم ، ولا يُلْزَمون أن يقدموا حسابهم لغير ديّانهم وسلطانهم ؛ فحضارة هذا العهد حضارة صقلها الإسلام والعربية ، واشترك فى خدمتها أهل كل نحلة وملة ، ووقف كل امرئ عند حده ، ليس له أن ينكر على من يناقش إلا ببرهان ، وقلما تعدى حِجاج المتجادلين أبواب المجامع والجوامع والمجالس الخاصة ، وصفحات الأسفار والرسائل ، فهذا العصر هو خير عصور بنى العباس على الناس ، وفيه سَعِدَ العلم ، وسعدت البلاغة بنبوغ الجاحظ .

نشأته ونعمته :

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى ، من بنى كنانة بن خُزَيْمة ، والد النضر أبى قريش ، وبنو كنانة بطن من مضر يقال لهم كنانة طلحة ، والليثى نسبة إلى الليث بن بكر بن عبد مَناة بن كنانة بن خُزيمة بن مُدْركة ، وإلى هذه القبيلة ينتسب أبو عثمان الجاحظ ، وقيل إنه كان مولى أبى القَلَمَّس عمرو بن قِلَع الكنانى ثم الفُقيمى . فهو كنانى صليبة خالص النسب ، وكان جده فزارة أسود اللون ، وكان جمالاً لعمرو بن قلع ، وأُطلق على عمرو اسم « الجاحظ » لنتوءِ عينيه ، ويقال له « الحَدَقى » لذلك ، وكان مشوّه الخلقة ، فكأن ما نقص من صورته استوفاه من ذكائه وعقله .

ولد فى البصرة حوالى سنة ستين ومائة ، وتوفى والده وهو طفل ، فلما

ترعرع تعلم الخط والقراءة فى أحد كتاتيب بلده ، وأخذ مذ كان يافعاً يتلقى الفصاحة شفاهاً عن العرب فى المِرْبد ، وكان المربد أشهر محالّ البصرة ، وبه كانت فى الإسلام مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، على مثال سوق عُكاظ بين نَخْلة والطائف فى الجاهلية . واتصل بعظماء فى الدين والآداب ، مثل الأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى ، وأبى عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى ، والأخفش ، والنظّام إبراهيم ابن سيار البلخى ، وصالح بن جناح اللَّخْمى . أخذ اللغة والأدب عن الثلاثة الأولين ، والنحو عن الأخفش ، والكلام عن النظام ، والحكمة عن ابن جناح .

وحدَّث عن ثُمامة بن أشرس النميرى المتكلم ، ويزيد بن هارون ، والسرى ابن عبدويه ، والقاضى أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم ، والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمة . وروى عنه أبو بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى ، ومحمد بن عبد الله بن أبى الدلهاب ، ودعامة بن الجهم ، وأبو سعيد الحسن بن على العدوى ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ، ويموت بن المزرَّع ، وأبو العَيناء محمد بن القاسم . وقال عن نفسه إنه جلس إلى أبى عبيدة والأصمعى ويحيى بن نجيم وأبى مالك وعمرو بن كركرة مع من جالس من رواة البغداديين .

أولئك الذين عرفوا ممن أخذ الجاحظ عنهم ومنهم نَجَم ، وهؤلاء الذين أخذوا عنه الحديث وغيره ، فكان له فى كل حلقة من حلاق البصرة متنفس . وإذا نظرنا فى اختصاص أساتيذ الجاحظ من غير المحدثين ، نرى الأصمعى ممن جمع شتيت اللغة فى الشجر والنبات والإبل والشاء والوحوش وغير ذلك ، وقالوا إنه كان يحفظ ثلث اللغة كما كان الخليل يحفظ نصفها وابن كركرة يحفظها كلها . وصنف أبو عبيدة فى البازى والحمام والعقارب والحيات والزرع « وكان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامهم » وكان يرى رأى الخوارج ، ووصفه تلميذه

بأنه لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلوم منه . وألف أبو زيد الأنصارى فى القوس والترس والقضيب والإبل والوحوش ، وخلق الإنسان والمطر والنبات ؛ وكان هؤلاء الثلاثة فى عصرهم « أئمة الناس فى اللغة والشعر وعلوم العرب ، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم ، عنهم أخذ جلُّ ما فى أيدى الناس من هذا العلم بل كله » . كان الأخفش الأوسط من أعلم الناس بالنحو والتصريف ، وصالح بن جناح كان ممن أدرك التابعين ، وكلامه مستفاد فى الحكمة كما قال ابن عساكر ، أخذ عنه الجاحظ فى نيسابور ؛ أما النظام ، شيخ المعتزلة و إمام الأئمة ، فقد كان من جملة ما يحفظ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وتفسيرها ، مع كثرة حفظه الأشعار والأخبار واختلاف الناس فى الفتيا ، وقد وصفه الجاحظ بقوله : إن الأوائل يقولون فى كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحق النظام . وقال إنه ما رأى أحداً أعلم بالكلام والفقه منه . وقال عن نفسه : إنه وجد عند أدباء الكتاب كابن وهب وابن الزيات ما لم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر والأدب ، وبهم عرف ماهية الشعر ، وقام بحق الأدب والكتابة .

هذه أوجه الدراسة التى وجهت إليها مدارك الجاحظ ، وهؤلاء أشهر أساتذته . أحكم فنون الأدب والأخبار واللغة والكلام والحكمة ، أى تثقف بالثقافة الراقية لعهده ، وزاد على هذه العلوم النظرية أنه أعمل فكره فيما تعلم ، وحلل المسميات كما تعلم الأسماء ، واتسع عقله للاشتغال بمسائل مهمة من الدين ، فكان صاحب مذهب وأتباع ، والغالب أنه كان يعرف الفارسية . وكان مولعاً بالكتب ، يكثر الاختلاف إلى الوراقين فى البصرة و بغداد ، يقضى فى حوانيتهم ساعات « حدث أبو هفان قال : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ

فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين و يبيت فيها للنظر » وله ورّاق خاص .

روى الخطيب البغدادى عن محمد بن سليمان الجوهرى قال : كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل ، قال : فخرجنا يوما للنزهة ، فبينا نحن على باب جامع البصرة ننظر شيئاً أردناه ، إذ عارضت امرأة معها أوراق مقطعة ، فعرضت ذلك علينا فلم نجد فيها طائلاً ، فتركناها وانصرفنا ، وتخلف معها الجاحظ ونحن ننتظره فأطال ، ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً ، وأخذ الأوراق وقال : انتظرونى ، ومضى بها إلى منزله ؛ فلما عاد أخذنا نهزأ به و يقول : فزت بقطعة من العلم وافرة ، وضحكنا فقال : أنتم حمقى والله ، إن فيها ما لا يوجد إلا فيها ، ولكنكم جهال لا تعرفون النفيس من الخسيس .

نشأ الجاحظ من أبوين فقيرين ، قيل إنه رؤى بسيحان أحد أنهار البصرة يبيع الخبز والسمك فى صباه ، وقيل إن أمه كانت تمونه فى حداثته ، فجاءته يوماً بطبق عليه كراريس ، فقال : ما هذا ؟ قالت : هذا الذى تجىء به . فخرج مغتماً وجلس فى الجامع ، و يونس بن عمران[1] جالس ، فلما رآه مغتماً قال له : ما شأنك ؟ فحدثه الحديث ، فأدخله المنزل ، وقرّب إليه الطعام ، وأعطاه خمسين ديناراً ، فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره ، وحمله الحمالون إلى داره ، فأنكرت الأم ذلك ، قالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكراريس التى قدّمتها إلىّ .

وظل رزق الجاحظ غيبيًّا فى شبابه ، واتسع فى الكهولة عقبى تأليفه كتاب العباسية للمأمون ، وعلى عهده تصدر فى ديوان الرسائل ببغداد ثلاثة أيام ، ثم

---

(١) يقول ياقوت إن زيادان ناحية ونهر بالبصرة منسوبة إلى زياد مولى بنى الهجيم جد يونس بن عمران بن عمران بن جميع بن بشار بن زياد .

استعفى فأُعفى ؛ وكان سهل بن هارون يقول : إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب . واتصل بابن الزيات الوزير على عهد المعتصم فأقطعه أربعمائة جَرِيب ؛ وكتب إليه مرة زمن المتوكل « إن أمير المؤمنين يَجِد[1] بك ، ويهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك فى نفسه لِعِلْمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بُعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأْيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه » ثم حثه على الفراغ من كتاب الردّ على النصارى والتعجيل به إليه ، وقال : « وتنال مشاهرتك ، وقد استطلقته لما مضى ، واستسلفته لك ، لسنة كاملة مستقبلة » .

والظاهر أن أداء الرواتب كان يتأخر فى بعض الأيام ، حتى قال الجاحظ فى أبى الفرج نجاح بن سلمة الكاتب — وكان على الأموال زمن الواثق والمتوكل ، وإليه أهدى رسالته فى امتحان عقول الأولياء ورسالته فى الكَرْم — هذه القصيدة :

أقام بدار الخفض راضٍ بخفضه ... وذو الحزم يسرى حين لا أحد يسرى
يظنُّ الرّضا شيئاً يسيراً مُهَوَّناً ... ودون الرضى كأس أمرُّ من الصبر
سواءٌ على الأيام صاحب حنكة ... وآخر كابٍ لا يريش ولا يبرى
خضعت لبعض القوم أرجو نواله ... وقد كنت لا أُعطِى الدنيّة[2] بالقسر
فلما رأيت القوم يبذل بِشره ... ويجعل حسن البشر واقية الوفر
رَبَعْت عَلَى ظَلْعى[3] وراجعت منزلى ... فصرت حليفاً للدراسة والفكر
وشاورت إخوانى فقال حليمهم ... عليك الفتى المرّىّ ذا الخلق الغمر
أُعيذك بالرحمن من قول شامت ... « أبو الفرج المأْمول يزهد فى عمرو »

(١) وجد وجداً فى الحب فقط وكذا فى الحزن لكن يكسر ماضيه (القاموس) .
(٢) فى الحديث : علام نعطى الدنية فى ديننا ، أى الخصلة المذمومة .
(٣) من المجاز « إرق على ظلعك » أى ارفق بنفسك ، واربع على نفسك تمكث وانتظر .

ولو كان فيـــه راغباً لرأيتـه كما كان دهراً فى الرخاء وفى اليسر
أخاف عليك العين من كل حاسـد وذو الودّ منخوب[1] الفؤاد من الذُّعر
فإن ترع ودى بالقبول فأهـــله ولا يعرف الأقدار غير ذوى القدر

ولما اشتهر أمر الجاحظ أمسى يعيش من الهدايا والعطايا التى تنهال عليه من العظماء وأرباب الدولة ، ممن يؤلف بعض كتبه لهم ويحليها بأسمائهم ، حتى لقد سأله أحدهم مرة إذا كان له بالبصرة ضيعة ، فتبسم وقال : إنما أنا وجارية ، وجارية تخدمها ، وخادم وحمار : أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك ، فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبى دواد فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ، ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجـديد ولا تسميد . كان هذا والجاحظ فى شيخوخته ، والخلفاء والعظماء يعشقون قربه ، ويفاخرون بصداقته ؛ ومن أصدقائه الفتح بن خاقان[2] ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب . ولم ير الجاحظ التقيد بخدمة الخلفاء ، واعترض عليه بعضهم فى ذلك ، وقال فيه بعض من لا يرى للرجال قيمة إلا بما ملكت أيديهم ، ومُتّعوا به من جاه وسطوة : « إنى لم أر أغبن من الجاحظ لنفسـه ، وإن كان أوحد البلاغة فى عصره ؛ فما باله لم يلتمس شرف المنزلة بشرف الصـنعة ، وقد رأى ابن الزيات وإبراهيم بن العباس بلغا فيها ما بلغا ،

---

(١) المنخوب : الذاهب اللحم المهزول .

(٢) يقول ابن خلكان إنه كانت للفتح بن خاقان خزانة كتب جمعها على بن يحيى المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة . قال أبو هفان : ثلاثة لم أر قط ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم منهم : الجاحظ والفتح ابن خاقان وإسماعيل بن إسماعيل القاضى .

وهو يلتمس فوائدها والجاه بهما » بيـدأن الجاحظ كان يفضل أن يكون أميراً وسط كتبه على الصورة التى رأى عليها إسحق بن سليمان ، وقد دخل عليه فى إمرته ، فرأى السماطين والرجال مثولاً ، كأن على رءوسهم الطير ، ورأى فرشته و بزته ، ثم دخل عليه وهو معزول ، و إذا هو فى بيت كتبه ، وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر . قال الجاحظ : فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منـه فى ذلك اليوم ، لأنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع السؤدد الحكمة .

ومنذ ابتعد الجاحظ عما يستهوى من المظاهر انتهت أيام ضائقته لما اشتهر بين العالمين قدره ، وتحامى الخلفاء لما يعرف من بطشهم إذا غضبوا ، على ما لا يوازى أفضالهم إذا رضوا . ولما قبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فى خلافة المتوكل ، وكان الجاحظ فى أسبابه وناحيته منحرفاً عن أحمد بن أبى دواد ، هرب الجاحظ فقيل له : لِمَ هربت ؟ قال : خفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور . يريد بذلك ما صنعوا بابن الزيات من إدخاله تنوراً فيه مسامير محماة . وذكروا أنه لما قتـل ابن الزيات حمل الجاحظ مقيداً من البصرة ، وفى عنقه سلسلة وعليه قميص سَمَل ؛ فلما دخل على ابن أبى دواد عاتبه عتاباً فاحشاً . فقال الجاحظ : خفض عليك أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر علىَّ خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أُسىء وتحسن ، أحسن فى الأحدوثة من أن أُحسن وتسىء ، ولأن تعفو عنى فى حال قدرتك ، أجمـل بك من الانتقام منى ، فعفا عنه وصدَّره فى مجلسه .

مذهبه وأخلاقه :

يعدُّ الجاحظ من الطبقة السابعة فى المعتزلة ، وفى هذا المذهب رُبى وعليه نشأ ، وعنه ناضل وله أَلَّف ؛ وقد خالف أصحابه فى مسائل طفيفة ، فسميت فرقته الجاحظية ، وزعموا أنه قال إن المعرفة طبائع ؛ ونقل عنه أنه أنكر أصل الإرادة وكونها جنساً من الأعراض ، فقال إذا انتهى السهو عن الفاعل ، وكان عالماً بما يفعله ، فهو المريد على التحقيق ، وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس إليه ، وزاد على ذلك إثبات الطبائع للأجسام ، كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وأثبت لها أفعالاً مخصوصة بها ، وقال بعدم استحالة الجواهر ، وأن الأعراض تتبدل والجواهر لا يجوز أن تفنى ، ومذهبه مذهب الفلاسفة فى نفى الصفات ، وفى إثبات القدر خيره وشره من العبد مذهب المعتزلة .

هذا مجمل ما يقال فى مذهب أبى عثمان ، أما أخلاقه ومزاجه ، فما كان بالسوداوى ولا بالعصبى ، وكان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم ، يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور ، لا بعين المَغيظ المُحنَق ، يبدو السرور عليه إذا خطب وإذا كتب ، وتغمره الغبطة ، وتعتاده الدعابة ، وخفة الروح فيه جِبلّة ، يتنادر إلى الطبقات المختلفة ، يعبث بهذا ، ويَوْلع [1] بذاك ، لا تفزعه المظاهر ، ولا يتوقف فى إيراد النكتة ؛ فطر على الوفاء لأصحابه ، والثبات على ودهم وعهدهم ، ولا يشفع بمن يعرف وبمن لا يعرف ، لاعتقاده أن الوصاة شهادة ، وصعب عليه أن يشهد الزور .

كان يحافظ على أوقاته لايضيع منها ما يمكن شغله بالمفيد ، بعيداً عن الفوضى

(١) ولع كوضع ولعاً وولعاناً محركه : استخف .

بعض البعد ، و يحب النظام فى الجملة . إلا أنه كان لا يدخر المال إلى أيام العسرة ، و إذا أتاه ينفقه لا يحسب للغد حساباً كبيراً ، ولذلك كان يعسر أحياناً وتعوزه النفقة ، و يلوب على الناضّ يرتفق به . وما كان ضنيناً على إخوانه ، وود لو أخذ من الأغنياء فأفضل على الفقراء . ولئن نشأ من بيت وضيع ، لقد كان على جانب عظيم من عزة النفس .

ما كان الجاحظ بالمتزمت ولا بالمتنسك ، قام بما فرض الإسلام عليه من الفروض والواجبات ، وصرف ساعات عمره فيما يرفع من شأن المسلمين ، دعاهم إلى الحياة الفاضلة ، وحبب إليهم دينهم ودنياهم ، ليستقيموا أمة عزيزة فاضلة فى أخلاقها . وكان يرى سعادة أصحاب السلطان وأصحاب الثروة تزول بزوال أربابها ، أو بما يعرض لها من أسباب الفناء ، وأن العمل الصالح هو الأثر الذى يظل على الأيام ، ولذلك كان يتقن عمله ، لا يتوخى منه إلا ما يجدى فى الحياة والمعاد . وسع علمه الناس والأمصار ، ونظر أكثر من غيره إلى ما وراء حدود النظر ، وما كان بالمقلد الخائف ، ولا ممن يأخذ كل ما اتصل به قضية مسلمة لا بحث ولا نظر : قصاراه التجديد ، والبعد عن مزالق التقليد ، والتعرف إلى كل شىء معرفة ثاقبة .

رأى من العبث تكليف الأيام ضد طباعها ، فلابس دهره كما شاء فى الجملة ، لا كما أراد هو بالتفصيل ، فضحك لشقاء الحياة الدنيا ، وهزأ بما يراه غيره نعمة ؛ عرف أن السعادة فى الأرض مستحيلة ، وأن العالَم يحلو و يمرُّ ، فرضى بحلوه ومره ، وفى الرضا والقناعة عزاء وشفاء . رأى فساد الناس بما كسبت أيديهم من الكذب والزور والحسد والخبث ، فاستعمل من دهائه ما اتقى به شرهم ، وعَلِق يطمع فى الحيلة لتعليمهم ، ومداواة أمراض نفوسهم ، وتفنن فى

دعوته ، لا تفنن صاحب خيال ، وطالب محال ، بل تفنن الرجل الحكيم ، يفيض اليوم بعد اليوم من علمه على تلميذه ، بقدر ما يشهد فيه من استعداد ، ويسمح له من رأس ماله الواسع ما يرجى له أن ينعم به ، وهو لا ينفّر أهل جيله وقبيله ، ولا يقرهم على كل ما هم فيه .

خُلق نقاداً كما يُخلق الشاعر شاعراً ، وقوة النقد فيه شديدة ، ومع هذا يعمد إلى الرفق ، وينصف خصمه من نفسه ، ويستمع إلى ما يدلى به من حجة . تراه وهو العربى القح فى جميع منازعه ، لم تستهوه حكمة اليونان والهند وفارس ، وما امتلكت قلبه غير حكمة العرب وهدايتهم وآدابهم ، ومع هذا يأخذ ممن سبق ولحق ، وعمن وافق وخالف ؛ لا ينبو نظره عن شىء ، ولا تُرذل نفسه حقيراً . ولم تورثه شهرته العلمية زهواً وغروراً ، ولا يتكلف التواضع ولا التخاشع ، وبغيته الكبرى أن يرفق بالضعاف حتى يقووا ، وبالجهلاء حتى يتعلموا ؛ يحاسن الكبراء من دون إسفاف ، ويجتنب مخاشنتهم تفادياً من شرهم وعتوهم ، ويحلم عن الأشرار طبعاً وتطبعاً ، ويبتعد عن الحاسدين والموتورين ؛ لا يضجر ولا يضطرب ؛ مُتّزن إذا أَزِم ، معتدل إذا حاور ؛ لا يحسد ذا نعمة على نعمته ، ولا ذا سلطان على نفوذ إرادته .

* * *

فلج الجاحظ وأصيب بالنقرس فى شيخوخته ، فدخل عليه المبرّد فى آخر أيامه وهو عليل ، فسأله عن حاله فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج ، لو نشر بالمنشار لما أحس به ، ونصفه الآخر منقرس ، ولو طار الذباب بقربه لآلمه ، والأمر على ذلك أنى قد جاوزت التسعين وأنشد :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس[1] كالجديد من الثياب

ودخل عليه جماعة يوماً بسرَّ من رأى يعودونه وقد فلج ، فلما أخذوا مجالسهم أتاه رسول المتوكل فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ؟ ثم أقبل عليهم فقال : ما تقولون فى رجل له شقان أحدهما لو غرز بالمسال ما أحس ، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث[2] وأكثر ما أشكوه الثمانون ؟

ومع هذا ظل الجاحظ يسلى نفسه بالتأليف على النحو الذى جرى عليه أيام الكهولة والشباب . فعوضته الطبيعة فى شبابه عن جمال الوجه بجمال العلم وجلاله ، وأعاضته فى شيخوخته عن جودة الصحة صحة العقل . مات الجاحظ فى سنة ٢٥٥ قيل إنه وقعت عليه مجلدات العلم ، فمات فى الذى أحبه و بحر فيه طول حياته . قالوا وكان من عادته أن يضعها قائمة ، كالحائط محيطة به وهو جالس إليها ، فسقطت عليه . مات فى البصرة لا فى بغداد ، بدليل ما رواه ابن المهلبى عن أبيه قال : قال لى المعتز بالله : يا يزيد ورد الخبر بموت الجاحظ ، فقلت : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام العز . قال المعتز : لقد كنت أحب أن أشخصه إلىَّ وأن يقيم عندى ، فقلت له : إنه كان قبل موته عطلاً بالفالج .

أدبه :

يطالعك الجاحظ من بارع أدبه بالإبداع دونه كل إبداع ، و يعلمك فى سهولة و يسر لا يشق عليك ، يدخل من نفسك مدخل صدق ، و يستهويك وأنت لا تدرى كيف أُخذت . قد تقرأ لغيره كلاماً ، وتُعْجَب بما فيه من ديباجة حسنة أو معنى دقيق ، أو تحقيق و إحاطة ، أو فكر طريف ، أو رأى نادر ، أما أن

(١) درس الثوب أخلقه فدرس ، هو لازم متعد .
(٢) غوث الرجل تغويثاً قال وا غوثاه .

يضمّ الكلام شتيت هذه الميزات ، ويحمل كل ما يعن للخاطر من الصفات ، فهذا مما لا يقع إلا على النُّدْرة فى كلام البلغاء ، وهو من الأمور المعتادة فى كلام أبى عثمان . أنت تمثل فيما يملى الكاتبون شيئاً تستطيبه وتستملحه ، وفى أدبه كل ما يطرب ويعجب . الكتّاب فى العادة يتطالون إلى أن يكتبوا موضوعاتهم ، والجاحظ يستمليه موضوعه فيمليه ، لا يتكلف ولا يتعسف . يصوّر لك خلجات الروح ، وآهات النفس ، وأزمات العقل ، ويرسم لك المحسوسات كأنك تحسها ، ويصف لك المعلوم والمجهول ، ويعرض عليك المعقول والمنقول ، ويفيض كل الفيض بما لم يكتب لغير أفراد فى علماء هذه الأمة الطويل تاريخها ، الكثير نبغاؤها ، كأن الجاحظ بوق عصره ومصره ، والآلة المحكمة التى أحسنت نقل أصوات أهل جيله . سجّل المفاخر والمعاير ، وحمل إلى أبناء القرون اللاحقة أفانين من أدبه جمّلها بروح الحق وسحر الجمال .

يقف القارئ بما ينقل إليه على صور رآها بعينه ، فأحب إمتاع غيره برؤيتها ، وإشراكه بحالات تأثرت بها نفسه ، هو ممن ربط ماضى الأمة بمستقبلها ، ودينها بدنياها ، وتعمد لفرط أمانته أن يسمعها الحسن والقبيح ، فطبّ بلطف عبقريته روحها وجسمها . وإذا كنت ممن لا يتوقع من المصوّر أكثر من أن يصوّر لك ما يقع بصره عليه ، فأدب الجاحظ يصور لك فى حذق وتدقيق ما وقعت عليه عينه وقلبه وحسه . ولما كان من رقة الشعور إلى التى ليس بعدها ، جاء كلامه شعوراً وعاطفة .

ينبعث البهاء فى أدب الجاحظ من كون مادة الجمال فيه سيّالة براقة ناصعة تنشر السرور فى الروح . قالوا : إذا أورثك الكلام ما يعلو به فكرك ، وما ينبه فيك حسًّا شريفاً ، فلا تبحثن بعدها عن شىء آخر لتحكم على ما قرأت ، وكن

على مثل اليقين أنه من الجيد الصالح ، وأنه ما صدر إلا عن يد صَنَاع ، وقريحة وقادة . والجاحظ ، فوق هذا ، لم يتقيد كثيراً بذوق عصره ، وفى ذلك إبداعه فى أدبه .

كان كما قال لانسون فى وصف أحد كتاب الإفرنج يعيش كالأديب فى العالَم ، ويكتب كما يكتب الأديب للعالم ، ولا يرضى عن نفسه إلا لأنه يُرضى الناس ، وقد قَبِل البشر بكل ما فيهم من صفات ، ليزحزحهم عما هم فيه . فخاطب الإنسان للتأثير فى الإنسان ، ونظر إليه لا على أنه روح محض ، ولا على أنه عقل محض ، نظر إليه على أن له جسماً يضطهد الفكر ويحرّفه وينفيه ، فرأى من الواجب أن يخاطبه بما فيه ، فخاطب فيه العقل والإرادة والذهن والإحساس ، فبرزت فصوله تُزهى بما خلع عليها من الجمال ، والفكر الذى لا يتمثله الكاتب ينفر القارئُ منه ، لأن له من عزّة نفسه ما يحب معه أن يُخاطب بما أَلف ، وبما تتأثر به نفسه . وهذا ما كان مستجمعاً فى أبى عثمان .

كتب بعد الدرس الطويل والخبرة الواسعة ، وما عانى من الأبحاث إلا ما اضطلع به ، وما قولك بعظيم يحيط بأكثر ما فى صحيفة الوجود من المعارف ، ويعرف ما فى الأرض من تعاجيب ، وما فى السماء من غرائب ، ووكده مصروف إلى إرضاء من يواصل السير معه ، ويرافقه ويعاشره من قرائه . ومن لا يحتقر شيئاً يدخل فى باب الآداب ، ولا يستنكف من الأخذ عن صغير الناس وكبيرهم ويكشف كل غامض ، ويستقرى ويستنبط ، خليق أن يفعل أدبه فى النفوس ، وأن يكون كلامه راحاً للأرواح .

قيل إن الكتابة الصحيحة صعبة المراس ، وأصعب منها اختراع تركيب جديد ، وأن جودة الكتابة تتوقف على استبطان أسرار الأشياء ؛ ومنها أن

يسلى الكاتب السامع بالمناظر المختلفة ، يجمع له منها أصنافاً ، و ينقله فى الأحاسيس ، و يبعد به عن المهجورات والمكررات ، و يهيب به إلى الإشراف على ما تخترع قريحته ، و يتكشف عنه بيانه . وهذا القول أيضاً يصدق على الجاحظ إذا تأملت تراكيبه ، و بصره بالأشياء ، حتى لا يترك قولاً لغيره إذا بدا له أن يقوله .

فصلان للجاحظ أبدع فيهما الإبداع كله . أحدهما فى وصف الكتاب والثانى فى وصف الحسد . ولعل إجادة الجاحظ تجلت لنا فيهما لأن موضوعهما مما أهمه كثيراً . ومن أعرفُ بنفع الكتب من سيّد من صنفها ، ومن أقدر على وصف الحسد ، من العارف بمدبّ هذا الداء من نفوس الحساد ، ومن كان طول حياته غرضاً لهم يحاولون أن يصيبوه فيتقيهم . انتقد بعضهم على الجاحظ حتى وضعه الكتب ، فذكر لهم فضلها على الناس ، ومما قال : الإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذَّ عنده من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التى تخرج فى الكتب ألذَّ عنده من عشق القيان ، لم يبلغ فى العلم مبلغاً رضيًّا ، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤْثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابى فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤَمل فى العلم ما يؤمل الأعرابى فى فرسه .

وقال بعد مقدمة : « وأنا أحفظ وأقول : الكتاب نعم الذخر والعقدة ، والجليس والعمدة ، ونعم النشوة ، ونعم النزهة ، ونعم المستغلّ والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والزميل ، ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء ملئَ علماً ، وظَرف حشى ظَرفاً ، و إناء شحن مزاحاً . إن شئت كان أعيى من باقل ، و إن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، و إن شئت سرّتك نوادره ، وشَجَتك مواعظه . ومن لك بواعظ مثله ،

وبناسك فاتك ، وناطق أخرس ؛ ومن لك بطبيب أعرابى ورومى وهندى وفارسى ويونانى ، ونديم مولّد ، وحبيب ممتع ؛ ومن لك بشىء يجمع لك الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ؟

« وبعد فما رأيت بستاناً يحمل فى رُدن ، وروضة تنقل فى حِجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء ؛ ومن لك بمؤنس لاينام إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ؛ آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة ؛ ولا أعلم جاراً آمن ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ، ولا أقل إملالاً ولا إبراماً ، ولا أبعد عن مراء ، ولا أترك لشَغَب ، ولا أزهد فى جدال ، ولا أكفّ عن قتال — من كتاب ؛ ولا أعمّ بياناً ، ولا أحسن مؤاتاة ، ولا أعجل مكافأة ؛ ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أطيب ثمراً ، ولا أقرب مجتنى ، ولا أسرع إدراكا ، ولا أوجد فى كل إبان — من كتاب ؛ ولا أعلم نتاجاً فى حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، وآثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، والأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد النازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمعه كتاب .

« ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غِبًّا ، وورده خمساً [1] ، وإن شئت لزمك لزوم ظلك ، وكان منك كبعضك ؛ والكتاب هو الجليس الذى لايُطريك ،

---

(١) الغب بالكسر فى الزيارة أن تكون كل أسبوع ، والخمس بالكسر من إظماء الإبل وهى أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع وهى إبل خوامس .

والصديق الذى لا يَقليك ، والرفيق الذى لا يَملّك ، والمستمع الذى لا يستزيدك والجار الذى لا يُساطيك ، والصاحب الذى لا يريد استخراج ماعندك بالمَلَق . ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق . والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك ، وجوّد بيانك ، وفخّم ألفاظك ، وبجّح[1] نفسك ، وعمّر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك ؛ يعطيك بالليل طاعته بالنهار ، وفى السفر طاعته فى الحضر ؛ وهو المعلم الذى إن افتقرت إليه لم يحقرك ، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عُزلت لم يدع طاعتك ، وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك . ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل ، لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء .

« وإن أمثل مايقطع به الفُرّاغ نهارهم ، وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم ، نظر فى كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد فى تجربة ، وعقل ومروءة ، وصون عرض ، وإصلاح دين ، وتثمير مال وربّ[2] صنيعة ، وابتداء إنعام . ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه إليك ، إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر إلى المارّة بك ، مع ما فى ذلك من التعرض للحقوق التى تلزم ، ومن فضول النظر ، وملابسة صغار الناس ، ومن حضور ألفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة ، وأخلاقهم الردية ، وجهالتهم المذمومة ، لكان فى ذلك السلامة والغنيمة ، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع . ولو لم يكن فى ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى ، واعتياد الراحة ، وعن اللعب ، وكل ما تشتهيه ، لقد كان له فى ذلك على صاحبه أسبغ النعم ، وأعظم المنة . وجملة الكتاب وإن كثر ورقه فليس مما يملّ ،

---

(١) بجحته تبجيحاً فتبجح أى أفرحته ففرح .

(٢) رب : جمع وزاد ولزم .

لأنه وإن كان كتاباً واحداً ، فإنه كتب كثيرة فى خطابه ، والعلم بالشريعة والأحكام ، والمعرفة بالسياسة والتدبير .

« والكتاب هو الذى يؤدى إلى الناس كتب الدين ، وحساب الدواوين ، مع خفة نقله ، وصغر حجمه ، صامت ما أسكتّه ، وبليغ ما استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتديك فى حال شغلك ، ويدعوك فى أوقات نشاطك ، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه .

« والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على لسانه بأمور : منها أن الكتاب يقرأ بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان ، على تفاوت ما بين الأعصار ، وتباعد ما بين الأمصار ، وذلك أمر مستحيل فى واضع الكتاب ، والمتنازع فى المسألة والجواب ، ومناقلة اللسان وهدايته ، لا تجوزان مجلس صاحبه ، ومبلغ صوته ، وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل ويبقى أثره ، ولولا ما أودعت لنا الأوائل فى كتبها ، وخلّدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم ، لما حسن حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة ، ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ، ومبلغ خواطرنا ، ومنتهى تجار بنا ، لما تدركه حواسنا ، وتشاهده نفوسنا ، لقلت المعرفة ، وسقطت الهمة ، وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأى عقيماً ، والخاطر فاسداً ، ولكلّ الحد وتبلّد .

« ولولا جياد الكتب وحَسَنها ، وبَيّنها ومختصرها ، لما تحركت هم هؤلاء لطلب العلم ، ونزعت إلى حب الأدب ، وأنفت من حال الجهل ، وأن تكون فى غمار الحشو ، ولدخل على هؤلاء من الخلل ، والمضرة من الجهل وسوء الحال ،

ما عسى أن لا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير . ولذلك قال عمر رضى الله عنه : تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا . وقد نجد الرجل يطلب الآثار ، وتأْويل القرآن ، يجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يعدُّ فقيهاً ، ولا يجعل قاضياً ؛ فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمرَّ ببابه ، فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحرىّ أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير ، حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار ، أو بلد من البلدان . ومما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرَّقة والموصل و بغداد وواسط ما كان بالبصرة ، وما يحدث بالكوفة فى بياض يوم ، حتى تكون الحادثة بالكوفة غُدوة ، فتعلم بها أهل البصرة قبل المساء » .

أملى الجاحظ هذه الفقرات فى عصر كان الناس يؤثرون فيه السماع من المشايخ ، والأخذ عن الرواة ، على مطالعة الأسفار ، والمنافسة فى دواوين العلم ، لا يحفلون بالتقييد والتسجيل كثيراً ، ويرون على الدوام الأخذ من الأفواه ، فوجه أفكار أُمته وجهة أخرى مستديمة مستقرة ، أتاها يرغبها فى الكتاب ليكون للناظر فيه كل ساعة ما يستقى من مَعينه ، نصح لقومه أن يتناغوا فى اقتناء الأسفار ، ويتباروا فى الاعتماد على ما تدخره من الدرر الغوالى ، و بذلك ينشط المؤلفون إلى وضع كتبهم ومصنفاتهم ، وتبقى لمن يتلوها أصح مرجع على الأيام .

و بعد فهل رأيتم دخول الجاحظ على نفوس المتعلمين ، أو من يطمع فى تثقيفهم من العالمين ، عند ما قال لهم إن الكتاب يمنح صاحبه تعظيم العوام وصداقة الملوك ؛ وأن من حضر دروس الفقهاء لا يحصل من العلم على طائل ، إلا

إذا درس كتب أبى حنيفة وغيره ، فأصبح بما استظهر قاضياً أو حاكماً فى أحد الأمصار . و بعد أن أفاض فى ضروب من الأقوال التى تفعل فى النفوس ، ونقل ما قاله من تقدموه فى هذا الباب ، باغت القارئ فضربه فى الوتر الحساس ، وهو طلب المال والجاه بالكتاب ، والنفوس تصبو من طبعها إلى بلوغ هذه المراتب ؛ وما دامت المسألة لا تحتمل أكثر من النظر فى صفحات معدودة ، و يفتح الكنز المرصود لطالب السعادة ، فجمهرة المقبلين على الأخذ من الأسفار ، ستزيد يوماً بعد يوم .

وهذا منزع آخر من منازع الجاحظ فى الإصلاح والتمدين ، يحاول أن يصل منه إلى غاية معينة ، و بضربه على نغمة المادية يستهوى قلوب العالم ، وما هو بالغافل عن ضعفهم ، وأنهم عبيد الدنيا مهما تقلبوا زماناً ومكاناً ، فخاطبهم بما يقربهم إليه . ثم هو ليس ممن يرغب فى الخطب التى يزول أثرها بزوال مؤثراتها ، ولا يتعدى نفعها حدود أوقاتها ، و يتعشق الكتب لأنها موضع تبصر وتدبر ، لا يتناولها ما يتناول الخطب من تأويل وتحريف ، وزيادة ونقص . وأثبت الجاحظ فى هذا المنحى أيضاً أنه على جانب عظيم من الدهاء ، أثبت أنه لو اعتمد فى تهذيب الناس على محاضراته ومسامراته فى مجالسه ودروسه فقط ، لضاع على الناس علم كثير ، واستهلك ذلك وقتاً ودَّ لو صرفه فى التأليف الخالد ، ثم لا يجد إليه المشاغبون طريقاً يلجونه لمناقشته ومراوغته ، فيضطر إلى إجابتهم وصرف الذهن عبثاً فى حوارهم ؛ ومن خُلقوا للجدال فى الحق والباطل لا يزحزحهم عما هم فيه برهان ، وهل يرضى العدو من عدوه بغير إهلاكه أو زوال نعمته ؟

من أجل هذا تملص الجاحظ من إجابة من تقدم إليه أن يحدثه قائلا له : إنه ليس حشويًّا ، ذلك لأن الجاحظ الحذر اليقظ لا يُرضيه أن يستخدم أحد

اسمه ، مدعياً أنه نقل عنه حديثاً قد يحرفه ، أو يعبث به على هواه ، ولذا قطع على الطالب حديثه وتبرأ من الحشوية ، والحشوية هم الذين لا يدرون ما يروون ، ولا ما يصححون من أحاديث الرسول . وأخرى أنه كان ينوى بالدعوة إلى الاستكثار من اقتناء الكتب أن يظهر تدجيل الدجالين من الراوين والمؤلفين ليبدوا فى أصح مظاهرهم ، وتتبين للقاصى والدانى أقدارهم ، فيسقط المموّهون ، ويبقى المجوّدون ، ممن تستحق مدوناتهم أن تبقى وتتناقل جيلاً فجيلاً .

والآن ننتقل إلى الصفحة الجاحظية الأخرى ، صفحة الحاسد والمحسود ؛ فاستمعوا إليها من لسان أعرف الناس بطباع الناس ، بل أعظم منشئٍ وأكبر عالم قام فى القرن التاسع للميلاد كما وصفه أحد علماء الأفرنج ، وهو جواب من سأله عن الحسد : « لِمَ صار فى العلماء أكثر منه فى الجهلاء ، ولم كَثُر فى الأقرباء ، وقلّ فى البعداء ، وكيف دبّ فى الصالحين ، أكثر منه فى الفاسقين ، وكيف خص به الجيران من جميع الأوطان » فقال : « الحسد أبقاك الله داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود ، علاجه عَسِر ، وصاحبه ضَجِر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، فما ظهر منه فلا يداوى . وما بطن منه فمداريه فى عناد ، ولذلك قال النبى (ص) : دب إليكم داء الأمم من قبلكم الحسدُ والبغضاء . . . فمنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرّق كل جماعة ، وقاطع كل رحم بين الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشرّ بين الخلطاء ، يكمن فى الصدور ، كمون النار فى الحجر . ولو لم يدخل ، رحمك الله ، على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه ، واستمكان الحزن فى جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنغيص عمره وكدر نفسه ، ونكَد لذاذة معاشه ، إلا استصغاره لنعمة الله تعالى عنده ، وسخطه على سيده ، بما أفاده الله عبده ، وتمنيه عليه أن يرجع

فى هبته إياه ، وأن لا يرزق أحداً سواه ، لكان عند ذوى العقول مرحوماً ، وكان عندهم فى القياس مظلوما » .

و بعد أن سار على هذا النحو ينقل الشاهد والمثل والقصة قال :

« فمن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيًّا ، توبيخه على المال وقوله إنه جمعه حراما ، ومنعه أثاما ، وألّب عليه محاويج أقاربه ، وتركهم له خصماء ، وأعانهم فى الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر ، وقال له : كفروا معروفَك ، وأظهروا فى الناس ذمك ، فليس أمثالهم يوصلون ، فإنهم لا يَشكرون . و إن وَجَد له خصماً ، أعانه عليه ظلماً ، فإن كان ممن يعاشره فاستشاره غَشّه ، أو تفضل عليه بمعروف كفره ، أو دعاه إلى نصره خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، و إن سُئل عنه هَمَزه ، أو كانت عنده شهادة كتمها ، و إن كانت منه إليه زلة عظمها ، وقال : إنه يجب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه القعود » .

« إن كان المحسود عالماً ، قال : مبتدع ، ولرأْيه متبع ، حاطب ليل ، ومتبع نَيْل ، ما يدرى ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل ، وقد أقبل بوجوه الناس إليه ، وما أحمقهم إذ مالوا إليه ، فقبحه الله من عالم ، ما أعظم بليته ، وأقل رعيته ، وأسوأ طِعْمته . »

ووصفه للعالم المحسود وصفه لنفسه مع بعض حساد زمانه ، ممن لم تدرك أنفسهم شأوه فى علمه وفنه ، ولذلك نراه عرف داءهم وعرف دواءهم ، فكان الإعراض عنهم فى حياته ، ومداراة الشياطين منهم من جملة ما يعد فى باب عقل الجاحظ . وقال : « لو ملكت عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله به ، بإلزامه الهموم قلبه ، وتسليطها عليه ، فزاده الله حسداً ، وأقامه عليه أبداً » وأبان عما ارتآه لمداواة داء الحاسد بقوله : « فإذا أحسست ، رحمك الله ، من صديقك

بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته ، فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته ، وحصّن سرّك منه تسلم من شذى[1] شره ، وعوائق ضره ، و إياك والرغبة فى مشاورته ، فتمكن نفسك من سهام مشاررته » .

« ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً ، و إن كنت مصيباً ، أو يرشدك إلى الصواب ، و إن كنت مخطئاً ، أو نصح لك فى غيبته عنك ، أو قصر من عيبه لك ؟ هو الكلب الكلِب ، وَالنمر الحرِب ، وَالسم القشب ، وَالفحل القَطِم[2] ، وَالسيل العرِم . إن مَلَك قتل وسبى ، و إن مُلك عصى وبغى ؛ حياتك موته وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ؛ يصدّق عليك كل شاهد زور ، ويكذّب فيك كل عَدْل مرضى ؛ لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك ؛ عدوّك بطانته ، وصديقك علاوته . . . . أحسن ما تكون عنده حالاً ، أقلّ ما يراك مالاً ، وأكثر ما تكون عيالاً ، وأعظم ما تكون ضلالاً ؛ وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً ، وأبعد ما تكون من الناس حمداً ؛ فإذا كان الأمر على هـذا فمجاورةُ الأموات ، ومخالطة الزَّمنى ، والاكتنان بالجدران ، ومصّ المصران ، وأكل القردان ، أهون من معاشرة مثله ، والاتصال بحبله . . . . وما أرى السلامة إلا فى قطع الحاسد ، ولا السرور إلا فى افتقاد وجهه ، ولا الراحة إلا فى صرم مداراته ، ولا الربح إلا فى ترك مصافاته . . . »

قال : « وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوّص عينه ، و إخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك » ، « من شأن الحاسد تهجين ما يَحْسد عليه ، ومن خلق المحروم

---

(١) الشذى كالأذى وزناً ومعنى .

(٢) القطم كـكتف الـكثير العض ، والقشب : الخلط وسقى السم .

تقبيح ما حُرِم وتصغيره والطعن على أهله » ، « والذى يحسد فعلى ما لا حدَّ له يكون حسده ، فحسده متسع بقدر تغير اتساع ما حسد عليه » ، « ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تشحينه[1] وكتمانه ، حتى يتمرد عليه فى ظهوره و إعلانه ، فيصده و يستعمله ، و يستعطفه لقهره عليه ، ولهو أغلب على صاحبه من السيد على جنده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ، ومن الآسر على أسيره » .

وقال فى مكان آخر : « ومتى أحب السيد الجامع ، والرئيس الكامل ، قومه أشد الحب ، وحاطهم على حسب حبه لهم ، كان أبغض أعدائهم له على حسب حب قومه له ؛ هذا إذا لم يتوثب إليه ، ولم يعترض عليه من بنى عمه و إخوته من قد أطمعته الحال باللحاق به . وحسد الأقارب أشد ، وعداوتهم على حسب حسدهم . وقد قال الأولون : رضا الناس شىء لا يُنال . وقد قيل لبعض العرب : مَن السيد فيكم ؟ قال : الذى إذا أقبل هبناه ، و إذا أدبر اغتبناه . وقد قال الأوَل : بَغضاء السوء موصولة بالملوك والسادة ، وتجرى فى الحاشية مجرى الملوك ؛ وليس فى الأرض عمل أكدُّ لأهله من سياسة العوام » . والجملة الأخيرة من حكمه أو من الكلام الذى يختم به فصوله غالباً ليبقى من القارئ على ذُكر . وما أحلى قوله فى الحاسد : « من العدل المحض أن تحط من الحاسد نصف عقابه ، لأن ألم حسده لك قد كفاك شر مؤنة غيظه عليك » . وما أصدق قوله : « ما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوص عينه ، و إخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك الخ » .

ولا نرى ختم هذا الفصل قبل أن نشير إلى أن الجاحظ كان صريحاً فى

---

(١) أشحن السيف أغمده وسله ضد .

أدبه ، لا يبالى تشدد المتزمتين ، يسمى الأشياء بأسمائها ، رغم أنف من رضى وكره ، فأدبه ، والحالة ما ذكرنا ، الأدب الواقع Réalisme ، على ما يدعوه المعاصرون ، أى نقل الطبيعة كما هى ، أو كما يظن أن تُرى ، مع ما فيها من بشاعة وابتذال ؛ ولهذا الأدب فى دهرنا من أهل الغرب أدباء مشهورون عانوه فى كتبهم ، وما عبأوا بمصطلح مجتمعهم .

وكان كثير من المؤلفين فى العرب ، ومن المشهود لهم بالتقوى والفضل ، يسيرون على نهج أبى عثمان فى ذلك ، ومنهم خصمه اللدود جاحظ أهل السنة ابن قتيبة ، فقد قال فى مقدمة عيون الأخبار : « و إذا مرّ بك حديث فيه إيضاح بذكر عورة أو فرج ، أو وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر[1] خدك ، وتعرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، و إنما المأثم فى شتم الأعراض ، وقول الزور والكذب ، وأكل لحوم الناس بالغيب . قال ولم أترخص لك فى إرسال اللسان بالرّفث على أن تجعله هجيراك[2] على كل حال ، وديدنك فى كل مقال ، بل الترخص منى فيه حكاية تحكيها ، أو رواية ترويها ، تنقّصها الكناية ، ويذهب بحلاوتها التعريض ، وأحببت أن تجرى فى القليل من هذا على عادة السلف الصالح ، فى إرسال النفس على السجية ، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع » .

وأبان الجاحظ عن منزعه فى الأدب الواقع بقوله : « و بعض الناس إذا

---

(١) صعر خده تصعيراً وصاعره وأصعره أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً من كبر ، وربما يكون خلقة .

(٢) الرفث محركة الجماع ، والفحش كالرفوث وكلام النساء فى الجماع أو ما ووجهن به من الفحش . يقال هذا هجيراه (بكسر الأول وتشديد الثانى) واهجيراه واهجيراؤه وهجيره وأهجورته وهجرياه ، أى دأبه وشأنه .

انتهى إلى ذكر الحـ . والايـ . والنيـ ، ارتدع وأظهر التعزز ، واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجـده كذلك ، فإنمـا هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هـذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ، ونذالة متمكنة . وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع لمـا استعملها أهل هذه اللغة ، وكان الرأى أن لا يلفظ بها »[1]

سار الجاحظ على العرف قبـله فى إيراد أسماء الأعضاء وعملها ، لأنها

---

(١) جرى كثير من العلماء والأدباء على هـذه الطريقة فى التصريح ، بما يعد اليوم مخالفاً للعرف ومنافياً للأدب ، ومنهم ابن حزم الظاهرى فى طوق الحمامة والراغب الأصفهانى صاحب الذريعة إلى مكارم الشريعة ، فى كتاب محاضرات الراغب ، والقاضى التنوخى فى نشوار المحاضرة ، وياقوت فى طبقات الأدباء وغيرهم كثير . وروى الحصرى بمناسبة مجون الحسن بن هانئ « إن الشعر لم يؤسسه بانيه على أن يكون المبرز فى ميدانه من اقتصر على الصـدق ولم يغو بصبوة ، ولم يرخص فى هفوة ، ولم ينطق بكذبة ، ولم يغرق فى ذم ، ولم يتجاوز فى مدح ، ولم يزور الباطل ، ويكسبه معارض الحق ، ولو سلك بالشعر هذا المسلك ، لكان صاحب لوائه من المتقدمين ، أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وعـدى بن زيد العبادى ، إذ كانا أكثر تذكيراً وتحذيراً ومواعظ فى أشعارهما من امرئ القيس والنابغة . قال : وهل يتناشـد الناس أشعار امرئ القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبى ربيعة وبشار وأبى نواس على تعهرهم ، ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم ، إلا على ملأ من الناس ، وفى حلق المساجد ؟ وهل يروى ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم وما نهى النبى ولا السلف الصالح من الخلفاء المهديين بعده عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر اه . وقال الجرجانى : وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح ، ثم لم يعبهم ذلك إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوه ، ولم يرووا الشعر من أجله » . ونقول مثل هذا لمن يجوزون تغيير نصوص القدماء بدعوى أنها لا تتلاءم مع أدب العصر ، ونحن فى صدد معرفة أدب ذاك العصر . قال القديس كليمان : أنا لا أخجل ، لفائدة القراء ، من الكلام على الأعضاء التى يخلق بها الانسان لأن المولى تعالى لم يخجل إذ خلقها . وقال مونتين وهو من أعظم من اشتهروا بالفضائل من المؤلفين الفرنسيين : ماذا كان عمل الفعل التناسلى فى الناس وهو طبيعى وضرورى حتى شجبوه وابتعدوا عن ذكره ؟ فتراهم لا يجسرون على الكلام عنه إلا بشىء من الخجل ، ويبتعدون عنه فى أحاديثهم ، الناس يجرؤون على التلفظ بأفعال القتل والسرقة والخيانة والزنا الخ . ولا يجرؤون على النطق بالعمل الذى يهب الحياة للمخلوق . يا للعفة المكذوبة ، ويا للنفاق المخجل ؟ ألا ترون أن من يرون إطلاق اسم الحيوان على العمل الذى يخلق الانسان أحرياء بأن يطلق عليهم اسم بهائم وحيوانات ؟

ما وجدت فى اللغة إلا لتستعمل ، ولطالما أرسل النفس على سجيتها ، وأورد النكات والنوادر بالألفاظ التى رويت بها . وليس ذكر الأشياء بأسمائها بدعاً فى أسلوب الجاحظ ، ووصف الأشياء بما فيها من قبح وحسن بالأسلوب الواقعى طريقة للعرب قديمة ؛ ومع هذا لم يفرط أبو عثمان فى ذلك ، يورد ما يورد منها فى المناسبات ، ولا يعد اللفظ ولا الجملة من ذلك مما يمس الدين ، أو يعبث بخلق ، أو يأتى على أدب ، ولا سيما فى حكاياته وما ينقله من أشعار . الجاحظ يملى أدبه من روحه وقلبه وعقله ، ويقول ما يقول غير متزيد ، فمن الأحجى أن يعرض الطبائع البشرية فى صورتها الحقيقية ، لا يداجى ولا يحابى ، ويجابه الحقيقة مجابهة .

بقى أن نقول إن أدب الجاحظ قطعة من نفسه تتجلى فيه لأول نظرة طريقته ، ولو أنك ألقيت قطعة من قلمه بين عشر قطع أدبية لغيره ، لما صعب عليك أن تميز كلامه من كلام غيره ، إن كنت ممن تأدب بكلامه ، لما تحس من أفكار سديدة ما خان اللفظ ولا السبك كاتبها ؛ فشخصية الجاحظ تلمسها إذاً فى كل موضوع جالت فيه يراعته ؛ وهذا قلما تعرف مثله كثيراً لغيره من العلماء والأدباء ، وأسلوبه خاص به ، لا ينازعه فيه منازع ، وجماع عوامل الإحسان مستوفاة فى كلامه .

بلاغته :

ضرب المثل بأدب الجاحظ وبيانه وسعة عبارته « حتى كان يقال من دليل إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به » ومن الخير لطلاب البلاغة إذاً أن يمعنوا النظر بكلام الجاحظ ، ليتبينوا بأنفسهم طريقته ، ويتواصفوا فى الجملة طراز إملائه

دروس البلاغة ، و يتعرفوا ميزانه الدقيق فى فقه اللغة ، « أى النظر فى مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب » و « تحرى الألفاظ البعيدة عن طرفى الغرابة والابتذال » ، و « اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه » .

قالوا إن « مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة » وحظُّ الجاحظ من هذا كان جزيلاً . حسنت بلاغته فى كل عين ، لتجميلها ببراعته فى تخير جيد الألفاظ ، وتجافيه عن استخدام الثقيل فى ميزانه ، وقد ينبذ اللفظ الواحد و يستعمل معناه ، و يؤدى المعنى بعدة ألفاظ ، واللفظة الواحدة تُجزئه ، وفى ألفاظ الأعيان يضع الشىء موضعه ، و يطبق كل اسم على مسماه . قال مرة : « ليس للعرب اسم لما لا يبصر بالليل ، وهو الذى يقال له سَبْكور ، أكثر من أن يقولوا به هُدْبِدٌ » . وقال فى وصف كتاب بالقدم « كتاب متقادم الميلاد دهرىُّ الصنعة » ، وكأنه كان يضع بعض ألفاظ أو يستعمل مالا عهد باستعماله قبله مثل قوله : « القرويون والبلديون » ، « اللغويون والمعنويون » أطلق هذا على من يشتغلون بالألفاظ و يشتغلون بالمعانى ، فمعرفة أبى عثمان بوقع الكلمة فى نفس القارئ وتمييزه الدقيق بين حىّ الألفاظ وميتها ، وسهلها وصعبها ، سبب أول فى تفوقه فى بلاغته .

وملاك الأمر عنده أبداً أن يكون اللفظ سمحاً لا كزّاً [1] ، والابتعاد عن المعانى التافهة ، والقوالب المستكرهة ؛ ولطالما أوصى طلاب البلاغة أن لا يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً ، ولا وحشياً غريباً وقال : « الاستعانة بالغريب عجز » « إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابيًّا ، فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى

(١) يقال رجل كز اليدين ذو كزز أى بخل ، والكزازة اليبس والانقباض .

من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى » ؛ والمعوَّل عليه فى هذا الباب أن « لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة » ؛ فهو إذًا ممن سعوا فى تدميث اللغة ، على نحو ما تدمثت طبائع الأمة العربية بالحضارة .

وقد أبان عن طريقته الواضحة فقال : « قد يستخفُّ الناس ألفاظاً و يستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل فى أصل اللغة استعمالاً ، وتدع ما هو أظهر وأكثر ، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ، ولم يسر ما هو أجود منه ، وكذلك المثل السائر » « وسخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعانى ، وقد يحتاج إلى السخيف فى بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم ، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعانى » ويقول إن لكل قوم ألفاظاً حَظِيت عندهم « وكذلك كل بليغ فى الأرض ، وصاحب كلام منثور ، وكل شاعر وصاحب كلام موزون ، فلابد من أن يكون قد لهج [1] وألف ألفاظاً بأعيانها ، ليديرها فى كلامه ، وإن كان واسع العلم ، غزير المعانى ، كثير اللفظ » .

قال وأنا أقول فى هذا قولاً ، وأرجو أن يكون مرضياً ، ولم أقل أرجو لأنى أعلم فيه خللاً ، ولكنى أخذت بآداب وجوه أهل دعوتى وملتى ولغتى وجزيرتى وجيرتى وهم العرب . وذلك أنه قيل لصُحَار [2] العَبْدى : ما يقول الرجل لصاحبه عند تذكيره أياديه وإحسانه ؟ قال : أما نحن فإنا نرجو أن نكون قد بلغنا من أداء ما يجب علينا مبلغاً مُرْضِياً . وهو يعلم أنه قد وفّاه حقه الواجب ، وتفضل بما لا يجب . قال صُحَار : كانوا يستحبون أن يَدَعوا للقول مُتَنَفَّساً ،

---

(١) لهج به : كفرح أغرى به فثابر عليه .

(٢) صحار بن العباس العبدى وفد على النبى وكان من أخطب الناس وأبينهم .

وأن يتركوا فيه فضلاً ، وأن يتجافوا عن حق إن أرادوه لم يُمنعوا منه ، فلذلك قلت أرجو ، فافهم ، فَهَّمك الله تعالى .

« فإن رأْيي فى هذا الضرب من هذا اللفظ ، أن أكون ما دمت فى المعانى ، التى هى عبارتها والعادة فيها ، أن ألفظ بالشىء العتيد الموجود ، وأدع التكلف لما عسى أن لا يسلس ولا يسهل ، إلا بعد الرياضة الطويلة ، وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً فى صناعة الكلام ، مع خاصّ أهل الكلام ، فإن ذلك أفهم عندى وأخف لمؤنهم علىّ . ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلا بينها و بين تلك المعانى . وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة ، أو فى مخاطبة العوام والجار ، أو فى مخاطبة أهله وعبده وأَمَته ، أو فى حديثه إذا حدّث ، أو خبره إذا أخبر ، وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام ، وهو فى صناعة الكلام داخل . ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل » .

ذلكم رأى الجاحظ فى وضع الألفاظ مواضعها فى التأليف . وكلامه فيه غنى عن الشرح والتعليق ، هو لا يدعوك فى وضع القاعدة التى سنَّها لك ، إلا أن تتدبر ما قال ، وتعمل به فى اختيار اللفظ الموافق ، وأما المعانى فقد قال إن حكمها خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعانى مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة . وهنا روى عن غيره : « قال بعض جهابذة الألفاظ و نقاد المعانى : المعانى القائمة فى صدور العباد ، المتصورة فى أذهانهم ، والمتخلجة فى نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، و بعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة فى معنى معدومة ،

لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه ، والمعاون له على أموره ، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره . و إنما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها ، و إخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هى التى تقربها من الفهم ، وتجليها للعقل ، وتجعل الخفىّ منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً . وهى التى تخلص الملتبس ، وتحل المتعقد ، وتجعل المهمل مقيداً ، والمقيد مطلقاً ، والمجهول معروفاً ، والوحشى مألوفاً ، والغُفل موسوماً ، والموسوم معلوماً . وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ودقة المدخل ، يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى ، هو البيان الذى سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه ، وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت وأصناف العجم » .

« وقال مَن علم : حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وَفْقاً ، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً ، ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً ، ويكون مع ذلك ذا كرٍ لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره فى وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقاً ، ولهول تلك المقامات معاوِداً ، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم » .

قال : « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغَشّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صاحبه صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، منزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع فى القلوب صنع الغيث فى التربة الكريمة ، ومتى كانت الكلمة على هذه

الشريطة ، ونفذت عن قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، ما لم يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة ، ولا تذهل عن فهمها معه عقول الجهلة » .

قال : « ومتى شاكل أبقاك الله اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وَفقاً ، ولذلك القدر لفقاً[1] ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قَمِناً بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً أن يمنع جانبه من تأول الطاعنين . ويحمى عِرضه من اعتراض العائبين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة . ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً فى نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتّصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القُلوب ، وخفّ على ألسن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريّض[2] ، ومن أعاره من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذَنوبا[3] حبب إليه المعانى ، وأسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع عن كدّ التكلف . وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم » .

وقد يقع للجاحظ أن يكرر القضية الواحدة فى عدة أماكن من كتبه ورسائله ، يريد إثباتها فى الأذهان ، وأمر البلاغة واختيار الألفاظ لإلباس المعانى الصورة اللائقة مما يُعنى به ، فقد قال فى رسالة « مدح التجار وذم عمل السلطان » ما لم يخرج عن قوله فى هذا المعنى فى البيان والتبيين وفى الحيوان

---

(١) يقال للرجلين لا يفترقان هما : لفقان . والوفق والوفاق والفيقة والفوقة والسية والعدل واحد .

(٢) يقال ناقة ريض كسيد أول ماريضت وهى صعبة بعد .

(٣) الحظ والنصيب والدلو أو فيها ماء أو الملأى أو دون الملأى .

وغيرهما . قال : ثم خذه بتعريف حجج الكتّاب ، وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض ، وأذقه حلاوة الاختصار ، وراحة الكفاية ، وحذره التكلف ، واستكراه العبارة ، فإن أكرم ذلك كله ما كان إفهاماً للسامع ، ولا يحوج إلى التأويل والتعقيب [1] ، ويكون مقصوراً على معناه ، لا مقصراً عنه ، ولا فاضلاً عليه ، فاختر من المعانى مالم يكن مستوراً باللفظ المتعقد ، مغرقاً فى الإكثار والتكلف ، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ ، وغموضه على السامع ، بعد أن يتسق له القول ، وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة ، فالمعنى بعد مقيم على استخفائه ، وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً ، وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم ، حتى صار يجرُّ إليه المعنى جراً ، ويلزقه به إلزاقاً ، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ، ومنعه الإفصاح عنه إلا به ، والآفة الكبرى أن يكون ردىء الطبع ، بطىء اللفظ ، كليل الحد ، شديد العجب ، ويكون مع ذلك حريصاً على أن يعدَّ فى البلغاء ، شديد الكلف بانتحال اسم الأدباء ؛ فإذا كان كذلك خفى عليه فرق ما بين إجابة الألفاظ ، واستكراهه لها .

« وبالجملة إن لكل معنى شريف أو وضيع ، هزل أو جد ، أو حرفة أو صناعة ، ضرباً من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه ، الذى لا ينبغى أن يجاوزه ، أو يقصر دونه ، ومن قرأ كتب البلغاء ، وتصفح دواوين الحكماء ، ليستفيد المعانى ، فهو على سبيل صواب ؛ ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ ، فهو على سبيل الخطأ ، والخسران هاهنا فى وزن الربح هناك ، لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ

(١) التعقيب : المكث والالتفات .

حمله الحرص عليها ، والاستهتار بها ، إلى أن يستعملها قبل وقتها ، ويضعها فى غير مكانها ؛ ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه : أنا أشعر منك ، قال صاحبه : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابن عمه ، وإنما هى رياضة وسباحة ، والرفيق مصلح ، والآخر مفسد ، ولابد من هذين ، وطبيعة مناسبة ؛ وسماع الألفاظ ضار ونافع ؛ فالوجه النافع أن يدور فى مسامعه ، ويغيب فى قلبه ، ويختم فى صدره ، فإذا طال مكثها تنا كحت ثم تلاقحت ، فكانت نتيجتها أكرم نتيجة ، وثمرتها أطيب ثمرة ، لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ، ولا مختلسة ولا مُغْتصبة ، ولا دالة على فقر ، إذ لم يكن القصد إلى شىء بعينه ، والاعتماد عليه دون غيره ، وبين الشىء إذا عشش فى الصدر ، ثم باض ثم فرخ ثم نهض ، وبين أن يكون الخاطر مختاراً ، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً ، فرقٌ بيّن » . وقال : « إن كلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات ، فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والقبيح ، والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا » .

وقد أعجب بما يستخدمه رواة الأخبار من السهولة فقال : ورأيت عامتهم — فقد طالت مشاهدتى لهم — لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة ، والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها ، وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعانى ؛ ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام فى رواة الكتّاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر . يعنى أن الجاحظ لا يرى للكاتب أن يستعمل من

الألفاظ إلا ما يفهمه العامة ؛ والكاتب يكتب ليُفهم لا ليُعجم ، ويتوخى المعانى الجديدة التى تصلح فساد القلوب ، وتعمر بها الأفئدة والعقول .

قال الجرجانى فى دلائل الإعجاز : واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم ، بل ترى سبيله فى ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها فى سلك لا يبغى أكثر من أن يمنعها التفرق ، وكمن نَضَد أشياء بعضها على بعض لا يريد فى نضده ذلك أن تجىء له منه هيئة أو صورة ، بل ليس إلا أن تكون مجموعة فى رأى العين ، وذلك إذا كان معناك معنى لا يحتاج أن تصنع فيه شيئاً غير أن تعطف لفظاً على مثله كقول الجاحظ : « جنَّبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً ، وبين الصدق سبباً ، وحبب إليك التثبت ، وزين فى عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عزَّ الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما فى الباطل من الذلة ، وما فى الجهل من القلة » .

واسمع الآن هذه الجملة يسجع فيها الجاحظ سجع الحمام ، قال فى كتابه ذم العلوم ومدحها يصف القرآن : « حجة على الملحد ، وتبيان للموحد ، قائم بالحلال المنزل ، والحرام المفصل ، وفاصل بين الحق والباطل ، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل ، وإمام تقام به الفروض والنوافل ، وسراج لا يخبو ضياؤه ، ومصباح لا يخزن ذكاؤه ، وشهاب لا يطفأ نوره ، وبحر لا يدرك غوره ، ومعدن لا تنقطع كنوزه ، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار ، ومرشد يدل على طريق الجنة والنار ، وزاجر يصد عن المحارم ، ويجير يوم التحاكم » .

وكما يرى الجاحظ أن الواجب تخير اللفظ الكريم للمعنى الكريم ، لم ير

طرح الألفاظ السخيفة للتعبير عن المعانى السخيفة ، كان يرى نقل عبارات العوام ونكات الأعراب بألفاظها ، وقد حشى كتابه البخلاء والحيوان بطائفة من ألفاظ عامة الطبقات فى عصره ، فعُدَّ ذلك فى جملة إفضاله على اللغة أيضاً ، قال : « ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيَّرتها بأن تلحن فى إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليكَ فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطَّغام[1] ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، وأن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سريًّا ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذى أُريدت له ، ويُذْهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها » وهو يرى « أن النبيل لا يتنبل كما أن الفصيح لا يتفصح ، لأن النبيل يكفيه نبله عن التنبل ، والفصيح تغنيه فصاحته عن التفصح ، ولم يتزيد أحد قط إلا لنقص يجده فى نفسه » .

ووضع القاعدة الكلية لطالب البلاغة فقال له : « وقد علمنا أن من يقرض الشعر ويتكلف الإسجاع ، ويؤلف المزدوج ، ويتقدم فى تحبير المنثور ، وقد تعمل فى المعانى ، وتكلف إقامة الوزن ، والذى تجود به الطبيعة وتعطيه النفس سهواً رهواً[2] ، مع قلة لفظه وعدد هجائه — أحمد أمراً ، وأحسن موقعاً من القلوب ، وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج ، ولأن التقدّم فيه ، وجمع النفس له ، وحصر الفكر عليه ، لا يكون إلا ممن يحب السمعة ، ويهوى الفَلْج[3] والاستطالة » .

* * *

(١) الطغام كسحاب أوغاد الناس والحشوة (بكسر الحاء وضمها) : العوام .
(٢) الرهو : السير السهل ، والسهو : السهل .
(٣) الفلج : الظفر والفوز كالإفلاج والاسم بالضم كالفلجة .

تخوّف الجاحظ من فساد كبير بدأ يعرض لبلاغة هذه اللغة ، عند ما شرعت العرب بنقل كتب العلوم القديمة إلى العربية ، وقد شاهد النقلة ضعافاً فى البيان ، وأقرب إلى الركاكة فى الألفاظ وسبكها ، حتى أفسدوا المعانى وأبهموها فعميت على الناس ، وكان يعتقد أن هذه العلوم لا يفهمها فى الحقيقة إلا من عاناها مهما تأنق ناقلوها فى نقلها . قال : « إن كتاب المنطق لو قرئ على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب ، لما فهموا أكثره ، وكذلك كتاب أقليدس ، وهو عربى وقد صُفّى ، لو سمعه بعض الخطباء لما فهمه ، ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعلمه ، لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر ، وتعود اللفظ المنطقى الذى استخرج من جميع الكلام » . وقال : « ويد الإنسان لا تكون إلا خرقاء ، ولا تصير صَناعاً [1] ، ما لم تكن المعرفة ثقافاً لها ، واللسان لا يكون أبداً ذاهباً فى طريق البيان ، متصرفاً فى الألفاظ ، إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به ، منقلة له ، واضعة له فى مواضع حقوقه ، وعلى أماكن حظوظه . »

وإليك الآن منزعه فى الترجمة والنقل ، وما ينبغى لهما من البلاغة ، وما السبيل إليها : « وقال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له ، إن الترجمان لا يؤدى أبداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدى الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجرىّ [2] ، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها ، والإخبار عنها ، على حقها وصدقها ، إلا أن يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب

(١) يقال رجل صنع اليدين بالكسر والتحريك وصنيع اليدين وصناعهما حاذق فى الصنعة من قوم صنعى الأيدى بضمة وبضمتين وبفتحتين وبكسرة وأصناع الأيدى .
(٢) الجرى . الوكيل للواحد والجمع والمؤنث ، والرسول والأجير والضامن .

وواضعه ؛ فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وأبو قرة وابن فهر وابن وهيلى وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ، ومتى كان خالد مثل أفلاطون . ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة ، فى وزن علمه فى نفس المعرفة ؛ وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، حتى يكون فيها سواءً وغاية ؛ ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين ، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها وتعترض عليها ؛ وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه ، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ، وإنما له قوة واحدة ، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليها ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم وأجدر أن يخطئ فيه ، ولن تجد مترجماً بقى بواحد من هؤلاء العلماء . هذا قولنا فى كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون ؛ فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل » .

وما عجب أبو عثمان من رجل عرف لغتين ، فكان إماماً فى البلاغة ، غير موسى بن سيار الأسوارى ، قال : إنه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين ، واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيمَ على صاحبتها .

وقال فى معنى الترجمة ومسخها بلاغة الشعر المنقول ، وكيف يُحيل النقل

المبانى والمعانى : « وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب . والشعر لا يستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حُوّل تقطع نظمه ، وبطل وزنه . وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب منه . وصار كالكلام المنثور ، والكلام المنثور المبتدأ على ذلك ، أحسن من المنثور المنقول من موزون الشعر . وقد نُقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحوّلت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً و بعضها ما انتقص شيئاً ، ولو حُوّلت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن ، ثم إنهم لو حولوها لم يجدوا فى معانيها شيئاً لم تذكره العجم فى كتبهم التى وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم . وقد نقلت هذه الكتب من أُمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن لسان إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها » .

إنا إذا تأملنا قول الجاحظ فى النقل ، وما يجب أن يكون عليه الناقل من المقدرة ، لينقل فيجيد من لغة إلى لغة ثانية ، نسجل أن رأيه هذا لا يختلف عن أحدث الآراء فى عصرنا ، وكأنك إذا تدبرت ما قاله فى هذا المعنى ، تقرأ رأياً لرجل أنفق عمره فى الترجمة والنقل ، ولا تبعد كثيراً عن محجة الصواب إذا حكمت بعد ذلك أن الجاحظ كان يترجم إلى لغته عن لغة أُخرى فى الأحايين . والأرجح أن هذه اللغة هى الفارسية . وفى ذلك إشارات فى البيان والتبيين ، وقد رأيناه يعجب من موسى بن سيار ببلاغته فى اللغتين عند تفسيره القرآن للعرب والفرس ، وصعب أن يحكم هذا الحكم الصريح من لم يحسن اللغتين ، ومن لم يكن جهبذاً فى البلاغة وما يقتضى لأعلى طبقة منها من اللفظ الجزل المأنوس والسبك المتين .

جده ونقده :

لا يرى الجاحظ ، صاحب العقيدة الراسخة والإيمان الصحيح ، طريق النجاة للناس ، إلا إذا فهموا الإسلام على حقيقته كما فهمه هو ، وكان أبداً حرباً على من خالفوا الدين ، وحرباً على الملحدين والكافرين . أنحى على الشيع التى انفصلت من الإسلام ، وعبثت بشىء من فروعه ، فردَّ على المشبهة وعلى الجهمية وعلى العثمانية وعلى الرافضة وغيرهم . وجادل اليهود والنصارى من أهل الكتاب بالتى هى أحسن . وأهم ما اهتم به الرد على الزنادقة والمانوية والمرتدين ، والطعن على من حاولوا من أرباب النحل القديمة أن يعيدوا فى ملتهم من امتلوا ملة الإسلام[١] ؛ مثل رده على من ألحد فى كتاب الله ، ورده الذى عنن له[٢] « بصيرة غنام المرتد » وغير ذلك .

كتب الجاحظ كل هذا ، و بعض المتنطسين من الحشوية ، أو المتنطعين فى الدين والمتنمسين[٣] فيه . يعدونه مقصراً و يطلقون ألسنتهم فيما كتب ، وليس لهم ما يؤيد افتراءهم عليه غير دعواهم المجردة . وقاموا فى عصره و بعده يكذبون عليه ، ومنهم من بلغت به القحة أن يخرجه من الدين ، ومنهم من بلغ به السخف أن يخرجه من الإنسانية ، ومن الغريب أن أولئك الغُيُر على الإسلام لم تحدثهم أنفسهم أن يكتبوا فصلاً واحداً فى دفع أعدائه ؛ وراحوا ، ورأس مالهم الباطل ، يعترضون من دون حياء على من كان فى مثل قوة الجاحظ فى تصديه لرد شبه المخالفين . أما أرباب العقول المستنيرة ، المنزهون عن الأغراض فى الحكم على

---

(١) الملة بالكسر الشريعة أو الدين وتملل وامتل : دخل فيها .

(٢) عن الكتاب وعننه وعنونه وعناه : كتب عنوانه .

(٣) تنطس فى الكلام تأنق فيه ، وتنطع فى كلامه إذا تفصح فيه وتعمق . والتنميس التلبيس والاحتيال .

الجاحظ ، فقد كانوا يعدون ظهوره فى ذاك العصر ، عصر تسرب الشبهات والمجاذبات الدينية ، نعمة عظيمة على الإسلام والمسلمين .

وأغرب من هذا دعوى بعض أصحاب الجرح والتعديل أن الجاحظ كان إذا روى حجج من يجادلهم من النصارى أوردها برمتها ، وقصر عمداً فى رد أقوالهم ، تاركاً بعض النواحى الضعيفة فى جوابه ، وهو يرمى بروايته مقالات المخالفين ثم نقضها إلى أن ينصف الخصم فيضع أمام الأنظار حججه ، ثم ينقدها بتؤدة لا حدة بها ولا غضب ، وقد يسخر ممن ينقده ويتهكم به ، وبمن يقول بقوله تهكم أدب وتهذيب . ورسالته فى الرد على النصارى تنادى بأفصح لسان أن خصومه ظلموه وما أنصفوه . وما كان لمؤلف أن يضع تأليفه ليرضى به حتى المتعنتين ، ومراض العقول وأصحاب الأهواء . ولولا أن الجاحظ كان الحجة الثبت فى هذا الموضوع بين علماء عصره ، ما حثه الفتح بن خاقان الوزير العالم على التعجيل بتأليف رده على النصارى . « وهمّكَ من رجل ، وناهيك من عالم ، وشرعك[1] من صدوق » إن جادل أفحم ، وإن ألف كان الأعلم والأحكم .

أجاب الجاحظ بعض من شنعوا عليه لنقله كلام المخالفين ثم تفرغه للرد عليهم بقوله : « وعبتنى بحكاية قول العثمانية والضرارية كما سمعتنى أقول فى أول كتابى : وقالت العثمانية والضرارية ، كما سمعتنى أقول : قالت الرافضة والزيدية ، فحكمت علىّ بالنَّصْب لحكايتى ، فهلاّ حكمت علىّ بالتشيع لحكايتى ، وهلا كنت عندكَ من الغالية لحكايتى حجج الغالية ، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتى قول الناصبة . وقد حكينا فى كتابنا قول الأباضية والصُّفْرية ،

---

(١) يقال مررت برجل شرعك من رجل أى حسبك يستوى فيه الواحد والجميع ، ومثله وهذا رجل همك من رجل وهمتك من رجل حسبك .

كما حكينا قول الأزارقة والزيدية . وعلى هذه الأركان الأربعة بنت الخارجية وكل اسم سواها فإنما هو فرع ونتيجة ، واشتقاق منها ومحمول عليها ، وإلا كنا عندك من الخارجية ، كما صرنا عندك من الضرارية والناصبة ، فكيف رضيت بأن تكون أسرع من الشيعة إلى أعراض الناس من الخارجية ، اللهم إلا أن تكون وجدت حكايتى عن العثمانية والضرارية أشبع وأجمع ، وأتم وأجود وعبتنى بكتاب العباسية ، فهلا عبتنى بحكاية مقالة من أبى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن تركَ الناس سدًى بلا قيم أردّ عليهم ، وهملاً بلا راع أربح لهم ، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل وغنيمة الآجل » .

وفى كتابه حجج النبوة : « والعجب من ترك الفقهاء تمييز الآثار ، وترك المتكلمين القول فى تصحيح الأخبار ، وبالأخبار يعرف الناس النبى من المتنبى ، والصادق من الكاذب ، وبها يعرفون الشريعة من السنة ، والفريضة من النافلة ، والحظر من الإباحة ، والاجتماع من الفرقة ، والشذوذ من الاستفاضة ، والردَّ من المعارضة ، والنار من الجنة ، وعامة المفسدة والمصلحة » . وقال : « إن كل منطيق محجوج ، والحجة حجتان : عيان ظاهر وخبر قاهر . فإذا تكلمنا فى العيان وما يفرع منه ، فلا بدّ من التعارف فى أصله والتعارف فى فرعه ، فالعقل هو المستدل ، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله ، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل ، ويكون الاستدلال مع عدم الدليل ، والعقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن بالعقل ، ولا بد لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لإبطال إحدهما وجه مع إيجاب الآخر . والعقل نوع واحد . والدليل نوعان : أحدهما شاهد عيان يدل على غائب ، والآخر مجىء خبر يدل على صدق » .

كان الجاحظ محيطاً بما يجول فى قلوب أولئك الناقدين الناقمين ، يعرف أنهم يبغون له العثرة ، ويقفون له كل حين بالمرصاد فيترفع عن مجادلتهم ، لوقوفه على نياتهم ، ومثل هاته الطبقة كان على الأغلب يهزأ بها ويرحمها . وليس بعد الجهل ذنب ، كما قيل ليس بعد الكفر ذنب . وقد وصف من كانوا يعترضون سبيله ويحسدونه حسد لؤم وغباوة ، بقوله : « إنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسى ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاحته [1] ، وأكثر ما يكون هذا منهم ، إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه القدرة على التقديم والتأخير ، والحط والرفع ، والترهيب والترغيب ، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة [2] فإن أمكنتهم الحيلة فى إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذى ألف له ، فهو الذى قصدوه وأرادوه ، وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً ونقريساً [3] بليغاً ، وحاذقاً فطناً ، وأعجزتهم الحيلة سرقوا معانى ذلك الكتاب وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً ، وأهدوه إلى ملك آخر ، ومتوا [4] إليه به ، وهم قد ذموه وثلبوه . لما رأوه منسوباً إلىّ وموسوماً بى . وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيرى ، وأحيله على من تقدمنى عصره ، مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب الحكمة ويحيى بن خالد والعتابى ،

---

(١) نصح : خلص .

(٢) المغتلمة من الابل التى غلبت عليها شهوة الضراب .

(٣) النقاب بكسر النون الرجل العلامة ، أو النافذ فى الأمور كما فى الأساس ، والنقريس بكسر النون أيضاً الطبيب الماهر النظار المدقق كالنقرس .

(٤) مت إليه بحرمة متاً توصل بقرابة أو دالة .

ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب ، فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته علىّ ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ، ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم . ويروونه عنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس ، فتثبت لهم به رياسة يأتم بهم قوم فيه ، لأنه لم يترجم باسمى ، ولم ينسب إلى تأليفى » .

هكذا سبر الجاحظ عقول حاسديه بمسبار علمه ، وضحك وأضحك من لؤمهم وغبائهم ، وأبت نفسه أن يحاورهم ، وهو جدّ عارف بقدر ما يكتب ، وبما يرمى إليه من المقاصد فى وضع أسفاره . ولطالما وطّن نفسه على استماع سخف السخفاء فى أحكامهم المتجانفة [1] عن الحق ، قال : « لأن كل من التقط كتاباً جامعاً ، وباباً من أمهات العلم مجموعاً ، كان له غنمه ، وعلى مؤلفه غُرمه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كدّه ، مع تعرضه لمطاعن البغاة ، ولاعتراض المنافسين ، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة ، ومعانيه على الجهابذة ، وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة » . وبديهى أن المتأولين والحسدة لا يرضيهم منه إلا أن ينقطع عن التأليف ليساويهم فى قصورهم ، ولذلك كان من الطبيعى أن لا يناقشهم لأنهم طلقوا المنطق فى حواره ، وأبهموا وما أبانوا فى وجوه اعتراضهم على أفكاره ، والكلام المجمل يحتاج إلى تفصيل ، وهم عاجزون عن الإدلاء بحق ، وهو فى غُنية عن أن يعرض لكلام من قتلهم الحسد .

على انه عرض فى الحيوان لأولئك الذين ينالون منه بالباطل بقوله : « ولولا سوء ظنى بمن يظهر التماس العلم فى هذا الزمان ، ويظهر اصطناع الكتب فى هذا

(١) تجانف : مال .

الدهر ، لما احتجت فى مداراتهم واستمالتهم ، وتوفيق نفوسهم ، وتشجيع قلوبهم ، مع كثرة فوائد هذا الكتاب ، إلى هذه الرياضة الطويلة ، وإلى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأن الذى أفيدهم إياه أستفيده منهم ، وحتى كأن رغبتى فى صلاحهم ، رغبة من رغب فى دنياهم » . وقال فى غرض كتاب آخر : « وقد جمعنا فى هذا الكتاب جملاً التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار ، ولعل بعض من لم يتسع فى العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام ، يظن أن تكلفنا له من الامتداح والتشريف ، ومن التزيد والتجويد ، ما ليس عنده ، ولا يبلغه قدره . كلاّ والذى حرّم التزيد[1] على العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج[2] الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا إلا من ضلّ سعيه » . وما أحلى هذا القسم وما أجمل مغزاه .

ولما كان المعتزلة يتشددون فى الحديث وتأويله وروايته ، ويردون كثيراً مما لم يثبت من طرق موثوق بصحتها ، ويسمون المكثرين منه على علاته الحشوية ، أبت نفس الجاحظ بالضرورة أن يكون فى الحديث حاطب[3] ليل ، فما كان من الأحاديث مرضى الإسناد صحيح المخرج قَبِله ، وما كان مسخوط[4] الإسناد فاسد المخرج نبذه . وكان الشهاب الزهرى يقول عن الحديث وروايته : يخرج الحديث من عندنا شبراً ، ويعود فى العراق ذراعاً . وكان مالك بن أنس يقول : إذا جاوز الحديث الحرّتين ضعفت شجاعته ؛ وكان يسمى الكوفة دار الضرب لأنها تضع الأحاديث كما تضرب النقود ؛ وكان أحمد بن حنبل يشك فى التفسير ويقول : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى .

---

(١) التزيد فى الحديث الكذب .

(٢) البهرجة أن يعدل بالشىء عن الجادة القاصدة إلى غيرها .

(٣) حاطب ليل : مخلّط فى كلامه . (٤) المسخوط : المكروه .

هكذا روى أبو عثمان الحديث وأرواه ، وفهم « تأويل الأحاديث ، وأى ضرب يكون مردوداً ، وأى ضرب منها يكون متأوّلاً ، وأى ضرب منها يقال إن ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل » . وقال : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختطفت واسترقت ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون » .

غلب الصدق على الجاحظ حتى ليتحاشى الحط على أحد من أهل الملل والنحل ، وما جوّز التقول على من يخالفه أيًّا كان وكانت نحلته ، « ولم يذكر محاسن الخوارج ، ولم يخبر عن مآثرهم لأنه يتولاهم[1] ، ولا لأنه يميل إليهم ، ولكنه خبر أنهم مع مروقهم من الدين وخروجهم عنه وجهلهم به ، أحسن اقتصاداً من الرافضة ، فخبر عن توقيهم للكذب على من عاداهم ، وجرأة الرافضة على الكذب عَلَى أعدائهم ، وخبر عن شعر الخوارج ونواحهم على ذنوبهم ، ووصف أصحابهم بالنسك والفضل ، ثم خبر عن شعر عمران بن حطان وحبيب ابن خُدرة وأشباههما من شعراء الخوارج » . قال الخياط : « وهذا شعر السيد فانظروا فيه لتعلموا صدق الجاحظ ، وأنه لم يتزيد على الرافضة حرفاً واحداً ، وقال إن الجاحظ بين فى كتاب فضيلة المعتزلة أن الرافضة يقتطعون آل أبى طالب عن العلم والعمل جميعاً ، ويوهمونهم أن المعاصى لا تضرهم ، وأن الواحد منهم يشفع فيمن أراد أن يشفع ، وأنه لم يسلم جلة أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار من شتمهم وعداوتهم ، ولم يسلم من تولوه من آل على من تثبيطهم عن العلم ، وتزهيدهم فى العمل الصالح المقرّب لهم إلى الله ، فلم ينج منهم ولى ولا عدوّ » . ومن أجل هذا قال المسعودى فى كتب الجاحظ : إنها حسنة « إن لم تدع إلى نَصْب » ؛ وأهل النصب هم المتدينون ببغضة على بن أبى طالب فإنهم نصبوا له

(١) تولاه : اتخذه ولياً .

أى عادوه ومنهم الخوارج . والمعتزلة يختلفون فى أمير المؤمنين عثمان بعد الأحداث التى أحدثها ، وأكثرهم تولاه وتأول له ؛ ومعظمهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص ومن شايعهما ؛ ولا نعرف السرّ فى انحرافهم عن بنى أمية ، مع أن المعتزلة كانوا معتدلين فى الحكم عَلَى علىّ بن أبى طالب يعطونه حقه من دون زيادة ، ومعاوية وآله وأنصاره جمعوا شمل الإسلام . ولا نعتقد مع هذا أن رسالة النابتة التى نسبت إليه وفيها إقذاع بالأمويين هى من تأليفه ، كما لا نعتقد أن كتاب التاج وكتاب الأخلاق هما له أيضاً .

يقول شيخنا طاهر الجزائرى إن الجاحظ قد يسلك طريق التمويه كما سجل عليه ذلك بعض عصريه من أبناء نحلته كأبى جعفر الإسكافى . وتمويه الجاحظ تمويه عاقل ذى بصيرة ، إذا موّه يكاد يظهر الحق من خلال تمويهه ، وقد يصرح بغير ذلك فى موضع آخر ؛ فالعاقل ذو البصيرة ينتفع بكلامه كيف كان . ونقل ابن أبى الحديد أن الجاحظ ألف كتاب العثمانية انتصر فيه للخلفاء الراشدين إلا أنه أظهر ما يشعر بالنصب ، لما اقتضته طينة البصرة على زعم بعضهم ، فتصدى له من أبناء نحلته الإمام أبو جعفر الإسكافى فنقض كتابه ، وأطلق لسانه فى الجاحظ ؛ ومن ذلك قوله : القول ممكن ، والدعوى سهلة سيما على مثل الجاحظ ... قوله لغو ومطلبه سجع ، وكلامه لعب ولهو ؛ يقول الشىء وخلافه ، ويحسن القول وضده . قال قاضى القضاة عبد الجبار فى طبقات المعتزلة : نقض الإسكافى كتاب الجاحظ فى العثمانية فى حياته ، فدخل الجاحظ الوراقين ببغداد فقال : من هذا الغلام السوادى الذى بلغنى أنه تعرض لنقد كتابى ، وأبو جعفر جالس ، فاختفى منه حتى لم يره . وكان أبو جعفر علوىّ الرأى محققاً منصفاً ، قليل العصبية ، ألف سبعين كتاباً فى علم الكلام اه .

وقول أستاذنا إن الجاحظ قد يعمد إلى التمويه ، وتمويهه تمويه العاقل ، كلام يحتاج إلى شرح قليل . فإن الجاحظ قد ينقل بعض المسائل على علاتها لا يعرض لها بنقد كما وقع له أن نال من أميرى المؤمنين عمر بن عبد العزيز ومعاوية ابن أبى سفيان . فنسب إلى معاوية فى رسالته القيان ما يقدح فى عدالته وما كان معاوية بالمستهتر ولا بالمتهتك ، ولم يجرأ خصومه أن يتهموه بشىء من ذلك . وغريب من أبى عثمان إطلاقه هذا القول مع حبه للحق حتى فى مقارعة أعدائه . ولقد شهدناه يدافع عن الخوارج لما أعجبه نسكهم وامتناعهم عن الكذب على من خالفهم ، وإن لم يقل بقولهم فى إكفار من رضى بالتحكيم ، وحط من الرافضة لما رآهم يضعون ما لا يحل من الكذب على الرسول وعلى مخالفيهم ، وأصلاهم ناراً من نقده لما وضعوا آل على فى منزلة لا يرضاها العقلاء من ذريته ، فقالوا بعصمتهم وأن المعاصى لا تضرهم .

ومن هذا الضرب إشارته إلى ما وقع بين أحمد بن حنبل والمعتصم فى مسألة خلق القرآن قال الجاحظ : وبعد فنحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن إلا أهل التهمة ، وليس كشف المتهم من التجسس ، ولا امتحان الظنين من هتك الأستار ، ولو كان كل كشف هتكاً . وكل امتحان تجسساً ، لكان القاضى أهتك الناس لستر ، وأشد الناس كشفاً لعورة ، والذين خالفوا فى العرش ، إنما أرادوا نفى التشبيه فغلطوا ، والذين أنكروا أمر الميزان إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً غلاظاً ، فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطأوا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر ، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق ، فبين المذهبين أبين الفرق . وقد قال صاحبكم للخليفة المعتصم يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمحصلين

إعذاراً وإنذاراً : امتحنتنى وأنت تعرف ما فى المحنة وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتنى من بين جميع هذه الأمة . قال المعتصم : أخطأت بل كذبت . وجدت الخليفة قبلى قد حبسك وقيدك ، ولو لم يكن حبسك على تهمة لأمضى الحكم فيك ، ولو لم يَخْفَك على الإسلام ما عرض لك ، فسؤالى إياك عن نفسك ليس من المحنة ولا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كشف العورة ، إذ كانت حالك هذه الحال ، وسبيلك هذه السبيل . وقيل للمعتصم فى ذلك المجلس : ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره ويعاينوا انقطاعه فينقض ذلك استبصارهم فلا يمكنه جحد ما أقر به عندهم فأبى أن يقبل ذلك وأنكره إلى آخر ما ذكر .

مذهب الجاحظ فى الدين كمذهبه فى العلم ، مذهب العقل وصدق الحس لا يحكِّمُ غيرهما ، ولا يَحْكُمُ بسواهما . لا جرم أن اختلاف أهل السنة والجماعة مع المعتزلة اختلاف لا يعتد به كثيراً ، والمسائل المختلف فيها لا تعبث بأصل من أصول الدين ، فمن قال مثلاً بأن الله يرى فى الآخرة له أدلته من الكتاب ، ومن قال بأن الله لا يرى تأول بعض الآيات لإثبات قضيته ، ومن قال إن الفاسق يخلد فى النار أو لا يخلد ، فلا يتعلق على كلامه كبير أمر فى الدين . يقول ابن حزم : « إن أقرب فرق المعتزلة إلى أهل السنة أصحاب الحسين بن محمد النجار وبشر بن غياث المريسى ثم أصحاب ضرار بن عمرو وأبعدهم أصحاب أبى هذيل » .

ومن ثبتت له كالجاحظ كل هذه الحسنات فى الدفاع عن الدين ، لا يضيره إذا رأى رأْى غيره فى مسائل طفيفة . والناس منذ كانت الدنيا لا يتفقون فى كل الأمور . فقد شهدنا الجاحظ نفسه يخالف أحد أساتذته فى بعض الآراء فما قدح ذلك فيهم ، ولا عُدَّ عمله من سوء الأدب . وإذا أدركنا أن معظم ما كتبه فى

الدين قد فُقد نتخيل مبلغ سعة الدعاية التى دُبرت عليه وعلى كتبه خاصة وعلى المعتزلة عامة . يقول ابن أبى الحديد إن المرتضى لما رأى الجاحظ وافق غرضه مرة استجاد قوله فكناه ، مع أنه ما كناه أصلاً قال : « فسبحان الله ما أشد حب الناس لعقائدهم » .

رأينا الجاحظ يجادل أهل الكتاب بالحسنى فينفى عن النصارى لما جاء يحاجهم معرفة الفلسفة ، و يقول ليس لهم « إلا حكمة الكف من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البزيون [١] . وكتب المنطق والكون والفساد ، وكتاب العُلوى والمجسطى والهندسة والطب ليست للنصارى ، بل هى لأرسطاطاليس وبطلميوس وأقليدس وجالينوس وديمقراط وأبقراط وغيرهم » . « هؤلاء الناس من أُمة قد بادوا و بقيت عقولهم ، وهم اليونان ، ودينهم غير دينهم ، وأدبهم غير أدبهم : أولئك علماء وهؤلاء صناع . أخذوا كتبهم لقرب الجوار ، وتدانى الدار ، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم ، ومنها ما حولوه إلى ملتهم » . وقال : إن أكثر من قتل من الزنادقة — ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره — هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى ، على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة ، ومواضع التهمة لم تجد أكثرهم إلا كذلك » قال : « ومما عظّم النصارى فى قلوب العوام ، وحببهم إلى الطّغَام ، أن منهم كتاب السلاطين وفراش الملوك ، وأطباء الأشراف ، والعطارين والصيارفة . ولا تجد اليهودى إلا صباغاً أو دباغاً أو حجاماً ، أو قصاباً أو شعاباً [٢] .

وذكر أن المسلمين يبجلون النصارى أكثر من اليهود ، لأن النصرانية كانت فاشية فى العرب وعليها غالبة ، إلا مُضَر فلم تغلب عليها يهودية

---

(١) البزيون : السندس . (٢) الشعاب : الملئم وحرفته الشعابة .

ولا مجوسية ، ولم تفشُ فيها النصرانية ، إلا ما كان من قوم منهم ، نزلوا الحيرة يسمون العبّاد ، فإنهم كانوا نصارى وهم مغمورون[١] مع نبذ[٢] يسير فى بعض القبائل ، ولم تعرف مضر إلا دين العرب ثم الإسلام ، وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها : على لَخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقُضاعة وطيئ فى قبائل كثيرة وأحياء معروفة ، ثم ظهرت فى ربيعة فغلبت على ثعلب وعبدالقيس وأفناء[٣] بكر ثم فى آل ذى جَدَن[٤] خاصة . وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة ، إلا ما كان من ناس من اليمانية ، ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة ، ومعظم اليهودية إنما كان بيثرب وحِمْيَر وتَيْماء ووادى القرى فى ولدِ هارون دون العرب ، فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى ، المُلكُ الذى كان فيهم ، والقرابة التى كانت لهم ، ثم رأت عوامنا أن فيهم ملكاً قائماً ، وأن فيهم عرباً كثيرة ، وأن بنات الروم وَلَدن لملوك الإسلام ، وأن فى النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفة حكماء ، ولم يروا ذلك فى اليهود .

وقال فى وصف حال الفلسفة عند اليهود : « إنهم يرون أن النظر فى الفلسفة كفر ، والكلام فى الدين بدعة ، وأنه مَجْلبة لكل شبهة ، وأنه لا علم إلا ما كان فى التوراة وكتب الأنبياء ، وأن الإيمان بالطب وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة ، والخروج إلى الدهرية ، والخلاف على الاسلاف وأهل القدوة ، حتى أنهم ليبهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام سالك سبيل أولئك » .

وقال فى علاقة المسلمين بالنصارى : « على أن هـذه الأمة لم تبتل باليهود

---

(١) المغمور : الخامل . (٢) النبذ : الشىء القليل اليسير .

(٣) الفنأ محركة : الكثرة ، وبالسكون الجماعة . (٤) قيل من أقيال حِمْيَر .

ولا المجوس ولا الصابئين ، كما ابتليت بالنصارى ، وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف الإسناد من روايتنا ، والمتشابه من آى كتابنا ، ثم يَخُلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ، وحتى مع ذلك ربما تبرأوا إلى علمائنا وأهل الأقدار منا ، ويشغبون على القوى ، ويُلبّسون على الضعيف ، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد » .

وتفسير هذا أن الجاحظ عُنى بالرد على من نال من الإسلام ، فلم يتخلّ حتى عن الكتابيين ، وأحسن تعليل صلات النصارى بالمسلمين ، واعترف بأن من دانوا بالنصرانية يعرفون كيف يدخلون الشبه على عقول العوام من المسلمين ، وقال إن النصارى ليسوا أهل حكمة ، وأن الحكمة خاصة باليونان ، وإنما النصارى أهل صناعات وقع إلى بلادهم شيء من علوم اليونانيين ، واليونان مخالفون للنصارى فى دينهم وتاريخهم وأدبهم ، واليهود لا يعرفون شيئاً غير التوراة ، وينبذون ما عداها من العلوم ، وصناعاتهم حقيرة ، وصناعات النصارى شريفة ، وأن ما عطف قلوب جمهور المسلمين على أبناء النصرانية إلا الصلات الكثيرة التى تأصلت بين النصارى والعرب بالمصاهرة والاختلاط ولأن فيهم ملكاً قائماً .

كثر الزنادقة فى عهد الجاحظ واهتم لذلك الخلفاء ، فقال هو بالضرب على أيديهم قائلاً : « أجمعوا على أن قتل البعض إحياء للجميع ، وأن إصلاح الناس فى إقامة جزاء الحسنة والسيئة ، ولكم فى القصاص حياة ، والقَوَد حياة ؛ وهذا شيء تعمل به الأمم كلها غير الزنادقة ، والزنادقة لم تكن قط أُمة ، ولا كان لها مُلك ومملكة ، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق » .

وأجاب من قال له إن الزنادقة كانوا حرصى على كتب المقالات بالورق

النقى الأبيض ، والحبر الأسود واستجادة الخط : « إن إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب ، كإنفاق النصارى على البيَع ، ولو كانت كتب الزنادقة كتب حكم ، وكتب فلسفة ، وكتب مقاييس ، وسنن نبيين وتبيين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعرف الناس أبواب الصناعات ، أو سبل الكسب والتجارات ، أو كتب ارتفاقات ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب ؛ وإن كان ذلك لا يقرب من غنىً ولا يبعد من مأثم ؛ لكانوا ممن قد يجوز أن يظن بهم تعظيم البيان ، والرغبة فى التبيين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ، فإنما إنفاقهم فى ذلك كإنفاق المجوس على بيت النار ، وكإنفاق النصارى على صلبان الذهب ، وكإنفاق الهند على سَدَنة البددة[1] . . . والذى يدل على ما قلنا أنه ليس فى كتبهم مَثَل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أَدب ، ولا حكمة غريبة ، ولا فلسفة ، ولا مسألة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحة ، ولا تدبير حرب ، ولا منازعة عن دين ، ولا مناضلة عن نحلة ، وجلُّ ما فيها ذكر النور والظلمة ، وتناكح الشياطين ، وتسافد العفاريت . . . لا ترى فيها موعظة حسنة ، ولا حديثاً مونقاً ، ولا تدبير معاش ، ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ، فأَى كتاب أجهل ، وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الإطاعة والتخرج بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، والناس لا يحبون إلا ديناً أو دنيا . . . وكل دين يكون أظهر فساداً احتاج من الترقيع والتمويه ، ومن الاحتشاد له ، والتغليظ فيه ، إلى أكثر ، وقد علمنا أن النصرانية

---

(١) البد : الصنم معرب بت ج بددة وأبداد بيت الصنم ، والسدنة واحدها سادن وهو خادم الصنم وأطلق فى الإسلام على خادم الكعبة .

أشد انتشاراً من اليهودية تعبداً ، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم فى توكيده ، واحتفالهم فى إظهار تعليمه » .

وقال فيهم وفيمن يحب مشاكلتهم : « وربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ولا تحصيل له أن الزنادقة ظرفاء ، وأنهم عقلاء وأدباء ، وأنهم عباد ، وأصحاب اجتهاد ، وأن لهم البصائر فى دينهم ، والبذل لمهجهم ، وأن هناك علماً وتمييزاً ، وإنصافاً وتحصيلا ، فينزو نحوهم نزو المُهر الأرن[1] ، ويحن إليهم حنين الواله العجول ، ويتصبى فيهم صبابة العاشق المتيم ، ويرى أنه متى اتهم بهم فقد قضى له بذلك كله ، فلا يزال كذلك حتى يسهل فى طباعه ، ويرجح عنده أن يزعم أنه زنديق » .

وقال فى نعت الدهريين : « فإن الذى ينفى الرب ، ويحيل الأمر والنهى ، وينكر جواز الرسالة ، ويجعل الطينة قديمة ، ويجحد الثواب والعقاب ، ولا يعرف الحلال والحرام ، ولا يقرُّ بأن فى جميع العالم برهاناً يدل على صانع ومصنوع ، وخالق ومخلوق ، ويجعل الفلك الذى لا يعرف نفسه من غيره ، ولا يفصل بين الحديث والقديم ، وبين المحسن والمسىء ، ولا يستطيع الزيادة فى حركته ، ولا النقصان من دورانه ، ولا معاقبة للسكون بالحركة ، ولا الوقوف طرفة عين ، ولا الانحراف عن الجهة هو الذى يكون به جميع الإبرام والنقض ، ودقيق الأمور وجليلها ، وهذه الحكم العجيبة ، والتدابير المتقنة ، والتآليف البديعة ، والتركيب الحكيم ، على حساب معلوم ، ونسق معروف على غاية من حقائق الحكمة ، وإحكام الصنعة . . لأن الدهرىَّ ليس يرى أن فى الأرض ديناً أو نحلة أو شريعة أو ملة ، ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه ، ولا للحرام نهاية

---

(١) الأرن : الهائج ، وينزو : يثب .

ولا يعرفه ، ولا يتوقع العقاب على الإساءة ، ولا يتوخى الثواب على الإحسان ، وإنما الصواب عنده والحق فى حكمه ، أنه والبهيمة سيان ، وأنه والسبع سيان ، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه ، وإن مدار الأمر على الإخفاق والدَّرْك ، وعلى اللذة والألم ، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة ، وإن قَتَل ألف إنسان صالح لمنالة [1] الدرهم الردىء . . . » .

وقال فى المنانية أصحاب مانى : « إن أناساً حين جهلوا الأسباب والمعانى ، وقصروا فى الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا إلى الجحود والتكذيب حتى أنكروا خلق الأشياء . وزعموا أن كونها بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء ، وفرشت أحسن فرش . وأُعِدّ فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآدب ، ووضع كل شىء من ذلك فى موضعه على صواب وتقدير ، فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما أُعدَّ فيها ، وربما عثر الواحد منهم بالشىء قد وضع فى موضعه وأعد لشأنه ، وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها . »

« فهذه حال هذا الصنف فى إنكارهم ما أنكروا من الخلقة ، وأنهم لما غبيت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل فى الأشياء ، صاروا يجولون فى هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه فى إتقان خلقته ، وصواب هيئته ، وربما وقف الواقف منهم على الشىء يجهل سببه والأرب فيه ، فيسرع إلى ذمه وعيبه ووصفه بالخطإ والإحالة ، كالذى أقدمت عليه وجاهرت به المنانية الكفرة ، وأشباههم من أهل الضلال . فحق على من أنعم الله عليه بمعرفته ، ووفقه لتأمل هذه الخليقة ، والوقوف على ما فى خلقها من لطف التدبير ، وصواب التقدير ،

(١) النال والمنال والمنالة مصدر نلت أنال .

بالدلائل القائمة فيها ، أن لا يقصر فى إظهار ما بلغه علمه من ذلك ، بل يجهد فى نشره و إذاعته و إيراده على المسامع والأذهان ، لتقوى دواعى الإيمان ، وتخيب مكيدة الشيطان » .

هذه نموذجات من أساليب الرد على من خالفوا الإسلام ، ولا سيما المانوية والزنادقة والملحدون ممن كانوا يعملون على هدم كل معتقد ، فيتأذى الإسلام بدعوتهم ، وتسرى فى أذهان العوام . وقال فى المجوسية : ولم تر قط ذا دين تحول إلى المجوسية عن دينه ولم يكن ذلك المذهب إلا فى ضعفة من أهل فارس والجبال ، وخراسان كلها فارسية فإن عجبتَ من استسقاطى لعقل كسرى ابرويز وآبائه وأحبابه وقرابته وكتابه وأطبائه وحكمائه وأساورته فإنى أقول فى ذلك قولاً لا يعرف به أننى ليس إلى العصبية ذهبت .

رأى أبو عثمان إنزال العقوبات فى العابثين بالأديان فقال : « من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل فى موضع القتل ، وأحيى فى موضع الإحياء ، وعفا فى موضع العفو ، وعاقب فى موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، خالف الربَّ فى تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه ؛ وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، و بعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، وشرٌّ منه من كان شره صرفاً ، ولكن أخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لا يهابون و يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والإطماع والإخافة ، ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه ؛ فخير الخير ما كان ممزوجاً ، وشر الشر ما كان صرفاً . ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده ، لكان الله عز وجل أولى

بذلك الحكم ، وفى إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة فى جميع الأقطار ، وفى جميع الأعصار ، على استعمال المكروه والمحبوب ، دليل على أن الصواب فيه دون غيره ؛ وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء وذلك المكروه محبوباً » .

وراعنى سمعك فى تلاوة الجملة الآتية يرد على من لم يحسن من العلماء تعليل أمية رسول الله ، وكيف حاجه فأحسن حجاجه ، ودله على قصور علمه وضعف منطقه ، قال : « وكان شيخ من البصريين يقول : إن الله إنما جعل نبيّه أُمِّياً لا يكتب ، ولا يحسب ولا ينسب ، ولا يقرض الشعر ، ولا يتكلف الخطابة ، ولا يتعمد البلاغة ، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ، ويقصره على معرفة مصالح الدين ، دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر ، وعيافة الطير ، ومن العلم بالأنواء وبالخيل ، وبالأنساب والأخبار ، وتكلف قول الأشعار ، ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم ، وتكلم بالكلام العجيب ، كان ذلك أدل على أنه من الله ، وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ، ليكون أنقص حظًّا من الحاسب والكاتب ، ومن الخطيب الناسب ، ولكن ليجعله نبيًّا ، وليتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى ؛ فإنما نَقَصَه ليزيده ، ومنعه ليعطيه ، وحجبه عن القليل ، ليجلى له الكثير .

قال الجاحظ وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد إلا الخير ، وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه ، ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة ، وأداة قرض الشعر وجميع النسب ، قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة ،

وكان إذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء ، و إذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، ولو كان فى ظاهره ، والمعروف من شأنه أنه كاتب حاسب وشاعر ناسب ، ومتفرس قائف ، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، لما كان ذلك مانعاً من وجوب تصديقه ، ولزوم طاعته ، والانقياد لأمره ، على سخطهم ورضاهم ، ومكروههم ومحبوبهم ، ولكنه أراد أن لا يكون للشاعر مُتَعَلَّق عما دعا إليه ، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب و إن رق ، وليكون ذلك أخف فى المؤنة ، وأسهل فى المحنة ، فلذلك صرف نفسه عن الأمور التى كانوا يتكافونها و يتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته ، صار لسانه لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة ، فأما فى غير ذلك ، فإنه إذا شاء كان أنطق من كل منطيق ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، وكانت آلته أوفر ، وأداته أكمل ، إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أبعد ، و بين أن يضيف إليه العادة الحسنة وامتناع الشىء عليه من طول الهجران له رفق .

قال : « ومن العجب أن صاحب هذه المقالة لم يره عليه السلام فى حال معجزة قط ، بل لم يره إلا وهو و إن طال الكلام قصر عنه كل مطيل ، و إن قصر القول أتى على غاية كل خطيب ، وما عدم منه إلا الخط و إقامة الشعر ، فكيف ذهب ذلك المذهب ، والظاهر من أمره عليه السلام غير ما توهم » .

و يخيل إلى من يتدبر هذا الكلام أنه لم يفهم من أمية الرسول عالم من المحدثين والقدماء ما أدركه الجاحظ من هذه الصفة الشريفة فى النبى خاصة ، و إذا فهمه فيستحيل عليه أن يكتب فكره بهذا البيان .

انظر إليه ينتقد على السلف فى تقصيرهم فى سيرة الرسول ، يقول : إن السلف

الذين جمعوا القرآن فى المصاحف بعد أن كان متفرقاً فى الصدور ، والذين جمعوا الناس على قراءة زيد بعد أن كان غيرها مطلقاً غير محظور ، والذين حصنوه ومنعوه الزيادة والنقصان لو كانوا جمعوا علامات النبى صلى الله عليه وسلم و برهانه ودلائله وآياته ، وصنوف بدائعه ، وأنواع عجائبه ، فى مقامه وظعنه ، وعند دعائه واحتجاجه فى الجمع العظيم و بحضرة العدد الكثير الذين لا يستطيع الشك فى خبرهم إلا الغبى الجاهل والعدو المائل لما استطاع اليوم أن يدفع كونها وصحة مجيئها لا زنديق جاحد ، ولا دهرى معاند ، ولا متظرف ماجن ، ولا ضعيف مخدوع ، ولا حدث مغرور ، ولكان مشهوراً فى عوامنا كشهرته فى خواصنا ، ولكان استبصار جميع أعياننا فى حقهم كاستبصارهم فى باطل نصاراهم ومجوسهم ، ولما وجد الملحد موضع طمع فى غبىّ يستميله وفى حدث يموه له ، ولولا كثرة ضعفائنا مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بألسنتنا واستعانوا بعقولنا على أغبيائنا وأغمارنا لما تكلفنا كشف الظاهر و إظهار البارز والاحتجاج الواضح اه .

كان الجاحظ على سعة صدره ، وطول أناته ، لا يغتفر التخليط لأى كان ممن عاصرهم أو تقدموا زمنه ، يناقشهم و يحاسبهم خصوصاً إذا قصروا فى الكلام وادعوا ما ليس فيهم وخاضوا فيما لا يحسنون الخوض فيه . فقد رأيناه آنفاً ينحى إنحاء شديداً على الخليل بن أحمد وعلى عبد الله بن المقفع ، لأنهما كتبا فى الكلام أموراً عدها جرأة على العلم . ومن رأيه أن الرجل إذا أتقن الصنف والصنفين من العلوم يجب أن لايدعى غيرها ، و يحجم عن مقامات العلوم الأخرى ، فلا يتطاول إلى ما لا يعلم ، فالخليل بن أحمد صاحب العروض والنحو كان يجب أن يبقى فى فنه لا يتعداه ، وكذلك عبد الله بن المقفع كان المفروض فيه ، وهو ما هو فى البلاغة والحكمة واختراع المعانى ، أن لايتعدى ذلك إلى البحث فى الكلام

ولذلك أوجع الجاحظ هذين المؤلفين العظيمين لأنهما تعديا اختصاصهما فى العلم ، ونقدهما بشدة لم يشفع فيهما ذكاؤهما النادر ، وجهة إخصائهما فى الفنون الأخرى . قال فى كتابه طبقات المغنين بعد أن ذكر أن الخليل بن أحمد واضع علم العروض : فلما أحكمه و بلغ منه ما بلغ أخذ فى تفسير اللحون فاستدرك منه شيئاً ورسم له رسماً احتذى عليه من خلفه ، واستعمله من عنى به ، وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلى أول من حذا حذوه وامتثل هديه . واجتمعت له فى ذلك آلات لم تجتمع للخليل ابن أحمد قبله . وقال فى الموصلى إنه ألف فى الغناء كتباً معجبة « وسهل له فيها ما كان مستصعباً على غيره ، فصنع الغناء بعلم فاضل ، وحذق راجح ، ووزن صحيح » .

مقاتل المرء تبدو متى عالج عملاً ليس منه بسبيل ؛ فقد كتب المسعودى فى سنان بن ثابت الحرانى لما وضع كتاباً فى الأخلاق يقول : « إنه انتحل ما ليس من صناعته ، واستنتج ما ليس من طريقته ، وهو و إن أحسن فيه ، ولم يخرجه عن معانيه ، فإنه عِيب لأنه خرج عن صناعته ، وتكلف ما ليس من مهنته ، ولو أقبل على علمه الذى انفرد به من أنواع الفلسفة ، لكان قد سلم مما تكلفه ، وأتى بما هو أليق بصنعته ، ولكن العارف بقدره معوز ، والعالم بمواضع الخلة مفقود » .

كل هذا يعالجه الجاحظ فى نطاق الإنصاف والأدب بأسلوب لا يخلو من لذع وتهكم . ومن أقواله : و إن امرأً اجتمعت عليه المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة لظاهر الصواب واضح البرهان ، على اختلاف أهوائهم و بغيتهم لكل ما ورد عليهم ؛ فإن قال قائل : هذه الروافض بأسرها تأبى ذلك وتنكره ، وتطعن فيه وترى تغييره ، قلنا : إن الروافض ليست منا بسبيل ، لأن من كان أذانه غير أذاننا ، وصلاته غير صلاتنا ، وطلاقه غير طلاقنا ، وعتقه غير عتقنا ، وحجه غير حجنا ، وفقهاؤه غير فقهائنا ، و إمامه غير إمامنا ، وقراءته غير قراءتنا ، وحلاله غير حلالنا ، وحرامه غير حرامنا ، فلا نحن منه ولا هو منا .

فنه :

سئل الجاحظ مرة ما تأويل هـذه الآية (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) فقال : تأويلها تلاوتها . ونحن إذا سئلنا ما هى الصنعة أو التثقيف أو الفن فى كلام الجاحظ نقول : تدبروا كلامه تدركوا مبلغه من الصنعة . وإذا كان لا بد من تحليل صنعته نقول : كان اتساع أبى عثمان فى اللغة لا يشبه اتساع اللغويين ، استبطن من أسرارها ما يقل استبطان مثله على غيره ، وعرف طوائف من الألفاظ تصلح فى الأدب ، وطوائف تصلح فى الزراعة ، وأخرى للصناعات وأعمال الحياة ، وغيرها للدينيات ومطالب العقبى ، عدا ما خص بمعرفته من الألفاظ الصالحة لـكل شأن . كان جدّ عارف بما يختار ويطرح ، يقدر اللفظة بجَرْسها ورنتها ، وما يتوقع من تأثير توقيعها وتلحينها إذا قرنت إلى أختها ، ويميز الثقيلة والخفيفة ، والمأنوسة من الوحشية ، فيختار ما يؤدى جملته حق الأداء ؛ فإبداعه فى فنه يرجع أولا إلى ما يختار من الألفـاظ . كان نحاتاً وبناءً فى آن واحد : يجوّد نحت أحجاره ، ويحسن رصفها فى البناء ، والمهارة كل المهارة فى إبراز المتماثل من المواد إلى جانب ما يوائمها ، وقد يستجيد البانى أجمل الأحجار لبنائه ، فإذا لم يحسن الهندسة فقد البناء روعته المشعرة بأن البانى عليم بالجمال . يقول العسكرى : « إن المعانى مشتركة بين العقلاء ، فربما وقع المعنى الجيد للسُّوقى والنَّبَطى والزنجى ، وإنما تتفاضل الناس فى الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها » .

أعظم ما تدور حوله صـنعة الجاحظ إذاً لباقة فى تصيده من بحر اللغة المتلاطمة أمواجه فى صدره . هو لم يستعمل إلا ما عذب فى المذاق ، وحلا فى

السمع ، وما تحذلق قط فأكره خشن الألفاظ على أداء ضعيف المعانى ، وما عمد إلى سهل اللفظ للإفصاح عن سهل المعنى ، وهواه أبداً أن يتخير ألفاظاً لمعانيه ، لا معانى لألفاظه . يسير مع الطبع ، ولا يتكلف السجع ، ويكتفى منه بما جاء عفواً فى الأحايين ، متجافياً عن خشونة التعمل ، ووعوثة [1] التعقيد ، وآية صنعته ولوعه بتصوير المعانى ، وتقريبها من الأذهان ليخرج التالى بشىء يبقى فى نفسه . إذا عرفنا كل هـــذا كشف لنا بعض الغطاء عن تناهيه فى إبداعه وفنه .

وقد أفصح عن صنعته بقوله : « ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهوينا والوكال [2] ، وعلى السرقة والاحتيال ، لم يَنَلْ طائلا [3] ، وشق عليه النزوع [4] ، واستولى عليه الهوان ، واستهلكه سوء العادة . والوجه الضار أن يحفظ ألفاظاً بعينها من كتاب بعينه ، أو من لفظ رجل ، ثم يود أن يعد لتلك الألفاظ قَسْمها من المعانى ، فهذا لا يكون الا بخيلا فقيراً ، وحائفاً سروقاً ، ولا يكون إلا مستكرهاً لألفاظه ، متكلفاً لمعانيه ، مضطرب التأليف ، متقطع النظام ، فإذا مر كلامه بنُقّاد الألفاظ وجهابذة المعانى استخفوا عقله ، وبهرجوا علمه . ثم اعلم أن الاستكراه فى كل شىء سمج ، وحيث ما وقع فهو مذموم ، وهو فى الظرف أسمج ، وفى البلاغة أقبح ، وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فمه ، مسرودة فى نفسه ، ولم تكن مخلدة فى كتبه ، وخير الكتب

---

(١) وعث الطريق : كسمع وكرم تعسر سلوكه ، والوعث المكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام والطريق العسر .

(٢) الوكال : هو الاتكال من تواكلوا مواكلة ووكالا إذا اتكل بعضهم على بعض .

(٣) الطول والطائل والطائلة : الفضل والقدرة والغنى والسعة .

(٤) النزوع : التشبه .

ما إذا أعدت النظر فيه زادك فى حسنه » . ومعنى قوله هذا أن خير الكتّاب ، من لم يستظهر ألفاظاً بعينها ، ليكرهها على الاندماج فى تراكيبه ، ومن لا يستعمل من الألفاظ إلا السهل ، حتى يحوز رضا النقاد ، وأن يجعل تصفحه لدواوين المعانى لا لدواوين الألفاظ « وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى » عشقاً للفظ الذى يريد إقحامه . ولعل السبب فى أنه لم يأت من اللغويين كتاب عظماء كونهم حصروا أذهانهم فى الألفاظ ، وما عبأوا بمواطن الاستعمال ، ملأوا حافظتهم بالجيد والردىء ، وعدوه كله من الجيد ، لأنه كان من محفوظهم ، فإذا جاءوا ينشئون استعملوا كل ما وجدوا أمامهم أو ذكروه ، فقصروا فى البيان ، وانقطعوا عن اللحاق بالبلغاء .

وفى نظره « ليس الكتاب إلى شىء أحوج منه إلى إفهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه إلى الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة[1] والحشوة ، ويحطه من غريب الأعراب ووحشى الكلام ، وليس له أن يهذبه جداً ، وينقحه ويصفيه ويروّقه ، حتى لا ينطق إلا باب اللب ، وباللفظ الذى قد حذَفَ فضوله ، وتعرّفه وأسقط زوائده ، حتى عاد خالصاً لا شَوْب فيه ، فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه ، إلا بأن يُجِدَّ لهم إفهاماً ، مراراً وتكراراً ، لأن الناس كلّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت أفهامهم لا تزيد عن عاداتهم ، إلا أن يعكس عليها ويؤخذ بها » .

فالطريقة عنده إذاً ألا يكثر المنشئ من التصفية والترويق فى الألفاظ ، ولا يرسل كلامه فى الناس ، مفتوناً بما جادت به قريحته بادئ الرأى . هو يريد التنقيح ، ولكنه لا يوصى بالإكثار منه ، لأن فى التعمق الزلل . ولما كان

(١) سفلة الناس (بكسر السين) كفرحة : وأسافلهم وغوغاؤهم .

على علم بأن « فتنة الرجل بشعره ، وفتنته بكلامه وكتبه ، فوق فتنته بجميع نعمته » أوصى من يكتب كتاباً « أن لا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له » قال أبو زيد البلخى ما أحسن ما قال الجاحظ : « عقل المنشئ مشغول ، وعقل المتصفح فارغ » قال أبو عثمان: « ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً ولا يرضى بالرأى الفطير ، فإن لابتداء الكتب فتنة وعجباً ، فإذا سكنت الطبيعة ، وهدأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط ، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فيه ، فتوقف عند فصوله ، توقف من يكون وزن طبعه فى السلامة ، أنقص من وزن خوفه من العيب » . دلّ الكاتبَ بهذا على الوقت المناسب لإعادة النظر فيما كتب . أما هو فكان يحسن اختيار الزمن ليبرز كلامه فى قوالبه المعهودة إحسانه اختيار موضوعه . وقد حكى تلميذه المبرّد عنه قال : رأيت الجاحظ يكتب شيئاً فتبسم ، فقلت : ما يضحكك ؟ قال : إذا لم يكن القرطاس صافياً ، والمداد نامياً ، والعلم مواتياً ، والقلب خالياً ، فلا عليك أن تكون غائباً . وهذا الكلام لا يصدر عن غير متفنن ، ومن عيار الجاحظ ، ولذلك جاءت كتبه كثيرة الحيوية والمائية ، تبسم وتغازل وترقص وتغنى .

قال الجاحظ : « وليس فى الأرض إنسان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعتريه الغلط فى شعره وفى ولده ، إلا أن الناس فى ذلك على طبقات من الغلط : فمنهم المغرق المغمور ، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ ، ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه ، فما أحسن حاله ما لم يمتحن بالكشف ، ولذلك احتاج العاقل فى استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقى ، ومن إعادة النظر والتهمة ، إلى أضعاف ما يحتاج إليه فى سائر ذلك » .

وانظر إليه بعد هذا يصور لك كاتباً « خلا بعلمه عند فقد خصومه ، وأهل المنزلة من صناعته » ويقول : إن « صاحب القلم يعتريه ما يعترى المؤدب عند ضربه وعقابه ، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة ، لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطباع ، فأراه السكون أن الصواب فى الإقلال ، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة ، فزاد فى غضبه ، فأراه الغضب أن الرأى فى الإكثار ، وكذلك صاحب القلم ، فما أكثر من يبتدئ الكتاب ، وهو يريد مقدار سطرين ويكتب عشرة » .

بهذا تمت مزية الجاحظ من الصنعة مقرونة إلى موهبة الفطرة المفطور عليها : لا يطيل كلامه ولا يختزله ، ولا يرسله حالا ، يسيل سيلا ، بل ينظر فيه إذا خلا بنفسه ، فيحذف فضوله ، وإذا أضاف إلى ذلك تخير العذب السائغ من الألفاظ للإفصاح عن المعانى الصريحة ، كان فى ذلك البلاغة وجماع الصنعة المعجزة . انظره مثلاً فى كلامه على الخصاء فى الإنسان كيف يعبر فى جملة قصيرة عن معانٍ كثيرة دقيقة ، ويقول فى سهولة وتهكم : « وكل خصاء فى الدنيا فإنما أصله من قِبَل الروم ، ومن العجيب أنهم نَصارى ، وهم يدَّعون من الرأفة والرحمة ورقة القلب والكبد ، ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف » فبهذا الإيجاز واللفظ المنتقى ، صوّر المعنى الذى يريد لنقض دعوى النصارى التفرد بالرحمة والشفقة ، وقال إنهم المنفردون بين الأُمم فى ارتكاب هذه الكبيرة .

وشرح هذه العادة فى الرد على الروم بقوله : ومما يدل على قلة رحمتهم ، وفساد قلوبهم ، أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم ، والخصاء أشد المُثلة ، وأعظم ما ركبه الإنسان ، ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم ولا دفع عندهم ، ولا نعرف قوماً يُعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا إلا ببلاد الروم والحبشة ، وهم فى

غيرهما قليل وأقل قليل ، على أنهم لم يتعلموا إلا منهم ، ولا كان سبب فى ذلك غيرهم ...

لا جرم أن فن الجاحظ بحسن تصويره ، لا يترك مجالا لأن يدعى عليه القارئ أقل قصور ، يصور لك كالمصور المبدع بالعبارة ، وقد يبسطها أو يقبضها ، ويصوّر بالإشارة ، وبالشاهد والواقع ، حتى لا تخرج من كلامه إلا وقد وعيت أموراً تخيل إليك أنك سُحرت ، لما عمُر به صدرك وقلبك بما أملى عليك . ومن أهم مافى الجاحظ من صنعة أن كلامه قليل الاستعارات والكنايات والمجازات والتشبيهات ، لا يأخذ منها إلا بقدر معلوم عند الحاجة ، لأن صفاء ديباجته ، ونصاعة معانيه ، لا يحوجانه إلى الاستعانة بما يبرقش به جمله . والقوىّ فى امتلاك ناصية الكلام فى غُنْية عن هذه التهاويل والزخرف[1] . والطلاء يَنْصُل ، وإن حَسُن فى العين للنظرة الأولى ، والعبرة بما تحته من التقاطيع والقسامة . وليس معنى هذا أنه أسقط الكناية والاستعارة والمجاز والتمثيل جملة ، فإنها الأقطاب التى تدور البلاغة عليها كما قال عبد القاهر ، وهى التى نوه بذكرها البلغاء ، ورفع من أقدارها العلماء ، وصنفوا فيها الكتب حتى صار الكلام فيها نوعاً من العلم مفرداً خصوصًا الاستعارة والمجاز . وخَصلة أخرى وهى أن الجاحظ ليس من أرباب الخيال الواسع ولا الضيق ، هو خليق أن يعدَّ فى جماعة المحسوسات أرباب الفلسفة الحسية ، ولذلك كان تبريزه فى النثر . أما شعره فلا يتعدى حدَّ الحكاية ، وتصوير حال وحَدَث ، ولطالما تناشده وتذوقه .

للجاحظ فصول كثيرة تحله المحل الأرفع من الإبداع فى تصويره ، ومقامه

---

(١) الزخرف بالضم : الذهب وكمال حسن الشىء ومن القول حسنه بترقيش الكذب ومن الأرض ألوان نباتها ، والتهاويل الألوان المختلفة ، وزينة التصاوير والنقوش والحلى .

فى وصفه لا يقلُّ عن مقامه فى الحكاية والرواية . انظر إلى حكاياته ورواياته فى كتاب البخلاء ، وأمعن النظر فقط فى أقوال الكندى ، وحِيَل من يستأجرون الدور وأخلاقهم وتلاعبهم ، تدرك قوة الجاحظ على الإبانة فى شؤون الحياة . وانظره فى رسالته مدح النبيذ وصفة أصحابه ، يدلى إليك بحججه فى المدح ، وحججه فى الذم ، ثم يحكى لك ولا يبالى أن حذاق الملوك وأصحاب العنايات التامة ، احتاجوا أن يداووا نفوسهم بالسماع الحسن ، ويشدُّوا من مَتْنهم بالشراب الذى إذا وقع فى الجوف حرَّك الدم ، وإذا حرَّك الدم حرك طباع السرور ، ثم لا يزال زائداً فى مكيال الدم ، زائداً فى الحركة المولّدة للسرور قال : « هذه صفة الملوك وعليه بنوا أمرهم ، جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه » . تأمل قوله جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه ، فإن فيه صنعة ، وينطوى على معان كثيرة .

كتب رسالة النبيذ إلى صديقه الحسن بن وهب ، ومما قال فى مدح النبيذ انه « إذا تمشى فى عظامك ، والتبس بأجزائك ، ودب فى جنانك ، مَنَحك صدق الحس ، وفراغ النفس ، وجعلك رخى البال ، خلىَّ الذرع ، قليل الشواغل ، قرير العين ، واسع الصدر ، فسيح الهمّ ، حسن الظن ، ثم سد عليك أبواب التهم ، وحسن دونك الظن وخواطر الفهم ، وكفاك مؤونة الحراسة ، وألم الشفقة ، وخوف الحدثان ، وذل الطمع ، وكد الطلب ، وكل ما اعترض السرور وأفسد اللذة ، وقاسم الشهوة ، وأخل بالنعمة ، وهو الذى يرد الشيوخ فى طبائع الشبان ، ويرد الشبان فى نشاط الصبيان ، وليس يخاف شاربه إلا مجاوزة السرور إلى الأشر ، ومجاوزة الأشر إلى البطر ، ولو لم يكن من أياديه ومننه ، ومن جميل آلائه ونعمه . إلا أنك ما دمت تمزجه بروحك ، وتزاوج بينه وبين

دمك ، فقد أعفاك من الجد ونصبه ، وحبب إليك المزاح والفكاهة ، وبغّض إليك الاستقصاء والمحاولة ، وأزال عنك تعقد الحشمة ، وكد المروءة ، وصار يومه جَماماً لأيام الفكرة ، وتسهيلاً لمعاودة الروية ، لكان فى ذلك ما يوجب الشكر ويطنب الذكر » ، وبالفن الذى حواه هذا الكلام حبب تعاطى النبيذ حتى لمن لا يتعاطاه !

وأنت إذا نظرت إلى رسالته فى القيان تراه إذا وصف لك الوجه الحسن تكاد تبصره بعينك ، وإذا عرَض للقبيح ينفرك منه أى نفور . ألا تعجب منه إذا تلوت فيه أسطراً قليلة فى وصف حال المغنية فى عصره إذ يقول : « وكيف تسلم القَيْنة من الفتنة . أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكتسب الأهواء ، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشإ ، وهى إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها ، بما يصدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والأخابيث ، وبين الخلعاء والمجان ، ومن لا يُسمع منه كلمة جِدّ ، ولا يَرجع إلى فقه ولا دين ، ولا صيانة مروءة ، وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عدد ما يدخل فى ذلك من الشعر ، إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة ، والعشق والصبوة ، والشوق والغِلمة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها ، منكبة عليها ، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش[1] ، وإنشادهم مراودة ، وهى مضطرة إلى ذلك فى صناعتها ، لأنها إن جفتها تفلتت ، وإن أهملتها نقصت ،

(١) التجميش كالجمش : المغازلة والملاعبة والمطارحون من يعلمون الغناء يقال طرحت عليه المسألة وطارحته العلم والغناء وتطارحناه .

و إن لم تستفد منها وقفت ، وكل واقف فإلى نقصان أقرب ، و إنما فرق ما بين أصحاب الصناعات ، و بين من لا يحسنها التزيد فيها ، والمواظبة عليها ، فهى لو أرادت الهدى لم تعرفه ، ولو بغت العفة لم تقدر عليها . و إن ثبتت حجة أبى الهُذَيْل فيما يجب على المتفكر زال عنها خاصة ، لأن فكرها وقلبها واسانها و بدنها مشاغيل بما هى فيه ، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك فى نفسها لمن بُلى بمجالستها عليه وعليها » .

ألست تتلمس فى مفردات هذا الكلام ومركباته فن الجاحظ ، تأمل قوله : « إن جفتها تفلتت و إن أهملتها نقصت » وقوله : « تأخذ عن المطارحين الذين طرحهم كله تجميش و إنشادهم مراودة » وقوله : « وكل واقف فإلى نقصان أقرب » ، ونحن إذا أكثرنا من إيراد الشواهد من أقوال أبى عثمان ، فذلك لنخرج منها بدليل حسى نسقط به حجة خصومه فى دعواهم أنه كان يقول الشىء ونقيضه ، على أن هذا أيضاً ضرب من البلاغة ، وأسلوب من أساليب الصنعة ، ولا يتيسر مثله لغير أفراد فى البلغاء ، فقد يوفّى الكاتب موضوعه عند نفسه ، ويلوّنه للوصول إلى تعريفه ألواناً مُغْرية ، ولكنه قد لا يرضى غيره ولا يبلغ حاجته لأمور تنقصه .

استمع للجاحظ قطعة أخرى ينفض إليك فيها جملة حال النساك ويصنف لك طبقاتهم ، ويصف لك الدواعى التى أهابت بهم إلى التنسك المصنع ، فتركوا الكدح فى الحياة ، ورضوا أن يكونوا حَلَمة طفيلية تمتص رزق غيرها قال : « وجدنا لجميع أهل النقص ، ولأهل كل صنف منهم نسكا يعتمدون عليه فى الأعمال ، و يحتسبون به فى الطاعة وطلب المثوبة ، و يفزعون إليه على قدر فساد الطباع ، وضعف الأصل ، واضطراب الفرع ، مع خبث المنشإ ،

وقلة التثبت والتوقف ، ومع كثرة التقلب والإقدام مع أول خاطر ، فنسكُ المريب المرتاب من المتكلمين أن يتحلى برمى الناس بالريبة ، ويتزين بإضافة ما يجد فى نفسه إلى خصمه ، خوفاً من أن يكون قد فطن له ، فهو يستر ذلك الداء برمى الناس به ، ونسكُ الخارجي الذى يتحلى به ويتزيا بجماله ، إظهار استعظام المعاصى ، ثم لا يلتفت إلى مجاوزة المقدار ، وإلى ظلم العباد ، ولا يقف على أن الله تعالى لا يحب أن يظلم أظلم الظالمين ، وأن فى الحق ما وسع الجميع ، ونسكُ الخراسانى أن يحج وينام على قفاه ، ويفقد الرياسة ويتهيأ للشهادة ، ويبسط لسانه بالحسبة . وقد قالوا إذا نَسَكَ الشريف تواضع ، وإذا نسك الوضيع تكبر ، وتفسيره قريب واضح . ونسك الكوفى والجندى طرح الديوان وزيارة السلطان ، ونسك دهاقين السواد ترك شرب المطبوخ ، ونسكُ الخصى لزوم طرسوس ، وإظهار مجاهدة الروم ، ونسك الرافضى ترك النبيذ ، ونسك البستانى ترك سرقة الثمر ، ونسك المغنى الصلاة فى الجماعة ، وكثرة التسبيح والصلاة على النبى ، ونسكُ اليهودى التشدد فى السبت وإقامته ، والصوفى إظهار النسك بين المسلمين إذا كان فَسْلا[1] ببعض العمل تظرف وأظهر تحريم المكاسب وعاد سائلاً ، وجعل مسألته وسيلة إلى تعظيم الناس له . وإذا كان النصرانى فسلاً نذلاً مبغضاً للعمل ترهّب ولبس الصوف ، لأنه واثق أنه متى لبس وتزيا بذلك الزىّ وتحلى بذلك اللباس ، وأظهر تلك السيماء أنه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه ويكفوه ، ثم لا يرضى بأن رَبِح الكفاية باطلاً حتى استطال بالمرتبة . فإذا رمى المتكلم المريب أهل البراءة ظن أنه قد حوّل ريبته إلى خصمه ، وحوّل براءة خصمه إليه ؛ وإذا صار كل واحد من هذه الأصناف إلى ما ذكرنا فقد

(١) الفسل : الرذل الذى لا مروءة له كالمفسول ج أفسل وفسول .

بلغ الأمنية ووقف على النهاية ، فاحذر أن تكون منهم » .

وزاد فى مكان آخر ذاكراً الدواعى التى دعت الخصيان إلى التنسك ، فقال : « إن نسك الخصى غزو الروم لما أن كانوا هم الذين خصوه ، وقال إن نسكَ المتكلم التسرع إلى إكفار أهل المعاصى ، وأن يرمى الناس بالجبر أو بالتعطيل أو بالزندقة ، يريد أن يوهم أموراً منها أن ذلك ليس إلا من تعظيمه للدين والإغراق فيه ، ومنها أن يقال لو كان نَطِفاً [1] أو مرتاباً أو مجتنحاً [2] على بلية ، لما رمى الناس ولرضى منهم بالسلامة ، وما كان ليرميهم إلا للعز الذى فى قلبه ، ولو كان هناك من ذل الريبة شىء لقطعه ذلك عن التعرض لهم ، أو التنبيه على ما عدى أن حركهم له أن يتحركوا ، ولم نجد فى المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوباً ممن يرمى خصومه بالكفر » .

أرأيتم أبا عثمان يختم جملته الجميلة بقوله « فاحذر أن تكون منهم » يأتى بها بعد أن وصف النساك ووصف سخفهم ومضرتهم ، وبعد أن ثلبهم وأسقطهم حذر منهم . أسمعتموه يقول « ولم نجد فى المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوباً ممن يرمى خصومه بالكفر » والمتكلمون هنا رجال الدين ؛ ولِم لا يكره النساكَ ويدعو الناس إلى كراهتهم وهو الذى لا يقول بغير العمل فى المجتمع البشرى ؟ ومن مذهبه أن البارئ تعالى منح عبده عقلاً وعرفه طرق الخير والشر وهو مسؤول عن عمله ؛ ولعلك أدركت أيضاً أن خطاب الجاحظ فى النسك كان موجهاً لكل من يقرأ كلامه عربيًّا كان أم أعجميًّا ، مسلماً كان أم كتابيًّا ، موافقاً كان أم مخالفاً . لأن الكاتب كاره للنساك على هذا الوجه مهما كانت صورتهم

---

(١) النطف المتهم بريبة والفاسد .

(٢) يجتنح عليه يعتمد .

ونحلتهم ، يعتقد المضارّ التى يجلبونها على المجتمع الإنسانى عامة ؛ وكلام الجاحظ فيهم يبقى فى نفسك أثراً إذا تدبرته ، وهذا من صنعته وفنه ، ويد صَنَاع كيده لا تجرى فى غير إبداع ، فقد عقد فصلاً فى الشعر يكثر ويقل فى القبيل الواحد لدواع وبواعث ، لا لمكان الخصب من أرضهم ، ولا لأنهم أهل مدر وأكالو تمر ، وقد يكون غذاء بعضهم رديئاً ويأتى فيهم الشاعر « وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والأعراق مكانها » ، وقد ختم كلامه بقوله : « وما أعلم فى الأرض نعمة بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل ممدوحاً » .

وكذلك تأمل صنعته فى إبانته عن رأيه فى عدم تغليظ حجاب النساء : « ثم لم يزل الملوك والأشراف إماء يختلفن فى الحوائج ويدخلن فى الدواوين ، ونساء يجلسن للناس ... ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كنّ وأشدّ ما يتزيّن به ، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب ... والدليل على أن النظر إلى النساء كان ليس بحرام أن المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك ، فلو كان حراماً وهى شابة لم يحلّ إذا غنت ، ولكنه أمر أفرط فيه المعتدون حدَّ الغَيْرة ، إلى سوء الخلق وضيق العطَن[1] ، فصار عندهم كالحق الواجب » تدبر قوله ولكنه أفرط فيه الخ ، فإن فيه صنعة ؛ وكذلك قوله فى كتاب النساء : واسنا نقول ، ولا يقول أحد ممن يعقل ، أن النساء فوق الرجال ، أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ، ولكننا رأينا أُناساً يزرون عليهن أشد الزراية ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويبخسونهن أكثر حقوقهن ، وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام ، إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال ،

(١) يقال : فلان واسع العطن إذا كان رحب الذراع .

فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ، ولولا أن ناساً يفخرون بالجَلد وقوة المُنَّة ، وانصراف النفس عن حب النساء ، حتى جعلوا شدة حب الرجل لامَتِه وزوجته وولده دليلاً على الضعف ، وباباً من الخَوَر ، لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه فى هذا الكتاب . قال : ونحن و إن رأينا أن فضل الرجل على المرأة فى جملة القول فى الرجال والنساء أكثر وأظهر ، فليس ينبغى لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات ، وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات ، وأنا و إن كنت أرى أن حق هذا أعظم فإن هذه أرحم . انظر أيضاً هذه الجملة بل مجموع العبارة ألا ترى فيه جنساً من الكلام لا يحسنه كل إنسان .

دع هذا واستمع إلى أبى عثمان يكتب فى رسالته التبصر بالتجارة : « كل ثوب من اللباس والفرش ، إذا كان ألين وأنعم وأسنى كان أرفع ، وكل عِلق من الجواهر والأحجار ، إذا كان أصفى وأضوأ فهو أنفس ، وكل حيوان من الوحشية والأهلية ، إذا كان أجسم وأطوع فهو آثر وأفخر ، وكل إنسان من الشريف والوضيع ، إذا كان أعقل وأسهل فهو أجمل ، وكل امرأة حرَّة أو أمة ، إذا كانت أكثر سكوناً ، وأجمل حالا ، وأنزر طمعاً ، وأشكر للناس فهى أصون ، وكل طير من السهلية والجبلية ، إذا كان آلف كان آثر ، وكل طارف وتالد ، إذا كان أزكى وأجلّ فهو أهنأ ، وكل عدو صغير أو كبير ، إذا كان حميماً فهو أعدى وأشد حسداً ، ومن لم يعرف مأواه فمحذور قربه » تأمل هذه القوانين التى لا تتخلف ، وأنعم النظر فى قوله : « من لم يعرف مأواه فمحذور قربه » . أما هو من شريف القول الذى يستسيغه كل أحد و يذهب فى تأويله مذاهب ؟ ثم تراه فى هـذا الفصل يعود فيقول : والدول تنتقل ، والأرزاق مقسومة ، فأجملوا فى الطلب ، وارحموا المسكين ، واعطفوا على الضعيف ، تجازوا به وتثابوا ،

والقضاء جالب يجلب الأمور ، وخير النوم ما يذهب الإعياء والكسل . ومعرفة الأشياء بالحواس الخمس ، جودة الشيء بالنظر أن يكون حسناً رائقاً ، و بالخيشوم إذا كان طيباً أرِجا ، و بالمذاق إذا كان حلواً عذباً ، و بالسمع أن يكون صافى الوقع والصوت ، و باللمس أن يكون ليناً ناعماً . وكانت العجم تقول : القلب والبصر شريكان ، والطعم والحس متفقان ، والفطنة والحفظ رفيقان ، والسمع والمنطق مجتمعان . . . وزعم سابور الملك أنه ليس ينبغى للعاقل أن يعتد بقول سبعة من الناس : بقول السكران والدّلال والمضحك والعليل والعرّاف والنمام والنساء .

الجاحظ متعة النفس فى صنعته ، كيف قلّب يراعته فكتب ، وريحانة الأنس إذا جد وهزل ، تتجلى صنعته فى وصفه و روايته وحكايته ، وفى جداله وتقريره ، وفى تحقيقه ونقله ، وتطلُّ الأنفس على روحه من كل باب ، وحيث تقلبتَ فى رياض كلامه تشرف على ألوان الإحسان ، و يأسر عقلك إذا طالت عشرتك له فتستسلم إليه مؤمناً ، و إن كنت من ضعاف الإيمان فيما يحاول سوقك إليه ، واستتباعك فيه .

ونختم هذا بفصل صغير رسم فيه الجاحظ صورة أخرى من صُوَر صنعته ، فى موضوع جدّ ألبسه صورة الهزل وهو فى وصف الذباب ينال من قاضى البصرة ، ووصفه فى الحق « نهاية الفصاحة والاتساع » . قال : « كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار . لم ير الناس حاكما زميتاً [1] رَكيناً ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك . كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يتكئ ،

(١) الزميت : الوقور وكالسكيت أوقر منه .

فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا يَحلُّ حبوته ، ولا يُحلُّ[1] رجلا على أخرى ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبنى ، أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى مجلسه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، إذا بقى عليه شيء من قراءة العهود والشروط[2] والوثائق ، ثم يصلى العشاء الآخرة وينصرف . فالحق يقال لم يقم فى طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه فى طوال الأيام وفى قصارها ، وفى صيفها وفى شتائها . وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا عضواً ، ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ باليسير من الكلام إلى المعانى الكثيرة .

« فبينا هو كذلك ذات يوم (فى مجلسه) وأصحابه حواليه ، وفى السماطين بين[3] يديه . سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ، ثم تحول إلى موق عينه ، فرام الصبر فى سقوطه على الموق ، وصبر على عضته ، ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته ، أو يغضّن وجهه ، أو يذب بإصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن يوالى بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن

---

(١) فى رواية ولا يحول رجلا عن رجل ، والحبوة بالفتح والضم ، اسم من احتبى بالثوب اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٢) فى رواية من قراءة السجلات .

(٣) فى رواية والسماط بين يديه ، وسماط القوم بالكسر صفهم .

جفنه ، ثم عاد إلى موقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه فى مكان ، كان قد آذاه فيه قبل ذلك ، فكان احتماله أقل ، وعجزه عن الصبر عليه فى الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد فى شدة الحركة ، وألحّ فى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلحّ عليه حتى استفرغ صبره و بلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذبّ عن عينه بيده ففعل ، وعيون القوم ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ماردّ يده ، وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين مَن حضره من أُمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألجُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ، قال : واستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عزّ وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمتم أنى ، عند نفسى وعند الناس ، من أرزن الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (و إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) ، وكان بيّن اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً فى أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه فى نفسه ، ولا فى تعريض أصحابه للمنالة » .

ولا ينقص هذه الصورة البديعة إلا أن يمسك الجاحظ بريشة المصور ، ويعمد إلى أصباغه وليقته ، ليصور القاضى بقده وتقاطيع وجهه ورأسه وعينيه ووجنتيه ولحيته وسَبَلاته ويديه ورجليه وعمامته وقلنسوته أو دنيته وجبته وقفطانه وسراويله وحزامه وحذائه ، ليضيف إلى صورته صورة أخرى . صوّر قاضى البصرة صورة لا يصل إليها المصور المبدع ، صور لنا معنوياته ساعة سطا عليه

الذباب ، وصور ما بدر منه ، وما انطوى عليه من وقار فى جميع حالاته ، ثم أثنى على حسن سيرته وقلة فضوله ، فى جد كان الهزل فى معانيه وإشاراته ، لا فى ألفاظه ورصفها .

تقرينا جمال فن الجاحظ واستجليناه يتناول كل موضوع من عامة أطرافه ، لا يبقى حاجة فى نفس سامع وتالٍ ، شهدناه مهما تعنت متعنت من جهابذة النقد يستحيل عليه أن يقول إنه قال كذا ، وكان الأولى أن يقول كذا ، وهذا من بعد مرماه فى الصنعة .

علمه وبحثه :

تقدم أن الجاحظ لم تقف معارفه عند حد المنقول ، وأنه تعداها إلى الأخذ من كل معقول ، وأن العلوم التى اتجهت إليها همته ، أحذقته فأخرجت منه عالماً فوق العلماء ، ولم يكن صَحَفيا يأخذ من الكتب ما اتفق ، بل كان نظاراً محققاً يدرس الأشياء ، ويقتلها بحثاً وتنقيباً . كان منهاجه فى العلم مطولا واسعاً ، وهو فى كل ما خاض عبابه إخصائى وأعظم من كل إخصائى . يتناول كل ما يقع عليه الحس ، وتنظره العين ، وتتشوف إليه النفس . وليس نظره فى كل ما عانى النظر المجرد ، بل نظر « الفلسفة والغرائب التى صححتها التجربة ، وأبرزها الامتحان ، وكشف قناعها البرهان . » لا تراه وهو يفكر فيجيد التفكير ، ويبحث فيكشف عن الحقائق ، إلا داعياً إلى استعمال العقل ، وتجويد التفكير ، لأن « مع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة » وفى التفكير « مشحذة للأذهان ، ومنبهة لذوى الغفلة ، وتحليل لعقدة البلادة ، وسبب لاعتياد الروية ، وانفساح فى الصدور ، وعزاء فى النفوس ، وحلاوة تقتاتها الروح ، وثمرة تغذو العقل » .

قال : « إن كثرة السماع للأخبار العجيبة ، والمعانى الغريبة ، مشحذة للأذهان ، ومادة للقلوب ، وسبب للتفكير ، وعلة للتنقير عن الأمور ، وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً ، وأكثرهم تفكراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علماً أرجحهم عملا ، كما أن أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب ، ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الأعمى ، وصار البصير السميع أكثر خواطر من البصير الأصمّ » .

قال : « والذى صير الإنسان إلى استحقاق قول الله عز وجل : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً) ليس هو الصورة ، وأنه خلقه من نطفة ، وأن أباه خُلق من تراب ، وأنه يمشى على رجليه ، ويتناول حوائجه بيديه ، لأن هذه الخصال كلها مجموعة فى البله والمجانين ، والأطفال والمنقوصين . والفرق الذى هو الفرق ، إنما هو الاستطاعة ، والتمكن من وجوه الاستطاعة ، وجودة العقل والمعرفة ، أفتظن أن الله عز وجل يخص بهذه الخصال بعض خلقه دون بعض ، ثم لا يطالبهم إلا كما يطالب بعض من أعدمه ذلك وأعراه منه ؟ فلم أعطاه العقل إلا للاعتبار والتفكر ؟ ولِمَ أعطاه المعرفة إلا ليؤثر الحق على هواه ؟ ولم أعطاه الاستطاعة إلا لإلزام الحجة ؟ » .

وحذر المرء من الاغترار بما ألف وبما يعرض لقلبه بادئ الرأى . ورأى « أن الناس يحتاجون إلى طبيعة ، ثم إلى معرفة ، ثم إلى إنصاف ، وأول ما يبتدئ به صاحب الإنصاف أمره ، أن لا يعطى نفسه فوق حقها ، وأن لا يضعها دون مكانها ، وأن يتحفظ من شيئين ، فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما ، أحدهما تهمة الإلف ، والآخر تهمة السابق إلى القلب » . وقال : « فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل ، وللأمور

حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة » . « ولعمرى إن العيون لتخطئ ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إذ كان زماماً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس » .

دعا إلى التفكر ودعا إلى الملاحظة ، قائلا « لا تشفينى إلا الملاحظة » ودعا إلى الشك ؛ ومن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والحيرة كما قال الغزالى . أما هو فيقول : « اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها ، تعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلّم الشك فى المشكوك فيه تعلماً ، فلو لم يكن ذلك إلا تعرّف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه . ثم اعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم ، ولم يُجمعوا على أن اليقين طبقات فى القوة والضعف » . وقبله قال شيخه النظام : « الشاك أقرب إليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاده إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

ومع اعتقاده بما يكشفه العقل من حقائق الكون لم يتجاوز إلى أكثر مما كتب له إدراكه ، قال : « ولو وقفت على جناح بعوضة وقفة معتبر ، وتأملته تأمل متفكر ، بعد أن تكون ثاقب النظر ، سليم الآلة ، غواصاً على المعانى ، لا يعتريك من الخواطر إلا على حسب صحة عقلك » . وقال : « والإنسان وإن أُضيف إلى الكمال ، وعرف بالبلاغة ، وفاتش العلماء ، فإنه لا يكمل أن يحيط علمه بكل ما فى جناح بعوضة أيام الدنيا ، ولو استمد بكل نظار عظيم ، واستعان بكل بحاث واعٍ ، وكل نقّاب فى البلاد ودراسة للكتب ، وما أشك أن عند الوزراء فى ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء . وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء ،

وعند الأنبياء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند الأنبياء ، وما عند الله عز وجل أكثر ، والخلق فى بلوغه أعجز » . قال لو كان الأمر « على ما يشتهيه الغرير[1] ، والجاهل بعواقب الأمور ، لبطل النظر وما يشحذ عليه ومايدعو إليه ، ولتعطلت الأرواح من معانيها ، والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها » .

أهاب بالنفوس أن لا تغتر بما ألفت وسمعت ، وأن لا تهوى الغرائب إلا بامتحانها والنظر فيها ، وحبب التكشيف والتنقيب ، ودعا إلى العقل فى النطاق الذى يتأتى الخوض فيه قائلاً : « وباب من هذا الشكل فيكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه ، وتقفوا عنده ، وهو ما يضع الخبر السابق إلى السمع ، ولا سيما إذا صادف من السامع قلة تجربة ، فإن قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ ، دخل ذلك الخبر السابق إلى مستقره دخولاً سهلاً ، وصادف موضعاً وطيئاً ، وطبيعة قابلة ، ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة فى إزالته » . وقال : « إن الناس قد استغنوا عن التدبر ، وكفوا مؤونة البحث والتنقير ، لقلة اعتبارهم ، ومن قل اعتباره قلّ علمه ، ومن قلّ علمه قلّ فضله ، ومن قلّ فضله كثر نقصه ، ومن قل علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمد على خير أتاه ، ولم يذم على شر جناه ، ولم يجد طعم العزّ ، ولا سرور الظفر ، ولا رَوْح الرجاء ، ولا برد اليقين ، ولا راحة الأمن » .

كان إذا رأى أن « ليس إلى رد الخبر سبيل لمواترته ومرادفته ، ولأن العيان قد حققه ، والتجربة قد ضمت إليه » زاد اعتقاداً فيما كان لا يعتقده ولا يعتقده كثير غيره . ويريد الناس أبداً أن يجربوا بأنفسهم فقد ذكر عند

(١) الغرير المخدوع أو الشاب لا تجربة له .

كلامه على أقوال العلماء أن عرق الخال أنزع من عرق العم ، وأن نصيب الأمهات فى الأولاد أكثر ، وأنها على الشبه أغلب — أن أكثر ما تلد الأمهات الأناث ، وكذلك الناس وجميع الحيوانات قال : فإذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشر دور من يمينك وعشر من شمالك ، وعشر من خلفك وعشر من أمامك ، فانظر أيها أكثر رجالهم أو نساؤهم .

ونبَّه أرباب العقول إلى من يعبث بها ، فقال : « وقد ابتلينا بضربين من الناس ، ودعواهما كبيرة ، أحدهما أن يبلغ من حبه للغريب أن يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين ، وقلبه قراراً لغرائب الزور ، ولكلفه بالغريب وشغفه بالطُّرف ، لا يقف على التصحيح والتمييز ، فهو يدخل الغث فى السمين ، والممكن فى الممتنع ، ويتعلق بأدنى سبب ، ثم يدفع عنه كل الدفع ، والصنف الآخر هو أن بعضهم يرى أن ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم ، إلا من خَاف التقذر[1] من الكذب » . وقال فى التحذير من صنف من هذه الأصناف المضرة : « وهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم ، ويتهمون الكتب ، وتضرهم كثرة أتباعهم ، ممن تجده مُسْتَهْتَراً بسماع الغريب ، ومغرماً بالطرائف والبدائع ، ولو أعطوا بدلاً من هذا الاستهتار نصيباً من التثبت ، وحظاً من التوقى ، لسلمت الكتب من كثير من الفساد » .

ويحذركَ جهرة من تخريف المخرفين من العوام ، والمضلين ممن كان بسبيلهم من الخواص ، لأن فى الخواص دجالين أيضاً ، وإن كانوا مؤلفين ومشهورين ، قال إنهم « لا يدينون بالحقيقة ، ولا يحمدون إلا ظاهر الحيلة ، ومن الدليل على نذالة طبعهم ، والعلم بسفالة رأيهم ، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه ، وقضاؤهم

(١) التقذر : الاجتناب من قذر الشىء كرهه واجتنبه .

بالعلم لمن لا يعرفونه » . وهو يرى بعض الخواص أضرّ على سير العقل من العوام ، ولطالما حزّت بلاهة الخواص فى قلبه ، وهو لا يبرح يهزأ بهم ، ويبين مناشئ المضعوف من رواياتهم ويعلم « أن الناس موكلون بحكاية كل غريب ، وميسرون للإخبار عن كل عظيم ، وليسوا للحسن أحكى منهم للقبيح ، ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر ، وعلى قدر كبر الشيء تكون حكايتهم له واستماعهم إليه » ، « وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة ، والتثبت عند الحكومة[1] جانباً ، وأعرضوا عنه صفحاً ، فليس إلاّ لا أو نعم . إلا أن قولهم لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم نعم ، موصول منهم بالرضا ، وقد عزل الحق جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن » .

وعلل التخريف فى الناس ، وفشو الجهل فيهم بقوله : « الناس لم يؤتوا فى اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظر ، ولكن للناس تأس وعادات ، وتقليد للآباء والكبراء ، ويعملون على الهوى ، وعلى ما يسبق إلى القلوب ، ويستثقلون التحصيل ، ويهملون النظر ، حتى يصيروا فى حال متى عاودوه وأرادوه ، نظروا بأبصار كليلة ، وأذهان مدخولة[2] ، مع سوء عادة ، والنفس لا تجيب إذا كانت مستكرهة ، وكان يقال الطبع إذا كره عمى ، ومتى عمى الطبع جسا[3] وغلظ وأهمل ، حتى يألف الجهل ، ولم يكن يفهم ما عليه وله » . فهو من هذا النظر يربأ بمن يحاول تعليمه عن تقليد من يرى تقليدهم ، ويريده أبداً على أن ينظر بعقله ، ويستثبت الأخبار ، ولا يستمع لنقلة

---

(١) الحكومة : القضاء .

(٢) المدخول : المهزول ومن فى عقله دخل ، ونخلة مدخولة عفنة .

(٣) جسا كدعا جسواً صلب وجاساه عاداه .

الغرائب منها ، وأن يستند أبداً على التجربة والملاحظة ، وأن يرى الأمور مع عللها وبرهاناتها ، يريده على أن يلاحظ ويتدبر ويحس ، ويكون فى حسه صادقاً حازماً ، لا يتمهن شيئاً فى عالم الكون والفساد ، يهتم للذرة كما يهتم للدُّرة ويقول : « أُوصيك أيها القارئ المتفهم ، وأيها المستمع المنصت المتصفح ، أن لا تحقر شيئاً أبداً لصغر جثته ، ولا تستصغر قدره لقلة ثمنه ، ثم اعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة ، ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدل على الله من بدن الإنسان ، وأن صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله » .

فكأن الفيلسوف ديكارت فى القرن السابع عشر — وكان يقول بعدم التسليم بشىء إلا بعد فحصه بنور العقل وتحقق وجوده ، وبرفض كل ما قام على الظن والتخمين ، وما ألفته العادة وأتى من العُرف — كأنه قرأ الجاحظ وعرف فلسفته فى هذا الشأن ، ونغمتهما فى هذا المعنى متشابهة ، كأن الواحدة متممة للأخرى ، أو الأخرى أخذت عن الأولى .

وكأن الجاحظ وهو يدعوك إلى الاستنباط لا إلى الحفظ والاستظهار يقول برأى أحدث علماء التربية من أهل الحضارة اليوم ، وعبارته : « وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودةَ الحفظ لمكان الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التميز ، حتى قالوا الحفظ عذق الذهن لأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، والاستنباط هو الذى يفضى بصاحبه إلى برد اليقين ، وعز الثقة ، والقضية الصحيحة ، والحكم المحمود ، أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضرّ ذلك بالحفظ » .

الجاحظ يردم المنافذ التى تتسرب منها الجهالات ، وينحى على من يضال الناس ، ويبيع منهم سلعاً فاسدة . وقد بلغ من حريته فى البحث ، وغيرته على

العلم ، و بعد نظره فى المسائل ، أن ردَّ على شيخه النظام وقال إن عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه ، وجودة قياسه على العارض ، والخاطر السابق الذى لا يوثق بمثله ، وأنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه ، و ينسى أن بدءَ أمره كان ظناً ، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه . وقال مرة فى شيخه الآخر أبى عبيدة : « ولولا أن أكون عياباً ثم للعلماء خاصة ، لصورت لك بعض ما سمعت من أبى عبيـدة ومن هو أبعد فى وهمك من أبى عبيدة » . ويلوم من ينقلون الأخبار بدون نقد ، وممن لامهم على ذلك ، أبو زيد الأنصارى ، وثقه من جهة وأنكر عليه من أخرى تساهله فى التعليق على الروايات المدخولة . فهو يرى العلم وصحة النظر فوق كل اعتبار ، ولا كبير عنده أمام النقد ، وفى ميدان الجدال و إحقاق الحق ، قال فى رجل نظر بعض النظر تصويب العلمـاء لبعض الشكاك حتى زعم أن الأمور كلها يعرف حقها و باطلها بالأغلب إنه « مات ولم يخلف عقباً ، ولا واحداً يدين بدينه ، فلو ذكرت اسمه مع هذه الحال لم أكن أسأت ، ولـكنى على حال أكره التنويه بذكر من تحرم بحرمة الـكلام ، وشارك المتكلمين فى أسماء الصناعة ، ولا سيما إن كان ممن ينتحل تقديم الاستطاعة » .

وقال مرة : « ورأينا أقواماً يدعون فى كتبهم الغرائب الـكثيرة والأمور البديعة ، و يخاطرون من أجل ذلك بمروءتهم ، و يعرضون بأقدارهم ، و يساطون السفهاء على أعراضهم ، ويجرون سوء الظن إلى أخبارهم ، ويحكمون حساد النعم فى كتبهم ، ويمكنون لهم من مقاليدهم ، و بعضهم ينظر على حسن الظن بهم ، أو على التسليم لهم والتقليد لدعواهم ، وأحسنهم حالاً من يحب أن يتفضل عليه ببسط العذر له ، و يتكلف الاحتجاج عنه ، ولا ينافى أن يمنَّ بذلك على عقبه ،

أو من دان بدينه ، أو اقتبس ذلك العلم من قبل كتبه » .

وناقش غير مرة أرسطو فى كتاب الحيوان ورد عليه فى بعض استقراءاته وقال فيه : « وزعم صاحب المنطق فى كتاب الحيوان فيما سلف من الدهر أن ثوراً سَفِد وألقح من ساعته بعد أن خُصى » قال : « فإذا أفرط المادح فى المدح ، وخرج من المقدار ، وأفرط المتعجب فى التعجب ، وخرج من المقدار ، احتاج صاحبه إلى أن يثبته بالعيان ، أو بالخبر الذى لم يكذب مثله ، و إلا فقد تعرض للتكذيب ، ولو جعلوا بدل حركتهم خبراً وحكاية ، وتبرأوا عن عينه ما ضرّهم ذلك ، ولكان أصون لأقدارهم وأتم لمروآت كتبهم » . ورد عليه دعواه فى أن إناث العصافير أطول أعماراً ، وأن ذكورها لا تعيش إلا سنة . ورد عليه زعمه أن فى بلدة طبقون[1] حية صغيرة شديدة اللذع ، إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك ، فقال لم أفهم هذا ولم كان ؟ وردّ عليه زعمه أن الطير الكبير الذى يسمى باليونانية اعيتوليس يجلب الدارصينى[2] من موضعه فيفرش به عشه فقال : « لست أدفع خبر صاحب المنطق عن خبر الدارصينى ، و إن كنت لا أعرف الوجه فى أن طائراً ينهض من وكره فى الجبال أو بفارس أو باليمن فيؤم ويعمد نحو بلاد الدارصينى وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه ، وليس يخلو هذا الطائر أن يكون من الأوابد ، و إن كان من القواطع[3] ، فكيف يقطع

---

(١) لعلها طيسفون مدينة كسرى التى فيها الايوان على ثلاثة فراسخ من بغداد وطيسفون أيضاً قرية بمرو أما طيفون أو طيقون فلم نجد لها ذكراً .

(٢) الدارصينى : شجر هندى يكون بتخوم الصين كالرمان تعريب دارچينى أى شجرة الصين .

(٣) قال أبو زيد الأنصارى : إذا كان الشتاء قطعت إلينا الطير والغربان (أى جاءت) من بلادها فهى قواطع وإذا كان الصيف رجعت فيه فهى رواجع ، والطير التى تقيم بأرضنا صيفاً وشتاء أوابد .

الصحصحان[١] الأملس و بطون الأودية وهضاب[٢] الجبال ، بالتدويم فى الجواء والمضىّ على السمت ، لطلب ما لم يره ولم يشمه ولم يذقه ، وأخرى فإنه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشاً له ومهاداً إلا بالاختلاف الطويل ، وليس بالوطىء الوثير ، ولا هو له بطعام . فأنا و إن كنت لا أعرف العلة ، فلست أنكر الأمور من هذه الجهة فأنكر هذا » . والجاحظ ينظر إلى الحيوان فى تولده ونشأته وموطنه وخصائصه وتربية صغاره وزقها و إطعامها من لبن أو لعاب أو نبات أو غير ذلك ، و يعرف تأثره بالحر والبرد و بالشمس والظل ، وحَذَره من الآدميين إلى غير ذلك ، فكيف يجوز له عقله أن يقطع ذاك الطير ألوفاً من الأميال ليبنى عشه بمادة ليست له طعاماً ولا هى مما يستلينه ، ما دام عقله رائده الذى لا يكذب ، وخليله بحثه ونظره .

وقال فى رأى أرسطو وزعمه أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان لطول مكثه فى بطنها : « وهذا جائز فى ولد الفيل غير منكر ، لأن جماعة نساء معروفات الآباء والأبناء قد ولدن أولادهن ، ولهم أسنان نابتة كالذى رووا فى شأن مالك بن أنس ومحمد بن عجلان وغيرهما ، وقد زعم ناس من أهل البصرة أن خاقان بن عبد الله الأهتم استوفى فى بطن أمه ثلاثة عشر شهراً ، وقد مُدح بذلك وهجى ، وليس ذلك بالمستنكر ، و إن كنت لم أر قط قابلة تقرُّ بشىء من هذا الباب ، وكذلك الأطباء ، وقد رووه كما علمت ، ولا أقر أن الولد يخرج رأسه من بطن أمه حتى يأكل شبعه ثم يدخل رأسه ، ولست أراه محالاً ولا ممتنعاً فى القدرة ولا فى الطبيعة ، وأرى جوازه موهو باً

---

(١) الصحصح والصحصاح والصحصحان ما استوى من الأرض .

(٢) الهضبة : الجبل المنبسط على الأرض أو جبل خلق من صخرة واحدة ج هضب وهضاب وأهاضيب .

غير مستحيل ، إلا أن قلبي ليس يقبله . وليس فى كونه ظلم ولا عيب ولا خطأ ، ولا يقصر فى شىء من الصفات المحمودة ، ولم نجد القرآن ينكره والإجماع يدفعه ، والله هو القادر دون خلقه ، ولست أبت بإنكاره ، وإن كان قلبي شديد الميل إلى رده ، وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ، ولا يعرف إلا بالعيان الباهر ، والخبر المتظاهر » أى أنه فى هذه المسألة سأل القابلات والأطباء فما صححوا له هذا الخبر ، ولذلك رده قلبه مع أن القدرة لا تدفعه ، والطبيعة لا تنكره ، والشريعة لا ترده ، وإن كان من الأمور التى لا تعرف بالقياس بل بالعيان .

مثال آخر من نقده العلمى : هزأ ببعض المفسرين فى دعواهم أن السنور خُلق من عطسة الأسد ، وأن الخنزير خُلق من عطسة الفيل عند ما زعموا « أن أهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا ، سأل ربه الفرج ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس ، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأنثى من المنخر الأيسر ، فكفاهم مؤونة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهم [1] شكوا ذلك إلى نوح ، فشكى إلى الله تبارك وتعالى ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح فسلح خنازير ، فكفوهم مؤونة رائحة ذلك النجو » قال : « وهذا الحديث نافق عند العوام ، وعند بعض القصاص » .

مثال غيره : وقد قال الناس فى قوله تعالى (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين) ، فزعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن ، لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا ما عنى إلا شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومَرَدتهم ، فقال

(١) النجو : ما يخرج من البطن من ريح أو غائط ، والسلاح كغراب النجو ، وسلح كمنع وأسلح .

أهل الطعن والخلاف كيف يجوز أن يضرب المثل لشيء لم نره فنتوهمه ؟ ولا وصف لنا صورته فى كتاب ناطق أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها ، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ فى الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون إنسان كذلك ، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، أو صوره لهم واصف ، صادق اللسان ، بليغ فى الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق ... « وكل قول يكذبه العيان ، فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهباً ، وأدل على معاندة شديدة ، أو غفلة مفرطة » .

وبعد فإنك ترى الجاحظ وهو يطلق العنان لقلمه فى كتاب الحيوان ، يزيف الخرافات والترهات ، فى عصره وقبل عصره ، ويورد عليك نقداته ومباحثاته ، فيقع فى نفسك أنه لو جاء كثير مثله فى عقلاء العلماء لخلت كتب الأقدمين من الإسرائيليات والسخافات ، مما تخيله من دخلوا فى الإسلام حقائق أو رقائق ، وأنه لا يضر الدين إذا جعل على هامشه ، فوسعوا بما وضعوا دائرة الخيالات ، وبهرجوا ديناً ساذجاً ، وما كان ما أدخلوه فيه من أصله ولا من متنه .

ثم تأمل قوله : « رووا عن واثلة إياس بن معاوية ، أنه زعم أن من الدليل على أن الشبوط كالبغل ، أن الناس لم يجدوا فى طول ما أكلوا الشبابيط فى جوفها بَيْضاً قط . فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل ، المنعوت بثقوب الفراسة ، ودقة الفطنة صحيحاً ، فما أعظم المصيبة علينا فيه ، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً ... » ، ومثله قوله فى رد قول العوام فى الكركدن وضربهم المثل به فى الشدة والقوة . قال : وتزعم أنه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواحد الذى فى وسط جبهته ، فلا يشعر بمكانه ولا يحس حتى ينقطع

على الأيام ، وهذا القول بالخرافة أشبه ، وأعجب من القول فى ولد الكركدن ، ما يخبرنا به ناس من أهل النظر والأدب وقراءة الكتب ، وذلك أنهم يزعمون أن النمرة لا تضع ولدها أبداً إلا وهو متطوق بأفعى ، وأنها تعيش وتنهش ، إلا أنها لا تقتل » ، قال : « ولو كنت أجسر فى كتبى على تكذيب العلماء ، ودرّاس الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر » .

ومما قال : « وفى السمندل لآية غريبة ، وصفة عجيبة ، وداعية إلى التفكر وسبب التعجب ، وذلك أنه يدخل أتون النار فلا تحترق له ريشة » . وقال فى مكان آخر : « خبرت عن فأرة البيش[1] واغتذائها السموم ، وعن الطائر الذى يدعى السمندل وطيرانه فى جاحم الأتون ، فلا السم المجهز يضر بتلك الفأرة ، ولا النار المضطرمة تحرق من ذلك الطائر زغبه » . وقال : هذا الطائر فى طباعه وفى طباع ريشه مزاج من طلاء النفاطين ، وأظن هذا الطلاء من طَفَل وخِطمى ومَغْرَة . وقد كنت رأيت عوداً يؤتى به من ناحية كرمان لا يحترق ، وكان عندنا نصرانى فى عنقه صليب منه ، وكان يقول لضعفاء الناس : هذا العود من الخشبة التى كان المسيح صُلب عليها ، والنار لا تعمل فيه ، فكان يكتسب بذلك ، حتى فطن له وعورض بهذا العود . وزعم ثمامة أن الإنسان إن أخذ من هذا الطَّحلب الذى يكون على وجه الماء فى مناقع المياه فجففه فى الظل وأحرقه فإنه لا يحترق .

ومما قال : « ومما لا أكتبه لك من الأجناس العجيبة التى لا يجسر عليها إلا كل وَقَاح أخبار بعض العلماء ، وبعض من يؤلف الكتب ليقرأها

(١) البيش بالكسر : نبات كالزنجبيل رطباً ويابساً ، وربما نبت فيه سم قتال لكل حيوان وترياقه فأرة البيش ، وهى فأرة تتغذى به والسمانى تتغذى به أيضا ولا تموت ، ودواء المسك يقاومه (القاموس)

الناس ، ويدارس أهل البصرة ويحفظها ، زعموا أن الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى ، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته . . . . »

من جملة علوم الجاحظ الطب والكيمياء والظواهر الجوية والطبيعية والأخلاق وعلم النفس ، ألف فى المعادن والأصباغ كما ألف فى التجارة ، ونقل عن حُنين بن إسحق وبُختيشوع وسلمويه وغيرهم من علماء عصره . وكان يعرف النقص فى كتب الأطباء والعلوم حتى قال : « وما كان أحوجنا وأحوج جميع المرضى أن يكون جميع الأطباء متكلمين ، وإلى أن يكون المتكلمون علماء . فإن الطب لو كان من نتائج حذاق المتكلمين ومن تلقيحهم له لم نجد فى الأصول التى يبنون عليها من الخلل ما نجد » . وكان يتوفر على تربية بعض الأشجار والنبات توفره على تربية بعض الدواجن وغيرها من الحيوانات ، ليصدر إذا كتب عن خبرة . وقد ألف فى الأشجار كتاباً قالوا إنه بإمتاعه ككتاب الحيوان . وكان شعاره : « إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئاً فاعلم أنه ما يريد أن يفلح » ، وقال : « وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس ، وله مضرة شديدة ، وثمرة مرة ، فمن أضرّ ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئاً ، قال : فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة فى أسماعهم ، تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا » .

من أجل هذا توسع الجاحظ فى بحثه ، وكان على علمه الفياض يسأل جميع طبقات الناس عما يهمه ويريد أن يتفهمه ، فيصف الماديات والمحسوسات ، ويسترشد حتى بآراء الحراس ، ويتحدث حتى إلى الحُواة والجزارين وأرباب الصناعات ، ويسأل الحشوة وأرباب البطالة ، وقد يأخذ بآراء البحريين إذا رووا له غرائب قبلها عقله ، أو يردها ولا يقرها إذا كانت حديث خرافة . ويتحدث

إلى كل من عنده « ظرائف من الكلام ، وعجائب من الأقسام » وقد روى أشياء كثيرة عن الأعراب فى البادية وعن العامة فى المدن ، فالحكمة ضالته يلتقطها حيث يجدها .

قال فى رسالة « الحنين إلى الأوطان » : رأيت عبداً أسود حبشياً لبنى أسد قدِم من شق اليمامة فصار ناطوراً ، وكان وحشاً مجنوناً لطول الغربة مع الإبل ، وكان لا يلقى إلا أكرة فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم ، فلما رآنى سكن إلىَّ وسمعته يقول : لعن الله أرضاً ليس بها عرب ، قاتل الله الشاعر حيث يقول :

حر الثرى مستعرب التراب

أبا عثمان إن هذا العريب فى جميع الناس كمقدار القرهة فى جلد الفرس ، فلولا أن الله رقّ عليهم فجعلهم فى حشاة لطمست هذه العجم آثارهم اه . فالجاحظ لم يحتقر هـذا الحديث الذى بدر عن لسان عبد مستوحش وأورده مثالاً على موضوعه فى الوحشة التى تعترى النازح عن وطنه . ونحن بهذا الحديث القصير أيضاً أدركنا أن العراق لم يكن تعرَّب كله فى طرفى المائة الثانية والثالثة ، وأن أكرته وفلاحيه ظلوا على سريانيتهم ، وأن العرب كانوا إلى قلة على كل حال .

ولم نر أبا عثمان على كثرة ما خاض غماره من الأبحاث مسَّ الموضوعات التاريخية بالمعنى الذى بدأ المؤرخون فى عصره يخوضون فيه ، على طريقة الرواية وتصحيح السند . ور بما لم يهمه ذكر الحروب ووصف الملوك فى عدلهم وجورهم ومولدهم وتوليهم وموتهم ، ولا حديث أعدائهم وفتن بلادهم ومشاغبهم ومتاعبهم ومؤامراتهم ودسائسهم ، ولا طبقات الرجال فى موالدهم ووفياتهم ، وما صرفوا فيه عقولهم وأعمارهم وخلفوه من مآثرهم . بل كان التاريخ الذى شغل

قلمه وقلبه وصفَ الناس وذكر أخبار من عاصرهم مما فيـه تعليم وتثقيف . فهو المؤرخ الاجتماعى فى عصره ، يورد لك من مشاهداته ومروياته ما يوسع أُفق نظرك ، ويدلك على مواطن الحسنات والسيئات فى عامة من تألّف منهم مجتمعه .

رأى التاريخ السياسى وتاريخ الرجال ضيق المضطَرب ، وقد تسربت إليه أخطاء لا يقرها ، فأرّخ للأمة ، والكلام فيها واسع المجال ، وكما كان فى التاريخ هو فى الفلسفة . قرأ ما كُتب وتُرجم فى عصره ، فما نقل آراء أرسطو مستحسناً لها كلها ، ولا شغف بأفلاطون ولا بغيره من فلاسفة اليونان ، بل طبق العلوم المادية وعلوم الحياة والأحياء وعلم الاجتماع على النظر الفلسفى . فأهمه من الفلسفة روحها ، وابتعد عما قد يكون فيها من خيال ومحال ، و بعبارة ثانية أنه كان من أصحاب النظر العملى ، وما تعدى فى الإلهيات حيّز المنطق الصحيح ، والمصادر السليمة التى تدعمها الحجة ولا ينكرها إلا مكابر .

يقول لك حيناً : إن « غرائب الدنيا كثيرة عند كل من كان كَلِفاً بتَعرافها وكان له فى العلم أصل ، وكان بينه و بين التبيين نصيب ، وأكثر الناس لا تجدهم إلا فى حالتين : إعراض عن التبيين ، و إهمال النفس ، و إما فى حالة تكذيب و إنكار ، وتسرع إلى أصحاب الاعتبار ، وتتبع الغرائب ، والرغبة فى الفوائد . ثم يرى بعضهم أن له بذلك التكذيب فوائد ، وأن ذلك من باب التوقى ، وجنس من استعظام الكذب ، وأنه لم يكن كذلك إلا من حاز الرغبة فى الصدق ، أو تبين الشىء معاندة للإقرار وقهراً بالحق » .

ومن استقرائه العلمى فى الذباب قوله : « وعندنا بالبصرة فى الذباب أُعجوبة ، لو كانت بالشامات[1] أو بمصر لأدخلوها فى باب الطّلسم . وذلك أن التمر يكون

(١) الشامات : بلاد الشام .

مصبوباً فى بيادر التمر فى شق البساتين ، فلا ترى على شىء منها ذبابة ، لا فى الليل ولا فى النهار ، ولا فى البرد ولا فى أنصاف النهار . نعم وقد تكون المعاصر ، ولأصحاب المعاصر ظلال ، ومن شأن الذباب الفرار من الشمس إلى الظل ، و إنما تلك المعاصر بين تمرة رطبة ودبس ، ثم لا تكاد ترى فى تلك الظلال والمعاصر فى انتصاف النهار ، وفى وقت طلب الذبان الكنّ ، إلا دون ما تراه فى المنزل الموصوف بقلة الذبان . وهذا شىء يكون موجوداً فى جميع الشق الذى فيه البساتين . فإن تحول شىء من تلك البادية إلى جميع ما يقابلها فى نواحى البصرة غشيه من الذبان ما عسى أن لا يكون بأرض الهند أكثر منه . وليس بين جزيرة دُبَيْس و بين موضع الذبان إلا فيض البصرة ، ولا بين ما يكون من ذلك بنهر أذرب و بين موضع الذبان مما يقابله إلا فرسخان ، وهو ذلك التمر وتلك المعصرة ، ولا تكون تلك المسافة إلا مائة ذراع أو أزيد شيئاً أو أنقص شيئاً .

وأعجوبة أخرى ، وهى عندى أعجب من كل شىء صدَّرنا به جملة القول فى الذباب . فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والتنوط ، فإنهما إذا كان الليل فإن أحدهما يتدلى من غصن الشجرة و يضم عليه رجليه و ينكس رأسه ، ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور ، والآخر لا يزال ينتقل فى زوايا بيته ، ولا يأخذه القرار خوفاً على نفسه ، فلا يزال كذلك ، وقد نتف قبل ذلك مما على ظهور الأشجار ما يشبه بالليف ، فنفشه ثم فتل منه حبلا ، ثم عمل منه كهيئة القفة ، ثم جعله مدلًّى بذلك الحبل ، وعقده بطرف غصن من تلك الأغصان ، إلا أن ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة ، ثم يتخذ عشه فيه ، و يأوى إليه مخافة على نفسه » .

* * *

كأن الجاحظ كان كالطائر يتنقل من شجرة إلى شجرة ، ومن حديقة إلى حديقة ، يلتقط الزهرة والحبة ، ومن كان يظن أن الرجل الذى يؤلف فى علوم الدين والجدل والرد على المخالفين ، وهو فى أصله إمام دينى وصاحب مذهب وعَلَم من أعلام الشريعة — من كان يظن أنه يؤلف فى الحيوان وفى الزرع وفى الشجر والنخل ، وفى كل ما يعرض له من الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والأدبية — من كان يظن أن للجاحظ كتاباً فى الأمصار وعجائب البلدان أشبه بكتاب البلدان لابن الفقيه ، رآه المسعودى ووصفه بأنه فى نهاية الحسن ، قال : « وإن كان الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ولا تقرا[1] الممالك والأمصار . » نعم ما رحل الجاحظ رحلات المسعودى ، واقتصر على الرحلة فى أرض العراق والشام والجزيرة وفارس والروم و بلاد العرب فقط ، وليس من الميسور لكل إنسان فى دهره أن يطوف الأرض ، فإن هذا ما كان يتيسر إلا للفرد بعد الفرد ، وفى العصر بعد العصر .

وصف الجاحظ الأهواز وهواءها وتأثيرها فى الطباع والأجسام ، ووصف تأثير الهواء فى الإنسان والحيوان فى حرّة بنى سُلَيْم ، فقال بتأثير البيئة فى الكائنات الحية . فإن كان وصفه الأمصار فى جغرافيته كوصفه أهل الأهواز ، وهو ما نعتقده ، فإنه من أحسن ما كتب فى الجغرافية الإنسانية والطبيعية والوصفية . قال فى الأهواز : « إنها قلبت كل من نزلها من بنى هاشم إلى كثير من طباعهم وشمائلهم ، ولا بد للهاشمى قبيح الوجه كان أو حسناً ، أو دميماً كان أو بارعاً رائعاً ، من أن يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش

(١) يقال قرا الأمر واقتراه تتبعه وقروت البلاد قروا تتبعتها أرضاً أرضا وسرت فيها كاقتريتها واستقريتها وتقريتها . وقال اللحيانى قروت الأرض سرت فيها ، وهو أن تمر بالمكان ثم تجوزه إلى غيره ثم إلى موضع آخر . وقال الأصمعى : قروت الأرض إذا تتبعت ناساً بعد ناس .

وجميع العرب . فلقد كانت البلدة تنقل ذلك فتبدله . ولقد تحيفه وتدخل الضنى عليه ، وتبين أثرها فيه ، فما ظنك بصنيعها فى سائر الأجناس ، ولفساد عقولهم ، ولؤم طبع بلادهم ، لا تراهم مع تلك الأموال الكثيرة ، والضياع الفاشية ، يحبون من البنين والبنات ما يحبه أوساط أهل الأمصار ، على الثروة واليسار ، والمال مَنْبَهة كما تعلمون ؛ وقد يكتسب الرجل من غيرهم المويل اليسير فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤَدبين ، ولا يرضى للسانه بمثل الذى كان يرضاه قبل ذلك . وليس فى الأرض صناعة مذكورة ، ولا أدب شريف ، ولا مذهب محمود لهم فى شىء منه نصيب وإن حَسُن . ولم أر بها وجنة حمراء لصبى ولا صبية ، ولا دماً ظاهراً ولا قريباً من ذلك ، وهى قتالة للغرباء ، على أن حُمَّاها خاصة ليست للغريب بأسرع منها إلى القريب ، ووباها وحماها فى وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمى عن جميع البلدان ، وكل محموم فى الأرض فإن حماه لا تنزع عنه ولا تفارقه ، وفى بدنه منها بقية . فإذا نزعت عنه فقد أخذ منها عند نفسه البراءة إلى أن يعود إلى الخلط ، وأن يجمع فى جوفه الفساد ، وليست كذلك الأهواز لأنها تعاود من نزعت عنه من غير حدث ، كما تعاود أصحاب الحدث لأنهم ليسوا يُؤتون من قِبَل النَّهم ، ومن قبل الخلط والإكثار ، وإنما يؤتون من عين البلدة » . وقال أيضاً : رب بلد يستحيل فيه العطر وتذهب رائحته كقصبة الأهواز .

وقال فى حَرَّة بنى سُلَيْم فى عالية نجد : « إنهم ليتخذون المماليك للرعى والسقى والمهنة والخدمة من الروميين والصقالبة مع نسائهم ، فما يتوالدون ثلاثة أبْطن حتى تقلبهم الحَرَّة إلى ألوان بنى سُلَيم . ولقد بلغ من أمر هذه الحَرَّة أن ظباءها ونعامها وذئابها وثعالبها وحميرها وخيلها وإبلها كلها سود ، قال والسواد والبياض هما من قبل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء والتربة . ومن قبل

قرب الشمس و بعدها ، وشدة حرها ولينها ، وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقبيح ، على أن حَرَّة بنى سُلَيم تجرى مجرى بلاد الترك ، فإنك إذا رأيت الترك ، ورأيت إبلهم ودوابهم ، وكل شىء لهم حسبته شيئاً واحداً ، وكل شىء لهم تركى المنظر » .

و بهذا رأيناه يقول بتطور الأحياء بحسب البيئة وتعاقب الأيام ، و يعلل ذلك تعليلاً مقبولاً كما يعلل أشياء أخر مثل عذوبة المطر والثلج ، وملوحة مياه البحر . وكل ما وصفه من أنواع الحيوان وصفه وصفاً دقيقاً ، كأنه رآه المرة بعد المرة وأجرى تجاربه عليه ودقق فيه ، ونظر ما قاله فيه من قبله ، فما وافق الحس والعقل من أقوالهم قبله ، وما لم يوافق عليه ردَّه مع إيراد الأسباب الداعية له إلى رده .

ومما قال : بالبصرة ثلاث أعجوبات ليست فى غيرها من البلدان ، منها أن عدد المد والجزر فى جميع الدهر شىء واحد ، فيقبل عند حاجتهم إليه ، و يرتد عند استغنائهم عنه . ثم لا يبطئ عنها إلا بقدر هضمها واستمرائها وَجَمامها واستراحتها ، لا يَقتلها عطشاً ولا غرقاً ، ولا يُغبها ظماً ولا عطشاً ، يجىء على حساب معلوم ، وتدبير منظوم ، وحدود ثابتة ، وعادة قديمة ، يزيدها القمر فى امتلائه ، كما يزيدها فى نقصانه ، فلا يخفى على أهل الغلات متى يتخلفون ، ومتى يذهبون و يرجعون ، بعد أن يعرفوا موضع القمر ، وكم مضى من الشهر ، فهى آية وأُعجوبة ، ومفخرة وأُحدوثة ، لا يخافون المحل ، ولا يخشون الحَطْمة[1] » .

وقال أيضاً : « من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم ، وأن يميتوا ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثر الحصون ، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية ، وعلى ذلك هم فى أيام الإسلام ، كما هدم عثمان صومعة

(١) الحطمة ويضم والحاطوم السنة الشديدة .

غُمْدان ، وكما هدم الآطام التى كانت بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم أصحابنا (العباسيون) بناء مدن الشامات لبنى مروان » .

يكلمك الجاحظ تارة فى رغبات الناس فى العلوم ، ويذكّرك بأنه لم تظهر له العلة فيها ، إلا أنه يعجب من الوسط فى صناعته ، ومن كانت فطرته غير مؤاتية ، فيقول : « صار طلب الحساب أخفَّ على بعضهم ، وطلب الطب أحبَّ إلى بعضهم ، وكذلك النزاع إلى الهندسة ، وشغف أهل النجوم بالنجوم ، فتجد واحداً يلهج بطلب الغناء واللحون ، وآخر يلهج بشهوة القتال ، حتى يكتتب مع الجند ، وآخر يختار ورّاقاً ، وآخر يختار طلب الملك ، وتجد حرصهم على قدر العلل الباطنة المحركة لهم ، ثم لا تدرى كيف عرض لهذا هذا السبب دون الآخر ، إلا بجملة من القول ، ولا تجد المختار لبعض هـذه الصناعات على بعض ، يعلم لما اختار ذلك فى جملة ولا تفصيل ، إذ كان لم يجرِ منه على عِرق[1] ، ولا اختاره على إرث ، وليس العجيب من رجل فى طباعه سبب يصل بينه و بين بعض الأمور ، ويحركه فى بعض الجهات ، ولـكن العجب ممن يموت مغنياً ، وهو لا طبع له فى معرفة الوزن ، وليس له جرم حسن ، فيكون إن فاته أن يكون معلماً ومغنى خاصة ، أن يكون مطرباً ومغنى عامة . . . » .

واحتج للإماء : « قال بعض من احتج للعلة التى من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المَهيرات[2] ، أن الرجل قبل أن يملك الأَمَةَ قد تأمل كل شىء منها وعرفه ، ما خلا حظوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرة إنما يستشار فى جمالها النساء ، والنساء لا يُبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً ؛ والرجال بالنساء أبصر ، و إنما

(١) العرق أصل كل شىء . (٢) المهيرة الحرة الغالية المهر .

تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك ؛ وقد تحسن المرأة تقول كأن أنفها السيف ، وكأن عينها عين غزال ، وكأن عنقها إبريق فضة ، وكأن ساقها جُمَّارة ، وكأن شعرها العناقيد ، وكأن أطرافها المدارى ، وما أشبه ذلك ، وهناك أسباب أُخر بها يكون الحب والبغض » .

وقال فى رسالته فى النساء : « ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون فى منزلة بين السمينة والممشوقة ، ولا بد من جودة القد ، وحسن الخرط ، واعتدال المنكبين ، واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام ، بين الممتلئة والقضيفة[1] ، وإنما يريدون بقولهم مجدولة[2] ، جودة العصب وقلة الاسترخاء ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول ، ولذلك قالوا خمصانة وشفانة[3] ، وكأنها جان ، وكأنها جَدْل عنان ، وكأنها قضيب خيزران ، والتثنى فى مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك للضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة فى المجدولة أعم ، وهى بهذا تحبب على السمان الضخام ، وعلى الممشوقات والقضاف ، كما يحبب هذه الأصناف على المجدولات ، ووصفوا المجدولة بالكلام المنثور ، فقالوا : أعلاها قضيب ، وأسفلها كثيب » .

ونحن بعد كلامه هذا يحق لنا أن ندعى أن الجاحظ كان يعرف كل شىء .

ومما قاله : « قلَّ معنى سمعناه فى باب معرفة الحيوان من الفلاسفة ، وقرأناه

---

(١) القضافة والقضف محركة وكعنب النحافة وهو قضيف ج قضفان .

(٢) المجدول اللطيف القصب المحكم الفتل .

(٣) رجل خمصان بالضم وبالتحريك ، وخميص الحشى ضامر البطن ، وهى خمصانة وخميص من خمائص . وشفانة نحيلة .

فى كتب الأطباء والمتكلمين ، إلا ونحن قد وجدنا قريباً منه فى أشعار العرب ، وفى معرفة أهل لغتنا وملتنا » .

ولذلك رأيناه يقرّب الفلسفة من الأذهان ويمزجها بالأدب وأشعار العرب ليخرجها عن جفائها ؛ ورأيناه مع وقوفه على العلوم اليونانية ينقد بعض ما لم يدخل فى دائرة الحس والعقل ، ولا يأخذه قضايا مسلمة كفعله فى إنكار أحاديث الجن وما روى من الشعر فى رؤيتهم ، فقال إن للناس فى هذا ضروباً من الدعاوى ، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها ؛ ومن استقراءاته قوله : « إنهم أحصوا أصناف نخل البصرة ، دون نخل المدينة ، ودون مصر واليمامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان ، ودون الكوفة وسوادها وخيبر وذواتها ، والأهواز وما بها ، أيامَ المعتصم ، وإذا ثلثمائة وستون ضرباً من مُغلّ معروف ، وخارجى موصوف ، وبديع غريب ، مع طيب عجيب » .

وقال فى كتابه الأمصار : أكثر الدور غلة ثلاث : دار البطيخ بسرّ من رأى ودار الزبير بالبصرة ، ودار القطن ببغداد . ومما قاله فى وصف البصرة إنه لا يعرف مصرا جاهلى ولا إسلامى أفضل من البصرة وإنها قلب الدنيا وواسطة الأرض وفرضة البحر .

ومن ملاحظاته : واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يحب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم ، لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مجبرين فى الأمور المتفقة والمختلفة ، لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ، وفى هذا ذهاب العيش وبطلان المصلحة ، والبوار والتواء ، ولو لم يكونوا مسخرين بالأسباب مرتهنين بالعلل لرغبوا عن الحجامة أجمعين وعن البيطرة والقصابة والدباغة ، ولكن لكل صنف من الناس مزيّن عندهم

ما هم فيه ، ومسهل ذلك عليهم ، فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه ، أو سوء حِذْق أو خرقاً قال له يا حجام ، والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له يا حائك ، ولذلك لم يُجمعوا على إسلام أبنائهم فى غير الحياكة والحجامة والبيطرة والقصابة ؛ ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والائتلاف ، لما جعل واحداً قصيراً وآخر طويلاً ، وواحداً حسناً وآخر قبيحاً ، وواحداً غنياً وآخر فقيراً ، وواحداً عاقلاً وآخر مجنوناً ، وواحداً ذكيًّا وآخر غبياً ، ولكن خالف بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يطيعون ، وبالطاعة يسعدون ، ففرق بينهم ليجمعهم ، وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة ، فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى وأولى ، وأحكم ما صنع وأتقن ما دبر ، لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ، ولو رغبوا بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ، ولبطل أصل المعاش ، فسخرهم على غير إكراه ، ورغبهم من غير دعاء ، ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ، ومن البلاد إلا أعدلها ، ومن الأمصار إلا أوسطها ، ولو كان كذلك لتناجزوا على طاب الواسط ، وتشاجروا على البلاد العليا ، ولما وسعهم بلد ، ولما تم بينهم صلح ، فقد صار بهم التسخير إلى غاية ، وكيف لا يكون كذلك ، وأنت لو حولت ساكنى الآجام إلى الفيافى ، وساكنى السهول إلى الجبال ، وساكنى الجبال إلى البحار ، وساكنى الوبر إلى المدر ، لأذاب قلوبهم الهمُّ ، ولأتى عليهم فرط النزاع .

ومما استقراه قوله لما تولى خالد بن الوليد كسر الأصنام التى كانت قريش تعبدها ، ورمى عُزّى بالشرر حتى أحرقت عامة فخذه : « وما أشك فى أنه قد كانت

للسدنة[1] حيل وكمين ؛ ولوسمعت أو رأيت بعض ما أعد الهند من هذه المخاريق فى بيوت عباداتهم لعلمت أن الله تعالى قد منَّ على جملة المسلمين بالمتكلمين الذين نشأوا فيهم » ، قال : « وما زالت السدنة تحتال للناس من جهة النيران بأنواع الحيل ، كاحتيال رهبان كنيسة الرُّها لمصابيحها ، حتى أن زيت قناديلها ليستوقد لهم من غير نار فى بعض ليالى أعيادهم ، وبمثل ذلك احتال السادن لخالد بن الوليد حين رماه بالشرر ليوهمه أن ذلك من الأوثان عقوبة على ترك عبادتها وإنكارها والتعرض لها حين قال : يا عزى كفرانك لا سبحانك ، إنى رأيت الله قد أهانك » ، قال : « وجعلت قريش وقد أهوى خالد بسيفه إلى العُزّى تصيح : يا عُزى خَبّليه ، يا عزّى عزّريه ، وليس يثنى من تهاويلهم ، وعلاها بالسيف حتى كسرها » .

وقال فى الرد على من زعم أن خالد بن سنان لم يكن من ولد إسماعيل نبى قبله : « المتكلمون لا يؤمنون بهذا ، ويزعمون أن خالداً كان أعرابيًّا وَبَرِيًّا ، ولم يبعث الله قط نبياً من الأعراب ولا من أهل الوبر ، وإنما بعثهم من أهل القرى وسكان الجزر ، والله أعلم حيث يجعل رسالته » .

وذكر الشياطين فى بعض كتبه ومما قال : « إنا وإن كنا لم نر شيطاناً قط ، ولا صوّره لنا صادق ، ففى إجماع العرب والمسلمين وكل من لقيناه متفق على ضرب المثل بقبح الشيطان ، وهو دليل على أنه فى الحقيقة أقبح من كل قبيح ، والكتاب إنما نزل على الذين ثبت هذا فى طبائعهم غاية الثبات » ؛ وقال : « ليس من الناس من رأى شيطاناً قط على صورته ، لكن لما كان الله جعل

---

(١) سدن سدناً وسدانة خدم الكعبة أو بيت الصنم وعمل الحجابة ، فهو سادن ج سدنة .

فى طبائع جميع الأمم استقباح صورة الشيطان واستسماجه وكراهته ، وأجرى هذا على ألسنة جميعهم ضرب المثل به فى ذلك ، رجع بالإيحاش والتنفير وبالإضافة والتفريع إلى ما جعله فى طبائع الأولين والآخرين والشيوخ والصبيان والرجال والنساء ... »

وأنكر انشقاق القمر كما هو رأى كثير من أهل الذكر ، فقال إنه لم يتواتر الخبر به ، وإنه لو انشق حتى صار بعضه فى جبل أبى قبيس لوجب أن تختلف التقويمات بالزيجات لأنه قد علم سيره فى كل يوم وليلة ، فلو انشق القمر لكان وقت انشقاقه لا يسير ، فأما قوله تعالى : اقتربت الساعة وانشق القمر ، فإن معناه سينشق .

ومن ملاحظاته : « لا تليق ثلاثة أسماء بأعيانها إلا فى الملوك والسادة ، ألا ترى أن بهرام بن بهرام بن بهرام فى ملوك العجم ، والحارث بن الحارث بن الحارث فى ملوك غسان ، والحسن بن الحسن بن الحسن فى سادة الإسلام » . وقال : « ثلاثة بنو أعمام فى زمان واحد ، يسمى كل واحد منهم علياً ، وكل واحد منهم فقيه عالم عابد يصلح للإمامة : على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، وعلى ابن الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب وعلى بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ثم بنوهم ثلاثة بنو أعمام و يسمى كل واحد منهم محمداً ، وكل منهم فقيه عالم عابد يصلح للإمامة : محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ومحمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب ، ومحمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وهو من أغرب ما يتهيأ فى العالم ، و يتفق فى الأزمنة ، وهذه فضيلة لا يشركهم فيها أحد » . نقول وهذا من معرفته بالأنساب أيضاً فأهتدى من الغرائب فيها إلى ما لم يهتد إليه غيره ولا وقع فى خاطره .

ومن استدلالاته أيضاً : « قد علمنا أن داعى استفاضة النجدة فى جميع

أصناف الخوارج وتقدمهم فيها إنما هو بسبب الديانة ، لأنا نجد عبيدهم ومواليهم ونساءهم يقاتلون مثل قتالهم ، ونجد السجستانى وهو عجمى ، واليمامى والنجرانى والجزرى وهم عرب ، ونجدُ تاهرت وهى بلاد عجم ، كلهم فى القتال والنجدة سواء ، وفى ثبات العزيمة والقوة والشدة متكافئين ، فاستوت حالاتهم فى النجدة مع اختلاف أنسابهم و بلدانهم ، أفما فى هذا دليل على أن الذى سوّى بينهم هو التدين بالقتال ؟ » وهذا ضرب من كشف روح المتمذهبين بالمذاهب لا نعرفه لأحد ممن كتب فى عصره فى فلسفة الديانيين والأديان .

وقال فى نار المجوس : « ما زال الناس كافة ، والأمم قاطبة ، حتى جاء الله بالحق ، مولعين بتعظيم النار ، حتى ظن كثير من الناس لإفراطهم أنهم يعبدونها . و يزعم أهل الكتاب أن الرب أوصاهم بها فقال : لا تطفئوا النار من بيوتى ، ولذلك لا تجد الكنائس والبيع و بيوت العبادات تخلو من نار أبداً ليلا ونهاراً . فأما المجوس فإنها لم ترض بمصابيح أهل الكتاب حتى اتخذت البيوت للنيران ، وأقامت عليها السدنة ، ووقفت عليها الغلات الكثيرة ، وسجدت لها على جهة التعبد والمحبة ، و إيجاب الشكر على النعمة ، وقد ضرب المثل بنار المجوس من صحب قوماً فلم يرعوا حق صحبته بهم وخدمته إياهم فقال :

عمرى لقد جربتكم فوجدتكم نار المجوس

وذلك أنها لا تفرق بين من يعبدها و يسجد لها ، و بين من يبزق فيها و يبول عليها ، بل تعم الجميع بالإحراق إذا أمكنها » .

وقال : « الأمم كلها تضرب مثلا بالعنقاء فى الشىء الذى يسمع به ولا يرى كما قال أبو نواس :

وما خبزه إلا كَعَنْقَاء مُغْرب يُصَوَّر فى بسط الملوك لها مثلُ

يحدث عنها الناس من غير رؤية سوى صورة ما إن تمر ولا تحلو

وما أكثر من ينكر أن يكون فى الدنيا حيوان يسمى كركند وعنقاء مغرب ، وإن كانوا يرون صورة العنقاء مصورة فى بسط الملوك وحيطان قصورهم ، واسمها عندهم مسموع » ومن غريب تحقيقه فى النمل قوله : « والنمل ربما أجلى أمة من الأمم عن بلادهم » ومن تحقيقاته : « ويزعم أهل الشرع أنهم لم يجدوا فى ضروب الحيوان أشبه بالإنسان تركيباً وأعضاء وجوارح ، ولم يروا أقرب منه خلقة وصورة وأدنى إليه شبهاً ومشاكلة من القرد ، وأن من تقدم جالينوس من الأطباء لم يفصلوا قط إنسياً ، ولم يشرّحوا آدمياً ، وإنما عرفوا تلك الأمور الغامضة والسرائر الكامنة بما فصلوا من أجسام القرود ، وبعض من وجد من القتلى على ندرة فى بعض معارك الملوك » ، وقال فى عجائب البحر : « وليس ذلك بأعجب من شىء عاينه جميع من يركب البحر وذلكَ أن الطائر من طَيْره يطير فى الهواء ، فيعبث به طائر صغير ، فإذا أحرجه ذلك ذرق ، فتلقاه الطائر فابتلعه ، فلا هو يخطئ بذلك الذرق حلق الطائر الصغير ، ولا الطائر الصغير يجهل مكان ذرقه ، وما يعيّشه من ذلك الطائر الكبير ، والدُّخس من دواب البحر ومما يعايش السمك وليس بسمك ، وهو يعرف الغريق ويدنو منه حتى يضع الغريق يده على ظهره فيسبح به ، والغريق يذهب معه ، ويستعين بالاعتماد عليه والتعلق به ، حتى ينجيه ، وهذا عند البحريين مشهور لا يتدافعونه » .

وقال فى علة فشو الفاحشة فى بعض الناس : ولو كانت هذه الشهوة شائعة فى الأعراب لتعشقوا الغلمان ، ولو تعشقوهم لنسبوا بهم ، ولجاءهم فيه باب من النسيب ، ولتهاجوا به وتفاخروا ، ولتنافسوا فى الغلمان ، ولجرى فى ذلك ما لا يخفى ، ولحدثت فيه أشعار وأخبار ، والذى يدل على سلامتهم من ذلك

عدم هذه المعانى ، وإن كان هناك شىء من هـذا فليس هو إلا فى بعض من ينزل قارعة الطريق أو يقرب الأسواق ، وهؤلاء ليس فيهم من خصال الأعرابية إلا الجوهرية ، فأما الأخلاق والفصاحة والأنفة والفروسـية فهم على خلاف ذلك كله . . .

كان يقال أربعة لم يُلحقوا ولم يسـبقوا : أبو حنيفة فى فقهه ، والخليل فى أدبه ، والجاحظ فى تأليفه ، وأبو تمام فى شعره ؛ وحقيق على من تصفح تآليف الجاحظ واتساعه فيهـا ، ورأى ما حوت من آثار حفظه وتدوينه واستقرائه واستنتاجه أن يعذر الناس فى كل عصر لإعجابهم بما كتب ، ولا يستنكرنّ من الاستنباط بأن العالم كانوا يرقبون صدور كتبه كما يتوقع المدنون اليوم صدور صحف الأخبار ، وورود الإذاعات فى الأيام العصيبة ؛ وكان هو يعرف لنفسه هذه الشهرة الطائرة ويعرفها له الناس . قال بعضهم للجاحظ : مثلك فى علمك ومقدارك من الأدب ينشد قوله :

منطق صائب وتلحن أحيا ناً وخير الحديث ما كان لحنا

ويفسره على أنه أراد اللحن فى الإعراب ، وإنما وصفها بالظرف والفطنة ، وأنها تورّى فى لفظها عن أشياء قال : قد فطنت لذلك بعدُ ، ولما أشار عليه ناقده أن يغيّر تفسيره قال : كيف لى بما سارت به الركبان ؟

ومن البراهين على اتساع شهرته فى حياته ما قيل لأبى هفان وقد طال ذكر الجاحظ : لِمَ لا تهجو الجاحظ وقد ثلبك وأخذ بمخنّقك ، فقال : أمثلى يُخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما ظنّ منها بيت فى ألف سنة .

كتبه ورسائله :

ليس فى وسع الباحث تعيين حد لعلم الجاحظ ، ينتهى منه إلى معرفة ما غاب عليه ؛ وما أشبه تآليفه بمعلمة من معلمات العلم فى عصره تبحث فى جميع المطالب بحثاً ممتعاً ، فلا ترى فى مقالاتها خللاً ، ولا فى وضعها وتصنيفها غثاثة ؛ ولقد رأينا معلمات زماننا بلغات العلم الحديث يؤازر فيها عشرات ور بما مئات من العلماء والباحثين ، حتى تكتب لها الإجادة ، وتقع من نفوس أرباب المدارك موقع الاستحسان ، ومعلمة الجاحظ كتبها بنفسه ، لم يشاركه مشارك فى إعداد موادها ، ولا فى وضع أبوابها ، وابتكار فصولها ، وكلها ابنة درسه وبحثه ، يصدرها فى اتساق متقن ، وتحقيق بالغ ؛ ور بما كان من أبحاثها ما اقترح عليه الخوض فيه ، فكتب ما أراد وما أُريد منه ؛ وكأنه المفتى الحجة يُستفتى فى علوم الدنيا والآخرة ، فلا يلحق غباره أحد ، وهو أبداً الفارس المجلّى فى كل حلبة ، لم يلحقه أحد فى طريقته ، وحاول تقليده غير واحد فى العصور التالية .

الإكثار من التأليف مع الإجادة فيه هو وجه الغرابة فى الجاحظ ، ألف خمسين وثلاثمائة مؤلَّف ، بين رسالة فى بضع صفحات وكتاب فى بضعة مجلدات ، رآها كلها سبط ابن الجوزى فى أول القرن السابع فى مشهد أبى حنيفة ببغداد . ألّف كل هذا وجوّده ، وطريقته كما قال عن نفسه أن لا يصل الصدق بالكذب ، ولا يدخل الباطل فى تضاعيف الحق ، ولا يتكثر بقول الزور ، ولا يلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن ، وستر قبح كلامه بالتأليف المونق ، ولا يستعين على إيضاح الحق إلا بالحق ، وعلى إيضاح الحجة إلا بالحجة ، ولا يستميل إلى دراسة تآليفه واقتنائها ، ويستدعى إلى تفضيلها والإشادة

بذكرها ، بالأشعار المولّدة ، والأحاديث الموضوعة ، والأسانيد المدخولة ، وبما لا شاهد عليه إلا دعوى قائله ، ولا مصدق له إلا من لا يوثق بمعرفته . وقد نصح لمن يتكلفون قراءة الكتب ومدارسة العلم ، أن لا يقفوا على الكلمة الضعيفة ، واللفظة السخيفة ، وعلى مواضع من تآليفه قد عرض له شيء من استكراه ، ويقول لمن هذا حاله : « لو جعل بدل شغله بقليل ما يرى من المذموم ، تنقله بكثير ما يرى من المحمود ، كان ذلك أشبه بالأدب المرضى ، والخيم[1] الصالح ، وأشد مشاكلة للحكمة ، وأبعد من سلطان الطيش ، وأقرب إلى عادة السلف وسيرة الأولين ، وأجدر أن يهب الله تعالى له السلامة فى كتبه ، والدفاع عن حجته ، يوم مناضلة خصومه ، ومقارعة أعدائه » .

وتعوذ بالله فى كل موطن « من فتنة القول وخطله ، ومن الإسهاب وتقحم خطته » وأكد « أن فتنة اللسان والقلم ، أشد من فتنة النساء ، والحرص على المال » ، واستعاذ من التكلف لما لا يحسن ، كما استعاذ بالله من العُجب بما يحسن ، والعجب بما يكون منه والثقة بما عنده ، ورجا أن يكون من المحسنين ، وتعوذ من رسالة ظاهرها زهد وباطنها رغبة وقال : « إن أسقط الكلام وأوغده ، وأبعده من السعادة وأنكده ، ما أظهر النزاهة وأضمر الحرص ، وتجلى للعيون بعين القناعة واستشنع ذلة الافتقار ، وأقبح منه وأفحش أن يظن صاحبه أن معناه خفى وهو ظاهر ، وتأويله بعيد الغور ، وهو قريب القعر » .

أخرج الجاحظ التأليف من طور الرواية ، إلى طور جمع فيه إلى الرواية الدراية ، ودعا إلى جميل الصدق ، وبرد اليقين ، مستمداً من العقل ، داعياً

---

(١) الخيم : بكسر الخاء الطبيعة .

إلى التفكير الصحيح ، قائلاً : « إن من شكرِ النعمة فى معرفة مغاوى الناس ومراشدهم ، ومضارّهم ومنافعهم ، ألا يحتمل ثقل مؤنتهم فى تقويمهم ، وأن يتوخى إرشادهم ، وإن جهلوا فضل ما يُسدى إليهم ، فلن يصان العلم بمثل بذله ، ولن تستبْـقى النعمة فيه بمثل نشره » ؛ « ويعرف أن الحق مرّ والجد صعب ، ولا يصبر على مطالعة الكتب الطويلة إلا من تجرد للعلم وفهم معناه ، وذاق من ثمرته ، واستشعر قلبه من عزّه ، ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكدّ والكثرة من السآمة ، وما أكثر من يقاد إلى حظه بالسواجير[1] ، وبالسوق العنيف ، وبالإخافة الشديدة » .

وترى أبا عثمان فى كتبه ينقل عن أرقى الطبقات وأدْناها ، ومن العلماء من نقل عنهم فستر أسماءهم ، وأشار إلى أنهم كانوا عظماء فقط ليعرّف قارئه مبلغ الرواية المنقولة من الضعف والقوة ، قال مرة : « حدثنى بعض أهل العلم ممن طال ثُواؤه فى أرض الجزيرة ، وكان صاحب أخبار وتجربة ، وكان كلفاً بحب التبيين ، معترضاً للأمور يحب أن يُفضى إلى حقائقها ، وتثبيت أعيانها بعلاها ، وتمييز أجناسها ، وتعرّف مقادير قواها ، وتصرف أعمالها ، وتنقل حالاتها ، كان يعرف للعلم قدره ، وللبيان فضله » ، وروى عن إبراهيم بن السندى كثيراً ، ونوّه به ، وقال فيـــه : « إنه كان مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ، شديد الحب لأبناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ، ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ، ويدرّسهم مناقبهم ، وكان فخم المعانى ، فخم الألفاظ ، لو قلت إن لسانه كان أردّ[2] على هذا المُلك من عشرة آلاف سيف شهير

---

(١) الساجور خشبة تعلق فى عنق الكلب وسجره شده به كسوجره .

(٢) يقال هذا أرد : أنفع ، ولا رادة فيه : لا فائدة فيه كلا مردة .

وسنان طرير[1] لكان ذلك قولاً ومذهباً » ، ووصفه فى البيان والتبيين بقوله : « كان رجلاً لا نظير له ، وكان خطيباً ، وكان ناسباً ، وكان فقيهاً ، وكان عروضياً وحافظاً للحديث ، راوية للشعر شاعراً ، وكان فخم الألفاظ ، شريف المعانى ، وكان كاتب القلم ، كاتب العمل ، وكان يتكلم بكلام رؤبة ، ويعمل فى الخراج بعمل زاذان فروخ الأعور ، وكان منجماً طبيباً ، وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالماً بالدولة وبرجال الدعوة ، وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوماً ، وأصبرهم على السهر » . انظر إليه كيف يكرر فعل « كان » مرات فى بضعة أسطر ! يا ما أُحَيْلاه فى مكرراته وفى موجزاته . . وروى عن ثمامة بن أشرس أحد شيوخه فى الحديث فقال : « إن الصفات التى وصف بها ثمامة بن أشرس جعفرَ بن يحيى كأن ثمامة قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره ؛ وما علمت أنه كان فى زمانه قرَوى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه » .

والظاهرة المتجلية فى كتب أبى عثمان أنه بينما ينقل إليك كلام العقلاء ومذاهب العلماء والحكماء ، يروى لك : « نوادر من كلام الصبيان والمجرمين من الأعراب ، ونوادر كثيرة من كلام المجانين وأهل المِرَّة من الموسوسين ، ومن كلام أهل الغفلة من النَوْكى ، وأصحاب التكلف من الحمقى » يجعل بعضها فى باب الهزل والفكاهة ويقول : « ولكل جنس من هـذا موضع يصلح له ، ولا بد لمن استكده الجدّ من الاستراحة إلى بعض الهزل » و « إن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد ، وإن البطالة وقار ورزانة ، إذا تكلفت لتلك العاقبة » . فهو يكره النغمة الواحدة يرددها ، فيختار من الأصوات ما يفعل

(١) السنان الطرير هو الرمح المحدد ، والسيف الشهير المنتضى المرفوع على الناس .

فى النفوس ، فيسليها و يطربها وهو يعلمها ، و يلعب بالألباب ، فى كل رسالة له وكتاب . تتجلى فى أقواله ور واياته واستنباطاته وفرة المادة ، ووفرة البحث ، وكثرة ما تعلّم ، وهضم ما تعلم ، فكتبه أعيان متحركة غير جامدة جمود حروفها ، تأخذ من كل وجوه الإجادة بأَوفر نصيب ، وتدور على « حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف » .

ما كتب الجاحظ وألَّف إلا عن باعث ، وكان فى الأكثر يتقدم فيعرض ما حمله على التأليف ؛ قال فى وصف كتاب الحيوان : « وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه و إن كان عربيًّا أعرابيًّا ، و إسلاميًّا جماعيًّا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، و بين وجدان الحاسة ، و إحساس الغريزة . و يشتهيه الفتيان ، كما يشتهيه الشيوخ ، و يشتهيه الفاتك ، كما يشتهيه الناسك ، و يشتهيه اللاعب ذو اللهو ، كما يشتهيه الجدُّ ذو الحزم ، و يشتهيه الغفل ، كما يشتهيه الأريب ، و يشتهيه الغبيّ ، كما يشتهيه الفطن » ؛ ثم ذكر مزاعم الناس فى تزييف الكتب ، والسبب الذى يدعوهم إلى إسقاطها ، فقال : « وليس هذا الكتاب يرحمكَ الله فى إيجاب الوعد والوعيد ، فيعترض عليه المرجئ ، ولا فى تفضيل علىّ فينتصب له العثمانى ، ولا هو فى تصويب الحكمين فيتسخطه الخارجى ، ولا هو فى تقديم الاستطاعة فيعارضه من يخالف التقديم ، ولا هو فى تثبيت الأعراض فيخالفه صاحب الأجسام ، ولا هو فى تفضيل البصرة على الكوفة ، ومكة على المدينة ، والشام على الجزيرة ، ولا فى تفضيل العجم على العرب ، وعدنان على قحطان ، وعمرو على واصل ، فيرد بذلك الهُذَلى على النَّظامى ، ولا هو فى تفضيل مالك على أَبى حنيفة ، ولا هو فى تفضيل

امرئ القيس على النابغة ، وعامر بن الطفيل على عمرو بن مَعدى كَرِب ، وَعبَّاد ابن الحصين على عبيدالله بن الحُرّ ، ولا فى تفضيل ابن سُرَيْج على الغَريض ، ولا فى تفضيل سيبويه على الكسائى ، ولا فى تفضيل الجعفرى على العَقيلى ، ولا فى تفضيل حلم الأحنف على حلم معاوية ، وتفضيل قَتادة على الزُّهرى ، فإن لكل صنف من هذه الأصناف شيعة ، ولكل رجل من هؤلاء جنـــداً وعدداً من مخاصميهم وسفهائهم ، والمتسرعون منهم كثير ، وعلماؤهم قليل ، وإنصاف علمائهم أقل » .

قال : « وقد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه ، أول ذلك العلة الشديدة ، الثانيـة قلة الأعوان ، الثالثة طول الكتاب ، والرابعة أنى لو تكلفت كتاباً فى طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتاب العَرض والجوهر ، والصفرة والتوليد ، والمداخلة والغرائز والنحاس[1] ، لكان أسهل وأقصر أياماً ، وأسرع فراغاً ، لأنى كنت لا أفزع فيـه إلى تلقط الأشعار ، وتتبع الأمثال ، واستخراج الآى من القرآن ، والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور فى الكتب ، وتباعد ما بين الأشكال . فإن وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، ومن تقطيع نظام ، ومن وقوع الشىء فى غير موضعه ، فلا تُنكر بعد أن صوَّرت عندكَ حالى التى ابتدأت عليهـا كتابى . ولولا ما أرجو من عون الله على إتمامه ، إذ كنت لم ألتمس به إلا إفهامك مواقع الحجج لله ، وتصاريف تدبيره ، والذى أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته ، لمـا تعرضت لهذا المكروه ؛ فإن نظرت فى هذا الكتاب ، فانظر فيـه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج ، ولا يذهب مذهب المتعنت[2] ، ومذهب من إذا رأى خيراً كتمه ، وإذا رأى شراً أذاعه » .

---

(١) النحاس مثلثة الطبيعة . (٢) المتعنت طالب الزلة .

ومما قال فيه : « وما عندى لك من الحيلة إلا أن أصوره لكَ فى أحسن صورة ، وأقلبكَ منه فى الفنون المختلفة » ؛ « فإن وجدت الكتاب الذى كتبته لك يخالف ما وصفت ، فأنقصنى من نشاطكَ له على قدر ما نقصتكَ مما ينشطكَ إليه لقراءته ؛ و إن وجدتنى ، إذا صح عقلكَ و إنْصافكَ ، قد وفيتكَ ما ضمنت لك ، فوجدت نشاطك بعد ذلك مدخولاً ، وحدَّكَ مفلولاً ، فاعلم أنا لم نؤْت إلا من فسولتك وفساد طبعك ، ومن إيثاركَ لما أَضرَّ بكَ » .

وقال فى مقصده الذى يرمى إليه بطريقته فى تأليفه هذا : « فرأيت أن جملة الكتاب و إن كثر عدد ورقه أن ذلك ليس مما يملُّ ، و يعتدُّ علىَّ فيه بالإطالة ، لأنه و إن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة ، وكل مصحف منها فهو أُم على حدة ، فإن أراد أحد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثانى ، ولا الثانى حتى يهجم على الثالث ، فهو أبداً مستفيد ومستطرف ، و بعضه يكون جَماما[1] لبعض ؛ ولا يزال نشاطه زائداً ، ومتى خرج من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ، ومقاييس شداد ، ثم لا يترك هذا الباب ، ولعله أن يكون أثقل ، والملال إليه أسرع ، حتى يُفضى به إلى مزح وفكاهة ، و إلى سخف وخرافة ، ولست أراه سخفاً ، إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء ، وآداب العلماء ، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب ، أَخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى[2] والحذف ، و إذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً ، وزاد فى الكلام ، فأَصوب

(١) الجمام بفتح أوله : الراحة

(٢) الوحى : الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفى وكل ما ألقيته إلى غيرك .

العمل اتباع آثار العلماء ، والاحتذاء على مثال القدماء ، والأخذ بما عليه الجماعة » .
وقوله هذا فى نسق تأليف القرآن من أبدع ما اهتدت إليه قوة مفكرة .

قال أبو على الحسن بن داود : فخر البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل . وزعم بعض علماء الإفرنج أن كتاب الحيوان أقرب إلى أن يوسم بكتاب أدب منه إلى أن يعد كتاباً فى طبائع الحيوان ، وجوابنا لمن ادعى هذه الدعوى أن ما حققه الجاحظ فى صنوف الحيوان قبل غيره من العرب والعجم كافٍ بأن يعد السابق المبرز فى هذا الفن ، والشعر الكثير الذى نقله لا يُزرى بما كتب ، وهو يملى على الناس روح عصره . كتب الجاحظ كتابه أوائل القرن الثالث من الهجرة ، والعلم كما قال ريشه لم يتجاوز عمره من فرنكلين إلى أنشتين أكثر من مائة وخمسين سنة . وفى كتابه خلاصة من الشعر الجيد ، وأجمل الحكايات والنوادر ، ومنها ما كان من نوع الأدب الواقع ، وهناك أمتع الفوائد الأدبية والمسائل الدينية ، وأجمع من هذا كله كلامه على أجناس الحيوان . وما كتب ما كتب فيه إلا عن تجربة وعيان ، وفيه كلام على الناس و بلادهم وهوائهم وأمزجتهم وعاداتهم إلى غير ذلك مما لا يظفر به باحث فى كتاب واحد . فإتيان الغرائب والطرائف « ومعها شاهد من كتاب منزل ، أو حديث مأثور ، أو خبر مستفيض ، أو شعر معروف ، أو مثل مضروب ، أو يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبيب ، أو من أكثر من قراءة الكتب ، أو بعض من قد مارس الأسفار وركب البحار ، وسكن الصحارى ، واستذرى الهضاب ، ودخل فى الغياض ، ومشى فى بطون الأودية » — الإتيان بالغرائب باعث على عموم فائدته .

وأما كتابه البيان والتبيين فقد دخل فيه على موضوعه رأساً و بدأه بقوله

« اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن . ونعوذ بك من السلاطة والهذر ، كما نعوذ بك من العيّ والحصر ، وقديماً تعوذوا بالله من شرهما ، وتضرعوا إلى الله فى السلامة منهما » . يقول صاحب الصناعتين إن البيان والتبيين كثير الفوائد جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير . . . »

الجاحظ فى البيان والتبيين يكثر من الشواهد ، ويقلل من القواعد ، ويضمنه هزلاً وجداً ، وكأنه كان يشعر بأن كتابه غير منسق ، وكان الأمثل به أن يضع كل شىء فى مكانه فاعتذر مرة بقوله : « وكان فى الحق أن يكون هذا الباب فى أول الكتاب ، ولكنا أخرناه لبعض التدبير » . ومما قال فى مناسبة أخرى : « وهذا الباب يقع فى كتاب الإنسان من كتاب الحيوان ، وفى فضل ما بين الذكر والأنثى تاماً ، وليس هذا الباب مما يدخل فى باب البيان والتبيين ، ولكن قد يجرى السبب فيجرى معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارئ الكتاب ، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم ، كان ذلك أروح على قلبه ، وأزيد فى نشاطه » .

أراد الجاحظ فى البيان والتبيين أن يعلم طالب البلاغة بالعمل كما تعلم هو البلاغة ، وكان البيان فى عهده يُعَلَّم على هذه الصورة ، وبعده قام العلماء بوضع

قواعد قلما أفادت الكاتب والشاعر ، اللهم إلا الوقوف على ما علموا له ، واستشهدوا به ، وسنوا له من القوانين . وكان معظم من كتبت لهم الإجادة فى كل زمن فى فنى المنثور والمنظوم ممن لا يعبأون كثيراً بما قاله علماء البيان . فالبيان يُعَـلَّم بالذوق والعمل ، لا بالقواعد والقوانين . والجاحظ كان فى كتابه هذا عملياً شأنه فى كل ما كتب . وكذلك هو فى النحو فقد قال فى فصل رياضة الصبى : « وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام فى كتاب كتبه ، وشعرٍ إن أنشده ، وشىءٍ إن وضعه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أردُّ عليه منه ، من رواية المثل والشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع » .

والغالب أن البيان والتبيين على كثرة إمتاعه لم ينظر فيه الجاحظ نظرة أخيرة ، فقد رأيناه ذكر قصيدة سلمة بن خُرْشب فى قتال عبس وذبيان مرتين ، ونسبها فى المرة الثانية لسلمة بن الحارث الإيادى . وهى القصيدة التى أنشدها الجاحظ لسهل بن هرون فقال : والله لكأنه سمع رسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى سياسة القضاء وتدبير الحكم .

وقال فى السبب الذى دعاه إلى تأليف كتابه « الدلائل والاعتبار » وفيه مباحث من شواهد آثار الصانع فى صنعته ، وتنبيه على أسرار قد أودعها ما يشاهده المرء من فطرته ، تضطره إلى معرفته وتشهد بوحدانيته ، وتخبر عن جلال عظمته وكمال قدرته ، قال : إنه ألف مثل كتابه هذا جماعة من الحكماء المتقدمين فما وضحوا معانيه ، ولا بينوا المشكل منه ، فمنهم جبرائيل بن نوح الأنبارى ، وقبله ألّف فى معناه تودرقوس أسقف طرسوس وسمى كتابه المتدبر ، ونقله من أخذه عنه من السريانية إلى العربية ، فأفسده بتأويل الألسنة وسوء العبارة ، ومنها كتاب

نظمه ثاوريطوس أسقف قورس كتبه باليونانية ، ونقل بعده إلى السريانية ثم إلى العربية ، فجرى مجرى الأول المفسود بتداول النقل والعبارات ، ومنها كتاب ألف فى أيام بنى أمية ، نظمه يسوعنجت مطران فارس ، وكتبه بالفارسية فأكسبه استغلاقاً اه . وجمع الجاحظ محاسن ما وجده فى هذه الكتب وزاده بمقدار الطاقة ، وشرح ما نقل من غيره ، وبين القول فيما زاده ، ورتبه ترتيباً يونق السمع ، ويسر القلب ، ويبسط السامع ، ويوجب الحجة على المخالف .

وقال فى مقدمة كتابه حجج النبوة : والذى دعانا إلى تأليف حجج الرسول ونظمها ، وجمع وجوهها وتدوينها ، أنها متى كانت مجموعة منظومة نشط لحفظها وتفهمها من كان عسى أن لا ينشط لجمعها ، ولا يقدر على نظمها وجمع متفرقها وعلى اللفظ المؤثر عنها ، ومن كان عسى أن لا يعرف وجه مطلبها والوقوع عليها ، ولعل بعض الناس يعرف بعضها ويجهل بعضها ؛ ولعل بعضهم ، وإن كان قد عرفها بحقها وصدقها ، فلم يعرفها من أسهل طرقها ، وأقرب وجوهها ، ولعل بعضهم أن يكون قد كان عرف فنسى ، أو تهاون بها فعمى ، بل لا نشك أنها إذا كانت مجموعة متخيرة مستقصاة مفصلة أنها ستزيد فى بصيرة العالم ، ويجمع الكل كمن كان لا يعرف إلا البعض ، ويذكّر الناسى ويكون عدة على الطاعن . ولعل بعض من ألحد فى دينه ، وعمى عن رشده ، وأخطأ موضع حظه ، أن يدعوه العجب بنفسه ، والثقة بما عنده إلى أن يلتمس قراءتها ، ليتقدم فى نقضها وإفسادها ، فإذا قرأها فهمها ، وإذا فهمها انتبه من رقدته ، وأفاق عن سكرته ، لعز الحق وذل الباطل ، ولإشراف الحجة على الشبهة ، ولأن من تفرد بكتاب فقرأه ليس كمن نازع صاحبه وجافاه ، لأن الإنسان لا يباهى نفسه ، والحق بعد قاهر له ، ومع التلاقى يحدث التباهى ، وفى المحافل يقل الخضوع ويشتد النزوع اه .

وقال فى مقدمة رسالته التبصر بالتجارة : « سألت ، أكرمك الله ، عن أوصاف ما يستظرف فى البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة المرتفعة القيمة ، ليكون ذلك مادة لمن حنكته التجارب ، وعوناً لمن مارسته وجوه المكاسب والمطالب » . وقال فى مقدمة رسالة « الحنين إلى الأوطان » : « إن لكل شىء من العلم ، ونوع من الحكمة ، وصنف من الأدب ، سبباً يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتتاً ، ومعنى يحدو على جمع ما كان متفرقاً ، ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة ، تمييز الأخبار ، واستنباط الآثار ، وضم كل جوهر نفيس إلى شكله ، وتأليف كل نادر من الحكمة إلى مثله ، بطلت الحكمة وضاع العلم ، وأميت الأدب ، ودرس مشهور كل نادرة ، ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر ، ونقرهم آثار الأوائل فى الصخر ، لبطل أول العلم وضاع آخره . ولذلك قيل : لا يزال الناس بخير ما بقى الأول يتعلم من الآخر . »

وهكذا تراه يتفنن فى مقدمات كتبه ورسائله تفننه فى تأليفها ووضعها ، فقد قال فى مقدمة كتابه البخلاء : « ذكرت حفظك الله أنك قرأت كتابى فى تصنيف حيل لصوص النهار ، وفى تفصيل حيل سُرّاق الليل ، وأنك سددت به كل خلل ، وحصنت به كل عورة ، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع ، ونبهك عليه من غرائب الحيل ، فيما عسى أن لا يبلغه كيد ، ولا يحوزه مكر ، وذلك أن موقع نفعه عظيم ، وأن التقدم فى درسه واجب ، وقلت اذكر لى نوادر البخلاء ، واحتجاج الأشحاء ، وما يجوز من ذلك فى باب الهزل ، وما يجوز منه فى باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحاً ، والراحة جَماماً ، فإن للجد كداً يمنع من معاودته ، ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته » .

وبدأ كتابه المحاسن والأضداد بقوله : « كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان

والمدن والحصون ، مثل بناء أردشير وبناء إصطخر ، وبناء المدائن والسَّدير ، ثم إن العرب شاركت العجم فى البنيان ، وتفردت بالكتب والأخبار والشعر والآثار ، فلها من البنيان غمدان . وكعبة نجران ، وقصر مأرب وقصر مارد ، وقصر شَعوب والأبلق الفرد وغير ذلك من البنيان . وتصنيف الكتب أشد تقييداً للمآثر على ممر الأيام والدهور من البنيان ، لأن البناء لا محالة يدرس ، وتعفى رسومه ، والكتاب باق يقع من قرن إلى قرن ، ومن أمة إلى أمة . فهو أبداً جديد ، والناظر فيه مستفيد ، وهو أبلغ فى تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير .

« وكانت العجم تجعل الكتاب فى الصخور ، ونقشاً فى الحجارة ، وخِلقة مركبة فى البنيان ، فربما كان الكتاب هو الناتئ ، وربما كان هو المحفور ، إذا كان ذلك تاريخاً لأمر جسيم ، أو عهداً لأمر عظيم ، أو موعظة يرتجى نفعها ، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره ، كما كتبوا على قبة غمدان ، وعلى باب القيروان ، وعلى باب سمرقند ، وعلى عمود مأرب ، وعلى ركن المشقَّر ، وعلى الأبلق الفرد ، وعلى باب الرُّها . يعمدون إلى المواضع المشهورة ، والأماكن المذكورة ، فيضعون الخط فى أبعد المواضع من الدثور ، وأمنعها من الدروس ، وأجدر أن يراه من مرَّ به ، ولا يُنسى على وجه الدهور . ولولا الحكم المحفوظة ، والكتب المدونة ، لبطل أكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار . ولو لم يتم ذلك لحرمنا أكثر النفع . ولولا ما رسمت لنا الأوائل فى كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا مالم ندركه إلا بهم ، لقد بَخُس حظنا منه . وأهل العلم والنظر ، وأصحاب الفكر والعبر ، والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل ،

وورثة الأنبياء ، وأعوان الخلفاء ، يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء ، وكتب الملاهى ، وكتب أعوان الصلحاء ، وكتب أصحاب المراء والخصومات ، وكتب السخفاء وحمية الجاهليـة . ومنهم من يفرّط فى العلم أيام خموله ، وترك ذكره وحداثة سنه » . انظر إلى هذه الرشاقة مع الجزالة ، وإلى هذه الإحاطة بكل مايجب أن يقال فى هذا المجال . وهذه المقدمة تشعر بأن هذا الـكتاب أو معظمه هو من قلم الجاحظ أو جمعه بعضهم من كلامه وكلام غيره .

أما بعد فليس أبدع من هذه المقالة يدلى بها « إلف تفـكير وتنقير ، ودَرَّاسة كتب ، وحلف تبيين » لإقناع من يزعم أن مثل هذه الموضوعات ليست مما يخلق بالتدوين ، ويرد بها على من شهدهم « أملياء بالخرافات ، أقوياء على رد الصحيح ، وتصحيح السقيم » . قال فى سبب تأليفه « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » : « إن ذهبنا ، حفظك الله ، بعقب هذه الاحتجاجات ، وعند منقطع هذه الاستدلالات نستعمل المفاوضة بمناقب الأتراك ، والموازنة بين خصالهم ، وخصال كل صنف من هذه الأصناف ، سلـكنا فى هذا الـكتاب سبيل أصحاب الخصومات فى كتبهم ، وطريق أصحاب الأهواء فى الاختلاف الذى بينهم ، وكتابنا هذا إنما تـكلفناه لنوفق بين قلوبهم ، إن كانت مختلفـة ، ولنزيد فى الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت فى النسب ، وكم مقدار الخلاف فى الحسب ، فلا يغيّر بعضهم مغير ، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة ، وشبهات مزورة ، فإن المنافق العليم ، والعدو ذا الـكيد العظيم ، قد يصور لمن دونه الباطل فى صورة الحق ، ويلبس الإضاعة ثياب الحزم » ؛ « وأنا أقول إن كان لا يمكن ذكر مناقب الأتراك ، إلا بذكر مثالب سائر الأجناد ، فترك ذكر الجميع أصوب ،

والإضراب عن هذا الكتاب أحزم ، وذكر الكثير من هذه الأوصاف بالجميل ، لا يقوم بالقليل من ذكر بعضهم بالقبيح ، لأن ذكر الأكثر بالجميل نافلة ، وباب من التطوع ، وذكر الأقل بالقبيح معصية ، وباب من ترك الواجب ، وقليل الفريضة أجدى علينا من كثير التطوع ، ولكل الناس نصيب من النقص ومقدار من الذنوب ، وإنما تتفاضل بكثرة المحاسن وقلة المساوى . فأما الاشتمال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوى دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يُعرف » .

وعلى هذا المعنى يقدم بين يدى نجواه ، الدواعى والبواعث إلى التأليف ، خصوصاً و بعض ما يفرده بالتصنيف قد يكون مما تستغرب الكتابة فيه ، مثل رسالته فى فخر السودان على البيضان ، وقوله فى المقدمة إنه كتب فى ذلك ما حضره من مفاخر السودان . ومثل رسالته فى أخلاق الكتاب ، جواباً على من مدح أخلاقهم ووصف فضائلهم وأعيانهم ، فذكر رداءة مذاهبهم وأفعالهم ولؤم طباعهم وأخلاقهم مشفوعة بالحجة « إذ كان فى ذلك من التبيان ما يبهرهم ، ومن القول ما يسكتهم » ؛ وقال فى غرض تأليف رسالته فى القيان : « فوضعنا فى كتابنا هذا حججاً على من عابنا بملك القيان ، وسبنا بمنادمة الإخوان ، ونقم علينا إظهار النعم والحديث بها ، ورجونا النصر إذ قد بُدينا ، والبادى أظلم ، وكاتب الحق فصيح (و يروى : ولسان الحق فصيح) ، ونفس المجروح لا يقام لها ، وصولة الحليم المتأنى لا بقاء بعدها . فبينا الحجة فى اطراح الغيرة فى غير محرم ولا ريبة » .

وذكر فى رسالته تفضيل النطق على الصمت أنه وجد كلام من زعم أن الصمت أفضل من الكلام « كلام امرئ قد أعجب برأيه ، وارتطم فى هواه ، وظن أنه قد نسج فيها كلاماً ، وألف ألفاظاً ، ونسج له معانى على نحو مأخذه

ومقصده ، أنه كان مَثَله فى ذلك مثل من تخاص إلى الحاكم وحده ففاجأ بحجته ، وإنى سأوضح لك ذلك ببرهان قاطع ، وبيان ساطع ، وأشرح فيه من الحجج ما يظهر ، ومن الحق ما يقهر ، بقدر ما أتت عليه معرفتى ، وبلغته قوتى ، وملكته طاقتى ، بما لا يستطيع أحد رده ، ولا يمكنه إنكاره وجحده » . وفى رسالته فى « مدح التجار وذم عمل السلطان » : « وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان ، فأما عليَتهم ومصاصهم[1] وذوو البصائر والتمييز منهم ... فيعلمون أنهم (أى التجار) أروح الناس أبداناً وأهنؤهم عيشاً ، وآمنهم سِرباً ، لأنهم فى أفنيتهم ، كالملوك على أسرتهم ، يرغب إليهم أهل الحاجات ، وينزع إليهم ملتمسو البياعات ، لا تلحقهم الذلة فى مكاسبهم ، ولا يستعبدهم الضَّرَع لمعاملاتهم ، وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه ، وقارب بخدمته ؛ فإن أولئك لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن هم لهم خَوَل مملوءة ، قد لبسها الرعب ، وألفها الذل ، وصحبها ترقب الاحتياج ، فهم مع هذا فى تكدير وتنغيص ، خوفاً من سطوة الرئيس ، وتنكيل الصاحب ، وتغير الدول ، وافتراض حلول المحن ، فإن هى حلت بهم ، وكثيراً ما تحل ، فناهيك بهم مرحومين ، يرق لهم الأعداء فضلاً عن الأولياء » .

ومما قال فى رسالته فى الوكلاء : « وأخلق بمن كان فى صفتك ، وأحر بمن جرى عن دربتك ، أن لا يكون سبب تسرعه ، وعلة تشحنه ، إلا من ضيق الصدر ، وجميع الخير راجع إلى سعة الصدر ، فقد صحّ الآن أن سعة الصدر أصل ، وما سوى ذلك من أصناف الخير فرع . وقد رأيتك حفظك الله تعالى خوَّنت جميع الوكلاء وفجرتهم ، وشنعت على جميع الوراقين وظلمتهم ، وجمعت

(١) المصاص بضم الميم : خالص كل شىء .

جميع المعلمين وهجوتهم ، وحفظت مساويهم ونسيت محاسنهم ، واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام والجلة » .

وكانت رسالته فى « الرد على النصارى » جواب كتاب جاءه من أحدهم ، يذكر فيه من مسائل النصارى قِبَله ، وما دخل على قلوب أحداثهم وضعفائهم من اللبس ، وما خاف على جواباتهم من العجز ، وسأله إقرارهم بالمسائل ، وحسن معونتهم بالجواب قال : « وسنقول فى جميع ما ورد علينا من مسائلكم ، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحجج القوية ، والأدلة الاضطرارية » ؛ وقال فى الإبانة عن رسالته فى البخلاء : « ولكَ فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبيين حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت فى ضَحِك منه إذا شئت ، وفى لهو إذا ملات الجد » .

وكتب فى كتابه طبقات المغنين ما دعاه إلى تأليفه فقال : « إنه خُص زمانه بفتية أشراف انتظم لهم من آلات الفتوة وأسباب المروءة ما كان محجوباً عن غيرهم ، معدوماً من سواهم ، فحملنى الكلف بهم ، والمودة لهم ، والسرور بتخليد فخرهم ، وتشييد ذكرهم ، والحرص على تقويم أود ذوى الأود منهم ، حتى يلحق بأهل الكمال فى صناعته ، والفضل فى معرفته ؛ وعلى تمييز طبقة طبقة منهم ، وتسمية أهل كل طبقة بأوصافهم وآلاتهم وأدواتهم والمذاهب التى نسبوا إليها أنفسهم ، واحتملهم إخوانهم عليها ، وخلطنا جداً بهزل ، ومزجنا تعريفاً بتعريض ، ولم نرد بأحد ممن سمينا سوءاً ، ولا تعمدنا نقداً ، ولا تجاوزنا حداً ، ولو استعملنا غير الصدق لفضلنا قوماً ، وحابينا آخرين ، ولم نفعل ذلك تحيباً للحيف ، بل قصداً للإنصاف ... ولم نقصد فى وصف من وصفنا من الطبقات التى صنفنا منهم إلا لمن أدركنا من أهل زماننا ممن حصل بمدينة السلام ...

وذلك فى سنة خمس عشرة ومائتين . . . وقد تركنا فى كل باب من الأبواب التى صنفناها فى كتابنا فرجاً لزيادة إن زادت ، أو لاحقة إن لحقت ، أو نابتة إن نبتت ، ومن عسى أن ينتقل به الحذق من مرتبته إلى ما هو أعلى منها ، أو يعجز به القصور عما هو عليه منها إلى ما هو دونها إلى مكانه الذى إليه نقله ارتفاع درجته أو انحطاطها ، ومن لعلنا نصير إلى ذكره ممن عَزُب عنا ذكره ، وأُنسينا اسمه ، ولم يحط علمنا به ، فنصيره فى موضعه ونلحقه بأصحابه ، وليس لأحد أن يثبت شيئاً من هذه الأصناف إلا بعلتها ، ولا يستبد بأمر فيه دوننا . ويورد ذلك علينا فيمتحنه ، ويعرفه بما عنده ويصير إلى ترتيبه فى المرتبة التى يستحقها ، والطبقة التى يحتملها ، فلما استتب لنا الفراغ مما أردنا من ذلك ، خطر ببالنا كثرة العيابين من الجهال برب العالمين ، فلم نأمن أن يسرعوا بسفه رأيهم ، وخفة أحلامهم إلى نقض كتابنا وتبديله ، وتحريفه عن مواضعه ، وإزالته عن أماكنه ، التى عليها رسمنا ، وأن يقول كل امرئ منهم فى ذلك على حاله ، وبقدر هواه ورأيه ، وموافقته ومخالفته ، والميل فى ذلك إلى بعض ، والذم لطبقة والحمد لأخرى ، فيهجنوا كتابنا ، ويلحقوا بنا ما ليس من شأننا . وأحببنا أن نأخذ فى ذلك بالحزم ، وأن نحتاط فيه لأنفسنا ومن ضمه كتابنا ، ونبادر إلى تفريق نسخة منها وتصييرها فى أيدى الثقات والمستبصرين الذين كانوا فى هذا الشأن ، ثم ختموا ذلك بالعزلة والتوبة منه كصالح بن أبى صالح وكأحمد بن سلام وصالح مولى رشيد ، ففعلنا ذلكَ وصيرناه أمانة فى أعناقهم ، ونسخة باقية فى أيديهم ، ووثقنا بهم أمناء ومستودعين ، وحفظة غير مضيعين ولا متهمين ، وعلمنا أنهم لا يدعون صيانة ما استودعوا ، وحفظ ما عليه ائتمنوا ، إذا شيب به شوب يخالفه ، وأُضيف إليه ما لا يلائمه اه » .

و بدأ كتابه صناعة القواد بقوله : « أرشدكَ الله للصواب ، وعرفك فضل أولى الألباب ، ووهب لك جميل الآداب ، وجعلك ممن يعرف عن الأدب ، كما يعرف زوائد الغنى ، قال أبو عثمان : دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، فى اللسان عشر خصال : أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الأشياء ، وواعظ يعرف به القبيح ، ومغرّد ترد به الأحزان ، وخاصة تزهى بالصنيعة ، وماهى يونق الأسماع » .

وقال فى مقدمة كتابه الحجاب : « أطال الله بقاكَ ، وجعلنى من كل سوء فداكَ ، وأسعدكَ بطاعته ، وتولاكَ بكرامته ، ووالى إليك مزيده ؛ اعلم أنه يقال « أكرمك الله » أن السعيد من وعظ بغيره ، وأن الحكيم من أحكمته تجاربه ؛ وقد قيل كفاكَ أدباً لنفسك ما كرهت من غيرك ، وقيل كفاك من سوء الفعل سماعه ، وقيل إن من يقظة الفهم للواعظ مايدعو النفس إلى الحذر من الخطأ ، والعقل إلى تصفيته من القذى ، وكانت الملوك إذا أتت ما يجل عن المعاتبة عليه ضُربت لها الأمثال وعُرّض لها بالحديث » .

و بهذا الوصف عرفنا بعض طريقته فى التأليف .

ومما كتب فى صدر رسالة النساء راداً على من حاول الطعن على كتابه ، وسخف الرأى الذى دعا إلى تأليفه ، والإشادة بذكره : « إذ كانت الدنيا لا تنفك من حاسد باغ ، ومن قائل متكلف ، ومن سامع طاعن ، ومن منافس مقصر ، كما أنها لا تنفك من ذى سلامة مستسلم ، ومن عالم متعلم ، ومن عظيم الخطر ، حسن المحضر ، شديد المحاماة على حقوق الأدباء ، قليل التسرع إلى أعراض العلماء » .

والحاصل أن أبا عثمان أبدع فى رسائله وكتبه وفى مقدماتها ، وقد طلب إليه أحد أصدقائه أن يكتب له صفات الشارب والمشروب ، وما فيهما من المدح والعيوب ، وأن يميز له بين الأنبذة والخمر ، وأن يقفه على حد السكر وأن يعرفه السبب الذى يرغب فى شرب الأنبذة وما فيها من اجتلاب المنفعة وما يكره من نبيذ الأوعية — طلب منه هـذا فكتبه ، فكأنه عاش حياته بين البواطى والجرار والقدور والخمارين والسكيرين والمخمورين ؛ وهذا آية إبداعه وعنوان تناهيه فى أدبه يحسنُ كل شىء ويحسن وصف كل شىء .

وقال فى صدر كتابه فى المعلمين : أعانكَ الله على سورة الغضب ، وعصمكَ من ثورة الهوى ، وصرف ما أعاركَ من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح فى قلبك إيثار الأناة ، فقد استعملت فى المعلمين نَوْكَ السفهاء ، وخطل الجهلاء ، ومفاحشة الأدنياء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وتهكم المقتدرين ، وأمن المفترين ، ومن تعرض للعداوة وجدها حاضرة ، ولا حاجة بك إلى تكلف ما كفيت .

كتب أبو عثمان بعض كتبه عن طلب من أصدقائه ، ومنهم من ذكرت فيها أسماؤهم ومنهم من لم تعرف كما وقع له فى كتاب حجج النبوة أن قال : قد أعجبنى حفظك الله استهداؤك العلم وفهمك له ، وشغفك بالإنصاف وميلكَ إليه ، وتعظيمك الحق وموالاتك فيه ، ورغبتك عن التقليد ، وزرايتك عليه ، ومواترة كتبك على بعد دارك ، وتقطع أسبابك ، وصبرت إلى أوان الإمكان ، واتساعك عند تضايق العذر ، وفهمت حفظك الله كتابك الأول وما حثثت عليه من تبادل العلم والتعاون على البحث والتحاب فى الدين والنصيحة لجميع المسلمين ، وقلت اكتب إلىَّ كتاباً تقصد فيه إلى حاجات النفوس ، وإلى إصلاح القلوب ، وإلى معتلجات الشكوك ، وخواطر الشبهات ، دون الذى عليه أكثر المتكلمين

من التطويل ومن التعمق والتعقيد ، ومن تكلف ما لا يجب ، و إضاعة ما يجب ، وقلت كن كالمعلم الرفيق ، والمعالج الشفيق ، الذى يعرف الداء وسببه ، والدواء وموقعه ، و يصبر على طول العلاج ولا يسأم كثرة الترداد الخ .

* * *

أظننا الآن جلينا بعض ما خاض الجاحظ غماره ، وجلّى فى مضاميره من الأبحاث ، وما أشبهه بصحيفة عصره السيارة ينطق فيها بلسان حزب الوطن ، وحزب الدولة ، وحزب الدين ، و يدل الناس على مراشدهم ، و يكشف عن عورات الفاسدين ، و يعلمهم الفضائل ، و يلقنهم كل ما تستنير به عقولهم لاستصلاح جماعاتهم ، يعرفهم بالإسلام من طريق العقل والنقل ، يأتيهم بما يقنعهم ، و يزيد إيمانهم وثوقاً ، ككتبه فى إثبات النبوة ونظم القرآن وفصل ما بين النبى والمتنبى .

قال ابن الخياط : ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ فى الرد على المشبهة ، وكتابه فى الأخبار و إثبات النبوة ، وكتابه فى نظم القرآن علم أن له فى الإسلام غَناءً عظيماً ، لم يكن الله عز وجل ليضيعه له . ولا يعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ ؛ وهذه كتبه فى إثبات الرسالة وكتبه فى تصحيح مجىء الأخبار مشهورة اهـ .

الجاحظ المعلم الأول يعلم الناس أن لا يؤمنوا بشىء إلا إذا صح فى نظام العقل ، و يريدهم على أن تدق ملاحظتهم ، و يرهف حسهم ، يعلم حرية النظر والبحث ولسان حاله : إن الدين لا يصلح بغير الدنيا ، وأن الشريعة جاءت لإصلاح الأولى والأخرى ، فتراه يكتب دفاتر مشبعة فى ذم الزنى وفى الشارب والمشروب و إثم المسكر ، وفى شرائع المروءة ، وفى العشق والنساء وفضل ما بين الرجال والنساء ، وفى الجوارى والمعلمين والطفيليين والمغنين وفى العرجان والبرصان

والقرعان ، وفى الأسماء والكنى والألقاب والأنباز ، وفى الأصنام ، وفى الانس والسلوة ، وفى حيل اللصوص وغش الصناعات وأخلاق الشطار ، ويكتب فى المعادن والتجارة وفى الزرع والنخل والزيتون والأعناب ، وقلما ترى له تخليطاً يذكر إلى جانب تخليط غيره من المؤلفين .

ذكر الجاحظ بنى مروان وبنى أمية فى رسالة ما لهم وما عليهم ، مع أنه لا يتولاهم ؛ يقول المسعودى وقوله يؤخذ أبداً بتحفظ : إن الجاحظ ألف كتاباً بإمامة ولد العباس يحتج فيه لهذا المذهب وأنه لم يصنف هذا الكتاب ، ولا استقصى فيه الحجج للراوندية ، وهم شيعة ولد العباس ، لأنه لم يكن مذهبه ولا كان يعتقده ، لكن فعل ذلك تماجناً وتطرباً ؛ وقد صنف كتاباً استقصى فيه الحجج ترجمه بكتاب العثمانية ، يحيل فيه عند نفسه فضائل على ومناقبه ، ويحتج فيه لغيره ، ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بالعثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر فى إمامة المروانية وأقوال شيعتهم . قال رأيته مترجماً بكتاب إمارة أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان فى الانتصار له من على بن أبى طالب وشيعته الرافضة يذكر فيه رجال المروانية ويؤيد فيه إمامة بنى أمية وغيرهم ، ثم صنف كتاباً آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية يذكر فيه ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه من فضائل أمير المؤمنين على ومن تبعه اهـ . وهذه الكتب لم تصلنا فى جملة عشرات من كتبه فقدت ، فما استوثقنا بما ادعاه عليه المسعودى .

وإليك ما قاله فيما عيب عليه من كتبه ، وكأنه جواب لمخالفيه ، والمسعودى داخل فى زمرتهم : « وعبتنى بكتاب الصرحاء والهجناء ، ومفاخر السودان والحمران ، وموازنة ما بين حق الخؤولة والعمومة . وعبتنى بكتاب الزرع والنخل

والزيتون والأعناب ، وأقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات ، وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء ، وفرق ما بين الذكور والإناث ، وفى أى موضع يغلبن ويفضلن ، وفى أى موضع يكن المغلوبات والمفضولات ، ونصيب أيهما فى الولد أوفر ، وفى أى موضع يكون حقهن أوجب ، وأى عمل هو بهن أليق ، وأى صناعة هن فيها أبلغ . وعبتنى بكتاب القحطانية والعدنانية ، وفى الرد على القحطانية ، وزعمت أنى جاوزت فيه حد الحمية إلى حد العصبية ، وأنى لم أصل إلى تفضيل العدنانيـة إلا بتنقص القحطانية . وعبتنى بكتاب العرب والموالى ، وزعمت أنى بخست الموالى حقوقهم ، كما أنى أعطيت العرب ما ليس لهم . وعبتنى بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أن القول فى فرق ما بين العرب والعجم ، هو القول فى فرق ما بين الموالى والعرب . ونسبتنى إلى التكرار والترداد وإلى التكثر والجهل بما فى المُعَاد من الخطل ، وحمل الناس المؤن . وعبتنى بكتاب الأصنام وبذكر اعتلالات الهند لها ، وسبب عبادة العرب إياها ، وكيف اختلفا فى جهة العلة ، مع اتفاقهما على جملة الديانة ، وكيف صار عباد البددة ، والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة والأصنام المنجورة ، أشد الديانيين إلفاً لما دانوا به وشغفاً لما تعبدوا له ، وأظهرهم جدًّا ، وأشدهم على من خالفهم ضغناً .

وقال : « وعبتنى بكتاب المعادن والقول فى جواهر الأرض وفى اختلاف أجناس الفلز والإخبار عن ذائبها وجامدها ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها ويبطئ عن بعضها ، وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ ، وبعضها يصبغ وينصبغ ، وما القول فى الإكسير والتلطيف . وعبتنى بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس ، وكتاب فرق ما بين الجن والإنس ، وفرق ما بين الملائكه والجن ، وكيف القول فى

استيلاء العفريت على سليمان وفى الهدهد ، وفى الذى كان عنده علم من الكتاب ، وما الذى هو ذلك العلم ، وما تأويل قولهم كان .

« وعبتنى بكتاب الأوفاق والرياضات ، وما القول فى الأرزاق والإنفاقات ، وكيف تجرد التجار الحرفاء ، وكيف الاحتيال للودائع ؛ وبكل ما كتبت إلى إخوانى وخلطائى من مزح وجد ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تغافل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال ميسمه[1] باقياً ، ومديح لا يزال أثره نامياً ، ومن ملح تضحك ومواعظ تبكى . وعبتنى برسائلى الهاشميات واحتجاجى فيها ، واستقصائى معانيها وتصويرى لها فى أحسن صورة ، وإظهارى لها فى أتم حلية . وزعمت أنى قد خرجت بذلك من حد المعتزلة إلى حد الزيدية ، ومن حد الاعتدال فى التشيع والاقتصاد فيه ، إلى حد السرف والإفراط فيه ؛ وزعمت أن مقالة الزيدية خطيئة مقالة الرافضة ، وأن مقاله الرافضة خطيئة مقالة الغالية . وزعمت أن فى أصل القضية والذى جرت عليه العادة أن كل كبير فأوله صغير ، وأن كل كثير فإنما هو قليل جمع إلى قليل . . . »

وأنت ترى أن ذاك العائب لأبى عثمان لم يبق له كتاباً لم يعبه بتأليفه ، وإن كان بلغ من إحكامه شوطاً بعيداً ، ثم عاد فقال : « وعبت كتابى فى خلق القرآن ، كما عبت كتابى فى الرد على المشبهة ، وعبت القول فى أصول الفتيا والأحكام ، كما عبت كتابى فى الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه وبديع تركيبه ، وعبت معارضتى للزيدية ، وتفضيل الاعتزال على كل نحلة ، كما عبت كتابى فى الوعد والوعيد ، وكتابى على النصرانى واليهودى ، ثم عبت جملة كتبى فى المعرفة ، والتمست تهجينها بكل حيلة ، وصغرت من شأنها ، وحططت

(١) الميسم المكواة .

من قدرها ، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها ، فعبت كتاب الجوابات ، وكتاب المسائل ، وكتاب أصحاب الإلهام ، وكتاب الحجة فى تثبيت النبوة ، وكتاب الأخبار ، ثم عبت إنكارى بصيرة غنام المرتد ، و بصيرة كل جاحد وملحد ، وتفريقى بين اعتراض الغمر ، و بين استبصار الملحد ، وعبت كتاب الرد على الجهمية فى الإدراك ، وفى قولهم فى الجهات ، وكتاب فرق ما بين النبى والمتنبى ، والفرق ما بين الحيل والمخارق ، و بين الحقائق الظاهرة والأعلام الباصرة ، ثم قصدت إلى كتابى هذا بالتصغير ... »

لقى الجاحظ الألاقى من خصومه المشاغبين والمعارضين ، ولكن ذهبت أقوالهم فى الريح ، وذهب هو بالإحسان ، ثبتت مصنفاته وانتشرت و بقى الأنسب ، وانقرض الثرثارون وما ثرثروا به ، وأى عصر ، وأى مذهب ، وأى جنس خلا من أمثالهم ؟

سياسته ودهاؤه :

الجاحظ رجل سياسة أيضاً كما هو معن مفن[1] ، عرف سياسة الوقت معرفته سياسة العلم . ومع اعتياده عادة العلماء كما قال ابن خلدون « النظر الفكرى والغوص على المعانى وانتزاعها من المحسوسات ، وتجريدها فى الذهن أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم ، لا بخصوص مادة ولا شخص ، ولاجيل ولا أمة ، ولا صنف من الناس » مع اعتياده هذا اشترك فى الدفاع عن كيان الدولة ، وقصر وُكْدَه على الأمور الكبرى ، وما دخل فى تفاصيل السياسة العباسية . ولو شارك فيها لكثر غلطه عند إرادته إفراغ السياسة فى قالب أنظاره ، ونوع

(١) رجل مفن كمسن يأتى بالعجائب والمعن الخطيب ، ورجل معن مفن ذو فنون من الكلام .

استدلالاته ، من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض .

وأقل نظرة فى كتبه تنبئك بأنه آزر فى خدمة دولته ، وأسفاره فى الفرق ما بين « هاشم وعبد شمس » و « الرسائل الهاشميات » و « العباسية » و « العرب والموالى » و « العرب والعجم » و « وجوب الإمامة » و « الدلالة على أن الإمامة فرض » و « مناقب الترك » كلها شاهدة أنه ساهم السياسيين إلى الحد الذى استجازه لنفسه . وإنا إذا نظرنا إلى اتصاله بوزراء الدولة ، وإلى حرص كل واحد منهم على أن يختص به دون غيره ، ندرك أن من شغفوا بصحبته للانتفاع بفضله وعلمه والاستمتاع بحديثه ، لابد أن يحاولوا حمله على معاونتهم فيما هم بسبيله من مشاكلهم ، علماً منهم بتأثير كلامه فى الأفكار ؛ ومنهم من كان يعمل لدولته فى حاضرها ، ويهتم لمستقبلها ، أمثال ابن خاقان وابن أبى دواد وابن الزيات .

ومن يؤلف كتاب الفرق ما بين هاشم و بنى عبد شمس ، لا يُعقل إلا أن يسير إلى جنب بنى هاشم ، وهم أصحاب الدولة القائمة ، والجاحظ خصوصاً بحكم مذهبه لا يتولى بنى أمية . ومن يؤلف « الهاشميات » و « كتاب العباسية » لا يتوخى غير خدمة العباسيين ، ولا يكتب إلا ما ينفع الهاشميين . وشىء آخر وهو أن أبا عثمان لو لم يتخذ هذه الخطة السياسية ، يراعى الخلفاء ، وأبناء الدعوة ووزراءهم ، لاستضعفه أعداؤه ، وكان له أعداء فى مذهبه ، وأعداء فى علمه وفكره ، وحساد غلاظ شداد من طبقة العلماء ، وطواغيت أغبياء ، يكرهون برداءة فِطَرهم كل من ينبغ ويشتهر . هذا وفى أرض المملكة ألوف من المعجبين به ، وأكثرهم من الخواص ، والعوام متسلطون عليهم فى أغلب الأزمان والبلدان ؛ فلولا السياسة التى اتبعها الجاحظ ، ولولا ما أدرك المخالف

والموالف ، أن له يداً عند السلطان ، وأنه يرعاه و يبسط عليه جناح رحمته ، لناله شيء من أذى العامة والخاصة ، بإيعاز أنصار السوء ؛ فأبو عثمان اتخذ بالطريقة التى سلكها فى بعض تآليفه يداً عند الخلفاء ورجال الدولة فغدوا له قوة وسنداً .

انظر إلى قوله فى جملة طبقات الناس : « وضرب آخر من الناس همج هامج وَرعاع منتشر ، لا نظام لهم ولا اختيار عندهم ، أعراب أجلاف ، وأشباه الأعراب ، لا تدفع صولتهم إذا هاجوا ، ولا يؤمن هيجانهم إذا سكنوا ، إن أخصبوا طغوا فى البلاد ، و إن أجدبوا آثروا العناد ، ثم هم موكلون ببغض القادة ، وأهل الثراء والنعمة ، يتمنون النكبة ، و يشمتون بالعثرة ، و يسرون بالحولة ، و يترقبون الدائرة ، وهم كما وصفوا الطغام والسفلة » .

وقال من رسالة فى وصف العوام : « قد عرفت ما كان الناس فيه من القول بالعامة وما لهم من الجماعات الكثيرة والقوة الظاهرة ، وليست للخاصة طاقة بالعامة ، ولا للعِلْيَة قوة على السفلة . وقد قالت الأوائل فيهم ، وفى الاستعاذة بالله تعالى منهم ، فقال على رضى الله عنه : نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يملكوا و إذا تفرقوا لم يعرفوا . وقال واصل بن عطاء : ما اجتمعوا إلا ضروا ولا تفرقوا إلا نفعوا . قيل له قد عرفنا مضرة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ قال : يرجع الطيان إلى تطيينه ، والحائك إلى حياكته ، والفلاح إلى فلاحته ، وكل إنسان إلى صناعته ، وكل ذلك رفق للمسلمين ومعونة للمحتاجين . وكان عمر بن عبد العزيز إذا نظر إلى الطغام والحشوة قال : قبح الله هذه الوجوه التى لا تعرف إلا عند الشر ... »

ذلك رأيه فى العامة ، و إذا تدبرنا كلاماً له مثلاً ، يعتذر فيه عن السلطان و يعلل سبب نقمة بعضهم عليه ، لا نتحرج من أن نذهب إلى أن هذا الفصل

ما كتبه إلا ليقلل من شأن الناقمين على السياسة يومئذ ، وجوابه المقدر أصح جواب يقوله سياسى ، وهذا هو :

« السلطان لا يخلو من متأول ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زارٍ ، ومن متعطل متصفح[1] ، ومن معجب برأيه ، ذى خطل ببيانه ، مولع بتهجين الصواب ، والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان المملكة ، يضع نفسه فى موضع الرقباء ، وفى موضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يعذر وإن كان مجازُ العذر واضحاً ، ولا يقف فيما يكون للشك محتملاً ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنه لا يعرف مصادر الرأى من لم يشهد موارده ، ولا مستدبره من لم يعرف مستقبله ، ومن محروم قد اضطغنه[2] الحرمان ، ومن لئيم قد أفسده الإحسان ، ومن مستبطئ قد أخذ أضعاف حقه ، وهو لجهله بقدره ، ولضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذى بقى له أكثر ، وأن حقه أوجب ؛ ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه ، لكان لذلك أهلاً وله مستحقًّا ، قد غره الإملاء ، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ ؛ وصاحب فتنة خامل فى الجماعة ، رئيس فى الفرقة ، نعاق فى الهرج ، قد أقصاه عز السلطان ، وأقام صغوه ثقاف الأدب[3] ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مغيظ لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشفى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى

---

(١) الزارى العائب ، والمتصفح الذى ينظر فى الأمر بإمعان ، وتهجين الأمر تقبيحه ، والطالب والرائد الذى يرسل فى طلب الكلأ .

(٢) اضطغنه جعله مشتملا على الضغن وهو الحقد .

(٣) الصغو الميل ، والثقاف كسحاب ما يسوى به الرماح أى يثقفها ، والنعيق صوت الراعى بغنمه ، والهرج الفتنة والاختلاط .

الأمانى ، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب ، ومفتون مرتاب ، وحارصٍ لا خير فيه ، وخالف لا غناء عنده ، يريد أن يسوّى بالكفاة ، ويرفع فوق الحماة ، لأمر سلف له ، ولإحسان كان من غيره ، وليس ممن يرب[1] قديماً بحديث ، ولا يحفل بدروس شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحتسبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين ، وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام ، وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق فى مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل فى منازله » .

كتب هذا إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل فى المشكلة التى كان يراها رجال الدولة من أهم ما يُعالج يومئذ ، وهى مسألة اللغط فى الجيش من تسرب الأتراك إليه . ومن يقرأ رسالته فى مدح الأتراك لا يصعب عليه أن يدرك أن الجاحظ على بلاغته ولطيف حيلته ، كان هنا يجمجم ولا يصرح ، هو بحكم دمه وتربيته ومنشئه يحب العرب ، ويعد سائر الأمم دونهم فى المنزلة والجنس ، ويرى أن نساء العرب فى الجملة أعقل من رجال العجم ، ويقول : « فما ظنك بالمرأة منهم إذا كانت مقدمة فيهم » ، ويقول : « لم يكن لعبد المطلب فى قريش نظير ، كما أنه ليس فى العرب لقريش نظير ، وكما أنه ليس فى العرب للناس نظير » . وأكثر أبناء دعوته من الترك فى الجيش ؛ وصارت للأتراك فى الدولة الكلمة المسموعة ، فصبا إلى أن يوفق بين المصلحتين ، مصلحة الدولة فى القضاء على تحاسد العناصر فى جيشها ، والخوف من هؤلاء الأتراك ، وقد بدت طلائع سلطانهم ، وتجلى بطشهم وفتكهم ، وكادت تعرف مراميهم . وعلى هذا كان الجاحظ على بعض صواب فى كتابه هذا ، وإلى معذرة فيما مَوَّه فيه ، فقد نفع نفسه بأن أرضى الأتراك ، ونفع دولته بأن أهدأ الأفكار الثائرة ، وبضع صفحات

---

(١) رب الأمر إذا ساسه وقام بتدبيره .

من كلام الجاحظ أفعل فى الناس من عشرات من رسائل غيره وخطبهم ، وهذا سر تمسك رجال الدولة به والضن بصداقته .

عالج بما رأى مسألة تكاثر الأتراك فى الجيش ، وربما أحنق لثنائه على الترك نفوس بعض العرب عليه ، وهكذا اقتضت سياسة دولته وأمته . وعالج أيضاً مسألة سياسية أخرى ، عنينا مسألة الشعوبية [1] من العجم أعداء العرب ، وقد رأى التناحر بين الفريقين يؤدى إلى انقسام المملكة على نفسها ، إذا فسد تركيب الجيش ، وإذا فسد تركيب الأمة ، فهبَّ بما أوتيه من حكمة يقاتل الشعوبيين ، ويصغر من شأنهم ، ويرفع من قدر العرب ، وما غايته من ذلك إلا خدمة الدعوة العباسية ، ويقول فى الطعن عليهم : « واعلم أنك لم تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نَصَباً ، ولا أقل غُنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن فى قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعُّر تلك النيران المضطرمة » .

حاربهم فى البيان والتبيين ، وحاربهم فى كتاب الموالى والعرب ، وحاربهم فى رسالة النابتة ، وربما فى مواضع أخرى لم تنته إلينا من أقواله ، وحارب الموالى لكراهته « العصبية التى هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التى لا تبقى ديناً

---

(١) الشعوب هم الأعاجم ، وفى العقد أن العرب تسمى العجمى إذا أسلم المسلمانى ، ومنه يقال مسلمة السواد ، والهجين عندهم الذى أبوه عربى وأمه أعجمية ، والمقرف الذى أمه عربية وأبوه أعجمى ، والعجمى النصرانى ونحوه وإن كان فصيحاً ، والأعجمى الأخرس اللسان وإن كان مسلماً ، ومنه قيل زياد الأعجم ، وكان فى لسانه لكنة ؛ ودعى الفرس بالموالى فى الاسلام ؛ وكانوا يسمون أبناء الأحرار فى الجاهلية . ومن قبائل العرب كعبد القيس من كانت تفخر بمواليها .

إلا أفسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها ، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية ، وما قد صار إليه الموالى من الفخر على العجم والعرب » قال : « وليس أدعى إلى الفساد ، ولا أجلب للشر من المفاخرة . . . . . وأى شىء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقر أنه صار شريفاً بعتقك إياه » .

فالجاحظ لم يتلكأ عن خدمة الدولة فى مداواة هذين الجرحين النغّارين فى جسم المملكة ، ناقش من يتنازعون فى صميم الجيش ، ويتنازعون فى صميم الأمة ، وكال بالكيل الوافى لكل من يدعى هذه الدعوى من الخاصة والعامة ، خلافاً لابن قتيبة الذى ادعى أن الشعوبية الذين عادوا العرب كانوا من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكَرَة القرى ؛ فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم ، وأهل الديانة ، فيعرفون ما لهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابتاً .

أى أن هذه العداوة كان العامة يبطنونها ويظهرونها للعرب ، والخاصة من الفرس براء منها . أما الجاحظ فأعقل من أن يغتر بالظواهر ، ويدرك أن معظم النار من مستصغر الشرر . ويقول إن « الفرس أصحاب تنفج وتزيّد ، ولا سيما فى كل شىء مما فى باب العصبية » .

يفترص الجاحظ كل فرصة ليخدم الدعوة الهاشمية وينوه برجالها ، فقد ذكر الكبر والمتكبرين فى العرب ، وانتهى به الكلام إلى مدح هاشم فى هذا الشأن ، على أسلوب تعتقد صحة كل ما روى لك ، تأمل كلامه فى هذا المعنى ، ولعلك تشاطرنا الرأى فى أن الجاحظ بالغ بالحط من خصوم العباسيين ، ليخرج من ذلك إلى مدح من يريد تجميل صورتهم قال :

« والمذكورون من الناس بالكبر ثم من قريش بنو مخزوم وبنو أمية ، ومن

العرب بنو جعفر بن كلاب و بنو زُرارة بن عُدَس خاصة ، فأما الأكاسرة من الفرس فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيداً ، وأنفسهم إلا أرباباً ، واسنا نخبر إلا عن دهماء الناس وجمهورهم ، وكيف كانوا من ملوك وسوقة ، والكبر فى الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ، ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم ، فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة كعبيدنا من السند وذمتنا من اليهود ؛ والجملة أن كل من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين أدنى قدرة ، ظهر من كبره على من تحت قدرته ، على مراتب القدرة ما لا خفاء به ، فإن كان ذمياً وأحس بما له فى صدور الناس تزيد فى ذلك ؛ واستظهرت[1] به طبيعته ، بما يظن أن فيه رقع ذلك الخرق ، وحياص ذلك الفتق ، وسد تلك الثلمة ، فتفَقَّدْ ما أقول لك فإنك ستجده فاشياً . وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكاً من الحر . وشىء قتلته علماً ، وهو أنى لم أر ذا كبر قط على من دونه إلا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه ، فأما بنو مخزوم و بنو أُمية وجعفر بن كلاب و بنو زرارة بن عدس فأبطرهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة ، ولو كان فى قوى عقولهم وديانتهم فضل على قوى دواعى الحمية فيهم ، لكانوا كبنى هاشم فى تواضعهم وفى إنصافهم لمن دونهم » . وذكر فى مكان آخر أن بنى مخزوم ضرب بهم المثل ، ووصفوا فى كل غاية ، فقيل أتيه من مخزومى ، قال وكانت بنو مخزوم تسمى ريحانة قريش لحظوة نسائها عند الرجال ، وكانت الجارية تولد لأحد آل الحرث بن هشام (المخزومى) فتتباشر النساء بها ، و يرى أهلها أنهم أغنياء لرغبة الخطاب فيها . ولذلك قال ابن هَرِمة من قصيدة :

ومن لم يرد مدحى فإن قصائدى توافق عند الأكرمين سُوامى[2]

---

(١) استظهر به ، استعان . (٢) السوم فى المبايعة كالسوام .

وتنفق عند المشترى الحمد بالندى نفاق بنات الحارث بن هشام

ونقل الثعالبى أن الجاحظ لم يترك مزيداً فى وصف قريش ومدحه إياهم وتخصيصه بنى هاشم ، فإنه رحمه الله ألقى جُمَّة فصاحته واستنزف بحر بلاغته فى فصل له وهو قوله : العرب كالبدن ، وقريش روحها ، وهاشم سرها ولبها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وهاشم ملح الأرض ، وزينة الدنيا ، وحلى العالم ، والسَّنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم ، ومناهل الظامئ إلى الحلم ، والسيف الحسام فى العزم ، مع الأناة والحزم ، والصفح عن الجرم ، والإغضاء عن العثرة ، والعفو عند المقدرة ، وهم الأنف المقدم ، والسنام الأكوم[1] ، والعز المشمخر ، والصيابة[2] والسر ، وكالماء الذى لا ينجسه شىء ، وكالشمس لا تخفى بكل مكان ، وكالنجم للحيران ، والماء البارد للظمآن ، ومنهم العمران ، والطيبان ، والسبطان والشهيدان ، وأسد الله ، وذو الجناحين ، وسيد الوادى ، وساقى الحجيج ، وحليم البطحاء ، والبحر والحبر ، والأنصار أنصارهم ، والمهاجر من هاجر إليهم أو معهم ، والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرّق بين الحق والباطل منهم ، والحوارىُّ حواريهم ، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم ، ولا خير إلا لهم أو فيهم أو معهم أو انضاف إليهم ، وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين ، وإمام الأولين والآخرين ، وسيد المرسلين وخاتم النبيين ... »

مثال آخر يثبت أنه كان يغلو فى مدح بنى هاشم وهو قوله كانت الطواعين

---

(١) الأكوم المرتفع .

(٢) الصياب والصيابة بضمهما ويخففان الخالص والصميم والأصل والخيار من الشىء ، والصيابة السيد . واشمخر طال والمشمخر الجبل العالى .

تقع كثيراً فتصير تواريخ كطاعون عمواس ، وطاعون العذارى ؛ وطاعون الأشراف وغيرها ؛ ولما ملك بنو العباس رفع الله ببركتهم الطواعين والموتان الجارف عن بنى آدم ، فإنها كانت تحصد فيهم حصداً . وفى ذلك يقول العمانى للرشيد :

قد أذهب الله رماح الجن وأذهب التعليق والتجنى

يريد ما كان بنو مروان يفعلونه من مطالبة الناس بالأموال ، وتعذيب عمال الخراج بالتعليق والتجريد قد ذهب . وكلامه هذا منقوض بوثائق التاريخ ، فإن الأمويين كانوا أرحم فى باب الجباية من العباسيين ، وفى رسالة الخراج التى كتبها أبو يوسف للرشيد وصف كثير لما كان يعذب به الناس فى الخراج فى دهر العباسيين ، على ما لم يعهد بعضه فى زمن الأمويين .

وبعد فإنك لا ترى فى كل ما سلم من كتابات الجاحظ إلا تناسياً منه لما يرتكب من المآثم فى المجتمع ، والسلطان فى العادة والعرف هو مسؤول عنه فى الدرجة الأولى . فوجهة نظره فى سياسته استصلاح أهل المجتمع ليصلح القائمون عليه بالضرورة ، ومن لطيف مأتاه أن لا ينبه الأذهان إلى عيوب الدولة لأنه يحاذر عليها أعداءها ، ومصلحته تقتضيه الدفاع عنها . ولعل الجاحظ كان يعرف من عيوب الخلفاء من بنى هاشم ومن عيوب رجالهم وعمالهم مالا يعرفه كثير من كبراء الدولة فى عصره ، وقصاراه الإغضاء اضطراراً لا اختياراً ، فهو يوجه نقده إلى الكثرة الغامرة من الأمة ، عسى أن يكون بصلاحها صلاح الدولة . ولا يؤخذ من هذا أن الجاحظ صانع رجال الدولة ، ولو كان يحاول ذلك ، ولا يحس مقدار قبح هذه الصفة لاعتذر عنهم فى أكثر ما تم على أيديهم ، وأيدى أتباعهم من الشرور والمظالم ، ولأقام لهم الأعذار ، وهو لا يعدم حجة ، ولا يقصر فى بلاغة ،

بيد أنه رأى الإغضاء وإسدال الستر على ما هنالك ، وانطلق يضرب فيمن ينالون من السلطان بما اختار لقيام أمره من أجناس غير عربية أغضبت العرب ، وبمن يكيدون من الشعوبيين أعداء العرب ، وهواه أبداً مع بنى هاشم ، زيّنهم فى عينه كونهم أصحاب السلطان . وهو القائل : « وقضية واجبة أن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد ، يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ويمنع قويهم عن ضعيفهم ، وقليل له نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم » . ثم إن قصوره قليل يوم يصح عزمه على ذكر خصومه لأنه يعد الكذب كبيرة ، ويكره التزيُّد فى كل شىء . فإذا موّه موّه بعقل ، وإذا أحب قد يترك مجالاً لحفظ خط الرجعة كما يقول المعاصرون ، لا يعمى عما ظهر من السيئات ، وإن اضطرته الدواعى إلى إغماض الطرف عن ترددها .

نكته ونوادره :

قلّ فى العارفين من الناس من تذوق الحياة بالمعنى الذى تذوقه الجاحظ . جدّ جداً لم يبلغه غير أفراد فى الآباد ، وهزل هزلاً قوى به على معاودة الجد ، فروّح عن نفسه وعمن حفّ به وعاشره وقرأ كتبه . أدرك أن مرارة الحياة لا تحلو بعض الحلاوة بغير الدُّعابة والإضحاك ، ووقف على أسرار نفس الإنسان فحاول أن يلطف من شرّة الدنيا وشقائها . تعمد ، وهو العليم بأن الضحك والإضحاك خُلقا مع البشر كالبكاء والإبكاء ، أن يهذب الناس فى هذه الناحية . والمرء يتعلم بالضحك أكثر مما يتعلم بالعبوس . وهو يريد أن لا يكون المرء جامداً ولا سائلا بل فى حالة بين بين .

قال فى تعليل استعمال الهزل وفى منافعه ومضاره وفى حكمته وغايته :

« إن الكلام قد يكون فى لفظ الجدّ ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ، ولو استعمل الناس الدعابة فى كل حال ، والجد فى كل مقال ، وتركوا التسميح والتسهيل ، وعقّدوا فى كل دقيق وجليل ، لكان السفه صراحاً خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم ، ولكن لكل شىء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه ، كالبكاء فى موضعه ، والتبسم فى موضعه كالقطوب فى موضعه ، وكذلك المنع والبذل ، والعقاب والعفو ، وجميع القبض والبسط ، فإن ذممنا المزاح ، ففيه لعمرى ما يذمّ ، وإن حمدناه ، ففيه ما يحمد ، وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم ، وينهى حتى يكون كالغدر فلا . لأن المزاح مما يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً ، والظلم لا يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً » .

« والمزاح باب ليس الخوف فيه التقصير ، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان . وهو باب متى فتحه فاتح ، وطرّق له مطرّق ، لم يملك من سده مثل الذى يملك من فتحه . ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم من نفسه ، لأنه باب أصل بنائه على الخطإ ، ولا يخالطه من الأخلاق إلا ما سَخُف ، ومن شأنه التزيد ، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ ، ولم نر شيئاً أبعد من شر ، ولا أطول له صحبة ولا أشد خلافاً ، ولا أكثر خلطاً ، من الجد والمزاح ، والمناظرة والمراء » .

هذا قوله فى رسالته التربيع والتدوير ، وهى الرسالة التى عبث فيها بأحمد ابن عبد الوهاب الكاتب ، وقد أبدع فيها ما شاء إبداعه ، وعاد بعد حين فقال : « وقد ذهب الناس فى المزاح إلى معان متضادة ، وسلكوا منه فى طرق مختلفة ، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد ، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ، وأن الحمد والذم بينهما نصفان . فأما المحامى على الهزل

والمفضِّل للمزح ، فإنه قال : أول ما أذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال ، وأن الجد لا يكون إلا من فضل حاجة ، والمزح لا يكون إلا من فضل غنى ، وأن الجدَّ غضب ، والمزح جَمام ، والجدَّ مَبْغضة ، والمزح محبة . وصاحب الجد فِي بلاء ما كان فيه ، وصاحب المزح فى رخاء إلى أن يخرج منه . والجد مؤلم ، وربما عَرّضك لأشدّ منه ، والمزح ملذٌّ ، وربما عَرّضك لألذّ منه . فقد شاركه فى التعريض للخير والشر ، وباينه بتعجيل الخير دون الشر ، وإنما تشاغل الناس ليفرغوا ، وجَدُّوا ليهزلوا ، كما تذللوا ليعزّوا ، وكدّوا ليستريحوا ، وإن كان المزح إنما صار معيباً ، والهزل إنما صار مذموماً ، لأن صاحبه لا يكون إلا معرّضاً لمجاوزة القدر ، ومخاطراً بمودة الصديق ، فالجد داعية إلى الإفراط ، كما أن المزاح داعية إلى مجاوزة القدر ، وتجاوز الحد قاطع بين القرينين فى جميع النوعين ، فقد ساواه المزاح فيما هوله وبايَنه فيما ليس له ، وإن كان المزح قبيحاً لأنه يورث الجد ، فأقبح من المزح ما صَيَّر المزح قبيحاً وإذا صار المزح قبيحاً ، لأن الذى يكون بعده الجد ، ولم يصير الجد قبيحاً ، لأن الذى بعده المزح ، كان الجد فى هذا الوزن أقبح من المزح ، وكان المزح على هذا التقدير أحسن من الجد ، لأن ما جعل الشىء قبيحاً أقبح من الشىء ، كما أن ما جعل الشىء حسناً أحسن من الشىء » .

« وأما الذى عدل بينهما ، فإنه زعم أن المزح فى موضعه كالجد فى موضعه ، كما أن المنع فى حقه كالبذل فى حقه » . قال : « ولكل شىء موضع ، وليس شىء يصلح فى كل موضع . وقد قسم الله الخيرة على المعدلة ، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة ، وقسط أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة ، وعلى الإعلان والتقية ، فأمر بالمداراة ، كما أمر بالمباداة ، وجوّز المعاريض ، كما أمر بالإفصاح ، وسوّغ

فى المباح ، كما شدد فى المفروض ، وجعل المباح جَماماً للقلوب ، وراحة للأبدان ، وعوناً على معاودة الأعمال ، فصار الإطلاق كالحظر ، والصبر كالشكر ، وليس للإنسان من الخيرة فى الذكر شىء إلا وله فى النسيان مثله ، ولا فى الفطنة شىء إلا وله فى الغفلة مثله ، ولا فى السراء شىء إلا وله فى الضرّاء مثله ، ولو لم يرزق الله العباد إلا بالصواب محضاً ، وبالصدق صرفاً ، وبمرّ الحق صفحاً ، لهلكَ العوام ، وانتقض أمر الخواص ، ولو ذكر الإنسان كل ما أُنسيه لَشَقِى ، ولو جدّ فى كل شىء لانتكث ، وقد يكون الذكر إلى الهلكة سلماً ، كما يكون النسيان للسلامة سبباً . وسبيل المزاح والجد كسبيل المنع والبذل ، وعلى ذلك مجرى جميع القبض والبسط . فهذا وما قبله جمل أقاويل القوم » .

أبان أبو عثمان بهذه الصفحة عن رأيه فى الهزل والجد ، وفى مواطن استعمالهما وذكر آراء غيره فى ذلك ، وما ندرى إن كانت حقيقة آراءهم أم هو تصور أنها آراؤهم فأوردها بهذه الصيغة ، ونسجها هذا النسج . اعتاد الإنسان المزاح والتنادر والمرح ، ولكن إدخال ذلك فى هذا القالب العلمى وتدوينه بالتأليف مما لم يعرفه قبل الجاحظ غير أفراد ، إن لم تكن هذه الطريقة من مبتكراته مباشرة فهو منظم شؤونها ، ومطرز نصوصها ومتونها .

قال إن « أهل العلم والنظر ، وأصحاب الفكر والعبر ، وأرباب النحل ، والعلماء وأهل البصر بمخارج الملل ، وورثة الأنبياء ، وأعوان الخلفاء ، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء ، وكتب الفراغ والخلعاء ، وكتب الملاهى والفكاهات ، وكتب أصحاب الخصومات ، وكتب أصحاب المراء ، وكتب أصحاب العصبية وحمية الجاهلية ، لأنهم لا يحاسبون أنفسهم ، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم ، ولا يخافون تصفح العلماء ، ولائمة الأدباء » .

فهو إذاً يتعمد رفع الملل عن قارئه وعدم إضجاره بالدوام على الجد ، لأن « الأذن مجاجة وللنفس حمضة » كما روى ابن قتيبة وزاد هذا بأن « المزاح إذا كان حقًّا أو مقارباً ، ولأحايينه وأوقاته وأسباب أوجبته مشاكلا ، ليس من القبيح ولا المنكر ، ولا من الكبائر ولا من الصغائر ، ورغبات الناس متفاوتة » و إنما الكتاب « مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين » . ومعنى الأذن مجاجة وللنفس حمضة ، أن الأذن لا تعى كل ما تسمعه ، وهى مع ذلك ذات شهوة لما تستطرفه من غرائب الحديث ونوادر الكلام . هكذا شرحها الجاحظ وقال إنها كلمة للقدماء .

وقال فى كتابه النساء : وليس ينبغى لكتب الآداب والرياضات أن يُحمل أصحابها على الجد الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى المعانى الصعبة التى تستكد النفوس ، وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية ، وللاحتمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل ، على أن الكتاب إذا كثر هزله سخف ، كما أنه إذا كثر جده ثقل ، ولابد للكتاب ، من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ ، و ينفى النعاس عن المستمع .

أدرك الجاحظ بحكمته نفسية البشر ، وما ينفعهم وما يضرهم ، وما يحملهم وما يحسسهم فقال : « وخير الناس السهل الطلق الوجه المتواضع ، وفراسة الرجل السوء أن يكون منقبضاً غير منشرح ، وأن يرى لونه إلى الصفرة والكمود من غير مرض ، وأن يكون طائش القلب ، وأن يكون للدعابة والمزاح كارهاً وله عائباً ، وأن تراه غليظ اللفظ عند المحاورة . ومن فراسة الرجل الصالح أن تراه سهلاً طلقاً ، ذا منظر بهى ، وكلام شهى ، سبط الجبين غير منقبض ، ولا نزق غلق[1] قلق ، وغير كاره للدعابة والمزاح ، يذكر من يذكر بخير ، لين المحاورة

(١) الغلق الضيق الخلق العسر الرضا ، والغلق الكثير الغضب أيضا .

متواضعاً » . « ورجال الجد غير رجال الهزل ، وقد يحسن الشيء بالشباب ويقبح مثله من الشيوخ ، ولولا التحصيل والموازنة ، والإبقاء على الأدب والديانة ، لشدة المحاسبة ، لما قالوا لكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال » .

* * *

ربما لم ننس أن الجاحظ كان دميم الوجه ، قبيح التقاطيع ، مختل القَسِمات ، وكان الأخفش أحد مشايخه — والأخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما — أَجلعَ أيضاً — والأجلع الذى لا تنضم شفتاه على أسنانه — ولا شك أن الشيخ وتلميذه كانا إذا اجتمعا ، والجاحظ ناتئ العينين ، تألفت منهما صورتان غريبتان . ولعل أبا عثمان لم يرض كما قالوا أن يفارق شيخه بعد أن أخذ ما عنده ، وآثر أن يبقيا صديقين لبعض المشاكلة فى الصورة والخَلق ؛ ولعل الجاحظ ما تعفف كثيراً عن العبث بأستاذه ، وهو ابن النكتة الحارة لا الباردة ، وعنده أن « النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً ، وإنما الكرب الذى يخيم على القلوب ، ويأخذ بالأنفاس ، النادرة الفاترة التى لا هى حارة ولا هى باردة ، وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط ، وإنما الشأن فى الحارة جداً أو الباردة جداً » . ولذا تراه كان يحكى نوادر العوام بألفاظ العوام ، حتى لا تفقد النكتة حليتها الأولى ومؤثراتها الخاصة . وقال عن نفسه إنه وصف للخليفة المتوكل لتأديب أحد أولاده ، فلما رأى صورته استبشعها فصرفه . وقال عن نفسه إنه اشترى له جارية تركية جميلة رجاء أن يرزق منها ولداً يكون بحسنها وذكائه ، فولدت له ولداً جاء بقبحه وجهلها .

ومن نكاته قوله : ومن البخلاء المذكورين أبو الهُذَيل ، أهدى مرة إلى يونس بن عمران دجاجة ، وكانت دون ما يُتخذ ليونس ، إلا أنه لكرمه وحسن

خلقه ، أظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها ، فقال له : كيف رأيت يا أبا عمران تلك الدجاجة ؟ قال : كانت عجباً من العجاب ، قال : أو تدرى ما حسنها ، وتدرى ما سمنها ؟ فإن الدجاجة إنما تطيب بالسمن والحسن ، وتدرى بأى شىء كنا نسمنها ، وفى أى مكان كنا نعلفها ؟ ولا يزال فى هذا ، ويونس يضحك ضحكاً نعرفه نحن ، ولا يعرفه أبو الهذيل ؛ وصار بعد ذلك إن ذكروا دجاجة قال : أين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة ، وإن ذكروا بطة أو عَناقاً أو جزوراً أو بقرة قال : فأين كانت هذه الجزور فى الجزر من تلك الدجاجة فى الدجاج ، وإن استسمنوا شيئاً من الطير أو البهائم أو الدجاج قال : لا والله ، ولا تلك الدجاجة ؛ وإن ذكروا عذوبة الشحم قال : عذوبة الشحم تُصاب فى البقر والبط وبطون السمك والدجاج ، ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج ، وإن ذكروا ميلاد شىء أو قدوم إنسان قال : كان ذلك قبل أن أهدى إليك تلك الدجاجة بشهر ، وكان بعد أن أهديتها لك بسنة ، وما كان بين فلان وبين البعث بتلك الدجاجة إلا يوم ، وكانت مثلاً فى كل شىء ، وتاريخاً لكل شىء » . ويونس بن عمران من أرباب البيوتات فى البصرة كان ، وهو الذى رضخ للجاحظ بدنانير ابتاع بها ما يقتات به ، وأخرج أبا عثمان من تهكم أمه به وبدفاتره ، لأول أمره ، على ما مر بنا فى الفصل الذى عقدناه لوصف نشأته ونعمته . وعلينا أن نتأمل فى هذه القصة قوله : « ويونس يضحك ضحكاً نعرفه نحن ولا يعرفه أبو الهذيل » .

فالجاحظ كما رأيت يسلى نفسه بهذه المداعبات ، ويبسم ابتسام العظمة ، وإذا تبرم بأبناء الزمان عدد مساوئ الدهر فقال جاداً : « يصف استحالة الزمان ، وفساد الأيام ، ودولة الأنذال » :

« وقدماً كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق فى قوله ، وآثر الحق فى أموره ، ونبذ المشتبهات عليه من شؤونه ، تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظ العافية ، وحمد مغبة مكروه العاقبة ، فنظرنا إذ حال عندنا حكمه ، وتحولت دولته ، فوجدنا الحياء متصلاً بالحرمان ، والصدق آفة على المال ، والقصد فى الطلب بترك استعمال القحة ، وإخلاق العرض من طريق التوكل ، دليلاً على سخافة الرأى » . وبعد أن قال فيمن وجد فيه الفسولة الواضحة ، والمثالب الفاضحة ، إنه إن زل قيل حَكُم ، وإن أخطأ قيل أصاب ، وإن هذى فى كلامه وهو يقظان ، قيل رؤيا صادقة من نسمة مباركة . قال : فهذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح ، وأن الفضل قد مضى زمانه ، وعفت آثاره ، وصارت الدائرة عليه ، كما كانت الدائرة على ضده . ووجدنا العقل يشقى به قرينه ، كما أن الجهل والحمق يَحْظى به خدينه ، ووجدنا الشعر ناطقاً على الزمان ومعرباً عن الأيام حيث يقول :

تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم ... ولاقِهم بالجهل فعلَ أخِى الجهل
وخلّط إذا لاقيت يوماً مخلطاً ... يخلط فى قول صحيح وفى هزل
فإنى رأيت المرء يشقى بعقله ... كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

قال : « فوالله ما عُذِّبت أمّة برجفة ولا ريح ولا سخطة ، عذاب عينى برؤية المغايظة المدمنة ، والأخبار المهلكة ، كأن الزمان يوكل بعذابى ، فما عيش من لا يسر بأخ شفيق ، ولا يصطبح فى أول نهاره إلا برؤية من يكرهه ويَغُمُّه . »

وهذه هى الناحية العابسة من نفس الجاحظ المرحة ، رأيته هنا يذكر ما يحيط به من المكدرات والمضنيات حتى ليسىء ظنه بالصلاح ، ويفضل عليه الطلاح ، شأن المتشائمين والسوداويين . ونفس عُمِّرَت كثيراً ، واختلفت عليها الأحوال

قبضاً و بسطاً ، وخفضاً ورفعاً ، من مثل نفس الجاحظ لا تكون على حالة واحدة من الاسترسال والانقباض طول العمر : رأى من الخلفاء أشكالاً ، ومن الأمراء والوزراء والعلماء طبقات بعد طبقات ، ومن أبناء المجتمع من لا يحصيهم غير خالقهم ، ومن ضروب الأخلاق ما لا تتسع لذكره الأوراق ، وليس من شأن الدهر أن يثبت على حالة واحدة حتى يفسح للجاحظ أن يعيش قرناً على وتيرة واحدة ؛ وهو القائل لما مسخ الإنسان قرداً أنزل فيه مَشابِه من الإنسان ، ولما مسخ زماننا لم ينزل فيه مشابه من الأزمان . وأنشد :

وكان لنا أصدقاء مضوا تفانوا جميعاً وما خلدوا
تساقوا جميعاً كؤوس المنو ن فمات الصديق ومات العدو

ولقد غلبت الدعابة على الجاحظ وتجلت خفة روحه وتهكمه حتى فى بعض ما يكتب من أمور الجد ، وقد يفهم تهكمه من أسلوب الأداء فى عبارته . أليس فى قول الجاحظ لما تكلم على الخنزير فقال : « لو أن الكفر والإفلاس والغدر والكذب تجسدت ثم تصورت لما زادت على قبح الخنزير ، وكان ذلك بعض الأسباب التى مسخ بها الإنسان خنزيراً ، فإن القرد قبيح الوجه قبيح فى كل شىء ، وكفاك به جرى المثل المضروب به ، ولكنه من وجه آخر مليح ، فملحه يعرض على قبحه فيمازجه و يصلح منه ، والخنزير أقبح منه إلا أن قبحه مُصْمَت بهيم فصار أسمج منه كثيراً » . أليس فى قوله هذا شىء من التهكم وأسلوب من أساليب الهزل فى الجد ؟

وقال فى وصف الإنسان وما أخذه من طبائع الحيوان : « أو ما علمت أن الإنسان الذى خلق له ما فى السموات والأرض وما بينهما كما قال تعالى : وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً — إنما سموه العالم الصغير سليل العالم

الكبير حين وجدوا فيه من جميع أشكال ما فى العالم الكبير ، « ووجدوا له الحواس الخمس ، ووجدوه يأكل اللحم والحب ، ويجمع بين ما يقتاته السبع والبهيمة ، ووجدوا له صولة الجمل ، ووثوب الأسد ، وغدر الذئب ، وروغان الثعلب ، وجبن الصِّفْرِدِ . وجمع الذَّرة ، وصنعة الزَّرافة ، وجود الديك ، وإلف الكلب ، واهتداء الحمام ، وربما وجدوا فيه من كل نوع من البهائم والسباع خلتين أو ثلاثاً . ولا يبلغ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصوله وحقده ، وصبره على حمل الثقل . ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مثل مكره وغدره واسترواحه ، وتوحشه وشدة قلبه ، كما أن الرجل يصيب الرأى الغامض ، المرة والمرتين والثلاث ، ولا يبلغ بذلك المقدار أن يقال له داهية وذو مكر وصاحب خدعة ، كما يخطئ الرجل فيفحش خطؤه فى المرة والمرتين والثلاث ، ولا يبلغ الأمر به أن يقال له غبى وأبله ومنقوص » وعلى ما فى هذا الكلام من بحث نفسى لا نخليه من معانى التهكم والهزل ، وعنده « أن الكلام قد يكون فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد » .

ومن نوادره أنه سُمع يقول : رأيت جارية فى سوق النخاسين ببغداد ينادى عليها ، فدنوت منها وجعلت أقلبها ، فقلت لها ما اسمك ؟ : قالت : مكة . قلت : الله أكبر قد قرب الحج ، أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود . قالت : إليك عنى ، ألم تسمع الله يقول : لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ؟

ومنها : سمع أبو بكر محمد بن إسحق يقول : قال لى إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد : ألا ندخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت : مالى وله . قال : إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه ، فلو دخلت عليه وسمعت كلامه . ثم لم

يزل بى حتى دخلت عليه يوماً ، فقدم إلينا طبقاً عليه رطب ، فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت ، ومر فيه إبراهيم ، فأشرت إليه أن يمسك ، فرمقنى الجاحظ ، فقال لى : دعه يا فتى ، فقد كان عندى فى هذه الأيام بعض إخوانى ، فقدمت إليه الرطب فامتنع ، فحلفت عليه فأبى إلا أن يبر قسمى بثلاثمائة رطبة .

وحدث الجاحظ قال : وقفت أنا وأبو حرب على قاصّ ، فأردت الولع به . فقلت لمن حوله : إنه رجل صالح ، لا يحب الشهرة فتفرقوا عنه ، فتفرقوا ، فقال لى : حسيبك الله ! إذا لم ير الصياد طيراً كيف يمد شبكته ؟

وروى أن رجلاً من أهل السواد يتشيع ، وكان ظريفاً ، فقال ابن عم له : بلغنى أنك تبغض علياً ، والله لئن فعلت لتردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك . فقال : والحوض فى يده يوم القيامة ؟ فقال : نعم . فقال : وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس فى الدنيا بالسيف ، وفى الآخرة بالعطش ؟ فقيل له : أتقول هذا مع تشيعك ودينك ؟ فقال : والله لا تركت النادرة ، ولو قتلتنى فى الدنيا ، وأدخلتنى النار فى الآخرة .

ومنها : حكى بعض أبناء البرامكة قال : تقلدت السند وحصل لى ما شاء الله ثم صُرفت عنها ، وكنت قد اكتسبت بها ثلاثين ألف دينار فصغتها عشرة آلاف إهليلجة[1] ، وجاء الصارف فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة . فَخُبِّرت أن الجاحظ بها ، وأنه عليل بالفالج ، وأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه وقرعت الباب ، فخرجت إلى خادمة صغرى فقلت : رجل غريب أحب أن أنظر إلى الشيخ . فبلّغته ، فسمعته يقول : قولى له ما تصنع بشق مائل

---

(١) الاهليلج وقد تكسر اللام الثانية والواحدة بهاء ، ثمر منه أصفر ومنه أسود وهو البالغ النضيج ومنه كابلى ينفع فى الخوانيق ويحفظ العقل ويزيل الصداع . (القاموس)

ولعاب سائل ، ولون حائل . فقلت للجارية : لابد من النظر إليه . فقال : هذا رجل ورد البصرة ، وسمع بى و يريد أن يقول رأيت الجاحظ ، فأذن لى فدخلت وسلمت ، فرد رداً جميلاً وقال : من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له ، فقال : رحم الله أسلافك وآباءك السمحاء ، فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنة ، ولقد رأى بهم الخلق خيراً كثيراً ، فسقياً لهم ورعياً . فدعوت له وقلت له : أنشدنى شيئاً ، فقال :

لئن قُدّمت قبلى رجال فطالما مشيت على رسلى فكنت المقدّما
ولكن هذا الدهر تأتى صروفه فتُبرمُ منقوضاً وتنقض مبرماً

ثم نهضت ، فلما قربت من الباب قال : يا فتى ، أرأيت مفلوجاً ينفعه الإهليلج ؟ قلت لا . قال : الإهليلج الذى معك ينفعنى ، فابعث إلىّ منه . فقلت نعم ، وعجبت من وقوعه على خبرى مع كتمى له ، و بعثت له منه شيئاً .

قال الحصرى بعد إيراد هذه القصة : وهذا يدل على كثرة بحثه وتنقيره ، إذ كان وهو فى هذه السن العالية ، والفالج الشديد ، تنشر عنده الأخبار ، ولا تطوى عنه الأسرار ، فكيف كان قبل هذا ؟ ومن إحدى عجائبه أنه ألف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال .

قال أبو عثمان ما أخجلنى أحد مثل امرأتين رأيت إحداهما فى العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام فأردت أن أمازحها ، فقلت : انزلى كلى معنا ، فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا . وأما الأخرى فإنها أتتنى وأنا على باب دارى فقالت : لى إليك حاجة وأريد أن تمشى معى ، فقمت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودى فقالت له : مثل هذا ، وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلىّ بفصّ وأمرتنى أن أنقش لها عليه صورة شيطان ،

فقلت : يا ستى ما رأيت الشيطان ، فأتت بك وقالت ما سمعت .

لما جيء به مقيداً من البصرة إلى بغداد عقبى مقتل صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، أمر أحمد بن أبى دواد أن يفك قيده ، فجيء بالحداد ، فقال الجاحظ : لتفكوا عنى أو لتزيدونى ؟ فقيل له : بل ليفك عنك ، فغمز بعض أهل المجلس الحداد أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلاً ، ففعل ، فلطمه الجاحظ وقال له : إعمل عمل سنة فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجة . فضحك ابن أبى دواد وأهل المجلس منه .

صنف كتاباً من كتبه و بوّبه و بثه فى الناس ، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء ، فأحضره وقال له : يا هذا إن المصنف كالمصور ، و إنى قد صورت فى تصنيفى صورة كانت لها عينان فعورتهما ، أعمى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلمتهما ، صلم الله أذنيك ، وكان لها يدان فقطعتهما ، قطع الله يديك . حتى عد أعضاء الصورة .

وسأله شخص كتاباً إلى بعض أصحابه بالوصية فكتب له رقعة وختمها ، فلما خرج الرجل من عنده فضها فإذا فيها : « كتابى إليك مع من لا أعرف ولا أوجب حقه ، فإن قضيت حقه لم أحمدك ، و إن رددته لم أذمك » . فرجع إليه الرجل ، فقال الجاحظ : كأنك فضضت الورقة ؟ قال : نعم . قال : لا يضرك ما فيها فإنه علامة لى إذا أردت العناية بشخص ، فقال الرجل : قطع الله يديك ورجليك ولعنك . فقال : ما هـذا ؟ قال : علامة لى إذا أردت أن أشكر شخصاً .

وحكى أن أبا طاهر قال : صرت إلى الجاحظ ومعى جماعة ، وقد أسنّ

واعتلّ فى آخر عمره وهو فى منظرة له وعنده ابن خاقان جاره . فقرعنا الباب فلم يفتح لنا ، وأشرف من المنظرة فقال : ألا إنى قد حوقلت وحمات رميح أبى سعد وسقت الغنم [1] ، فما تصنعون بى ؟ سلموا سلام الوداع . فسلمنا وانصرفنا .

دخل أحدهم على الجاحظ فسأله عن حاله ، فقال له الجاحظ : سألتنى عن الجملة فاسمعها منى واحداً واحداً : حالى أن الوزير يتكلم برأيى ، وينفذ أمرى ، ويواتر الخليفة الصلات إلىّ ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها ، وأجلس على اللين الطرى ، وأتكئ على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى يأتى الله بالفرج . فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه ، قال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلىّ ، فهذا هو الفرج .

وقال : إن تهيأ لك فى الشاعر أن تَبَرَّه وترضيه وإلا فاقتله .

حكى الجاحظ أنه ألف كتابا فى نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل ، ثم رجع عن ذلك وعزم على تقطيع ذلك الكتاب ، قال : دخلت يوما مدينة فوجدت فيها معلماً فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد على أحسن رد ، ورحب بى فجلست عنده ، وباحثته فى القرآن فإذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الآداب ، فقلت : هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب . قال فكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته ، فإذا بالكتّاب مغلق ، ولم أجده ، فسألت عنه فقيل مات له ميت ، فحزن

---

(١) قوله حوقلت أكثرت من قولى لا حول ولا قوة إلا بالله لتتابع الأمراض ، وقوله رميح أبى سعد هو رجل من العرب أسن فاستعان بالعصا ، وهو أول من فعل ذلك فقيل لكل من شاخ أخذ رميح أبى سعد ، وقوله سقت الغنم هو عند العرب كناية عن الهرم ، لأن سائق الغنم يطامن رأسه .

عليه وجلس فى بيته للعزاء ، فذهبت إلى بيته وطرقت الباب ، فخرجت إلىّ جارية وقالت : ماتريد ؟ قلت : سيدك ، فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله ، فدخلت إليه و إذا به جالس فقلت : عظم الله أجرك لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا ، قلت فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت وما هو منك ؟ قال : حبيبتى . فقلت فى نفسى هذه أول المناحس . فقلت : سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها . فقال أتظن أنى رأيتها ؟ قلت : وهذه منحسة ثانية . ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال : إعلم أنى كنت جالساً فى هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلا عليه بُرد وهو يقول :

يا أُمَّ عمرو جزاك الله مكرمة ردى علىّ فؤادى أينما كانا

لا تأخذين فؤادى تلعبين به فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلت فى نفسى : لولا أن أُم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

إذا ذهب الحمار بأُمّ عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها ، وأغلقت المكتب وجلست فى الدار . فقلت : يا هذا إنى كنت ألفت كتاباً فى نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمى على إبقائه ، وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله تعالى .

وكان الجماز البصرى شاعراً ماجناً خبيث اللسان ، وكان له مع الجاحظ ملاحاة ومهاجاة قد يكون فيها إقذاع و إفحاش . وكان الجاحظ يعبث أيضاً

بأبى هِفّان الشاعر وغيرهما من الشعراء والكتاب والمؤلفين والقصاصين وكل ذلك من غير تبذّل و إسفاف .

ومعانى الجاحظ فى هذا الباب مذكورة فى كلام له ، قال : ولم تر العيون ، ولا سمعت الآذان ، ولا توهمت العقول عملاً اجتباه ذو عقل ، أو اختاره ذو علم ، بأَوبأ ولا أفسد لعرض ، ولا أوجب لسخط الله ، ولا أدعى إلى مقت الناس ، ولا أبعد من الفلاح ، ولا أظهر نفوراً عن التوبة ، ولا أقل إدراكا عند الحقيقة ، ولا أنقص للطبيعة ، ولا أمنع من العلم ، ولا أشد خلافاً على الحلم ، من التكبر فى غير موضعه ، والتنبل فى غير كنهه . وما ظنك بشىء العجب شقيقه ، والبذخ صديقه ، والتنفج أليفه ، والصلف قعيده . والبذّاخ متزيد ، والنفاج كذاب ، والمتكبر ظالم ، والمعجب صغير النفس ، و إذا اجتمعت هذه الخلال ، وانتظمت هذه الخصال فى قلب طال خرابه ، واستغلق بابه ، وشر العيوب ما كان مضمناً بعيوب ، وشر الذنوب ما كان علة الذنوب .

نماذج من رقاعه وكلماته :

(١) كتب إلى ابن أبى دواد يستعطفه : « ليس عندى ، أعزك الله ، سبب ، ولا أقدر على شفيع ، إلا ما طبعكَ الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذى لا يكون إلا من نتاج حسن الظن ، و إثبات الفضل بحال المأمول ، وأرجو أن أكون من العتقاء الشاكرين فتكون خير معتب ، وأكون أفضل شاكر ، ولعل الله أن يجعل هذا الأمر سبباً لهذا الإنعام ، وهذا الإنعام سبيلاً للانقطاع إليكم ، والكَوْن تحت أجنحتكم ، فيكون لا أعظم بركة ، ولا أنمى بقية ، من ذنب أصبحت فيه ، و بمثلك ، جعلت فداك ، عاد الذنب وسيلة ، والسيئة حسنة ،

ومثلك من انقلب به الشر خيراً والغُرم غُنماً ، ومن عاقب أخذ حظه ، و إنما الأجر فى الآخرة ، وطيب الذكر فى الدنيا ، على قدر الاحتمال ، وتجرع المرائر[1] ، وأرجو ألا أضيعَ وأهْلِكَ فيما بين عقلك وكرمك ؛ وما أكثر من يعفو عمن صغر ذنبه ، وعظم حقه ، و إنما الفضل والثناء ، العفو عن عظيم الجرم ، ضعيف الحرمة ، و إن كان العفو العظيم مستَطْرَفاً من غيركم ، فهو تلاد فيكم ، حتى ربما دعا ذلك كثيراً من الناس إلى مخالفة أمركم ، فلا أنتم عن ذلك تنكلون ، ولا على سالف إحسانكم تندمون ، وما مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم ، حين كان لا يمر بملإ من بنى إسرائيل إلا أسمعوه شراً وأسمعهم خيراً ، فقال له شمعون الصفا : ما رأيت كاليوم كلما أسمعوكَ شراً أسمعتهم خيراً ، فقال : كل امرئ ينفق مما عنده ، وليس عندكم إلا الخير ، ولا فى أوعيتكم إلا الرحمة ، وكل إناء بالذى فيه ينضح .

(٢) وكتب إلى محمد بن عبد الملك : « أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمكَ من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح فى قلبكَ إيثار الأناة ، فقد خفت ، أيدكَ الله ، أن أكون عندكَ من المنسوبين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ؛ و بعد فقد قال عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت :

و إن امرأً أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق و بالباطل

فإن كنت اجترأت عليكَ ، أصلحكَ الله ، فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة ، ولذلك

(١) المرارة الشىء المؤلم .

قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عُمَرُ كان خيرًا لى منكَ ؛ رهبنى فاتقانى ، وأعطانى فأغنانى . فإن كنت لا تهب عقابى ، أيدك الله ، لخدمة فهبه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، و إلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، و إلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، و إلا فأنت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصرّ ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر ، وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، والإنعام إلا منك ، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم أيدكَ الله ، أن شين غضبك علىّ كزين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك ، كحياة ذكرك مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم والسلام » .

(٣) وكتب إلى أبى حاتم السجستانى و بلغه عنه أنه نال منه : « أما بعد فلو كففت عنا من غربك ، لكنا أهلاً لذلك منك » ؛ فلم يعد أبو حاتم إلى ذكره بقبيح .

(٤) وله فصل فى استنجاز وعد : « أما بعد فقد رسفنا فى قيود مواعيدك ، وطال مقامنا فى سجون مطلك ، فأطلقنا ، أبقاك الله ، من ضيقها ، وشديد غمها ، بنَعَم منك مثمرة أو مريحة ، أما بعد فإن شجر مواعيدكَ قد أورقت ، فليكن ثمرها سالماً من جوائح المطل ، أما بعد ، فإن سحاب وعدك قد برقت ، فليكن وبلها سالماً من صواعق المطل والاعتلال » .

(٥) وله فصل فى عتاب : « أما بعد فإن المكافأة بالإحسان فريضة ، والتفضل على ذوى الإحسان نافلة ، أما بعد فلها (؟) السكوت على لسانك ، إن كانت العافية من شانك ، أما بعد فلا تزهد فيما رغب إليك ، فتكون لحظك معانداً ،

وللنعمة جاحداً ، أما بعد فإن العقل والهوى ضدان ، فقرين العقل التوفيق ، وقرين الهوى الخذلان ، والنفس طالبة فبأيهما ظفرت كنت فى حزبه ، أما بعد فإن الأشخاص كالأشجار ، والحركات كالأغصان ، والألفاظ كالثمار ، أما بعد فإن القلوب أوعية ، والعقول معادن ، فما فى الوعاء ينفد ، إذا لم يمده المعدن ، أما بعد فكفى بالتجارب تأديباً ، وبتقلب الأيام عظة ، وبأخلاق من عاشرت معرفة ، وبذكرك الموت زاجراً ، أما بعد فإن احتمال الصبر على لذع الغضب ، أهون من إطفائه بالشتم والقذع ، أما بعد فإن أهل النظر فى العواقب ، أولو الاستعداد للنوائب ، وما عظمت نعمة امرئ إلا استغرقت الدنيا همته ، ومن فرّغ لطلب الآخرة شغله ، جعل الأيام مطايا عمله ، والآخرة مَقيل مرتحله ، أما بعد فإن الاهتمام بالدنيا غير زائد فى الرزق والأجل ، والاستغناء غير ناقص للمقادير ، أما بعد فإنه ليس كل من علم أمسك ، وقد يستجهل الحليم حين يستحق الهجران ، أما بعد فإن أحببت أن تتم لك المِقَة[1] فى قلوب إخوانك فاستقلّ كثيراً مما توليهم ، أما بعد فإن أنظر الناس فى العاقبة من لطف حين كف حرب عدوه بالصفح والتجاوز ، واستلّ حقده بالرفق والتحبب » .

(٦) وكتب إلى ابن الزيات : « نحن ، أعزك الله ، نسخر بالبيان ، ونموّه بالقول ، والناس ينظرون إلى الحال ، ويقضون بالعيان ، فأثّر فى أمرنا أثراً ينطق إذا سكتنا ، فإن المدعى بغير بينة متعرض للتكذيب » .

(٧) وله فى وَصاة : « أما بعد فإن أحق من أسعفته فى حاجته ، وأجبته إلى طلبته ، من توسل إليك بالأمل ، ونزع نحوك بالرجاء ، أما بعد فما أقبح الأحدوثة ، من مستمنح حَرَمْته ، وطالب حاجة رددته ، ومثابر حجبته ،

(١) المقة : الحب .

ومنبسط إليك قبضته ، ومقبل إليك بعنانه لويت عنه ، فتثبت فى ذلك ولا تطع كل حَلاّف (١) مهين همّاز مشاء (٢) بنيم ، أما بعد فإن فلاناً أسبابه متصلة بنا يلزمنا ذمامه ، و بلوغ موافقته من أياديك عندنا ، وأنت لنا موضع الثقة من مكافأته ، فأَوْلنا فيه ما نعرف موقعنا من حسن رأْيك ، وتكون مكافأة لحقه علينا ، أما بعد فقد أتانا كتاب فى فلان ، وله لدينا من الذمام ما يلزمنا مكافأته ، ورعاية حقه ، ونحن من المعتبة بأمره ، على ما كان فى حرمته ، و يؤدى شكره » .

(٨) وله فى الاعتذار : أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار ، و بأس العوض من التوبة الإصرار ، أما بعد فإن أحق ما عطفت عليه بحلمك ، من لم يتشفع إليك بغيرك ؛ أما بعد فإنه لا عوض من إخائك ، ولا خلف من حسن رأْيك ، وقد انتقمت منى فى زلتى بجفائك ، فأطلق أسير تشوق إلى لقائك ؛ أما بعد فإننى بمعرفتى ببلوغ حلمك ، وغاية عفوك ، ضمنت لنفسى العفو من زلتها عندك ؛ أما بعد فإن من جحد إحسانك بسوء مقالته فيك ، مكذب نفسه بما يبدو للناس منه ؛ أما بعد فقد مسنى من الألم ما لم يشفه غير مواصلتك ، مع حبسك الاعتذار من هفوتك ، ولكن ذنبك تغتفره مودتك ، فامنن علينا بصلتك ، تكن بدلاً من مساءتك ، وعوضاً من هفوتك ؛ أما بعد فلا خير فيمن استغرقت موجدته عليك قدرَكَ عنده ، ولم يتسع لهنات الإخوان ؛ أما بعد فإن أولى الناس عندى بالصفح من أسلمه إلى مِلكك التماس رضاك ، من غير قدرة منك عليه ؛ أما بعد فإن كنت ذممتنى على الإساءة فلم رضيت لنفسك المكافأة ا ه .

وتكرير « أما بعد » والعادة ذكرها مرة فى أول الخطبة ، ومعناها « بعد

---

(١) المهين : الضعيف الحقير .

(٢) الهماز والهمزة الذى يخلف الناس من ورائهم ويأكل لحومهم أى الذى يهمز أخاه فى قفاه ومن خلفه ، والمشاء الذى يمشى بين الناس بالنميمة .

دعائى لك » من أجمل مكرراته ؛ وكأن الجاحظ بخروجه على مألوف الكتاب فى مثل هذا التكرار يبتدع أسلوباً أو أن ذلك من جملة مبتدعاته فى الكتابة .

(٩) وله فى التعازى : أما بعد فإن الماضى قبلك الباقى لك ، والباقى بعدك المأجور فيك ، وإنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب . أما بعد فإن فى الله العزاء عن كل هالك . والخلف من كل مصاب ، وأنه من لم يتعز بعزاء الله تنقطع نفسه عن الدنيا حسرة . أما بعد فإن الصبر يعقبه الأجر ، والجزع يعقبه الهلع ، فتمسك بحظك من الصبر ، تنل به الذى تطلب ، وتدرك به الذى تأمل ، أما بعد فقد كفى بكتاب الله واعظاً ، ولذوى الألباب زاجراً ، فعليك بالتلاوة تنج مما أوعد الله أهل المعصية .

(١٠) ومن كلامه : زينك الله بالتقوى ، وكفاكَ ما أهمك من الآخرة والأولى . من عاقب أبقاك الله على الصغيرة عقوبة الكبيرة ، وعلى الهفوة عقوبة الإصرار ، فقد تناهى فى الظلم . ومن لم يفرق بين الأسافل والأعالى ، والأدانى والأقاصى ، فقد قصر والله . لقد كنت أكره سرف الرضا ، مخافة أن يؤدى إلى سرف الهوى ، فما ظنك بسرف الغيظ ، وغلبة الغضب ، من طياش عجول فحاش ، ومعه من الخُرْق بقدر قسطه من التهاب المِرّة الحمراء ، وأنت روح كما أنت جسم ، وكذلك جنسك ونوعك ، إلا أن التأثر فى الرقاق أسرع ، وضده فى الغلاظ الجفاة أكمل . ولذلك اشتد جزعى عليك من سلطان الغيظ وغلبته ، فإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك . من مقدار عقابك عليه ، فانظر فى علته ، وفى سبب إخراجه إلى معدنه الذى منه نجم ، وعشه الذى منه درج ، وإلى جهة صاحبه فى التسرع والثبات ، وإلى حلمه عند التعريض ، وفطنته عند التوبة ، فكل ذلك ذنب كان سببه ضيق صدر من جهة الفيض

فى المقادير ، أو من طريق الأنفة ، وغلبة طباع الحمية من جهة الجفوة ، أو من جهة استحقاقه فيما زين له عمله أنه مقصر به فى حقه ، مؤخر عن رتبته ، أو كان مبلغاً عنه مكذوباً عليه ، أو كان ذلك جائزاً فيه غير ممتنع منه ، فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل ، فليس يقف عليها كريم ، ولا ينظر فيها حليم ، ولست أسميه بكثرة معروفه كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه غالباً على طباعه ، كما لا أسميه بكف العقاب حكيماً ، حتى يكون عارفاً بمقدار ما أخذ وتركَ ، ومتى وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغض المحض ، والنفار الغالب ، فلو لم ترض لصاحبه بعقاب دون قَعر جهنم لعذرك كثير من العقلاء ، وصوَّب رأيك عالم الأشراف . والأناة أقرب من الحمد ، وأبعد من الذم ، وأنأى من خوف العجلة ، وقد قال الأول : عليك بالأناة ، فإنك على إيقاع ما تتوقعه أقدر منك على رد ما قد أوقعته . وليس يصارع الغضب أيام شبابه شيء إلا صرعه ، ولا ينازعه قبل انتهائه إلا قهره ، وإنما يحتال له قبل هيجه ، فمتى تمكن واستفحل ، وأذكى ناره وأشعل ، ثم لاقى من صاحبه قدرة ، ومن أعوانه سمعاً وطاعة ، فلو استبطنته بالتوراة ، وأوجرته بالإنجيل ، ولددته بالزبور ، وأفرغت على رأسه القرآن إفراغاً ، وأتيته بآدم شفيعاً ، لما قصر دون أقصى قوته . وان يسكن غضب العبد ، إلا ذكره غضب الرب . فلا تقف ، حفظك الله ، بعد مضيك فى عتابى التماساً للعفو عنى ، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة بى ، ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله ، والشيطان على دينه ، ويعلم أن للكرم أعداء ، ويمسك إمساك من لا يبرئ نفسه من الهوى ، ولا يبرئ الهوى من الخطأ ، ولا تفكر لنفسك أن تزل ، ولعقلك أن يهفو . فقد زل آدم (ص) وقد خلقه بيده . ولست أسألك إلا ريثما تسكن نفسك ، ويرتد إليك ذهنك ،

وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحدوثة . والله يعلم وكفى به عليماً . لقد أردت أن أفديك بنفسى فى مكاتباتى ، وكنت عند نفسى فى عداد الموتى وفى حيز الهلكى ، فرأيت من الخيانة لك ، ومن اللؤم فى معاملتك ، أن أفديك بنفس ميتة ، وأن أريك أنى قد جعلت لك أنفس ذخر والذخر معدوم . وأنا أقول كما قال أخو ثقيف : مودة الأخ التالد وإن أخلق خير من مودة الأخ الطارف ، وإن ظهرت مساعيه وراقت جدته . سلمك الله وسلم عليك ، وكان لك ومعك .

(١١) ومما كتب إلى ابن الزيات من كتاب : لا والله ما عالج الناس داءً قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت شيئاً هو أنفذ من شماتة الأعداء ، ولا أعلم باباً أجمع لخصال المكروه من الذل ، ولكن المظلوم ما دام يجد من يرجوه ، والمبتلى ما دام يجد من يرثى له ، فهو على سبب درك ، وإن تطاولت به الأيام . فكم من كربة فادحة ، وضيقة مصمتة قد فتحت أقفالها ، وفككت أغلالها ، ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك ، وفى حسن النية بينى وبينك ، لا مشتت الهوى ، ولا مقسم الأمل على تقصير قد احتملته ، وتفريط قد اغتفرته ، ولعل ذلك أن يكون من ديون الإدلال وجرائم الإغفال ، ومهما كان من ذلك فلن أجمع بين الإساءة والإنكار ، وإن كنت كما تصف من التقصير ، وكما تعرف من التفريط ، فإنى من شاكرى أهل هذا الزمان ، وحَسَن الحال متوسط المذهب ، وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك من المنعمين ، فوق مرتبتى فى الشاكرين . وقد كانت على بك نعمة أذاقتنى طعم العز ، وعودتنى رَوْح الكفاية .

ومن كلماته ما قاله فى كتاب الأدب : اعلم أن تثمير المال آلة المكارم ، وعون على الدين ، وتأليف للإخوان ، وأن من فقد المال قلت الرغبة إليه

والرهبة منه ، ومن لم يكن بموضع رغبة أو رهبة استهان الناس به ، فاجهد جهدك كله فى أن تكون القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة فى دين أو دنيا .

ومما قال للسدرى مرة : إذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت قحبة . فقال السدرى وكيف ؟ قال : لأنها تأخذ الدراهم وتمتع بالناس والطيب ، وتختار على عينها من تريد ، والتوبة معروضة لها متى شاءت . فقال له السدرى : فكيف عقل العجوز ؟ قال : هى أحمق الناس وأقلهم عقلاً .

ومن كلماته : يجب للرجل أن يكون سخياً لا يبلغ التبذير ، شجاعاً لا يبلغ الهوج ، محترساً لا يبلغ الجبن ، ماضياً لا يبلغ القِحَة ، قوّالاً لا يبلغ الهذر ، صموتاً لا يبلغ العىّ ، حليماً لا يبلغ الذل ، منتصراً لا يبلغ الظلم ، وقوراً لا يبلغ البلادة ، نافذاً لا يبلغ الطيش .

ومن كلماته فى الطيب : فأما الطيب فإنى لم أشمم رائحة قط أحيا للنفس ، ولا أعصم للروح ، ولا أفتق ولا أغنج ، ولا أطيب خمرة من ريح عروس ، إذا أحكمت تلك الأخلاط ، وكان عرف رأسها وبدنها سليماً ، وإن كانت بمدينة الرسول ، فإنك ستجد ريحاً تعلم أنه ليس فوقها إلا ريح الجنة .

وقال فى نفسية الأغنياء : وبعد فلا يخلو صاحب الثروة ، والصامت الكثير ، الخامل الذكر ، من أن يكون ممن يرغب فى المركب الفاره ، والثوب اللين ، والجارية الحسنة ، والدار الجيدة ، والمطعم الطيب ، أو يكون ممن لا يرغب فى شىء من ذلك ، فإن كان لا يرغب فى هذا النوع كله ، ولا يعمل فى ماله للدار الآخرة ، ولا يعجب بالأُحدوثة الحسنة ، ويكون ممن لا تعدو لذته أن يكون كثير الصامت ، فإن هذا حمار ، وأفسد طبعاً من الحمار ، وأجهل من الحمار ، وقد رضى أن يكون فى حالة أسوأ حالاً من الوكيل . . .

وقال : إن الذى تشتمل عليه دواوين أصحاب الحمام أكثر من كتب النسب التى تضاف إلى ابن الكلبى والشَرْقى بن القُطامى وابن أبى اليقظان وأبى عبيدة النحوى ، بل إلى دَغْفل بن حنظلة وابن لسان الحُمَّرَة ، بل إلى صُحار العبدى وإلى أبى النطاح اللخمى ، بل إلى المختار العدوى وصبيح الطائى ، بل إلى مشجور بن غيلان الضبى وإلى سطيح الديلى ، بل إلى ابن شَرْيَة الجُرْهُمى وإلى زيد بن الكيس النمرى ، وإلى كل نسّابة راوية وكل متفنن علامة . ووصف الهذيل المازنى مثنى بن زهير وحفظه لأنساب الحمام فقال : والله لهو أنسب من سعيد بن المسيِّب وقَتادة بن دِعامة للناس ، بل هو أنسب من أبى بكر الصديق رضى الله عنه . . .

وقال فى نفسية المجتمع النصرانى فى عهده : ووقع بين فتى من النصارى وبين ابن فهريز كلام ، فقال له الفتى : ما ينبغى أن يكون فى الأرض رجل واحد أجهل منك . وكان ابن فهريز فى نفسه أكثر الناس علماً وأدباً ، وكان حريصاً على الجثلقة ، فقال للفتى : وكيف حللت عندك هذا المحل ؟ قال : لأنك تعلم أنا لا نتخذ الجاثليق إلا مديد القامة ، وأنت قصير القامة ، ولا نتخذه إلا جهير الصوت جيد الخَلق ، وأنت دقيق الصوت ردىء الخَلق ، ولا نتخذه إلا وافر اللحية عظيمها ، وأنت خفيف اللحية صغيرها ، وأنت تعلم أنا لا نختار للجثلقة إلا رجلاً زاهداً فى الرياسة ، وأنت أشد الناس عليها كَلَباً ، وأظهرهم لها طلباً ، فكيف لا تكون أجهل الناس ، وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة ، وأنت قد شغلت فى طلبها بالك وأسهرت فيها ليلك .

وقال : رأيت أربعة أشياء لم أَر مثلهن : رأيت سائلاً يسأل فى الحمام ، ويأخذ مواعيد مَنْ فيه إلى أن يخرجوا ، ورأيت معلماً يعلّم الصبيان القرآن والصبايا الغناء ، ورأيت حجاماً يحجم بنسيئة إلى الرجعة ، ورأيت حمّالِينَ يحملون جنازة ،

فكلما أعيوا وضعوا عن رءوسهم إلى أن بلغوا شفير القبر .

وقال : تسعة موجودة فى تسعة : الخفة فى الصم ، والهَوَج فى الطوال ، والعجب فى القصار ، والنبل فى الربعة ، والملاحة فى الحول ، والذكاء فى الخرس ، والحفظ فى العميان ، والثقل فى العور ، والنشاط فى العرج .

ومن كلامه : أجمع الناس على أربع : أنه ليس فى الدنيا أثقل من أعمى ، ولا أبغض من أعور ، ولا أخف روحاً من أحول ، ولا أقود من أحدب .

خلوده ومجده :

ويسأل القارئ بعد أن رأى صورة الجاحظ فى كثير من مظاهره ، ولمست يداه موضع العجب من نبوغه وافتنانه فى علمه وأدبه ، وهل كان له من بعدُ حظ من الخلود ؟ وإلى أى مدى بلغت تأثيراته فى ديار الإسلام ؟ ولا بدَّ قبل بحث خلوده أن نتعرف معنى الخلود ، ثم ننظر إذا استحق الجاحظ هذه الصفة .

يقول اميرسون الفيلسوف الأميركى : « إن الكِتاب الصالح كالمجتمع الصالح ، وإنك إذا أدخلت رجلاً منحطًّا فى حلقة جماعة راقين لا ترفعه لأنه ليس منهم ، ولن يصبح مساوياً لهم ؛ هكذا حال كل مجتمع يحمى نفسه ، وأهله واثقون أن هذا الدخيل فيهم ، والواغل عليهم ، وإن كاثرهم بجسمه ، فلن يشركهم بمكانتهم .

« يُقاس تأثير الكلام فى الجماعات بما انطوى عليه من دقة فى الفكر . وإن كتاباً ينبه ذهنك ويرهف حسك ، ويسمو بك بصوت فصاحته العالى ، ليكتب له فى أفكار الناس أعظم الأثر ، وليس تأثيره بالسريع ، إلا أنه مستديم ثابت . وأنت إذا لم تستفد شيئاً من صفحات هذا الكتاب ، ثق أنه سيفنى كما يفنى الذباب من ساعته . الكاتب هو الذى لا يتقيد بذوق العصر فقط ، وإنما يملى

ما يملى ورائده الإخلاص . والحجة التى لا تفعل فى نفسى فعلاً عملياً قد لا تفعل فيك أيضاً » .

يقول سدنى : « أُنظر فى قلبك واكتب — ومن يكتب لنفسه يكتب لجمهور يبقى . فعليك إن أنشأت شيئاً أن تُرضى هواك أولاً ، وليعلم الكاتب الذى اهتدى إلى موضوعه بعينيه وأُذنيه ، لا بقلبه ونفسه ، أنه ما استفاد ولا أفاد . ثم إن الكتاب لا يُحكم عليه بما يقدّر له من الرواج ، ولو أجمع نصف الناس على استحسانه ، فهو يفنى إذا خلا من حرارة ، والحرارة وحدها تهب الحياة . ونحن إذا انتفخنا حتى تمزقنا ، لا نتسامى إلى أكثر مما حصلناه من قدر .

« لا دخل للحظ فى الشهرة الأدبية ، ولا يتوقف صدور الحكم النهائى على كتاب بما يقوله فيه أصحاب الأهواء من القراء ، المكثرين من الضجة حوله أول نشره ، وتحكم على مبلغه من الإجادة محكمة ، لك أن تقول إنها مؤلفة من ملائكة ، أو من جمهرة لا تحابيك برشوة ، ولا تخافك لبأسك وسلطانك ، وهى تقضى وتمنح جِلاء[1] المجد وعلاقيته لمن هو خليق بهما . وأمثال هذه الأسفار فقط يحق لها أن تحيا . أما المذْهَبَة المُعْلمة المعمولة بالرُّقوق المزينة بالنقوش ، وإن وزعها صانعها على الورّاقين بأسرهم ، فإنها تبيد ، ولا تُصيب من الرواج أكثر مما لها الحق فيه .

« ليس فى الأرض أزيد من اثنى عشر شخصاً ، فى آن واحد ، يقرأون كتاب أفلاطون ويفهمونه . ويتعذر عليك أن تجمع من مجموع قرائه من النقود ما يصح الاعتماد عليه لإعادة طبع كتابه . ومع هذا ترى مُصَنَّفه يصل إلى كل

---

(١) الجلاء : ما يخاطب به من الألقاب الحسنة ويمكن إطلاقها على الرتب فى العهد الحديث ، والعلاقية والجمع العلاق : الألقاب .

جيل لينتفع به هؤلاء الأشخاص القلائل ، كأن الله أرسله إليهم مباشرة . »

يقول بنتلى : « ما من كتاب سقط و باد إلا بما حوته دَفَّتاه — ولا يحدد بقاء الكتاب بما نال من حب أو بغض ، ولا يخلد إلا بما فيه من قيمة ذاتية ، و بما يحمل من حاجات العقل على الدهر .

« لا يعرف الرجل العظيم أنه على شىء من العظمة ، والعظمة لا يحرزها إلا إذا أتى عليه قرن أو قرنان ، لتُكشف للملإ حقيقته . هذا وهو يعمل لأن من واجبه أن يعمل ، والدواعى والبواعث حاكمة عليه ، و يومئذ تراه يعظم فى العيون ، وكل ما انبعث منه يغدو رمزاً عاماً ، ومثالاً يقتدى به ، حتى ما كان من حركة إصبعه الصغرى ، وما تناوله من طعام و إدام ، فيمسى بذلك صاحب السلطان الأكبر على العقول ، والدهماء تُعجب بطريقته .

« قالوا إن الصورة لا تكذب ، والمرء إذا نطق بالحق ، بفكر حق ، كانت عينه أصفى من السماء ، ومتى خالف ذلك وأورد الزور والبهتان ، اختلجت عينه ور بما أُصيبت بالحَوَل .

« وأنَّى لك بمحام لم يقتنع ببراءة موكله أن يُقنع المحكمة لتقضى له بالبراءة ؟ هذا القانون يسرى على أفكارنا ، فنحكم على كل أثر بالفكر الذى عرض للمؤلف ، يوم أنشأ ما أنشأ من بنات أفكاره . وهيهات أن نقول قولاً صحيحاً أبداً فى الحكم على كل شىء ، ولو استظهرناه وتدارسناه ، ولن يتطال المرء إلى مكانة لا يستحقها ، و باطل أن نحاول معرفة ما يقول الناس فينا ، و باطل كل الباطل تخوفنا من أن لا نُعرف . ومتى أيقن المرء أنه يحسن شيئاً ، وأنه يبذ فيه غيره فى باب الإحسان ، فليثق أن جميله معترَف به ، و إحسانه مقدور قدره ، فى كل زمان ومكان . العالم ملئ بالأحكام ، و إلى أى مجلس اختلف المرء ، وفى

كل عمل حاوله ، لا يُكال إلا بقدره ، ولا يُعلَّم إلا بميسَمه .

« قد تقوم للدعوى قائمة ، وهى تعجز عن الوفاء بعمل عظيم ، وما كانت الدعوى يوماً خليقة بإتمام أمر يُلابس عظمة حقيقية . فبالدعوى لم تكتب الإياذة ، وبالدعوى لم يُكسر كسرى ، وبالدعوى لم يستجب الناس لرسالة المسيح ، وبالدعوى لم يُبلغ الرقيق . الفضائل تقدر بأثرها ، وعلى قدر الصلاح تكون الحرمة ، والناس سواء فى احترام الفضيلة . وأساتذة الإنسانية هم أصحاب طبقة الكرماء المخلصين ، وأرباب الأفكار العالية ، يفرضون عليها ما يريدون بثه ، ويحاولون الدعوة إليه . وما ضاعت كلمة طيبة قط ، وما سقط مجد ولا كرم ، من دون أن يلتقطهما قلب ما كان له أن يتوقعهما ، فيبارك عليهما ويقدسهما . وقيمة المرء ما يحسن ، وما يحسنه منقوش على سيماه وينمُّ عليه ظاهره ، وما رُزق من سعادة ، ولن يفيده التوارى ، كما لا ينفعه التبجح والتنفُّج [1] » .

هل انطبقت هذه الصفحة فى شروط الخلود على الجاحظ ؟ وهل له بعد هذا أن يعد فى الخالدين بما ألّف وصنف ؟ نعم انطبقت عليه لاشتهاره يوم بدا للأبصار نبوغه ، وكمُلت له العظمة قبل أن يأتى عليه قرن أو قرنان . وهذا مستغرب فى عصر ليس فيه مطابع ولا جرائد ولا مجلات ، ولا قطارات ولا بواخر ولا طيارات ، ولا برق ولا هاتف ولا مذياع .

خاض الجاحظ عباب أبحاثه بقلبه ونفسه ، لا بعينيه وأذنيه فقط . فاستفاض صيته ووصل صوته إلى أبعد مدى ، لأنه قام أحسن قيام بما يجب عليه لأمته ، ووجب عليه معاناته فى دهره ، وتداول قومه مصنفاته وهو فى الكهولة ، وعرفت القاصية والدانية تفوقه على غيره من المؤلفين ، وأدرك ذوو البصائر أن كتبه تحمل

(١) النفاج المتكبر كالمتنفج ، والتبجح الافتخار والمباهاة .

علماً كثيراً . ذلك لأنه أرضى نفسه بما كتب ، فأرضى أُمته وأخذ بمجامع قلبها ، والسلطان يومئذ سلطان العلم والأدب ، لا سلطان الثرثرة والدعوى .

تضمنت كتب الجاحظ حاجات العقل على وجه الدهر ، لأنها ابنة العقل الناضج ، وربيبة الروّية والتفكير الصحيح ، قصد بها التعليم والإرشاد ، لا الفساد والإفساد ، وقدّر له بها من الإعجاب ، ما لم يكتب لملىّ ولا لذمىّ من العلماء مثله ، ففى المليين مئات ، وفى الذميين عشرات ، كانت لهم الحُظوة عند العامة والخاصة ، تحفهم رعاية الأمراء والخلفاء ، فتقدمهم الجاحظ فى السبق ، وهو الزاهد حق الزهد فيما تواطأ الناس على إعظامه من المظاهر الخلابة . كان ، والحق يقال ، إنساناً كاملاً أخذ من المادة بقدر ما ضمن له عيشه ، وما أسفّ إلى ما يسفُّ له أكثر طبقته من العلماء ؛ ولو كان للدنيا هوى كبير من نفسه لمتّع فى قصور الخلفاء بكل ما تطمع فيه ، ولكن هدفه كان أسمى من كل هذا ؛ كان صاحب فكر ، همّهُ نشره لنفع العالمين ؛ فى دور كان حملة الرأى والرواية من عصريه بين عالم دين ، يُصِمُّ أذنه عن علوم الدنيا ، أو عالم مادة لا يحسن شيئاً كثيراً من علم الدين ، فجمع الجاحظ بين المطلبين ، حتى كثر المعجبون به من كل صنف ، وما استطاع حساد فضله أن يطفئوا نوره ، ولا أن يُعموا على الناس أمره ، لما أدركَ المنصفون أنه على صفات قلّ أن يدانيه فيها أحد ، وعلى ما كان عليه أرباب المذاهب فى أشد أعصار حماستهم ، وتصلبهم فى آرائهم ، جادلهم فأحسن جدالهم بأدب لا غرور فيه ، وتفنن ما شاءت له الإجادة فى ضروب من القول ، وما كان يضيره سخف السخفاء ممن تعذرت عليهم مداناته ؛ فوضع صفحته للحق ، وحاورهم قائماً بالواجب عليه نحو دعوته وملته ، فتم له ما أراد لما نفذ قوله إلى أعماق القلوب والعقول ، بما خص به من نَفَس طويل ، وإبداع جزيل ؛ نعم نفذ الجاحظ

بما كتب إلى القلوب والعقول ، لأنه لم يكتب كأفلاطون ألغازاً ومعميات يتعذر حلها ، فبقى كلام الحكيم اليونانى — على ما قال أمير سون — مقصور الفهم على اثنى عشر شخصاً فى كل جيل ، وكَتَبَ الحكيم العربى السهل الممتنع الذى يفهمه كل من يقرأوه ، فأسرع كل ذلك فى خلوده .

الجاحظ موهوب ، رزق القبول من القلوب ، وشاع ما كتب فى كل صقع وكل قرن ، وكلما كرر كلامه حلا ، وهل أعظم فى باب الخلود من بنات أفكار تتناقل خلفاً عن سلف أحد عشر قرناً ، ثم لا نرى الجميع إلا معجبين مستفيدين ، بما أثر عن عَلَم الأعلام وأفضل المخلدين .

و إنا إذا استقرينا ما قاله أولياء الجاحظ وخصماؤه فيه ، لا يتعذر علينا أن نضعه فى الدرجة التى بلغها . قيل لأبى العيناء الراوية الأخبارى : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ لا يحسن ؟ ويقول المسعودى : « لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً من الجاحظ ، وقد كان أبو الحسن المدائنى كثير الكتب ، إلا أن أبا الحسن المدائنى ، كان يؤدى ما سمع ، وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة ، إلى نادرة طريفة ، ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه . »

وقال ثابت بن قرة الصابى وهو من المعاصرين للجاحظ ومن أكبر فلاسفة العباسيين وأكثرهم إجادة فى تأليفاتهم : ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب ، والثانى الحسن البصرى ، والثالث الجاحظ ، وقال

فيه : « إنه خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومِدْره[1] المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سحبان وائل ، و إن ناظر ضارع النظّام فى الجدال ، و إن جد خرج من مَسك[2] عامر بن عبد قَيْس ، و إن هزل زاد على مَزْيَد : حبيب القلوب ، ومَراح الأرواح ، وشيخ الأدب ، ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، ما نازعه منازع إلا رشاه آنفاً ، ولا تعرض له منقوص إلا قدم له التواضع استبقاء ، الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، و بين الفطنة والعلم ، و بين الرأى والأدب ، و بين النثر والنظم ، و بين الذكاء والفهم ، طال عمره ، وفشت حكمته ، وظهرت خَلّته ، ووطئ الرجال[3] عقبه ، وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب إليه ، ونجحوا بالاقتداء به ، لقد أُوتى الحكمة وفصل الخطاب » .

هذه ثلاث شهادات فى الجاحظ ، الأولى لرجل عاصره وعرفه عن أَمم ، والثانية لعالم جاء بعده وشهد فيه هذه الشهادة ، شهادة شيعى فى معتزلى ، والثالثة لصابى النحلة وشهادته شهادة برىء من الغرض ؛ و إذا حدثت نفسك بأن هذه الشهادات قليلة نورد لك غيرها ، الأولى للمرْزُبانى من أئمة الأدب جاء فيها : إن الجاحظ كان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به و بغيره من علوم الدين والدنيا ، و إن له كتباً كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين ، وفى حكاية مذهب المخالفين ، والآداب والأخلاق ،

---

(١) المدره : كمنبر السيد الشريف والمقدم فى اللسان واليد عند الخصومة والقتال .

(٢) المسك : الجلد .

(٣) يقال فلان موطأ العقب أى له سلطان يتبع وتوطأ عقبه ، والخلة الخصلة ، والخلة أيضاً الطريق والسبيل وهو أولى هنا .

وفى ضروب من الجد والهزل ، وقد تداولها الناس وقرأوها ، وعرفوا فضلها .
قال : وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس فى تلقيح العقول ، وشحذ الأذهان ، ومعرفة أصول الكلام وجواهره ، وإيصال خلاف الإسلام ، ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها ؛ والجاحظ عظيم القدر فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور » . والشهادة الثانية لأبى حيان التوحيدى ، وقد ألف فيه كتاباً سماه « تقريظ الجاحظ » ومما قاله فيه : اتفق أهل صناعة الكلام أن متكلمى العالم ثلاثة : الجاحظ ، وعلى بن عبيدة [1] وأبو زيد البلخى ، فمنهم من يزيد لفظه على معناه وهو الجاحظ ، ومنهم من يزيد معناه على لفظه ، وهو على بن عبيدة ، ومنهم من توافق لفظه ومعناه وهو أبو زيد ؛ قال : قلت لأبى محمد الأندلسى ، وكان من عدد أصحاب السيرافى ، قد اختلف أصحابنا فى مجلس أبى سعيد السيرافى فى بلاغة الجاحظ ، وأبى حنيفة صاحب النبات ، ووقع الرضى بحكمك فما قولك ؟ فقال : أنا أحقر نفسى عن الحكم لهما أو عليهما ، فقال : لابد من قول ، قال : أبو حنيفة أكثر ندارة ، وأبو عثمان أكثر حلاوة ، ومعانى أبى عثمان لائطة [2] بالنفس ، سهلة على السمع ، ولفظ أبى حنيفة أعذب وأعرب ، وأدخل فى أساليب العرب . قال أبو حيان والذى أقوله وأعتقده ، وآخذ به وأستهم عليه ، أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم ، مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها ، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم . أحدهم هذا الشيخ الذى أنشأنا له هذه الرسالة ، وبسببه جُشمنا هذه الكلفة .

(١) على بن عبيدة الريحانى المتكلم صاحب التصانيف قال ياقوت : من الناس من يفضله على الجاحظ فى البلاغة وحسن التصنيف .
(٢) لاط الشئ بقلبى يلوط ويليط لوطاً وليطاً حبب إليه وألصق .

أعنى أبا عثمان عمرو بن بحر والثانى أبو حنيفة الدينورى والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخى .

والشهادة الثالثة شهادة أمير المؤمنين المأمون ، قالوا لما نظر المأمون فى كتاب الجاحظ فى العباسية ، وكان اليزيدى أدخله عليه ، دعا بالجاحظ فقال : يا عمرو قد كان من يرتضى عقله ، ويصدق خبره ، ألقى إلىّ صفة هذا الكتاب ، فكنت أرى الصفة عياناً ، فلما حضر العيان أربى على الصفة ، ولما فُلى أربى الفلى على العيان ، كإرباء العيان على الصفة . وهو كتاب ينوب عن حضور الصاحب ، ويجل عن الحاجة إلى المحتجين له ، جامع لاستقصاء المعانى واستيفاء الحقوق ، بلفظ جزل ، ومخرج سهل ، سوقى ملوكى ، خاصى عامى . قال الجاحظ : فوالله لما أفدته من تعلم صفة هذا الكتاب آثر عندى من الكتاب .

وعلى الجملة فالشهادات كثيرة على نبوغ الجاحظ وأنه كان « نسيج وحده فى جميع العلوم » قال الصفدى : من وقف على كتاب الحيوان وغالب تصانيفه ، ورأى فيها الاستطرادات التى استطردها والانتقالات التى ينتقل إليها ، والجهات التى يعرض بها فى غضون كلامه بأدنى ملابسة ، علم ما يلزم الأديب وما يتعين عليه من مشاركة المعارف .

ولما ذكر الذهبى فى النبلاء تجويد الجاحظ فى كتاب النبوات ترحم عليه ، وقال : فكذلك فليكن المسلم ، مع أنه من خصومه فى المذهب . وقال ابن سنان الخفاجى : « فكأنه فى كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره » .

حدث أبو القاسم السيرافى قال : حضرنا مجلس الأستاذ الرئيس أبى الفضل ابن العميد فقصر[1] رجل بالجاحظ وأزرى عليه ، وحَلُم الأستاذ عنه . فلما خرج

(١) قصر به أزرى به وحقّره .

قلت له : سكت أيها الأستاذ عن هـذا الجاهل فى قوله ، مع عادتك بالرد على أمثاله ، فقال : لم أجد فى مقابلته أبلغ من تركه على جهله ، ولو واقفته و بينت له ، لنظر فى كتبه وصار إنساناً ؛ يا أبا القاسم « كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » . وكان ابن العميد يقول ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس : أما الفقه فعلى أبى حنيفة لأنه دوّن وخلد ما جعل من يتكلم فيه بعده مشيراً إليه ومخبراً عنه ، وأما الكلام فعلى أبى الهذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبى عثمان الجاحظ اه . وهذا فى نظرنا داعية خلوده .

أبو حيان التوحيدى

عصره :

القرن الذى أولد التوحيدى ، وشبّ فيه واكتهل وشاب ، هو العصر العباسى الثالث ، فسدت فيه عصبية بنى العباس ، فلم تبق لهم كلمة مسموعة ، ولا رأى جميع[1] ، ولا قوة نافذة ، ولا كيان يُرتجى معه البقاء . تغلغلت الأعاجم فى جسم الدولة ، وتسلطت على الأمور ، وما دخل القرن الرابع حتى رأيت الأمور تلتوى ، ودولة الخلافة تضؤل وتتراجع ، وقد شمل الضعف معظم أوضاعها ، وعاث سوس الفساد فى ذاك الجسم العظيم ، وتناثر عقد البلاد الإسلامية ، وانتقصت من أطرافها ، والأهواء مشتتة ، والنفوس شعاع[2] .

لم يكد ينسلخ[3] الربع الأول من هذا القرن حتى استولى ابن رائق على البصرة وواسط ، واستأثر البريدىّ بالأهواز وأعمالها ، وذهب أبناء بُويْه الديلم بفارس والرّىّ وأصفهان وطبرستان وجرجان وكرمان والجبل ، وغدت خُراسان وما وراء النهر بيد السامانية ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى أيدى بنى حمدان ، وانتقلت مصر والشام إلى الإخشيدية ، والبحرين واليمامة إلى القرمطى ، والمغرب وإفريقية إلى القائم العلوى ، والأندلس للناصر عبد الرحمن الأموى .

---

(١) الجميع : ضد المتفرق (٢) الشعاع : كسحاب التفريق ، والرأى المتفرق

(٣) سلخ : (كنصر ومنع) الشهر مضى كانسلخ ، وفلان شهره أمضاه وصار فى آخره .

ولم يبق للخليفة العباسى غير بغداد وأعمالها ، والحكم فيها لابن رائق ، وليس للخليفة وزير ، وإنما كان له كاتب يدبر إقطاعاته وإخراجاته القليلة . وكلما امتدت كلمة ملك أو أمير سطا على من يجاوره واستصفى مملكة صاحبه ، فابن رائق بعد البصرة استولى على دمشق ، والبريدى بعد خوزستان استولى على بغداد ، وبنو بويه بعد بلاد الشرق استولوا على بغداد (٣٦٧) وخُطب لهم فيها مع الخليفة ، وهكذا كانت مملكة بنى العباس نهبَ أيدى الأتراك والديلم — والأتراك جيل من التتر معروف ، والديلم سكان الجبال فى فارس — وكلهم كانوا شاركوا العرب فى سلطانهم ؛ بل حاولوا نزع تراث العباسيين من أيديهم .

وكثر قتل الخلفاء وخلعهم ، فقتل المقتدر ، وبويع للقاهر ثم خلع ، وخلفه الراضى ، واستخلف المتقى ، ثم بويع للمستكفى وهو كأكثر من سلفه مغلوب على أمره . وهناك دول تقوم فى الشام كدولة بنى حمدان بعد الإخشيديين ، ودولة الفاطميين تستولى على مصر ، ويخطب للفاطميين فى مكة والمدينة بدل الخليفة العباسى ، وتقتطع من تلك الدولة العظمى دول وممالك . وأصبح خليفة بنى العباس أشبه بصاحب منصب دينى له القول ولغيره العمل ، يملك الاسم ، والجسم يستغله المستغلون من المتغلبين والمتوثبين ، والبلاد تخرب والنفوس تهلك ، حتى لقد خربت بغداد عند استيلاء البويهيين عليها وأخذوا بتجديدها ورمّها لأول أمرهم ، وكانت فى القرنين الثانى والثالث أعمر مدينة فى الأرض ، وكان القرامطة [1] خلال ذلك القرن يعيثون فى العراق ثم تعدوا

(١) القرامطة : نسبة لمحمد بن قرمط ، لقب بذلك لقرمطته أى تقريبه فى خطه أو خطوه وهو صاحب الدعوة الباطنية .

إلى الشام ، بعد أن عبثوا بمقدسات الأمة فى الحجاز ، وكذلك كان شأن غيرهم من الخوارج والنزّاع إلى الفتنة . أما الروم فكانوا يغادون الشام القتال ويراوحونها ، ودولة بنى حمدان كفت البلاد عاديتهم ، وغزاهم منصور بن نوح السامانى عام النفير[1] فى ألوف من أهل خراسان وما وراء النهر . وفى خلال هذا القرن انقرضت دول ، ولا سيما السامانية والإخشيدية ، وقام محمود بن سبكتكين رجل ذاك القرن فاستولى على خراسان ، وامتدت فتوحه حتى فتح جزءاً مهماً من بلاد الهند والشرق .

وفى هذه المملكة ، بل الممالك التى كانت تتخبط فى أقدارها ، وتختلط أمورها بأيدى أخيارها وأشرارها ، نشأت زمرة صالحة من العلماء والأدباء ، بقوة التسلسل المنبعثة من عمل القرن الثالث . وقد تضعف السياسة فى أمة ، وتبقى قوتها المفكرة سائرة سيرها ، وعلومها آخذة بالنظام الذى كان لها ، كما قيل « يفنى القميص وفيه ريح المندل[2] » ، ولقد ساعد على هذه النهضة بعض أصحاب السلطان من هؤلاء الملوك ، ممن أرادوا أن يكون فى جملتهم الأجلاء والفضلاء ، يستأثرون بهم دون جيرانهم ، ويزينون بهم ملكهم ، أو يستخدمونهم ليعينوهم على قيام أمرهم ، أو يختارون طبقة من الأدباء والشعراء ، ينادمونهم ويمدحونهم ، ويخلدون مآثرهم ، ويعظمون مفاخرهم ، فيعتزون بهم عند القريب والغريب ، والبغيض والحبيب . فكانت فى هذه السبيل تجارى بغدادَ كل من أصفهان وشيراز ونيسابور وهمذان والرىّ وسمرقند وبلخ وحلب والقاهرة وقرطبة .

---

(١) النفير والنفر : القوم ينفرون معك ويتنافرون فى القتال ، وتنافروا : ذهبوا .

(٢) المندل : العود أو أجوده كالمندلى ، ومندل بلد فى الهند ، ولعل هذا العود نسب إليها .

وتنوعت المذاهب التى غلبت على البلاد ، فكان أهل البصرة قدرية وشيعة وحنابلة ، و بغداد تؤوى جميع النحل وفيها غالية يحبون معاوية ، ومشبهة وهم أصناف كثيرة ، و يهود إقليم الجبال أكثر من نصاراها ، ومجوسها كثير ، والمجوس أصحاب زرادشت ، المعظمون للنار وسائر الأنوار ، بقيت منهم بقية مهمة إلى هذا القرن فى العراق والأهواز وفارس وأصبهان وخراسان وغيرها من مملكة الفرس قبل الإسلام . ولكل بلد من بلاد العجم طرز يخالف الطرز الآخر ، فمنها ما تجد فيه الغلبة للحنفيين ، ومنها ما كانت حنابلته كثيرة ، ومنها ما كانت شيعته غالية ، ومنها ما تغلب فيه أصحاب الحديث ، وأكثر إقليم خوزستان معتزلة ، وفى الأقاليم الأخرى شيعة وحنابلة وشوافع . والفتن كثيراً ما تقع بين الحنابلة والشافعية فى بغداد ، أو بين السنة والشيعة فى دار السلام ، و بعض أصقاع فارس والجبال وما إليها ، فيفنى بعضهم بعضاً .

ولهذا اعتصم بعض العلماء والحكماء بأهداب التقية [1] خشية العامة وجهلة السلاطين ، فكان ما كان من تأليف المجالس السرية من الفلاسفة وأرباب العقول الكبيرة ، وكان التوحيدىّ أحد أساطين تلك الحلبة حقبة من الزمن ، والحركة الدائمة فى الإفادة والاستفادة ، والعقل الكبير والعامل الجبار ، مائت أيام حياته بغرائب ، فكان عجباً فى نفسه ودرسه .

---

(١) التقية : مشتقة من اتقاه أى خافه وهى ضد العلانية ، وكان المسلمون لأول عهدهم وهم ضعاف يتقون من عدوهم فيداروته إذا كان قوياً ، من غير أن يستحلوا دماً حراماً أو مالا حراماً أو غير ذلك من المحرمات أو يظهروا الكفار على عورات المسلمين . واختلفت الفرق الاسلامية فى التقية ومنها التى تجوزت فيها كثيراً ، وبعضهم حدد لها شروطاً ، ولا سيما عندما يخشى المرء على نفسه فيدفع الضرر عنها بالمداراة والمداهنة والمباطنة . ويقضى الشرع والعقل أن يستعمل فى دار التقية ما لا يستعمل فى دار العلانية .

نشأته وأعماله :

هو على بن محمد بن العباس التوحيـدى (بفتح التاء وسكون الواو وكسر الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها) نسبةً فيما قيل للتوحيـد ، وهو نوع من التمر كان يبيعه أبوه بالعراق ، وعليه حمل بعض شراح ديوان المتنبى قوله :

يترشفن من فمى رشـفات هنَّ فيه أحلى من التوحيد

وقيل إن التوحيدى نسبة للمعتزلة ، لأنهم يسمون أنفسهم أهـل العدل والتوحيد ، وهو الأرجح . ذكروا فى أصله أنه شيرازى وقيل نيسابورى وقيل واسطى ، وهو عربى ، وما كان يعرف الفارسية ، ولو ولد فى فارس لكان يتكلم بها ، وكنيته أبو حيان ، ولد على الغالب فى أواخر العقد الثانى من القرن الرابع أو فى أوائل العقد الثالث ، ونشأ فى بغـداد وعُمّر لأنه مات على رأس الخمسمائة أو بعدها بقليل ، وقيل مات بشيراز سنة ٤١٤ .

نزل التوحيدى بغـداد صغيراً على ما يظهر ، وتخرج فى النحو بأبى سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرُّمَّانى ، وبالفقه الشافعى بأبى حامد المَرْوُرُوزى وأبى بكر الشافعى ، وحضر فى أوقات مختلفة بين سنتى ٣٦١ — ٣٩١ هـ دروس يحيى بن عَدىّ وأبى سليمان المنطقىّ وغيرهما من الفلاسفة مثل أبى الحسن العامرى ، وقد اجتمع به أبو حيان وقال إنه تكلم فى الفقه بألفاظ الفلاسفة ، ومثل أبى النفيس الرياضى الفيلسوف ، فجاء مفنناً فى العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة ، وبأخذه الفلسفة عن ورثة علوم الأقدمين فى عصره عد حكيماً عظيماً ، وصفا ذهنه ، وزاد تسامحه ، وأصبح يُحكّم عقـله فيما يرى ويسمع ، لا يأخذ الأشياء على ظواهرها ، بل يواصل الدرس والنظر ، غير متحيز لفئة ، ولا متعصب لرأى جماعة .

وصفه ياقوت بأنه كان جاحظياً ، يسلك فى تصانيفه مسلك الجاحظ ، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه ، فهو شيخ فى الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق أهل الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ، فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاءً وفطنة ، وفصاحة ومكنةً ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن ، حُفَظَةٌ واسع الرواية والدراية . قال : ولم أر واحداً من أهل العلم ذكره فى كتاب ، ولا أدمجه فى ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجاب . وقال فيه إنه صوفىّ السمت والهيئة ، وإنه كان فقيراً صابراً ، وعده السبكىّ فى فقهاء الشافعية ، وقال إنه من المؤرخين وروى الحديث وأرواه ، وآخر ما أُخذ عنه بشيراز سنة أربعمائة . وقال النووى فى تهذيب الأسماء إنه من أصحابه المصنفين ، وأن من غرائبه أنه قال فى بعض رسائله لا ربا فى الزعفران ، ووافقه على قوله القاضى أبو حامد المروروزىّ .

ولأبى حيان تصانيف كثيرة منها كتاب الصديق والصداقة ، وكتاب المقابسات أو المقابسة ، وكتاب الإشارات الإلهية ، والرد على ابن جنىّ فى شعر المتنبى ، وكتاب الإمتاع والمؤانسة ، وكتاب الزلفة ، وكتاب رياض العارفين ، وكتاب تقريظ الجاحظ ، وكتاب مثالب الوزيرين[1] ، وكتاب الحج العقلى إذا

---

(١) اطلع ياقوت الحموى على بعض كتب التوحيدى أوائل القرن السابع ، ونقل منها كثيراً فى كتابه معجم الأدباء ، ومنها ما اطلع عليه ، ومنها ما كان بخط المؤلف مثل كتاب « تقريظ عمرو بن بحر الجاحظ » و « مثالب الوزيرين » و « الإمتاع والمؤانسة » و « كتاب المحاضرات أو محاضرات العلماء » وفى إحدى مكاتب الآستانة نسخة من مثالب الوزيرين وأخرى تامة من الامتاع وفى دار الكتب بدمشق الجزء الأول من الإشارات الإلهية وله مختصر محفوظ فى دار كتب الأمة ببرلين ، وفى دار الكتب الامبروزيانية فى ميلانو الجزء الثانى من الإمتاع والمؤانسة ، ونسخة من كتاب البصائر له ، وفى مكتبة الفاتح فى الآستانة خمس نسخ مخطوطة من البصائر والذخائر ، وفى دار الكتب فى ليننغراد نسخة من الحجيج للتوحيدى . وليس لأبى حيان من المطبوع سوى رسالة الصديق والصداقة وكتاب المقابسات ورسالة ثمرات العلوم .

ضاق الفضاء عن الحجج الشرعى ، ورسالة فى صلات الفقهاء فى المناظرة : الرسالة البغدادية ، الرسالة فى أخبار الصوفية ، الرسالة الصوفية أيضاً ، الرسالة فى الحنين إلى الأوطان ، كتاب المحاضرات والمناظرات ، كتاب البصائر والذخائر فى عشرة مجلدات كل مجلد له فاتحة وخاتمة . وقد ساق الصفدى فى الوافى بالوفيات ثبتاً طويلا فى مصنفاته ، ومنها كثير من كتب فتوح البلدان يستدل بها على تضلعه من التاريخ أيضاً . وأثبت فى أكثر من أربع صفحات كلها أسماء كتبه . وكتبُ أبى حيان أسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات ، وتقريع وتقريظ ، ونقد ولمز ، ووعظ وإرشاد ، وكل صفحة منها تدل على علو كعبه فى العلوم ، وبلوغه درجة عالية فى الفهم ، أنزلته منازل أعاظم المنشئين والمؤلفين ، صوَّر فيها العلم والأدب فى أيامه أحسن صورة . وتنكرت النفوس لمشربه وأنكره كثيرون حسداً ولؤماً ، وما مثله بالذى يكون نكرة . ذلك لأنه قال الحقّ ولم يزل قائله من الممقوتين كما قال المعرّى .

كان التوحيدى على ما يظهر من كلامه ، من أهل الباطن أى الصوفية ، ومن أهل الظاهر أى الدينيين الحكماء ، جمع بين مذهب الصوفية أمثال المحاسبى والتُّستُرى والجنيد والسَّرىّ السَّقطى وإبراهيم بن أدهم وغيرهم من النساك أو الصوفية ، وبين مذهب السجستانى والزَّنجانى والمِهرجانى والصَيْمَرى والمقدسى والمجتبى وابن زُرعة وابن سوار وابن رِفاعة فى الحكمة . وقد شهدت له كتبه بأنه متصوف ، وشهدت له بأنه فيلسوف ، وأنه جمع بين العلوم المادية والعلوم المَعادية ، ووفّى كل علم قسطه من النظر . وليست له طريقة خاصة فى التصوف ، ولا مذهب معروف فى الفلسفة ، بل إنه أحاط بجميع الطرق ، وحَنى عليها ، وطابت نفسه بعشرة أهل ثقتها والأخذ عنهم . وقد تجلت شخصيته العلمية بما نقله من

المباحثات والمناقشات المدونة بعامل الجرأة على كسر القيود التى قيدت أهل كل مذهب من مذاهب العلم الدينى أو الفلسفى ، وبدا كل ذلك فى مظهر غريب بأسلوب إنشائه . وما غفلة المؤرخين أو تغافلهم عن الترجمة للتوحيدى ، مع هذه البسطة فى العلم الواسع ، والبيان الرائع ، إلا بسبب أخلاقه على ما يظهر ، فغمطوه بذلك حقه ، لـكن الفضل لا يستر بحجاب ، والعقل لا يخفى على ذوى الألباب .

وظهر أن أبا حيان كان مقتراً عليـه فى الرزق ، وأنه ربما كان يعيش بالوراقة أو النسخ فى بغداد مدة طويلة — وكانت الوراقة فى القديم خير معوان لإخراج العلماء والأدباء — ولم يل التوحيدى أمراً من أمور الدولة ، ويستحيل على من كان فى مثل علمه واستغراقه فى دفاتره ، أن يتقـلد الأعمال ، فإذا لم تـكن له إدرارات من السلطان أو الخليفة يعيش بها يبرّح به العَوَز والإملاق . وهكذا كان شأن بعض عصريّيه مثل أبى بكر القومَسى الفيلسوف الذى وصفه أبو حيان بأنه كان بحراً عجّاجاً ، وسراجاً وهّاجاً ، وكان قرين التوحيـدى فى الضرّ والفاقة ومقاساة الشـدة ، ومن الإضاقة بمنزلة عظيمة ، وهو الذى قال للتوحيدى ذات يوم : ما ظننت أن الدنيا ونـكَدَها تبلغ من إنسان ما بلغ منى : إن قصدت دجلة لأغتسـل منها نضب ماؤها ، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلداً أملس .

التوحيدى لم توظف له وظيفة ولا أُجرى عليه رزق ، فمن أين كان يرتزق ؟ لما ترامى إلى بغـداد نبأ مكارم ابن العميد والصاحب بن عباد من وزراء آل بويه فى الشرق ، وكانا يُفضلان على أعلام العلم فى مدينة دار السلام ويبرّانهم بهباتهما الحين بعد الآخر ، ووصلت عطاياهما إلى شيخى التوحيدى أبى سليمان المنطقى وأبى سعيد السيرافى — سمت نفس أبى حيان إلى أن يقصـد ذينك

الوزيرين وانقطع إليهما ، وقدم بين يدى نجواه مدحهما أولا ، إلا إنه لم ينل منهما رغيبته ، وانقلب بعد مقام ثلاث سنين فى دار الصاحب لم ينله منه درهم ، ولا أعطاه راحلة ولا زاداً . أخفق فى قصر الصاحبين مع أنهما كانا مع الوزير المهلبى من أكبر حماة الأدب ، كما كان سيف الدولة بن حمدان فى حلب ، وربما كان التوحيدى استطال عليهما ، وفيهما عزة السلطان وأبهة الفرس ، فازدرياه فشق عليه الأمر ، وهجاهما فى كتاب أسماه « مثالب الوزيرين » أورد فيه حكايات فى ثلبهما ؛ ومنها ما عزاه إلى بعض من روى عنهم ، وذكر وقائعه معهما ، قال إنه فارق باب الصاحب سنة ٣٧٠ وقد نال منه هذا الحرمان الذى قصده به ، وأحفظه عليه ، وجعله من جميع غاشيته فرداً . ومن جملة ما نفّره من الصاحب أن هذا قدم إليه رسالة فى ثلاثين مجلدة على أن ينسخها له فقال : نسخ مثله يأتى على العمر والبصر ، والوراقة كانت موجودة ببغداد ! فأخذ الصاحب فى نفسه عليه .

وقد عرفنا شيئاً من أخلاق التوحيدى فى هذا الكتاب ، وربما أثار ما قاله فيه ثائرة التعصب للوزيرين ، وأحبابهما كثار فى الأمصار ، فأعرض الناس عنه وأوقعوا فيه ، وأسقطوه من دواوينهم . وعجيب أن يغضب الناس لهضم حق المهجوّين ، ولا يغتاظون لحق الهاجين ، وقلما يحفلون بالسبب الذى يلجئ هؤلاء إلى الهجاء أحياناً . وقيل إن الصاحب بن عباد اتهم التوحيدى بالزندقة ففر منه ، وطلبه الوزير المهلبى ليقتله ففر إلى ديار بكر ، وفى رواية أنه مات فى الاستتار ؛ ولكن التوحيدى إذا فاتته أفضال الوزيرين الصاحبين ، فقد لقى إكراماً من الوزير صمصام الدولة بن سعدان وعبد الله بن عارض الشيرازى ، ولابن سعدان ألّف كتاب الصديق والصداقة ، وكتاب الإمتاع والمؤانسة ، وللدُّلَجى بشيراز

ألّف كتاب المحاضرات . ولم نعلم السبب الذى عاق التوحيدىّ عن إهداء كتبه كلها إلى بعض عظماء عصره ، وكانت طريقة إهداء المؤلفين مصنفاتهم لأمير أو عظيم من الشائع المعروف ، وكثير من المؤلفين كان من أهم موارد عيشهم التصنيف بأسماء عظماء عصرهم ، والارتزاق بعطاياهم وهداياهم .

قضت الفاقة على التوحيدى أن يتكفف بعض الأمراء ، وكتابه إلى ابن العميد نموذج من هذا التنزل ، ولكن العجز غالب لأنه مبذور فى الطينة كما قال عن نفسه . وقال إنه تصفح الناس فوجدهم أحد رجلين : رجل إن نطق نطق عن غيظ ودمنة[1] وإن سكت سكت عن ضِغن وإحنة ، ورجل إن بذل كدَّر بامتنانه بذله ، وإن منع حسن بإقباله بخله . ولقد دعا ، وقد ترقرقت عيناه بالدموع لما أخفق عند بعض من قصدهم ، وبان له نبوُّ الدهر به ، وضياع سعيه ، وخيبة أمله ، فى كل ما ارتجاه لملمّ أو مهمّ ، أو حادثة أو نائبة ، دعا بما دعا به بعض النساك فقال : « اللهم صُنْ وجوهنا باليسار ، ولا تذلها بالإقتار ، فنسترزق أهل رزقك ، ونسأل شر خلقك ، ونبتلى بحمد من أعطى ، وذم من منع ، وأنت من دونهم ولىُّ الإعطاء ، وبيدك خزائن الأرض والسماء » .

وإذا أنصفنا أبا حيان فلمناه على ما بدر منه فى حق عظيمين غمط حسناتهما وجسم سيئاتهما ، مما ساقه إليه خيبة فى أمله ، أو مساس فى عاطفته ، أو اعتداد برأيه ، فلا نذهب مع القائلين بالحكم عليه بالزندقة ، اللهم إذا وقفنا فى الحكم عليه عند حدود أقواله ، وفيها شاهد على توحيده ، وبعده عن الإلحاد الذى قُرف به . على أن معظم من ذكروه ، ومنهم صاحب تاريخ بغداد ومؤلف معجم الأدباء ، قالوا إنه كان يتألّه أى يتنسك ويتعبّد ، والناس على ثقة من دينه وصحة

(١) الدمنة : الحقد القديم .

عقيدته . ودعوى ابن الجوزى أن زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندى وأبو حيان وأبو العلاء المعرى ، وأنه كان أشدها ، صرّحا وهو جمجم ، من الكلام الذى يلقى على عواهنه ، أخذه على ما يظهر بدون روية ، وتابعه عليه بعض الناقلين من دون تمحيص ، وكذلك ما قيل من أن الصاحب بن عباد وقف على قدح التوحيدى فى الشريعة وقوله فى التعطيل وما كان يخفيه من ذلك ، فطلبه ليقتله ففرّ ، كلام فيه نظر أيضاً[1] ، على أن كثيرين من المتصوفة شطحوا أكثر من شطحات ابن الراوندى والتوحيدى والمعرى ، فلم يُتهموا بشىء ولا قدح الناس فى دينهم ، وذهبوا من هذا العالم بسلام ، لم يمسسهم أحد بسوء ، ولا طعن طاعن فى عقيدتهم . ولطالما وجهت تهمة الزندقة إلى كثير ممن توسعوا فى علم الكلام أو العلم الإلٰهى ، أو علوم الأوائل من الفلسفة والطبيعى والرياضى ، وكان نمط تفكيرهم جديداً يخالف من بعض نواحيه نمط التفكير الذى اصطنعه رجل مات أو رجال ماتوا ، فوَقَروا فى الصدور ، وعلت منزلتهم بين الناس . والميت أفضل عندهم من الحىّ ، وقد يكون بينهما بون بعيد ، وفروق ظاهرة . والأرجح أنه كان للحسد والجهل مدخل كبير فى الطعن على التوحيدى ، والطاعنون إما حسدة ساقهم لؤم الغريزة إلى النيل من عظيم بَذَّهم وأربى عليهم ، فما استطاعوا مشاركته ومنافسته ، أو أنهم جهلوا حقيقته وتأولوا كلامه ، وباب التأويل متسع لمن يحاول أن يسقط مؤلفاً مثله ، خاض أصعب المسائل الإلٰهية والاجتماعية .

---

(١) فى معلمة الإسلام ترجمة للتوحيدى بقلم الأستاذ مرجليوث ، جاء فيها أن الوزير المهلبى نفى أبا حيان لما صرح به من الإلحاد فى كتبه التى ضاعت وذكر له كتاب التذكرة التوحيدية وكتاب أخبار القدماء وذخائر الحكماء وقال إنه ليس من الثابت أن هذين التأليفين دخلا فى شىء من فهرس كتب التوحيدى التى ذكرها ياقوت .

وقال فيه بعض واصفيه إنه قليل الرضى عند الإساءة إليه والإحسان ، الذم شانه ، والثلب دكانه ، يشتكى صرف زمانه ، ويبكى فى تضاعيفه على حرمانه . وقد لامه أُستاذه السيرافىّ يوماً وهو ينقل ذم أعرابى بقوله : « تأبى إلا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس » فأجاب : « أدام الله الأستاذ ، شغل كل إنسان بما هو مبتلى به مدفوع إليه » وهذا الخلق فى النيل من الناس لا سبيل إلى تبرئة أبى حيان منه ، لأنه مما أجمعت الآراء على أنه كان فيه متأصلاً بادياً ، وهو مزاج خاص من جملة أمزجة بنى آدم . ويوشك صاحب هذا المشرب أن يعادىَ أكثر أهل زمانه ، هذا وهم دونه فى صوب العقل وذوب الفضل .

إن الرجل الذى يخوض غمار المباحث التى خاض التوحيدى بحرها ، وخرج منها ناصع الجبين والحجة ، ناجح المسعى والمرمى ، وهو من أفراد الدنيا بذكائه ونبوغه ، يستحيل أن يتقيد بقيود أفكار غيره : يصدر إذا صدروا ، ويرد إذا وردوا ، يقلدهم فى كل ما قَرروا أو قُرّر لهم ، ويتابعهم عموا وضلوا ، أم أبصروا واهتدوا . وفى البشر عدد ليس بقليل كان نصيبهم نصيب أبى حيان من الناس والمجتمع ، قضوا أيامهم فى ضيق من معاشهم ، وضيق من عقول أهل جيلهم ، وضيق من عبث المناظرين والمتعالمين ، وسيطرة المستبدين والجائرين .

تشاؤمه وتفلسفه :

تُرى هل كان التوحيدى يسمع الموسيقى والغناء ، ويجالس إلى أرباب الدعابة والهزل ، ويخلع ثوب الجد والوقار ، ساعة من ليل أو نهار ؟ وبغداد فى أيامه علقت الطرب ، ورفعت أقدار المسمعين والمسمعات إلى أسمى الرتب ،

وخرج الأدب فيها عن حد الخيال ، وأصبح أطرب الشعر ما صدر عن قلب ملتهب ، وفؤاد مضطرب ، ووصف واقعة حال . وأكبر الظن أن التوحيدى لم يكن على شىء من هذا ، اللهم إلا إذا كان فى صباه ، وقد عرف بنسكه وزهده ، أجمع على ذلك العارفون به ، لو لم تناقضه القطعة الوحيدة التى انتهت إلينا من شعره وهى فى غزل رقيق ، صدر عمن ابتسم للحياة والأيام ، فأخذ ينظر إليها نظر المتفائل ، على حين كانت أكثر نظرات التوحيدى متشائمة ، هذا إذا لم يؤول له مؤول بأن هذا اللسان كان على لسان أهل الباطن ، كما يفسر بعض المتصوفة كثيراً من الغزل ، فيدعون أنه فى العزة الإلهية أو فى المقامات المطهرة . أما أبيات التوحيدى فهذه :

يا صاحبىَّ دعا الملامة واقصرا ... ترك الهوى يا صاحبى خساره
كم لمت قلبى كى يُفيق فقال لى ... لجَّت[1] يمين ما لها كفاره
أنا لا أُفيق ولا أُفتر لحظةً ... إن أنت لم تعشق فأنت حجاره
الحب أول ما يكون بنظرةٍ ... وكذا الحريق بداؤه بشراره
يا من أُحب ولا أُسمى باسمها ... إياك أعنى فاسمعى يا جاره

ولقد أحرق أبو حيان كتبه فى آخر عمره لقلة جدواها ، وضناً بها بزعمه على من لا يعرف قدرها بعد موته . وكتب إليه القاضى أبو سهل على بن محمد يعذله على صنيعه ، فكتب إليه أبو حيان يعتذر من ذلك . ومما قال له فى الاعتذار : « إن كان ، أيدك الله ، قد أنقب خفك[2] ما سمعت ، فقد أدمى أظلّى ما فعلت ،

---

(١) لج فى اليمين لم يكفرها مدعياً صدقه فيها .

(٢) أصل المثل إن يدم أظلك فقد نقب خفى . الأظل ما تحت منسم البعير ، والخف واحد الأخفاف وهى قوائمه . يضرب به المشكو إليه للشاكى أى أنا منه فى مثل ما تشكوه (أمثال الميدانى) والمنسم كمجلس طرف خف البعير وهما كالظفرين فى مقدمته .

فليهن عليك ذلك ، فما انبريت له ، ولا اجترأت عليه ، حتى استخرت الله عز وجل فيه أياماً ولياليَ ، وحتى أوحى إلى فى المنام بما بعث راقد العزم ، وأجدَّ فاتر النية ، وأحيا ميت الرأى ، وحث على تنفيذ ما وقع فى الرُّوع ، وتربع فى الخاطر ، وأنا أجود عليك الآن بالحجة فى ذلك إن طالبت ، أو العذر إن استوضحت ، لتثق بى فيما كان منى ، وتعرف صنع الله تعالى فى ثنيه لى . إن العلم ، حاطك الله ، يراد للعمل ، كما أن العمل يراد للنجاة ، فإذا كان العمل قاصراً على العلم ، كان العلم كلاًّ على العالِم ، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاًّ ، وأورث ذلاً ، وصار فى رقبة صاحبه غُلاً .

« ثم اعلم ، علّمك الله الخير ، أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته ، فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً ، وأما ما كان علانية فلم أُصب من يحرص عليه طالباً ، على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المَثالة[1] منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمدِّ الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله ، ولا شك فى حسن ما اختاره الله لى ، وناطه بناصيتى ، وربطه بأمرى ، وكرهت مع هذا وغيره ، أن تكون حجة علىَّ لا لى .

« ومما شحذ العزم على ذلك ، ورفع الحجاب عنه ، أنى فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً منيباً ، فشقَّ علىَّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضى إذا نظروا فيها ، ويشمتون بسهوى وغلطى إذا تصفحوها ، ويتراءون نقصى وعيبى من أجلها ، فإن قلتَ ولمَ تَسِمهم بسوءِ الظن ، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب ، فجوابى لك أن عيانى منهم فى الحياة ، هو الذى حقق ظنى بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأُناس جاورتهم

(١) الفضل ؛ يقال هو من ذوى مثالتهم .

عشرين سنة فما صحَّ لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حِفاظ ؛ ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخَضِر[1] فى الصحراء ، و إلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، و إلى بيع الدّين والمروءة ، و إلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، و إلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، و يطرح فى قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلته بخاف عليك ، مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب فى صوب ما فعلته وأتيته ، بما قدمته ووصفته ، و بما أمسكت عنه وطويته ، إما هرباً من التطويل ، و إما خوفاً من القال والقيل .

« و بعد فقد أصبحت هامة[2] اليوم أو غد ، فإنى فى عشر التسعين ، وهل لى بعد الكِبْرة والعجز أمل فى حياة لذيذة ، أو رجاء لحال جديدة ، ألست من زمرة من قال القائل فيهم :

نروح ونغدو كلَّ يوم وليلة وعما قليل لا نروح ولا نغدو

وكما قال الآخر :

تفوقت درّاتِ الصّبا فى ظلاله إلى أَن أَتانى بالفطام مشيب

وهذا البيت للورد الجعدى وتمامه يضيق عنه هذا المكان .

« والله يا سيدى لو لم أَتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان ، فى هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى ، فكيف بمن كانت العين تَقَرُّ بهم ، والنفس تستنير بقربهم ، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والرىّ وما والى هذه

(١) الخضر كتف البقلة الخضراء كالحضرة كفرحة وهى بقلة خضراء خشناء ورقها مثل ورق الدخن وكذلك ثمرتها وترتفع ذراعاً وهى تملأ فم البعير (التاج) .

(٢) يقال هو هامة اليوم أو غد أى مشف على الموت .

المواضع ، وتواتر إلىّ نعيهم ، واشتدت الواعية[1] بهم ، فهل أنا إلا من عنصرهم ، وهل لى محيد عن مصيرهم ، أسأل الله تعالى رب العالمين ، أن يجعل اعترافى بما أعرفه ، موصولاً بنزوعى عما أقترفه ، إنه قريب مجيب .

« وبعد فلى فى إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم ، ويؤخذ بهديهم ، ويُعْشى إلى نارهم ، منهم أبو عمرو بن العلاء ، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر ، وورع معروف ، دفن كتبه فى بطن الأرض فلم يوجد لها أثر ؛ وهذا داود الطائى وكان من خيار عباد الله ، زهداً وفقهاً وعبادةً ، ويقال له تاج الأمة ، طرح كتبه فى البحر وقال يناجيها : نعم الدليل كنتِ ، والوقوفُ مع الدليل بعد الوصول ، عناء وذهول ، وبلاء وخمول ؛ وهذا يوسف بن أسباط حمل كتبه إلى غار فى جبل ، وطرحها فيه وسدَّ بابه ، فلما عوتب على ذلك قال : دلنا العلم فى الأول ، ثم كاد يُضلنا فى الثانى ، فهجرناه لوجه من وصلناه ، وكرهناه من أجل من أردناه ؛ وهذا أبو سليمان الدارانى جمع كتبه فى تنور وسجرها[2] بالنار ثم قال : والله ما أحرقتكِ حتى كدت أحترق بك ؛ وهذا سفيان الثورى مزّق ألف جزء وطرحها فى الريح وقال : ليت يدى قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفاً ؛ وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافى سيد العلماء قال لولده محمد : قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الآجل ، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار .

« وما ذا أقول ، وسامعى يصدق ، إن زماناً أحوج مثلى إلى ما بلغك ، لزمان تدمع له العين حزناً وأسى ، ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوًى ، وضنىً وشجى ، وما يصنع بما كان ، وحدث وبان ، إن احتجت إلى العلم فى خاصة

---

(١) الصراخ . (٢) سجر التنور أوقده .

نفسى فقليل ، والله تعالى شاف كاف ، وإن احتجت إليه للناس ، ففى الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس ، إلى أن تفنى الأنفاس بعد الأنفاس ، وذلك من فضل الله علينا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فلِمَ تُعَنِّى[1] عينى ، أيدك الله ، بعد هذا بالحبر والورق والجلد ، والقراءة والمقابلة والتصحيح ، وبالسواد والبياض ، وهل أدرك السلف فى الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح ، وإخلاص المعتقد والزهد الغالب ، فى كل ما راق من الدنيا وخدع بالزِّبْرَج[2] ، وهوى بصاحبه إلى الهبوط ، وهل وصل الحكماء والقدماء إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد فى السعى ، وإلا الرضى بالميسور ، وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم ، فأين يُذهب بنا ؟ وعلى أى باب نحط رحالنا ؟ وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب ، وهل المنهوم بها إلا كالحريص الجشع عليها ، وهل المغرم بحبها إلا كمكاثرها ؟ هيهات ، الرحيل والله قريب ، والثواء قليل ، والمضجع مقضٌّ ، والمُقام ممض[3] ، والطريق مخوف ، والمعين ضعيف ، والاغترار غالب ، والله من وراء هذا كله طالب . نسأل الله تعالى رحمة يظلنا جناحها ، ويسهل علينا فى هذه العاجلة غدوها ورواحها ، فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته ، بعد أن حصل تحت قدرته » .

وختم كتابه بقوله : « على أنى لو علمت فى أى حال غلب على ما فعلته ، وعند أى مرض ، وعلى أية عسرة وفاقة ، لعرفت من عذرى أضعاف ما أبديته ، واحتججت لى بأكثر ما نشرته وطويته ، وإذا أنعمت النظر تيقنت أن لله جل وعز فى خلقه أحكاماً ، لا يغارُّ عليها ولا يغالب فيها ، لأنه لا يبلغ كنهها ،

(١) تعنى تتعب وأعناه وعناه .
(٢) الزبرج بالكسر الزينة بالوشى أو الجوهر .
(٣) مضه الشىء مضاً ومضيضاً بلغ من قلبه الحزن كأمضه .

ولا ينال غيبها[١] ولا يعرف قَلْبها[٢] ، ولا يقرع بابها ، وهو تعالى أملك لنواصينا ، وأطلع على أدانينا وأقاصينا ، له الخلق والأمر ، وبيده الكسر والجبر ، وعلينا الصمت والصبر ، إلى أن يوارينا اللحد والقبر والسلام » .

كتب هذا الكتاب فى شهر رمضان سنة أربعمائة ، وكشف به الغطاء عن محيا حقائق عصره ، وألمّ فيه أى إلمام بما حداه على تعفية أثره ، لما لقى من الإنكار ، وناله من أهل جيله ، فهُجّن[٣] بما هُجِّن ، وأُزعج بما أُزعج ، ولولا أن السويداء غلبت عليه بإقراره ، واليأس من الحياة وبنيها سد عليه مسالكه ، وزين له إتيان ما أتى — وبنات الأفكار ، أغلى من كل عقار ونضار — لما أُقيمت له معذرة ، ولا أُسبل على ذنبه ستر المغفرة ؛ وبالسويداء قد يهلك المرء أعزّ حبيب على قلبه ، حتى إذا ثاب إليه عقله ندم على فعلته ، وبالمِرّة الصفراء قد يقتل نفسه ، والنفس أعزُّ الأعلاق على الإطلاق . والتوحيدى مع هذا لم يأت بدعاً فرياً[٤] ، ولعمله أشباه ونظائر ، بيد أن الزمن الذى قلبه كل مقلب ، وغيره فى أعطاف النعم يتقلب ، وأخرجه من جلده ، ونبا به عن طوره ، بما رآه من خُبث وخَبَث ، وعَنَت وعَبَث ، لم يرض أن يستلب جميع جواهره وعقوده ، ليستمتع بذَرْوٍ[٥] من درره أهل الأجيال المقبلة ، على نحو ما استمتع بها أبناء الأعصر الغابرة ، فقضى له من قبل المأتم الذى عقده لإحراق كتبه ، أن يتناقل الوراقون والطالبون أسفاره ، ويتنافسوا فى نسخها واقتنائها ، فبقيت بصنيعهم هذه البقية الصالحة من أفكاره التى حفظت ذكراه على كرور الأعصار ، وطارت كل مطار فى الأقطار والأمصار .

---

(١) ظلمتها . (٢) محض كل شىء . (٣) التهجين : التقبيح .
(٤) الفرى كغنى الأمر المختلق المصنوع أو العظيم . (٥) يسير .

وإن أعظم ما ينتقد عليه فى هذه الرسالة قوله إنه جمع أكثر كتبه للناس ، ولطلاب الفضل منهم ، وعقد الرياسة بينهم ونشدان الجاه عندهم . وقوله هذا ينافى هَدْى العلماء ، فإن العلم يراد لذاته ، وتأليف الكتب يُقصد به نفع الناس ، ونشر فكر وبث حقيقة ، وقد يتوقع منها مأرب آخر ، هذا إذا كان يريد بعبارته ما فهمناه منها ، فإن هذا التصريح مما يعاب عليه ، وما نرى هذه الأفكار تلتئم مع الفلسفة والتصوف . على أننا رأينا أبا حيان فى بعض أحواله ومواقفه يقول غير هذا ، رأيناه يقول وقد رأى فى جامع الرصافة المعافا بن زكريا ينام مستدبر الشمس فى يوم شاتٍ ، وبه من أثر الفقر والبؤس والضر أمر عظيم ، مع غزارة علمه ، واتساع أدبه ، وفضله المشهور ، ومعرفته بصنوف العلم ، سيما علم الأثر والأخبار وسير العرب وأيامها فقال له : مهلا أيها الشيخ وصبراً ، فإنك بعين الله ومرأى منه ومسمع ، وما جمع الله لأحد شرف العلم وعزّ المال فقال : مالابد منه من الدنيا فليس منه بد ، ثم قال :

يا محنة الدهر كفى ... إن لم تكفى فخفى
قد آن أن ترحمينا ... من طول هذا التشفى
طلبت جداً لنفسى ... فقيل لى قد توفى
فلا علومى تجدى ... ولا صناعة كفى
ثور ينال الثريا ... وعالم متخفى

نموذجات من كتبه :

نقلت كتب أبى حيان أفكاراً منوعة ، وفلسفة أناس كانت تنسى أخبارهم ، لو لم يتصد لتدوينها ، وفى اقتباس صفحات قليلة منها تتجلى ألوان أدبه

وسهولة بيانه . قال فى كتاب المحاضرات :

ذكرت للوزير مناظرة جرت فى مجلس الوزير أبى الفتح الفضل بن جعفر ابن الفرات ، بين أبى سعيد السيرافى وأبى بشر متى واختصرتها فقال لى : اكتب هذه المناظرة على التمام ، فإن شيئاً يجرى فى ذلك المجلس النبيه ، وبين هذين الشيخين بحضرة أولئك الأعلام ، ينبغى أن يغتنم سماعه ، وتوعى فوائده ، ولا يتهاون بشىء منه . وكان فى جملة من حضر ذلك المجلس الذى انعقد سنة عشرين وثلاثمائة : الخالدى وابن الإخشيد والكِندى وابن أبى بشر وابن رباح وابن كعب وقدامة بن جعفر والزهرى وعلى بن عيسى بن الجراح وأبو فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمى وابن يحيى العلوى ورسول ابن طُغج من مصر والمرزبانى صاحب بنى سامان . قال التوحيدى فقال لى الوزير : أين أبو سعيد من أبى على ، وأين على بن عيسى منهما ، وأين ابن المراغى أيضاً من الجماعة ، وكذلك المرزبانى وابن شاذان وابن الوراق وابن حيويه ؟ فكان منى الجواب : أبو سعيد أجمع لشمل العلم ، وأنظم لمذاهب العرب ، وأدخل فى كل باب ، وأخرج عن كل طريق ، وألزم للجادة الوسطى فى الدين والخلق ، وأروى للحديث ، وأقضى فى الأحكام ، وأفقه فى الفتوى ، وأحضر بركة على المختلفين ، وأظهر أثراً فى المقتبسة .

ومما جاء فى هذه المناظرة فى اللغات والترجمة : إن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها فى أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها وتشديدها وتخفيفها وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ووزنها وميلها وغير ذلك ... فمن أين يجب أن نثق بشىء ترجم لك على هذا الوصف ؟ بل أنت إلى أن تعرف اللغة العربية أحوج

منك إلى تعرف المعانى اليونانية ، على أن المعانى لا تكون يونانية ولا هندية ، كما أن اللغات لا تكون فارسية ولا عربية ولا تركية . . . ومن فِقَرها قال أبو سعيد : فأنت (أى متّى) إذاً لست تدعونا إلى علم المنطق بل إلى تعلم اللغة اليونانية ، وأنت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفى بها وقد عَفَت منذ زمان طويل ، وباد أهلها ، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ، ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها ؟ على أنك تنقل من السريانية ، فما تقول فى معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه إلى لغة أخرى عربية ؟ قال مَتّى : يونان وإن بادت مع لغتها فإن الترجمة قد حفظت الأغراض ، وأدت المعانى ، وأخلصت الحقائق . قال أبو سعيد : إذا سلمنا لك أن الترجمة صدقت وما كذبت ، وقوّمت وما حرفت ، ووزنت وما جزفت ، وأنها ما التاثت ، ولا حافت[1] ، ولا نقصت ولا زادت ، ولا قدمت ولا أخرت ، ولا أخلت بمعنى الخاص والعام ، ولا بأخص الخاص ، ولا بأعم العام ، وإن كان هذا لا يكون ، وليس فى طبائع اللغات ، ولا فى مقادير المعانى ؛ فكأنك تقول بعد هذا لا حجة إلا عقول يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه . قال متّى : لا ولكنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة ، والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه ، وعن كل ما يتصل به وينفصل عنه ؛ وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر ، وانتشر ما انتشر ، ونشأ ما نشأ ، من أنواع العلم وأصناف الصناعة ، ولم نجد هذا لغيرهم . قال أبو سعيد : أخطأت وتعصبت ، وملت مع الهوى ، فإن العلم مبثوث فى العالم . ولهذا قال القائل :

العلم فى العالم مبثوث ونحوَه العاقل محثوث

---

(١) حاف يحاف حيفاً جار وظلم ، والتاث اختلط .

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من على جديد الأرض ، ولهذا غاب علم فى مكان دون مكان ، وكثرت صناعة فى بقعة دون صناعة ، وهذا واضح والزيادة عليه مشغلة . ومع هذا فإنما كان يصح قولك وتسلم دعواك ، لو كانت يونان معروفة بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة ، والفطرة الظاهرة ، والبنية المخالفة ، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا ما قدروا ، ولو قصدوا أن يكذبوا ما استطاعوا ، وأن السكينة نزلت عليهم ، والحق تكفل بهم ، والخطأ تبرأ منهم ، والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم ، والرذائل بعدت عن جواهرهم وعروقهم ، وهذا جهل ممن يظنه بهم ، وعناد ممن يدعيه عليهم ، بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون فى أشياء ، ويخطئون فى أشياء ، ويصدقون فى أمور ، ويكذبون فى أمور ، ويحسنون فى أحوال ، ويسيئون فى أحوال . . . .

قال أبو حيان : هذا آخر ما كتبت عن على بن عيسى الشيخ الصالح بإملائه ، وكان أبو سعيد روى لمعاً من هذه القصة ، وكان يقول لم أحفظ على نفسى كل ما قلت ، ولكن كتب ذلك القوم الذين حضروا فى ألواح كانت معهم ومحابر أيضاً ، وقد اختل كثير منه . قال على بن عيسى : وتقوض المجلس وأهله يتعجبون من جأش أبى سعيد ، ولسانه المتصرف ، ووجهه المتهلل ، وفوائده المتتابعة . وقال له الوزير ابن الفرات : عين الله عليك أيها الشيخ فقد نديت أكباداً ، وأقررت عيوناً ، وبيضت وجوهاً ، وحكمت طرازاً لا تبليه الأيام ، ولا يتطرقه الحدثان ، قال قلت لعلى بن عيسى : وكم كانت سن أبى سعيد يومئذ ، قال مولده سنة ثمانين ومائتين ، وكان له يوم المناظرة أربعون سنة وقد عبث الشيب بلهازمه[1] .

* * *

(١) لهازم جمع لهزمة وهما عظمان ناتئان فى اللحيين تحت الأذنين .

نقل القفطى أن السبب فى تأليف التوحيدى كتاب الإمتاع والمؤانسة أن أبا سليمان المنطقى أستاذ التوحيدى فى الفلسفة — وكان منزله فى دار السلام مقيل[١] أصحاب العلوم القديمة — كان لانقطاعه عن الناس ، ولزومه مجلسه ، يشتهى الاطلاع على أخبار الدولة ، وعلم ما يحدث فيها ، بمكان من يغشاه من الأجلاء ، ينقل إليه بعض أخبارها ، وكان أبو حيان من بعض المعتصمين به ، وكان يغشى مجالس الرؤساء و يطلع على الأخبار ، ومهما علمه من ذلك نقله إليه وحاضره به ، ولأجله صنف كتاب الإمتاع والمؤانسة ، نقل له فيه ما كان يدور فى مجلس أبى الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى عند ما تولى الوزارة . قال : وهو كتاب ممتع على التحقيق ، لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فإنه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة . قال القِفطى : وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو : ابتدأ أبو حيان كتابه صوفياً ، وتوسطه محدثاً ، وختمه سائلا ملحفاً اه . وفى الكلام الأخير صورة صغيرة مما كان يعاب على أخلاق أبى حيان ، وقد لا يجد المدافع معذرة يعتذر بها عنه . ومنزع التوحيدى واحد وهو ما قاله فى آخر كتاب أخلاق الوزيرين « ولكن النقص ممن يدعى التمام أشنع ، والحرمان من السعيد المأمول فاقرة[٢] ، والجهل من العالم منكر ، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة[٣] ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب » . ومن الإنصاف أن نقول إن التوحيدى أجاد كل الإجادة فى التعريف بالرجال ، ووقفنا على نفسياتهم ونزائعهم ، وليس هذا بالأمر السهل .

ومن كتاب الإمتاع : « سأل الوزير صمصام الدولة أبا حيان التوحيدى

---

(١) المقيل : الموضع . (٢) الفاقرة : الداهية .
(٣) الجائحة الشدة والنازلة .

فى حدود سنة ٣٧٢ عن إخوان الصفاء بقوله : إنى لا أزال أسمع من زيد بن رِفاعة قولاً يريبنى ، ومذهباً لا عهد لى به ، وكناية عما لا أحققه ، وإشارة إلى ما لا يتوضح شىء منه ، يذكر الحروف ويذكر النقط ، ويزعم أن الباء لم تنقط من تحت واحدة إلا لسبب ، والتاء لم تنقط من فوق اثنتين إلا لعلة ، والألف لم تُعجم إلا لغرض وأشباه هذا ؛ وأشهد منه فى عُرض ذلك دعوى يتعاظم بها ، وينتفخ بذكرها ، فما حديثه وما شأنه وما دخلته[1] ؟ فقد بلغنى يا أبا حيان أنك تغشاه وتجالس إليه ، وتكثر عنده ، ولك معه نوادر معجبة ؛ ومن طالت عشرته لإنسان صدقت خبرته ، وأمكن اطلاعه على مستكنّ رأيه ، وخافى مذهبه . فقلت : أيها الوزير ، أنت الذى تعرفه قبلى قديماً وحديثاً بالاختبار والاستخدام ، وله منك الإمرة القديمة ، والنسبة المعروفة . فقال : دع هذا وصِفه لى . فقلت : هناك ذكاء غالب ، وذهن وقاد ، ومتسع فى قول النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة ، وحفظ أيام الناس ، وسماع المقالات ، وتبصر فى الآراء والديانات ، وتصرُّف فى كل فن ، إما بالشدو[2] الموهم ، وإما بالتوسط المفهم ، وإما بالتناهى المفحم . قال : فعلى هذا ما مذهبه ؟ قلت : لا ينسب إلى شىء ، ولا يعرف برهط ، لجيشانه بكل شىء ، وغليانه بكل باب ، ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه ، وسطوته بلسانه ، وقد أقام بالبصرة زمناً طويلاً ، وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة ، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستى ، ويعرف بالمقدسى وأبو الحسن على بن هرون الزّنجانى وأبو أحمد المِهْرَجانى والعوفى وغيرهم فصحبهم وخدمهم .

« وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت

---

(١) مذهبه ونيته . (٢) الشدو القليل من كل كثير .

على القُدْس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا : إن الشريعة قد دُنّست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ؛ فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرساً وسموها : « رسائل إخوان الصفاء » وكتموا فيها أسماءهم ، وبثوها فى الوراقين ، ووهبوها للناس ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطرق المموهة .

قال الوزير : فهل رأيت هذه الرسائل ؟ قلت : قد رأيت جملة منها وهى مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات ، وتلفيقات وتلزيقات ، وحملت عدة منها إلى شيخنا أبى سليمان المنطقى السجستانى محمد بن بهرام وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً ، وتبحرها طويلاً ، ثم ردها عَلَىَّ وقال : تعبوا وما أغنوا ، ونَصِبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغَثُّوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا ففلفلوا [1] ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ، ظنوا أنه يمكنهم أن يدسوا الفلسفة التى هى علم النجوم والأفلاك والمقادير والمجسطى وآثار الطبيعة ، والموسيقى الذى هو معرفة النغم والإيقاعات والنقرات والأوزان ، والمنطق الذى هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات فى الشريعة ، وأن يربطوا الشريعة فى الفلسفة ، وهذا مرام دونه حَدَد [2] . وقد تورد [3]

(١) ثوب مفلفل موشى ، وهلهلوا : نسجوا نسجاً سخيفا .
(٢) ممتنع باطل .
(٣) ورد : أشرف على الماء وغيره دخله أو لم يدخله كالتورد .

على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحدّ أنياباً ، وأحضر أسباباً ، وأعظم أقداراً ، وأرفع أخطاراً ، وأوسع قوى ، وأوثق عرا ، فلم يتم لهم ما أرادوه ، ولا بلغوا منه ما أمّلوه ، وحصلوا على لوثات[1] قبيحة ، واطخات واضحة موحشة ، وعواقب مخزية ، فقال له البخارى ابن العباس : ولم ذلك أيها الشيخ ؟ فقال : إن الشريعة مأخوذة عن الله عزّ وجلّ ، بوساطة السفير بينه و بين الخلق ، من طريق الوحى وباب المناجاة ، وشهادة الآيات ، وظهور المعجزات ، وفى أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه ، ولا بد من التسليم المدعو إليه ، والمنبه عليه ، وهناك يسقط « لِمَ » و يبطل « كيف » و يزول « هلا » و يذهب « لو وليت » فى الريح الخ (عن تراجم الحكماء) . هذه حقيقة جمعية إخوان الصفاء ، وصفها التوحيدى أجمل وصف . وما أحلى قوله فى ابن رفاعة إنه تصرف فى كل فن إما بالشدو الموهم ، و إما بالتوسط المفهم ، و إما بالتناهى المفحم .

من كتاب تقريظ الجاحظ : هذا الكتاب ينقل عنه ياقوت أحياناً و نقل عنه الجرجانى فى كنايات الأدباء كما نقل أيضاً عن كتاب الذخائر والبصائر قال : قرأت بخط أبى حيان التوحيدى فى كتابه الذى ألفه فى تقريظ الجاحظ ، وقد ذكر العلماء الذين كانوا يفضلون الجاحظ فقال ومنهم على بن عيسى الرمانى فإنه لم ير مثله قط بلا تقية ولا تحاش ، ولا اشمئزاز ولا استيحاش ، علماً بالنحو ، وغزارة فى الكلام ، و بصراً بالمقالات ، واستخراجاً للعويص ، و إيضاحاً للمشكل مع تأله وتنزه ، ودين و يقين ، وفصاحة وفقاهة ، وعفافة و نظافة .

ونقل ياقوت أيضاً جملة من هذا الكتاب فقال : ومنهم (أى من الذين قدمهم التوحيدى على الجاحظ وفضلهم) أبو سعيد السيرافى شيخ الشيوخ و إمام

---

(١) اللوثة بالضم : الحمق والهيج ومس الجنون .

الأئمة معرفة بالنحو ، والفقه ، واللغة ، والشعر ، والعروض ، والقوافى ، والقرآن ، والفرائض ، والحديث ، والكلام ، والحساب ، والهندسة . أفتى فى جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة فما وجد له خطأ ، ولا عثر منه على زلة ، وقضى ببغداد ، وشرح كتاب سيبويه فى ثلاثة آلاف ورقة بخطه فى السليمانى ، فما جاراه فيه أحد ، ولا سبقه إلى إتمامه إنسان . هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرواية ، صام أربعين سنة وأكثر الدهر كله . وهذا الكتاب من عجائب التوحيدى أيضاً فإنه على ما ظهر من هذين النموذجين فيما نرى فى وصف السيرافى والرمانى أنه فضلهما على الجاحظ فى هذا الاختصاص وهذا موضع نظر أيضاً .

مثال من كتابه الصداقة والصديق قال فى مقدمته : « اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا ، واستر علينا فقد أعورنا ، وارزقنا الألفة التى بها تصلح القلوب ، وتنقى الجيوب ، حتى نعيش فى هذه الدار مصطلحين على خير ، مؤثرين للتقوى ، عاملين بشرائط الدين ؛ آخذين بأطراف المروءة ، آنفين من ملابسة ما يقدح فى ذات البين ، متزودين للعاقبة التى لا بد من الشخوص إليها ، ولا محيد عن الاطلاع عليها ، إنك تؤتى من تشاء ما تشاء .

« سُمع منى فى وقت بمدينة السلام ، كلام فى الصداقة والعشرة ، والمؤاخاة والألفة ، وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ ، والوفاء والمساعدة ، والنصيحة والبذل ، والمؤاساة والجود والتكرم ، مما قد ارتفع رسمه بين الناس ، وعُفى أثره عند العام والخاص ، وسئلت إثباته ففعلت ، ووصلت ذلك بجملة مما قال أهل الفضل والحكمة ، وأصحاب الديانة والمروءة ، ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يستفاد منها ، وينتفع بها فى المعاش والمعاد . وسمعت الخُوارزمى أبا بكر محمد

ابن العباس الشاعر البليغ يقول : اللهم نفّق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمتنى حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص ، كما مات الفهم . وأقول : اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشفى الرجاء ، والفرج معدوم ، وأظن أن الداء فى هذا الباب قديم ، والبلوى فيه مشهورة ، والعجيج منه معتاد .

« فأول ذلك أنى قلت لأبى سليمان محمد بن طاهر السجستانى إنى أرى بينك و بين ابن سيار القاضى ممازجة نفسية ، وصداقة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، ومؤاتاة خُلُقية . فمن أين هـذا وكيف هو ؟ فقال : يا بنى اختلطت ثقتى به بثقته بى ، فاستفدنا طُمأنينة وسكوناً لا يرثان على الدهر ، ولا يحولان بالقهر ، ومع ذلك فبيننا بالطالع ، ومواقع الكواكب ، مشاكلة عجيبة ، ومظاهرة غريبة حتى إنا نلتقى كثيراً فى الإرادات والاختيارات ، والشهوات والطلبات ، وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل ، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الأوان ، حتى كأنها قسائم بينى و بينه ، أو كأنى هو فيها أو هو أنا ، وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها ، فتراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل ؛ قال : ورأيته قد ملكه التعجب من هذا وشبهه ، فحدثته بما نتقاسمه من قوى الفلك ، وأن سهامنا واحدة ، وأنصابنا منها متساوية ، أو قريبة من التساوى ، فعجب وازداد بصيرة فى إخلاص الصداقة ، وتوكيد العلاقة . فقلت لأبى سليمان كيف يصح هـذا ، وأنت مطالبك فى الفلسفة ، وصورك مأخوذة من الحكمة ، وقُتَيبَتُك[1] مجموعة من الحقائق ، وخوضك فى

(١) القتيبة : تصغير القتبة ، وهى الأمعاء .

الغوامض والدقائق ، وذاك رجل فى عداد القضاة ، وجلة الحكام ، وأصحاب القلانس ، ومخاضه[1] الظاهر الذى عليه الجمهور ، ومأخذه مما عليه السواد الأعظم ؟ فقال : هذا هو الذى انفردنا عنه ، بعد أن ازدوجنا عليه ، والأصل أبداً مخالف للفرع ، لا خلاف الضد للضد ، ولكن خلاف الشكل للشكل ، وكان مشتريه خالياً من قوة زحل ، فبرز فى حلبة القضاة ، وكان المشترى لى مقتبساً من زحل فظهرت بما ترى ، فجمعتنا المشاكلة على العلم ، وفرقنا الاختلاف بالفن .

قلت : هذا والله طريف ، ومما يزيد فى طرافته أنك من سجستان وهو من الصَيْمَرَة ، فقال : الأمكنة فى الفلك أشد تضاماً من الخاتم فى إصبعك ، وليس لها هناك هذا البعد الذى تجده بالمسافة الأرضية ، من بلد إلى بلد ، بفراسخ تقطع ، وجبال تعلى ، وبحار تُخرق ، فقلت : هل تجد عليه فى شىء أو يجد عليك فى شىء ؟ فقال : وجدى به فى الأول ، قد حجبنى عن موجدتى عليه فى الثانى ، على أنه يكتفى منى فيما خالف هواى باللمحة الضئيلة ، وأكتفى أنا أيضاً منه فى مثل ذلك بالإشارة القليلة ، وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا ، كأننا نتحدث عن قوم آخرين ، ويكون لنا فى ذاك مقنع ، وإليه مفزع ؛ وقلما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى إلى شفتى ، ولا ندَّت عن صدرى إلى لفظى ، وذاك للصفاء الذى نتساهمه ، والوفاء الذى نتقاسمه ، والباطن الذى نتفق عليه ، والظاهر الذى نرجع إليه ، والأصل الذى رسوخنا فيه ، والفرع الذى تشبثنا به ، والله ما يسرنى بصداقته حُمر النَّعم ولا أجد بها بحياتى ما أجد بحياتى لى ، وإذا كنت أعشق الحياة لأنى بها أحيا ، كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة ، وجنى لى ثمرتها ، وجاب إلى روحها ، وخلط بى طيبها وحلاوتها .

---

(١) المخاضة ما جاز الناس فيه مشاة وركباناً ، وخاض الغمرات اقتحمها .

وكان أبو سليمان يحدثنى عن ابن سيار بعجائب ، وأما أنا فما عرفته إلا قاضياً جليلا صاحب جَدّ وتفخيم ، وتوقير وتعظيم ، وكان مع ذلك بسيط اللسان ، شريف اللفظ ، واسع التصرف ، لطيف المعانى ، بعيد المرامى . يذهب مذهب أبى حنيفة .

« ثم قال أبو سليمان : الصداقة التى تدور بين الرغبة والرهبة ، شديدة الاستحالة ، وصاحبها من صاحبه فى غرور ، والزلة فيها غير مأمونة ، وكسرها غير مجبور . قال : فأما الملوك فقد جَلُّوا عن الصداقة ، ولذلك لا تصح لهم أحكامها ، ولا توفى بعهودها ، وإنما أمورهم جارية على القدرة والقهر والهوى ، والشائق والاستحلاء والاستخفاف ، وأما خدمهم وأولياؤهم فعلى غاية الشبه بهم ، ونهاية المشاكلة لهم لانتشابهم[1] بهم ، وانتسابهم إليهم ، وولوع طورهم بما يصدر عنهم ، ويرد عليهم . وأما التُّنّاء[2] وأصحاب الضياع فليسوا من هذا الحديث فى عير ولا نفير . وأما التجار فكسب الدوانيق سدٌّ بينهم و بين كل مروءة ، وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة . وأما أصحاب الدين والورع ، فعلى قلتهم ، ربما خلصت لهم الصداقة لبنائهم إياها على التقوى ، وتأسيسها على أحكام الحرج ، وطلب سلامة العقبى . وأما الكتاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد ، والتمارى والتماحك ، فربما صحت لهم الصداقة ، وظهر منهم الوفاء ، وذلك قليل ، وهذا القليل من الأصل القليل . وأما أصحاب المذاب والتطفيف[3]

---

(١) انتشب به : اعتلق .

(٢) التانئ : الساكن ، وتنأ : أقام .

(٣) التطفيف نقص يخون به صاحبه فى كيل أو وزن ، والمطففون الذين ينقصون المكيال والميزان ، والمذاب جمع مذبة بكسر الميم : ما يذب به الذباب ، وهى هنة تسوى من هلب الفرس ، ويقال أذنابها مذابها ، وهو مجاز .

فإنها رِجْرِجة [١] بين الناس . لا محاسن لهم فتذكر ، ولا مساعى فتنشر ، ولذلك قيل لهم همج ورَعَاع ، وأوباش وأوتاش [٢] ولغيف [٣] وزعانف وداصَة [٤] وسُقَّاط وأنذال وغوغاء ، لأنهم من دقة الهمم ، وخساسة النفوس ، ولؤم الطباع ، على حال لا يجوز أن يكونوا فى حومة المذكورين ، وعصابة المشهورين . فلهذه الأمور الحائلة عن مقارّها ، الزائغة إلى غير جهاتها ، علل وأسباب ، لو نفَّس الزمان قليلاً لكنا ننشط لشرحها ، وذكر ما قد أتى النسيان عليه ، وعفى أثره الإهمال ، وشغل عنه طلب القوت ، ومن أين يظفر بالغذاء ، من كان عاجزاً عن الحاجة ، وبالعشاء من كان قاصراً عن الكفاية ، وكيف يحتال فى حصول طِمْرين [٥] للستر لا للتجمل ، وكيف يهرب من الشر المقبل ، وكيف يهرول وراء الخير المدبر ، وكيف يستعان بمن لا يعين ، ويشتكى إلى غير رحيم ، ولكن حال الجريض دون القريض [٦] .

« ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما فى النفس من الحرق والأسف والحسرة والغيظ ، والكمد والومد [٧] ، وكأنى بغيرك إذا قرأها تقبضت نفسه عنها ، وأمرَّ نقده عليها ، وأنكر علىَّ التطويل والتهويل بها . وإنما أشرت بهذا إلى غيرك ، لأنك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك ، وذاك

---

(١) الرجرجة : بقية ماء مختلط بطين فى أسفل الحوض ، ويطلق على الحمق والمهازيل .
(٢) الوتش : القليل من كل شىء ورذال الناس ، ولعلها الأوقاش وهم الأوباش أيضا .
(٣) اللغيف : من يأكل مع اللصوص ويحرس ثيابهم ولا يسرق معهم .
(٤) جمع دائص وهو اللص أو من يتتبع الولاة .
(٥) الطمر بكسر الطاء : الثوب الخلق .
(٦) الجريض : الغصة من الجرض وهو الريق والقريض الشعر ، وأصل المثل أن رجلا كان له ابن نبغ فى الشعر فنهاه أبوه عن ذلك فخاش به صدره ومرض حتى أشرف على الهلاك فأذن له أبوه فى قول الشعر ، فقال هذا القول .
(٧) الغضب .

لعلمك بحالى ، واطلاعك على دخلتى ، واستمرارى على هذا الإنقاض والعوز اللذين قد نقضا قوتى ، ونكثا مِرَّتى[١] ، وأفسدا حياتى ، وقرنانى بالأسى ، وحجبانى عن الأسى[٢] ، لأنى فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرافق مشفق ، والله لربما صليت فى الجامع فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ، فإن اتفق فبقال أو عصار ، أو نداف أو قصاب ، ومن إذا وقف إلى جانبى أسدرنى[٣] بصُنانه ، وأسكرنى بنتنه . فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخُلُق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوَحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً لما لا بدَّ من حلوله ، فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أُفول ، وظل التلبث إلى قلوص » .

قال التوحيدى بعد ذكر هذه المقدمة إن سبب إنشائه هذه الرسالة فى الصداقة والصديق أنه ذكر « شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبى الخير فنماه إلى ابن سعدان الوزير أبى عبد الله سنة إحدى وسبعين وثلثمائة ، قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة ، حين كانت الأشغال خفيفة ، والأحوال على أذلالها[٤] جارية » ، فأشار عليه ابن سعدان أن يدونه ، فجمع هذه الرسالة ، وأبطأ عن تحريرها ، فلما مرَّ على ذلك بعض سنين عثر على المسودة و بيضها .

وقال فى مكان آخر : « قد أتت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق ، وما يتصل بالوفاق والخلاف ، والهجر والصلة ، والعتب والرضا ،

---

(١) المرة بكسر الميم : قوة الخلق وشدته .

(٢) الأسى بالفتح الحزن والأسى بالفتح والضم واحدها إسوة ما يأتسى به الحزين

(٣) أسدرنى : حيرنى . والصنان ذفر الابط . (٤) فى المثل : أجر الامور على أذلالها أى على وجوهها التى تصلح وتسهل وتتيسر ، وواحد الأذلال ذل بالكسر .

والمذق[1] والإخلاص ، والرياء والنفاق ، والحيلة والخداع ، والاستقامة والالتواء ، والاستكانة والاحتجاج والاعتذار . ولو أمكن لكان تأليف ذلك كله أتم مما هو عليه ، وأجرى إلى الغاية فى ضم الشىء إلى شكله ، وحبسه فى قالبه ، فكان رونقه أبين ، ورفقه أحسن ، ولكن العذر قد تقدم . ولو أردنا أيضاً أن نجمع ما قاله كل ناظم فى شعره ، وكل ناثر من لفظه ، لكان ذلك عسراً بل متعذراً ، فإن أنفاس الناس فى هذا الباب طويلة ، وما من أحد إلا وله فى هذا الفن حصة ، لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب ، أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف ، أو قريب أو بعيد أو ولى أو خليط ، كما لا يخلو أيضاً من عدو أو كاشح أو مداجٍ أو مكاشف ، أو حاسد أو شامت ، أو منافق أو مؤذٍ ، أو منابذ أو معاند ، أو مزل أو مضل أو مغل . وقد قال الأوائل الإنسان مدنى بالطبع ، وبيان هـذا أنه لا بد له من الإعانة والاستعانة ، لأنه لا يكمل وحده لجميع مصالحه ، ولا يستقل بجميع حوائجه ، وهذا ظاهر ، وإذا كان مدنياً بالطبع كما قيـل ، فبالواجب ما يعرض فى أضعاف ذلك من الأخذ والعطاء ، والمجاورة والمحاورة ، والمخالطة والمعاشرة ، ما يكون سبباً لنظام الحال ، أو يكون سبباً لانتشار الأمر ، ولا محالة أن هـذه وأشباهها مفضية بالناس إلى جملة ما نعته هؤلاء الذين روينا نظمهم ونثرهم ، وكتبنا جورهم وإنصافهم ، وذلك أعلى فنون ما قالوه ونظروه ، وعيون ما ذكروه ونشروه ، ونروى فى هذا الموضع بقية أبيات وإن عنَّ شىء حكيناه ، ونغلق الرسالة فإنها إذا طالت أبغضت ، وإذا أبغضت هجرت اه .

وهـذا النموذج الذى أوردناه من الصداقة والصديق كافٍ فى الحكم على

---

(١) مذق الود : لم يخلصه .

أسلوبه والروح الذى ينزع إليه فى تأليفه . وملاحظة التوحيدى على ائتلاف المتضادين فى العلم ، والتمثيل بصداقة أستاذه أبى سليمان المنطقى وصديقه ابن سيار القاضى ، ووصف أبى سليمان وصفاً دقيقاً للصلات التى عقدت بين قلبهما ، ثم إبداعه فى وصف طبقات الأصدقاء ، كل ذلك من جميل الوصف ، وإلى اليوم ما اختل هذا التقسيم ، وإن رأيت الوفاء والصداقة ففى النادر الشاذ . ومن أبدع الصفحات وصف غُربته فى أُمته ، غربة الفكر والاجتماع والنحلة والخُلق والعادة . ولا بدع فهو من جيد الوصف فى نفسية أهل عصره ، ومنزلة العالم بين جمهور الغاغة (١) . ومن أجمل الأعذار اعتذاره عن طول هذه الرسالة علماً منه أن مكانة الكتاب بمادته لا بسعته ، ولكن إذا قضت الحال بالتطويل ، اضطر المؤلف إلى إطلاق عنان بيانه .

* * *

وفى كتاب الصداقة والصديق مثال من مجالسهم وهو قوله : رأيت ابن سعدان ينشد يوماً وقد أنكر شيئاً من بعض الندماء :

عدوٌ راح فى ثوب الصديق ... شريك فى الصَّبوح وفى الغَبوق (٢)
له وجهان ظاهره ابن عم ... وباطنه ابن زانيـة عتيق
يسرك ظاهراً ويسوء سراً ... كذاك تكون أبناء الطريق

وأنا أُسمى لك ندماءه ، وأروى كلاماً له وصفهم به . منهم أبو على عيسى ابن زرعة النصرانى المتفلسف ، وابن عبيد الكاتب ، وابن الحجاج الشاعر ، وأبو الوفاء المهندس ، وابن بكر ، ومسكويه ، وأبو القاسم الأهوازى ، وأبو سعد

(١) أصل معنى الغوغاء الجراد بعد أن ينبت جناحه أو إذا انسلخ من الألوان وصار إلى الحمرة وشىء يشبه البعوض ولا يعض لضعفه وبه سمى الغوغاء من الناس وهم الكثير المختلط منهم كالغاغة .
(٢) الصبوح ما يشرب فى الصباح والغبوق ما يشرب بالعشى .

بهرام بن أزدشير . وكان أوزنهم عنده ، وألصقهم بقلبه ابن شاهويه . هؤلاء أهل المجلس سوى الطارئين من أهل الدولة لا فائدة فى ذكرهم . قال زيد بن رفاعة وكان قريباً له من جهة الخوف له (؟) : رأيت الوزير اليوم يصف ندماءه بكلام يصلح أن يكتب على الأحداق ، ويعرض على أهل الآفاق ، ليستفيده الصغير والكبير . قال : أصحابى طرائق قدد[1] ، كما قال عبد الحميد الكاتب : الناس أخياف مختلفون ، وأصناف متباينون ، فمنهم عِلق[2] مضنة لا يباع ، ومنهم غُل[3] مظنة لا يبتاع . وكما قال الآخر :

الناس أخياف وشتى فى الشيم وكلهم يجمعهم بيت الأدم

فأما ابن زرعة فكبره بالحكمة ، وخيلاؤه بالثروة ، قد قدحا فى حاق[4] عقله ، وهو لا يحس بذلك القدح ، فليس لنا منه إذا جالسنا إلا النفخ والتعظيم ، والتهويل بأرسطاطاليس وأفلاطون وسقراط وبقراط وفلان وفلان ، ومجالس الشراب تتجافى عن هؤلاء ، وهؤلاء يجلون عن مجالس الشراب . يا نائم يا غافل يا ساهى ، وأين أنت من هؤلاء الحكماء القدماء ، أسيرتك سيرتهم ، أحالك حالهم ؟ إنما تدعى عقائدهم باللسان ، وتنتحل أسماءهم باللفظ ، فإذا جاءت الحقيقة كنت على الشط تلعب بالرمل ، ولولا أنه يكدر هزل جدنا بجد هزله ، لكان محمولاً مقبولاً ، ولكنه يأبى إلا ما ألفه ، وأفاد المران عليه .

وأما ابن عبيد فكلفه بالخطابة والبلاغة والرسائل والفصاحة قد طرحه فى عمق لجّ لا مطمع فى انتقاذه منه ، ولا طريق إلى صرفه عنه ، هذا مع حركات

---

(١) طرائق قدد : فرق مختلفة أهواؤها .

(٢) النفيس من كل شىء ج أعلاق وعلوق .

(٣) سير من جلد أو حديد يجعل فى عنق الأسير ومنه قيل للمرأة السيئة الخلق : غُلّ قَمِل .

(٤) وسط عقله .

غير متناسبة ، وشمائل غير دمثة ، ومناظرة مخلوطة بذلة أهل الذمة ، ودالة أصحاب الحجة .

وأما ابن الحجاج فقد جمع بين حد القاضى أبى عمر فى جلسته وحديثه وقيامه وتخطئته ، مع حياء كأنه مستعار من الغانية الشريفة ، وبين سخف شعره الذى لا يجوز أن يكون لراويه مروءة به فكيف لقائله ، فنحن إذا نظرنا إليه تخيلنا صورة سخف شوهاء ، فى صورة عقل حسناء ، ولا تَخلُص هذه من هذه ، ولا جرم اجتماعنا به ، قاصر عن مرادنا منه ، ودنوه منا نابٍ عن مراده له . أما الوفاء فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة ، والمساعدة المطربة ، والمفاكهة اللذيذة ، والمواتاة الشهية ، إلا أن لفظه خراسانى ، وإشارته ناقصة ، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد ، والبغدادى إذا « تخرسن » كان أحلى وأظرف من الخراسانى إذا « تبغدد » . وإن شئت فضع الاعتبار على من أردت فإنك تجد هذا القول حقاً ، وهذه الدعوى مسموعة .

وأما مِسكويه فإنه يسترد بدمامة خَلقه ما يتكلفه من تهذيب خُلقه ، وأكره له المشاغبة فى كل ما يجرى ، لا يجد فى نفسه من المكانة والقرار ما يعلم معه أن مضاءه فى فن هو فيه طويل الذيل ، مديد السيل ، لا يأذن له فى تعاطى فن آخر هو فيه قصير الباع ، بليد الطباع ، وصاحب هذا الرأى ممكور به ، مصاب بجيد رأيه وقد أفسده : قال المهلبى ، قال ابن العميد ، وفعل ابن العميد ، وما ذكره لهذين إلا استطالة على الحاضرين ، والتشيع بذكر الرجال ، واضع من قدر الرجال .

وأما ابن بكر فهو تميمة المجلس ، ولا بد للدار وإن كانت قوراء[1] من

---

(١) القوراء : الواسعة .

مخرج ، وهو بجهله ، مع خفة روحه وقبح وجهه ، أدخل فى العين ، وألصق بالقلب من غيره ، مع علمه وثقل روحه ، وحسن ظاهره .

وأما الأهوازى أبو القاسم فلا حلاوة ولا مرارة ، ولا حموضة ولا ملوحة ، وإنما هو كالبصل فى القِدر ، وكالإصبع الزائد فى اليد ، على أنا نرعى فيه حقاً قديماً ، ونرحمه الآن رحمة حديثة .

وأما سيدى أبو سعد فوالله إنى لأجد به وجداً أتهم فيه نفسى ، وما وجدت ألم سهر معه قط ، وإنى أرى حديثه آنق من المنى إذا أُدركت ، ومن الدنيا إذا مُلكت . وإنَّ تمازُجَنا بالعقل والروح ، والرأْى والتدبير ، والنظر والإرادة ، والاختيار والعادة ، ليزيد على حال توأمين تراكضا فى رحم ، وتراضعا من ثدى ، ونوغيا فى مهد ، وما أخوفنى أن يؤتى من جهتى ، أو أُؤتى من جهته ، وإن عاقبته موصولة بعاقبتى ، لأنى مأْمنه وهو مأْمنى ، وما أكثر ما يؤتى الإنسان من مأمنه ، والله المستعان .

وأما ابن شاهويه فشيخ ليس لنا فيه فائدة إلا ما يلقى إلينا من تجاربه ومشاهداته ، ولولا زيادته التى تصنع بها من نفسه ، وبعض من خطراته ، لكان هَدّك[1] من رجل ، ولكن من لك بالمهذب ، ألم يقل الأول : أى الرجال المهذب .

قال زيد بن رفاعة : قلت أيها الوزير إن طلوعك فى خبايا ضمائرهم ، وعلمك بخفايا سرائرهم ، يطالبانك بالإفراج عنهم ، وقلة الاكتراث بهم ، قال : لا نفعل والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل ، وسادة ذوى العقل ، وإذا خلا العراق منهم فرقّن[2] على الحكمة المروية ،

(١) هدك : حسبك .

(٢) الترقين : تسويد مواضع فى الحسبانات لئلا يتوهم أنها بيضت كى لايقع فيها حساب .

والأدب المتهادَى ، أتظن أن جميع ندماء المهلبى يفون بواحد من هؤلاء ، أو لا تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم ؟ قال : قلت هـذا ابن عباد بالرى وهو من يعرف و يسمع . قال : ويحك ! وهل عنـد ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون و يحمقون و يتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح و يقول قال شيخانا أبو على وأبو هاشم ، دعنا من حديثه وغثاثته وشعبذته ، فما أحب أن أزيد فى وصفه على ما أشرت إليـه ، والله لو تصدى إنسان متوسط فى العلم والأدب والحنكة والإنصاف لذكر شأنه وسيرته ، ووصف حاله وطريقته ، لحكى كل غريبة ، وأتى بكل أعجوبة : الرجل مجدود ، وفى زمرة أهل الفضل معدود .

قال : رويت هذا الخبر على ما اتفق وكنت أطلب له مكاناً منذ زمان فلم أجد إلا هذه الرسالة الآتية على حديث الصداقة والصديق اهـ » .

عرفنا بهذا الضرب من التدوين طبقة راقية من العلماء فى عصر التوحيدى وما يغمزهم به الغامزون ، وأنى يغتابهم المغتابون ، ولو كتب لنا الاطلاع على جميع ما كتبه أبو حيان فى كتبه لجاءت السلسلة تامة من كل وجه فى الحكم على أهل القرن الرابع فى بغداد ، ولتبدل الحكم عليهم وناقضت أحكامه أحكام بعض من نقلوا تراجمهم ، كأنها حكم مُسَمَّط[1] لا ينقض .

فى مقدمة كتابه ثمرات العلوم : « أطال الله بقاءكم ، وأدام كرامتكم ، وحرس نعمه عليكم ، وحفظ مواهبه لديكم ، ولا أخلاكم من عوائده الجسيمة ، وفوائده الكريمة ، وجعل حظ الغريب السلامة بينكم ، إذا فاتته الغنيمة منكم ، وقد كان يقال من لم يغضب لنفسه ناصراً ، لم يغضب لبنى جنسه منتصراً ، ومن لم يقف عند العظيمة منتصفاً ، لم يرج عند النوائب مسعفاً ، ومن لم يأنف من

(١) حكمك مسمطاً أى متمماً أى لك حكمك مسمطاً .

القذع فى عرضه آبياً ، لم يبت على الخسف إلا راضياً ، والغضب وإن كان مذموماً عنـد بعض الخلال ، فإنه محمود فى بعض الأحوال ، وكما أن استمرار الغضب فى جميع الأحوال ، نوع من فساد الأخلاق ، كذلك أيضاً الرضا فى جميع الأمور ، ضرب من ضروب النفاق ، ولا بد من التقلب بين الرضا والغضب ، كما أنه لا بد من التردد بين الراحة والتعب .

« وقد كنت أحب لصديقى وجليسى ، ومن يأنس بمكانى ، أن لا يجعل اللجاج مطيته ، والمَحْلَ[1] والمكر طويته ، فإن ذلك أحسن له عند الله ، وأزين له عند الناس ، ومن بعد ذلك فإنى لم أرد بلادكم من العراق مباهياً لكم ، ولا حضرت مجالسكم طاعناً فيكم ، ولا تأخرت عنكم متطاولاً عليكم ، ولا تتبعت مساويكم شامتاً بكم ، بل وردت مستفيداً ومفيداً ، ومباحثاً ومستزيداً ، فما هذا الذى يلغنى عن بعضكم ، على حسن توفرى على صغيركم وكبيركم ، أما إنه لو أنصف العلم أنى إلى تسمحه ، أحوج منى إلى تصفحه ، وهو بمجاملته أسعد منى بمجادلته ، وأنا لإحسانه ، أشكر منى لامتحانه ، وهذا باب باطنه ظاهر ، وشاهده حاضر ، وخفيه جلى ، ولكن ما أصنع والشاعر يقول : « إنما للعبد ما رزقا » .

« ولعمرى ما زال الناس يعتادون التقاذف والتقارف ، ولكن كانوا يرون التساعف والتناصف ، ولا يتناسون بينهم التعاون والتوازر ، والترادف والتناصر ، والذى هاجنى لهذه الشكوى ، وأحوجنى إلى هذه العدوى ، قول قائل منكم ، ليس للمنطق مدخل فى الفقه ، ولا للفلسفة اتصال بالدين ، ولا للحكمة تأثير فى الأحكام ، وهذا كلام من لو أنعم النظر ، واستقصى الحال ، لوقف على ما عليه فيه ، وعرف ماله منه . فكان يستبدل بالخلاف وفاقاً ، وبالمنازعة خلاقاً[2] ،

---

(١) المحل : المكر والكيد . (٢) الخلاق : كسحاب النصيب ، الوافر من الخير .

عاب هذا الرجل المنطق وهَجَّن طريقة الأوائل ، وزرى على الحكمة ، وفَيَّل[1] رأى الناظر فيها ، وقبح اختيار الباحث عنها ، وهذا كله إن لم يكن قُلَّة سوء تحصيل ، فإنه يوشك أن يكون ضيق عَطَن ، وحرج صدر ، ومجازفة فى القول ، وانحرافاً عن الصواب ، وأمناً من الاعتقاب الخ ، وربما نيل من عرض صاحبها ، وأنحى باللائمة عليه من أجلها ، وهو قلم لا يقصد إلا الخير ، ولا أراد إلا الرشاد ، وقد يؤتى الإنسان من حيث لا يعلم ، ويرمى من حيث لا يتقى ، كما يؤتى من حيث لا يحتسب ، وينجو وقد أشفى ، ويدرك وقد غاب الناس » .

وعاد فى آخر الرسالة يعتذر عن طولها : « قد تكرر اعتذارى من طول هذه الرسالة ، وكان ظنى فى أولها أنها تكون لطيفة خفيفة ، يسهل انتساخها وقراءتها ، فماجت بشجون الحديث ، وروادف من الطيب والخبيث ، فاقبل ، حاطك الله ، هذا العذر الذى قد بدأته وأعدته ، ونشرته وطويته ، على أنك لو علمت ، فى أى وقت ارتفعت هذه الرسالة ، وعلى أى حال تمت لتعجبت ، وما كان يقل فى عينك منها يكثر فى نفسك ، وما يصغر منها بنقدك يكبر بعقلك » اه ...

* * *

وفى الحق أن رسالته فى الصداقة والصديق قد حملت من آراء الناس إلى عصره كل ما رق وراق من المنظوم والمنثور فى موضوعه ، ولم يقتصر فى الرواية على حكماء الإسلاميين ؛ بل تعدى إلى إيراد أقوال فلاسفة يونان . وفى الرسالة من رسائل الكتاب فى هذا الباب ، ما هو مفيد على غابر الأحقاب ، وقد ذكر أبا سليمان المنطقى وأبا سعيد السيرافى غير مرة وروى عنهما ما دل على إعظامه لهما شأنه فى مقابساته . ولا مراء فى أن رسالة الصداقة والصديق ، مرآة صادقة تمثلت فيها

---

(١) فيل رأيه : قبحه وخطأه .

أفكار أربعة قرون فى هذا النوع الصغير من الأدب ، ولغة حوت مثل هذه الأفكار وهذه المعانى هى ولا شك أغنى اللغات بأدبها ووفرة مادتها وأداتها . وهذه الرسالة على ما رأيناها كتبها بباعث لقوم لم يفهموا مقصده من العلم ، وتأولوا كلامه فجبههم بما كتب وأجاد . وجميع كتبه على ما ظهر مما دعا إلى وضعه دواع حافزة ، وأمور جاش بها صدره ، فهى معمولة بالمناسبات لا متعملة ، ولذلك جاءت عليها هذه الطلاوة التى نحسها ونلمسها .

من جملة كتب أبى حيان كتاب المقابسات ، واسمه صيغة تفاعل من قبسته أو أقبسته علماً وخبراً أى أن كلا أقبس صاحبه علماً ، وصاحبه أقبسه من علمه . ذكر فيه أبو حيان ، وأكثره من محفوظه ، بعض ما وقع إليه من مفاوضات علماء مشهورين ، كانوا فى بغداد يختلفون إلى مجلس صديقه وأستاذه أبى سليمان المنطقى محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى ، وعنه أكثر مروياته ، فيتذاكرون فى موضوعات شتى فى الفلسفة أو ما وراء الطبيعة والأدب وأكثرها على طريقة السؤال والجواب ، لرجال جمعت بينهم كلمة العلم والحكمة ، وهذبت نفوسهم الآداب العالية ، يتناجون بالأفكار الصحيحة والشاذة ، ولم يفرق بينهم اختلاف نحلهم ومذاهبهم . وكان فيهم المجوسى والصابى واليعقوبى والنسطورى والملحد والمعتزلى والشافعى والشيعى أمثال أبى زكريا يحيى بن عدى وأبى الفتح البوشجانى وأبى محمد المقدسى العروضى وأبى بكر القومسى وعيسى بن ثقيف الرومى وابن مقداد وأبى القاسم الأنطاكى ، وكان يعرف بالمجتبى ، وأبى محمد الأندلسى النحوى وأبى إسحق الصابى والخوارزمى الكاتب ووهب بن يعيش الرقى وابن سوار ومانى المجوسى وأبى الحسن محمد بن يوسف العامرى وعبيد الكاتب والبديهى وأبى إسحق النصيبى وأبى على عيسى بن زرعة المنطقى ومظهر الكاتب وأبى

الخطاب الكاتب وغيرهم « من كل من هو واحد فى شأنه وفرد فى صناعته » ، وكان مذهبهم فى الفلسفة على الأرجح مذهب أرسطاطاليس شأن معظم فلاسفة الإسلام ، أمثال ثابت بن قرة وحنين بن إسحق ويعقوب بن إسحق وأحمد بن سهل البلخى ومسكويه والقُمى والسرخسى والنيسابورى . يطلقون فى جلساتهم الخاصة عنان أفكارهم ، ويخرجون عن القيود الكسبية قاصدين إلى هدف واحد ، وهو معرفة حقائق الأشياء مجردة لا تشوبها المؤثرات شأن علماء العصور الأخيرة . وإذا أحببت تعريف كتاب المقابسات بمصطلح أهل هذا العصر فقل هو محضر جلسات المجمع العلمى البغدادى فى القرن الرابع ، وكان لا يحضرها إلا من يدعى إليها ، ويوافق من أكثر الوجوه على ما يلقى فيها .

وهذه المجامع مثال ناطق بأفصح بيان بأن النصرانية لم تكن مضطهدة فى العهد العباسى كما زعم بعضهم ، بل إن الإسلام كان دين الدولة ، والبلاد لأهلها ، فكانت بحكم الطبيعة كلمة المسلمين هى العليا ، وقد ساووا عامة أهل المذاهب بأنفسهم ، مساواة لم تصل إليها أكثر دول الحضارة الحديثة اليوم . وعلى ذكر هذه المجالس لا بأس بأن نقول إن علماء العرب ما برحوا منذ الأعصر المتطاولة يتألفون ويتعاشرون فى أندية لهم خاصة ، تجمعهم جامعة الأعمال العقلية ، فيتقاربون وإن اختلفوا فى مظاهرهم ، وقد لا يخليهم الزمن من موسع عليه من بينهم ، يفتح صدر مجلسه لهم ، يستطلع طلع أفكارهم ، ويأنس بهم ويأنسون به ، ويعطف عليهم ويعطفون عليه . وقد تكون مجالسهم ذات صبغة لها من أهل الدولة من يحميها ، أو تكون للسمر واللعب واللهو وتعاطى اللذائذ . ومعظم ما تناهى إلينا من أخبارها مفيد .

سئل أبو سليمان المنطقى لِمَ لم يصفْ التوحيد فى الشريعة من شوائب

الظنون وأمثلة الألفاظ ، كما صفا ذلك فى الفلسفة فقال : إنا لا نظن أن كل من كان فى زمان الفلاسفة بلغ غاية أفاضلهم . وعرف حقيقة أقوال متقدميهم ، بل كان فى القوم من رأى رأى العامة ، وحط إلى ما حطت إليه ، ولم يبن منهم كثير شىء مع قدم الزمان ، ولقاء المحققين الفاضلين ، وهذا إذا حل لا يكون قادحاً فيما نصصناه من القول فى حقائق التوحيد الذى ظفر به خلصان الحكمة ، وفرسان الصناعة . على أن الترجمة من لغة يونان إلى العبرانية ، ومن العبرانية إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربيـــة قد أخلت بخواص المعانى فى أبدان الحقائق إخلالاً لا يخفى على أحد . ولو كانت معانى يونان تهجس[1] فى أنفس العرب ، مع بيانها الرائع ، وتصرفها الواسع ، وافتنانها المعجز ، وسعتها المشهورة ، لكانت الحكمة تصل إلينا صافية بلا شوب[2] ، وكاملة بلا نقص ، ولو كنا نفقه عن الأوائل أغراضهم بلغتهم ، كان ذلك أيضاً ناقعاً للغليل ، وناهجاً للسبيل ، ومبلغاً إلى الحد المطلوب ، ولكن لا بد فى كل علم وعمل من بقايا لا يقدر الإنسان عليها ، وخفايا لا يهتدى أحد من البشر إليها ، وذلك للعجز الموروث عن الهيولى ، والضعف الثابت فى الطينة الأولى ، وهـذا لكى يكون الله تعالى ملاذاً للخلق ، ومعاذاً للعالم .

قال أبو حيان لأبى سليمان : ما الفرق بين طريقة المتكلمين و بين طريقة الفلاسفة ؟ فقال : ما هو ظاهر لكل ذى تمييز وعقل وفهم ، وطريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ ، وموازنة الشىء بالشىء ، إما بشهادة من العقل مدخولة ، و إما بغير شهادة منه البتة ، والاعتماد على الجدل ، وعلى ما يسبق إلى الحس ، أو يحكم به العيان ، أو على ما يسنح به الخاطر المركب من الحس والوهم والتخيل

(١) هجس الشىء فى صدره : خطر بباله . (٢) الشوب : الخلط .

مع الإلف والعادة والمنشإ ، وسائر الأعراض التى يطول إحصاؤها ، ويشق الإتيان عليها ، وكل ذلك يتعلق بالمغالطة والتدافع ، وإسكات الخصم بما اتفق ، وإتمام القول الذى لا محصول فيه ، ولا مرجوع له ، مع بوادر لا تليق بالعلم ، ومع سوءِ أدب كثير ، نعم ومع قلة تأله ، وسوء ديانة ، وفساد دخلة ، ورفض الورع بتحمله . والفلسفة أدام الله توفيقك محدودة بحدود ستة ، كلها تدلك على أنها بحث عن جميعها فى العالم : من ظاهر للعين ، وباطن للعقل ، ومركب بينهما ، ومائل إلى حد طرفيهما ، على ما هو عليه ، واستفادة اعتبار الحق من جملته وتفصيله ، ومسموعه ومرئيه ، وموجوده ومعدومه ، من غير هوى يمال به على العقل ، ولا إلف تغتفر معه جناية التقليد ، مع إحكام العقل الاختيارى ، وترتيب العقل الطبيعى ، وتحصيل ماند وانقلب ، من غير أن يكون أوائل ذلك موجودة حساً وعياناً ، وكانت محققة عقلاً وبياناً ، ومع إخلاق الهيئة واختيارات علوية ، وسياسات عقلية ، ومع أشياء كثيرة يطول ذكرها وتعدادها ، ولا تبلغ أقصى ما لها من حقها فى شرفها .

ثم قال : وكان شيخنا يحيى بن عدى يقول : إنى لأعجب كثيراً من قول أصحابنا إذا ضمنا وإياهم مجلس نحن المتكلمون ونحن أرباب الكلام ، والكلام لنا بنا كثر وانتشر ، وصح وظهر ، كأن سائر الناس لا يتكلمون ، أو ليسوا أهل كلام ، لعلهم عند المتكلمين خرس وسكوت . أما يتكلم يا قوم الفقيه والنحوى والطبيب والمهندس والمنطقى والمنجم والطبيعى والإلهى والحديثى والصوفى قال : وكان يلهج بهذا وكان يعلم أن القوم قد أحدثوا لأنفسهم أصولاً ، وجعلوا مايدعونه محمولاً عليها ومسؤولاً عن عرفها ، وإن كانت المغالطات تجرى عليهم ، ومن جهتهم ، بقصدهم مرة ، وبغير قصدهم أخرى .

قال أبو حيان : رويت لأبى سليمان كلاماً لبعض المتصوفة فلم يفكه ولم يهش عنده وقال : لو قلت أنا فى هذه الطريقة شيئاً لقلت : الحواس مهالك ، والأوهام مسالك ، والعقول ممالك ، فمن خلص نفسه من المهالك ، قوى على المسالك ، ومن قوى على المسالك ، أشرف على المهالك ، شرفاً يوصله إلى الممالك . قال أبو الخطاب الكاتب : أيها الشيخ هذا والله أحسن من كل ما سمع منهم ، فلو زدتنا منه ، فقال : الحواس مضلة ، والأوهام مزلة ، والعقل مذلة . فمن اهتدى فى الأول وثبت فى الثانى أدرك فى الثالث ، ومن أدرك فى الثالث فقد أفلح ، ومن ضل فى الأول وزل فى الثانى خاف ، ومن خاف فى الثالث فهو من الهمج . واستزاده مظهر الكاتب البغدادى فاستعفى قال : هذا حديث قوم أباعد منا على بعض المشاكسة ... إلى أن قال : فسبحان من له القدرة وهذه الخليقة ، وهذه الأسرار فى هذه الطريقة اه .

على هـذا النحو كانوا يمضون فى أحاديثهم ، فقد صرح أحدهم بما يراه فى التصوف فلم يحط منه ولا من المنصرفين إليـه ، وتناول آخر المتكلمين فى غير ما تدليس وتأدب معهم ، والمتكلم غير مسلم ، لـكن العلم مشاع لأهل كل مذهب ، ولم يحمل كلامه على غير محمله . وقال آخر فى الفلسفة ، وامتدح من معانى اليونان ، وقال : لو كتبت بالبيان العربى لـكانت غيرها ، وهذه هى الحرية المطلقة ، ولولاها ما عاش علم صالح ، ولا انبعث عقل راجح ، ولا كانت حضارة هذه الأمة مما ترتفع به الرؤوس ، ويقال فيها على الدهر لا عطر بعد عروس .

قال فى مقدمة كتابه الإشارات الإلهية مخاطباً النفس : اللهم إنا نسألك ما يسأل ، لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك ، وأفعالنا معك ، وسوالف إحساننا قِبَلك ، ولـكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعاً فى رحمتك الواسعة ، نعم وعن

توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها إنكار ، وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة ؛ نسألك أن لا ترد علينا هذه الثقة بك ، فتشمت بنا من لم يكن له هذه الوسيلة إليك ، يا حافظ الأسرار ، ويا مسبل الأستار ، ويا واهب الأعمار ، ويا منشئ الأخبار ، ويا موالج الليل فى النهار ، ويا مصافى الأخيار ، ويا مدارى الأشرار ، ويا منقذ الأبرار ، من النار والعار ، عد علينا بصفحك عن زلاتنا ؛ وانعشنا عند تتابع صرعاتنا ، وحطة حالنا معك فى اختلاف سكراتنا وصحواتنا ، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا ، لأنك أولى بنا ، وإذا خفنا منك فأبرح[1] خوفنا منك برجائنا فيك ، وإذا غلب علينا بأسنا منك فتلقه بالأمل فيك . . . .

ومن فصوله فيه : أيها المحاور ، والصديق المجاور ، كيف أتكلم ، والفؤاد هائم فى كل واد ، والخاطر خال من كل جاد وهاد ، أم كيف أشكو والسر ظاهر باد ، أم بأى شىء أتعلل وكل ما أجده مردد ومعاد ، أم على من أعتمد ، وكل أحد أراه فهو لى ضد ومعاد ؛ أنفاسى محترقة بالحسرات ، ودموعى مترقرقة بين النغمات والزفرات ، وكبدى مشتعلة على المناظر والهيئات ، ويقظتى جارية على الرسوم والعادات ، وأحلامى عارية من كل ما له حاصل وثبات ، ونفسى رهينة بالسيئات ، مفتونة بالحسنات ، بالسوانح والخطرات ، مغبونة عن الحسنات والصالحات ، الجهات دونى منسدة ، والوجوه أمامى مسودة ؛ إن قلت قيل هذا زور وبهتان ، وإن أشرت قيل هذا غرور وعدوان ، وإن سكت قيل هذا سهو ونسيان ، فليت من ابتلانى بما لا طاقة لى به ، رحمنى مما لا غنى لى عنه ، أو ليت من طردنى عن بابه ، أهلنى لعتابه ، أو ليت من جرعنى مرّ فراقه ،

(١) أبرحه : أزاله .

مخرج ، وهو بجهله ، مع خفة روحه وقبح وجهه ، أدخل فى العين ، وألصق بالقلب من غيره ، مع علمه وثقل روحه ، وحسن ظاهره .

وأما الأهوازى أبو القاسم فلا حلاوة ولا مرارة ، ولا حموضة ولا ملوحة ، وإنما هو كالبصل فى القِدر ، وكالإصبع الزائد فى اليد ، على أنا نرعى فيه حقاً قديماً ، ونرحمه الآن رحمة حديثة .

وأما سيدى أبو سعد فوالله إنى لأجد به وجداً أتهم فيه نفسى ، وما وجدت ألم سهر معه قط ، وإنى أرى حديثه آنق من المنى إذا أُدركت ، ومن الدنيا إذا مُلكت . وإنَّ تمازُجَنا بالعقل والروح ، والرأْى والتدبير ، والنظر والإرادة ، والاختيار والعادة ، ليزيد على حال توأمين تراكضا فى رحم ، وتراضعا من ثدى ، ونوغيا فى مهد ، وما أخوفنى أن يؤتى من جهتى ، أو أُؤتى من جهته ، وإن عاقبته موصولة بعاقبتى ، لأنى مأْمنه وهو مأْمنى ، وما أكثر ما يؤتى الإنسان من مأمنه ، والله المستعان .

وأما ابن شاهويه فشيخ ليس لنا فيه فائدة إلا ما يلقى إلينا من تجاربه ومشاهداته ، ولولا زيادته التى تصنع بها من نفسه ، وبعض من خطراته ، لكان هَدّك[1] من رجل ، ولكن من لك بالمهذب ، ألم يقل الأول : أى الرجال المهذب .

قال زيد بن رفاعة : قلت أيها الوزير إن طلوعك فى خبايا ضمائرهم ، وعلمك بخفايا سرائرهم ، يطالبانك بالإفراج عنهم ، وقلة الاكتراث بهم ، قال : لا نفعل والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل ، وسادة ذوى العقل ، وإذا خلا العراق منهم فرقّن[2] على الحكمة المروية ،

(١) هدك : حسبك .

(٢) الترقين : تسويد مواضع فى الحسابات لئلا يتوهم أنها بيضت كى لايقع فيها حساب .

والأدب المتهادَى ، أتظن أن جميع ندماء المهلبى يفون بواحد من هؤلاء ، أو لا تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم ؟ قال : قلت هـذا ابن عباد بالرى وهو من يعرف و يسمع . قال : ويحك ! وهل عنـد ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون و يحمقون و يتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح و يقول قال شيخانا أبو على وأبو هاشم ، دعنا من حديثه وغثاثته وشعبذته ، فما أحب أن أزيد فى وصفه على ما أشرت إليـه ، والله لو تصدى إنسان متوسط فى العلم والأدب والحنكة والإنصاف لذكر شأنه وسيرته ، ووصف حاله وطريقته ، لحكى كل غريبة ، وأتى بكل أعجوبة : الرجل مجدود ، وفى زمرة أهل الفضل معدود .

قال : رويت هذا الخبر على ما اتفق وكنت أطلب له مكاناً منذ زمان فلم أجد إلا هذه الرسالة الآتية على حديث الصداقة والصديق اه » .

عرفنا بهذا الضرب من التدوين طبقة راقية من العلماء فى عصر التوحيدى وما يغمزهم به الغامزون ، وأنى يغتابهم المغتابون ، ولو كتب لنا الاطلاع على جميع ما كتبه أبو حيان فى كتبه لجاءت السلسلة تامة من كل وجه فى الحكم على أهل القرن الرابع فى بغداد ، ولتبدل الحكم عليهم وناقضت أحكامه أحكام بعض من نقلوا تراجمهم ، كأنها حكم مُسَمَّط[1] لا ينقض .

فى مقدمة كتابه ثمرات العلوم : « أطال الله بقاءكم ، وأدام كرامتكم ، وحرس نعمه عليكم ، وحفظ مواهبه لديكم ، ولا أخلاكم من عوائده الجسيمة ، وفوائده الكريمة ، وجعل حظ الغريب السلامة بينكم ، إذا فاتته الغنيمة منكم ، وقد كان يقال من لم يغضب لنفسه ناصراً ، لم يغضب لبنى جنسه منتصراً ، ومن لم يقف عند العظيمة منتصفاً ، لم يرج عند النوائب مسعفاً ، ومن لم يأنف من

(١) حكمك مسمطاً أى متمماً أى لك حكمك مسمطاً .

فى تلك الدار الباقية بزينة الأمن ، وافطم نفسى عن طلب العاجلة الزائلة ، وأجْرِنى على العادة الفاضلة ، ولا تجعلنى ممن سها عن باطن مالك عليه ، بظاهر مالك عنده ، فالشقى من لم تأخذ بيده ، ولم تؤمنه من غده ، والسعيد من آويته إلى كنف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقش فى الحساب ، ولا سائق له إلى العذاب ، فإنك على ذلك قدير .

* * *

وهذه النبذة من مقدمة كتاب البصائر والذخائر : قال إنه أودع كتابه جميع ما فى ديوان السماع ورتب ما أحاطت الرواية به ، واشتملت الروية عليه ، منذ عام خمسين وثلثمائة إلى سنة خمس وستين وثلثمائة مع توخى قصار ذاك دون طواله ، وسمينه دون غثه ، ونادره دون فاشيه ، وبديعه دون معتاده ، ورفيعه دون سفسافه . قال : إن القارئ سيشرف منه على رياض الأدب وقرائح العقول ، من لفظ مصون ، وكلام شريف ، ونثر مقبول ، ونظم لطيف ، ومثل سائر ، وبلاغة مختارة ، وخطب محبرة الخ ، وجمعه من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وابن الأعرابى والمبرد والصولى وابن عبدوس وقدامة وغيرهم .

من أهم ما حواه كتاب البصائر ، مناظرة أبى بكر الصديق مع على ومبايعته إياه ، وقد اقتبس العلماء هذه الرسالة ، ومنهم من غمز التوحيدى واتهمه بأنه هو واضعها ، مثل ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ، ومنهم من اكتفى برواياتها مثل محيي الدين بن عربى فى المسامرات . وبعيد عن العقل أن يضع التوحيدى هذه الرسالة وهى بعيدة عن أسلوب كلامه ، وإن أحب ابن أبى الحديد أن يشبهها به . أما التوحيدى فرواها عن رجل معروف كان يحفظها فقال : سمرنا ليلة عند القاضى أبى حامد احمد بن بشر المرورزى ببغداد بدار أبى حيشان فى

شارع المازيان ، فتصرف الحديث بنا كل متصرّف ، وكان أبو حامد معناً مفناً مخالطاً مزيلا[1] غزير الرواية ، لطيف الدراية ، له فى كل جو متنفس ، وفى كل نار مقتبس ، فجرى حديث السقيفة وشأن الخلافة ، فركب كل منا مركباً ، وقال قولا ، وعرض بشىء ، ونزع إلى فن ، فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبى بكر الصديق إلى علىّ وجواب علىّ له ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة ، فقالت الجماعة التى بين يديه : لا والله ، فقال : هى من درر الحقاق[2] المصونة ، ومخبآت الصناديق فى الخزائن المحوطة ، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا المهلبى أبى محمد فى وزارته ، وكتبها عنى فى خلوة بيده وقال : لا أعرف على وجه الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين ، وإنها لتدل على علم وحكم ، وفصاحة وفقاهة ، ودهاء ودين ، وبعد غور ، وشدة غوص . فقال له أبو بكر العبادانى : أيها القاضى فلو أتممت المنة علينا بروايتها ، وسمعناها ورويناها عنك ، فنحن أوعى لها من المهلبى ، وأوجب ذماماً عليك الخ .

وبعد أن أورد التوحيدى هذه الرسالة العجيبة قال : روى لنا هذا كله أبو حامد ، ثم أخرج لنا أصله فقابلنا به ، فما كان غادر منه إلا ما لا بال له ، فأما ما رواه لنا أبو منصور الكاتب فإنه خالف فى أحرف فى حواشى الكتاب ، كل حرف بإزاء نظيره الذى هو مبدل منه ، وقد كان أبو منصور بلغة العرب أبصر ، وفى غرائبها أنقد ، وإنما قدمت رواية أبى حامد لأنه بشأن الشريعة أعلم ، ولأعاجيبها أحفظ ، وفيما أشكل منها أفقه . قلنا وبالجملة فالدلائل كلها قائلة بأن

---

(١) المعن الذى يتصرف فى المعانى ، والمفن الذى يتصرف فى كل فن ، والمزيل بكسر الميم الرجل الكيس اللطيف ، يقال هو مخلط مزيل كما يقال هو راتق فاتق ، والمراد به أنه كثير المخالطة للناس والمزايلة لهم .

(٢) الحقاق : جمع حقة ، وعاء يحبس فيه الطيب والجوهر .

الرسالة ليست من صنع أبى حيان ، وأنها كانت معروفة قبله ، و إذا أبى بعضهم إلا أن يقول إنها موضوعة كلها أو بعضها فيكون ذلك قبل عصر التوحيدى بكثير ، وهى على كل حال لا تخلو من أصل ربما زيد عليه بأيدى من أحبوا أن يقابلوا القوة بمثلها من أهل السنة ، فأرادوا نكاية الشيعة فى كثير مما صنعوه ، فزادوا أموراً فى هذه الرسالة وقعت بين الصحابة أو تمثلوا وقوعها .

والرسالة من جملة ما يجب على الأديب أن يستظهره و يعيه ، لأنها حوت من أساليب البلاغة كل جميل ، وفيها من الأمثال والحكم وضروب الدهاء والخلابة ما يعجب منه ، ولا تزال عليها مسحة من الحلاوة والطلاوة مهما طال بها العهد .

وهاك جملة قليلة من الرسالة قال أبو بكر لأبى عبيدة : امض إلى علىّ واخفض له جناحك ، واغضض عنده صوتك ، واعلم أنه سلالة أبى طالب ، ومكانه ممن فقدنا بالأمس مكانه ، وقل له : البحر مغرقة ، والبر مفرقة ، والجو أكلف ، والليل أغدف ، والسماء جلواء ، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رؤوف ، والباطل نسوف عصوف ، والعجب مقدحة الشر ، والضِّغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والقحة ثقوب العداوة ، وهذا الشيطان متكئ على شماله ، متحيل بيمينه ، نافج[1] حضنيه لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة ، عناداً لله ولرسوله ولدينه ، يوسوس بالفجور ، ويدلى بالغرور ، ويمنى أهل

---

(١) الأرض الصلعاء : التى لا نبات فيها ، والجلواء المصحية ، وأغدف الليل أظلم ، والأكلف الأغبر ، والمفرقة من الفرق وهو الفزع ، والمغرقة يغرق فيه ، والعصوف الريح الشديدة ، والنسوف الطويل الشاق الذى ينسف صاحبه ، ومن المجاز بينى وبينه عقبة نسوف طويلة شاقة ، والشجار ككتاب خشبة توضع خلف الباب ، الضغن العداوة ، والثقوب ما تشعل به النار من دقاق العيدان ونحوها ، والنافج الرافع .

الشرور ، ويوحى إلى أوليائه زخرف القول بالباطل ، دأباً له منذ كان على عهد أبينا آدم ، وعادة له منذ أهانه الله عزّ وجلّ فى سالف الدهر ...

ولقد أرشدك من أفاء ضالتك ، وصافاك من أحيا مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من آثر البقاء معك ، ما هذا الذى تسوّل لك نفسك ، ويدوى قلبك ، ويلتوى عليه رأيك ، ويتخاوص دونه طرفك ، ويستشرى به ضغنك ، ويتراد معه نفسك ، وتكثر معه صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ، أعجمة بعد إفصاح ، أتلبيس بعد إيضاح ، أدين غير دين الله ، أخُلق غير خلق القرآن ، أهدى غير هدى النبى صلى الله عليه وسلم ، أمثلى يمشى له الضراء ويدب له الخَمَر ، أم مثلك يغص عليه الفضاء ، أو يكسف فى عينه القمر ، ما هذه القعقعة بالشنان[1] ، وما هذه الوعوعة باللسان ...

والآن قد بلغ الله بك وأرهص الخير لك ، وجعل مرادك بين يديك ، وعن علم أقول ما تسمع ، فارتقب زمانك ، وقلص أردانك ، ودع التجسس والتعسس ، لمن لا يظلع لك إذا خطا ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا ، فالأمر غض ، والنفوس فيها مض ، وإنك أديم هذه الأمة فلا تحلم لجاجا ، وسيفها العضب فلا تنب اعوجاجا ، وماؤها العذب فلا تحل أجاجا ، والله لقد سألت رسول الله عن هذا الأمر فقال لى : يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه ، لا لمن يرغب فيه ويجاحش عليه ، ولمن يتضاءل عنه ، لا لمن يشمخ إليه ، ولمن يقال هو لك ، لا لمن يقول هو لى ،

---

(١) أفاء أرجع ، وتراد مثل تردد ، والتخاوص غؤور البصر مع الإحداق كأنه يقوم سهماً ، ويدوى به قلبك أى يفسد من داء ، والصعداء النفس العالى فى الغضب والهم ، والضراء الشجر الملتف فى الوادى ، والخمر الشجر الملتف أيضاً ، يقال للرجل إذا ختل بصاحبه هو يدب له الضراء ويمشى له الخمر ، والقعقعة حكاية أصوات السلاح والجلود اليابسة وغيرها ، والشنان جمع الشن بالكسر وهو الجلد اليابس يحرك للبعير ليفزع ، وفى المثل ما يقعقع له بالشنان يضرب لمن لا يخدع ولا يروع .

والله لقد شاورنى رسول الله فى الصهر فذكر فتياناً من قريش ، فقلت له : أين أنت من على ، فقال : إنى لأكره لفاطمة ميعة شبابه ، وحدة سنه . فقلت : متى كنفته يدك ورعته عينك ، حفت بهما البركة ، وأسبغت عليهما النعمة ، مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك ، وما كنت عرفت منك فى ذلك حوجاء ولا لوجاء ، فقلت ما قلت ، وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد رائحة سواك ، وكنت لك إذ ذاك خيراً منك الآن لى ، ولئن كان عرض بك رسول الله فقد كنى عن غيرك ، وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك ، وإن يختلج[1] فى نفسك شىء فهلم فالحكم مرضى ، والصواب مسموع ، والحق مطاع . . .

فزلكة فى حياة التوحيدى :

أظننا بلغنا حاجة النفس فى نقل صورة التوحيدى نقلاً إن لم يكن طابق الأصل فهو قريب منه ، بعد اقتباسنا درراً من كتبه ورسائله ، استنتجنا منها ما انطوت عليه نفسه من الخوالج ، وقلبه من النزوات ؛ وما تقلب فيه من البأساء والضراء ، وكيف لم تقعد به الهمة عن الاختلاف إلى العظماء ، والأخذ عن العلماء ، وعرف مكنونات الصدور . وتمثلنا فى كلامه سلامة الفكر والإبداع فيه ، وسلاسة الإنشاء وتجويده . أرأيتم هذا الإيجاد الذى تقف عنده العقول

(١) يقال رهصنى فى الأمر استعجلنى فيه ، ومن المجاز أرهص الله فلاناً جعله الله معدناً للخير . يقال فلان يعتس الآثار أى يقتصها ويعتس الفجور يتبعه . وقلص أردانك شمر أكمامك ، والمض الألم ، والغض الجديد ، وظلع عرج ، وحلم الأديم والجلد إذا فسد فى العمل ووقع فيه دود فتثقب ، وفى المثل كدابغة وقد حلم الأديم ، يضرب لمن يسعى فى إصلاح أمر بعد أن أوصله الفساد إلى حيث لايرجى إصلاحه ، جاحش حامى ودافع يقال جاحش عن خيط رقبته أى نفسه وهو مثل قال الميدانى أصله من الجحش الذى هو سجح الجلد ، يقال أصابه شىء فجحش وجهه أى قشره فجحش شقه الأيمن ، ميعة الشباب أوله ، والحوجاء الحاجة ومنه ما كان فى نفسه حوجاء ولا لوجاء ولا حويجاء ولا لويجاء أى حاجة ، واختلج تلجلج .

حائرة ، يكتب صاحبه فى العلوم المختلفة فلا تخونه لفظة ، وتتناسق الجمل فى تركيبها تناسق العقد النفيس ، ويوائم بين ألفاظه ومعانيه أى مواءمة ، ويؤثر فى قلب السامع فيستميله بما يمليه من مِقوَله على مِسمعه ؟ أرأيتم كيف آضت اللغة فى يد التوحيدى كالعجين يرسمه الرسم الذى يشاء ، أو كالقرطاس فى يد المصور الحاذق ، وعنده جماع الأصباغ يصوره بما تهفو إليه نفسه من صور الأرض والسماء ؟

اللغة فى نظر التوحيدى واسطة تعبير وتصوير ، لا أداة لطافة وظرافة ؛ كانت على أسلة قلمه ، غزيرة المائية نضيرة الديباجة ، وكان بيانه الصافى البراق ، يسيل مطواعاً لبنانه ، يتصرف به تصرفاً غريباً ، ويصرفه فى ضروب الموضوعات العالية ؛ وكأن اللغة فى عصره ، وقد أصبحت لغة حضارة باهرة ، أخذت الزبدة النافعة من الأمم القديمة وزادت عليها تجارب قرنين ، فمرنت ألفاظها على التعبير عن كل معنى ، وصفا رصفها ونسجها ، فكانت من أجمل صيغ الإفهام والانسجام ، ولطفت مادتها فخرج منها الحوشى بقاعدة بقاء الأنسب ، ودرجت بعد ذلك نقية لا شوب فيها ولا تعقيد ، كأنها خلقت ، منذ عرفت ، لغة فلسفة وطبيعة وإلهيات ، كما كانت لغة شعر وخطب ، منذ أقدم عصور الجاهلية .

عمد التوحيدى إلى استخدام طوائف من الألفاظ تبهرك فى رصفها إلى جانب أخواتها ، ويتعذر عليك أن تخلى المكان من لفظة لتضع غيرها محلها ، وقد قال العتابى : الألفاظ أجساد والمعانى أرواح ، وإنما تراها بعيون القلوب ، فإذا قدمت منها مؤخراً ، أو أخرت منها مقدماً ، أفسدت الصورة وغيرت المعنى كما لو حول رأس إلى موضع يد ، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة

وتغيرت الحلية ، وهذا ما تراه متجليا فى كلام أبى حيان . « والكلام إذا خرج فى غير تكلف وكد وشدة تفكر وتعمل كان سلساً سهلا ، وكان له ماء ورواء ورقراق ، وعليه فرند لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه » .

ذاكر التوحيدى فى العلوم المختلفة طبقة عالية من أذكياء العلماء ، وكانوا فى العلم جميعاً ، وفى مذاهبهم شتى ، فلم يجمد على نقل كلام أهل فن واحد ، ولا صمت أذنه عن سماع من خالفوه فى معتقده ، فكان شأنه شأن عالم فى عصرنا فتح بحثاً فى مجلة أو كتاب يؤلفه ، وأنشأ يجمع فى كناشه وجزازاته أفكار المتضادين ومراميهم فى العلم والتفكر ، وهذا ما كان على حصة موفورة فى كتب التوحيدى على ما رأينا ، فخص لمعاصريه آراء المتقدمين ، وخلف لمن بعده مُصَوَّراً صحيحاً من آراء من عاشرهم وعاصرهم وتقدمهم فى الميلاد ، فأدركنا بما أسمعناه بعض حقيقة عصره فى أساليب التفكير ومبلغه من الحكمة .

ويحمد قصد التوحيدى فى نقل كل مجلس كما وقع ، وإن كان بعضهم لم يرقه التعرض لتدوين ما يخالف معتقدهم ، أما هو فما كان له أن ينقل كل كلام يرتضيه كل إنسان ، لأنه لا يحيط بأهواء جميع الناس ، وتعدد الأهواء كتعدد الأناسى ، وهو مخالف فى طريقته طريقة كثير من المؤلفين ، فكيف ينطق بلسان من لا يعتقده على صواب فيما يذهب اليه ، وإذا رأى بعض المتحذلقين[1] فى كلامه بعض العهدة ، فيجابون وأى كلام خلا مما يُتعلّق عليه بشىء . إن التوحيدى لقى شيوخ العلم والحكمة فحمل عنهم ، وجوّد وصفهم وأجمل طرازهم ، وكلما نقل شيئاً لا يوافق نحلةً ومذهباً ، قال خصوم فكره إنه يصطنع نقله ، ويزوّر على رواته فيزوّرون[2] له . كان التوحيدى راوية المجالس العالية ،

---

(١) حذلق أظهر الحذق أو ادعى أكثر مما عنده كتحذلق .

(٢) تزاور عنه عدل وانحرف كازور ، وزور زين الكذب والشىء حسنه وقومه .

والرواية كما قيل العلم المستطيل ، ومخالفوه يسوءهم هـذا وينوءهم ، حتى سرت أحكامهم الجائرة عليه إلى من عُرفوا باعتدالهم من المؤرخين فأقروها ، وتابعوا على العمياء قائليها . خالف التوحيدى فى طريقته العلمية مألوف كثير من العلماء ، فبينه و بينهم بعد باعد ، وليس من الإنصاف أن نأخذ عليه خروجه عن مألوفهم .

الحق أبلج لا يُخيل سبيله والحق يعرفه ذوو الأحلام

لا جرم أن التوحيدى حار فى أمره مع من وسموا بالعلم فى زمنه ، وهم محافظون متشددون فى تقاليدهم ومصطلحاتهم ، لايبالون أن يرموا كل من أبدع طريقة ، وكشف عن حقيقة ، بالتفسيق والتبديع والتكفير ، ومن أسهل الأعمال عليهم أن يتقربوا من ذوى السلطان بضرب عنق من لا يدركون مغازيه ومعانيه ممن بذهم وأربى عليهم . ويا لبؤس عالم لم يتخذ له بداً عند صاحب صولة فى مثل ذاك المجتمع ، فإن مجرد اتهام بعض المعتقدين له بانحلال العقيدة ، كاف فى بتر حبل حياته ، ولا من يرحمه أو يتشفع به . أراد المأمون « رضى الله عنه وأرضاه » أول المئة الثالثة أن يُخرج الأمة من ربقة التقليد الأعمى إلى ساحة العقل السليم ، فرأى أن يسيطر على الدين واللغة والآداب والعلوم ، بتسامح وتعقل ، ولكن معظم ما بناه تهدم بأفول نجمه ويا للأسف ، فلم ينشأ بعده للأمة خليفة فى وزنه وعياره ، يحمى العقل ودعاته ، و يفسح للباحثين مجال النقد والنظر .

ومن أعظم المصائب أن أقدار البلاد معلقة أبداً على الرأس الذى يدبر أمرها خليفة كان أو سلطانا أو أميراً ، متى زال تزول معه أوضاعه وتراتيبه أو أكثرها ، وقلّ أن بنى الخلف على أساس السلف ، أو سار المتأخر على قدم المتقدم ، خصوصاً فى المسائل الذهنية ، والمطالب الاجتماعية والمدنية ، ولذلك كانت حضارتنا فى كل عصر وقطر كالأرض البقعة نباتها متقطع ، أو كالواحات المتفرقة فى المهمه

القفر ، يختلف شكلها باختلاف البقعة التى نشأت فيها ، وتلابس ثوباً فُصل على عقل صاحب السلطان الأكبر ، وكثرة بلائه وغنائه . وقلما عهد أن سار الابن بسير أبيه وجده إلا على عهد أوائل العباسيين ، وفى بعض دور الامويين فى الشرق ، والأمويين فى الأندلس ، وما عدا ذلك فأفراد من أصحاب السلطان زانوا عصورهم بهممهم فأحالوا القفار جناناً ، وجعلوا من العلم لسلطانهم سلطاناً ، حتى إذا مضوا لسبيلهم عادت الأمَّة سيرتها الأولى ، تثبت أن الامية أعلق بشغاف قلبها ، لا سيما وأكثر الزعماء يعتقدون أن الراحة فى ترك العقول جامدة خامدة ، حتى لا يرتفع عقل عن عقل ، ولا يمتاز فاضل بعموم الفضل .

فالرجل الذى لم يأبه لما اعترضه من العقبات ، ومزّق حجب الوهم وحكَّم سلطان العقل ، واستعرض ما جادت به قرائح أعاظم الملة فى القرون الثلاثة قبله ، وكتَبَ العلوم الحكمية بهذا البيان الرائق ، تسيغه وتستطيبه على كدورة فى شرعته أحياناً — الرجل الذى كان كذلك حاله يعد النابغة المجتهد حقاً وصدقاً ، ويعد جديداً مجدداً فى فكره و بيانه .

كتب التوحيدى فأكثر الكتابة ، ومع هذا فإنشاؤه طبقة واحدة لم يتعمل فيما يكتب ، ولا عُنى بالتنميق والتحبير ، والصقل والتطرية . وكان هدفه إبلاغ العقول ، ما يجول فى الخواطر ، من أقصر الطرق ، وأسهل المسالك تارة ، ومن أطولها تارة أخرى . اختص بوصف آراء المفكرين والنظار ، على وجه لم يؤثر عن غيره ، حاشا الجاحظ واضع هذه الطريقة ، فكأنه تلقى باليمين ذاك الأسلوب الذى كاد يموت بموت الجاحظ ، وأتمه بما حدث بعد أبى عثمان من فنون القول ، وضروب المعارف . ولو كان روح التوحيدى غير معذَّب بالإخفاق والإملاق ، كروح الجاحظ الشفاف البراق ، وسلم مما يكدر صفوه وصفاءه ، واطمأن بما

تطمئن به روح من تهنأ العيش ، لجاء التوحيدى كالجاحظ إلا قليلاً .

بيد أن اضطراب عصره ، كان منه اضطراب فكره ، وغفلة العظماء عن تعهده وحمايته ، أدّت إلى اشتغال قلبه برزقه وجرايته ، فكان فى ذل الفقر ، وخوف القهر ، طول العمر . وإذا قيل إن الجاحظ كان على دهاء لا ينكر محله ، فاتقى بحر بزته لذعات حساده ، ومؤلمات مناظريه ، وأن التوحيدى لم يعرف سياسة العلم ، ولم يستكمل تعاطى الأسباب إلى الرزق ، وإحراز خِصَل السبق ، فلا تنس أن الجاحظ كان الخلفاء يَرعونه ويُحبُّونه ، والوزراء يخادنونه ويَحْبُونه ، والناس يعجبون به ويمجدونه . والتوحيدى ، للجهل الطارئ على الخلفاء والأمراء فى عهده ، يضطرب فى حياته اضطراب الأَرشية فى الطوى البعيد ، كلما التفت يَمنة جاءت الصدمة يَسرة ، وكلما قال يسراً ، قالت الأيام عسراً ، عاش فى شظف من العيش ، وعجف من المال ، وكلب من الزمان ؛ فكان الموتور المفلوك ، الموجع القلب ، المعذب الفؤاد . والمرء مهما أُوتى من عقل سليم وأخلاق فاضلة ، لا يخرج عن كونه محصولَ مسكنه وهوائه ومدرسته وأساتيذه وأقرانه ، وعنوان ما تأثر به روحه منذ وعى على نفسه ، وهو زبدة ما أَخذه بالفطرة من دم أبويه ، واكتنهه من اتصاله بأجداد قدماء قد لا يعرف أخبارهم ، على حين أورثوه من حيث لا يشعر أخلاقهم وأطوارهم .

ابن العميد

عصره :

يُعدّ القرن الرابع عصر الكمال العلمى والأدبى فى الإسلام : استقرت فيه القواعد ، وتعينت المعالم والمناهج ، ودُوِّن ما تيسر تدوينه فى اللغة والأدب والشريعة ، ونُقل ما اهتمت له العرب من علوم الأوائل ، وخف الصراع بين حملة الدين ، ورجال الحكمة والعقل ، ونشأت الفرق الباطنية ، وكلها تريد إقامة مُلك ، واتخذ دعاتها من آل البيت تكأَة وصبغوا نِحلهم بصبغة دينية .

وكان الأدب فى مقدمة الفنون التى بلغت فى هذا العصر إناها ، بنبوغ أعظم شعراء الحضارة العربية ، تقدمهم رعيل جميل فى القرنين السابقين . أدخلوا على الشعر معانى جديدة ، وما غيروا موازينه وأوضاعه . وأنشأ الكتّاب يتفننون فى الإنشاء المصنَّع ، فضيقوا المنافذ فى أداء المعانى ، وغلوا فى التطويل والتهويل ، فأصبح النثر بالإكثار من السجع بمعنى و بلا معنى أشبه بشعر لا أوزان له .

وسكن ثائر الشعوبيين أعداء العرب ، وكان دأبهم إلقاء بذور التفرقة بين الشعوب التى وحّد الإسلام بينها ، وألغى من بينها نظام الإقطاعات ، وساوى بين الكبير والصغير فى الحقوق والواجبات . واغتبط الشعوبيون من الفرس بقيام دولتين شيعيتين فى العالم : دولة بنى بُوَيْه الديلم فى الشرق ، استولت على فارس والعراق ، وجعلت الخليفة العباسى شبحاً بلا روح ؛ ودولة بنى عُبَيْد الفاطميين فى إفريقية . وعمل القرامطة أفاعيلهم فى العراق والشام والحجاز وما انتظمت لهم دولة ، وقرض محمود بن سبكتكين الدولة السامانية الشيعية من خراسان وما وراء

النهر ، وفتح القسم الشمالى من بلاد الهنـد وأضافه إلى مملكته ، وخدم الآداب والعلوم ، وضرب المعتزلة ضربة قاضية فى بلاده .

كان الفرس أهم العناصر الإسلامية التى عُنيت بنشر العربيـة منذ رفرف علَم الإسلام على بلادهم ، وقد أحرزوا فى العلم والسياسة أفضل منزلة ، لما خصوا به من الاستعداد لقبول الحضارة ، أعانهم على ذلك إلفهم الحكم والنظام ، وتفانيهم فى طاعة العظماء والملوك . وكانوا فى القرون الأولى من خير الشعوب التى قامت بحق الإسلام .

و بينا كان خاصة فارس يتوفرون على خدمة الإسلام والعربية ، لا يتخذون عن لغة الدين والدولة والعلم بديلاً ، كان أناس من عشاق القوميـة الفارسية يسرون حسواً فى ارتغاء[1] ، و يلوبون على من يقيم لهم دولة ، ذات وزن وصولة . وقد آلمهم تراجع لغتهم أمام العربية ، ومنازعة العربية الفارسيةَ فى عقر[2] دارها ، حتى أصبحت لسان المدن ؛ ووجدت الفارسية معتصماً لها فى الأرياف والجبال بين الأكارين والسوقة . والفارسية هذه كان يتكلم بها جميع أهل فارس ، وكانت الفهلوية لسان قدماء الفرس ، كتبوا بها تاريخهم وآثارهم . و بالعربية تكتب مكاتبات السلطان والدواوين وعامة الناس . ولما اجتاز أبو الطيب المتنبى بشعب بوّان وأرّجان والنوبندجان انقبض صدره لقلة من يتفاهم و إياهم فوصف الحال بقوله :

مغانى الشعبِ طيبا فى المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها ... غريبُ الوجه واليد واللسان
ملاعب جِنّـة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

(١) هذا مثل يضرب لمن يظهر أمراً ويريد غيره .
(٢) العقر بضم العين وسط الدار وأصلها ويفتح .

كان يرمض دعاة القومية الفارسية ، أو مَن يريدون تحريك عرقها الحساس ، أن يشهدوا العربيّة تُعرَّب كل يوم جماعة من أبناء فارس ، فلم يروا لوضع حدّ أمام ذاك التيار الجارف إلا إثارة النَّعَرة الدينية ، تدعمها دعوى الغيرة على ضياع حقوق العترة العلوية ، ليخرجوا من ذلك بتأسيس دولة ، وينتزعوا الحكم من العرب آخر الدهر .

كان يُرمضهم أن يروا نيسابور وشيراز والرى ومرو وأصفهان وهمدان تتنافس فى بث العلوم والآداب ، وأن يؤلف المؤلفون ، ويعظ الواعظون ، ويدرس المدرسون من أبناء فارس باللغة العربية ، وأن يمسى أدب آبائهم عبارة عن شعر ما رُزق من يصفق له ، وأن تغتنى العربية بالعلوم الكثيرة . فحاولوا إشرابَ نفوس قومهم حب آدابها القديمة ، ولم يكن الشعر الفارسى بهذه اللهجة المعروفة مما يعهد قبل القرن الثالث ؛ وقد نشأ مع شاعرهم الروذكى السمرقندى (٣٢٩) « الذى كان مقدماً فى الشعر بالفارسية فى زمانه على أقرانه » .

وعلى قدر رسوخ الحضارة العربية ببلاد الأعاجم فى ذاك العصر ، وعلى مقدار تراجع السياسة العباسية ، كان العلم العربى يزيد انتشاراً ورسوخاً ، وتتعدد مواطنه ، وتقوم أسواقه ، وما كانت مراكز الآداب فى القرن الرابع فى قرطبة والقيروان والفسطاط وحلب وغزنة والرى وسمرقند تقل كثيراً عن مكانة بغداد ، ومن قبل البصرة والكوفة فى هذا المعنى . كان الناس يحملون إلى بغداد علمهم وأدبهم أيام عظماء خلفائها ، فخلف من بعدهم خلف من الضعفاء غدت بهم بغداد تنقل أدبها إلى العواصم المستحدثة . ولما قامت دولة بنى بويه واتخذت من الرىّ قصبة بلاد الجبال عاصمة لها ، أصبحت بعد حين دار علم ، ومثابة أدب ، على مثل ما كانت عاصمة الأمويين فى الأندلس ، وعاصمة بنى الأغلب

فى إفريقية ، وعاصمة الطولونيين فى مصر ، وعاصمة الغزنويين فى خراسان .

وكانت الرىّ وما إليها من أرض فارس فى هذا العصر مجموعة من المذاهب الإسلامية فيها الشيعة الإمامية والغالية ، والأحناف والشوافع والمعتزلة والخوارج وغيرهم . وظلّ أهل الرى على مذهب أهل السنة والجماعة حتى تغلب عليهم متغلب من الشيعة ، وأظهر التشيع وأكرم أهله ، فتقرب الناس إليه بتصنيف الكتب ، فأصبحت جمهرة أهل الرى شيعة غالية ، وكان ذلك فى أواخر الربع الثالث من القرن الثالث . ومن أهل هذا المذهب كان بنو بويه أصحاب الدولة . وكان أهل قُمّ بلد ابن العميد شيعة إمامية غالية ، ومعظم العلماء فى أرض فارس من أهل السنة ، والملوك يخطبون ودّ أرباب المعرفة من جميع الطبقات والمذاهب .

أوليته وسيرته :

فى هذه البيئة نشأ أبو الفضل محمد بن الحسين الملقب بابن العميد ، من بيت فضل وصدارة . وكان أبوه أبو عبد الله الحسين بن محمد المعروف بكاتة كاتباً مذكوراً فى خراسان ، وله باع فى السياسة « تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر ، ولقب الشيخ كالعادة فيمن يلى ذلك الديوان » ، « والعميد لقب والده ولقب بذلك ، على عادة أهل خراسان فى إجرائه مجرى التعظيم » .

والغالب أن ابن العميد وُلد فى آخر سنة من القرن الثالث ، لأنه عُمّر ستين سنة ، ومات سنة ستين بعد الثلاثمائة ، « وكان يعتاده القولنج تارة ، والنقرس أخرى ، تُسلمه هذه إلى هذه » ، وقيل إنه أخذ العلم فى بغداد ورحل إليها مرة أو مرتين وهو وزير ، ولذلك كان يحبها ويعجب برجالها وحضارتها ، « ولم يزل أبو الفضل فى حياة أبيه وبعد وفاته بالرىّ وكوَر الجبل وفارس يتدرج إلى المعالى ،

ويزداد على الأيام فضلا وبراعة ، حتى بلغ ما بلغ ، واستقر فى الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل » ، وذلك سنة ثمان وعشرين وثلثمائة . ولما تقلدها ، وكان دون الثلاثين ، أتته السعادة فى صباه ، وتمت أدوات علمه وأدبه ، وهو يتولى أعمال الدولة ، وطالت أيام وزارته حتى أربت سنوها على زمن صباه ودراسته ، ودعى ابن العميد بالأستاذ الرئيس لجمعه بين الإمارة والأدب ، وذهب له هذا اللقب عن جدارة ، ولقب أيضاً بلسان المشرق .

أجمع من ترجموا لابن العميد أنه فارسى من أهل قُم ، ولا يفهم من كونه فارسياً أنه من صميم الفرس ، فقد يسكن العربى قم وقزوين وشيراز ونيسابور والرى وهو عربى بأصوله فينسب إلى البلد الذى نزله أو ولد فيه . وما هو فارسى بالمعنى الذى نفهم به اليوم معنى هذه النسبة (١) ، ولا يبعد أن يكون ابن العميد أو أجداده عرباً أقحاحاً ، نشأوا فى تلك الأرض فنسبوا إليها ، وقد حدثنا التاريخ بأن مئات من علماء المسلمين وأبناء الأنصار والمهاجرين هاجروا إلى البلاد التى فتحت على أيدى العرب فى الشرق والغرب فنسبوا إلى أوطانهم لا إلى آبائهم كما كانوا من قبل فضاعت بذلك أصولهم .

---

(١) تعلم أصول من اشتهروا فى فارس من العلماء بالقاء نظرة على كتب الأنساب والوفيات وتراجم المحدثين وغيرهم . فقد نسبوا صاحب الأغانى إلى أصفهان وهو أموى عربى ، ونسبوا صاحب القاموس إلى فيروزاباد وهو بكرى عربى ، ونسبوا القزوينى صاحب آثار البلاد إلى قزوين وهو عربى من سلالة مالك بن أنس ، ونسبوا ابن حبان البستى صاحب التآليف العظيمة ومن طبقة البخارى إلى بست وهو تميمى ، ونسبوا أبا حيان التوحيدى إلى شيراز وهو من صميم العرب ، وكان أبو داود السجستانى صاحب السنن من الأزد ، وأبو العباس النسوى مصنف المسند من بنى شيبان ، وأبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابورى صاحب المسند من بنى قشير ، والهروى المفسر من ولد أبى أيوب الأنصارى ، وأبو الوليد النيسابورى فقيه خراسان أموى من ذرية سعيد بن العاص الأكبر ، والفخر الرازى المفسر عربى . وقال ابن قتيبة إن خارجة بن مصعب هو من بنى شجنة من صبيعة ، وكان من أفقه أهل خراسان وأرضاهم عندهم وعقبه بخراسان ، وكان أبوه مصعب بن خارجة مع على بن أبى طالب .

وليس من المستحيل أن يكون غرام ابن العميد بالعرب والعربية موروثاً وتأصل فيه بالدرس ، وكم من غريب عن هذا اللسان خدمه خدمة أبنائه الأصليين . وقد قال أبو الريحان البيرونى ، وهو من خُوَارَزْم ومن أعظم علماء الإسلام : « الهجو بالعربية أحب إلىّ من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم نقل إلى الفارسى كيف ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسود وجهه ، وزال الانتفاع به ، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية » .

لم نعرف من أساتذة ابن العميد غير محمد بن على بن سعيد [1] المعروف بسمكة أو بابن سمكة القمى ، وكان يعلم علم الأوائل وهو « صاحب الأدب والحكمة والنجوم والترسل والإملاء » ، ولعله كان يذهب مذهب الاعتزال فلقن تلميذه مذهبه فأصبح مثله على مذهب أهل العدل والتوحيد ، فى إقليم يغلب التشيع على السواد الأعظم من أهله ، وما منع ذلك ابن العميد أن يخدم ركن الدولة بن بويه ، وكان شيعياً غالياً ، ولا أن يتخرج به عضد الدولة بن بويه فى إدارة الملك والدولة .

غلبت الحكمة على ابن العميد ، وتخللت شغاف قلبه ، وكان أدبه غير أدب عصريه ، كان أدباً ممزوجاً بعلوم عقلية ، فيه شفوف نادر ، وطبيعة مؤاتية ،

---

(١) هكذا ورد اسمه فى فهرست ابن النديم وفى رجال النجاشى : أنه أحمد بن إسماعيل بن عبد الله أبو على بجلى عربى من أهل قم يلقب سمكة ، كان من أهل الفضل والأدب ويقال إن عليه قرأ أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد وله عدة كتب لم يصنف مثلها ، وكان إسماعيل بن عبد الله من غلمان أحمد بن عبد الله البرقى وممن تأدب عليه ، ومن كتبه كتاب العباسى وهو كتاب عظيم نحو عشرة آلاف ورقة فى أخبار الخلفاء والدولة العباسية رأيت منه أخبار الأمين وهو كتاب حسن ، وله كتاب الأمثال كتاب حسن مستوفى ، ورسالة إلى أبى الفضل بن العميد ورسالة فى معان أخر الخ .

ونفس حساسة ، تزن كل شيء بميزان النقد ، حتى الألفاظ والقوافى والأوزان والأسجاع وحتى الكلام العادى . ونشأ ابن العميد نشأة أدبية وسياسية ، عرف البلاد وأمزجة أهلها ، وعرف ما يصلحهم ويرضيهم ويرعاهم . ذكر مسكويه أنه سمعه فى كثير من خلواته يشرح لابنه أبى الفتح « صورة الديلم فى الحسد والجشع ، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة ، وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم إلى التحاسد ولا يتكبر عليهم ، ولا يكون إلا فى مرتبة أوسطهم حالاً ، وأن من قد دعاهم واحتشد لهم ، وحمل على حالة فوق طاقته ، لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته ، والسعى على إزالتها ، وترقب أوقات الغرة ، فى آمن ما يكون الإنسان على نفسه منهم ، فيفتكون به ذلك الوقت » .

قال : « وكان لوفور عقله يدارى أمره مع صاحبه ومع عسكره ، ثم يسوس رعيته والممالك التى يراعيها ، ويدبر الجميع تدبيراً ملائماً لوقته ، موافقاً لزمانه ، فلا يظهر من الزينة وأبهة الوزارة ، إلا بمقدار ما يقيم به مرتبته ، ولا يجاوز ذلك إلى ما يحسد عليه وينافس ، ثم يتواضع تواضعاً لا يخرج به إلى غضاضة تلحقه فى جاهه ، أو تحطه عن المنزلة العالية التى يرقى إليها ، وكانت سلامته طول مدته على أصناف الناس وطبقاتهم وقيام هيبته وتمام سياسته متصلة تزيد على الأيام ثناءً وثباتاً » .

ومن سياسة ابن العميد وهو الصدر المقدم فى الآداب والسياسة أنه كان يصون مجلسه عن الخوض فى مسائل الخلاف فى الدين ، وقد يقاطع من يحاول المناقشة فيه ، وهو جدٌّ عارف بأهل الأثر وأهل الرأى من فقهاء الأمصار ، بصير بالمحكم والمتشابه من آى القرآن ، إلى معارف جمة فى النحو والتصريف واللغة وأشعار العرب ، يدرك ما يجر الخلاف من تبعات على دولة اختلفت مذاهب

سكانها وأجناسهم ، وتباينت أهواؤهم ودرجات ثقافتهم ، خصوصاً ومذهبه غير مذهب سلطانه ، وهو فوق ذلك متشبع بالحكمة حتى ليتهمه بعضهم فى دينه ، شأن الناس منذ العهد القديم مع من يشتغل بهذا العلم البغيض إلى الفقهاء وأتباعهم . والناس فى كل زمن أسرع إلى تكفير أهل التفكير من الماء إلى المنحدرات .

كان خلطاء ابن العميد ومنادموه من مذاهب مختلفة . فيهم مسكويه قيّم خزانته وهو فيلسوف مؤرخ ، وفيهم أستاذه ابن سمكة وأبو محمد هندو وكلاهما فيلسوف إلهى ، وفيهم أبو الحسين بن فارس أديب ، وابن خلاد القاضى أديب وفقيه ، وأبو الحسن العلوى ، وأبو العلاء السروى شاعر وكاتب . وكان يحاضرهم ويجالسهم ويهاديهم ويكاتبهم إذا غابوا ويجاوبهم نظماً ونثراً ؛ حتى لقد قيل إن أحسن ما كتب ابن العميد رسائله فى الإخوانيات . وكان لا ينظر فى التراسل مع إخوانه إلى ما بينه وبينهم من التفاوت فى المصطلح عليه من درجات المجتمع ، أى أنه وزير وهم رعية ، يسحب ذيله على ما يكون منهم ؛ وما عُدّت عليه هفوة مع صديق ، وما كان ممن يخرج على حقوق الصداقة ، وفى نظره أن لا اعتبار فى الصداقات لاختلاف الدرجات ، والمشاكلة فى الفكر والعواطف أثمن صداقة . قالوا وكان يفتخر بالحسن بن إسحق بن محارب القمى ويقول : لو لم يخرج من بلدنا سواه لكان كافياً .

كانت معانى الحب متأصلة فى ابن العميد ، وروحه تحب ، وإذا أحبت تخلص فى حبها ، وربما برّح به ، ثم إن نفسه عظيمة لا تكره ولا تبغض ، والكراهة والبغض على الأكثر أثر من آثار الضَّعة ، ولؤم الطباع ، والتواء المقاصد ، وكل أولئك كان الأستاذ الرئيس غنياً عنه ، لأنه يعطى ولا يتوقع من غيره العطاء ، ويمنع ولا يخشى الناس أن يمنعوه ، وليس له بعد هذا إلا أن

يتحبب إلى الناس ، ولا سيما أهل الذكر والفكر .

أَلِف ابن العميد ، على ما بلغه من رتب المجد فى دنياه ، المذاكرة فى فنون العلم على سنة علماء السلف وأدبائهم ، واعتاد أن يفضل على خاصته وقاصديه ، خصوصاً إذا لم يَدِلّوا عليه بأدبهم فى مجلسه . كان يكره من يريد أن يُنفق عليه بأْوه[1] ودعواه ، وكثيراً ما يستهدف لغضب أهل هذه الطبقة ، فيقدمون على هجوه ، وينصرفون عنه لاعنين طاعنين ، كما وقع لابن نباتة السعدى ولأبى حيان التوحيدى ، فإنهما تجهّما له ، لأنهما لم ينالا ما كانا يؤملان منه ، فجسرا على هجوه ، وأَلّف التوحيدى كتاباً سماه مثالب الوزيرين ، أى ابن العميد وصديقه الصاحب بن عَبّاد .

جعل ابن العميد لكل شىء نظاماً فى وزارته ، يعمل للمصلحة العامة ما استلزمت من الأوقات ، فإذا فرغ انصرف إلى العلم والأدب ، فهو على هذا يحمل شخصيتين : شخصية سياسية إدارية ، وأخرى أدبية فلسفية ، وكثيراً ما تكون مجالسه مجالس العالم لا مجالس السياسى ، يقرأ عليه من يقصده من العلماء والأدباء ما يحبون التوسع فيه من صنوف الآداب ، على نحو ما جرى له مع أبى الحسن العامرى الفيلسوف النيسابورى ، قيل إنه شرح له كتب أرسطو و « برك بين يديه ، واستأنف القراءة عليه ، وكان يعد نفسه فى منزلة من يصلح أن يُتعلم منه ، فقرأ عليه عدة كتب مستغلقة ففتحها عليه ، ودرسه إياها » . وهو بالطبع يستفيد من القراءة والإقراء . « وضبط أعماله ونظم أموره ، ورتب أسباب خدمته ، حتى كان أكثر نهاره مشغولا بالعلم وأهله » مما كان سبباً أعظم فى عظمته وشهرته . ورب وزير كان قبل الوزارة شيئاً مذكوراً فى العلم فأصبح

(١) البأو : الفخر بالنفس .

لا شيء بعدها ، لا ستغراق أوقاته كلها بمصالح الناس ، ورد عادية الأحزاب والأعداء عنه وعن سلطانه . أما ابن العميد فكان قبل وزارته معروفاً بالفضل ، وفى الوزارة أخذ بحظ وافر من حسن السمعة .

واعتذر مسكويه عن قصور صاحبه فى عمار الملك ، وبسط العدل فى ربوعه — وكان مسكويه على ما يظهر مأخوذاً بحبه عاش فى نعمته أيام صباه سبع سنين — قال : « فأما اضطلاعه بتدبير الممالك ، وعمارة البلاد ، واستغزار الأموال ، فقد دلت عليه رسائله ، ولا سيما رسالته إلى أبى محمد بن هندو التى يخبر فيها باضطراب أمر فارس ، وسوء سياسة من تقدمه لها ، وما يجب أن يتلافى به ، حتى تعود إلى أحسن أحوالها ، فإن هذه الرسالة يتعلم منها صناعة الوزراء ، وكيف تُتلافى الممالك بعد تناهى فسادها . وما منعه من بسط العدل فى ممالكه ، وعمارة ما يدبره منه إلا أن صاحبه ركن الدولة ، مع فضله على أقرانه من الديلم ، كان على طريقة الجند المتغلبين ، يتغنّم ما يتعجل له ، ولا يرى النظر فى عواقب أمره ، وعواقب أمور رعيته ، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن أحداً تلافيه وردهم عنه » .

أتى مسكويه بوصف مخدومه فى معرض المدح ، والمعقول أن من يقتدر على إزالة الأذى و يسكت عن رفعه مؤاخذ فى الشرائع . رأى ابن العميد السير على طريقة لينة ، فيها التغاضى والتعامى ، حتى لا يغضب الجند ولا يغضب سيده الملك ، ولا يناله مكروه بسببهم ، ولو أحس بتخريبهم البلاد وظلمهم أهلها ، فترك العائثين والعابثين وشأنهم ، يمنى نفسه أن يأتيه الوقت الملائم فيحكم فيهم حكمه ، و ينقذ بلاده من أوصابها وأوبئتها الاجتماعية والإدارية ، وسياسته هذه لا تنجو من اللوم فى نظر أرباب الحزم من مدبرى الممالك .

أدبه وعلمه :

عرفنا بما تقدم نوع الدراسة التى تعلقت بها همة ابن العميد ، ووقفنا على صورة من نفسيته ، والآن نعمد إلى تحليل هذا الضرب من الأدب الذى عرفه الناس به ، و به خلد ذكره فى العالمين ؛ قالوا إنه واضع طريقة الشعر المنثور ، وإنه كان يلتزم السجع تارة و يطرحُه أخرى ، وهذا رأى ابن سنان فيه . قال إنه كان يترك السجع و يتجنبه ، وطريقته استعماله مرة ورفضه أخرى ، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسير ، أو الإكراه والتكلف . أما نحن فإن ما وصلنا من كتاباته يضطرنا إلى أن نحكم عليه حكماً يخالف حكم ابن سنان . ذلك لأنا رأيناه كان إلى التسجيع والمزاوجة أقرب . وما ندرى أيضاً إن كان وصفه بخاتمة الكتاب ينطبق على الواقع ، أم فيه شىء من المصانعة لابن العميد فى قولهم : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد » أم هى السجعة التى أصدرت هذا الحكم ، كما كانت سجعة الصاحب بن عباد فى قاضى قم هى التى نحته عن منصبه ، يوم كتب إليه : « أيها القاضى بقم ، قد عزلناك فقم . فقال القاضى : والله ما عزلتنى إلا السجعة » .

عاصر ابن العميد عشرات من الكتاب ، وجاء بعده كثيرون كانوا أطول منه باعاً فى هذا الفن ، وفى مقدمتهم الهمدانى وأبو حيان التوحيدى فنسى الناس أو تناسوا من لم يَحُظّهم الحظ حتى يشتهروا من كل وجه ، ولهج الناس بنثر ابن العميد وشعر ابن العميد فتأفقت شهرته .

وحكمنا هذا على ابن العميد مستند إلى رسائله الباقية فى كتب الأدب والأخبار ، وفيها شهدناه يكثر كأهل قرنه من السجع ، ولم نَر شحن كتابنا بما

أثر عنه منه ، فاقتصرنا على كلامه المرسل ، وحكمنا عليه بالأسلوبين .

عصر ابن العميد عصر نشوء الكلام المسجوع ، وفيه ظهر أعظم السجاعين ، فما وسعه أن ينحل من قيوده ؛ بل أخذ بمجاراة الناس طوعاً أو كرها ، فهو ابن عصره تأثر به ، إلا أنه كان أقل من غيره على ما يظهر تأثراً بالأفكار الفارسية ، وهذا داعية العجب ، كان أقرب إلى العروبة فى أكثر مناحيه ، وفارسيته مقصورة على مصطلحاته وعاداته . كان تأثره بكلام الأقدمين — وهو الحافظ المكثر من شعر العرب الجاهليين والإسلاميين — أوفى من تأثره ببيئته ، هو عربى الأفكار ، فى ثوب فارسى رقيق ، أخذ من المدنيتين ما راقه ، ومزجهما مزجاً جميلا ، فكان آية بهرت أو كما قال أبو الطيب المتنبى فى مدحه :

عربى لسانه فلسفى رأيه فارسية أعياده
خلق الله أفصح الناس طراً فى بلاد أعرابه أكراده

لم تتناول ثقافة ابن العميد الشعر والنثر ، أى الأدب فقط ؛ بل كانت ثقافة العالم الحكيم ، يعرف تأويل القرآن والفقه والحديث والفلسفة وعلم الحيل وجر الأثقال والتصوير والهندسة والطبيعة ، إلى معرفته الواسعة بالسياسة والحرب . وكان على الكاتب المثقف فى ذاك العصر إتقان الفلك والطبيعيات والرياضيات فضلا عما يحتاج إليه من لغة ونحو وتصريف وتاريخ وشريعة . وكانت العجم تقول : من لم يكن عالماً بإجراء المياه ، وبحفر فُرض الماء والمسارب ، وردم المهاوى ومجارى الأنهار فى الزيادة والنقصان ، واستهلال القمر وأفعاله ، ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ، ونصب القناطر والجسور والدوالى والنواعير على المياه ، وحال أدوات الصناع ، ودقائق الحساب — كان ناقصاً فى حال كتابته .

وما روى من مجالس ابن العميد وتنوقل من آرائه يؤذن بأنه لم يكن نُتفة فى هذه العلوم ، بل كان مشاركاً أعظم مشاركة . قالوا كان إذا طرأ عليه أحد من منتحلى العلم ، فأراد امتحان عقله سأله عن بغداد ، فإن فطن لخواصها ، وتنبه على محاسنها ، وأثنى خيراً عليها ، جعل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله ، ثم يسأله عن الجاحظ فإن وجد عنده أثراً لمطالعة كتبه ، والاقتباس من ألفاظه ، وبعض القيام بمسائله ، قضى له بأنه غرّة شادخة[1] فى أهل العلم ، وإن وجده ذاماً لبغداد ، غفلاً عما يجب أن يكون موسوماً به من الانتساب إلى المعارف التى يختص بها الجاحظ ، لم ينفعه بعد ذلك شىء من المحاسن .

هذا تصوير لبعض مناحى الأستاذ الرئيس ، ولم نجارِ من توسعوا فى تصوير سيرته وبالغوا فى أدبه وأكثروا ومنهم الثعالبى فى يتيمة الدهر ومسكويه فى تجارب الأمم . لا جرم أن ابن العميد عظيم بأدبه ، ولكن ألا يذهب الفكر إلى أنه كان له بحكم منصبه السامى — ومفاتيح خزائن الدولة فى يده يفضل على العلماء والشعراء من قاصديه وغير قاصديه — ما زاد فى شهرته ، وعظّم فى النفوس أدبه ؟ وربما كان من حبّ بعضهم له أن جملوا صورته على غير قصد .

وبعد الذى رأينا من مبالغات الشعراء فى كل عصر ، ملنا إلى التوقف فى الحكم على الرجال بالمدح أو بالقدح الذى قيل فيهم . شهدنا شعراء مدحوا رجالاً وهجوهم فى آن واحد ، فأى أقوالهم نصدق ؟ هذا سيف الدولة بن حمدان قد خلع عليه المتنبى من الأماديح ثياباً فضفاضة ، فخلد ذكره فى العالمين . ولو بحثنا فى سيرة سيف الدولة ما زدنا فى تعريفه على ما نصف به ملكاً جائراً مستبداً ، يستحل أكل أموال الناس بالباطل ، ويخربُ البلاد لينفق ما يساب فى أبهته ،

(١) غرة شادخة : غشت الوجه من الناصية إلى الأنف .

ويفرط فى الإفضال على مادحيه وبذخه [1] . وإنا إذا تأملنا هجوه كافور الإخشيدى ، بعد أن مدحه ورفعه ، نسجل أنه ظلمه كثيراً ، فإن سيرته كانت أزكى من سيرة سيف الدولة ، والملك به يصلح أكثر مما يصلح بابن حمدان وأمثال ابن حمدان من ظلمة الملوك والأمراء . وهكذا يقال فى أكثر ما نسجه الشعراء من أماديح العظماء والأمراء ، فلما قصروا فى العطاء تراجع الشعر وذهبت بهجته .

ولو هممنا بأخذ صورة للملوك والعظماء مما مدحهم به الشعراء لبعدنا عن حقيقتهم وسيرتهم بعداً كثيراً . وكذلك لو صدقنا كل ما هجا به الهاجون ، لما رسمنا لهجو صورة صحيحة . لأن الشعر قام فى الأكثر على المديح والهجاء ، وعلى المبالغة فى كل منهما ، وهناك الأهواء السياسية والعداوات المذهبية والطوائل الجنسية . وكم من عالم وصمه خصومه بالكفر ، وهو أقرب إلى جوهر الشرع من أكثر حاسديه ومخالفيه . وكم من إنسان عظيم ألبسه أهل مجتمعه ثوبا بالياً من حكمهم عليه ، وما كان أولاهم أن يكسوه الخز والديباج . والغرض مرض وقل أن خلت منه نفس بشرية . هذا والشعر العربى على الغلو فى نسيبه وتشبيبه وغزله ومديحه وهجائه يؤخذ على علاته ، وقلما يسقط فيه على حقيقة إلا فى الحكم والعبر ، ومتى جعلناه عمدتنا فى الترجمة للرجال نضل ضلالاً بعيداً .

وبعد فإن من سعادة ابن العميد أن يطول عهده فى الوزارة ، ومن سعادته أن يكون على أخلاق فاضلة وسياسة ناجحة يستميل بها قلوب الدهماء والأدباء ،

---

(١) قال الأزدى فى الدول المنقطعة فى سنة أربع وخمسين وثلثمائة صاهر سيف الدولة أخاه ناصر الدولة ، فزوج ابنته أبا المكارم وأبا المعالى بابنة ناصر الدولة ، وزوج أبا تغلب بابنته ست الناس ، فضرب دنانير فى كل دينار ثلاثين ديناراً وعشرين وعشرة عليها مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله أمير المؤمنين على بن أبى طالب فاطمة الزهراء الحسين جبريل عليهم السلام ؛ وعلى الجانب الآخر : أمير المؤمنين المطيع لله الخ . ويقال جاد بما لم يجد به أحد يقال إن مبلغ ما جاد به تسعمائة ألف دينار ، فتأمل .

ومن سعادته أن يرزق عقلاً ناقداً ، و بصيرة نافذة ، وثقافة كاملة ، ومن سعادته أن يظل وهو رأس الدولة على تنمية معارفه ومواهبه إلى الزمن الذى استأثر الله به فى همدان ، وهو فى طريق القضاء على الناشزين على الملك . كل أولئك زاد فى وزنه . وهو فى حقيقته أديب عظيم مجدود ، لم تبطره النعمة ، ولا أسكره تيه الإمارة و إقبال الدنيا ، وكان له من تليد مجده وطريفه ما وقره فى الصدور ، ومن الفضائل ومكارم الأخلاق ما أمتعه بالصيت البعيد ، فتمتع بما يتمتع به الملوك فى سلطانهم ، وشارك الأدباء فى مجدهم الأدبى . ولو رحمت الأيام ثروة أدبية خلفها عظيم طالما رحم الناس ؛ لكان الحكم عليه أفصح من هذا .

نموذجات صحيحة كتابته :

كتب ابن العميد إلى أبى عبد الله الطبرى لما استحضره عضد الدولة للمنادمة وفيه راموز من بُعد نظره فى سياسة الملوك قال : « وقفت على ما وصفته من برّ الأمير بك ، وتوفّره عليك ، وليس العجب أن يتناهى مثله فى الكرم إلى أبعد غاياته ، و إنما العجب أن يقصر فى شىء من مساعيه عن نيل المجد كله ، وحيازة الفضل بأجمعه ، وقد رجوت أن يكون ما يغرسه أجدر غرس بالزكاء ، وأضمنه للرّيع والنماء ، فارع ذلك واركب فى الخدمة طريقة تبعدك من الملال ، وتوسطك فى الحضور بين الإكثار والإقلال ، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال . فلأن تدعى من بعيد مرات ، خير من أن تُقصى من قريب مرة . وليكن كلامك جواباً تتحرز فيه من الخطل ومن الإسهاب ، ولا تعجبنك تأتى كلمة محمودة فيلجّ بك الإطناب توقعاً لمثلها ، فربما هدمت ما بنته الأولى . و بضاعتك فى الشرب مزجاة و بالعقل يزمّ اللسان و يلزم السداد . فلا يستفزنك

طرب الكلام على ما يفسد تمييزك ، والشفاعة لا تعرض لها فإنها مخلقة للجاه ، فإن اضطررت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها وتطالع موضعها ، فإن وجدت النفس بالإجابة سمحة ، و إلى الإسعاف هشة ، فأظهر ما فى نفسك غير محقق ، ولا توهم أن فى الرد عليك ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، وليكن انطلاق وجهك إذا دفعت عن حاجتك ، أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخفَّ كلامك ولا يثقل على سامعه منك . أقول ما أقول غير واعظ ولا مرشد ، فقد كمل الله خصالك وفضلك فى ذلك كله ، لكن أنبه تنبيه المشارك ، وأعلم أن للذكرى موقعاً منك لطيفاً » .

وكتب اليه أيضاً :

« كتابى وأنا بحال لو لم ينغّص منها الشوق إليك ، ولم يُرَنِّق[1] صفوها النزاع نحوك ، لعددتها من الأحوال الجميلة ، وأعددت حظى منها فى النعم الجليلة ، فقد جمعتُ فيها بين سلامة عامة ، ونعمة تامة ، وحظيت منها فى جسمى بصلاح ، وفى سعيى بنجاح ، لكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بُعدى عنك ، ويخلو ذرعى[2] مع خلوِّى منك ، ويسوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، وناظم لشمل أنسى ، وقد حُرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس بيت بلا نظام ، وقد قرأت كتابك — جعلنى الله فداءك — فامتلأت سروراً بملاحظة خطك ، وتأمّل تصرفك فى لفظك ، وما أقرظهما ، فكل خصالك مقرَّظ عندى ، وما أمدحهما ، فكل أمرك ممدوح فى ضميرى

---

(١) يرنق يكدر . (٢) رجل واسع الذراع والذرع أى الخلق والذرع النفس وضاق بالأمر ذرعه وذراعه وضاق به ذرعاً ضعفت طاقته .

وعقدى[1] ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك ، فإن كان كذلك و إلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى اه » . قلنا وهذا من مسجوعاته وفيه من المبالغات الفارسية ما كاد يذهب ببهجته وجميل عاطفته . ولو صدر هذا الكتاب عن كاتب ممن سبقه كعمرو بن مسعدة ، وسهل بن هرون ، وأحمد بن يوسف الكاتب ، وابن الزيات ، والصولى ، لجاء موضوعه فى سطرين سهلين على السمع والطبع ، مقبولين فى العرف والعادة ، لا غلو فيهما ولا إغراق .

وكتب إليه فصلا أوله سجع كله لم تفلت منه جملة بدونه إلى أن قال وقد ذكر دعواه فى العلم : وهبك أفلاطون نفسه فأين ما سننته من السياسة ؟ فقد قرأناه فلم نجد فيه إرشاداً إلى قطيعة صديق ، فأحسبك أرسطاطاليس بعينه ، أين ما رسمته من الأخلاق ؟ فقد رأيناه فلم نر فيه هداية إلى شىء من العقوق ، وأما الهندسة فإنها باحثة عن المقادير ، ولن يعرفها من يجهل مقدار نفسه ، وقدر الحق عليه أوله ، بل لك فى رؤساء العربية منا ريح ومضطرب ، واسنا نشاحّك ، لكن أتحب أن تتحقق بالغريب من القول دون الغريب من الفعل ، وقد اغتربت فى الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدى للرجوع عنه ؟ وأما النحو فلن تدفع عن حذق فيه و بصر به ، وقد اختصرته أوجز اختصار ، وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قدوة ، و يرضى بك أسوة ؛ فقلت الغدر والباطل وما جرى مجراهما مرفوع ، والصدق والوفاء وما صاحبهما مخفوض ، وقد نصب الصديق عندك ، ولكن غرضاً يرشق بسهام الغيبة ، وعلماً يقصد بالوقيعة ، ولست بالعروضى ذى اللهجة فأعرف قدر حذقك فيه ، إلا أنى لا أراك تتعرض لكامل ولا وافر ، وليتك سبحت فى بحر المجتث حتى تخرج منه إلى شط المتقارب .

---

(١) العقد الضمان والعهد .

وكتب إلى بعض إخوانه : أنا أشكو إليك ، جعلني الله فداك ، دهراً خؤوناً غدوراً ، وزمناً خدوعاً غروراً ، لا يمنح ما يمنح إلا ريثما ينتزع ، ولا يبقي فيما يهب إلا ريثما يرتجع ، يبدو خيره لمعاً ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جُرَعاً ثم يمتنع ، وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجية معروفة ، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدى لما يبسطه وشك انقباض . وكنا نلبسه على ما شرط ، وإن خاف منه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونستنيم لقصده وظلمه ، ونعتد من أسباب المسرة أن لا يجيء محذوره مصمتاً بلا انفراج ، ولا يأتى مكروهه صرفاً بلا مزاج ، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته ، وقد استحدث غير ما عرفناه ، سنة مبتدعة ، وشريعة متعبة ، وأعد لكل صالحة من الفساد حالا ، وقرن لكل خلة من المكروه خلالا ، وبيان ذلك ، جعلني الله فداك ، أنه كان يقنع من معارضته الإلفين ، بتفرق ذات البين ، فقد انثنى ممنوناً فيك بجميع ما أُوغره ، وما أطويه من البلوى منك أكثر مما أنشره ، وأحسبني قد ظلمت الدهر بسوء الثناء عليه ، وألزمته جُرماً لم يكن قدره بما يحيط به وقدرته ترتقى إليه ، ولو أنك أعنته وظاهرته ، وقصدت صرفه وآزرته ، وبعتني بيع الخَلَق ، وليس فيمن زاد ، ولكن فيمن نقص ، ثم أعرضت عني إعراض غير مراجع ، واطرحتني إطراح غير مجامل ، فهلا وجدت نفسك أهلا للجميل حين لم تجدني هناك ، وأتعذب من جل ما عقدت من غير جريمة ، ونكثت ما عهدت من غير جريرة ، فأجبني عن واحدة منهما ، ما هذا التغالى بنفسك ، والتعالى على صديقك ، ولم نبذتني نبذ النواة ، وطرحتني طرح القذاة ، ولم تلفظني من فيك ، وتمجني من حلقك ؟ وأنا الحلال الحلو البارد العذب ، وكيف لا تخطرني ببالك خطرة ، وتصيرني من أشغالك مرة ،

فترسل سلاماً إن لم تتجشم مكاتبة ، وتذكرنى فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة ، وأحسب كتابى سيرد عليك فتنكره حتى تتثبت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تتذكر ، فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك ، واسمه من صحيفة حفظك ، ولعلك أيضاً تتعجب من طمعى فيك وقد وليت ، واستمالتى لك وقد أبيت ، ولا عجب فقد ينفجر الصخر بالماء الزلال ، ويلين من هو أقسى منك قلباً فيعود إلى الوصال ، وآخر ما أقوله أن ودى وقف عليك ، وحبسٌ فى سبيلك ، ومتى عدت إليه وجدته غضاً طرياً ، فجربه فى المعاودة فإنه فى العود أحمد .

وهـذه الرسالة كما ترى من رسائله المسجوعة والمرسلة معاً ، وبأدنى تأمل يدرك المتمعن فيها أن ابن العميد لما اطرح فى آخرها السجع جوّد وأبدع ، وكان فى أولها لا يعدو أسلوب الصاحب بن عباد وأبى بكر الخوارزمى والصابى من أهل جيله عشاق السجع ، وكان الهمدانى أقلهم به تشبثاً فى رسائله لا فى مقاماته .

وفى اليتيمة : ويقال إن أحسن رسائله الإخوانيات ، ما كاتب به أبا العلاء (السروى) لصدوره عن صدر مائل إليه ، محب له ، مناسب بالأدب إياه ؛ فصل من رسالة له إليـه فى شهر رمضان وهو مما لم يسبق إليه : كتابى جعلنى الله فداك وأنا فى كد وتعب ، منذ فارقت شعبان ، وفى جهد ونَصَب ، من شهر رمضان ، وفى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم ، ومرتهن بتضاعف حرور ، لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضاً أتى أصحابه وهو منضج ، وممتحن بهواجر يكاد أُوارها يذيب دماغ الضب ، ويصرف وجه الحرباء عن التحديق ، ويزويه عن التبصر ، يقبض يده عن إمساك ساق وإرسال ساق ..

وأحمد الله على كل حال وأسأله أن يعرفنى فضل بركته ، ويلقينى الخير فى باقى أيامه وخاتمته ، وأرغب إليه فى أن يقرب على القمر دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته ، ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد علىَّ غرة شوال فهى أسر الغرر عندى وأقرها لعينى ، ويسمعنى النعرة فى قفا شهر رمضان ، ويعرض علىَّ هلاله أخفى من السر ، وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بنى عامر ، وأضنى من قيس بن ذريح ، وأبلى من أسير الهجر ؛ ويسلط عليه الحَوْر بعد الكور[1] ، ويرسل على رقاقته[2] التى يغشى العيون ضوءها ، ويحط من الأجسام نوءها ، كلفاً يغمرها ، وكسوفاً يسترها ، ويريبه مغمور النور ، مقمور الظهور ، قد جمعه والشمس برج واحد ، ودرجة مشتركة ، وينقص من أطرافه كما تنقص النيران من طرف الزند ، ويبعث عليه الأَرَضة ، ويهدى إليه السوس ، ويغرى به الدود ، ويبليه بالفار ، ويخترمه بالجراد ، ويبيده بالنمل ، ويجتحفه بالذَّر ، ويجعله من نجوم الرجم ، ويرمى به مسترق السمع ، ويخلصنا من معاودته ، ويريحنا من دوره ، ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ، ويفعل به فعله بالكتان ، ويصنع به صنعه بالألوان ، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق إذا افتضح بضوئه وتهتك بطلوعه ، ويرحم الله عبداً قال آمينا . وأستغفر الله جل وجهه مما قلته إن كرهه ، وأستعفيه من توفيقى لما يذمه ، وأسأله صفحاً يفيضه ، وعفواً يسيغه ، وحالى بعد ما شكوته صالحة ، وعلى ما تحب وتهوى جارية ؛ ولله الحمد تقدست أسماؤه والشكر اهـ .

وهذه الرسالة أيضاً لو خلت من السجع والتطويل لكانت فريدة فى بابها ،

---

(١) فى الحديث نعوذ بالله من الحور بعد الكور معناه النقصان بعد الزيادة وقيل معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها .

(٢) الرقاق كغراب الخبز الرقيق ، الواحدة رقاقة .

قال الثعالبي : وقد أجمع أهل البصيرة فى الترسل على أن رسالته التى كتبها إلى ابن بلكا ونداد خورشيد عند استعصائه على ركن الدولة غرة كلامه وواسطة عقده ؛ وما ظنك بأجود كلام لأبلغ إمام ؟ قال فصل من أولها : كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ؛ فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول[1] وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك ؛ لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلاً لصدك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك[2] ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضناً بالنعمة عندك ، ومنافسة فى الصنيعة لديك ، وتأميلا لفيئتك[3] وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأى ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة إلى رخاء ، وكل غمرة فإلى انجلاء ، وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك ، فلا بدع أن تأتى من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمى فى الإبقاء والمماطلة ما صلح ، وعلى الاستبطاء والمطاولة ما أمكن طمعاً فى إنابتك ، وتحكيماً لحسن الظن بك .

---

(١) الغلول الخيانة فى المغنم خاصة وآنف جمع أنف .
(٢) الاجتياح كالاصطلام الاستئصال . (٣) الفيئة الرجعة .

فلست أعدم فيما أُظاهره من إعذار ، وأرادفه من إنذار ، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك ، فإن يشإ الله يرشدْك ، و يأخذ بك إلى حظك و يسدّدك .

ثم نقل الثعالبي فصلا آخر من الكتاب وختمه بقطعة منها جاء فيها : « تأمل حالك ، وقد بلغت هذا الفصل من كتابى فستنكرها ، والمس جسدك ، وانظر هل يحس ، واجسس عِرْقك هل ينبض ، وفتش ما حنا عليك هل تجد فى عرضها قلبك ، وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريح[1] ، أو موت مريح . ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وآخر شأنك بأوله » قال الثعالبي : بلغنى عن ابن بلكا ، وكان آدب أمثاله ، أنه كان يقول : والله ما كانت لى حال عند قراءة هذا الفصل إلا كما أشار اليه الأستاذ الرئيس ، ولقد ناب كتابه عن الكتائب فى عرك أديمى ، واستصلاحى وردى إلى طاعة صاحبه .

وقال الثعالبي فى المضاف والمنسوب : وقرأت فى رسالة لابن العميد إلى ابن سمكة : « جرّب ، جعلت فداءك ، ما قلته ، واختبرنى فيما ادعيته ، فإن لم أفعل فدمى حلال لك ، فاقتلنى بسيف الفرزدق ، وكلنى بخل وخردل » . وسيف الفرزدق يضرب مثلاً للسيف الكليل بيد الجبان .

وقال صاحب اليتيمة أيضاً : وأقرأنى أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسى النحوى ، وقد اجتمعنا باسفرايين عند زعيمها أبى العباس الفضل بن على ، فصلاً من كتاب لابن العميد إلى عضد الدولة كنت مررت عليه وأنا عنه غافل ، فنبهنى على شرفه فى جنسه ، وحرّك منى ساكناً معجباً بحسنه ، متعجباً من نفاسة معناه و براعة لفظه ، وهو : وقد يعد أهل التحصيل فى أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها ، وانتقاض مِرَرها[2] ، والأحوال الداعية إلى ارتفاع جل

(١) سهل . (٢) المرة قوة الخلق وشدته ج مرر وأمرار .

الموجود منها ، وعدم الزيادة فيها الطوفان بالنار والماء ، والموتان العارض من عموم الوباء ، وتسلط المخالفين فى المذاهب والآراء ، فإن كل ذلك يخترم العلوم اختراماً ، وينتهكها انتهاكا ، ويجتث[1] أصولها اجتثاثاً ، وليس — عندى — الخطب فى جميع ذلك يقارب ما يولّده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتتسع قدرته ، فإن البلاء به لا يعدله بلاء ، وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة فى تملك سلطان عالم عادل ، كالأمير الجليل الذى أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها ، ومجتمع فرقها ، وهى نوازٍ نوافر[2] ممن لاقت حتى تصير إليه ، وشرّد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه ، تتلفت إليه تلفُّت الوامق ، وتتشوف نحوه تشوف الصب العاشق ، قد ملكتها وحشة المُضاع ، وحيرة المرتاع .

فإن تغش قوماً بعده أو تزورهم فكالوحش يدنيها من الأنس المحل .

ولابن العميد حكم وأمثال استخرجها العارفون من رسائله ، ومنها : الرتب لا تبلغ إلا بتدرج وتدرب ، ولا تدرك إلا بتجشم كُلفة ونَصَب . رأس المال خير من الربح ، والأصل أولى بالعناية من الفرع . المرء أشبه شىء بزمانه ، وصفة كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه . قد يبذل المرء ماله فى إصلاح أعدائه ، فكيف يذهل العاقل عن حفظ أوليائه . هل السيد إلا من تهابه إذا حضر ، وتغتابه إذا أدبر . الإبقاء على خدم السلطان عِدْل[3] الإبقاء على ماله ، والإشفاق على حاشيته وحشمه ، مثل الإشفاق على دينار ودرهمه . المزح والهزل بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد العسر ، وفحلان إذا أُلقحا لم ينتجا غير

---

(١) الجث القطع . (٢) نزا : وثب .
(٣) العدل بكسر العين وإسكان الدال المثل .

الشر . من أسرّ داءه ، وكتم ظمأه ، بعد عليه أن يُبل من علله ، ويبل من غُلله . خير القول ما أغناك جده ، وألهاك هزله .

وقال ينبغى للملك أن يستظهر على أعدائه بسبعة أجناس من الناس ، فيتخذ الأحرار عُدَد ملكه ، والأعراب أُمناء جيشه ، والديلم أركان جنده ، والخُتّل[1] جمرات عسكره ، والأتراك خواص أصحابه ، والهند حراس قلاعه ، والأكراد غلفاً[2] لسيوف أعدائه .

ومن كلامه : قد تتسمح الأيام بما تمنع ، وتتساهل ثم تقطع ، وتصل الغبطة بالرزية ، والمحنة بالمنحة ، ولها ثمرات تبتدر ، وغفلات تُنتهز . القلوب أوعية يشرحها الرفق ، ويبسطها اللطف ، ويفسحها التمرين ، وإذا تجوز بها هذه الخلال إلى الاستكراه والإملال ، خرجت عن احتواء علم ، وضاقت عن ضبط فهم ، وفاضت بما تستودع . قدّم من خيرك ما لا ينفعك تأخيره ، واحصد الشر قبل استفحاله ، وقدم الميل ما دام الغصن غضاً يقبل التقويم ، ورطباً يطيع التثقيف ، ولا تنتظر به العُسُوّ[3] والامتناع ، وداوِ فتقاً تُنهره الأيام خرقاً إن تركته ، وارأب شعْباً[4] يزيده الدهرُ وهياً إن أغفلته .

ولابن العميد شعر فيه كثير من شعوره ، ودليل على علو كعبه فى الأدب ، وقد ذكر الثعالبى فى كتابه خاص الخاص أن من أظرف شعره قوله فى غلام قام على رأسه يظلله من الشمس :

قامت تظللنى من الشمس نفسٌ أعزّ علىّ من نفسى
قامت تظللنى ومن عجب شمس تظللنى من الشمس

---

(١) الختل كسكر كورة بما وراء النهر .
(٢) عيش أغلف واسع وسيف أغلف بين الغلف وقوس غلفاء فى غلاف .
(٣) العسو الغلظ واليبس . (٤) أصلح الصدع .

وقوله فى مداد أهداه له صديق :

يا سيدى وعمادى أمددتنى بمـــدادِ
كمسكنَيْك جميعاً من ناظرى وفؤادى
أو كالليالى اللواتى رمينا بالبُعـــاد

ومن قوله :

متى علِقت نفسى حبيباً تعلقت بهِ غِـيَر الأيام تسلُبنيه

وقال :

وسألتك العتبى فلم ترنى لهـا أهلاً وجئت بعِـذرة شوهاءِ
وردت مموَّهة فلم يرفع لهـا طرف ولم ترزق من الإصغاء
فأعار مُنطقها النديم شكية فتراجعت تمشى على استحياء
لم تشف من كمد ولم تبرد على كبد ولم تمسح جوانب داءِ
داوت جوىً بجوىً وليس بحازم من يستكف النـارَ بالحلْفاء

وقال :

فلو أن ما أبقيت من جسمى قذى فى العين لم يمنع من الإغفاء

وقوله فى الأقارب :

آخ الرجال من الأبا عد والأقارب لا تقارب
إن الأقارب كالعقا رب بل أضر من العقارب

ولأبى الفضل على رواية ابن النديم من الـكتب كتاب ديوان رسائله ، وكتاب المذهب فى البلاغات ؛ وذكره ابن حاجب النعمان فى الشعراء الـكتاب وقال إن له خمسين ورقة .

المستدركات

الاستدراك الأول

ص ١٠٥

معنى « قاطيغورياس » المقولات أو القياس على ما فى الفهرست لابن النديم ، ومعنى « بارى ارمانياس » العبارة و « أنالوطيقا » تحليل القياس . ولهم مصطلحات أخرى كانت العرب تستعملها بلفظها اليونانى مثل « أبودقطيقا » وهو « أنالوطيقا » الثانى ومعناه البرهان و « طوبيقا » ومعناه الجدل و « سوفسطيقا » معناه المغالطة أو الحكمة المموهة و « ريطوريقا » معناه الخطابة و « أبوطيقا » ويقال « بوطيقا » معناه الشعر ، والثالوجيا معناه الربوبية .

الاستدراك الثانى

ص ١٠٦

مما يدل على أن ابن المقفع كتب كليلة ودمنة مباشرة ، ولم ينقله عن الفهلوية بل اقتبس بعض الحكايات وألبسها ثوباً عربياً ، وزاد فيها ونقص حتى ما تكاد تعرف — أنك تقرأ حكماً فى كليلة ودمنة أوردها بلفظها أو بمعناها فى بعض رسائله . ويستدل أيضاً على صحة ذلك أن فى كتابه عشرات من ألفاظ إسلامية ، ومصطلحات إسلامية ، ومنازع إسلامية ، مثل قوله بالقضاء والقدر ، وإحالته على الأقدار فى مواضع كثيرة . وقد يضمن معنى الآية أو الحديث أو الحكمة أو البيت من الشعر فى كلامه ، وقد يأخذها برمتها .

يقول صاحب الفهرست إن لكتاب كليلة ودمنة جوامع وانتزاعات عملها جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هارون وسلم صاحب بيت الحكمة والمريد الأسود الذى استدعاه المتوكل فى أيامه من فارس . ولعله يقصد بقوله جوامع وانتزاعات أنهم اختصروه .

الاستدراك الثالث

ص ١١٧

عزا ياقوت فى معجم الأدباء وابن عساكر فى تاريخ دمشق الحكم التى وردت فى الدرة اليتيمة فى باب الصديق لخالد بن صفوان . وهى بهذا النص فى الترجمتين : « ابذل لصديقك مالك ، ولمعرفتك بشرك وتحيتك ، وللعامة رفدك وحسن محضرك ، ولعدوك عدلك ، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد . » وخالد بن صفوان متقدم على ابن المقفع . وذكر هذه الحكم ابن حبان البستى فى كتابه « روضة العقلاء » وأوردها كأنها من كلامه ، والمأمول أن تتجه همة بعض الباحثين فيردوا مثل هذه الحكم إلى قائلها الأول .

الاستدراك الرابع

ص ١٣١

كتب ابن المقفع إلى بعض إخوانه : أما بعد فتعلم العلم ممن هو أعلم به منك ، وعلمه من أنت أعلم به منه ، فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت ، وحفظت ما علمت .

وقال : لا تحدّث من تخاف تكذيبه ، ولا تسأل من تخاف منعه ، ولا تعِد

ما لا تريد إنجازه ، ولا تضمن ما لا تثق بالقدرة عليه ، ولا ترج ما تعنف برجائه ، ولا تقدم على ما تخاف العجز عنه .

وقال لبعض إخوانه : إذا صاحبت ملكاً فاعلم أنهم ينسبونك إلى قلة الوفاء فلا تشعرن قلبك استبطاءه ، فإنه لم يشعر أحد قلبه (شيئاً) إلا ظهر على لسانه إن كان سخيفاً ، وعلى وجهه إن كان حليماً .

الاستدراك الخامس

ص ١٤٣

من أروع الكلام ما ختم به ابن المقفع « الدرة اليتيمة » فى وصف الرجل الكامل فى قوله : « إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس فى عينى ... » . وفى رواية « مفتاح الأفكار » زيادة على روايتنا جاءت بعد : « ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يقدم إلا على ثقة بمنفعة الخ » . وروايته فى آخر الجملة « ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته » وروايتنا « بشىء من اهتمامه بحيلته وقوته » والرواية الأولى أصرح .

وقد أورد الرضى فى نهج البلاغة هذا الوصف ، ونسبه إلى أمير المؤمنين على ابن أبى طالب بتحريف وزيادة ، والزيادة قوله : « وكان يفعل ما يقول ولا يقول ما لا يفعل ، وكان إن غلب على الكلام لم يغلب على السكوت ، وكان على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلم ؛ وكان إذا بدهه أمران نظر أيهما أقرب إلى الهوى فخالفه » . وهذه المعانى ، وردت فى مكان آخر من كلام ابن المقفع . وأورد ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » وصف الرجل الكامل مقتضباً من كلام

ابن المقفع ، ونسبه للحسن بن على مع تحريف ، ولكن بألفاظ ابن المقفع ، وأضاف إلى قوله : « وكان إذا غاب على الكلام لم يغلب على السكوت . . . وكان إذا عرض له أمران لا يدرى أيهما أقرب إلى الحق نظر أقربهما من هواه فخالفه » وهذه الجملة وردت فى اليتيمة بحسب روايتنا هكذا « إذا بدهك أمران لا تدرى أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فان أكثر الصواب فى خلاف الهوى » .

ونرجح أن عزو هذا الكلام إلى على بن أبى طالب أو إلى الحسن بن على هو من فعل من أضافوا على كلام أمير المؤمنين ما ليس منه سامحهم الله . فان نص عبارة ابن المقفع معلنة عن نفسها بأنه عرف رجلاً هذه صفاته الحسنة فوصفه ، ولا يعقل أن يأخذ كلاماً لغيره و يستحل نسبته إليه خصوص إذا كان من الكلام المأثور المعروف صاحبه ، ثم إن يتيمته اشتهرت قبل أن يؤلف نهج البلاغة بنحو قرنين ونصف . و يؤيد قولنا هذا ظهور التصنع ماثلاً للعيان ، ومن التصنع إدماج سجعات فى هذه الجملة الجميلة حاشا أمير المؤمنين أن يسف فى كلامه إلى مثلها وهو من أكبر الفصحاء بعد صاحب الرسالة عليه السلام .

لا جرم أن نهج البلاغة زيدت فيه زيادات كثيرة بعد عهد الرضى أيضاً ، وهو الذى قال إنه جمعه من كلام على ؛ والحال أن أكثره من كلام فصحاء الشيعة وغيرهم بدليل الاختلاف العظيم فى نسخه ، وقد اعترف ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة بأن ماعزى إلى أمير المؤمنين هو من كلام غيره من الحكماء ، لكنه « كالنظير لكلامه والمضارع لحكمته ! » قال : « و إن الغرض بالكتاب الأدب والحكمة ، فاذا وجد ما يناسب كلامه ذكره على قاعدته فى ذكر النظير . ! » وأن الرضى قال : « إن روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً » .

إذا عرفنا هذا ساغ لنا أن نقول إن صفة الرجل الكامل الذى عرفه ابن المقفع قد استحسنها بعض المتأخرين فأدمجوها فى الكتاب الذى كسروه على كلام الخليفة الرابع ، وقد وقعت لصاحب النهج بعض حكم جوز ضمها إلى كلام أمير المؤمنين ، وهى أشبه بأن تكون لغيره ، ومن ذلك ما نسبه لعلى وهو لابن المقفع « المؤمن ثلاث ساعات فساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يرم فيها معايشه ، وساعة يخلى بين نفسه و بين لذتها مما يحل و يجمل ، وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلا فى ثلاث : مرمة لمعاش ، أو خطوة فى معاد ، أو لذة فى غير محرم » فإن هذه الحكمة وردت فى الأدب الصغير لابن المقفع (ص ١١٩ من أمراء البيان) وعلى صورة أجمع وأمتع .

الاستدراك السادس

ص ٢٣٩

كتب أحمد بن يوسف : لولا حسن الظن بك ، أعزك الله ، لكان فى إغضائك عنى ما يقبضنى عن الطلبة إليك ، ولكن أمسك برمق من الرجاء على برأيك فى رعاية الحق ، و بسط يدك إلى الذى لو قبضتها عنه ، لم يكن له إلا كرمك مذكراً وسؤددك شافعاً .

وكتب : الكريم أوسع ما تكون مغفرته ، إذا ضاقت بالمذنب معذرته .

الاستدراك السابع

ص ٢٦٨

كتب إبراهيم بن العباس : المودة تجمعنا محبتها ، والصناعة تؤلفنا أسبابها ، وما بين ذلك من تراخ فى لقاء ، أو تخلف فى مكاتبة ، موضوع بيننا يوجب العذر فيه .

الاستدراك الثامن

ص ٢٨٣

لما وثب إبراهيم بن المهدى على الخلافة ، اقترض من مياسير التجار مالاً فأخذ من عبد الملك الزيات أبى محمد بن عبد الملك عشرة آلاف دينار ، وقال : أردها إذا جاءنى مال ، ولم يتم أمره واستخفى ثم ظهر ، فطوالب بالأموال فقال : إنى أخذتها للمسلمين ، وأردت أن أقضيها من أموالهم ، والأمر إلى غيرى ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة يخاطب بها المأمون ، ومضى إلى إبراهيم بن المهدى فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطنى المال الذى اقترضته من أبى لأوصلن هذه القصيدة للمأمون . فهاب إبراهيم أن يقرأ المأمون مثلها وقال : خذ منى بعض المال ونَجِّم بعضه ففعل ، وأحلفه أن لا يظهر القصيدة فى حياة المأمون ، ووفى له بباقى المال . ولذلك كان إبراهيم بن المهدى يشنأ محمد بن عبد الملك ، فلما ولى وزارة المعتصم قال إبراهيم :

يا بؤس يوم كاسف إن لم يُغَيِّر فى غده
لأمـــة وزيرها عاصر زيت بيده
يظهر نصحاً وجهه وغشه فى كبده

الاستدراك التاسع

ص ٣٦٠

يقول ابن أبى الحديد اتفق شيوخنا (أى المعتزلة) كافة رحمهم الله ، المتقدمون منهم والمتأخرون ، والبصريون والبغداديون ، على أن بيعة أبى بكر الصديق بيعة صحيحة شرعية ، وأنها لم تكن عن نص ، و إنما كانت بالاختيار الذى ثبت بالإجماع و بغير الإجماع كونه طريقاً إلى الإمامة ، واختلفوا فى التفضيل فقال قدماء البصريين كأبى عثمان عمرو بن عبيد ، وأبى إسحق إبراهيم بن سيار النظام وأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبى معن ثمامة بن أشرس ، وأبى محمد هشام ابن عمر الفوطى ، وأبى يعقوب يوسف بن عبد الله الشحام ، وجماعة غيرهم أن أبا بكر أفضل من على عليه السلام . وهؤلاء يجعلون ترتيب الأربعة فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة .

الاستدراك العاشر

ص ٤٧٨

قال الجاحظ : إن العرب تمدح الشىء وتذمه ، لكنهم لا يمدحون الشىء من الوجه الذى يذمونه به من جنس فصاحتهم .

قال المأمون ما هجى إبراهيم بن المهدى ، فيما ادعاه ، على كثرة هجائه بأشد من قول الجاحظ فيه : « هو خليفة إذا خطب رأى آخر عمله » أى أن مملكته من الصغر بحيث لا تتجاوز رقعتها مدى صوت الخطيب ونظره .

أتى أبو العيناء الجاحظ يسأله فى رجل أن يكتب له كتاب عناية إلى صاحب البصرة ، فقال : نعم ، لا تنصرف إلا به ، وكتب له الجاحظ الكتاب وختمه ،

ودفعه إليه ، فأتى إلى أبى العيناء بالكتاب فقال : أفضضه واقرأه عَلَيّ لأرى ما كتب وأعيده إليه ليختمه ، ففتحه فإذا فيه : « كتابى إليك سألنى فيه من أخافه لمن لا أعرفه ، فافعل فى أمره ما تراه والسلام » . فغضب ونهض إلى الجاحظ ، فقال : أعرفك باعتنائى بهذا الرجل فتكتب له مثل هذا . فقال : لا تنكر ذلك فإنها أمارة بينى و بينه ، إذا عنيت برجل . فقال : بل أنت ولد زنا لم تكن قط لرشْدة . قال : أتشتمنى . قال : لأنها أمارة لى عند الثناء على إنسان .

قال الجاحظ : فى الخصى عشرة أحوال متضادة ، لم يخرج من ظهره مؤمن ، ولا خرج من ظهر مؤمن ، وهو أكثر الناس غيرة ، وأشدهم قيادة ، وهو أضعف الناس معدة ، وأشرههم على طعام ، وهو أسوأ الناس أدباً ، وهو يعلم الأدب ، وهو أغزر الناس دمعة ، وأقساهم قلباً ، وما خلا قط مع امرأة إلا حدثته نفسه أنه رجل ، ولا خلا مع رجل إلا حدثته نفسه أنه امرأة .

فهرس الجزء الثانى

	صفحة
عمرو بن بحر الجاحظ ...	٣١١
عصره	٣١١
نشأته ونعمته	٣١٥
مذهبه وأخلاقه	٣٢٢
أدبه	٣٢٥
بلاغته	٣٤٠
جدله ونقده	٣٥٣
فنه	٣٧٤
علمه وبحثه	٣٩٠
كتبه ورسائله	٤١٩
سياسته ودهاؤه	٤٤٣
تهكمه وتنادره	٤٥٣
نماذج من رقاعه وكلماته ...	٤٦٨

	صفحة
خلوده ومجده	٤٧٨
أبو حيان التوحيدى	٤٨٨
عصره	٤٨٨
نشأته وأعماله	٤٩٢
تشاؤمه وتفننه	٤٩٩
نموذجات من كتبه ...	٥٠٦
فذلكة فى حياة التوحيدى	٥٤٠
ابن العميد	٥٤٦
عصره	٥٤٦
أوليته وسيرته	٥٤٩
أدبه وعلمه	٥٥٦
نموذجات من كتابته ...	٥٦٠
المستدركات	٥٧١

DATE DUE
JUN 1 1 2010
GAYLORD
PRINTED IN U.S.A.

893.79 K965
2 v. in 1

AUG 19 1954

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58871152
893.79 K965 Umara al-bayan /
RECAP